تفسير

المحيط الأعظم والبحر الخضم

في تأويل كتاب الله العزيز المحكم

لمؤلفه العارف الكامل والولي الواصل مولانا

السيد حيدر الآملي

المتولد والمتوفى في القرن الثامن

الجزء الثاني

حققه وقدم له وعلق عليه

السيد محسن الموسوي التبريزي

فهرس مواضيع الكتاب

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

المقدّمة الثالثة:

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

المقدّمة الرّابعة:

الموضوع الصفحة


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المقدّمة الثانية

في بيان كتاب الله الآفاقي التفصيلي وتطبيقه بالكتاب الأنفسي الإجمالي وتطبيقهما بالكتاب القرآني الجمعي

إعلم أيّها الطالب كحّل الله عين بصيرتك بنور الهداية والتوفيق وأرشدك إلى طريق التأويل وسبيل التحقيق، أنّ كتاب الله ليس مخصوصاً بالقرآن فقط، ولا بالتّوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السّماويّة، وأنّ آياته ليست منحصرة في آيات القرآن ولا غيره من الكتب، ولا كلماته في كلماته، ولا حروفه في حروفه، بل العالم المسمّى بالآفاق كلّه كتاب الله مشتمل على آياته وكلماته وحروفه، وهو الكتاب الكبير الإلهيّ، والإنسان المسمّى بالأنفس، وهو أيضاً كتاب جامع إلهيّ مشتمل على آياته وكلماته وحروفه، وهو الكتاب الصّغير الإلهيّ، ويسمّى الأوّل بالإنسان الكبير، والثّاني بالإنسان الصّغير، لقولهم: العالم إنسان كبير، والإنسان عالم صغير، وإليهما أشار الحقّ تعالى بقوله:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ أوَ لمْ يكف بربّك أنّه على كلّ شيءٍ شهيد * ألا إنّهم في مرية من لقاء ربّهم ألا إنّه بكلّ شيءٍ محيط﴾ [سورة فصّلت: ٥٣ ـ ٥٤].

(في جامعيّة القرآن للإنسان والعالم)

وأمّا القرآن، فصورة تفصيلها وإجمالها، والجامع بينهما صورة ومعنىً، ولجامعيّته سمّي بالقرآن كما مرّ تقريره في المقدّمة الأولىٰ إجمالاً وكما سنبيّنه تفصيلاً إن شاء الله، والدّليل على أنّ الآفاق والأنفس كتابان مشتملان على آيات الله وكلماته وحروفه،

كثير، وسنشير إلى أكثرها، لأنّا في صدد إثبات هذا، لكن أعظم الدّليل وأجلّه وهو الّذي شهد الله تعالى جلّ ذكره بإشتمالها على الآيات والكلمات والحروف، وشهد بأنّ مطالعتها موجب لمشاهدته ومشاهدة أنوار وجهه الكريم.

(في بيان المراد من الكتاب)

ومعلوم أنّ الآيات لا تنسب إلّا إلى الكتاب لأنّ الكتاب عبارة عن صورة جامعة مشتملة على آيات وكلمات وحروف، لأنّ الآيات لاتطلق إلّا على هيئة جامعة من الكلمات كما أنّ الكلمات لا تطلق إلّا على هيئة جامعة من الحروف، فالكتاب المشتمل على الآيات يكون مشتملاً على الكلمات والحروف وبناء على هذا يكون العالم كتاباً كبيراً مشتملاً على هذه الثّلاث وكذلك الإنسان الّذي هو الكتاب الصّغير، وبالحقيقة إليهما أشار الحقّ أيضاً في قوله:

﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدىٰ منهما أتّبعه إن كنتم صادقين﴾ [سورة القصص: ٤٩].

(في انّ هداية الكتابين اهدى هداية الكتب)

لأنّه ليس هناك كتاب أهدى من هذين الكتابين إليه تعالىٰ وإن كان كلّ كتاب هادي إليه، لأنّ كلّ هداية لم تكن هادية إلى مشاهدته في مظاهره الآفاقيّة والأنفسيّة المعبّرة بالآيات كما أشار إليها هو بنفسه لم يكن هداية وقد سبق بيان الهداية وأقسامها إجمالاً وتفصيلاً، وبيان أنّ نهايتها وغايتها مشاهدته في مظاهره الآفاقيّة والأنفسيّة.

(في انّ كلمات الكتابين غير قابلة الإنتهاء والإنقطاع)

وسيجيء البسط في ذلك إن شاء الله، وإلى كلمات هذين الكتابين وآياتهما المركّبة عنها الغير القابلة للإنتهاء والإنقطاع أشار بقوله:

﴿قُل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مداداً﴾ [سورة الكهف: ١٠٩].

وبقوله:

﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إنّ الله عزيز حكيم﴾ [سورة لقمان: ٢٧].

لأنّ هذا لو كان إشارة إلى كلمات القرآن أو التوراة والإنجيل وغير ذلك من الكتب بزعم المفسّرين لم يقل في أوصافها هذا، ولا بالغ في كثرتها هذه المبالغة، لأنّ كلمات القرآن، أو كلمات أيّ كتاب من كتب الله المنزّلة يفرض، تنفد بأوقية من المداد أو أكثر أو أقلّ، وأمّا كلمات هذين الكتابين الّتي هي عبارة عن حقايق الموجودات وماهيّاتها وأعيانها، أو المركبّات الخارجيّة منها، روحانيّة كانت أو جسمانيّة، فإنّه لا يمكن انفادها وانتهاءها لأنّها غير متناهية باتفاق المحققين كما سبق ذكرها أيضاً، وسيجيء بيانها في المقدّمة الرّابعة مبسوطاً، لأنّا قد بيّنّا عند تعريف التّأويل وكيفيّة قراءة هذه الكتب، أنّ حروف الكتاب الآفاقي هي مفردات العالم بأسرها وهي بمثابة مفردات الحروف وبسايطها، وأنّ كلماته مركّبات العالم بأجمعها وهي بمثابة كلمات القرآن ومركبّاته، وأنّ آياته كليّات العالم على حسب طبقاتها وهي بمثابة آيات القرآن وكليّاته، وبيّنّا أنّ الإنسان صورة اجمال هذا الكتاب وتفصيله، ومفردات نفسه وبسايطه بمثابة مفردات العالم، وبسايطه ومركباته بمثابة كلماته، وكليّاته بمثابة آياته حذو النعل بالنعل والقذة بالقذ، كما عرفته مفصّلاً في صورة الدائرة، وقبل الدائرة، وكما ستعرفه في هذه المقدّمة، وبيّنّا أنّ القرآن صورة تفصيل هذين الكتابين واجمالها صورةً ومعنىً فحينئذٍ كما يصدق على القرآن أنّه كتاب إلهيّ ومصحف ربّانيّ يصدق على الآفاق المسمّى بالعالم انّه كتاب إلهي ومصحف ربّانيّ، وكذلك على الإنسان المعبر عنه بالأنفس لأنّه أيضاً كتاب إلهي ومصحف ربّانيّ، وهذا هو المطلوب من هذا البحث.

وإذا تقرّر هذا.

(اختلاف الأقوال في المراد من الكتاب)

فاعلم أنّ ذلك لو لم يكن كذلك أي لو لم يكن لفظ الكتاب محتملاً لهذه المعاني كلّها وقابلاً لهذه الوجوه بأسرها ما اختلف العلماء وأرباب التفسير والتأويل في تعيين الكتاب وتحقيقه عند قوله:

﴿كان ذٰلك في الكتاب مسطوراً﴾ [سورة الأسراء: ٥٨].

وعند قوله:

﴿ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين﴾ [سورة الأنعام: ٥٩].

وعند قوله:

﴿والطّور * وكتاب مسطور * في رقّ منشور﴾ [سورة الطّور: ١ ـ ٣].

وسيّما في قوله:

﴿الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتّقين﴾ [سورة البقرة: ١ ـ ٢].

فإنّ أرباب التّفسير قد اختلفوا فيه اختلافاً شديداً، فانّ بعضهم قال: المراد به القرآن، وبعضهم قال: إنّه الكتاب الموعود في التّوراة والإنجيل، وبعضهم قال: إنّه اللوح المحفوظ، وبعضهم قال: إنّه القرآن النازل على السّماء الرّابعة مجملاً وعلى قلب محمّد مفصّلاً، وأمثال ذلك، كقول جار الله الزّمخشري في الكشّاف الّذي هو أعظم المفسّرين، فانّه قال:

إن جعلت «الم» إسماً للسورة، ففي التّأليف وجوه: وهو أنّه يكون «الم» مبتدأ، و «ذلك» مبتدأً ثانياً، و«الكتاب» خبره، والجملة خبر المبتدأ الأوّل، ومعناه: أنّ ذلك هو الكتاب الكامل، كأنّ ماعداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنّه يستأهل أن يسمّىٰ كتاباً كما تقول: هو الرّجل أي الكامل في الرّجوليّة الجامع لما يكون في الرّجال من خيار الخصال[1].

(١) قوله: كقول جار الله الزمخشري.

راجع تفسير الكشّاف للزمخشري ج ١، ص ٣٣.

وكقول فخر الدّين الرّازي في مفاتيح الغيب[٢]، فانّه قال فيه وجوه: منها، قوله: لقائل أن يقول: المشار إليه (هٰهنا) حاضر و «ذلك» إسم مبهم يشار به إلى البعيد. والجواب عنه من وجهين:

الأوّل، لا نسلّم أنّ المشار إليه حاضر، وبيانه من وجوه:

الأوّل، قال الأصم: أنّ الله تعالىٰ أنزل الكتاب بعضه بعد بعض فنزل قبل سورة البقرة سور كثيرة بمكّة ممّا كان فيه دلالة على التّوحيد وفساد الشّرك وإثبات النبوّة والمعاد، فقوله: «ذلك»، إشارة إلى تلك السّور الّتي نزلت قبل هذه السّورة، وقد يسمّى بعض القرآن قرآناً، قال تعالىٰ:

﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٤].

وقال حاكياً عن الجنّ:

﴿إنّا سمعنا قرآناً عجباً﴾ [سورة الجنّ: ١].

ولم يسمعوا كلّ القرآن بل بعضه.

الثّاني، أنّ الله وعد رسوله عند مبعثه أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الباطل ولا الماء[٣]، وأخبر امّته بذلك وروت الأمّة عنه ذلك، ويؤكّده قوله تعالى:

﴿إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ [سورة المزمل: ٥].

وهي نزلت في ابتداء المبعث.

والثّالث أنّه تعالىٰ خاطب بني إسرائيل، وسورة البقرة مدنيّة وأكثرها احتجاج على اليهود وعلى بني إسرائيل لأنّ موسىٰ وعيسىٰ عليهما السّلام بشّرا بقدوم النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وانّ الله ينزل عليه كتاباً فقال تعالىٰ:

---

(٢) قوله: كقول فخر الدّين الرّازي.

راجع التفسير الكبير للفخر الرّازي ج ٢، ص ١٢.

(٣) قوله: لايمحوه الباطل ولا الماء.

العبارة في المصدر كما يلي: أن ينزل عليه كتاباً لايمحوه الماحي.

﴿ذلك الكتاب﴾ (أي) الّذي أخبر الله على لسان موسىٰ وعيسىٰ أنّه ينزل على ولد إسماعيل، المرسل المبعوث من العرب، هو هذا الكتاب.

والرّابع أنّه تعالى لمّا أخبر عن القرآن بأنّه في اللّوح المحفوظ لقوله:

﴿وإنّه في أُمّ الكتاب لدينا لعليّ حكيم﴾ [سورة الزّخرف: ٤].

وقد كان النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أخبر أمّته بذلك، فغير ممتنع أن يقول الله: «ذلك الكتاب» ليعلم أنّ هذا المنزل هو ذلك المثبت في اللوح المحفوظ.

وكقول أمين الدّين الطبرسي من الإماميّة في تفسيره الكبير[٤] فإنّه قال:

مروي عن ابن عباس رضي الله عنه، أنّ الكتاب هو القرآن ويكون ذلك بمعنى هذا، وقيل: هذا مضمر ومعناه هذا ذلك الكتاب الّذي وعد بك يا محمّد في التّوراة والإنجيل ويكون اللّام في الكتاب للعهد لا غير.

وغير هؤلاء الثّلاث من المفسّرين ليس لهم كلام يستحقّ أن يُنقل ويُذكر، وسبب اختلاف هؤلاء، والمفسرين مطلقاً وهو أنّهم ما تحقّقوا معنى «الم» بأنّه اسم للسّورة، أو إسم للكتاب أو قسم أو لعدد السّور، أو إشارة إلى صفات الله تعالى، وما تحقّقوا أيضاً أنّ لفظة «ذلك» إشارة إلى القرآن أو إلى الكتاب الموعود في التّوراة والإنجيل أو إلى اللّوح المحفوظ، أو إلى كتاب آخر غير هذه الكتب، لأنّ لفظة ذلك في الأغلب لا يشار بها إلّا إلى الغائب دون الحاضر ولم يعرفوا أنّ هذا الألف واللّام في الكتاب للجنس أو للعهد أو للإستغراق أو للحصر، أو غير ذلك، والحقّ أنّ هذه الوجوه كلّها ليست مشبعة ولا معطية حقّ المراد مع أنّها أحسن الوجوه وأشرفها، والحقّ أنّ تحقيق أمثال ذلك خارج عن طور المفسّرين، لأنّهم من الّذين يعلمون ظاهر الحياة الدّنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون.

وأمّا أرباب التّأويل فهم أيضاً اختلفوا اختلافاً شديداً، فقال بعضهم: إنّه إشارة إلى

---

(٤) قوله: كقول أمين الدّين الطبرسي.

راجع مجمع البيان في تفسير القرآن ج ١، ص ٣٦، وفيه هكذا: المراد بالكتاب: القرآن، وقال الأخفش: «ذلك» بمعنى هذا، لأنّ الكتاب كان حاضراً.

العقل الأوّل، وبعضهم: إنّه إشارة إلى النّفس الكليّة، وبعضهم: إنّه إشارة إلى اللّوح المحفوظ، وبعضهم: إنّه إشارة إلى لوحي القضاء والقدر، والجفر والجامع، وبعضهم: أنّه إلى الكتاب الكبير الآفاقي، وبعضهم: إنّه إلى الكتاب الصغير الأنفسي وأمثال ذلك ممّا يطول ذكره، وهذه أيضاً ليست بمشبعة وإن كانت دقيقة شريفة إلّا بعضها، وذلك البعض هو ما ذهبنا إليه من الكتاب الآفاقي مع ما في ضمنه من الكتاب الأنفسي، أمّا تفسيره بالعقل أو النّفس فليس بصحيح، لأنّ العقل والنّفس أُمّيا الكتاب لا الكتاب نفسه لقوله تعالىٰ:

﴿يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب﴾ [سورة الرعد: ٣٩].

ولقوله:

﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ [سورة الاسراء: ٥٨].

لأنّه ما أراد بهما إلّا العقل الأوّل، والنّفس الكليّة اللّذان هما صورتا الكتاب إجمالاً وتفصيلاً. لأنّ العقل الأوّل الكتاب الإجمالي الكلّي لثبوت الأشياء فيه مجملاً، والنّفس الكلّية هي الكتاب التفصيلي الجزئي لثبوت الأشياء فيها مفصلاً، كما مرّ ذكره غير مرّة، وعند التّحقيق هذان الكتابان بالنّسبة إلى الكتاب الآفاقي كسورتي البقرة وآل عمران بالنّسبة إلى الكتاب القرآني المسمّاة عند المفسرين بالزهراوين (٥)، واللّوح المحفوظ عند البعض أيضاً عبارة عن النّفس الكليّة، والعقل الأوّل عن القلم لأنّ العقل من حيث فيضانه العلوم والحقايق على النّفس الكليّة صار كالقلم، والنّفس لقابليّتها لها كاللّوح، و:

---

(٥) قوله: المسمّاة عند المفسرين بالزّهراوين.

روى الطبرسي أمين الإسلام في تفسيره مجمع البيان ج ١، ص ٦٩٣ (في سورة آل عمران) عن رسول الله (ص) أنّه قال:

تعلّموا سورة البقرة، وسورة آل عمران فإنّهما الزّهراوان.

وفي مجمع البحرين للطريحي: وفي الخبر: سورة البقرة وآل عمران الزّهراوان، أي المنيرتان، واحدتُها زَهراء، وقال بمثله ابن الأثير في النهاية.

﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ [سورة القلم: ١].

إشارة إليهما، لأن النّون عبارة عن النّفس الكلّية، والقلم عن العقل الأوّل، وقيل: بالعكس ويجوز.

وأمّا تفسيره بلوحي القضاء والقدر فكذلك، لأنّ العقل الأوّل هو لوح القضاء على رأي من قال به لإشتماله على العلم بالحقايق والأعيان إجمالاً، والنفس الكليّة هي لوح القدر لإشتماله على العلم بالموجودات والمخلوقات تفصيلاً، وكذلك الجفر والجامع على من قال به لأنّه فسّر الجفر بلوح القضاء والجامع بلوح القدر وهو مولانا كمال الدّين عبد الرزّاق قدس الله سرّه، فإنّه ذكر في تأويله هذا المعنى بعينه وهو قوله (٦):

«فمعنى الآية: ﴿الۤمۤ (هو) ذلك الكتاب﴾ الموعود، أي صورة الكلّ المومئ إليها بكتاب الجفر والجامعة المشتمل على كل شيء، الموعود بأنّه يكون مع المهدي في آخر الزّمان، لايقرأه كما هو بالحقيقة إلّا هو، والجفر لوح القضاء الّذي هو عقل الكلّ، والجامعة لوح القدر الّذي هو نفس الكلّ، فمعنى كتاب الجفر والجامعة (على هذا هو الكتاب الّذي فيه الجفر والجامعة) المحتويان على (علم) كلّ ما كان ويكون، كقولك: سورة البقرة وسورة النّمل».

﴿لا ريب فيه﴾، عند التّحقيق بأنّه الحقّ، وعلى تقدير القسم (القول) فمعناه بالحقّ الّذي هو الكلّ من حيث هو كلّ (الكلّ) لأنّي (لأنّه) مبين لذلك الكتاب الموعود على ألسنة الأنبياء، وفي كتبهم بانّه سيأتي به (المهدي) كما قال عيسى عليه السّلام:

«نحن نأتيكم بالتنزيل، وأمّا التأويل فسيأتي به الفارقليط (المهدي) في آخر الزّمان» (٧).

---

(٦) قوله: فإنه ذكر في تأويله.

راجع التأويلات (المطبوع باسم ابن عربي سهواً) ج ١، ص ١٤.

(٧) قوله: قال عيسى (ع): نحن نأتيكم بالتنزيل الحديث.

أقول: ذكره ابن أبي جمهور في عوالي اللئالي ج ٤، ص ١٢٤، الحديث ٢٠٩.

←

وحذف جواب القَسَم، لدلالة ذلك الكتاب عليه كما حذف في غير موضع من القرآن، مثل: «والشّمس»، و«النازعات»، وغير ذلك، أو لأني منزل (أي إنّا منزلون) لذلك الكتاب الموعود في التّوراة والإنجيل بأنّه (بأن يكون) مع محمّد، حذف لدلالة قوله: ﴿ذٰلك الكتاب﴾ عليه. أي ذلك الكتاب المعلوم في العلم السّابق الموعود في التّوراة والإنجيل حقّ بحيث لا مجال للرّيب فيه. ﴿هدىً للمتّقين﴾، أي هدىً في نفسه للّذين يتّقون الرّذائل والحجب المانعة لقبول الحقّ».

والمراد من إيراد كلامه بعبارته أنّه فسّر الكتاب بالجفر والجامعة وليس في الواقع كذلك كما ذكرناه وكما سنذكره إن شاء الله. لأنّه يلزم من قوله إنّ الجفر والجامعة من

← وجاء مضمون الحديث أيضاً في إحتجاجات الرّضا (ع) على الجاثليق ورأس الجالوت، رواه الطبرسي في الإحتجاج ج ٢، ص ١٩٩ والخبر طويل وفيه:

قال الرّضا عليه السّلام:

وفي الإنجيل مكتوب: «أنّ ابن البرّة ذاهب والفارقليطا جائي من بعدي، هو يخفّف الآصار، ويفسّر لكم كلّ شيء، ويشهد لي كما شهدت له، أنا جئتكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل».

ولعلّ ممّا يفيد ذكره هنا نقل ماذكره الراوندي في كتابه «الخرائج والجرائح» ج ١، ص ٧٦ نقلاً عن الإنجيل، ونقل عنه المجلسي (ره) في بحار الأنوار ج ١٥، ص ٢١٠، فهو هذا، (تلخيصاً منّا):

قال المسيح للحواريّين: أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح (بروح) الحقّ الّذي لايتكلّم من قبل نفسه.

وفي حكاية يوحنّا عن المسيح قال: الفارقليط لايجيئكم مالم أذهب، فإذا جاء وبخّ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنّه يكلّمكم ممّا يسمع، وسيؤتيكم بالحقّ، ويخبركم بالحوادث والغيوب.

وقال في حكاية أخرى: الفارقليط روح الحقّ الّذي يرسله باسمي، هو يعلّمكم كلّ شيء.

وقال في حكاية أخرى: إبن البشر ذاهب، والفارقليط يأتي بعده، يحيي لكم الأسرار، ويفسّر لكم كلّ شيء، وهو يشهد لي كما شهدت له، فإنّي أجيئكم بالأمثال وهو يجيئكم بالتأويل.

الكتاب، لا الكتاب، وسبب اختلاف هؤلاء أيضاً في تعيين الكتاب وتحقيقه ليس إلّا الإشارات الإلٰهيّة والمخاطبات الرّبانيّة في كتابه القرآني بالنّسبة إلى الأنبياء والأولياء عليهم السّلام كقوله في حقّ يحيىٰ عليه السّلام.

﴿يا يحيىٰ خُذ الكتاب بقوّة وآتيناه الحكم صبيّاً﴾ [سورة مريم: ١٢].

وكقوله في حقّ عيسى عليه السّلام:

﴿قال إنّي عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً﴾ [سورة مريم: ٣٠].

وكقوله في حق آصف عليه السّلام:

﴿قال الّذي عنده علم من الكتاب﴾ [سورة النمل: ٤٠].

وكقوله في حقّ عليّ عليه السّلام:

﴿قل كفىٰ بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ [سورة الرّعد: ٤٣].

لأنّ هذه الإشارات شواهد ودلالات على أنّ هذه الكتب غير الكتب المذكورة من القرآن والتّوراة والإنجيل وأمثالها، فإنّ في زمن يحيى وعيسى عليهما السّلام لم تكن التّوراة والإنجيل، موجودان خصوصاً بالنّسبة إليهما لأنّهما كانا صبيان طفلان كما أخبر عنهما القرآن، وكذلك آصف فإنّه أيضاً لم يكن صاحب كتاب معيّن، وكذلك أمير المؤمنين فإنّ في زمانه لم يكن القرآن كتاباً موجوداً في الخارج حتّى يشير إليه بأنّه كتاب لأنّ القرآن بعد وفاة النّبي صلّى الله عليه وآله صار كتاباً مجموعاً بقول من قال: جمعه عليّ عليه السّلام، أو بقول من قال: جمعه عثمان، أو ابن مسعود وعلى جميع التّقادير ليس المراد به القرآن ولا غيره من الكتب السّماويّة بل المراد به الكتاب الآفاقي الشّامل للكلّ أو الكتاب العقلي المسمّى بامّ الكتاب على تقدير الجواز، ومعلوم أنّه لو كان المراد بالكتاب الّذي نسب إلى يحيى أو إلى عيسى عليهما السّلام التّوراة أو الإنجيل ما قال تعالى في حقّ عيسى:

﴿ويُعلّمه الكتاب والحكمة والتّوراة والإنجيل * ورسولاً إلىٰ بني إسرائيل﴾ [سورة آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩].

وما عطف التّوراة والإنجيل على الكتاب والحكمة والعطف شاهد بالمغايرة.

وقول صاحب التّأويل الّذي هو أحسن الأقوال يشهد بذلك وإن لم يكن مراده

ذلك لأنّه إذا فسّر الكتاب بصورة الكلّ والكلّ بكتاب الجفر والجامعة أو الكتاب الّذي فيه الجفر والجامعة، لو قال الجفر عبارة عن الكتاب الكبير الآفاقي، والجامعة عن الكتاب الصّغير الأنفسي كان أحسن وألطف وإلى طريق أهل الحق أقرب، والكتابان كانا داخلان تحتها، لأنّه إذا قال صورة الكلّ المؤما إليه بكتاب الجفر والجامعة وقال: فمعنى كتاب الجفر والجامعة على هذا هو الكتاب الّذي فيه الجفر والجامعة المحتويان على علم كلّ ما كان ويكون، لم يكن يحتاج إلى تعيين آخر. فإن قوله: صورة الكلّ يقوم بجواب الكلّ، والمعنى مطابق وليس فيه الخلاف، لأنّه بعد ذلك كلّه أوّل الجفر بالعقل الأوّل والجامعة بالنّفس الكليّة، والعقل والنّفس جزآن من أجزاء الكلّ المعبّر عنه بالعالم وسورتان من سور كتاب الله الآفاقي كما قال هو، وعبّر عنهما بالبقرة والنمل، فتعبيره على هذا بالكتاب الكبير الآفاقي كان أنسب، وقوله في تأويل سورة الطور[8] يعضد ذلك كلّه ويصدّق قولنا المجموع ويناقض قوله هذا لأنّه قال:

﴿والطّور * وكتابٍ مسطور﴾ [سورة الطّور: ١ ـ ٢].

الطّور هو الجبل الّذي كلّم عليه موسى وهو الدماغ الإنساني الّذي هو مظهر العقل والنّطق، أقسم به لشرفه وكرامته، ولكون الفلك الأعظم الّذي هو محدّد الجهات بالنّسبة إلى العالم بمثابة الدماغ بالنّسبة إلى الإنسان، يمكن أن يكون إشارة إليه، وأقسم به لشرفه وكونه مظهر الأمر الإلهي ومحلّ القضاء الأزلي.

«والكتاب المسطور» هو صورة الكلّ على ما هو عليه من النّظام المعلوم المنتقش في لوح القضاء الّذي هو الرّوح الأعظم، المشابه إليه ههنا بالرقّ المنشور وتنكيرها للتعظيم.

﴿والبيت المعمور﴾ هو قلب العالم أي النّفس الناطقة الكلّيّة وهو لوح القدر، وعمرانه إطاقة الملكوت به.

---

(٨) قوله: وقوله في تأويل سورة الطور.

القائل هو كمال الدّين عبدالرّزّاق القاساني في كتابه التأويلات ج ٢، ص ٥٤٧ الذي طبع بعنوان تفسير القرآن الكريم للشيخ الأكبر سهواً.

﴿والسّقف المرفوع﴾ هو السّماء الدّنيا الّتي تنزل الصّور والأحكام من لوح القدر الّذي هو اللّوح المحفوظ إليه، ثمّ تظهر في عالم الشّهادة بحلولها في المراد وهو لوح المحو والإثبات بمثابة محلّ الجنان في الإنسان.

﴿والبحر المسجور﴾ هو الهيولى المملوءة بالصّور الّتي تظهر عليها جميع ما أثبت في الألواح المذكورة.

﴿إنّ عذابَ ربّك لواقع﴾ بظهور القيامة الصغرىٰ، وعلى التأويل الأوّل وهو تأويل الطور بالدماغ يكون الكتاب المسطور إشارة إلى المعلومات المركوزة في الرّوح الإنساني المسمّاة بالعقل القرآني، والرّوح هو الرّق المنشور، ونشوره ظهوره وانبثاثه في البدن، والبيت المعمور هو القلب الإنساني، والسّقف المرفوع هو مصعد الخيال المنتقش بالصّور الجزئية، والبحر المسجور هو مادة البدن المملوءة بالصّورة والله أعلم وأحكم.

(تحقيق الأقوال في تطبيق الكتب)

والمراد من إيراد هذا الكلام صورتان: الأولى، قوله: والكتاب المسطور هو صورة الكلّ على ما هو عليه من النّظام المعلوم. والثّانية، تطبيقه الكتاب الآفاقي بالكتاب الأنفسي، لأنّ الصّورتين هما مطابقان لدعوانا في هذا الباب.

وبالجملة تأويل الكتاب بالكتاب الكبير الآفاقي أنسب من تأويله بالجفر والجامعة الدّاخلتين فيه صورة ومعنىً. وقد ذهب إلى هذا أكثر المشايخ من أرباب التّوحيد ومن جملتهم الشيخ الأعظم محيي الدّين ابن عربي قدّس الله سرّه، لأنّه كتب في هذا كتاباً وسمّاه بالتدبيرات الإلهيّة في اصلاح المملكة الإنسانية[9]، وطابق فيه الكتاب

---

(٩) قوله: وسمّاه بالتدبيرات الإلهيّة في إصطلاح المملكة الإنسانيّة.

والجدير بالذكر أنّ هذا الكتاب طبع في مدينة لَيْدَن في عام ألف وثلاثمائة وستة وثلاثين من الهجرة النبويّة، وطبع معه أيضاً كتاب إنشاء الدّوائر وكتاب عقلة المستوفر، وهما أيضاً للشيخ الأكبر.

الكبير الآفاقي بالكتاب الصّغير الأنفسي تطابقاً تفصيليّاً بحيث وصل إلى المواليد الثّلاثة والحشرات الأرضيّة كما سنشير إليه في آخر هذا البحث إن شاء الله.

وقد ذكر في الفتوحات المكيّة هذا المعنى بعينه وهو قوله في تفسير البسملة والفاتحة: **فالعالم** حروف مخطوطة مرقومة في رقّ الوجود المنشور ولاتزال الكتابة فيه دائمة أبداً.

واستشهد فيه قوله تعالى:

﴿والطّور وكتاب مسطور في رقّ منشور﴾ [سورة الطّور: ٢].

والحقّ في هذا المقام عندي وهو أنّ الطّور هو العقل الأوّل لعلوّ شأنه وعظيم منزلته عند الله، والكتاب المسطور: الوجود المطلق المحض مع ما عليه من المقيّدات المسطورة المرقومة بالإضافة والنّسبة، والرقّ المنشور هو العالم الجسماني من العرش إلى الفرش وما عليه من السّطور والخطوط المسمّاة بالموجودات البسيطة والمركبة، والبيت المعمور هو قلب الإنسان الكبير المشار بالنّفس النّاطقة الكلّيّة الآفاقيّة من حيث الحقيقة والمعنى، ومن حيث الصّورة والمجاز أعني الظّاهر الفلك الرّابع الّذي هو البيت المعمور الصّوريّ، الوارد في الشّرع أنّه في السّماء الرّابعة، والسّقف المرفوع عن العرش، والعرش: صورةً هو الفلك الأعظم المحيط المعبّر عنه بالمحدّد للجهات، ومعنىً هو الرّوح الأعظم الكلّي الظّاهر آثاره وأفعاله في هذا العرش كآثار النّفس الكلّية في الكرسيّ المعبّر عنه بالفلك الثّامن الّذي هو فلك الثّوابت والبروج، وعلّة نسبة الكتاب بالوجود المطلق وتجرّده عن جميع الإعتبارات كاللّوح السّاذج مثلاً عن الخطوط أو الأوراق الخالية عن الرّقوم وعليه نسبة المسطور عليه بالمقيّدات قيام المقيّد بالمطلق وبقاؤه به كقيام الكتابة بالأوراق والألواح وقيامها بها، وعليه نسبة الرّق المنشور بالجسم الكلّ وما عليه من الموجودات الممكنة لسذاجته ولطافته حين الخلوّ عن الصّور كالهيولى المطلقة مثلاً حين خلوّها عن الصّور القائمة بها والباقي ظاهر.

ومن جملتهم الشيخ الكامل شهاب الدّين الوركانيّ قدّس الله سرّه فانّه كتب في ذلك كتاباً معتبراً وهو سبعون مجلداً وطابق الكتاب الكبير الآفاقي بالكتاب الصّغير الأنفسي إجمالاً وتفصيلاً، ومن جملة ما ذكر فيه بالفارسيّة وهو أنّه قال: الكتاب

الكبير الآفاقي كان كبيراً عريضاً وسيعاً، والحقّ تعالى جلّ ذكره كان عالماً بعجزنا عن مطالعته وضعفنا عن مشاهدته على ما هو عليه من عظم حجمه وطول أوراقه وكثرة خطوطه وعرض سطوره فأخذ منه نسخة مختصرة وأنموذجاً مطابقاً وسمّاه بالكتاب الصّغير ودلّنا عليه بقوله:

﴿إقرأ كتابك كفىٰ بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [سورة الاسراء: ١٤].

حتّى نقرأه ونستدلّ به على قراءة ذلك الكتاب ومطالعته ويحصل لنا بواسطته مشاهدة الحقّ ومعاينة ذاته وصفاته وأفعاله على ما ينبغي، لقوله جلّ ذكره:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ﴾ [سورة فصّلت: ٥٣].

وقد سبق غير مرّة كيفيّة مطالعة هذين الكتابين ومشاهدة الحقّ فيهما صورة ومعنىً وسنبّيه أيضاً إن شاء الله. ومنهم الشيخ العارف عزيزالدّين النسفي البخاري قدّس الله سرّه، فإنّه أيضاً كتب في هذا المعنى رسالة وطابق كلّ واحد من الكتابين ومشاهدة الحقّ فيهما صورة ومعنىً، وسنبيّنه أيضاً إن شاء الله. ومنهم الشيخ الكامل المحقق أفضل الدّين الكاشي رحمة الله عليه. ومنهم نجم الدّين داية الرّازي صاحب التأويل رحمة الله عليه.

ومنهم الشّيخ الكامل سعدالدّين الحموي قدّس الله سرّه، ومنهم الشّيخ العارف شرف الدّين القيصري قدّس الله سرّه، فإنه كتب في أوّل شرحه للفصوص فصولاً وخصّ بهذا المعنى فصلاً مفرداً وهو قوله(١٠):

(في معنى العالم ومصاديقه)

«إعلم أنّ العالم لكونه مأخوذاً من العلامة لغة، عبارة عمّا يُعلم به الشّيء واصطلاحاً عن كلّ ما سوى الله تعالىٰ لأنّه يُعلم به الله من حيث أسمائه وصفاته، إذ

(١٠) قوله: وخصّ بهذا المعنى فصلاً.

راجع شرح الفصوص للقيصري، الفصل الخامس من المقدّمة ص ٢٧.

لكلّ فرد من أفراد العالم يُعلم إسم من الأسماء الإلهيّة لأنّه مظهر اسم خاصّ منها، فبالأجناس والأنواع الحقيقيّة تُعلم الأسماء الكلّية حتّى تُعلم بالحيوانات المستحقرة عند العوام كالذّباب والبراغيث والبقّ وغير ذلك أسماء هي مظاهر لها. فالعقل الأوّل لإشتماله على جميع كليات حقايق العالم وصورها على طريق الإجمال عالم كلّي يعلم به الإسم الرّحمن والنّفس الكلّيّة لإشتمالها على جميع جزئيّات ما اشتمل عليه العقل الأوّل تفصيلاً أيضاً عالم كلّي يُعلم به الإسم الرّحيم.

والإنسان الكامل الجامع لجميعها إجمالاً في مرتبة روحه وتفصيلاً في مرتبة قلبه عالم كلّي يعلم به الإسم الله الجامع للأسماء.

وإذا كان كلّ فرد من أفراد العالم علامة لإسم إلهي، وكلّ إسم لإشتماله بالذّات الجامعة لأسمائها مشتمل عليها كان كلّ فرد من أفراد العالم أيضاً عالماً يُعلم به جميع الأسماء. فالعالم غير متناه (فالعوالم غير متناهية) من هذا الوجه، لكن لمّا كانت الحضرات الإلهيّة الكلّيّة خمسة (خمساً) صارت العوالم الكلّية الجامعة لماعداها أيضاً كذلك.

(في بيان الحضرات الخمسة)

وأوّل الحضرات الكلّيّة حضرة الغيب المطلق وعالمها عالم الأعيان الثابتة في الحضرة العلميّة وفي مقابلتها حضرة الشّهادة المطلقة وعالمها عالم الملك، وحضرة الغيب المضاف وهي تنقسم إلى ما يكون أقرب من الغيب المطلق وعالمه عالم الأرواح الجبروتيّة والملكوتيّة، أعني عالم العقول والنّفوس المجردة، وإلى مايكون أقرب من الشّهادة المطلقة وعالمه عالم المثال. وإنّما انقسم الغيب المضاف إلى القسمين لأنّ للأرواح صوراً (مثاليّة) مناسبة لعالم الشّهادة المطلقة، وصوراً عقليّة مجردةً مناسبة للغيب المطلق، والخامسة الحضرة الجامعة للأربعة المذكورة وعالمها العالم الإنساني الجامع لجميع العوالم وما فيها. فعالم المُلك مظهر عالم الملكوت وهو العالم المثالي المطلق، وهو مظهر عالم الجبروت أي عالم المجردات، وهو مَظهر عالم الأعيان الثّابتة وهو مظهر الأسما الإلهيّة والحضرة الواحديّة هي مظهر الحضرة الأحديّة».

(في أنّ العوالم كلّها كتب إلهيّة)

ثمّ قال:

«يجب عليك أن تعلم أنّ هذه العوالم كلّيها وجزئيّها كتب إلهيّة لإحاطتها بكلماتها التامّات، فالعقل الأوّل والنّفس الكلّيّة اللّتان هما صورتا أمّ الكتاب وهي الحضرة العلميّة كتابان إلهيّان، وقد يقال للعقل الأوّل: أمّ الكتاب لاحاطته بالأشياء إجمالاً، وللنفس الكلّيّة: الكتاب المبين لظهورها تفصيلاً، وكتاب المحو والإثبات هو حضرة النّفس المنطبعة في الجسم الكلّي من حيث تعلّقها بالحوادث، وهذا المحو والإثبات إنّما يقع للصّور الشخصيّة الّتي فيها باعتبار أحواله اللّازمة لأعيانها بحسب استعداداتها الأصليّة المشروط ظهورها بالأوضاع الفلكيّة المُعِدّة لتلك الذّوات أن تتلبّس بتلك الصّور مع أحوالها الفايضة عليها من الحقّ سبحانه بالإسم المدبّر والماحي والمُثبت والفعّال لما يشاء وأمثالها، والإنسان الكامل كتاب جامع لهذه الكتب لأنّه نسخة العالم الكبير، كما قال العارف الربّاني (علي بن أبي طالب) أمير المؤمنين عليه السّلام(١١):

دائك فيك وما تشعر ودوائك فيك وما تبصر
وتزعم أنّك جرمٌ صغير وفيك أنطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الّذي بأحرفه يظهر المضمر

فمن حيث روحه وعقله كتاب عقليّ مسمّىً بأم الكتاب، ومن حيث قلبه كتاب

---

(١١) قوله: كما قال العارف الربّاني أمير المؤمنين (ع):
ورد ذكر هذه الأبيات في ديوان المنسوب إليه عليه السّلام «روائع الحكم في أشعار الإمام عليه السّلام» ص ٢٠٠، وفي الديوان كما يلي:

دواؤك فيك وما تشعر وداؤك منك وما تبصر
وتحسب أنّك جرم صغير وفيك انطوىٰ العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الّذي بأحرفه يظهر المضمر
فلا حاجةٌ لك في خارج يخبّر عنك بما سطّروا

اللّوح المحفوظ، ومن حيث نفسه كتاب المحو والإثبات، فهي الصّحف المكرّمة المرفوعة المطهّرة الّتي لا يمسّها ولا يدرك أسرارها ومعانيها إلّا المطهّرون من الحجب.

وما ذكر من الكتب إنّما هي أصول الكتب الإلهية وأمّا فروعها فكلّ ما في الوجود من النّفس والعقل والقوى الرّوحانيّة والجسمانية وغيرها لأنّها ممّا ينتقش فيها أحكام الموجودات إمّا كلّها أو بعضها، وسواء كان مجملاً أو مفصّلاً، وأقلّ ذلك إنتقاش عينها فقط والله أعلم وأحكم.

هذا آخره وآخر بحث الكتاب الآفاق وتعيينه وتحقيقه بقدر هذا المقام، وسيجئ هذا البحث أبسط من ذلك عند تأويل:

﴿الم * ذٰلك الكتاب﴾ [سورة البقرة: ٢].

لأنّ هذا البحث يتعلّق بذلك المقام وهنا كان للتّنبيه عليه وتقديم مقدّمات تكون مُعينة على دركه وفهمه، وحيث فرغنا من هذا، وتقرّر أنّ الآفاق المسمّى بالعالم هو الكتاب الكبير الإلٰهي، وأنّ الأنفس المسمّى بالإنسان هو الكتاب الصّغير الإلهي فلنشرع في تطبيقهما وتعيين كلماتها وحروفها وآياتها إجمالاً وتفصيلاً، ثمّ في تطبيق القرآن بهما قبل وصولنا إلى مقدّمات متعلّقة بهذا البحث لأنّ هذه الأبحاث كما قرّرناه ثلاث مقدّمات مخصوصة بها آتية في موضعها، وإذا عرفت هذا، فاعلم، أنّ هذا التّطبيق يحتاج إلى ثلاث قواعد:

القاعدة الأُولى، في تفصيل العالم وترتيب الموجودات الروحانيّة والجسمانيّة على طريق الموحّدين وغيرهم أيضاً الّذي هو الحكيم والمتكلّم.

والقاعدة الثّانية، في تفصيل الإنسان وترتيب وجوده من حيث الظّاهر والباطن.

والقاعدة الثّالثة، في تطبيق القرآن بهما من حيث الحروف والكلمات والآيات.

وأوّل تلك القواعد هذا، وبالله التوفيق.

القاعدة الأولىٰ

في تفصيل العالم وترتيب الموجودات العلويّة والسفليّة إجمالاً وتفصيلاً

إعلم أنّ العوالم كلّها من عالم الملك والملكوت، والغيب والشهادة، والأمر والخلق، والرّوحاني والجسماني، وغير ذلك منحصرة في العالم الكبير المسمّى بالآفاق، وفي العالم الصغير المسمّى بالأنفس، وكلّ واحد من هذين العالمين مطابق للآخر في جميع الأحوال المبتدائيّة والمنتهائيّة، والدّنيا والآخرة، وبالجملة........(١٢).

(في انّ العالم عرض والجوهر هو العماء)

الفصل التاسع في العالم وهو كلّ ما سوى الله وترتيبه ونضده روحاً وجسماً وعلواً وسفلاً(١٣).

إعلم أنّ العالم عبارة عن كلّ ما سوى الله وليس إلّا الممكنات، سواء وجدت أو لم توجد، فإنّها بذاتها علامة على علمنا أو على العلم بواجب الوجود لذاته وهو الله، فإنّ الامكان حكم لها، لازم في حال عدمها ووجودها، بل هو ذاتيّ لها لأنّ التّرجيح لها لازم فالمرجّح معلوم ولهذا سمّي عالماً من العلامة، لأنّه الدّليل على المرجّح، فاعلم

---

(١٢) قوله: وبالجملة:

والجدير بالذكر: انّه سقطت هنا (مع الأسف) من النسخة صفحات حتّى لايوجد في المخطوط تفصيل القواعد الثلاثة ومطالبها.

والفصل التالي المنقول من الفتوحات المكيّة كان ناقصاً أيضاً في المخطوط، فإنّا بعد التأمّل والدقّة والتتبع وجدنا بأنّه بعض مطالب الفصل التاسع من ذلك الكتاب ولذا نقلناه وأوردناه بتمامه.

(١٣) قوله: الفصل التاسع.

راجع الفتوحات المكيّة ج ٣، ص ٤٤٣ من باب الأحد والسبعين وثلاثمائة.

ذلك، وليس العالم في حال وجوده بشيء سوى الصّور الّتي قبلها العماء وظهرت فيه. فالعالم إن نظرت حقيقته انّما هو عرض زائل أي في حكم الزّوال، وهو قوله تعالى:

﴿كلّ شيءٍ هالك إلّا وجهه﴾ [سورة القصص: ٨٨].

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أصدق بيت قالته العرب.

قول لبيد: ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل (١٤).

---

(١٤) قوله: قول لبيد:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل   وكلّ نعيم لا محالة زائل

البيت من أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامري وهو من الصحابة وله ديوان وشارح ديوانه الطوسي.

قال الطريحي في مجمع البحرين: لبيد بن عامر الشاعر الصّحابي وهو المقول فيه أصدق كلمة قالها لبيد: (الشعر).

نقل الشيخ البهائي من حواشي السيوطي على البيضاوي: إنّ لبيداً قد عاش مائة وخمسة وأربعين سنة وهو القائل:

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها   وسؤال هذا النّاس كيف لبيدُ

وراجع في ترجمته أيضاً الأصابة للعسقلاني ج ٣، ص ٣٢٦، وفي الإستيعاب في هامش الإصابة في نفس الصفحة.

في صحيح مسلم ج ٤، كتاب الشعر، ص١٧٦٨، بإسناده عن أبي هريرة عن النّبي (ص) قال: أصدق بيت ـ أشعر كلمة ـ أصدق كلمة تكلّمت بها العرب ـ قالها الشاعر ـ قالته الشعراء:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل

ذكره أيضاً ابن ماجة في سننه ج ٢، ص ١٢٣٦، الحديث ٣٧٥٧.

قال صدر المتألهين في الأسفار ج ١، ص ٨٩: اهتزت نفس النبيّ اهتزازاً علويّاً لا سفليّاً حيث سمع قول لبيد:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل   وكلّ نعيم لا محالة زائل

وطربت طرباً قُدسيّاً لا حسّيّاً، وقال:

اللّهمّ إلّا أنّ العيش عيش الآخرة.

←

. . . .

أقول، الشعر المذكور في معنى قوله تعالى:

﴿كلّ شيء هالك إلّا وجهه﴾.

وقوله تعالىٰ:

﴿كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾ [سورة الرّحمٰن: ٢٧].

وأمّا قوله (ص) أنّ العيش عيش الآخرة، فإنّ الحياة الحقيقيّة ما لاتكون مشوبة بالموت والفناء ولا تنتهي إلى الموت، والحياة التي بهذه الصفة هي حياة الآخرة بقوله تعالى:

﴿وانّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ [سورة العنكبوت: ٦٤].

ولا بأس بذكر بعض ما ذكره العلّامة المجلسي في: (لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر ابن كلاب) في كتابه القيّم بحار الأنوار، قال في ج ٧٠، ص ٢٩٤٥، نقلاً عن مصباح الشريعة:

قال الصادق عليه السّلام: قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم:

أصدق كلمة قالتها العرب كلمة لبيد:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل   وكلّ نعيم لا محالة زائل

وقال في ج ٩٢، ص ١٣٢:

جاء لبيد وآمن برسول الله (ص) وترك قيل الشعر تعظيماً لأمر القرآن، فقيل له: ما فعلت قصيدتاك؟ قال: أبدلني الله بهما سورتي البقرة وآل عمران.

ذكره أيضاً الراوندي في كتابه الخرائج والجرائح ج ٣، ص ٩٩٤ فراجع.

وقال في ج ٥١، ص ٢٤٥:

عاش لبيد بن ربيعة بن الجعفريّ مائة وأربعين سنة وأدرك الإسلام فأسلم فلمّا بلغ سبعين من عمره أنشأ يقول:

كأنّي وقد جاوزت سبعين حجّة   خلعت بها عن منكبيّ ردائيا

إلى أن قال:

فلمّا بلغ مائة وأربعين سنة أنشأ يقول:

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها   وسؤال هذا النّاس كيف لبيد

إلى آخر ما قال فراجع.

يقول: ما له حقيقة تثبت عليها من نفسه، فما هو موجود إلّا بغيره، ولذلك قال عليه السّلام:

أصدق بيت قالته العرب: ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل.

فالجوهر الثّابت هو العماء وليس إلّا نَفَس الرّحمن والعالَم جميع ما ظهر فيه من الصّورة، فهي أعراض فيه، يمكن إذالتها وتلك الصّور هي الممكنات، ونسبتها من العماء نسبة الصّور من المرآة تظهر فيها لعين الرّآئي، والحقّ تعالىٰ هو بصر العالم فهو الرّآئي وهو العالم بالممكنات. فما أدرك إلّا ما في علمه من صور الممكنات فظهر العالم بين العماء وبين رؤية الحقّ، فكان ما ظهر دليلاً على الرّآئي وهو الحقّ، فتفطّن واعلم من أنت.

← وقال في ج ١٧، ص ١٦٦:

وقد قيل: إنّ أحسن الشعر أكذبه، ولهذا فإنّ لبيد بن ربيعة وحسّان بن ثابت لمّا أسلما وتركا سلوك سبيل الكذب والتخييل ركّ شعرهما.

وقال في ج ١٨، ص ٢٢ (نقلاً عن المناقب ج ١، ص ١١٥ وعن الخرائج ج ١، ص ٣٣ وعن اعلام الورى ص ٢٨):

من معجزاته (ص): أن أبا براء ملاعب الأسنّة (هذا الرّجل كان جدّ لبيد) كان به استسقاء فبعث إليه (ص) لبيد بن ربيعة، وأهدى له (ص) فرسين ونجائب، فقال (ص): لا أقبل هديّة مشرك. قال لبيد: ما كنت أرى أنّ رجلاً من مضر يردّ هديّة أبي براء، فقال (ص): لو كنت قابلاً هديّة من مشرك لقبلتها، قال: فإنّه يستشفيك من علّة أصابته في بطنه، فأخذ (ص) حثوة من الأرض فتفل عليها ثمّ أعطاه وقال (ص): دُفها بماء ثمّ أسقه إيّاه، فأخذها متعجّباً يرى أنّه قد استهزئ به، فأتاه فشربها وأطلق من مرضه كأنّما أنشط من عقال.

أقول: الحثْو: قبض التُراب باليد.

حثَا الرّجلُ التراب (يحثُوه) حثواً ويحثيه حثياً، من باب رَمَى، إذا هاله بيده وبعضهم يقول: قبضه بيده.

الحَثِي (مص) ج حثيات : ما غرف باليد من التّراب وغيره، ويقال حثاً التُراب ونحوه (حثواً) عليه وله: أعطاه شيئاً يسيراً.

راجع المصباح المنير والمعجم الوسيط والمنجد وغيرها.

(تفصيل الموجودات على الظهور والترتيب)

وأمّا تفصيله (نضده) على الظّهور والتّرتيب فأرواح نوريّة إلهيّة مهيّمة في صور نوريّة خليقة (خلقية) إبداعيّة في جوهر نَفَس هو العماء من جملتها العقل الأوّل وهو القلم، ثمّ النّفس وهو اللّوح المحفوظ، ثمّ الجسم الكلّي، ثمّ العرش ومقرّه وهو الماء الجامد والهواء والظّلمة، ثمّ ملائكته، ثمّ الكرسي، ثمّ ملائكته، ثمّ الأطلس، ثمّ ملائكته، ثمّ فلك المنازل، ثمّ الجنّات بما فيها، ثمّ ما يختصّ بها وبهذا الفلك من الكواكب، ثمّ الأرض، ثمّ الماء، ثمّ الهواء العنصري، ثمّ النّار، ثمّ الدّخان وفتق فيه سبع سموات: سماء القمر، وسماء الكاتب، وسماء الزّهرة، وسماء الشّمس، وسماء الأحمر، وسماء المشتري، وسماء زحل (المقاتل)، ثمّ أفلاكها المخلوقون منها، ثمّ ملائكة النّار والماء والهواء والأرض، ثمّ المولّدات: المعدن والنّبات والحيوان، ثمّ نشأة جسد الإنسان، ثمّ ما ظهر من أشخاص كلّ نوع من الحيوان والنّبات والمعدن، ثمّ الصّور المخلوقات من أعمال المكلّفين وهي آخر نوع، هذا ترتيبه بالظّهور في الإيجاد.

وأمّا ترتيبه بالمكان الوجودي أو المتوهّم، فالمكان المتوهّم المعقولات الّتي ذكرناها إلى الجسم الكلّ، ثمّ العرش، ثمّ الكرسي، ثمّ الأطلس، ثمّ المكوكب وفيه الجنّات، ثمّ سماء زحل، ثمّ سماء المشتري، ثمّ سماء المرّيخ، ثمّ سماء الشّمس، ثمّ سماء الزّهرة، ثمّ سماء الكاتب، ثمّ سماء القمر، ثمّ سماء الأثير، ثمّ الهواء، ثمّ الماء، ثمّ الأرض.

وأمّا ترتيبه بالمكانة: فالإنسان الكامل، ثمّ العقل الأوّل، ثمّ الأرواح المهيّمة، ثمّ النّفس، ثمّ العرش، ثمّ الكرسي، ثمّ الأطلس، ثمّ الكثيب، ثمّ الوسيلة، ثمّ عدن، ثمّ الفردوس، ثمّ دار السّلام، ثمّ المأوى، ثمّ الخلد، ثمّ النعيم، ثمّ فلك المنازل، ثمّ البيت المعمور، ثمّ سماء الشّمس، (ثمّ القمر)، ثمّ المريخ، ثمّ المشتري، ثمّ زحل، ثمّ الزهرة، ثمّ الكاتب، (ثمّ المريخ)، ثمّ القمر، ثمّ الهواء، ثمّ الماء، ثمّ التّراب، ثمّ النار، ثمّ الحيوان، ثمّ النّبات، ثمّ المعدن، وفي النّاس الرّسل، ثمّ الأنبياء، ثمّ الأولياء، ثمّ المؤمنون، ثمّ سائر الخلق.

الباب السّابع

في معرفة بدء الجسوم الإنسانيّة وهو آخر جنس موجود من العالم الكبير وآخر صنف من المولدات (١٥)

(في عمر العالم الطبيعي)

إعلم أيّدك الله أنّه لمّا مضى من عمر العالم الطبيعيّ المقيّد بالزّمان المحصور بالمكان إحدى وسبعون ألف سنة من السّنين المعروفة في الدّنيا وهذه المدّة أحد عشر يوماً من أيام غير هذا الأسم ومن أيام «ذي المعارج» يوم وخُمُسا يوم، وفي هذه الأيّام يقع التّفاضل، قال تعالى:

﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنةٍ﴾ [سورة المعارج: ٤].

وقال:

﴿وإنّ يوماً عند ربّك كألف سنة ممّا تعدّون﴾ [سورة الحج: ٤٧].

فأصغر الأيّام هي الّتي تعدها (نعدها) حركة الفلك المحيط الّذي يظهر في يومه اللّيل والنّهار، فأقصر يوم عند العرب، وهو هذا، لأكبر فلك، وذلك لحكمه على ما في جوفه من الأفلاك، إذ كانت حركة مادونه في اللّيل والنّهار حركة قسريّة له قهر بها ساير الأفلاك الّتي يحيط بها.

(في أنّ لكل فلك حركتين: طبيعيّة وقسريّة)

ولكلّ فلك حركة طبيعيّة تكون له مع الحركة القسريّة، فكلّ فلك دونه ذو حركتين في وقت واحد: حركة طبيعيّة وحركة قسريّة، ولكلّ حركة طبيعيّة في كلّ

---

(١٥) قوله: الباب السابع.

راجع الفتوحات المكيّة ج ٢، ص ٢٣٤ الطبع الجديد، و ج ١، ص ١٢١ الطبع السابق.

فلك يوم مخصوص يعدّ مقداره بالأيّام الحادثة عن الفلك المحيط، المعبّر عنها بقوله: «ممّا تعدّون»، وكلّها تقطع في الفلك المحيط. فكلّما قطعته على الكمال، كان يوماً لها ويدور الدور، فأصغر الأيّام منها هو ثمانية وعشرون يوماً «مما تعدّون»، وهو مقدار قطع حركة القمر في الفلك المحيط.

ونصب الله هذه الكواكب السّبعة في السّموات، ليدرك البصر قطع فلكها في الفلك المحيط، لتعلم (لنعلم) عدد السّنين والحساب، قال تعالىٰ:

﴿وقدّره منازل لتعلموا عدد السّنين والحساب﴾ [سورة يونس: ٥].

﴿وكلّ شيء فصّلناه تفصيلاً﴾ [سورة الاسراء: ١٢].

﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [سورة الأنعام: ٩٦].

فكلّ كوكب منها يوم مقدّر يفضل بعضها على بعض، على قدر سرعة حركاتها الطبيعيّة، أو صِغَر أفلاكها وكِبَرها.

(خلق القلم واللّوح والهباء)

فاعلم أنّ الله تعالى لمّا خلق القلم واللّوح، وسمّاها العقل والنّفس (الرّوح)، فأعطى الرّوح صفتين: صفة علميّة، وصفة عمليّة، وجعل العقل لها معلّماً ومفيداً، أفادة مشاهدة حاليّة، كما تستفيد من صور (صورة) السكّين القطع من غير نطق يكون معه (منه) في ذلك.

وخلق تعالىٰ جوهراً دون النّفس الّذي هو الرّوح المذكور، سمّاه الهباء، وهذه الإسميّة له نقلناها من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأمّا الهبا فمذكور في اللّسان العربي، قال تعالى:

﴿فكانت هباءً منبثاً﴾ [سورة الواقعة: ٦].

كذلك لمّا رآها علي بن أبيطالب، أعنى هذه الجوهرة منبثّة في جميع الصّور الطبيعيّة كلّها وأنّها لاتخلو صورة منها إذ لاتكون صورة إلّا في هذه الجوهرة، سمّاها هباءاً،

وهي مع كلّ صورة بحقيقتها لاتنقسم، ولا تتجزّى، ولا تتّصف بـالنّقص، بـل هـي كالبياض الموجود في كلّ أبيض بذاته وحقيقته، ولا يقال: قد نقص من البياض قدر ما حصل منه في هذا الأبيض، هذا مَثَل حال هذه الجوهرة(١٦).

---

(١٦) قوله: فهذا مَثَل حال هذه الجوهرة.

أقول: لا بأس بذكر بعض ما نطق به الشيخ الأكبر حول الهباء في الفتوحات المكيّة ليتضح المطلب، قال:

«جوهر الهباء الّذي يسمّيه أهل النظر: الهيولى الكلّ الّذي لم تظهره صورة الجسم إلّا فيه» ج ١، ص ٧٢١ و ج ١٠، ص ٤٣٥ (ط ج).

وقال: الهباء بسيط، فما قرب منه عومل بمعاملته، وما بعد عنه تميّز في الحكم عن القريب ج ١، ص ٦٧٩ و ج ١٠، ص ١٤٥ (ط ج).

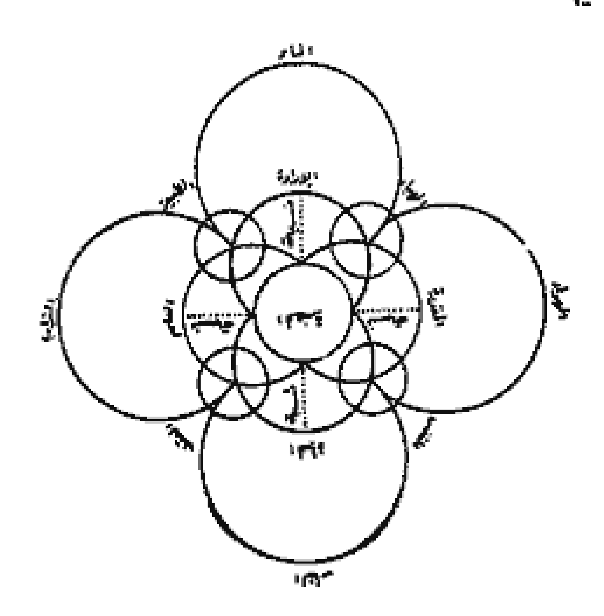
وقال: فأوجد الله سبحانه العقل الأول من نسبة الحياة، وأوجد النّفس من نسبة العلم، وكان العقل شرطاً في وجود النّفس، كالحياة شرط في وجود العلم.

وكان المنفعلان عن العقل والنّفس: الهباء والجسم الكلّ.

فهذه الأربعة أصل ظهور الصور في العالم، غير أنّ بين النّفس والهباء مرتبة الطّبيعة ج ١، ص ٢٩٣ و ج ٤، ص ٣٤٤ (ط ج).

وقال في ج ١، ص ٢٦٠ و ص ١٥٨ ج ٤ (ط ج):

وصورة الأمر فيها هكذا:



←

. . . .

← وقال في الباب ٧٨ حينما شرع في بحث الخلوة:

قال رسول الله (ص):

«كان الله ولا شيء معه».

وسئل رسول الله (ص): أين كان ربّنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء.

ثمّ خلق الخلق وقضى القضيّة وفرغ من أشياء، وهو:

كلّ يوم في شأن.

إلى أن قال:

وأصل الخلوة في العالم: الخلاء، الّذي ملأه العالم، فأوّل شيء ملأ: الهباء، وهو جوهر مظلم ملأ الخلأ بذاته، ثمّ تجلّى له الحقّ باسمه: النور، فانصبغ به ذلك الجوهر وزال عنه حكم الظلمة وهو العدم فاتّصف بالوجود، فظهر لنفسه بذلك النور المنصبغ به، وكان ظهوره به على صورة الإنسان ج ٢، ص ١٥٠ و ج ١٣، ص ٣٥٣ (ط ج).

وقال:

وأعلى ما يُشبهُها (أي حقيقة الحقايق) من المحدثات الهباء الّذي خُلق فيه صور العالم، ثمّ النور أنزل منه في الشّبه بها، فإنّ النّور صورة في الهباء كما أنّ الهباء صورة فيها. ج ١، ص ٧٨ و ج ١، ص ٣٣٣ (ط ج).

وقال:

«كان الله ولا شيء معه» ثمّ أدرج فيه: «وهو الآن على ما عليه كان»، لم يرجع إليه سبحانه من إيجاده العالم صفة لم يكن عليها، بل كان موصوفاً لنفسه، ومسمّى قبل خلقه بالأسماء الّتي يدعوه بها خلقه.

فلمّا أراد (تعالى) وجود العالم، وبدأه على حدّ ما علمه بعلمه بنفسه، انفعل عن تلك الإرادة المقدّسة بضرب تجلّ من تجلّيات التنزيه إلى الحقيقة الكلّيّة، انفعل عنها حقيقة تسمّى: الهباء، هي بمنزلة طرح البنّاءِ الجِصّ ليفتح فيها ما شاء من الأشكال والصّور، وهذا هو أوّل موجود في العالم، وقد ذكره عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وسهل بن عبدالله رحمه الله، وغيرهما من أهل التحقيق، أهل الكشف والوجود.

ثمّ إنّه سبحانه تجلّى بنوره إلى ذلك الهباء، ويسمّيه أصحاب الأفكار الهيولى الكلّ، ←

(في المراتب الأربعة بين الروح والهباء)

وعيّن الله سبحانه بين هذا الرّوح الموصوف بالصفتين، وبين الهباء أربع مراتب، وجعل كلّ مرتبة منزلاً لأربعة أملاك، وجعل هؤلاء الأملاك كالولاة على ما أحدثه سبحانه دونهم من العالم من العلّيّين إلى أسفل سافلين، ووهب كلّ مَلَك من الملائكة عِلَم ما يريد إمضاءه في العالم.

← والعالم كلّه فيه بالقوّة والصلاحيّة، فقبل منه كلّ شيء في ذلك الهباء على حسب قوّته واستعداده، كما تقبل زوايا البيت نور السراج وعلى قدر قربه من ذلك النّور يشتدّ ضوءه وقبوله، قال تعالى:

﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ [سورة النور: ٢٤].

فشبّه نوره بالمصباح فلم يكن أقرب إليه تعالى قبولاً في ذلك الهباء إلّا حقيقة محمّد (ص) المسمّاة بالعقل، فكان سيّد العالم بأسره، وأوّل ظاهر في الوجود، فكان وجوده من ذلك النور الالّهي ومن الهباء ومن الحقيقة الكلّيّة وفي الهباء وُجد عينُه، وعينُ العالم من تجلّيه.

وأقرب النّاس إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه (عليه السّلام) إمام العالَم وسرّ الأنبياء أجمعين. ج ١، ص ١٩٩ و ج ٢، ص ٢٢٦ (ط ج).

و(في بعض النسخ): علي بن أبي طالب وأسرار الأنبياء أجمعين.

(وفي بعضها): علي بن أبي طالب وأسرار الأنبياء.

وفي نسخة ابن فناري اضافة إلى هذه العبارة (مصباح الأنس ص ١٧٥):

علي بن أبي طالب عليه السّلام ثمّ ساير الأنبياء.

وقال ابن فناري في مصباح الأنس ـ بعد ذكر هذه العبارة في بحثه عن ما يشتمل عليه اللّوح من الأرواح بعدما نقل كلاماً طويلاً عن الشيخ من كتابه «عقلة المستوفر» (ص ٤٩) ـ:

أقول: هذا غير الهباء الّذي قال في الفتوحات بعد وُرَيقات:

لمّا خلق القلم واللوح وسمّاهما العقل والرّوح الخ، فراجع فتأمّل.

(الجسم الكلّ أوّل الخلق في الأعيان)

فأوّل شيء أوجده الله في الأعيان ممّا يتعلّق به علمُ هؤلاء الملائكة وتدبيرهم الجسم الكلّ، وأوّل شكل فتح في هذا الجسم الشّكل الكري المستدير، إذ كان أفضل الأشكال، ثمّ نزل سبحانه بالإيجاد والخلق إلى تمام الصّنعة، وجعل جميع ما خلقه تعالى مملكة لهؤلاء الملائكة وولّاهم أمورها في الدّنيا والآخرة، وعصمهم عن المخالفة فيما أمرهم به، فأخبرنا سبحانه أنّهم:

﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [سورة التّحريم: ٦].

(خلقَ الله أربعة أشياء بيده)

ولمّا انتهى خلق المولّدات من الجمادات والنّبات والحيوان بانتهاء إحدى وسبعين ألف سنة من سني الدّنيا ممّا يعدّ (نعد)، ورتّب العالم ترتيباً حِكميّاً، ولم يجمع سبحانه لشيء ممّا خلقه من أوّل موجود إلى آخر مولود وهو الحيوان بين يديه تعالى إلّا للإنسان، وهي هذه النشأة البدنيّة التّرابيّة، بل خلق كلّ ما سواها إمّا عن أمر إلهي، أو عن يد واحدة قال تعالى:

﴿إنّما قولنا لشيءٍ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [سورة النحل: ٤٠].

فهذا عن أمر إلهي، وورد في الخبر:

«إنّ الله عزّ وجلّ خلق جنّة عدن بيده، وكتب التّوراة بيده، وغرس شجرة طوبى بيده»[١٧].

---

(١٧) قوله: وورد في الخبر: إنّ الله عزّ وجلّ خلق جنّة عدن بيده.

أقول: رُوي مضمون الحديث في كتب الفريقين، راجع مايلي:

في المحاسن للبرقي (ره)، كتاب عقاب الأعمال، الباب ٥٥ ص ١١٥، الحديث ١١٨، بإسناده عن محمّد بن قيس، عن الباقر أبي جعفر عليه السّلام قال:

عرض إبليس لنوح (ع) وهو قائم يصلّي، فحسد على حُسن صلاته، فقال:

←

وخلق آدم الّذي هو الإنسان بيَدَيه.

فقال تعالى لإبليس عن جهة التّشريف لآدم عليه السّلام:

﴿ما منعك أن تسجد لِما خلقتُ بيَدَيّ﴾ [سورة ص: ٧٥].

(قسمة الفلك الأدنى اثنا عشر بروجاً)

ولمّا خلق الله الفلك الأدنى الّذي هو الأوّل المذكور آنفاً. قسّمه اثنى عشر قسماً سمّاها بروجاً. قال تعالى:

﴿والسّماءِ ذاتِ البُروج﴾ [سورة البروج: ١].

فجعل كلّ قسم برجا، وجعل تلك الأقسام ترجع إلى أربعة في الطّبيعة، ثمّ كرّر كلّ واحد من الأربعة في ثلاثة مواضع (منها) منه، وجعل هذه الأقسام كالمنازل والمناهل الّتي ينزل فيها المسافرون، ويسير فيها السّائرون في حال سيرهم وسفرهم، لينزل في هذه الأقسام عند سير الكواكب فيها وسباحتهم مما (ما) يحدث الله في جوف هذا الفلك من الكوكب الّتي تقطع سيرها في هذه البروج، ليحدث الله عند قطعها وسيرها ما شاء أن يحدث من العالم الطّبيعي والعنصري، وجعلها علامات على أثر حركة فلك البروج.

← يا نوح إنّ الله عزّ وجلّ خلق جنة عدن بيده، وغرس أشجارها واتّخذ قصورها وشقّ أنهارها، ثمّ أطلع إليها فقال: «قد أفلح المؤمنون».

ونقل عنه المجلسي (ره) في بحار الأنوار ج ٨، ص ١٩٥، الحديث ٧٧٨.

وأيضاً روى الشيخ المفيد (ره) في كتابه الإختصاص ص ٤٥ في مسائل عبدالله بن سلام عن النّبي (ص)، باسناده عن ابن عبّاس عن نبيّنا (ص) قال:

«خلق الله (سبحانه) جنّات عدن بيده، ونصب شجرة طوبى في الجنّة بيده، وخلق آدم (ع) بيده، وكتب التّوراة بيده»، الحديث.

وعنه المجلسي في البحار ج ٩، ص ٣٣٨، وأيضاً روى مثله في ج ٦٠، ص ٢٤٣.

وراجع أيضاً المستدرك على الصّحيحين ج ٣، ص ٣١٩ و ص ٣٩٧، وكنز العمّال ج ٦، ص ١٣٠ وج ١٤، ص ٤٥٤، ومجمع الزّوائد ج ١٠، ص ٣٩٧.

(بيان الطبايع والعناصر الأربعة)

فاعلم؛ فقسم من هذه الأربعة طبيعيّة الحرارة واليبوسة، والثّاني البرودة واليبوسة، والثّالث الحرارة والرّطوبة، والرّابع البرودة والرّطوبة، وجعل الخامس والتّاسع من هذه الأقسام مثل الأوّل، وجعل السّادس والعاشر مثل الثّاني، وجعل السّابع والحادي عشر مثل الثّالث، وجعل الثّامن والثّاني عشر مثل الرّابع أعني في الطبيعة.

فحَصَر الأجسام الطبيعيّة بخلاف، والأجسام العنصريّة بلا خلاف في هذه الأربعة الّتي هي الحرارة والبرودة والرّطوبة واليبوسة، ومع كونها أُمّهات فإنّ الله جعل اثنين منها أصلاً في وجود الإثنين الآخرين، فانفعلت اليبوسة عن الحرارة، والرّطوبة عن البرودة، والرّطوبة واليبوسة موجودتين عن سببَين هما الحرارة والبرودة، ولهذا ذكر الله تعالى في قوله.

﴿ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين﴾ [سورة الأنعام: ٥٩].

لأنّ السّبب (المسبّب) يلزم من وجوده من كونه مسبّباً وجود السّبب، أو منفعلاً، وجود الفاعل، كيف شئت فقل، ولا يلزم من وجود المسبّب وجود المسبّب «من وجود السّبب وجود المسبّب».

ولمّا خلق الله هذا الفلك الأوّل دار دورة غير معلومة الإنتهاء لله تعالى، لأنّه ليس فوقه شيء محد ودمن الأجرام يقطع فيه، فإنّه أوّل الأجرام الشّفافة. فتعدّد الحركات وتتميّز، ولا كان قد خلق الله في جوفه شيئاً فتتميّز الحركة وتنتهي عند من يكون في جوفه، ولو كان، تتميّز أيضاً (لم تتميّز أصلاً) لأنّه أطلس لا كوكب فيه متشابه الأجزاء، فلا يعرف مقدار الحركة الواحدة منه ولا تتعيّن، فلو كان فيه جزء مخالف لسائر أجزائه عُدَّ به حركاته بلا شكّ، ولكن علم الله قدرها وانتهاءها وكرورها، فحدث عن تلك الحركة اليوم، ولم يكن، ثمّ ليل ولا نهار في هذا اليوم.

ثمّ استمرّت (حركات) هذا الفلك.

فخلق الله ملائكة خمسة وثلاثين مَلَكاً، من جملة هؤلاء الملائكة جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ثمّ خلق تسعمائة مَلَك وأربعاً وسبعين، وأضافهم إلى ما ذكرناه من الأملاك، وأوحى إليهم وأمرهم بما يجري على أيديهم في خلقه فقالوا:

﴿وما نتنزّل إلّا بأمر ربّك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربّك نسيّاً﴾ [سورة مريم: ٦٤].

وقال فيهم:

﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ [سورة التحريم: ٦].

فهؤلاء من الملائكة هم الولاة خاصّة، وخلق ملائكة هم عمّار السّموات والأرض لعبادته، فما في السّماء والأرض موضع إلّا وفيه مَلَك ولا يزال الحقّ يخلق من أنفاس العالم ملائكة ما داموا متنفّسين.

(خلق الدار الدنيا)

ولمّا انتهى من حركات هذا الفلك الأوّل، ومدّته أربع وخمسون ألف سنة «ممّا تعدّون»، خلق الدّار والدّنيا، وجعل لها أمداً معلوماً تنتهي إليه وتنقضي صورتها، وتستحيل من كونها داراً لنا وقبولها صورة مخصوصة، وهي الّتي نشاهد اليوم، إلى أن:

﴿تُبدَّل الأرض غير الأرض والسّموات﴾ [سورة إبراهيم: ٤٨].

ولمّا انقضى من مدّة (حركات) حركة هذا الفلك ثلاث وستّون ألف سنة ممّا تعدّون خلق الله الدّار الآخرة والجنّة والنّار اللّتين أعدّهما الله لعباده السّعداء والأشقياء، فكان بين خلق الدّنيا وخلق الأرض تسع آلاف سنة ممّا تعدّون، ولهذا سمّيت آخرة لتأخّر خلقها عن خلق الدّنيا، وسمّيت الدّنيا: الأوْلى لأنّها خلقت قبلها، قال تعالى:

﴿وللآخرة خيرٌ لك من الأُولى﴾ [سورة الضحى: ٤].

يخاطب نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم، ولم يجعل للآخرة مدّة ينتهي إليها بقاؤها، فلها البقاء الدّائم.

وجعل سقف الجنّة هذا الفلك وهو العرش عند الّذي لا تتعيّن حركته ولا تتميّز، محركته دائمة لاتنقضي، وما مِن خَلق ذكرناه خلق إلّا وتعلّق القصد الثّاني منه وجود الإنسان الّذي هو الخليفة في العالَم، وإنّما قلت: القصد الثّاني، إذ كان القصد الأوّل معرفة الحقّ وعبادته الّتي لها خُلق العالَم كلّه، فما «من شيء إلّا وهو يسبّح بحمده»، ومعنى القصد الثّاني والأوّل: التعلّق الإرادي لاحدوث الإرادة، لأنّ الإرادة لله صفة قديمة أزليّة اتصفت بها ذاته، كسائر صفاته.

ولمّا خلق الله هذه الأفلاك والسّموات، وأوحى في كُلّ سماء أمرها، ورتّب فيها أنوارها وسرجها، وعمرها بملائكته، وحرّكها (الله) تعالى، فتحرّكت طائعة لله، آتية إليه طلباً للكمال في العبوديّة الّتي تليق بها، لأنّه تعالىٰ دعاها، ودعا الأرض، فقال لها وللأرض:

﴿أئتيا طوعاً أو كَرْها﴾ [سورة فصّلت: ١١]،

لأمر حدّ لهما،

﴿قالتا أتينا طائِعِين﴾ [سورة فصّلت: ١١].

فهما آتيان أبداً، فلا تزالا متحرّكتين، غير أنّ حركة الأرض خفّية عندنا وحركتها حول الوسط، لأنّها أكر، فأمّا السّماء فأتت طائعة عند أمر الله لها بالإتيان، وأمّا الأرض فأتت طائعة لمّا علمت نفسها مقهورة، وأنّه لابدّ أن يؤتي بها بقوله تعالى: ﴿أو كرهاً﴾، فكانت المراد بقوله تعالى: ﴿أو كرهاً﴾، فأتت طائعة كرهاً.

﴿فقضاهنّ سبع سمٰوات في يومين وأوحى في كلّ سماءٍ أمرها﴾ [سورة فصّلت: ١٢].

(خلق الأرض وتقدير أقواتها)

وقد كان خلق الأرض وقدّر فيها أقواتها من أجل المولّدات، فجعلها خزانة لأقواتهم، فكان من تقدير أقواتها وجودُ الماء والهواء والنّار، وباقي ذلك من البخارات

والسّحب والبروق والرّعود والآثار العلويّة، ﴿وذلك تقدير العزيز العليم﴾، وخلق الجانّ من النّار، والطّير والدّواب البرّيّة والبحريّة، والحشرات من عفونات الأرض، ليصفّوا الهواء لنا من بخارات العفونات الّتي لو خالطت الهواء الّذي أودع الله حياة هذا الإنسان والحيوان وعافيته فيه لكان سقيماً مريضاً معلوماً، فصفّى له الحقّ سبحانه لطفاً منه بتكوين هذه المُعفّنات، فقلّت الأسقام والعلل.

(خلق الإنسان)

ولمّا استوت المملكة وتهيّأت، وما عرف أحد من هؤلاء المخلوقات كلّها من أيّ جنس يكون هذه (هذا) الخليفة الّذي مهّد الله هذه المملكة لوجوده، فلمّا وصل الوقت المعيّن في علمه لإيجاد هذا الخليفة بعد أن مضى من عمر الدّنيا سبع عشرة ألف سنة، ومن عمر الآخرة الّذي لا نهاية له في الدّوام ثمان آلاف سنة أمر الله بعض ملائكته أن يأتيه بقبضة من كلّ أجناس تربة الأرض، فأتاه بها، في خبر طويل معلوم عند النّاس [١٨]. فأخذها سبحانه وخمّرها بيديه فهو قوله:

---

(١٨) قوله: في خبر طويل.

إن شئت فراجع مايلي من الكتب: قصص الأنبياء لقطب الدّين الرّاوندي الفصل الثاني في ذكر أبينا آدم عليه السّلام ص ٤١، وبحار الأنوار ج ٥، ص ٢٤٥، الحديث ٣٥ و ص ٢٥٥، الحديث ٥٢، وأيضاً ج ١١، ص ١٠٣، الحديث ٩ و ١٠، وأيضاً ج ٦٣، ص ٢٧٣، الحديث ١٦١، وأيضاً ج ٦٧، ص ٨٧، الحديث ١٠ وص ٩٧، الحديث ١٥. وراجع أيضاً الدّر المنثور في التفسير المأثور ج ١، ص ١١٥ وص ١١٩، روي الكليني ره في الأصول من الكافي ج ٢، ص ٥، الحديث ٧، باب طينة المؤمن والكافر، بإسناد، عن أبي عبدالله الصادق (ع) قال:

إنّ الله عزّ وجلّ لمّا أراد أن يخلق آدم عليه السّلام بعث جبرئيل (ع) في أوّل ساعة من يوم الجمعة فقبض بيمينه قبضة فبلغت قبضته من السماء السابعة إلى السّماء الدّنيا، وأخذ من كلّ سماء تربة، وقبض قبضة أخرى من الأرض السّابعة العليا إلى الأرض السّابعة ←

﴿لما خلقت بيديّ﴾ [سورة ص: ٧٥].

وكان الحقّ قد أودع عند كلّ ملك من الملائكة الّذين ذكرناهم، وديعة لآدم، وقال لهم:

﴿إنّي خالق بشراً من طين﴾ [سورة ص: ٧١].

وهذه الودايع الّتي بايديكم، فإذا خلقته، فليؤدّ إليه كلّ واحد منكم ما عنده ممّا أمِنتُكم عليه.

﴿فإذا سوّيتهُ ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [سورة ص: ٧٢].

فلمّا خمّر الحقّ تعالىٰ بيديه طينة آدم حتّى ريحها وهو المسنون، وذلك الجزء الهوائي الّذي في النّشأة جعل ظهره محلّاً للأشقياء والسّعداء من ذرّيته، فأودع ما كان في قبضته، فإنّه سبحانه أخبرنا أنّ في قبضة يمينه السّعداء، وفي قبضة اليد الأخرى الأشقياء، وكلتا يدي ربّي يمين مباركة(١٩)، وقال: «هؤلاء للجنّة وبعمل أهل الجنّة

← القصوى.

فأمر الله عزّ وجلّ كلمته فأمسك القبضة الأولى بيمينه، والقبضة الأخرى بشماله ففلق الطين فلقتين، فذرا من الأرض ذرواً، ومن السّماوات ذرواً.

فقال للّذي بيمينه: منك الرسل والأنبياء والأوصياء والصّديقون والمؤمنون والسعداء ومن أُريد كرامته، فوجب لهم ما قال.

فقال للّذي بشماله: منك الجبارون والمشركون والكافرون والطواغيت ومن أُريد هوانه وشقوته، فوجب لهم ما قال كما قال. الحديث فراجع.

والجدير بالذكر: أنّه توجد في الباب الأحاديث المتعدّدة غير هذا الحديث وبعضها أكثر إعتباراً من هذا سنداً، ولكن بما أنّ ألفاظ هذا الحديث المذكور أقرب وأكثر مطابقة لبحث المتن فلذا نقلناه في المقام، أضافة إلى ذلك أن المضمون المشترك الموجود في الأحاديث الواردة في المقام لايبعد أن يكون قريباً من التواتر لكثرتها.

(١٩) قوله: وكلتا يدي ربّي يمين.

نُقل هذا المضمون في أحاديث كثيرة عن المعصومين (ع)، منها، عن الباقر أبي جعفر ←

يعملون، وهؤلاء للنّار وبعمل أهل النّار يعملون»[٢٠].

← (ع)، قال: قال رسول الله (ص): المتحابّون في الله يوم القيامة على أرض زبرجدة خضراء في ظلّ عرشه عن يمينه وكلتا يديه يمين. الحديث. أصول الكافي ج ٢ باب الحبّ في الله والبغض في الله ص ١٢٦، الحديث ٧، وعنه بحار الأنوار ج ٧، ص ١٩٥ ح ٦٤.

ومثله في المحاسن، باب ٣٤ باب الحبّ والبغض في الله، ج ٣٣٧، ص ٢٦٤، وعنه المجلسي في بحار الأنوار ج ٧٤، ص ١٥٩ ج ٣٤.

ومنها، في المحاسن باب ٤٠ باب الإبتلاء والإختبار ج ٤٠٩، ص ٢٨٠، بإسناده عن الصّادق (ع)، عن رسول الله (ص) قال:

كتاب كتبه الله بيمينه، وكلتا يديه يمين، فيه أسماء أهل الجنّة. الحديث. وعنه بحار الأنوار ج ٥، ص ١٥٩، الحديث ١٥، فراجع.

(٢٠) قوله: وقال: هؤلاء للجنّة وبعمل أهل الجنّة يعملون.

رواه أحمد بن حنبل في مسنده ج ١، ص ٤٤ وأخرجه الحاكم أيضاً في المستدرك على الصحيحين ج ٢، ص ٥٤٤ وفي ج ١، ص ٢٧، وأيضاً أخرجه المتّقي في كنز العمّال ج ٢، ص ٤٠٩، الحديث ٤٣٧٥، وفي ج ١، ص ١١٣، الحديث ٥٢٩، وذكره أيضاً الفخر الرازي في تفسيره ج ١٥، ص ٤٦، وعنه المجلسي في البحار ج ٥، ص ٢٦٩.

ولفظ الحديث مايلي:

قال رسول الله (ص): انّ الله خلق آدم ثمّ مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريّة، فقال: خلقت هؤلاء للجنّة وبعمل أهل الجنّة يعملون، ثمّ مسح ظهره فاستخرج منه ذريّة فقال: خلقت هؤلاء للنّار وبعمل أهل النّار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله ففيمَ العمل؟ فقال رسول الله (ص): إنّ الله إذا خلق العبد للجنّة استعمله بعمل أهلِ الجنّة حتّى يموت على عملٍ من أعمال أهل الجنّة فيدخله به الجنّة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النّار حتّى يموت على عملٍ من أعمال أهل النّار فيُدخِله به النّار.

وروى العياشي في تفسيره ج ١، ص ١٨٢، الحديث ٧٨ في ذيل الآية: ﴿وله أسلم من في السّموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه ترجعون﴾ باسناده عن أبي الأحوص عن أبي عبدالله (ع) قال:

إنّ الله تبارك وتعالى خلق في مبتدأ الخلق بحرين: أحدهما عذب فرات، والآخر ملح أجاج، ثمّ خلق تربة آدم من البحر العذب الفرات ثمّ أجراه على البحر الأجاج فجعله حمأ ←

. . . .

← مسنوناً وهو خلق آدم.

ثمّ قبض قبضةً من كتِف آدم الأيمن فذرأها في صلب آدم فقال:

هؤلاء في الجنّة ولا أبالي، ثمّ قبض قبضة من كتف آدم الأيسر فذرأها في صلب آدم فقال: هؤلاء في النّار ولا أبالي، ولا أُسأل عمّا أفعل، ولي في هؤلاء البداء بعد، وفي هؤلاء وهؤلاء سيبتلون.

قال أبو عبدالله (ع): فاحتجّ يومئذ أصحاب الشمال وهم ذرّ، على خالقهم، فقالوا: ياربّنا لِمَ (بِمَ) أوجبت لنا النّار وأنت الحكَم العدل، مِن قبل أن تحتجّ علينا وتبلونا بالرّسل، وتعلم طاعتنا لك ومعصيتنا؟

فقال الله تبارك وتعالى:

فأنا أُخبركم بالحجّة عليكم الآن في الطاعة والمعصية، والإعذار بعد الإخبار.

قال أبو عبدالله (ع): فأوحى الله إلى مالك خازن النّار: أن مر النّار تشهق، ثمّ تخرج عنقاً منها فخرجت لهم، ثمّ قال لهم: ادخلوها طائعين، فقالوا: لاندخلها طائعين! ثمّ قال: ادخلوها طائعين، أو لأعذبنّكم بها كارهين، قالوا: إنّا هربنا إليك منها، وحاججناك فيها حيث أوجبتها علينا، وصيّرتنا من أصحاب الشمال، فكيف ندخلها طائعين؟ ولكن أبدأ أصحاب اليمين في دخولها، كي تكون قد عدلت فينا وفيهم.

قال أبو عبدالله (ع): فأمر أصحاب اليمين وهم ذرّ بين يديه، فقال ادخلوا هذه النّار طائعين، قال: فطفقوا يتبادرون في دخولها فوجوا فيها جميعاً فصيّرها الله عليهم برداً وسلاماً، ثمّ أجرجهم منها.

ثمّ أنّ الله تبارك وتعالى نادئ في أصحاب اليمين وأصحاب الشمال:

«ألست بربّكم»؟

فقال أصحاب اليمين: بلى ياربّنا نحن بريّتك وخلقك مقرّين طائعين، وقال أصحاب الشمال: بلى ياربّنا نحن بريّتك وخلقك كارهين! وذلك قول الله (تعالى):

﴿وله أسلم مَن في السّموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه تُرجعون﴾ [آل عمران: ٨٣].

قال: توحيدهم لله.

راجع البحار ج ٥، ص ٢٥٥، الحديث ٥٢.

وذكر الصدوق (ره) في كتابه علل الشرايع باسناده عن الصادق (ع) حديثاً آخر في
←

. . . .

← مضمونه وعنه بحار الأنوار ج ٥، ص ٢٤٥، الحديث ٢٥، فراجع.

وروى علي بن إبراهيم القمي في تفسيره ج ١، ص ٣٦، بإسناده عن جابر بن يزيد الجعفي، عن الباقر (ع)، عن آبائه عن أمير المؤمنين (ع) قال:

إنّ الله تبارك وتعالى أراد أن يخلق خلقاً بيده...... إلى أن قال (ع):

فاغترف ربّنا تبارك وتعالى غرفة بيمينه من الماء العذب الفرات ـ وكلتا يديه يمين ـ فصلصلها في كفّه حتّى جمدت، فقال لها:

منك أخلق النبيّين والمرسلين وعبادي الصّالحين والأئمّة المهتدين والدّعاة إلى الجنّة وأتباعهم إلى يوم القيامة، ولا أُبالي ولا أسأل عمّا أفعل وهم يسألون.

ثمّ اغترف غرفة أخرى من الماء المالح الأجاج فصلصلها في كفّه فجمدت، ثمّ قال لها: منك أخلق الجبارين والفراعنة والعتاة وإخوان الشياطين والدّعاة إلى النّار إلى يوم القيامة وأشياعهم، ولا أُبالي ولا أسأل عمّا أفعل وهم يسألون.

قال: وشرط في ذلك البداء فيهم ولم يشترط في أصحاب اليمين البداء. الحديث، فراجع الحديث فهو طويل.

ونقل عنه المجلسي في بحار الأنوار ج ١١، ص ١٠٣، الحديث ١٠، وان شئت الاطلاع أكثر من هذا فراجع بحار الأنوار ج ٥، باب الطينة والميثاق، ص ٢٢٥، وأيضاً ج ٦٧، باب طينة المؤمن وخروجه من الكافر وبالعكس، ص ٧٧، وأصول الكافي ج ٢، باب طينة المؤمن والكافر، ص ٢.

روى الشيخ الجليل المحدّث الكبير ثقة الإسلام الكليني في كتاب التومية عن أصول الكافي ج ١، ص ١٥٢، باب المشيئة والإرادة، الحديث ٦، بإسناده عن أبي الحسن الرّضا (ع) في حديث قال:

قال الله تعالى: إنّي لا أُسأل عمّا أفعل وهم يُسألون.

قال صدر المتألهين (ره) في تفسيره ج ٢، ص ٢٣٢ بعد ذكر هذا الحديث:

قوله: لا أُسأل عمّا أفعل، انّ الأفعال الصادرة منه بلا واسطة، وكذا الصفات الإلهيّةالثابتة له في مقام التوحيد قبلَ عالَم الكثرة ليست فيه شائبة النقص والقبح حتّى يرد فيها السئوال، لأنّ عالَم الإلهيّة كلّه نور وكمال.

أقول: ما قال به صدر المتألّهين حقّ لاريب فيه لما ورد في أحاديث عن موالينا ←

وأودع الكلّ طينة آدم وجمع فيه الأضداد بحكم المجاورة، وأنشأه على الحركة المستقيمة، وذلك في (دولة) دورة السّنبلة، وجعله ذاجهات ستّ: الفوق، وهو مايلي رأسه، والتّحت يقابله وهو مايلي رجليه، واليمين وهو ما (يلي) جانبه الأقوىٰ، والشّمال يقابله (وهو ما يلي) جانبه الأضعف، والأمام وهو مايلي الوجه ويقابله القفاء، وصوّره وعدّله وسوّاه، ثمّ نفخ فيه روحه المضاف إليه فحدث عند هذا النفخ فيه بسريانه في أجزائه أركان الأخلاط الّتي هي الصّفراء والسّوداء والدّم والبلغم، فكانت الصّفراء عن الرّكن النّاري الّذي أنشأه الله منه في قوله تعالى:

﴿من صلصال كالفخّار﴾ [سورة الرّحمن: ١٤].

وكان السّوداء عن التّراب، وهو قوله:

﴿خلقه من تراب﴾ [سورة آل عمران: ٥٩].

وكان الدّم من الهواء وهو قوله:

﴿مسنون﴾ [سورة الحجر: ٢٦].

وكان البلغم من الماء الّذي يحجن به التّراب فصار طيناً، ثمّ أحدث فيه القوّة الجاذبة الّتي بها يجذب الحيوان الأغذية، ثمّ القوّة الماسكة وبها يمسك ما يتغذى به الحيوان، ثمّ القوّة الهاضمة وبها يهضم الغذاء، ثمّ القوّة الدّافعة وبها يدفع الفضلات عن نفسه، من عرق وبخار، ورياح وبراز، وأمثال ذلك.

وأمّا سريان الأبخرة وتقسيم الدّم في العروق من الكبد وما يخلّصه كلّ جزء من

← المعصومين (ع) منها عن مولانا الصادق عليه آلاف التحية والسّلام قال:

«هو نور لا ظلمة فيه، وحياة لا موت فيه، وعلم لا جهل فيه، وحقّ لا باطل فيه».

توحيد الصدوق، باب صفات الذّات، الحديث ١٤، ص ١٤٦.

وأيضاً عن مولانا الباقر (ع) قال:

«إنّ الله تبارك وتعالى، كان ولا شيء غيره، نوراً لا ظلام فيه، وصادقاً لا كذب فيه، وعالماً لا جهل فيه، وحيّاً لا موت فيه، وكذلك هو اليوم، وكذلك لا يزال أبداً». المصدر السابق، الحديث ٥، ص ١٤٠.

الحيوان فبالقوّة الجاذبة لا الدافعة، فحظ القوّة الدّافعة ما تخرجه كما قلنا من الفضلات لا غير.

ثمّ أحدث فيه القوّة الغاذية والمنمّية، والحاسيّة، (الحسيّة) والخياليّة، والوهميّة، والحافظة، والذّاكرة.

وهذا كلّه في الإنسان بما هو حيوان لا بما هو إنسان فقط. غير أنّ هذه القوىٰ الأربعة: قوة الخيال، والوهم، والحفظ، والذّكر، هي في الإنسان أقوىٰ منها في الحيوان. (ثمّ) خصّ آدم الّذي هو الإنسان بالقوّة المصوّرة والمفكّرة، والعاقلة، فتميّز عن الحيوان، وجعل هذه القوىٰ كلّها في هذا الجسم، آلات للنّفس النّاطقة، لتصل بذلك إلى جميع منافعها المحسوسة والمعنويّة، «ثمّ أنشأه خلقاً آخر»، وهو الإنسانيّة، فجعله درّاكاً بهذه القوىٰ حيّاً، عالماً، قادراً، مريداً، متكلّماً، سميعاً، بصيراً، على حدّ معلوم معتاد في اكتسابه:

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٤].

(تخلّق الإنسان بأسماء الحقّ تعالىٰ)

ثمّ إنّه سبحانه ما سمّىٰ نفسه بإسم من الأسماء إلّا وجعل للإنسان من التخلّق بذلك الإسم حظّاً يظهر به في العالم على قدر ما يليق به، ولذلك تأول بعضهم قوله عليه السّلام:

«خلق الله تعالى آدم على صورته»(٢١).

(٢١) قوله: قوله (ع): خلق الله تعالى آدم صورته.

رواه الشيخ الجليل الصدوق (ره) في كتابه التوحيد في باب تفسير قول الله عزّ وجلّ: ﴿كلّ شيء هالك إلّا وجهه﴾، الحديث ١٠، بإسناده عن عليّ أمير المؤمنين (ع) قال: سمع النبيّ (ص) رجلاً يقول لرجلٍ: قبّح الله وجهك ووجه مَن يُشبهك، فقال (ص): مَهْ، لا تقل هذا، فإنّ الله خلق آدم على صورته.

....

قال الصدوق رحمه الله: تركت المشبّهةُ من هذا الحديث أوّله وقالوا: إنّ الله خلق على صورته، فضلّوا في معناه وأضلّوا.

أقول: لايخفى أنّه اعتمد العرفاء في كتبهم في بيان حقيقة الإنسان ومكانته، بهذا الحديث فلذا أصبح هذا الحديث من المنابع والأصول الأصليّة للعرفان النظري ومن الموازين في إثبات صحّة بعض الكشفيّات حول حقيقة الإنسان، وحيث نحن نقوم عادة بتطبيق المعارف العرفانيّة وعرضها على الأحاديث الّتي وردت عن المعصومين عليهم السّلام اهتممنا ببيان بعض المطالب حول هذا الحديث، ونقل بعض الرّوايات في مضمونه في الجزء الأوّل من تفسير المحيط الأعظم ص ٢٤٤ في تعليقنا عليه الرّقم ٣١، فراجع ونذكر هنا أيضاً إضافة إلى ذلك بعض المطالب الأخرى وهو مايلي:

هذا الحديث من غرر الأحاديث، يتضمن معارف جمّة في حقيقة الإنسان وسرّها ومنزلتها في العالم بل الإنسان بنفسه وبوحدته عالم، وفي معناه وردت روايات أخرى سنذكر بعضها إن شاء الله.

ويفهم من الحديث: أنّ الإنسان مظهر تامّ له تعالى ويوجد فيه الأسماء كلّها الجماليّة والجلاليّة، وأنّ حقيقته هي الإسم الأعظم الجامع، كما قال تعالى:

﴿وعلّم آدم الأسماء كُلَّها﴾ [سورة البقرة: ٣١].

فانّ الإنسان مثال تامّ له سبحانه وتعالى ذاتاً وفعلاً وصفتاً، فإنّ للحقّ في كلّ خلق ظهوراً خاصّاً وظهوره، في الإنسان ظهور تامّ وجامع للظهورات فلذا أصبح الإنسان خليفة له تعالى، وقال:

﴿إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾ [سورة البقرة: ٣٠].

وأنّه تعالى خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه وجعله قبلة للملائكة حيث أمرهم للسجود إليه، ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. وقال تعالى:

﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [سورة ص: ٧٢].

وقال: ﴿يا إبليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيديّ﴾ [سورة ص: ٧٥].

ونذكر بعض الأحاديث المطابقة في المعنى للحديث المذكور:

وهي ما يلي:

الف ـ روي عن الصّادق (ع) وعن أمير المؤمنين (ع):

. . . .

← الصّورة الإنسانيّة هي أكبر حج الله على خلقه، وهي الكتاب الّذي كتبه بيده وهي الهيكل الّذي بناه بحكمته، وهي مجموع صور العالمين، وهي المختصر من اللوح المحفوظ، وهي الشاهدة على كلّ غائب، وهي الحجّة على كلّ جاحد، وهي الطّريق المستقيم إلى كلّ خير، وهي الجسر (الصّراط) الممدود بين الجنّة والنّار. نقله السبزواري (ره) في كتابه شرح الأسماء الحسنى ص ١٢، عن الصّافي وعن ابن جمهور.

ب ـ روي عن النبيّ (ص) قال:

إنّ الله خلق آدم فتجلّى فيه. ذكره صدر المتألهين في تفسيره سورة يس ذيل الآية ٦٧ ص ٢٧٤.

ج ـ روى عن النّبي (ص) (بحار الأنوار ج ٧٤، ص ٢٧٠) وعن أمير المؤمنين (ع) في وصيّته لكميل بن زياد (بحار الأنوار ج ٧٧، ص ٤١٤) قالا:

المؤمن مرآة المؤمن.

ومعلوم انّ «المؤمن» من الأسماء الحسنى، كما في قوله تعالى:

﴿هو الله الّذي لا إله إلّا هو الملك القدّوس السّلام المؤمن﴾ [سورة الحشر: ٢٣].

ولا فرق في أن يكون «المؤمن» الثاني هو الله سبحانه والأوّل هو الإنسان الكامل، أو بالعكس، فلا تغفل عن هذا السّر، ويمكن أن يكون المراد من كليهما هو الله سبحانه فيكون هو المرآة لنفسه سبحانه فافهم.

قال محيي الدّين ابن عربي في نصوص الحكم (شرح القيصري ص ١٠٧): «فهو مرآتك في رُؤيتك نفسك، وأنت مرآته في رؤيته أسماءه وظهور أحكامها» قال القيصري: «لأنّ العبد يرى في ذات الحقّ عينه، والحقّ يرىٰ في عين العبد أسمائه».

قال ابن فناري في مصباح الأنس ص ١٩٤: وهي مرتبة قرب الفرائض المعتبر فيها أنّ العبد المتجلّى له آلة لإدراك الحقّ المتجلّي، فهذا ما أشار إليه الشيخ (رض) بقوله: أنت مرآته وهو مرآة أحوالك. (مراده من الشيخ: القونوي في تفسيره).

د ـ عن أمير المؤمنين (ع) قال:

إنّ الله عزّ وجلّ ليس بينه وبين خلقه حجاب. توحيد الصدوق ص ١٨٤، ح ٢١.

وعن الكاظم (ع) قال:

ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه. توحيد الصدوق ص ١٧٩، ح ١٢.

←

. . . .

← أقول: كون الإنسان مرآة وآية هو الحجاب بينه وبين الله سبحانه كما أن هـويّة الإنسان هي عين مرآتيّته.

هناك أقوال وآثار من العلماء والحكماء نأتي ببعضها ولا بأس به:

نقل السيّد بن طاووس في كتابه سعد السّعود ص ٣٢ عن صحف إدريس (ع)، قال: فقال في الصّحف ما هذا لفظه:

فخلق آدم على صورة (صورته كما في البحار) الّتي في اللوح المحفوظ.

وقال بعده: يقول علي بن موسى بن طاووس: فاسقط بعض المسلمين بـعض هـذا الكلام وقال: إنّ الله خلق آدم على صورته، فـاعتقد التـجسيم فـاحتاج المسـلمون إلى تأويلات الحديث، ولو نقله بتمامه استغنى عن التأويل بتصديق، وشهد العقل المستقيم.

راجع البحار أيضاً ج ١١، ص ١٢٠، ج ٥٥ وج ٥٧، ص ١٠١، ج ٨٦.

وذكر السيّد المرتضى علم الهدى (ره) في كتابه تنزيه الأنبياء، ص ١٢٧ أقوالاً في معنى الحديث فقال: ويمكن وجه خامس، وهو أن يكون المعنى: أنّ الله أنشأه على هذه الصورة الّتي شوهد عليها على سبيل الإبتداء، وأنّه لم ينتقل إليها ويتدرّج كما جـرت العـادة في البشر. (انتهى كلام السيّد)، فراجع.

وقال المجلسي رحمه الله بعد ذكر لفظه في بحار الأنوار ج ٤، ص ١٤:

نقول: وفيه وجه سادس ذكره جماعة من شرّاح الحديث، وهو أنّ المراد بـالصّورة: الصفة من كونه سميعاً بصيراً متكلّماً، وجعله قابلاً للاتّصاف بصفاته الكماليّة والجلاليّة على وجه لايفضي إلى التشبيه، والأولى الاقتصار على ما ورد في النصوص عن الصادقين (ع).

وذكر ابن أبي جمهور أيضاً أقوالاً في معنى الحديث في كتابه عوالي اللئالي ج ١، ص ٥٣، فراجع.

قال الغزالي في كتابه احياء علوم الدّين ج ٤، ص ٣٠٦ وعنه الفـيض الكـاشاني في المحجّة البيضاء ج ٨، ص ٢٥، في باب «حقيقة المحبّة وأسبابها»: وأمّا السـبب الخـامس للحبّ فهو المناسبة والمشاكلة، لأنّ شبه الشيء منجذب إليه، والشكل إلى الشكل أميل. إلى أن قال:

وهذا السبب أيضاً يقتضي حبّ الله تعالى لمناسبة باطنة لاترجع إلى المشابهة في الصّور والأشكال بل إلى معان باطنة، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب، وبعضها لايجوز أن يسطر ←

....

← بل يترك تحت غطاء الغبرة حتّى يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السّلوك.

فالّذي يذكر هو قرب العبد من ربّه عزّ وجلّ في الصّفات الّتي أمر فيها بالاقتداء والتخلّق بأخلاق الرّبوبيّة. حتّى قيل: «تخلّقوا بأخلاق الله»، وذلك في اكتساب محامد الصفات الّتي هي من صفات الإلهيّة من العلم والبرّ والإحسان واللطف، وافاضة الخير والرحمة على الخلق، والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحقّ ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة، فكلّ ذلك يقرّب إلى الله سبحانه وتعالى، لابمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصّفات.

وأمّا ما لايجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة الّتي اختصّ بها الآدمي فهي الّتي يؤمئ إليها قوله تعالى:

﴿ويسألونك عن الرّوح قُل الرّوح من أمر ربّي﴾ [سورة الإسراء: ٨٥].

إذ بين أنه أمر ربّاني خارج عن حدّ عقول الخلق، وأوضح من ذلك قوله تعالى:

﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي﴾ [سورة الحجر: ٢٩].

ولذلك أسجد له ملائكته، ويشير إليه قوله تعالى:

﴿إنّا جعلناك خليفة في الأرض﴾ [سورة ص: ٢٦].

إذا لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلّا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله (ص):

«إنّ الله خلق آدم على صورته».

حتّى ظنّ القاصرون أن لا صورة إلّا الصّورة الظاهرة المدركة بالحواسّ فشبّهوا وجسموا وصوّروا، تعالى الله ربّ العالمين عمّا يقول الجاهلون علوّاً كبيراً.

ونختم الكلام بما قال صدر المتألهين في كتابه الأسفار الأربعة ج ١، ص ٢٦٥:

إنّ الباري تعالى خلّاق الموجودات المبدعة والكائنة، وخلق الإنسانيّة مثالاً لذاته وصفاته وأفعاله، فإنّه تعالى منزّه عن المِثل لا عن المثال، فخلق النفس مثالاً له ذاتاً وصفاتاً وافعالاً ليكون معرفتها مرقاةً لمعرفته، وصيّرها ذات قدرة وعلم، وإرادة وحياة، وسمع وبصر، وجعلها ذات مملكة شبيهة بمملكة بارئها، يخلق مايشاء ويختار لما يريد.

وقال في كتابه مفاتيح الغيب ص ٣٢: واعلم أن الباري وحدانيّ الذّات في أوّل الأوّلين، وخليفة الله فرداني الذّات في آخر الآخرين، «كما بدأكم تعودون» فالله سبحانه ربّ ←

على هذا المعنى، وأنزله خليفة عنه في أرضه. إذ كانت الأرض من عالَم التغيير والإستحالات، بخلاف العالَم الأعلى، فيحدث فيهم من الأحكام بحسب مايحدث في العالم الأرضيّ من التغيير. فيظهر لذلك حكم جميع الأسماء الإلهيّة. فلذلك كان خليفة في الأرض دون السّماء والجنّة. ثمّ كان من أمره ما كان: من علم الأسماء، وسجود الملائكة، وإباء إبليس، كما هو معلوم لأهله، وسنذكره إن شاء الله.

(بيان جسوم الإنسانيّة وأنواعها وهي أربعة)

وذلك لأنّ هذا الباب مخصوص بابتداء الجسوم الإنسانيّة. وهي أربعة أنواع: جسم آدم، وجسم حواء، وجسم عيسى، وأجسام بني آدم، وكلّ جسم من هذه الأربعة نشأه (نشؤه) يخالف نشؤ الآخر في السّببيّة مع الإجتماع في الصّورة الجسمانيّة والرّوحانيّة، وإنّما سقنا هذا ونبّهنا عليه لئلّا يتوهّم الضّعيف العقل أنّ القدرة الإلهيّة. أو أنّ الحقائق لا تعطي أن تكون هذه النشأة إلّا عن سبب واحد يعطي بذاته هذا النّشأ. فردّ الله هذه الشّبهة بان أظهر هذا النّشأ الإنساني في آدم بطريق لم يظهر به جسم حوّاء، وأظهر جسم حوّاء بطريق لم يظهر جسم ولد آدم، وأظهر جسم أولاد آدم بطريق لم يظهر جسم عيسى عليه السّلام، وينطلق على كلّ واحد من هؤلاء إسم الإنسان بالحدّ والحقيقة. ذلك ليعلم أن الله بكل شيء عليم، وأنّه على كلّ شيء قدير. ثمّ إن الله سبحانه قد جمع هذه الأربعة الأنواع من الخلق في آية من القرآن في سورة

← الأرض والسّماء، وخليفة الله مرآة تظهر فيها الأسماء، ويرى بها صور جميع الأشياء، وينظر خليفة الله مرآة تظهر فيها الأسماء، ويرى بها صور جميع الأشياء، وينظر بنور عينه إلى نور عين المسمّى، من عرف نفسه فقد عرف ربّه، انتهى قوله رحمه الله.

قال الشاعر باللغة الفارسيّة:

در ازل پرتو حسنت زِتجلّی دم زد
عشق پیدا شد و آتش به همه عالم زد
جلوه‌ای کرد که بیند به‌جهان صورت‌خویش
خیمه در آب و گل مزرعهٔ آدم زد

الحجرات فقال:

يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم (يريد آدم) من ذكر (يريد حوّاء) وأنثى (يريد عيسى، ومن المجموع:) من ذكر وأنثىٰ (يريد بني آدم بطريق النّكاح والتّوالد، فهذه الآية من: جوامع الكلم[٢٢] وفصل الخطاب[٢٣] الّذي أوتي محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

---

(٢٢) قوله: من جوامع الكلم الّذي أوتي محمّد (ص).

في عوالي اللئالي: وقال (ص):

أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً. عوالي اللئالي ج ٤، ص ١٢، الحديث ١٩٤ وأخرج مثله في كنز العمّال ج ١١، ص ٤٤٠، الحديث ٣٢٠٦٩.

وفي مسند أحمد بن حنبل ج ٢، ص ١١٢ عن النّبي (ص) قال: أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه.

وفي صحيح مسلم ج ١، ص ٣٧٠ كتاب المساجد الحديث ٥:

أنّ رسول الله (ص) قال:

فُضِّلْتُ على الأنبياء بستّ: أُعطيتُ جوامع الكلم، ونُصِرتُ بالرّعب، وأُحِلَّتْ لي الغنائم، وجُعِلَتْ لي الأرض طَهوراً ومسجداً، وأُرسلتُ إلى الخلق كافّةً، وخُتِمَ بِيَ النبيّون.

وفيه أيضاً الحديث ٧ و ٨:

وأوتيتُ جوامع الكلم.

وفيه أيضاً الحديث ٦: قال رسول الله (ص):

بعثت بجوامع الكلم.

وروى الصدوق (رض) في الخصال ج ١، باب الخمسة ص ٢٩٢ الحديث ٥٦، عن محمّد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، عن محمّد بن الحسن الصفّار، وسعد بن عبدالله جميعاً، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، وأحمد بن أبي عبدالله البرقي، عن محمّد بن خالد البرقي، عن محمّد بن سنان، عن زياد بن المنذر أبي الجارود، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله (ص):

أعطيت خمساً لم يعطها أحدٌ قبلي: جعلتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً، ونصرتُ بالرّعب، وأُحلّ لي المغنم، وأعطيت جوامع الكلم، وأعطيت الشفاعة.

وروى الشيخ الطّايفة الطّوسي أماليه الجزء الرابع ص ١٠٢، عن محمّد بن محمّد المفيد،

←

ولمّا ظهر جسم آدم كما ذكرناه، ولم تكن فيه شهوة نكاح، وكان قد سبق في علم الحقّ ايجاد التّوالد والتّناسل، والنّكاح في هذه الدّار إنّما هو لبقاء النّوع، فاستخرج من ضِلَع آدم من القُصيرىٰ حواء فَقَصُرت بذلك عن درجة الرّجل، كما قال تعالىٰ:

﴿وللرّجال عليهنّ درجة﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فما تلحق بهم أبداً. وكانت من الضِّلَع للإنحناء الّذي في الضّلوع، لتحنو بذلك على ولدها وزوجها، فحنّو الرّجل على المرأة حنّوه نفسه، لأنّها جزء منه وحنّو المرأة على الرّجل لكونها خلقت من الضِلع، والضِلع فيه إنحناء وإنعطاف.

وعَمَر الله الموضع من آدم الّذي خرجت منه حواء بالشّهوة إليها، إذ لا يبقى في

← عن أبو الحسن أحمد بن محمّد بن الحسن، عن أبيه، عن سعيد بن عبدالله بن موسى، عن محمّد بن عبدالرحمن العرزميّ، عن المعلّى بن هلال، عن الكلبيّ، عن أبي صالح، عن عبدالله ابن عبّاس، قال: سمعت رسول الله (ص) يقول:

أعطاني الله تعالى خمساً، وأعطى عليّاً خمساً: أعطاني جوامع الكلم، وأعطى عليّاً جوامع العلم، وجعلني نبيّاً، وجعله وصيّاً، وأعطاني الكوثر، وأعطاه السلسبيل، وأعطاني الوحي، وأعطاه الإلهام، وأسرىٰ بي إليه، وفتح له أبواب السّماء والحجب حتّى نظر إليّ ونظرت إليه. الحديث. ذكره أيضاً المجلسي (ره) في بحار الأنوار ج ١٨، ص ٣٧٠، الحديث ٧٧.

(٢٣) قوله: وفصل الخطاب الّذي أوتي محمّد (ص).

قال أمير المؤمنين عليّ (ع): وأجزِهِ رسول الله (ص) من ابتعاثك له مقبول الشّهادة، مرضيّ المقالة، ذا منطق عدل، وخطبة فصل. نهج البلاغة الخطبة ٧٢ صبحي صالح.

وأيضاً قال عليه السّلام في خطبة أخرىٰ: سيرته القصد، وسنّته الرّشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل. نهج البلاغة الخطبة ٩٤ صبحي صالح.

وفي الخصال للشيخ الجليل الصدوق (رض) ج ٢، ص ٤١٤ الحديث ٤، عن الصادق (ع) قال: قال أمير المؤمنين (ع):

والله لقد أعطاني الله تبارك وتعالى تسعة أشياء لم يعطها أحداً قبلي خلا النبيّ (ص): لقد فتحت لي السّبل، وعلّمت الأنساب، وأجرى لي السّحاب، وعلّمت المنايا والبلايا وفصل الخطاب. الحديث.

الوجود خلاء. فلمّا عمره بالهواء حنّ إليها حنينه إلى نفسه لأنّها جزء منه، وحنّت إليه لكونه موطنها الّذي نشأت منه، فحبّ حوّا حبّ الموطن، وحبّ آدم حبّ نفسه، ولذلك يظهر حبّ الرّجل للمرأة إذ كانت عينه، وأعطيت المرأة القوّة المعبّر عنها بالحياء في محبة الرّجال فقويت على الإخفاء، لأنّ الموطن لايتحدّ بها اتّحاد آدم بها.

فصوّر في ذلك الضّلع جميع ما صوّره وخلقه في جسم آدم، فكان نشؤ جسم آدم في صورته كنشؤ الفاخوريّ فيما ينشئه من الطين والطبخ، وكان نشؤ حواء نشؤ النّجار فيما ينحته من الصّور في الخشب، فلمّا نحتها في الضِلَع، وأقام صورتها وسوّاها وعدّلها، نفخ فيها من روحه فقامت حيّة ناطقة أنثى، ليجعلها محلاً للزراعة والحرث لوجود الإنبات الّذي هو التناسل، فسكن إليها وسكنت إليه، وكانت لباساً له وكان لباساً لها، قال تعالىٰ:

﴿هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ﴾ [سورة البقرة: ١٨٧].

وسرت الشّهوة منه في جميع أجزائه فطلبها.

فلمّا تغشّاها وألقى الماء في الرّحم، ودار بتلك النّطفة من الماء دم الحيض الّذي كتبه الله على النّساء، تكوّن في ذلك الجسم جسم ثالث على غير ما تكوّن منه جسم آدم وجسم حواء، فهذا هو الجسم الثالث، فتولّاه الله بالنشؤ في الرّحم حالاً بعد حال بالإنتقال من ماء إلى نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظم، ثمّ كسا العظم لحماً، فلمّا تمّ نشأته الحيوانيّة، أنشاه خلقاً آخر، فنفخ فيه الرّوح الإنساني.

﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [سورة المؤمنون: ١٤].

ولولا طول الأمر لبيّنا تكوينه في الرّحم حالا بعد حال، ومن يتولّ ذلك من الملائكة الموكّلين بإنشاء الصّور في الأرحام إلى حين الخروج، ولكن الغرض الإعلام بانّ الأجسام الإنسانيّة، وإن كانت واحدة في الحدّ والحقيقة والصّورة الحسيّة والمعنويّة، فإنّ أسباب تأليفها مختلفة، لئلّا يتخيّل أن ذلك لذات السّبب تعالى الله، بل ذلك راجع إلى فاعل مختار يفعل ما يشاء كيف يشاء من غير تحجير ولا قصور على أمر دون أمر.

﴿لا إله إلّا هو العزيز الحكيم﴾ [سورة آل عمران: ١٨].

ولمّا قال أهل الطّبيعة: إنّ ماء المرأة لايتكوّن منه شيء، وإن الجـنين الكـائن في الرّحم إنّما هو من الرّجل، لذلك جعلنا تكوين جسم عيسى تكويناً آخر وإن كـان تدبيره في الرّحم تدبير أجسام البنين، فان كان من ماء المرأة:

«إذ تمثّل لها الرّوح بشراً سوياً» (٢٤).

أو كان عن نفخ بغير ماء، فعلى كلّ وجه هو جسم رابع مغاير في النشؤ غيره من أجسام النّوع، ولذلك قال تعالى: إنّ مثل عيسى ((أي) إنّ صفة نشؤ عيسى) عند الله كمثل آدم خلقه من تراب (الضّمير يعود على آدم، ووقع الشّبه في خلقه من غير أب، أي صفة نشأه (نشئه) صفة نشأ آدم إلّا أن آدم خلقه من تراب ثمّ قال له: كن.

ثمّ إنّ عيسى على ما قيل لم يلبث في بطن مريم لبث البنين المعتاد لأنّه أسرع إليه التكوين لمّا أراد الله أن يجعله آية ويرد به على الطبيعيين حيث حكموا على الطّبيعة بما أعطتهم من العادة، لا بما تقتضيه ممّا أودع الله فيها من الأسرار والتكوينات العجيبة، ولقد أنصف بعض حذّاق هذا الشّأن الطّبيعة فقال:

لا نعلم منها إلّا ما أعطتنا خاصّة، وفيها ما لا نعلم.

(العقل إنسان في السّماء كما إنّ الإنسان عقل في الأرض)

فهذا قد ذكرنا ابتداء الجسوم الإنسانيّة، وأنّها أربعة أجسام، مختلفة النشؤ (النشأ) كما قررنا، وأنّه آخر المولّدات، وهو (فهو) نظير العقل الأوّل، وبه ارتبط، لأنّ الوجود دائرة، فكان إبتداء الدائرة وجود العقل الأوّل (الّذي ورد في الخبر أنه أوّل ما خلق الله العقل) (٢٥).

---

(٢٤) قوله: إذ تمثّل لها... إلخ.

اقتباس من الآية القرآنيّة في سورة مريم الآية ١٧:

﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّا﴾.

(٢٥) قوله: الّذي ورد في الخبر أنّه: «أوّل ما خلق الله العقل».

فهو أوّل الأجناس، وانتهى الخلق إلى الجنس الإنساني فكملت الدائرة واتّصل الإنسان بالعقل كما يتّصل آخر الدائرة بأولها، فكانت دائرة، وما بين طرفي الدّائرة جميع ما خلق الله من أجناس العالم بين العقل الأوّل الّذي هو القلم أيضاً، وبين الإنسان الّذي هو الموجود الآخر، ولمّا كانت الخطوط الخارجة من النقطة الّتي في وسط الدّائرة إلى المحيط الّذي وجد عنها، تخرج على السّواء لكلّ جزء من المحيط، كذلك نسبة الحقّ تعالىٰ إلى جميع الموجودات نسبة واحدة، فلا يقع هناك تغيير البتّة، وكانت الأشياء كلّها ناظرة إليه وقابلة منه ما يهبها نظر أجزاء المحيط إلى النقطة.

وأقام سبحانه هذه الصّورة الإنسانيّة بالحركة المستقيمة صورة العَمَد الّذي للخيمة، فجعله لقبة هذه السّماوات، فهو سبحانه يمسكها أن تزول بسببه فعبّرنا عنه بالعَمَد، فإذا فنيت هذه الصّورة ولم يبق منها على وجه الأرض متنفس.

﴿وانشقت السّماء فهي يومئذٍ واهية﴾ [سورة الحاقّة: ١٦].

لأنّ العَمد زال وهو الإنسان.

ولمّا انتقلت العمارة إلى الدّار الآخرة بانتقال الإنسان إليها وخربت الدّنيا بانتقاله عنها، علمنا قطعاً أنّ الإنسان هو العين المقصود لله من العالَم وأنّه الخليفة حقّاً، وأنّه محل ظهور الأسماء الإلهيّة، وهو الجامع لحقايق العالم كلّه من مَلَك، وفَلَك، وروح وجسم، وطبيعة، وجماد، وحيوان، إلى ماخصّ به من علم الأسماء الإلهيّة مع صغر

← روى البرقي (ره) في المحاسن ج ١، ص ١٩٦ الحديث ٢٢ من باب العقل، بإسناده عن سماعة ابن مهران عن الصادق (ع) قال:

إنّ الله خلق العقل وهو أوّل خلق خلقه من الرّوحانيّين عن يمين العرش من نوره، الحديث.

واخرج أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء ج ٧، ص ٣١٨، بإسناده عن عايشة عن (ص)، قال:

أوّل ما خلق الله سبحانه وتعالى العقل، فقال أقبل فأقبل، ثمّ قال أدبر فأدبر، ثمّ قال: ما خلقت شيئاً أحسن منك، بك آخذ، وبك أعطي، الحديث.

وراجع أيضاً تعليقنا الرقم ٧٥ في الجزء الأوّل ص ٣١٧.

حجمه وجرمه، وإنّما قال الله فيه بأنّ:

﴿لخلق السّموات والأرض أكبر من خلق النّاس﴾ [سورة غافر: ٥٧].

لكون الإنسان متولّداً عن السّماء والأرض فيما له كالأبوين رفع الله مقدارهما:

﴿ولكنّ أكثر النّاس لايعلمون﴾ [غافر: ٥٧].

فلم يرد في الجرميّة فان ذلك معلوم حسّاً.

(ابتلاء الإنسان بقوّة العقل والتفكّر)

غير أنّ الله تعالىٰ ابتلاه ببلاء ما ابتلى به أحداً من خلقه إمّا لأن يُسعده أو يُشقيه على حسب ما يوفقه إلى استعماله، فكان البلاء الّذي ابتلاه به أن خلق فيه قوّة تسمّى الفكر وجعل هذه القوّة خادمة لقوّة أخرىٰ تسمّى العقل، وجبر العقل مع سيادته على الفكر أن يأخذ منه ما يعطيه ولم يجعل للفكر مجالاً إلّا في القوّة الخياليّة، محلاً جامعاً لما تعطيها القوّة الحسّاسة وجعل له قوّة يقال لها: المصوّرة، فلا يحصل في القوّة الخياليّة إلّا ما أعطاه الحسّ، أو أعطته القوّة المصوّرة ومادّة المصوّرة من المحسوسات، فتركب صوراً لم يوجد لها عين، لكن أجزاءها كلّها موجودة حسّاً، وذلك لأنّ العقل خلق ساذجاً ليس عنده من العلوم النظريّة شيء، وقيل للفكر: ميّز بين الحقّ والباطل الّذي في هذه القوّة الخياليّة فينظر بحسب ما يقع له فقد يحصل في شبهة، وقد يحصل فيّ دليل عن غير علم منه بذلك، ولكن في زعمه أنّه عالم بصور الشّبه من الأدلة وأنهّ قد حصل على علم ولم ينظر إلى قصور الموادّ الّتي استند إليها في إقتناء العلوم فتقبلها العقل منه ويحكم بها فيكون جهله أكثر من علمه بما لا يتقارب.

(تكليف العقل بمعرفة الحقّ سبحانه)

ثمّ إنّ الله كلّف هذا العقل معرفة سبحانه ليرجع إليها فيها لا إلى غيره، ففهم العقل نقيض ما أراد به الحقّ بقوله تعالىٰ:

﴿أَوَ لَمْ يتفكّروا﴾ [سورة الأعراف: ١٨٤].

﴿لقوم يتفكّرون﴾ [سورة يونس: ٢٤].

واستند إلى الفكر وجعله إماماً يقتدىٰ به، وغفل عن الحقّ في مراده بالتفكّر إنّه خاطبه أن يتفكّر فيرىٰ أن علمه بالله لا سبيل إليه إلّا بتعريف الله فينكشف له عن الأمر على ما هو عليه، فلم يفهم كلّ عقل هذا الفهم إلّا عقول خاصّة الله من أنبيائه وأوليائه.

يا ليت شعري هل بأفكارهم قالوا: بلى، حين أشهدهم على أنفسهم في قبضة الذرّية من ظهر آدم؟ لا والله، بل عناية إشهاده إيّاهم ذلك عند أخذه إيّاهم عنهم من ظهورهم، ولمّا رجعوا إلى الأخذ عن قواهم المفكّرة في معرفة الله لم يجتمعوا قطّ على حكم واحد في معرفة الله وذهب (ذهبت) كلّ طايفة إلى مذهب، وكثرت المقالة (القالة) في الجناب الإلهي الأحمىٰ، واجترؤا غاية الجرأة على الله، وهذا كلّه من الإبتلاء الّذي ذكرناه من خلقة الفكرة في الإنسان.

وأهل الله افتقروا إليه فيما كلّفهم من الإيمان به في معرفته، وعلموا أنّ المراد منهم رجوعهم إليه في ذلك، وفي كلّ حال، فمنهم من قال: «سبحان من لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلّا العجز عن معرفته».

ومنهم من قال: «العجز عن درك الإدراك إدراك»(٢٦).

---

(٢٦) قوله: ومنهم من قال: العجز عن درك الإدراك إدراك.

قال ابن عربي في الفصّ الشيثي من فصوص الحكم (شرح القيصري ص ١٠٨):

فمنّا من جهل في علمه فقال: العجز عن درك الإدراك إدراك.

أقول: قال الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه في ذيل هذه الجملة في تعليقاته على شرح الفصوص (ص ٥٨):

ليس العجز عن إدراك الإدراك إدراكاً بل إدراك العجز الكذائي إدراك كما يقال: غاية عرفان أهل المعرفة العجز عنها، ولعلّه سمع شيئاً ولم يحفظه فقال ما قال: انتهى.

وقال الشيخ الأكبر: «ومنّا من علم ولم يقل بمثل هذا».

←

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم:

«لا أحصي ثناءاً عليك»(٢٧).

← أقول: بل قال: «لو كشف الغطاء لمزددت يقيناً».

وقال الشيخ الأكبر: وليس هذا العلم إلّا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء.

أقول: كما قال رسول الله (ص) لعليّ عليه السّلام: ياعلي! «إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى، إلّا أنّك لستَ بنبيّ». نهج البلاغة الخطبة القاصعة ١٩٢ صبحي صالح.

(٢٧) قوله (ص): لا أحصي ثناءاً عليك.

رواه ابن أبي جمهور في عوالي اللئالي ج ٤، ص ١١٣، الحديث ١٧٦ وقال:

وروى في الحديث أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾ سجد النّبي (ص) فقال في سجوده: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا احصى ثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك».

وجاء أيضاً في كتاب «مصباح الشريعة» المنسوب إلى الإمام الصادق (ع)، في آخر الباب الخامس (في الذكر) وعنه بحار الأنوار ج ٩٣، ص ١٥٨، الحديث ٣٣.

ورواه أيضاً السيّد ابن طاووس في كتابه اقبال الأعمال ص ٤٨ باسناده في دعاء عن الصادق (ع) قال:

أللّهمّ إنّي أعوذ بعفوك من عقوبتك وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بطاعتك من معصيتك، وأعوذ بك منك جلّ ثناؤ وجهك لا أحصى الثناء عليك ولو حرصتُ، وأنت كما أثنيت على نفسك سبحانك وبحمدك.

وفي دعاء آخر ذكره السيّد أيضاً في فلاح السائل ص ١٤٢:

وأعوذ بك منك لا إله إلّا أنت لا ابلغ مدحتك ولا الثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك. عنه البحار ج ٨٧، ص ٦٨.

وأخرجه ابن ماجة في سننه ج ١، ص ٣٧٢، باب ١١٧ ما جاء في القنوت في الوتر، الحديث ١١٧٩، بإسناده عن عليّ (ع):

أنّ النبيّ (ص) كان يقول في آخر الوتر:

أللّهم إنّي أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءاً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

←

وقال تعالى:

﴿ولا يحيطون به علماً﴾ [سورة طه: ١١٠].

فرجعوا إلى الله في المعرفة به وتركوا الفكر في مرتبته ووفوه حقه لم ينقلوه إلى مالا ينبغي له التفكّر فيه، وقد ورد النّهي عن التفكّر في ذات الله، والله يقول:

﴿ويحذّركم الله نفسه﴾ [سورة آل عمران: ٢٨ و ٣٠].

فوهبهم الله من معرفته ما وهبهم، وأشهدهم من مخلوقاته ومظاهره ما أشهدهم فعلموا أنّه ما يستحيل عقلاً من طريق الفكر، لايستحيل نسبة إلهيّة، فالّذي ينبغي للعاقل أن يدين الله به في نفسه أن يعلم:

﴿انّ الله على كلّ شيء قدير﴾.

من ممكن ومحال ولا كلّ محال، نافذ الاقتدار، واسع العطاء، ليس لإيجاده تكرار، بل أمثال تحدث في جوهر أوجده [٢٨]، وشاء بقاءه، ولو شاء أفناه مع الأنفاس.

← وأخرجه أيضاً في ج ٢، باب ٣ ما تعوّذ منه رسول الله (ص)، ص ١٢٦٢، الحديث ٣٨٤١.

وأخرجه أيضاً مثله مسلم في صحيحه ج ١، كتاب الصّلاة، ص ٣٥٢، الحديث ٢٢٢.

وأخرجه أيضاً ابن حنبل في مسنده ج ١، ص ٩٦ وص ١١٨ وص ١٥٠ وج ٦، ص ٥٨.

وفي جامع الترمذي ج ٥، كتاب الدعوات، باب ٧٦، الحديث ٣٤٩٣، ص ٥٢٤.

راجع أيضاً في هذا الدعاء تعليقنا الرقم ١٤٤.

(٢٨) قوله: «ليس لإيجاده تكرار، بل أمثال تحدث في جوهر.

يعني انّه «لا تكرار في التجلّي»، بل الواقع في الموجودات «هو تجدّد الأمثال» وتبدّلها، ومن هذا المبني، نشأ القول «بالحركة الجوهريّة» في الحكمة المتعاليّة، وهذا القولان كحقيقة واحدة، فهي في العرفان تلاحظ بالنّسبة إلى الموجودات كلّها والعالم كلّه، فعُنونت بالتّجدد الأمثال، وفي الحكمة المتعالية يلاحظ بالنسبة إلى الطبيعة والموجودات الطبيعيّة، فعُنونت بالحركة الجوهريّة، وكأنّ الحركة الجوهريّة مرتبة نازلة من التجدّد الأمثال.

←

. . . .

→ والثابت في الحركة الجوهريّة هو الصّورة، كما أنّ الثابت في التجدّد الأمثال وتبدّل العالم هو أمر الله الواحدة ووجهه الباقي المعبّر عنه بالوجود المطلق والوجود الساري والوجود المنبسط والظلّ الممدود، كما قال الله تعالى:

﴿وما أمرنا إلّا واحدة﴾ [سورة القمر: ٥٠.]

﴿فأينما تولّوا فثمّ وجه الله﴾ [سورة البقرة: ١١٥].

﴿كلّ شيء هالك إلّا وجهه﴾ [سورة القصص: ٨٨].

وعلى هذا لايبقى شيء من الموجودات من الأعراض والجواهر والمجرّدات، على حالين فيتبدّل العالم كلّ آن، هذا بسبب استمرار الفيض من الحقّ سبحانه وتعالى، فالعالم كما يحتاج إلى العلّة في الحدوث كذلك يحتاج إليها في البقاء كما قال تعالى:

﴿يسأله من في السّموات والأرض كلّ يوم هو في شأن﴾ [سورة الرّحمن: ٢٩].

وقال:

﴿أفعيينا بالخلق الأوّل بل هم في لبس من خلق جديد﴾ [سورة ق: ١٥].

ومعنى تجدّد الأمثال وحقيقته هو الإخفاء والإظهار وعُبّر عنه أحياناً بالإعدام والإيجاد، كما قيل:

ولا أقول بتكرار الوجود ولا عود الوجود فما في الأمر تكرار
البحر بحر على ما كان من قدم إن الحوادث أمواج وأنهار
لايحجبنك أشكال مشكلةً عمّن تشكل فيها فهي أستار
وكن فطينا بها في أيّ مظهره فإنّ ذا الأمر إخفاء وإظهار

ونعم ما قال فقيه العرفاء وعارف الفقهاء الإمام الخميني (رض) في المقام:

ليس هذا الإعدام إعداماً مطلقاً حتّى يكون الإيجاد من قبيل اعادة المعدوم، بل الإعدام هو الإدخال تحت الأسماء الباطنة المناسبة، والإيجاد هو الإظهار من الأسماء الظاهرة المناسبة. راجع تعليقاته على الفصوص ص ١٩١.

وإليك بعض عبادات القوم حول تجدّد الأمثال:

قال الشيخ الأكبر في الفتوحات (ج ٣، ص ١٧٢، ط ج) (ج ١، ص ١٨٤ ط ق):

فإنّ الله تعالى لايكرّر تجلّياً على شخص واحد، ولا يشرّك فيه بين شخصين للتوسّع الإلهي، وإنّما الأمثال والأشباه توهم الرّائي والسّامع للتشابه الّذي يعسر فصله إلّا على أهل ←

. . . .

← الكشف.

وقال أيضاً في الباب الثالث والسبعون في السؤال الثامن:

فتحدثُ نشأة الإنسان مع الأنفاس ولا يشعر بها، وهو قوله تعالى:

﴿وننشئكم فيما لاتعلمون﴾ [سورة الواقعة: ٦١].

يعني مع الأنفاس، ففي كلّ نفس له فينا إنشاء جديد بنشأة جديدة، ومن لا علم له بهذا فهو:

﴿في لبس من خلق جديد﴾ [سورة ق: ١٥].

لأنّ الحسّ يحجبه بالصورة الّتي لم يحسّ بتغييرها مع ثبوت عين القابل للتغيير مع الأنفاس.

قال في الفصوص، الفصّ الشيثي (شرح القيصري ص ١٧٧):

فما في الحضرة الإلهيّة لاتّساعها شيء يتكرّر أصلاً.

قال القيصري: وذلك لأنّ الأسماء غير متناهية، والفائض أيضاً من اسم واحد بحسب شخصيّته يغاير ماهو مثله، فإنّ مثلين أيضاً متغايران، فلا تكرار أصلاً، لذلك قيل: «إنّ الحقّ لا يتجلّى بصورة مرتين»، ولمّا كان الحقّ المشهود عند: انّ الأعراض والجواهر في كلّ آن يتبدّل ولا تكرار قال: «وهذا هو الحقّ الّذي يعوّل عليه»...... فالمستفيض سواءً كان عقولاً ونفوساً مجرّدة، أو أشياء زمانية يحصل لهم في كلّ آنٍ وجود مثل الوجود الأوّل ولا تكرار، وهكذا فيما يتبعه. انتهى. (أي يتجدّد الوجود في كمالات وجود الشيء أيضاً).

قال القيصري في موضع آخر (ص ٢٨٩): ويظهر هذا المعنى في النّار المشتعلة من الدّهن والفتيلة، فإنّه في كلّ آنٍ يدخل منها شيء في تلك النّاريّة ويتّصف بالصّفة النورانيّة، ثمّ يذهب تلك الصّورة بصيرورته هواء، وهكذا شأن العالم بأسره فإنّه يستمد دائماً من الخزائن الإلهيّة فيفيض منها ويرجع إليها.

أقول: فلاحظ أيضاً إستمرار ضوء مصباح كهربائي بسبب الطّاقة الكهربائيّة، واستمرار الصورة على شاشة التلفزيون، وغير ذلك من الأمور المختلفة الّتي يريد إستمرار الشيء فيها بسبب إستمرار وصول الطاقة من أصله، ولكنّا نتخيّل أنّه شيء واحد، وأنّه ثابت، وأنّه مستقلّ!.

وأدقّ الأمثلة في هذا المورد الصّور الذهنيّة، الّتي تستمر وجودها في الذهن مادام ←

﴿لا إله إلّا هو العزيز الحكيم﴾ [سورة آل عمران: ١٨].

وهذا آخر كلامه في هذا الباب، أي في إيجاد العالم وإيجاد آدم من العلو إلى السّفل، ومن السّفل إلى العلو، وقد سبق من كلام مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام في هذه المقدمة أمثال ذلك بالنّسبة إليها، وهذه قاعدتنا في هذا الكتاب وغيره، أعني إذا جرىٰ منّا كلام في تحقيق شيء من الأشياء لابدّ وأن نقوم بالإستشهاد فيه أوّلاً من كلام الله تعالىٰ ثمّ كلام أنبيائه ثمّ كلام أوليائه، ثمّ كلام المشايخ، ومن المشايخ أعظمهم وأشرفهم، ومعلوم أنّ الشّيخ الأعظم محيي الدّين الأعرابي قدّس

← الإنسان متوجّهاً إليها، ومعلوم أنّ التوجّه من الإنسان للصور يفيض الوجود إليها، ووجودها باق مادام التوجّه باقٍ وإفاضة الوجود يستمر ويتجدّد آناً فآناً، من عرف نفسه فقد عرف ربّه.

قال ابن فناري في مصباح الأنس ص ٢٩٠: إن قلت: فالمتماثلات المتّحدة في صورة المعلوميّة الّتي هي الحقيقة المشتركة كيف يختلف أحكامها وصورها ومدبّر الكلّ الإسم المتعيّن بتلك الحقيقة فيكون الأسماء أيضاً متماثلة.

قلت: بين كلّ إسم وإسم فروق شتّى وإنّ تُوهّمت المثليّة، وذلك لأنّ الشيئين يمتنع إتّحادهما من كلّ وجه ولا اختلاف إلّا باختلاف بعض الحقايق الّتي تعيّن المجموع منها فبذلك تعيّن لكلّ مجموع إسم برأسه وامتنع التكرار في التجلّي (لأنّه) عبث وتحصيل للحاصل.

قال صدر المتألّهين في الأسفار ج ٧، ص ٣٢٨:

«فالفيض من عند الله باق دائم، والعالم متبدّل زائل في كلّ حين، وإنّما بقاءه بتوارد الأمثال كبقاء الأنفاس في مدّة حياة كلّ واحد من الناس، والخلق في لبس وذهول عن تشابه الأمثال وتعاقبها على وجه الاتّصال».

ونختم الكلام بما قال به الحكيم السبزواري المنظومة ص ٢٤٩:

وجوهريّة لدينا واقعة ... إذ كانت الأعراض كلّاً تابعة
والطبع ان يثبت فينسدّ العطاء ... بالثابت السيّال كيف ارتبطا
وفي استحالة العلوم ظاهر ... إذ صور الجواهر جواهر
ثمّ اتّحاد العرضى بالعرض ... إلّا في الاعتبار مثبت الغَرض
تجدّد الأمثال كونا ناصري ... إذ الوجود جوهر في جوهر

الله سرّه من أعظم المشايخ وأشرفهم من المتقدّمين والمتأخرين، وبرهانه في هذا واضح، ولا يخفىٰ على أحد صحته إذا اطّلع على علومه ومقاماته.

وإذا فرغنا من هذا الباب من كلامه فلنشرع في باب آخر من كلامه في هذا المعنىٰ أي في إيجاد العالم وترتيبه، وإيجاد الإنسان وتحقيقه وهو هذا وبالله العصمة والتوفيق.



الباب السّتّون (٢٩)

في معرفة العناصر وسلطان العالم العلوي على العالم السّفليّ، وفي أيّ دورة كان وجود هذا العالم الإنساني من دورات الفلك الأقصى، وأيّة روحانيّة لنا

(في استناد كلّ شيء إلىٰ حقائق إلٰهيّة)

إعلم، أنّ كلّ شيء من الأكوان لابدّ أن يكون إستناده إلى حقايق إلٰهيّة فكلّ علم مُدرَج في العلم الإلٰهيّ، ومنه تفرّعت العلوم كلّها وهي منحصرة في أربع مراتب وكلّ مرتبة تنقسم إلى أنواع معلومة محصورة عند العلماء وهو العلم المنطقيّ، والعلم الرّياضيّ، والعلم الطبيعيّ، والعلم الإلٰهيّ.

(المطلوب من الحقايق الإلٰهيّة أربع نِسَب)

والعالم يطلب من الحقايق الإلٰهيّة أربع نسب: الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، إذا ثبتت هذه الأربع النّسب للواجب الوجود، صحّ أنّه الموجد للعالم بلاشكّ، فالحياة والعلم، أصلان في النّسب، والإرادة والقدرة دونهما، والأصل الحياة، فإنّها الشّرط في وجود العلم، والعلم له عموم التعلّق، فانّه يتعلّق بالواجب الوجود وبالممكن وبالمحال، والإرادة دونه في التعلّق فانّه لاتعلّق لها إلّا بالممكن في ترجيحه بإحدى الحالتين من الوجود والعدم، فكأنّ الإرادة تطلبها الحياة فهي كالمنفعلة عنها، فإنّها أعمّ تعلّقاً من القدرة، والقدرة أخصّ تعلّقاً فإنّها تتعلّق بايجاد الممكن لا بإعدامه، فكأنّها كالمنفعلة عن العلم لأنّها من الإرادة بمنزلة العلم من الحياة.

---

(٢٩) قوله: الباب السّتّون.

راجع الفتوحات المكيّة الجزء الأوّل، ص ٢٩٢ ط ق، والجزء الرّابع، ص ٣٤٠ ط ج.

(العالم بالنسبة إلى الحقّ سبحانه منفعل وبالنظر إلى نفسه)
(فمنه فاعل ومنه منفعل)

فلمّا تميّزت المراتب في النّسب الإلهيّة،تميّز الفاعل عن المنفعل، خرج العالم على هذه الصّورة فاعلاً ومنفعلاً، فالعالم بالنّسبة إلى الله من حيث الجملة منفعل محدث، وبالنّظر إلى نفسه فمنه فاعل ومنفعل.

(أُصول ظهور الصّور ومراتب العناصر في العالم)

فأوجد الله سبحان العقل الأوّل من نسبة الحياة، وأوجد النّفس من نسبة العلم، وكان العقل في وجود النّفس، كالحياة شرط في وجود العلم وكان المنفعلان عن العقل والنّفس، الهباء والجسم الكلّ، فهذه الأربعة أصل ظهور الصّور في العالَم، غير أنّ بين النّفس والهباء مرتبة الطبيعة، وهي على أربع حقايق، منها اثنان فاعلان، واثنان منفعلان، وكلّها في رتبة الإنفعال بالنّظر إلى من صدرت عنه، فكانت الحرارة والبرودة والرّطوبة واليبوسة، فاليبوسة منفعلة عن الحرارة، والرّطوبة منفعلة عن البرودة، فالحرارة من العقل، والعقل عن الحياة فكذلك (ولذلك) طبع الحياة في الأجسام العنصريّة، الحرارة والبرودة من النّفس، والنّفس من العلم، ولهذا يوصف العلم إذا استقرّ ببرد النّفس وبالثلج، ومنه قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم حين وجد برد الأنامل بين ثدييه:(٣٠)

«فعلم علم الأوّلين والآخرين».

---

(٣٠) قوله (ص) حين وجد برد الأنامل.

روى علي بن إبراهيم القميّ في تفسيره ج ٢، ص ٢٤٣ في سورة ص الآية ٦٧ ـ ٧٠، بإسناده عن إسماعيل الجعفيّ قال: كنت في المسجد الحرام قاعداً وأبو جعفر (ع) في ناحية، ←

....

←، فرفع رأسه فنظر إلى السّماء مرّة، وإلى الكعبة مرّة، ثمّ قال:

﴿سبحان الّذي أسرىٰ بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصىٰ﴾ [سورة الإسراء: ١].

وكرّر ذلك ثلاث مرّات، ثمّ التفت إليّ فقال: أيّ شيء يقول أهل العراق في هذه الآية ياعراقيّ؟ قلت: يقولون: اسرى به من المسجد الحرام إلى البيت المقدس، فقال: ليس هو كما يقولون، ولكنّه أسرى به من هذه إلى هذه، وأشار بيده إلى السّماء وقال: ما بينهما حرم، قال: فلمّا انتهى به إلى «سدرة المنتهى» تخلّف عنه جبرئيل فقال رسول الله (ص): يا جبرئيل في هذا الموضع تخذلني؟ فقال: تقدّم أمامك فوالله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه أحد من خلق الله قبلك، فرأيت من نور ربّي، وحال بيني وبينه السبخة.

قلت: وما السبخة جعلت فداك؟ فأومأ بوجهه إلى الأرض وأومأ بيده إلى السّماء وهو يقول: جلال ربّي، جلال ربّي ثلاث مرّات.

قال: يا محمّد! قلت: لبيك يا ربّ، قال: فيم اختصم الملأ الأعلىٰ؟

قال: قلت: سبحانك لا علم لي إلّا ما علمتني، قال: فوضع يده (أي يد القدرة) بين ثدييّ فوجدت بردها بين كتفيّ، قال: فلم يسألني عمّا مضى ولا عمّا بقي إلّا علمته، قال: يا محمّد فيم اختصم الملأ الأعلى؟

قال: قلت: يا ربّ في الدرجات والكفّارات والحسنات، فقال: يا محمّد قد انقضت نبوّتك، وانقطع أكلك، فمن وصيّك؟ فقلت: يا ربّ قد بلوت خلقك فلم أرَ فيهم من خلقك أحداً أطوع لي من عليّ، فقال: ولي يا محمّد، فقلت: ياربّ انّي قد بلوت خلقك فلم أر في خلقك أحداً أشدّ حبّاً لي من عليّ بن أبي طالب (ع) قال: ولي يا محمّد، فبشّر بأنه راية الهدىٰ، وإمام أوليائي، ونور لمن أطاعني: والكلمة الّتي ألزمتها المتّقين، من أحبّه احبّني، ومن أبغضه أبغضني، مع أنّي أخصّه بما لم أخصّ به أحداً، فقلت: ياربّ أخي وصاحبي ووزيري ووارثي، فقال: إنّه أمر قد سبق، إنّه مبتلي ومبتلي به، مع ما أنّي قد نحلته ونحلته ونحلته ونحلته أربعة أشياء، عقدها بيده، ولا يفصح بها عقدها.

وأخرج التّرمذي ج ٥، ص ٣٦٦ و ٣٦٧، الحديث ٤، و ٣٢٣٣، بإسناده عن ابن عبّاس، عن رسول الله (ص) قال:

أتاني ربّي في أحسن صورة، فقال: يامحمّد! فقلت: لبّيك وسعديك، قال: هل تدري

←

. . . .

← فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت لا أدري، قال فوضع يده بين كتفيّ فوجدت بَردها بين ثدييّ. فعلمت ما في السماوات وما في الأرض ـ مابين المشرق والمغرب.

وأخرجه أيضاً الدّارمي ج ٢، ص ١٧٠ كتاب الرّويا الحديث ٢١٤٩. وأحمد بن حنبل في مسنده ج ١، ص ٣٦٨ وج ٤، ص ٦٦ وج ٥، ص ٢٤٣. والسّيوطي في الدّر المنثور ج ٣، ص ٣٠١. وابن حجر في المطالب العالية ج ٣، ص ٣٦٣. الحديث ٣٧١٨ في تفسير سورة ص.

وروى ابن أبي جمهور في عوالي اللئالي ج ١، ص ٥٢، الحديث ٧٦. قال فيه: وروي عنه (ص) إنّه قال: رأيت ربّي ليلة المعراج في أحسن صورة فوضع يده بين كتفي حتّى وجدت برد أنامله بين ثديي.

وقال بعد ذكره:

وفي بعض كتب الأصحاب، عن بعض الصادقين أنّه (ع) قال: وضع يده بين ثدييّ، فوجدت برد أنامله بين كتفي، لأنّه (ع) كان مقبلاً عليه ولم يكن مدبراً عنه.

وفي سنن الدارمي ج ٢، كتاب الوصايا، باب ١٢، ص ١٧٠، الحديث ٢١٤٩ أخرج الحديث أيضاً. وفي نقله بعد قوله (ص): فعلمت ما في السموات والأرض: وتلا (ص) هذه الآية:

﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السّموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ [الأنعام: ٧٥].

وأخرجه الترمذي أيضاً في ص ٣٦٨، ج ٥، الحديث ٣٢٣٥. بإسناده عن معاذ بن جبل قال: أُحتبس عنّا (علينا) رسول الله (ص) ذات غداة عن صلاة الصّبح حتّى كدنا نتراءى عين (قرن) الشّمس، فخرج (رسول الله (ص)) سريعاً فثوّب بالصّلاة، وصلّى رسول الله (ص) وتجوّز في صلاته، فلمّا سلّم دعا بصوته قال لنا على مصافّكم كما أنتم، ثمّ أقبل إلينا، ثمّ قال: أمّا إنّي سأحدّثكم ما حبسني عنكم الغداة: إنّي قمت من اللّيل فتوضأت وصلّيت ما قُدّر لي فنعست في صلاتي حتّى استثقلت (استيقظت). فإذا أنا بربّي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال يامحمّد، قلت: لبّيك ربّ قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري، قالها ثلاثاً، قال فرأيته وَضَعَ كفّه بين كتفيّ حتّى وجدت برد أنامله بين ثدييّ، فتجلّى لي كلّ شيء وعرفت.

←

ولمّا انفعلت اليبوسة والرّطوبة عن الحرارة والبرودة طلبت الإرادة اليبوسة لأنّها في مرتبتها، ولمّا كانت القدرة ماها تعلّق إلّا بالإيجاد خاصّة كان الأحق بها طبع الحياة وهي الحرارة والرّطوبة في الأجسام، وظهرت الصّور والأشكال في الهباء والجسم الكلّ فظهرت السّماء والأرض مرتوقة غير متميّزة.

ثمّ إنّ الله تعالى توجّه إلى فتق هذا الرّتق ليميّز أعيانها وكان الأصل الباقي وجودها، ولهذا قال:

﴿وجلعنا من الماء كلّ شيء حيّ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠].

ولحياته وصف بالتّسبيح، فنظم الله أوّلاً هذه الطبايع الأربع نظماً مخصوصاً، فضمّ الحرارة إلى اليبوسة فكانت النار البسيطة المعقولة فظهر حكمها في جسم العرش الّذي هو الفلك الأقصىٰ والجسم الكلّ في ثلاثة أماكن، منها المكان الواحد سمّاه حَمَلاً، والمكان الثاني وهو الخامس من الأمكنة المقدّرة فيه سمّاه أسداً، والمكان الثالث وهو التّاسع من الأمكنة المقدّرة فيه سمّاه قوساً.

ثمّ ضمّ البرودة إلى اليبوسة، وأظهر سلطانها في ثلاثة أمكنة من هذا الفلك وهو التّراب البسيط المعقول فسمّى المكان الواحد ثوراً، والآخر سُنبلة، والثّالث جَدْياً.

ثمّ ضمّ الحرارة إلى الرّطوبة فكان الهواء البسيط المعقول، وأظهر حكمه في ثلاثة أمكنة من هذا الفلك الأقصى سمّى المكان الواحد منه الجوزاء، والآخر الميزان، والثالث الدالي.

← فقال يا محمّد، قلت لبيّك ربّ، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات، قال ما هنّ؟ قلت: مشي الأقدام إلى الحسنات، والجلوس في المساجد بعد الصّلوات، وإسباغ الوضوع حين الكريهات، قال فيم، قلت: اطعام الطعام، ولين الكلام، والصّلاة باللّيل والنّاس نيام، قال: سَل، قل اللّهمّ إنّي أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبّ المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة قوم، فتوفّني غير مفتون، أسألك حبّك وحبّ من يحبّك، وحبّ عمل يقرّب إلى حبّك.

قال رسول الله (ص): إنّها حقّ فادرُسوها ثمّ تعلّموها.

وأخرج ابن حنبل مثله في ج ٥، ص ٢٤٣.

ثمّ ضمّ البرودة إلى الرّطوبة فكان الماء البسيط وأظهر حكمه في ثلاثة أمكنة من الفلك الأقصى، سمّي المكان الواحد السرطان، وسمّي الآخر بالعقرب، وسمّي الثّالث بالحوت، فهذا تقسم فلك البروج على اثنى عشر قسماً مفروضة تعيّنها الكواكب الثّمانية والعشرون، وذلك بتقدير العزيز العليم.

فلمّا أحكم صنعتها وترتيبها وأدارها، فظهر الوجود مرتوقاً فأراد الحقّ فتقه ففصل بين السّماء والأرض، كما قال تعالى:

﴿كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠].

أي ميّز بعضها عن بعض، فأخذت السّماء عُلواً دخاناً فحدث فيما بين السّماء والأرض، ركنان من المركبات: الرّكن الواحد الماء المركّب ممّا يلي الأرض، لأنّه بارد رطب فلم يكن له قوّة الصعود، فبقي على الأرض تمسكه بما فيها من اليبوسة عليها.

والآخر النّار وهي أُكرة الأثير ممّا يلي السّماء لأنّه حار يابس فلم يكن له طبع النّزول إلى الأرض فبقي ممّا يلي السّماء من أجل حرارته، واليبوسة تُمسكه هناك.

وحدث مابين النّار والماء ركن الهواء من حرارة النّار ورطوبة الماء فلا يستطيع أن يلحق بالنّار، فانّ ثقل الرّطوبة يمنعه أن يكون بحيث النّار وان طلبت الرّطوبة تُنزله إلى أن يكون بحيث (الماء) تمنعه الحرارة من النّزول فلمّا تمانعا لم يبق إلّا أن يكون بين الماء والنّار، لأنّهما يتجاذبانه على السّواء، فذلك المسمّى هواءاً، فقد بان لك مراتب العناصر وماهيّتها، ومن أين ظهرت وأصل الطبيعة.

(إنشاء الله تعالى الإنسان من حيث الجسم)

ولمّا دارت الأفلاك ومخضت الأركان بما حملته ممّا ألقت فيها في هذا النكاح المعنوي، وظهرت المولّدات من كلّ ركن بحسب ما تقتضيه حقيقة ذلك الرّكن فظهرت أمم العالم وظهرت الحركة المنكوسة (والحركة) الأفقيّة، فلمّا انتهى الحكم إلى السّنبلة ظهرت النشأة الإنسانيّة بتقدير العزيز العليم، فأنشاء الله عزّ وجلّ الإنسان من حيث جسمه خلقاً سويّاً وأعطاه الحركة المستقيمة، وجعل الله لها من الولاية في العالم

العنصري سبعة آلاف سنة.

وينتقل الحكم إلى الميزان وهو زمان القيامة، وفيه يضع الله الموازين القسط، ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئاً ولمّا لم يكن الحكم له بما أودع الله فيه من العدل في الدّنيا، شرع الموازين فلم يعمل بها إلّا القليل من النّاس وهم النبيّون خاصّة، ومن كان محفوظاً من الأولياء، ولمّا كانت القيامة محل سلطان الميزان لم تظلم نفس شيئاً، قال الله تعالى:

﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تُظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبّة من خردل﴾ (يعني من العمل).

﴿أتينا بها وكفىٰ بنا حاسبين﴾ [سورة الأنبياء: ٤٧].

ولمّا كان للعذراء السّبعة من الأعداد كانت لها السّبعة والسّبعون والسّبع مائة من الأعداد في تضاعف الأجور وضرب الأمثال في الصّدقات، قال تعالى:

﴿مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مئة حبّة والله يضاعف لمن يشاء﴾ [سورة البقرة: ٢٦١].

إلى سبعة آلاف، إلى سبعين ألفاً، إلى سبع مائة ألف، إلى ما لا نهاية له، ولكن من حساب السّبعة.

وانّما كانت الفروض المقدّرة في الفلك الأطلس اثني عشر فرضاً، لأنّ منتهى أسماء العدد إلى اثني عشر إسماً، وهو من الواحد إلى العشرة إلى المائة وهو الحادي عشر، إلى الألف وهو الثاني عشر، وليس وراءه مرتبة أخرى، ويكون التّركيب فيها بالتضعيف إلى مالا نهاية له بهذه الأسماء خاصّة.

ويدخل النّاس الجنّة والنّار، وذلك في أوّل الحادية، إحدى عشرة درجة من الجوزاء، وتستقرّ كلّ طائفة في دارها ولا يبقى في النّار مَن يخرج بشفاعة ولا بعناية إلهيّة ويذبح الموت بين الجنّة والنّار(٣١) ويرجع الحكم في أهل الجنّة بحسب ما يعطيه

(٣١) قوله: يذبح الموت بين الجنّة والنار.

←

الأمر الإلهي الّذي أودع الله في حركات الفلك الأقصى، وبه يقع التكـوين في الجـنّة

→ قال المفسّر الكبير الطبرسي في قوله تعالى:

﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٣].

وقيل: هو حين يذبح الموت على صورة كبش أملح وينادي: يا أهل الجنّة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت.

ويوجد الحديث في مسائل عبدالله بن سلام عند رسول الله (ص)، ومنها، سئله عن الموت وقال: يا محمّد (ص)! فأخبرني مايضع الله بالموت؟ قال (ص):

يا ابن سلام، إذ استوى أهل الجنّة في الجنّة وأهل النّار في النّار أُتي بالموت كأنّه كبش أملح، فيوقف بين الجنّة والنّار، فيقال لأهل الجنّة: يا أولياء الله هذا المـوت، أتـعرفونه، فيقولون: نعم، فيقولون لهم: نذبحه؟ فيقولون: نعم يا ملائكة ربّنا اذبحوه حتّى لايكـون موت أبداً.

فيقولون لأهل النّار: يا أعداء الله! هذا الموت هل تعرفونه؟ فيقولون: نـعم، فـتقول الملائكة: نذبحه؟ فيقولون: يا ملائكة ربّنا لاتذبحوه ودعوه لعلّ الله يقضي علينا بالموت فنستريح، قال النبيّ (ص):

ويذبح الموت بين الجنّة والنار فييأس أهل النار من الخروج منها، وتطمئن قلوب أهل الجنّة للخود فيها. راجع البحار ج ٦٠، ص ٢٦١.

وأخرج البخاري باسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله (ص): يُـؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فيُنادي مناد يا أهل الجنّة فيشرئبون وينظرون، فـيقول: هـل تعرفون هذا، فيقولون نعم هذا الموت وكلّهم قد رآه، ثمّ ينادي يا أهل النّار فـيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت وكُلّهم قد رآه، فيُذبح، ثمّ يقول: يا أهل الجنّة خلود فلا موت ويا أهل النّار خلود فلا موت، ثمّ قرأ (ص):

﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضيَ الأمرُ وهم في غفلةٍ وهم لا يؤمنون﴾ [سورة مريم: ٣٩]. وهؤلاء في غفلة أهل الدّنيا.

صحيح البخاري كتاب التفسير باب ٤٠٥ في قوله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾، ج ٦، ص ٤٤٨، وقريب منه في صحيح مسلم، كتاب الجنّة باب ١٣، الحديث ٤٣ ج ٤، ص ٢١٨٩، ومسند أحمد ج ٢، ص ١١٨، وسنن ابـن مـاجة ج ٢، ص ١٤٤٧، كـتاب الزهد، باب صفة النار، الحديث ٤٣٢٧، والترمذي ج ٤، ص ٦٩٢، كتاب صـفة الجـنّة، باب ٢٠، الحديث ٢٥٥٧.

بحسب ما تعطيه نشأة الدّار الآخرة، فانّ الحكم دائماً في القوابل، فإنّ الحركة واحدة وآثارها تختلف بحسب القوابل، وسبب ذلك حتّى لايستقلّ أحد من الخلق بفعل ولا بأمر دون مشاركة فيتميّز بذلك فعل الله الّذي يفعل لا بمشاركة من فعل المخلوق، فالمخلوق أبداً في محل الإفتقار والعجز، والله الغنيّ العزيز.

فيكون الحكم في أهل النّار بحسب ما يعطيه الأمر الإلهي الّذي أودع الله تعالى في حركات الفلك الأقصى، وفي الكواكب الثابتة وفي سباحة الدّراريّ السّبعة المطموسة الأنوار، فهي كواكب لكنّها ليست بثواقب، فالحكم في النّار خلاف الحكم في الجنّة، فيقرب حكم النار من حكم الدّنيا فليس بعذاب خالص ولا بنعيم خالص ولهذا قال تعالى:

﴿لايموت فيها ولا يحيى﴾ [سورة طه: ٧٤].

فلم يخلصه إلى أحد الوجهين وكذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم:

«أمّا أهل النّار الّذين هم أهلها فانّهم لا يموتون فيها ولا يحيون»(٣٢).

وسبب ذلك أنّه بقي ما أودع الله عليهم في الأفلاك وحركات الكواكب من الأمر الإلهي وتغيّر منه على قدر ما تغيّر من صور الأفلاك بالتّبديل، ومن الكواكب بالطمس والإنتثار، فاختلف حكمها بزيادة ونقص، لأنّ التّغيير وقع في الصّور، لا في الذّوات.

(العالم مرتّب بترتيب المملكة والبلاد وفيه توجد جنوداً ومأمورين)

واعلم أنّ الله تعالىٰ لمّا تسمّى بالمِلِك رتّب العالم ترتيب المملكة، فجعل له خواصّاً

---

(٣٢) قوله: وكذلك قال (ص): أمّا أهل النّار، الحديث.

راجع صحيح المسلم ج ١، كتاب الإيمان، باب ٨٢، الحديث ٣٠٦، ص ١٧٢، وسنن ابن ماجة ج ٢، كتاب الزهد، باب ٣٧، الحديث ٤٣٠٩، ص ١٤٤١، وكنز العمّال ج ١٤، ص ٥٣٢، الحديث ٣٩٥٢٩.

من عباده وهم الملائكة المهيّمة جلساء الحق تعالى بالذّكر.

﴿لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبّحون اللّيل والنّهار لا يفترون﴾ [سورة الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠].

(خلق النون والقلم وغيرهما من الملائكة)

ثمّ اتّخذ حاجباً من الكروبين واحداً أعطاه علمه في خلقه وهو علم مفصّل في إجمال فعلمه سبحانه كان فيه مجليّ له وسمّى ذلك المَلَك نوناً فلا يزال معتكفاً في حضرة علمه عزّ وجلّ وهو رأس الدّيوان الإلهي، والحقّ من كونه عليماً لا يحتجب عنه.

ثمّ عيّن من ملائكته ملكا آخر دونه في الرّتبة سمّاه القلم وجعل منزلته دون النّون واتّخذه كاتباً فيعلّمه الله من علمه ما شاء في خلقه بوساطة النّون، ولكن من العلم الإجمالي وممّا يحوي عليه العلم الإجمالي علم التّفصيل وهو من بعض علوم الإجمال. لأنّ العلوم لها مراتب من جملتها علم التّفصيل فما عند القلم الإلهي من مراتب العلوم المجملة إلّا علم التّفصيل مطلقا، وبعض العلوم المفصّلة لا غير.

واتّخذ هذا المَلَك كاتب ديوانه وتجلّى له من اسمه القادر، فأمدّه من هذا التجلّي الإلهي وجعل نظره إلى جهة عالم التدوين والتّسطير، فخلق له لوحاً وأمره أن يكتب فيه جميع ما شاء سبحانه أن يجريه في خلقه إلى يوم القيامة خاصّة، وأنزله منزلة التلميذ من الأستاذ، فتوجّهت عليه هنا الإرادة الإلهيّة، فخصّصت له هذا القدر من العلوم المفصّلة، وله تجلّيان من الحقّ بلا واسطة، وليس للنون سوى تجلّ واحد في مقام أشرف فإنّه لايدل تعدّد التجلّيات ولا كثرتها على الأشرفيّة وإنّما الأشرف من له المقام الأعمّ.

فأمر الله النّون أن يمدّ القلم بثلاث مائة وستّين علماً من علوم الإجمال، تحت كلّ علم تفاصيل ولكن معيّنة منحصرة لم يعطه غيرها يتضمّن كلّ علم اجماليّ من تلك العلوم ثلاثمائة وستّين علماً من علوم التّفصيل، فإذا ضربت ثلاث مائة وستّين في

مثلها. فما خرج لك فهو مقدار علم الله تعالى في خلقه إلى يوم القيامة خاصّة. ليس عند اللّوح من العلم الّذي كتبه فيه هذا القلم أكثر من هذا لايزيد ولا ينقص، ولهذه الحقيقة الإلهيّة جعل الله الفلك الأقصى ثلاث مائة وستين درجة، وكلّ درجة مجملة لما تحوي عليه من نقصان (تفصيل) الدّقايق والثواني والثوالث إلى ما شاء الله سبحانه ممّا يظهره في خلقه إلى يوم القيامة وسمّي هذا القلم: الكاتب.

(انّ للعالم اثنى عشر والٍ)

ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالىٰ أمر أن يولّي على عالم الخلق اثنى عشر والياً يكون مقرّهم في الفلك الأقصى منّا في بروج، فقسّم الفلك الأقصى اثنى عشر قسماً، جعل كلّ قسم منها برجاً لسُكنىٰ هؤلاء (الولاة) البروج مثل أبراج سور المدينة فأنزلهم الله إليها فنزلوا فيها كلّ وال على تخت في برجه، ورفع الله الحجاب الّذي بينهم وبين اللّوح المحفوظ فرأوا فيه مسطراً أسماءهم ومراتبهم وما شاء الحق ان يجريه على أيديهم في عالم الخلق إلى يوم القيامة فارتقم ذلك كلّه في نفوسهم وعلموه علماً محفوظاً لا يتبدل ولا يتغيّر.

ثمّ جعل لكلّ واحد من هؤلاء الولاة حاجبين يُنفّذان أوامرهم إلى نُوّابهم، وجعل بين كلّ حاجبَين سفيراً يمشي بينهما بما يلق الله كلّ واحد منهما، وعيّن الله هؤلاء الّذين جعلهم الله حجاباً لهؤلاء الولاة في الفلك الثاني منازل يسكنونها وأنزلهم إليها وهي ثمانية وعشرون منزلة الّتي تُسمّى المنازل الّتي ذكرها في كتابه فقال:

﴿والقمر نوراً وقدّره منازل﴾ [يونس: ٥].

يعني في سيره ينزل كلّ ليلة منزلة منها إلى أن ينتهي إلى اخرها، ثمّ يدور دورة أخرى ﴿لتعلموا﴾ بسيره وسير الشّمس فيها والخنّس.

﴿عدد السّنين والحساب﴾ [سورة يونس: ٥].

وكلّ شيء فصّله الحقّ لنا تفصيلاً، فأسكن في هذه المنازل هذه الملائكة وهم حجاب أولئك الولاة الّذين في الفلك الأقصى.

(بيان نقباء الولاة)

ثمّ إنّ الله تعالىٰ أمر هؤلاء الولاة أن يجعلوا نوّاباً لهم ونقباء في السّموات السّبع، في كلّ سماء نقيباً كالحاجب لهم، ينظر في مصالح العالم العنصري بما يلقون إليهم هؤلاء الولاة ويأمرونهم به وهو قوله:

﴿وأوحىٰ في كلّ سماء أمرها﴾ [سورة فصّلت: ١٢].

فجعل الله أجسام هذه الكواكب النّقباء أجساماً نيّرة مستديرة، ونفخ فيها أرواحها وأنزلها في السّماوات السّبع، في كلّ سماء واحد منهم، وقال لهم:

قد جعلتكم تستخرجون ما عند هؤلاء الإثنى عشر والياً بوساطة الحُجّاب الّذين هم ثمانية وعشرون، كما يأخذ أولئك الولاة عن اللّوح المحفوظ.

ثمّ جعل الله لكلّ نقيب من هؤلاء السّبعة النّقباء فلكاً يسبح فيه هو له كالجواد للراكب، وهكذا الحجّاب لهم أفلاك يسبحون فيها، إذ كان لهم التّصرف في حوادث العالم، والإستشراف عليه، ولهم سدنة وأعوان يزيدون على الألف وأعطاهم الله مراكب سمّاها أفلاكاً فهم أيضاً يسبحون فيها وهي تدور بهم على المملكة في كلّ يوم مرّة فلا يفوتهم من المملكة شيء أصلاً من ملك السّموات والأرض، فيدور الولاة وهؤلاء الحجّاب والنقباء والسّدنة كلّهم في خدمة هؤلاء الولاة.

(المقصود من خلق العالم هو الإنسان)

والكلّ مسخرون في حقّنا إذ كنّا المقصود من العالم، قال تعالى:

﴿وسخّر لكم ما في السّموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ [سورة الجاثية: ١٣].

وأنزل في التّوراة:

«يا ابن آدم! خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي».

وهكذا ينبغي أن يكون الملك يستشرف كلّ يوم على أحوال أهل مُلكه، يقول

تعالى:

﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ [سورة الرّحمن: ٢٩].

لأنّه يسأله من في السّموات والأرض، بلسان حال وبلسان المقال ولا يؤوده حفظ العالم وهو العلي العظيم فماله شغل إلّا بها، يقول تعالىٰ:

﴿يدبّر الأمر من السّماء إلى الأرض﴾ [سورة السجدة: ٥].

﴿يدبّر الأمر يفصّل الآيات﴾ [سورة الرّعد: ٢].

ولولا وجود الملك ما سُمّي المَلك مُلكاً فحِفظُه لمُلكه حفظُه لبقاء اسم المَلِك عليه وإن كان كما قال:

﴿فإنّ الله غنيّ عن العالمين﴾ [سورة آل عمران: ٩٧].

(إنعزال الحاكم بفسقه وعدم معاملته بالإحسان مع رعيّته)

فما جاء باسم المَلِك فان أسماء الإضافة لا تكون إلّا بالمضاف، فكلّ سلطان لا ينظر في أحوال رعيّته ولا يمشي بالعدل فيهم، ولا يعاملهم بالإحسان الّذي يليق بهم فقد عزل نفسه في نفس الأمر.

يقول الفقهاء: إن الحاكم إذا فسق أو جار، فقد انعزل شرعاً ولكن عندنا انعزل شرعاً فيما فسق فيه خاصّة، لأنّه (ما) لا حكم بما شُرع له أن يحكم به فقد أثبتهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ولا (ولاة) مع جورهم فقال عليه السّلام فينا وفيهم:

فإن عدلوا فلكم ولهم وإن جاروا فلكم وعليهم(٣٣).

---

(٣٣) قوله: فقال (ع): فإن عدلوا...

ما وجدت الحديث بعدما فحصت كثيراً في الكتب المربوطة، ولكن هناك حديث آخر رواه أبو يوسف القاضي في كتابه: «الخراج» ص ١٠، عن الحسن البصري قال: قال ←

. . . .

← رسول الله (ص):

«لا تسبّوا الولاة، فإنّهم إن أحسنوا كان لهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساؤوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر، وإنّما هم نقمة ينتقم الله بهم ممّن يشاء فلا تستقبلوا نقمة الله بالحميّة والغضب واستقبلوها بالإستكانة والتّضرع». راجع «ولاية الفقيه وفقه الإسلاميّة» ج ١، ص ٥٨٤.

تبصرة: يجب تفسير أمثال هذه الروايات، ولعلّها ناظرة إلى الأمراء والولاة الّذين هم كانوا منصوبين من قبل الإمام والحاكم العادل، عندما يصدر معصية منهم أحياناً، ومعلوم أنّ هذا لا يوجب انعزالهم عن منصبهم وبل لا يوجب جواز التخلّف عن أوامرهم ونواهيهم ما داموا لم يعزلوا من قبل الحاكم العادل، بل الواجب على الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد ذلك الحاكم العاصي ونُصحه وأمّا عزل أمثال ذلك الحكّام والولاة يكون بيد الحاكم العادل الّذي نصبهم بهذا المقام.

وأمّا تكليف النّاس والمسلمين تجاه الحكّام الجور يُعلم من الحديث الّذي روى عن أبي عبدالله الحسين عليه السّلام قال: قال رسول الله (ص):

«من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لِحُرَم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ثمّ (و) لم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله»، الحديث. راجع البحار ج ٤٤، ص ٢٨٢، وتاريخ الطبري ج ٣، ص ٣٠٧.

ويمكن تفسير الحديث المذكور في المتن بالحديث التالي:

روى الكليني في الروضة ص ٢٧١، ح ٤٠٠ باسناده عن الصادق عليه السّلام قال: إنّ الله عزّ وجلّ جعل لمن جعل له سلطاناً أجلاً ومُدَّة من ليال وأيّام وسنين وشهور، فإن عدلوا في النّاس أمَر الله عزّ وجلّ صاحب الفلك أن يبطئ بإدارته فطالت أيّامهم ولياليهم وسنينهم وشهورهم، وإن جاروا في النّاس ولم يعدلوا أمر الله تبارك وتعالى صاحب الفلك فأسرع بإدارته فقصرت لياليهم وأيّامهم وسنينهم وشهورهم وقد وفا لهم عزّ وجلّ بعدد اللّيالي والشّهور.

وروى مثله الصدوق في (علل الشرايع) باب ٣٦٧ ص ٥٦٦، الحديث ١.

أي لو عدلوا فيطول أيامهم فأصبح خيراً لهم وللنّاس، وإن جاروا فقصّر أيّامهم فأصبح شراً عليهم وخيراً للناس.

ولا يخفى أنّ نفس هذا الحديث أيضاً يحتاج إلى التفسير.

ونهى: أن «يخرج يداً من طاعة» (٣٤).

وما خصّ بذلك والياً من وال، فلذلك زدنا في عزله شرعاً، إنّما ذلك فيا فسق فيه.

فالملك مأمور أن يحفظ نفسه من الخروج ممّا حدّ له من الأحكام في رعاياه وفي نفسه، فانّه وال على نفسه.

«كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيّته» (٣٥).

---

(٣٤) قوله: ونهىٰ أن يخرج يداً من طاعة.

أخرجه الدّارمي في سننه ج ٢، كتاب الرقاق، باب في الطاعة (٧٨)، الحديث ٢٧٩٧، ص ٤١٧، بإسناده عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: سمعت رسول الله (ص) يقول:

خيار أئمّتكم الّذين تحبّونهم ويحبّونكم، وتصلّون عليهم ويصلّون عليكم، وشرار أئمّتكم الّذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم، قلنا: أفلا ننابذهم يا رسول الله عند ذلك؟ قال: لا، ما أقاموا فيكم الصّلاة، إلّا مَن ولي عليه وآل فرآه يأتي شيئاً من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعنّ يداً من طاعة.

وروى مثله أحمد بن حنبل في مسنده ج ٢، ص ٢٤. وأيضاً رواه مسلم في الصحيح ج ٣، ص ١٤٨١ كتاب الإمارة، باب ١٧، الحديث ٦٥، وفيه في الفقرة الأخيرة:

قيل: يارسول الله (ص)! أفلا ننابذهم بالسّيف؟ فقال: لا، ما أقاموا فيكم الصّلاة، وإذا رأيتم من وُلاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يداً من طاعةٍ.

(٣٥) قوله: كلّكم راع وكلّكم مسئول عن رعيّته.

رواه ابن أبي جمهور في عوالي اللئالي ج ١، ص ١٢٩، الحديث ٣، بطريقة وقال: قال رسول الله (ص):

كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيّته، فالإمام راع، وهو المسؤول عن رعيّته، والرّجل في أهله راع، وهو مسؤول عن رعيّته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيّتها، والخادم في مال سيّده راع وهو مسؤول عن رعيّته، والرّجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيّته، وكلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيّته.

ورواه أيضاً المجلسي في البحار مرسلاً ج ٧٥، ص ٣٨.

وقال ابن أبي جمهور في ذيله: بل الإنسان نفسه راع على جوارحه وقواه فهو مسؤول عن رعيّته، لأنّه موكّل عليها بأن يصرفها لما خلقت له فلو خالف لزم السؤال.

←

فالإنسان راعٍ على نفسه فما زاد، ولذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إن لنفسك عليك حقّاً، ولعينك عليك حقّاً، الحديث»(٣٦).

← وأخرجه أيضاً البخاري في صحيحه في عدّة موارد منها: ج ٤، كتاب الوصايا، باب ٦١٥، ص ٣٩٢، الحديث ٩٥٠. وأيضاً باب ٤٠٥، كتاب في الاستقراض، الحديث ٦٣١، وأيضاً ج ١، ص ٤١٤، باب ٥٦٩، الحديث ٨٤١، كتاب الجمعة.

وأيضاً ج ٩، في كتاب النكاح، باب ٨٢، الحديث ١١٨، ص ٤٩، وباب ٩١، الحديث ١٣٠، ص ٦٤، وأخرجه أيضاً ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ٥.

وأيضاً أخرجه أبو نعيم في كتابه حلية الأولياء ج ٧، ص ٣١٨، في ترجمة سفيان بن عيينة.

وقال أمير المؤمنين في نهج البلاغة الخطبة ١٦٧:

فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلّا بالحقّ، ولا يحلّ أذى المسلم إلّا بما يجب، بادروا أمر العامّة وخاصّة أحدكم وهو الموت، اتقوا الله في عباده وبلاده فإنّكم مسؤولون حتّى عن البقاع والبهائم.

(٣٦) قوله: قال (ص): «إن لنفسك عليك حقّاً».

روى البخاري في صحيحه ج ٩، كتاب الأدب، باب ٦٠٦، الحديث ١٠١١، ص ٣٦٢، وكتاب النكاح، باب ٩٠، الحديث ١٢٩، ص ٦٤، بإسناده عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: دخل عليّ رسول الله (ص) فقال: ألَمْ أُخْبَرَ أنّك تقوم اللّيل وتصوم النهار، قلت بلى، قال: فلا تفعل، قُمْ ونَمْ، وصُمْ وأَفْطِرْ، فإنّ لجسدكَ عليك حقّاً، وإنّ لعينك عليك حقّاً، وإنّ لزورك عليك حقّاً، وإنّ لزوجتك عليك حقّاً، الحديث.

وروى أيضاً في كتاب الصّوم من الصحيح ج ٣، باب ١٣٧، الحديث ٢٢٥ ص ٨٨، بإسناده عن أبي جحيفة، قال: آخَى النبيّ (ص) بين سلمان وأبي الدّرداء، فزار سلمان أبا الدّرداء فرأى أمّ الدّرداء مُتَبَذِّلَة، فقال لها: ما شأنكِ، قالت: أخوك أبو الدّرداء ليس له حاجة في الدّنيا، فجاء أبو الدّرداء فصنع له طعاماً، فقال: كُلْ، قال: فإنّي صائم، قال: ما أنا بآكل حتّى تأكل، قال: فأكل، فلمّا كان اللّيل ذهب أبو الدّرداء يقوم، قال: نَمْ، فنام، ثمّ ذهب يقوم، فقال: نَمْ، فلمّا كان مِن آخِرِ اللّيل، قال سلمان قُم الآن، فصلّينا، فقال له سلمانُ: إنّ لربّك عليك حقّاً، ولنفسك عليك حقّاً، ولأهلك عليك حقّاً، فأعط كلّ ذي حقٍّ ←

فمن لم يف لمن بايعه بما بايعه عليه فقد عزل نفسه، وليس بملِك وإن كان حاكماً فما

← حقّه، فأتى النبيّ (ص) فذكر ذلك له، فقال النبيّ (ص): صدق سلمان.

راجع في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، صحيح مسلم ج ٢، كتاب الصيام، باب ٣٥، الحديث ١٨٦، ص ٨١٤، والحديث ١٨٨ و ١٩٣، وأيضاً سنن النسائي ج ٤، باب صوم يوم وأفطار يوم، ص ٢١١، و ٢١٥، وأيضاً مسند ابن حنبل ج ٢، ص ١٩٤ و ١٩٨ و ١٩٩.

وتوجد هنا (أي في موضوع البحث) رسالة الحقوق لمولانا زين‌العابدين علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم آلاف التحيّة والسّلام: رواها الصدوق (ره) في كتابه الخصال في أبواب الخمسين ج ٢، ص ٥٦٤، الحديث ١، وروى عنه المجلسي في البحار ج ٧٤، ص ٢، ح ١، وأيضاً رواها الصدوق (ره) في أماليه، في المجلس التاسع والخمسون ص ٣٠١، وأيضاً رواها في الفقيه ج ٢ بالحقوق، ص ٣٧٦، الحديث ١٦٢٦، وأيضاً رواها علي بن شعبة الحرّاني في كتابه تحف العقول ص ٢٥٥، والرسالة طويلة نذكر قسماً منها فقط:

إعلم أنّ لله عزّ وجلّ عليك حقوقاً محيطة بك في كلّ حركة تحرّكتها، أو سكنة سكّنتها، أو حال حلتّها، أو منزلة نزلتّها، أو جارحة قلّبتها، أو آلة تصرّفتَ فيها، (بعضها أكبر من بعض).

فأكبر حقوق الله تبارك وتعالى عليك ما أوجب عليك لنفسه من حقّه الّذي هو أصل الحقوق.

ثمّ أوجب الله عزّ وجلّ عليك لنفسك من قرنك إلى قدمك على اختلاف جوارحك، فجعل عزّ وجلّ للسانك عليك حقّاً، ولسمعك عليك حقّاً، ولبصرك عليك حقّاً، وليدك عليك حقّاً، ولرجلك عليك حقّاً، ولبطنك عليك حقّاً، ولفرجك عليك حقّاً، فهذه الجوارح السبع الّتي بها تكون الأفعال.

ثمّ جعل عزّ وجلّ لأفعالك عليك حقوقاً: فجعل لصلاتك عليك حقّاً، ولصومك عليك حقّاً، ولصدقتك عليك حقّاً، ولهديك عليك حقّاً، ولأفعالك عليك حقوقاً.

ثمّ يخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوي الحقوق الواجبة عليك، فأوجبها عليك حقوق أئمّتك، ثمّ حقوق رعيّتك، ثمّ حقوق رحمك، فهذه حقوق تتشعّب منها حقوق. الحديث، فراجع.

كلّ حاكم يكون سلطاناً فانّ السّلطان من تكون له الحجّة لا عليه، ولهذا جعل الله الأفلاك تدور علينا كلّ يوم دورة لتنظر الولاة ما تدعو حاجة الخلق إليهم فيسدّون الخلل، وينفّذون أحكام الله تعالى من كونه مريداً في خلقه، لا مِن كونه آمراً. فينفّذون أحكامه الّتي أمرهم سبحانه أن ينفّذوها فيهم وهو القضاء والقدر في أزمان مختلفة فكلّ شيء بقضاء وقدر حتّى العجز والكيس، وكلّ صغير وكبير مستطر في اللّوح المحفوظ فما فيه إلّا ما يقع، ولا ينفّذ هؤلاء الولاة في العالم إلّا ما فيه، والله على كلّ شيء رقيب.

ومع هذا كلّه فإنّ الله له مع كلّ واحد من المملكة أمر خاصّ في نفسه يعلمه الولاة والحُجّاب والنّقباء، فنهم لا يفقدون مشاهدة ذلك الوجه، ذلك ليعلموا:

﴿انّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً﴾ [سورة الطلاق: ١٢].

وأنّه، رقيب ﴿على كلّ نفس بما كسبت﴾ [سورة الرّعد: ٣٣].

و: ﴿ألا أنّه بكلّ شيء محيط﴾ [سورة فصّلت: ٥٤].

(إستغفار الملائكة لمن في الأرض وللمؤمنين)

ولمّا جعل الله زمام هذه الأمور بأيدي هؤلاء الجماعة من الملائكة وأقعد من أقعد منهم في برجه ومسكنه الّذي فيه تحت ملكه، وأنزل من أنزل من الحجّاب والنّقباء إلى منازلهم في سماواتهم، وجعل في كلّ سماء ملائكةً مسخّرة تحت أيدي هؤلاء الولاة وجعل تسخيرهم على طبقات، فنهم أهل العروج باللّيل والنّهار: من الحقّ إلينا ومنّا إلى الحقّ، في كلّ صباح ومساء، وما يقولون إلّا خيراً في حقّنا ومنهم المستغفرون لمن في الأرض، ومنهم المستغفرون للمؤمنين، لغلبة الغيرة الإلهيّة عليهم كما غلبت الرّحمة على المستغفرين لمن في الأرض، ومنهم الموكّلون بإيصال الشرايع، ومنهم أيضاً الموكّلون باللّمّات، ومنهم الموكّلون بالإلهام، وهم الموصلون العلوم إلى القلوب، ومنهم الموكّلون بالأرحام، «ومنهم الموكّلون بتصوير ما يكون الله في الأرحام، ومنهم الموكّلون بنفخ الأرواح، ومنهم الموكّلون بالأرزاق»، ومنهم الموكّلون بالأمطار،

وكذلك، (لذلك قالوا):

﴿وما منّا إلّا له مقام معلوم﴾ [سورة الصّافات: ١٦٤].

وما من حادث يحدث الله في العالم إلّا وقد وكّل الله بإجرائه (ملائكة) ملائكته ولكن بأمر هؤلاء من الملائكة كما منهم أيضاً: الصّافات، والزّجرات، والتاليات، والمقسمات، والمرسلات، والناشرات، والنّازعات، والناشطات، والسّابقات، والسّابحات، والملقيات، والمدبّرات، ومع هذا، فما يزالون تحت سلطان هؤلاء الولاة إلّا الأرواح المهيّمة، فهم خصائص الله ومن دونهم ينفّذون أوامر الله في خلقه.

ثمّ إن العامّة ما تشاهد إلّا منازلهم، والخاصّة يشهدونهم في منازلهم كما أيضاً تشاهد العامّة أجرام الكواكب، ولا تشاهد أعيان الحجّاب ولا النّقباء.

وجعل الله في العالم العنصري خلقاً من جنسهم، فمنهم الرّسل، والخلفاء، والسّلاطين، الملوك، وولاة أمور العالم.

وجعل الله بين أرواح هؤلاء الّذين جعلهم الله ولاة في الأرض، من أهلها بينهم وبين هؤلاء الولاة في الأفلاك مناسبات ورقائق تمتدّ إليهم من هؤلاء الولاة بالعدل، مطهرةً من الشوائب مقدسةً عن العيوب، فتقبّل أرواح هؤلاء الولاة الأرضيين منهم بحسب استعداداتهم، فمن كان استعداده قويّاً حسناً قبل ذلك الأمر على صورته ظاهراً مظهراً (طاهراً مطهراً)، فكان والي عدل وإمام فضل، ومن كان استعداده رديّاً قبل ذلك الأمر الظاهر (طاهر) وردّه إلى شكله من الرداءة والقبح فكان والي جور ونائب ظلم وبخل فلا يلومنّ إلّا نفسه.

فقد أبنتُ لك سلطنة العالَم العلويّ على العالَم السّفلي، وكيف رتّب الله ملكه هذا الترتيب العجيب، وما ذكرنا من ذلك إلّا الأمّهات لا غير.

يقول الله تعالى: ﴿وأوحىٰ في كلّ سماء أمرها﴾ [سورة فصّلت: ١٢].

وقال: ﴿يتنزّل الأمر بينهنّ﴾ [سورة الطلاق: ١٢].

ويكفي هذا القدر من هذا الباب، والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل، والله أعلم بالصّواب وإليه المرجع والمآب.

هذا آخر هذا الباب وفي ضمّه إلى الأبواب الّتي سبقت من كلامه قدّس الله سرّه قبل هذا الباب، كان لنا أغراض:

(في تطبيق الأئمّة المعصومين عليهم السّلام بالولاة الحقيقيّة العلويّة)

منها، ترتيب العالم وتحقيقه من العِلوّ إلى السّفل أو بالعكس، ومنها تحقيق الكتاب الإلهيّة وتعيين الدّوات والقلم والصّادر منها من الأزل إلى الأبد، حيث نحن في بحث القرآن وتعيين الكتاب الآفاقي والأنفسي.

ومنها تعيين الملائكة وترتيب طبقاتهم وترتيب المملكة الإلهيّة، وتعيين الولاة والحجّاب والنقباء والسّدنة وغير ذلك، وتعيين الموكّلين منهم على كلّ نوع نوع من أجناس العالم وأشخاصه وأصنافه.

ومنها تعداد الولاة الحقيقيّة الإلهيّة العلويّة المنحصرة في إثني عشرة ولاة تطبيقاً بالأئمّة الإثني عشرة من أهل بيت النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم الّذين سبق ذكرهم مفصلاً ومجملاً بوجوه مختلفة، واعتراض بعض النّاس في تخصيص هذا العدد بهم دون غيره وجوابه بالبروج الإثني عشرة، والنّقباء من بني إسرائيل وغير ذلك فإنّها كذلك، وللدائرة الآفاقيّة والأنفسيّة الّتي مثّلنا به في صورة الجداول وترتيب العالم الصّوري بالعالم المعنوي، والأقطاب والأئمّة من السّبعة والإثني عشرة.

فإنّ كلام الشيخ حجّة في ذلك مع المعترض[٣٧]، فانّ الشّيخ عيّن في هذا الباب أنّ

---

(٣٧) قوله: فإنّ كلام الشيخ حجّة في ذلك مع المعترض.

قد سبق ذكر هذه المطالب تفصيلاً في الجزء الأوّل، ص ٥٧٤ فراجع، والجدير بالذكر، أنّ كلام الشيخ حجّة على نفسه أيضاً حيث قال في بعض كلماته: إنّ الشيعة من هذا قالوا بالأئمّة الإثني عشر، وما يشعرون أن الأئمّة ليسوا (هؤلاء الملائكة) بل الأئمّة الإثنا عشر يأخذون منهم الفيض.

وقال السيّد المؤلّف قدّس الله سرّه في ذيل كلامه بعد نقله (الجزء الأوّل، ص ٥٤٧): وعلى جميع التقادير، قال بهم ونسب قيام الدّنيا إليهم كما نسب قيام الجنّة إلى تلك الملائك، والكلّ موافق لدعوانا.

بعد الله تعالى والملائكة المهيّمة، العالم كلّه في تصرّف هؤلاء الولاة الأثني عشرة، وأرواح الأنبياء والرّسل والخلفاء والأولياء والملوك والسّلاطين يأخذ منهم ومن فيضهم في هذا العالم العنصري الشهاديّ، فالشّيعة من هذا قالوا أنّ الأئمّة الإثنى عشرة عليهم السّلام، على عددهم وجميع كمالاتهم وعلومهم وصفاتهم منهم، وهم مظاهر تلك الولاة ومجاليهم، ولا يجوز أن يكون عددهم أكثر من ذلك إلّا غيرهم من الولاة ليسوا كذلك ولا يوافق عددهم عددهم، ولا أخلاقهم أخلاقهم، ولا صفاتهم صفاتهم، من العصمة والطّهارة والعدل في الأفعال والقسط في الأقسام وغير ذلك، كما ذكر الشيخ في قوله:

وبين هؤلاء الولاة في الأفلاك مناسبات ورقائق تمتدّ إليهم من هؤلاء الولاة بالعدل مطهّرة من الشّوائب مقدّسة عن العيوب. هذا في هذا الباب.

فأمّا في الفصل الثالث من باب الواحد والسّبعون وثلثمائة، في بيان الفلك الأطلس والبروج ذكر وهو قوله(٣٨):

إعلم أنّ الله خلق في جوف هذا الكرسي الّذي ذكرناه جسماً شفّافاً مستديراً قسّمه اثنى عشر قسماً سمّى الأقسام بروجاً وهي الّتي أقسم بها لنا في كتابه فقال تعالى:

﴿والسّماء ذات البروج﴾ [سورة البروج: ١].

وأسكن كلّ برج منها ملكاً هم لأهل الجنّة كالعناصر لأهل الدّنيا، فهم ما بين مائيّ وترابيّ وهوائيّ وناريّ، وعن هؤلاء يتكوّن في الجنّات ما يتكوّن، ويستحيل فيها ما يستحيل، ويفسد ما يفسد، أعني ينفسد بتغيّر نظامه إلى أمر آخر ما هو الفساد المذموم المستخبث، فهذا معنى يفسد فلا يتوهّم، ومن هنا، قالت الإماميّة بالإثنى عشر إماماً. فإنّ هؤلاء الملائكة أئمّة العالم الّذي تحت إحاطتهم ومن كون هؤلاء الإثنى عشر لا يتغيّرون عن منازلهم، لذلك قالت الإماميّة بعصمة الأئمّة لكنّهم لايشعرون أن الإمداد يأتي إليهم من هذا المكان وإذا سعدوا سرت أرواحهم في هذه

(٣٨) قوله: فأمّا في الفصل الثالث.

راجع الفتوحات المكيّة ج ٣، ص ٤٣٣.

المعارج بعد الفصل والقضاء (النافذ بهم) لأنّها إلى هذا الفلك تنتهي لا تتعدّاه فإنّها لم تعتقد سواه، فهم وان كانوا إثنى عشر، فهم على أربع مراتب لأنّ العرش على أربع قوائم، والمنازل ثلاثة: دنيا وبرزخ وآخرة (و) ما ثمّ رابع، ولكلّ منزل من هذه المنازل أربعة لابدّ منهم لهم الحكم في أهل هذه المنازل. فإذا ضربت ثلاثة في أربعة كان الخارج من هذا الضرب اثنى عشر. فلذلك كانوا اثنى عشر برجاً.

وهذا الباب والفصل، فيها أمثال، ولكن كثيرة ولا تعلّق لها بهذا المقام غير هذا. وهذا البحث دالّة على صحّة ما قلناه في المقدّمة الأولىٰ من فضيلة الأئمّة وتعدادهم في العدد المعيّن وغير ذلك، وإذا تقرّر هذا، وكان الغرض الأوّل من نقل هذه الأبواب بأسرها تحقيق العالَم وترتيبه بعد أن بيّناه مفصّلاً ومجملاً. فلنشرع في تعيين الملائكة والجنّ، وكيفيّة إيجادهم، لأنّ ذلك أيضاً من تماميّة ترتيب العالم وإيجاده، فبحث الملائكة قد سبق (سيأتي) بعضه في خطبة مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين على عليه السّلام، وبعضه في هذا الباب، والزّايد على ذلك توجد في مظّانه.

وأمّا بحث الجنّ فله باب آخر في تعيين تخليقهم وتركيبهم وكيفيّة صدورهم من العلويّات والسفليّات نذكره ونرجع إلى غيره، والغرض الأعظم والأحوج إلى تعيين الملك والجنّ هو أنّ في نفس التأويل سيجئ ذكر آدم وحوّاء والملائكة والجنّ وإبليس والشّيطان والسّجود والتّرك وذلك المكان يحتاج إلى تعيينهم وتفصيلهم ويخرج البحث عن المقصد فهذا المكان أولىٰ به لأنّا إذا وصلنا في التّأويل إلى هذا المكان أمرنا الطّالب أن يرجع إلى المقدّمات وإلى الموضع الفلاني ويظفر بمطلوبه، وهذا أنسب وأليق من ذكرهم في نفس التأويل، والحمد لله الّذي ألهمنا لهذا وهدانا إليه، وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله والله يقول الحقّ وهو يهدي السّبيل.

والباب المخصوص ببحث الجنّ وهو هذا:

الباب التّاسع (٣٩)

في معرفة وجود الأرواح المارجيّة الناريّة، المعبّر عنهم بالجنّ في الكتاب والسّنّة

إعلم أنّ هذا الباب وإن كان مخصوصاً ببحث الجنّ وبخلقتهم لكنّ يعلم فيه علوم جمّة وأسرار كثيرة غير متعلّقة ببحث الجنّ من بحث العالم وآدم والملائكة وإبليس وغير ذلك.

وأوّل الباب قوله:

(في خلق الجان والملائكة والإنسان)

قال الله تعالى:

﴿وخلق الجانّ من مّارج من نار﴾ [سورة الرحمن: ١٥].

وورد في الحديث الصّحيح (٤٠):

(٣٩) قوله: الباب التاسع.

راجع الفتوحات المكيّة ج ١، ص ١٣١ (ط ق) و ج ٢، ص ٢٧٦ (ط ج).

(٤٠) قوله: ورد في الحديث الصحيح: إنّ الله خلق الملائكة من نور.

في صحيح مسلم ج ٤، كتاب الزهد، باب في أحاديث متفرقة، الحديث ٦٠، ص ٢٢٩٤، بإسناده عن عايشة، قالت: قال رسول الله (ص): خُلقت الملائكةُ من نور، وخلق الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم ممّا وُصِف لكم.

وأخرجه أيضاً ابن حنبل في مسنده ج ٦، ص ١٥٣، وص ١٦٨.

وأخرجه السيوطي أيضاً في تفسيره الدّر المنثور في سورة الرحمن ج ٧، ص ٦٩٥.

روى أيضاً الشيخ المفيد (رض) في الاختصاص ص ١٠٩ باب القياس، عن أبي عبدالله

←

انّ الله خلق الملائكة من نور، وخلق الجانّ من نار، وخلق الإنسان ممّا قيل لكم.

قال: وأمّا قوله عليه السّلام في خلق الإنسان: مما قيل لكم، ولم يقل مثل ما قال في خلق الملائكة والجانّ طلباً للإختصار، فإنّه «أوتي جوامع الكلم» وهذا منها، فان الملائكة لم يختلف أصل خلقها ولا الجانّ، وأمّا الإنسان اختلف خلقه على أربعة أنواع من الخلق: فخلق آدم لايشبه خلق حواء، وخلق حواء لايشبه خلق سائر بني آدم، وخلق عيسى عليه السّلام لا يشبه خلق من ذكرنا، فقصد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الإختصار، وأحال على ما وصل إلينا من تفصيل خلق الإنسان، فآدم من طين، وحواء من ضلع، وعيسى من نفخ روح، وبنو آدم من ما مهين (٤١).

← (ع) قال:

إنّ أوّل من قاس إبليس، فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، ولو علم إبليس ما جعل الله في آدم لم يفتخر عليه، ثمّ قال:

إنّ الله عزّ وجلّ خلق الملائكة من نور، وخلق الجانّ من النّار وخلق صنفاً من الجانّ من الريح وخلق صنفاً من الجنّ من الماء، وخلق آدم من صفحة الطّين، ثمّ أجرى في آدم النّور والنّار والرّيح والماء، فبالنّور أبصر وعقل وفهم، وبالنار أكل وشرب... الخ.

وعنه المجلسي في البحار ج ١١، ص ١٠٢، الحديث ٨، وج ٦١، ص ٣٠٦، الحديث ١٤، وج ٥٩، ص ١٩١، الحديث ٤٨، وج ٦٣، ص ٩٤، الحديث ٥٠.

(٤١) قوله: فآدم من طين، وحواء من ضلع، الخ.

أمّا آدم من حيث هو بشر، فخلق من تراب، ومن طين، ومن نطفة، ومن علق، ومن مضغة، وإليك الآيات التّالية باترتيب والتأمل فيها:

﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [سورة الرّوم: ٢٠].

﴿إذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين﴾ [سورة ص: ٧١].

﴿الّذي أحسن كلّ شيء خلقه وبَدأ خلق الإنسان من طين﴾ [سورة السجدة: ٧].

وإمّا بنو آدم:

﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ [سورة المرسلات: ٢٠].

﴿فلينظر الإنسان ممّ خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب﴾ [سورة الطارق: ٥ ـ ٧].

←

....

← ﴿هو الّذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً﴾ [سورة الفرقان: ٥٤].
﴿إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾ [سورة الإنسان: ٢].
﴿خلق الإنسان من علق﴾ [سورة العلق: ٢].
﴿فإنّا خلقناكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة﴾ [سورة الحجّ: ٥].

وأمّا آدم من حيث حقيقته الإنسانيّة، الّتي هي فصله الأخير وبها يمتاز من سائر الدوائب، فخُلِق (أي أصله) هو الرّوح المنفوخ، فانظر فتأمل في الآيات التالية بعدما دقّقت في الآيات المذكورة، وهذه هي الآيات:

﴿وبَدَأ خلق الإنسان من طين﴾.
﴿ثمّ جعل نسله من سلالة من ماءٍ مهين﴾.
﴿ثمّ سواه ونفخ فيه من روحه﴾ [سورة السجدة: ٩].
﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [سورة الحجر: ٢٨ ـ ٢٩].
﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيَدَيّ﴾ [سورة ص: ٧٥].
﴿ثمّ أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [سورة المؤمنون: ١٤].

وأمّا عيسى عليه السّلام فخلق من نفخ الروح، قال تعالى:
﴿والّتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ [سورة الأنبياء: ٩١].

وقال تعالى:
﴿انّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ [سورة النساء: ١٧١].

وأمّا حواء زوج آدم فخلق من نفسه لقوله تعالى:
﴿يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم الّذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾ [سورة النساء: ١].

ولقوله تعالى:
﴿هو الّذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها﴾ [سورة الاعراف: ١٨٩].

←

. . . .

← وأمّا قوله: وحوّاء من ضلع. هذا ما ورد في الأحاديث، نذكر بعض ما روى فيه:
أخرج البخاري في الصحيح، كتاب النكاح، باب ٨٠، الحديث ١١٥، ج ٧، ص ٤٩، بإسناده عن النّبي (ص) قال: المرأة كالضّلع ان أقمتها كسرتها، وإن استمتعتَ بها استمتعت بها وفيها عوج.

وفي صحيح مسلم ج ٢، ص ١٠٩، كتاب الرضاع، باب الوصيّة بالنساء، الحديث ١٤٦٥ ـ ١٤٦٨:

إذا ذهبت تُقيمها كسرتها وإن تركتها استمتعت بها.

وقريب منها في سنن الدّارمي ج ٢، ص ١٩٩، باب مداراة الرجل أهله، الحديث ٢٢٢٢. وأيضاً أخرج البخاري في ج ٤، ص ٥٨٧، كتاب الأنبياء، باب ٨٩٦، الحديث ١٤٨٩، بإسناده عن النّبي (ص) قال: استوصوا بالنساء، فإنّ المرأة خلقت من ضلعٍ وإنّ أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تُقيمه كَسَرْتَهُ وإن تركته لم يزل أعوجَ، فاستوصوا بالنساء.

وفي سنن ابن ماجه ج ١، ص ١٧٥، كتاب الطهارة، باب ما جاء في بول الصبي، الحديث ٥٢٥، بإسناده عن النبيّ (ص) قال: إنّ الله لمّا خلق آدم خُلقت حوّاء من ضِلعَه القصير.

وروى الكليني في الفروع من الكافي ج ٥، ص ٥١٣، باب مداراة الزوجة، بإسناده عن الصادق (ع)، عن رسول الله (ص) قال: إنّما مثل المرأة مثل الضلع المعوج إن تركته انتقمت به، وإن اقمته كسرته، قال الكليني: وفي حديث آخر استمعت به.

وأيضاً روى باسناده عن الصادق عليه السّلام قال: إنّ إبراهيم شكا إلى الله عزّ وجلّ ما يلقي من سوء خلق سارة، فأوحى الله تعالى إليه: إنّما مثل المرأة مثل الضلع المعوج، إن أقمته كسرته وإن تركته استمتعت به، اصبر عليها. وعنه المجلسي في البحار ج ١٢، ص ١١٦، ج ٥٠. وتفسير القمّي ج ١، ص ٦٠ في الآية:

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ [البقرة: ١٢٧].

وعنه المجلسي في البحار ج ٩٩، ص ٣٦، الحديث ١٥.

وروى الصدوق في معاني الأخبار، باب معنى الصائم المفطر، ص ٣٠٥، ج ١، بإسناده عن أبي ذر عن رسول الله (ص) قال: إنّما المرأة كالضلع إن اقمتها كسرتها وفيها بلغة. وعنه ←

ولمّا أنشأ الله الأركان الأربعة وعلا الدّخان إلى مُقَعَّر فلك الكواكب الثابتة وفتق في ذلك الدّخان سبع سماوات ميّز بعضها عن بعض.

← في البحار ج ٩٧، ص ٩٩، الحديث ٢٢.

وروى العياشي في تفسيره في أول سورة النساء ج ١، ص ٢١٥، الحديث ٢، بإسناده عن أمير المؤمنين (ع) قال: خلقت حوّاء من قصيرا جنب آدم ـ والقصيرا هو الضلع الأصغر ـ وأبدل الله مكانه لحماً.

وروى العياشي في تفسير سورة النساء ج ٧، ص ٢١٦، بإسناده عن الباقر (ع)، قال: قال رسول الله (ص): انّ الله تبارك وتعالى قبض قبضة من طين فخلطها بيمينه ـ وكلتا يديه يمين ـ فخلق منها آدم، وفضلت فضلة من الطين فخلق منهاء حوّاء. عنه البحار ج ١١، ص ١١٦، الحديث ٤٦.

وروى الشيخ الطوسي في التهذيب، باب بدء النكاح وأصله، الحديث ١، ج ٣، ص ٢٣٩ (ط نجف)، بإسناده عن زرارة، عن الصادق (ع) قال: انّ الله تبارك وتعالى لمّا خلق آدم (ع) من طين وأمر الملائكة فسجدوا له ألقى عليه السبات. ثمّ ابتدع له حواء فجعلها في موضع النقرة التي بين وركيه، وذلك لكي تكون المرأة تبعاً للرّجل. ورواه الصدوق في العلل، باب علّة كيفية بدء النسل، الحديث ١.

وأيضاً روى الصّدوق (ره) في العلل باب العلة الّتي من أجلها فضل الرّجال على النساء ح ١، ص ٥١٢ عن أمير المؤمنين (ع)، عن رسول الله (ص) قال: خلق الله آدم من طين ومن فضلته وبقيّته خلقت حوّاء.

وأيضاً روى في العلل في باب النّوادر، الحديث ٣٣، ص ٤٧١، بإسناده عن النّبي (ص) قال: حين ما سُئل عن بدء خلق حوّاء:

(خلقت) من الطّينة الّتي فضلت من ضلعه الأيسر.

أقول: انظر فتأمّل أيّها القارئ الكريم في ترتيب مانقلنا في الأحاديث الواردة في المقام، فإنّه يدلّ على ما اخترناه في الجمع بين الرّوايات المختلفة المضامين. فالأحاديث الأخيرة تفسّر ما ورد من الأحاديث في انّ حوّاء خلقت من ضلع آدم ومعناه انّها خلقت من الطينة الّتي فضلت منه.

والجدير بالذكر، أنّ الأحاديث الواردة في الضلع ناظرة إلى مسألة أخلاقيّة في مداراة الرّجل مع زوجته فتأمل، والله هو العالم.

﴿وأوحىٰ في كلّ سماء أمرها﴾ [سورة فصّلت: ١٢].

بعدما ﴿قدّر فيها أقواتها﴾ [سورة فصّلت: ١٠].

وذلك كلّه في أربعة أيّام، ثمّ قال للسّماوات والأرض:

﴿إئتيا طوعاً أو كرْها﴾ [سورة فصّلت: ١١].

أي أجيبا إذا دُعيتما لما يراد منكما، ممّا أُمّنتما عليه أن تُبرزاه.

﴿قالتا أتينا طائعين﴾ [سورة فصّلت: ١١].

(جعل الالتحام بين السّماء والأرض)

فجعل سبحانه بين السّماء والأرض التحاماً معنويّاً، وتوجهاً حقيقيّاً لما يريد سبحانه أن يوجده في هذه الأرض من المولّدات من معدن ونبات وحيوان، وجعل الأرض كالأهل، وجعل السّماء كالبعل، والسّماء تلقي إلى الأرض من الأمر الّذي أوحي الله فيها كما يلقي الرّجل الماء بالجماع في المرأة، وتبرز الأرض عند الإلقاء ما خبأه الحقّ فيها من التكوينات على طبقاتها، فكان من ذلك أن الهواء لمّا اشتغل وحمى اتقد مثل السّراج وهو اشتغال النّار، ذلك اللهب الّذي هو احتراق الهواء وهو المارج وإنّما سمّي مارجاً لأنّه مختلط بهواء وهو الهواء المشتعل فإنّ المرج الإختلاط ومنه سمّي المرج مرجاً لإختلاط النبات فيه فهو من عنصرين هواء ونار أعني الجانّ، كما كان آدم من عنصرين ماء وتراب، عجن به فحدث له اسم الطين، كما حدث لامتزاج النّار بالهواء إسم المارج ففتح سبحانه في ذلك المارج صورة الجانّ فبما فيه من الهواء يتشكّل في أي صورة شاء وبما فيه من النّار سخف وعظم لطفه وكان فيه طلب القهر والاستكبار والعزّة، فإنّ النّار أرفع الأركان مكاناً وله سلطان عظيم على إحالة الأشياء الّتي تقتضيها الطبيعة وهو السبب الموجب لكونه استكبر عن السّجود لآدم عندما أمره الله عزّ وجلّ بتأويل أدّاه أن يقول:

﴿أنا خير منه﴾ [سورة ص: ٧٦].

(في أنّ الأصل في الجانّ الاستكبار كما أنّ الأصل في الإنسان التواضع)

يعني بحكم الأصل الّذي فضّل الله به بين الأركان الأربعة، وما علم أنّ سلطان الماء الّذي خلق منه آدم أقوى منه، فإنّه يذهبه وأن التّراب أثبت منه للبرد واليبس فلآدم القوّة والثبوت لغلبة الركنين اللّذين أوجده الله منهما، وإن كان فيه بقيّة الأركان، ولكن ليس لها ذلك السّلطان وهو الهواء والنّار كما (كان) في الجانّ من بقيّة الأركان، ولذا سمّي مارجاً ولكن ليس لها في نشأته ذلك السّلطان، وأعطى آدم التواضع للطّينيّة بالطبع فإن تكبّر فلأمر يعرض له، يقبله لما فيه من النّاريّة، كما يقبل اختلاف الصّور في خياله وفي أحواله من الهوائيّة، وأعطى الجانّ التكبّر بالطبع للنّاريّة، فان تواضع فلأمر يعرض له يقبله لما فيه من التّرابيّة، كما يقبله الثبات على الإغواء إن كان شيطاناً، والثّبات على الطّاعات إن لم يكن شيطاناً.

(حسن استماع الجانّ حين تلاوة النّبيّ سورة الرّحمٰن)

وقد أخبر النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، لمّا تلى سورة الرّحمٰن على أصحابه قال:

إنّي تلوتها على الجنّ فكانوا أحسن إستماعاً لها منكم، فكانوا يقولون: لا بشيء من آلاء ربّنا نكذّب، إذا قلت:

﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ [سورة الرّحمٰن] (٤٢).

ثابتين عليه ما تزلزلوا عندما كان يقول لهم عليه السّلام في تلاوته: ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾.

---

(٤٢) قوله: وقد أخبر النّبيّ (ص).

رواه الطبرسي (ره) في تفسيره مجمع البيان سورة الأحقاف في الآية: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن﴾، وعنه المجلسي في البحار ج ١٨، ص ٧٨، ورواه أيضاً في البحار ج ٦٣، ص ١١٧، الحديث ٩٤.

وأخرجه أيضاً السيوطي في تفسير الدّر المنثور في سورة الرّحمٰن ج ٧، ص ٦٩٠.

وذلك بما فيه من الترابيّة، وبما فيه من المائيّة ذهبت بحميّة النّاريّة، فمنهم الطائع والعاصي.

(الجانّ وقبول الصّور المختلفة)

ولهم التشكّل في الصّور كالملائكة: وأخذ الله بأبصارنا عنهم فلا نراهم إلّا إذا شاء الله أن يكشف لبعض عباده فيراهم، ولمّا كانوا من عالم السّخافة واللّطف قبلوا التّشكيل فيما يريدونه من الصّور الحسّيّة، فالصّورة الأصلية الّتي ينسب إليها الرّوحاني إنّما هي أوّل صورة قبل عندما أوجده الله، ثمّ تختلف عليه الصّور بحسب مايريد الله أن يدخل فيها، ولو كشف الله عن أبصارنا حتّى نرى ما تصوّره القوّة المصوّرة الّتي وكّلها الله بالتّصوير، في خيال المتخيّل منّا، لرأيتَ مع الآنات، الإنسان في صور مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً.

(التناسل في الجانّ والإنسان)

ولمّا نفخ الرّوح في اللهب وهو كثير الإضطراب لسخافته زاده النّفخ اضطراباً وغلب الهواء عليه وعدم قراره على حالة واحدة ظهر عالم الجانّ على تلك الصّورة، وكما وقع التناسل في البشر بالقاء الماء في الرّحم فكانت الذريّة والتوالد في هذا الصّنف البشري الآدمي، كذلك وقع التّناسل في الجانّ بإلقاء الهواء في رحم الأنثى منهم، فكانت الذّريّة والتوالد في صنف الجانّ، وكان وجودهم بالقوس وهو ناريّ، هكذا ذكر الوارد، حفظه الله.

فكان بين خلق الجان وخلق آدم ستّون ألف سنة، وكان ينبغي على ما يزعم بعض النّاس أن ينقطع التوالد من الجانّ بعد انقضاء أربعة آلاف سنة، وينقضي التوالد من البشر بعد انقضاء سبعة آلاف سنة ولم يقع الأمر على ذلك، بل الأمر راجع إلى ما يريده الله. فالتّوالد في الجنّ إلى اليوم باق، وكذلك فينا، (فلم يتحقّق مبدأ آدم كم له من السنين) فتحقّق بهذا كم لآدم من السّنين؟ وكم بقي إلى انقضاء الدّنيا وفناء البشر عن

ظهرها وانقلابهم إلى الدّار الآخرة؟، وليس هذا بمذهب الرّاسخين في العلم، وإنّما قال به شرذمه قليلاً لا يعتدّ بقولها.

فالملائكة أرواح منفوخة في أنوار، والجانّ أرواح منفوخة في رياح، والأناسي أرواح منفوخة في أشباح ويقال: إنّه لم يُفصل عن الموجود الأول من الجانّ أنثى، كما فصلت حواء من آدم، قال بعضهم: أنّ الله خلق للموجود (الأوّل) من الجانّ فرجاً في نفسه، فنكح بعضه ببعضه فولد مثل ذريّة آدم، ذكراناً وأناثاً، ثمّ نكح بعضهم بعضاً فكان خلقه خنثى، ولذلك هم من عالم البرزخ، لهم شبه بالبشر وشبه بالملائكة، كالخنثى يشبه الذّكر ويشبه الأنثى، وقد رُوينا (فيما رويناه) من الأخبار عن بعض أئمة الدّين أنّه رأى رجلاً ومعه ولدان، وكان خنثى، الواحد من ظهره والآخر من بطنه، نكح فوُلد له، ونُكح فوَلد [٤٣]، وسمّي خنثى من الإنخنات وهو الإسترخاء والرّخاوة،

---

(٤٣) قوله: نكح فوُلد له، ونُكح فوَلد.

روى الشيخ الجليل المفيد في الإرشاد ص ١١٤، وفي مصنّفات الشيخ المفيد ج ١١، ص ٢١٣، بإسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: بينا شُرَيح في مجلس القضاء إذ جاءه شخص فقال: يا أبا أميّة أخلني فإنّ لي حاجة، قال: فأمر من حوله أن يخفّوا عنه، فانصرفوا وبقي خاصّةُ من حضر. فقال له: اذكر حاجتك، فقال: يا أبا أميّة إنّ لي ما للرجال وما للنساء، فما الحكم عندك فيّ، أرجل أنا أم امرأة؟ فقال له: قد سمعت من أمير المؤمنين عليه السّلام في ذلك قضيّة أنا أذكرها، خبّرني عن البول من أيّ الفرجين يخرج؟ قال الشخص: من كليهما، قال: فمن أيّهما ينقطع؟ قال منهما معاً، فتعجّب شريح، فقال الشخص: سأورد عليك من أمري ماهو أعجب. قال شريح: وما ذاك؟ زوّجني أبي على أنّني امرأة فحملت من الزّوج، وابتعت جارية تخدمني فأفضيت إليها فحملت منّي. قال: فضرب شُريح إحدى يديه على الأخرى متعجّباً وقال: هذا أمر لابدّ من إنهائه إلى أمير المؤمنين عليه السّلام، فلا علم لي بالحكم فيه. الحديث، فراجع.

ورواه أيضاً الصدوق في الفقيه ج ٤، ص ٢٣٩، الحديث ٧٦٢، باب ميراث الخنثى، الحديث ٤، والشيخ الطوسي (ره) في التهذيب ج ٩، ص ٣٥٤ ح ١٢٧١ باب ميراث الخنثى الحديث ٥، والمغربي في دعائم الإسلام ج ٢، ص ٣٨٧، الحديث ١٣٧٧، والخوارزمي في المناقب ص ١٠١، الحديث ١٠٥.

عدم القوّة والشدّة، (فلم تقو فيه قوّة الذكوريّة فيكون ذكراً)، ولم تقو فيه قوّة الأنوثة فيكون أنثى، فاسترخى عن هاتين القوّتين فسمّي خنثى والله أعلم.

(غذاء الجان ونكاحهم)

ولمّا غلب على الجانّ عنصر الهواء والنّار، لذلك كان غذاؤهم ما يحمله الهواء ممّا في العظام من الدّسم، فإنّ الله جاعل لهم فيها رزقاً، فانّا نشاهد جوهر العظم وما يحمله من اللحم لا ينتقص منه شيء فعلمنا قطعاً انّ الله جاعل لهم فيها رزقاً، قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في العظام [٤٤]:

إنها زاد إخوانكم من الجنّ.

وفي حديث.

إنّ الله جاعل لهم فيها رزقاً [٤٥].

وأخبرني بعض المكاشفين أنّه رأى الجنّ يأتون إلى العظم فيشمونه كما تشمّ السّباع

---

(٤٤) و (٤٥) قوله: قال النّبي (ص) في العظام.

فروع الكافي ج ٦، باب نهك العظام، ص ٣٢٢:

عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن أبي عبدالله، عن محمّد بن عليّ، عن محمّد بن الهيثم، عن أبيه قال: صنع لنا أبو حمزة طعاماً ونحن جماعة، فلمّا حضرنا رأى رجلاً ينهك عظماً، فصاح به فقال: لاتفعل فإنّي سمعت علي بن الحسين عليه السّلام يقول:

«لا تنهكوا العظام، فإنّ فيها للجنّ نصيباً، وإن فعلتم ذهب من البيت ماهو خير من ذلك».

وفي صحيح الترمذي ج ١، أبواب الطهارة، باب ١٤، الحديث ١٨، بإسناده عن عبدالله ابن مسعود قال: قال رسول الله (ص):

«لا تستنجوا بالرّوث ولا بالعظام فإنّه زادُ إخوانكم من الجنّ».

وفي صحيح البخاري باسناده عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله (ص):

«هما ـ العظم والروثة ـ من صحام الجنّ» الحديث. ج ١، كتاب مناقب الأنصار، باب ٩٤، الحديث ٣٦٦.

ثمّ يرجعون وقد أخذوا رزقهم، وغذاؤهم في ذلك الشمّ. فسبحان اللطيف الخبير.

وأمّا واجتماع بعضهم ببعض عند النّكاح فالتواء، مثل ما تبصر الدّخان الخارج من الأتّون أو من قرب الفخّار، يدخل بعضه في بعض فيلتذ كلّ واحد من الشخصين بذلك التداخل، ويكون ما يلقونه كلقاح النخلة بمجرّد الرّائحة كغذائهم سواء.

(قبائل الجان وعشائرهم)

وهم قبائل وعشائر، وقد ذكر أنهم محصورون في إثنتي عشرة قبيلة أصولاً، ثمّ يتفرعون إلى أفخاذ وتقع بينهم حروب عظيمة، وبعض الزوابع قد يكون عين حربهم [٤٦]، فإنّ الزّوبعة تقابل ريحين تمنع واحدة صاحبتها أن تخترقها فيؤدّي ذلك المنع

(٤٦) قوله: وبعض الزوابع قد يكون عين حربهم.

انظر الحديث التالي تجد فيه مايدل على ما قال به الماتن من انّ فيهم (الجنّ) توجد قبائل، وتوجد بينهم الحرب أحياناً، وأنّ بعض الزوابع نفس حربهم:

روى السيّد ابن طاووس في كتاب: «اليقين في إمرة أمير المؤمنين»، الباب ٩٠، ص ٦٨، بإسناده عن أبي سعيد الخدريّ قال: كان النّبيّ (ص) ذات يوم جالساً بالأبطح وعنده جماعة من أصحابه وهو مقبل علينا بالحديث إذ نظر إلى زوبعة قد ارتفعت، فأثارت الغبار ومازالت تدنو والغبار تعلو إلى أن وقعت بحذاء النبيّ (ص) فسلّم على رسول (ص) شخص فيها، ثمّ قال: يارسول الله إنّي وافد وقومي، وقد استجرنا بك فأجرنا وابعث معي من قِبَلك مَن يشرف على قومنا، فإنّ بعضهم قد بغوا علينا، ليحكم بيننا وبينهم بحكم الله وكتابه، وخذ عليّ العهود والمواثيق المؤكّدة أنّي أردّه إليك سالماً في غداة إلّا أن يحدث عليّ حادثة من قِبَل الله، فقال (له) النبيّ (ص): من أنت ومن قومك؟ قال: أنا عرفطة بن شمراخ (سمراخ) أحد بني كاخ من الجنّ المؤمنين، أنا وجماعة من أهلي كنّا نسترق السمع، فلمّا منعنا ذلك وبعثك الله نبيّاً آمنّا بك وصدّقنا قولك، وقد خالفنا بعض القوم المؤمنين وبعضهم وأقاموا على ما كانوا عليه، فوقع بيننا وبينهم الخلاف، وهم أكثر منّا عدداً وقوّة، وقد غلبوا على الماء والمراعي وأضرّوا بنا وبدوابّنا، فابعث معي من يحكم بيننا بالحقّ، .... ثمّ إنّ النبيّ (ص) أخذ عليه العهد والميثاق على أن يردّ عليه في غد مَن

←

إلى الدور المشهود في الغبرة في الحسّ، الّتي أثارها تقابل الرّيحين المتضادّين. فثل ذلك يكون حربهم، وما كلّ زوبعة حربهم، وحديث (قصة) عمرو الجنّي، مشهورة مرويّة، وقتله في الزّوبعة الّتي أبصرت فانقشعت عنه وهو على الموت فما لبث أن مات، وكان عبداً صالحاً من الجانّ (٤٧).

→ يبعث معه به.

فلمّا فرغ من ذلك التفت إلى أبي بكر وقال: سر مع أخينا عرفطة وتشرّف على قومه وتنظر إلى ما هم عليه فاحكم بينهم بالحقّ. فقال يارسول الله وأين هم؟ قال: هم تحت الأرض، فقال أبو بكر: وكيف أُطيق النّزول في الأرض؟ وكيف أحكم بينهم ولا أُحسن كلامهم؟ فالتفت إلى عمر بن الخطّاب وقال له مثل قوله لأبي بكر، فأجاب بمثل جواب أبي بكر، ثمّ استدعى بعليّ (ع) وقال له: يا عليّ سر مع أخينا عرفطة وتشرّف على قومه وتنظّر إلى ما هم عليه وتحكّم بينهم بالحقّ. فقام عليّ (ع) مع عرفطة وقد تقلّد سيفه، وتبعه أبو سعيد الخدري وسلمان الفارسيّ، قالا: نحن أتبعناهما إلى أن صاروا إلى واد، فلمّا توسّطاه نظر إلينا عليّ (ع) فقال: قد شكر الله تعالى سعيكما فارجعوا فقمنا ننظر إليهما، فانشقّت الأرض ودخلا فيها وعادت إلى ما كانت. الحديث، فراجع.

نقله أيضاً عن السيّد، بحار الأنوار ج ٣٩، ص ١٦٨، الحديث ٩، وفي ج ١٨، ص ٨٦، الحديث ٤، نقله عن كتاب عيون المعجزات للشيخ حسين بن عبدالوهاب ص ٤٣، بإسناده عن سلمان.

(٤٧) قوله: وحديث عمرو الجنّي مشهورة مرويّة.

أحمد بن حنبل بإسناده عن صفوان بن المعطل قال: خرجنا حجاجاً فلمّا كنّا بالعَرْج إذا نحن بحيّة تضطرب، فلم تلبث أن ماتت، فاخرج لها رجل منّا خرقة من عَيْبة، فلفها فيها ودفنها وخدّلها في الأرض، فلمّا أتينا مكّة فأنّا لبالمسجد الحرام. إذ وقف علينا شخص فقال: أيّكم صاحب عمرو بن جابر؟ قلنا ما نعرفه، قال: أيّكم صاحب الجان؟ قالوا هذا، قال أما انّه جزاك الله خيراً، أمّا إنّه قد كان من آخر التسعة موتاً الّذين أتوا رسول الله (ص) يستمعون القرآن، راجع الفتح الربّاني ج ٢، ص ٢٧، الحديث ٨٤.

وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ج ٣، ص ٥١٩، كتاب معرفة الصّحابة في ذكر صفوان بن المعطل، بإسناده عنه.

←

. . . .

← وأخرجه أيضاً السيوطي في تفسيره الدرّ المنثور في سورة الأحقاف ج ٧، ص ٤٥٣.

وروى الطبرسي في كتابه الإحتجاج، (باب احتجاج أمير المؤمنين (ع) على اليهود، ج ١، ص ٣١٤)، عن الإمام موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عليهم السّلام قال: إن يهودياً من يهود الشام جاء إلى مجلس فيه أصحاب رسول الله (ص) وفيهم علي بن أبي طالب، ابن عباس، وابن مسعود، أبو سعيد الجهنيّ، فقال: يا أمّة محمّد ما تركتم لنبيّ درجة، ولا لمرسل فضيلة إلّا انحلتموها نبيّكم، فهل تجيبوني عمّا أسألكم عنه، فكاع القوم عنه، فقال علي بن أبي طالب عليه السّلام: نعم ما أعطي الله نبيّاً درجة، ولا مرسلاً فضيلة، إلّا وقد جمعها لمحمّد (ص) وزاد محمّداً على الأنبياء أضعافاً مضاعفة.... إلى أن قال: قال اليهودي: فان هذا سليمان سخرت له الشياطين، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل؟ قال له علي (ع): لقد كان كذلك، ولقد أُعطي محمّد (ص) أفضل من هذا، إنّ الشياطين سخرت لسليمان وهي مقيمة على كفرها، ولقد سخرت لنبوة محمّد (ص) الشياطين بالإيمان، فاقبل إليه من الجنّة التسعة من أشرافهم، واحد من جنّ نصيبين، والثمان من بني عمرو بن عامر بن الأحجّة، منهم شضاه، ومضاه، والهملكان، والمرزبان، والمازمان، ونضاه، وهاضب، وهضب، وعمرو، وهم الّذين يقول الله تبارك إسمه فيهم:

﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وهم التسعة، الحديث فراجع، عنه البحار ج ١٧، ص ٢٧٣، الحديث ٧.

وروى الكليني (ره) في الأصول الكافي ج ١، ص ٣٩٦، الحديث ٦، بإسناده عن جابر عن الباقر (ع) قال: بينا أمير المؤمنين (ع) على المنبر إذ أقبل ثعبان من ناحية باب من أبواب المسجد، فهمّ الناس أن يقتلوه، فأرسل أمير المؤمنين (ع) أن كفّوا، فكفّوا، وأقبل الثعبان ينساب حتّى انتهى إلى المنبر فتطاول فسلّم على أمير المؤمنين (ع) فأشار أمير المؤمنين (ع) إليه أن يقف حتّى يفرغ من خطبته، ولمّا فرغ من خطبته أقبل عليه فقال: من أنت؟ فقال: عمرو بن عثمان خليفتك على الجنّ، وإنّ أبي مات وأوصاني أن آتيك، فأستطلع رأيك، وقد أتيتك يا أمير المؤمنين فما تأمرني به وما ترى؟ فقال له أمير المؤمنين (ع): أوصيك بتقوى الله وأن تنصرف فتقوم مقام أبيك في الجنّ، فإنّك خليفتي عليهم، قال: فودّع عمرو أمير المؤمنين وانصرف فهو خليفته على الجنّ، فقلت له: جعلت فداك فيأتيك عمرو، وذاك الواجب عليه؟ قال: نعم.

←

(تشكّل العالم الروحاني ونشأة عالم الجانّ)

ثمّ نرجع ونقول: وان هذا العالم الرّوحاني إذا تشكل وظهر في صورة حسّية يقيّده البصر بحيث لايقدر أن يخرج عن تلك الصّورة مادام البصر ينظر إليه بالخاصيّة، ولكن من الإنسان، فإذا قيده ولم يبرح (ناظراً) إليه وليس له موضع يتوارى فيه أظهر له هذا الرّوحاني صورة جعلها عليه كالستر، ثمّ يخيل له مشي تلك الصّورة إلى جهة مخصوصة فيتبعها بصره فإذا أتبعها بصره خرج الرّوحاني عن تقييده، فغاب عنه وبمغيبه تزول تلك الصّورة عن نظر النّاظر الّذي أتبعها بَصَره، فإنّها للرّوحاني كالنّور مع السّراج المنتشر في الزّوايا نوره، فإذا غاب جسم السّراج فُقِد ذلك النّور، فهكذا هذه الصّورة، فمن يعرف هذا ويحبّ تقييده لا يتبع الصورة بصره، وهذا من الأسرار الإلهيّة الّتي لاتُعرف إلّا بتعريف الله، وليست الصّورة غير عين الرّوحاني، بل هي عينه ولو كانت في ألف مكان، أو في كلّ مكان ومختلفة الأشكال.

(كيفيّة الموت في عالم الروحاني)

وإذا اتّفق قتل صورة من تلك الصّور وماتت في (ظاهر) هذا الأمر انتقل ذلك الرّوحاني من الحياة الدّنيا إلى البرزخ، كما ننتقل نحن بالموت ولا يبقى له في عالم الدّنيا حديث مثلنا سواءاً، وتسمّى تلك الصّورة المحسوسة الّتي تظهر فيها الروحانيّات أجساداً، وهو قوله تعالى:

﴿وألقينا علىٰ كرسيّه جسداً﴾ [سورة ص: ٣٤].

وقوله:

﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام﴾ [سورة الأنبياء: ٨].

والفرق بين الجانّ والملائكة وإن اشتركوا في الرّوحانيّة انّ الجانّ غذاؤهم ما تحمله الأجسام الطّبيعيّة من المطاعم، والملائكة ليست كذلك، ولهذا ذَكَر الله في قصّة ضيف

← أوردنا هذا الحديث لما فيه من دلالة واضحة على دوام بقاء الجنّ وتديّنهم واتّباعهم الأئمّة (ع)، ومعلوم أنّ عمرو المذكور في هذا الحديث غير عمرو الّذي هو من التسعة.

إبراهيم الخليل:

﴿فلمّا رأى أيديهم لاتصل إليه نكِرهم﴾ [سورة هود: ٧٠].

يعني إلى العجل الحنيذ، أي لا يأكلون منه وخاف!.

وحين جاء وقت إنشاء عالم الجانّ، توجّه من الأُمناء الّذين في الفلك الأوّل من الملائكة ثلاثة، ثمّ أخذوا من نوّابهم من السّماء الثانية مايحتاجون إليه منهم في هذا النشأ، ثمّ نزلوا إلى السّماوات فأخذوا من النّواب إثنين، من السّماء الثّانية والسّادسة من هناك، ونزلوا إلى الأركان، فهيئوا المحل واتّبعهم ثلاثة أخر من الأمناء وأخذوا من الثّانية ما يحتاجون من نوّابهم، ثمّ نزلوا إلى السّماء الثالثة والخامسة من هناك فأخذوا ملكين، ومرّوا بالسّماء السّادسة فأخذوا نائباً آخر من الملائكة، ونزلوا إلى الأركان ليكملوا التّسويه فنزلت السّتة الباقية وأخذت ما بقي من النّواب في السّماء الثانية وفي السّماوات، فاجتمع الكلّ على تسوية هذه النّشأة بإذن العليم الحكيم.

فلمّا تمّت نشأته واستقامت بنيته توجّه الرّوح من عالم الأمر فنفخ في تلك الصّورة روحاً سرت فيه بوجودها الحياة، فقام ناطقاً بالحمد والثّناء لمن أوجده جبلّة جبل عليها وفي نفسه عزة وعظمة لايعرف سببها ولا على من يعتزّ (بها)، إذ لم يكن ثمّ مخلوق آخر من عالم الطّبائع سواه، فبقي عابداً لربّه مصرّاً على عزّته متواضعاً لربوبيّة موجده لما يعرض له ممّا هو عليه في نشاته إلى أن خلق آدم، فلمّا رأى الجانّ صورته غلب على واحد منهم اسمه الحادث بعض تلك النشأة وتجهّم وجهه لرؤية تلك الصورة الآدميّة، وظهر تلك منه لجنسه فعاتبوه لذلك لما رأواه عليه من الغم والحزن لها، فلمّا كان من أمر آدم ما كان أظهر الحارث ما كان يجد في نفسه منه وأبى عن إمتثال أمر خالقه بالسّجود لآدم، واستكبر على آدم بنشأته وافتخر بأصله وغاب عنه سرّ قوّة الماء الّذي جعل منه كلّ شيء حيّ، ومنه كانت حياة الجان وهم لايشعرون.

(في تشكّل نشأة الإنسان وخلقته)

وتأمّل إن كنت من أهل الفهم قوله تعالى:

﴿وكان عرشه على الماء﴾ [سورة هود: ٧].

فحيي العرش، وما حوى عليه من المخلوقات:

﴿وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده﴾ [سورة الاسراء: ٤٤].

فجاء بالنكرة ولا يسبح إلّا حيّ، وورد في الحديث الحسن عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

«إنّ الملائكة قالت: ياربّ! (في حديث طويل) هل خلقت شيئاً أشدّ من النّار؟ قال: نعم، الماء» (٤٨).

---

(٤٨) قوله: هل خلقت شيئاً أشدّ من النّار؟

رواه الترمذي في (الجامع الصّحيح) ج ٥، كتاب تفسير القرآن، باب ٩٦، الحديث ٣٣٦٩، وأيضاً أخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٣، ص ١٢٤، والجزري في (جامع الأصول) ج ٦، ص ٤٤٦، الحديث ٤٦٤٦. بإسنادهم عن رسول الله (ص) قال: «لمّا خلق الله الأرض جعلت تميدُ، فخلق الجبال فعاد بها عليها فاستقرّت، فتعجّبت الملائكة من شدّة الجبال، فقالوا: ياربّ هل من خلقك شيء أشدّ من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالوا: يا ربّ فهل من خلقك شيء أشدّ من الحديد؟ قال: نعم النّار، فقالوا: ياربّ فهل من خلقك شيء أشدّ من النّار؟ قال: نعم الماء، قالوا: ياربّ فهل من خلقك شيء أشدّ من الماء؟ قال: نعم الرّيح، قالوا: ياربّ فهل من خلقك شيء أشدّ من الرّيح؟ قال: نعم ابن آدم، تصدّق بصدقة بيمينه يُخفيها من شماله.

هناك روايات أخرى وردت في الموضوع عن طريق أهل البيت (ع) ولا بأس بذكر طَرَف منها مزيداً للفائدة والإستفادة.

روى ابن شعبة في تحف العقول، باب (حكمه وكلامه (ص)) في ما أجاب (ص) عن مسائل شمعون بن لاوي بن يهود أمين حواريّ عيسى (ع) (الحديث طويل، منه قال (ص):

يا شمعون خالط الأبرار واتّبع النبيّين: يعقوب ويوسف وداود، إنّ الله تبارك وتعالى لمّا خلق السفلى فَخَرَتْ وزَخَرَتْ وقالت: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق الأرض فسطّحها على ظهرها، فذلّت، ثمّ إنّ الأرض فَخَرَت وقالت: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق الله الجبال، فأثبتها على ظهرها أوتاداً مِن أن تميد بما عليها، فذلّت الأرض واستقرّت، ثمّ إنّ الجبال فخرت على الأرض فشمخت واستطاعت وقالت: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق الحديد فقطعها فذلّت،

←

فجعل الماء أقوىٰ من النّار، فلو كان عنصر الهواء في نشأة الجانّ غير مشتعل بالنّار لكان الجانّ أقوىٰ من بني آدم، فإنّ الهواء أقوىٰ من الماء، فإنّ الملائكة قالت في هذا الحديث:

«يا ربّ! فهل خلقت شيئاً أشدّ من الماء؟ قال: نعم الهواء.

ثمّ قالت:

«يا ربّ! فهل خلقت شيئاً أشدّ من الهواء؟ قال: نعم، ابن آدم»، الحديث.

← ثمّ إنّ الحديد فخر على الجبال وقال: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق النار فأذابت الحديد، فذلّ الحديد، ثمّ إنّ النار زَفَرت وَشَهَقَتْ وفخرت وقالت: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق الماء فأطفأها فذلّت، ثمّ إنّ الماء فخر وزَخَر وقال: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق الريح، فحرّكت أمواجه وأثارت ما في قعره وحبسته عن مجاريه، فذلّ الماء، ثمّ إنّ الريح فخرت وعَصَفَت وقالت: أي شيء يغلبني؟ فخلق الإنسان فَبَنىٰ واحتال ما يستتر به من الريح وغيرها فذلّت الريح، ثمّ إنّ الإنسان طغى وقال: من أشدّ منّي قوّة، فخلق الموت فقهره فذلّ الإنسان، ثمّ إنّ الموت فخر في نفسه فقال الله عزّ وجلّ: لاتفخر فإنّي ذابحك بين الفريقين: أهل الجنّة وأهل النّار، ثمّ لا أحييك أبداً فخاف، ثمّ قال: والحلم يغلب الغضب، والرحمة تغلب السخط والصّدقة تغلب الخطيئة.

وقريب منه رواه الكليني في (الروضة) ص ١٤٨، الحديث ١٢٩، وأيضاً قريب منه رواه الصدوق في الخصال باب العشرة ص ٤٤٢، الحديث ٣٤. والحديث ٣٣، ص ٤٤٠.

وأيضاً قريب منه روى صاحب تفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع) في قوله تعالى:

﴿الّذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ [البقرة: ٢٢]، ص ١٤٤، الحديث ٧٣.

وروى الثقفي في (الغارات)، ص ١٠٦، بإسناده عن أمير المؤمنين (ع) في جواب ابن الكوّاء حين ما سأله: أيّ خلق الله أشدّ؟

قال عليه السّلام: إنّ أشدّ خلق الله عشرة: الجبال والرّواسي، والحديد تنحت به الجبال، والنار تأكل الحديد، والماء يطفيء النار، والسّحاب المسخّر بين السماء والأرض يحمل الماء، والرّيح تقلّ السحاب، والإنسان يغلب الريح، يتّقيها بيديه ويذهب لحاجته، والسّكر يغلب الإنسان، والنوم يغلب السّكر، والهمّ يغلب النوم، فأشد خلق ربّك الهمّ.

(قوّة العقل في الإنسان وضعفه في الجانّ)

فجعل النشأة الإنسانيّة أقوىٰ من الهواء، وجعل الماء أقوىٰ من النّار، وهو العنصر الأعظم في الإنسان، كما أنّ النّار العنصر الأعظم في الجانّ، ولهذا قال في الشيطان:

﴿إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ [سورة النّساء: ٧٦].

فلم ينسب إليه من القوّة شيئاً، ولم يردّ على العزيز في قوله:

﴿إنّ كيدكنّ عظيم﴾ [سورة يوسف: ٢٨].

ولا أكذبه مع ضعف عقل المرأة عن عقل الرّجل، «فانّ النّساء ناقصات عقل (ودين)»، (٤٩)، فما ظنّك بقوّة الرّجل؟.

---

(٤٩) قوله: فانّ النّساء ناقصات عقل ودين.

أخرج مسلم في صحيفة «كتاب الإيمان باب (٣٤) نقصان الإيمان، ج ١، ص ٨٦، الحديث (٧٩ ـ ١٣٢)، بإسناده عن عبدالله بن عمر، عن رسول الله (ص) أنّه قال:

يا معشر النّساء! تَصَدَّقن وأكثِرن الإستغفار، فإنّي رأيتكنَّ أكثر أهل النّار، فقالت امرأة منهنّ جَزْلَة: ومالنا يارسول الله أكثر أهل النار، قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، وما رأيت مِن ناقصات عقلٍ ودينٍ أغلَبَ لذي لبّ منكنّ، قالت: يارسول الله وما نقصان العقل والدّين؟ قال: أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكّث الليالي ماتصلّي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدّين.

وأخرجه البخاري بإسناده عن أبي سعيد الخدريّ كتاب الحيض باب ترك الحايض الصّوم ح ٢٩٣، ج ١، ص ١٩٣. وأحمد بن حنبل بإسناده عن إبن عمران، ج ٢، ص ٦٦، وابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب فتنة النساء، الحديث ٢، ص ١٣٢٦، الحديث ٤٠٠٣. وأبي داود ج ٤، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، الحديث ٤٦٧٩، ص ٢١٩. والدّارمي ج ١، باب الحائض تسمع السجدة ولا تسجد، الحديث ١٠٠٧، ص ٢٥٤. والترمذي بإسناده عن أبي هريرة ج ٥، كتاب الإيمان، باب ٦، الحديث ٢٦١٣، ص ١٠.

وفي تفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع) ص ٦٥٦، قال أمير المؤمنين (ع): كنّا نحن مع رسول الله (ص) وهو يذاكرنا بقوله تعالى:

←

وسبب ذلك أن النشأة الإنسانيّة تعطي التؤدة في الأمور والأناة والفكر والتّدبير لغلبة العنصرين: الماء والتّراب، على مزاجه فيكون وافر العقل، لأنّ التّراب يـثبّطه ويُمسكه، والماء يُلينّه ويُسهّله، والجـانّ ليس كذلك، فإنّه ليس لعقله ما يمسكه عليه ذلك الإمساك الّذي للإنسان، ولهذا يقال: فلان خفيف العقل، وسخيف العقل، إذا كان ضعيف الرأي في الأمور، وهذا هو نعت الجانّ، وبه ضلّ عن طريق الهدىٰ لخفة عقله وعدم تثبته في نظره، فقال:

﴿أنا خيرٌ منه﴾ [سورة الأعراف: ١٢].

← ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾.

إذ جاءت امرأة فوقفت قبالة رسول الله (ص) وقالت: بأبي أنت وأمّي يارسول الله أنا وافدة النساء إليك، ما من امرأة يبلغها مسيري هذا إليك إلّا سرّها ذلك، يارسول الله، إنّ الله عزّ وجلّ ربّ الرّجال والنساء، وخالق الرّجال والنساء، وإنّك رسول الله إلى الرجال والنساء، فما بال امرأتين برجل في الشهادة والميراث؟ فقال رسول الله (ص) يا أيّتها المرأة إنّ ذلك قضاء من ملك عدل حكيم لايجوز، ولا يحيف ولا يتحامل، لاينفعه ما منعكنّ، يدبّر الأمر بعلمه، يا أيّتها المرأة لأنّكنّ ناقصات الدّين والعقل، قالت: يارسول الله (ص) وما نقصان ديننا؟ قال: إنّ إحداكنّ تقعد نصف دهرها لاتصلّي بحيضة (عن الصّلاة لله)، وإنّكنّ تكثرن اللعن، وتكفرن النعمة (العشير) (العشيرة)، تمكث إحداكنّ عند الرّجل عشر سنين فصاعداً يحسن إليها وينعم عليها فإذا ضاقت يده يوماً أو خاصمها قـالت له: مـا رأيت فيك خيراً قطّ، فمن لم يكن من النساء هذا خلقها فالّذي يصيبها منها النقصان محنة عليها لتصبر فيعظم الله ثوابها، فابشري.

عنه البحار ج ١٠٤، ص ٣٠٤، الحديث ١٠.

وقال علي (ع) (نهج البلاغة صبحي صالح خ ٨٠):

معاشر النّاس! إنّ النساء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقول، فـأمّا نقصان إيمانهنّ فقعودهنّ عن الصّلاة والصّيام في أيّام حـيضهنّ، وأمّـا نـقصان عـقولهنّ فشهادة امرأتين كشهادة الرّجل الواحد، وأمّا نقصان حظوظهنّ فمواريثهنّ على الأنصاف من مواريث الرّجال.

عنه المجلسي في البحار ج ٣٢، ص ٢٤٧.

فجمع بين الجهل وسوء الأدب، لخفته.

(أوّل من سمّي شيطاناً كان من الجنّ)

فمن عصى من الجانّ كان شيطاناً أي مبعوداً من رحمة الله وكان أوّل من سمّي شيطاناً من الجنّ الحارث، فأبلسه الله أي طرده من رحمته، وطرد الرّحمة عنه، ومنه تفرعت الشياطين بأجمعها، فمن آمن منهم مثل هامَّة بن الهام بن لاقيس بن إبليس، إلتحق بالمؤمنين من الجنّ، ومن بقي على كفره كان شيطاناً. وهي مسألة خلاف بين علماء الشّريعة، فقال بعضهم إنّ الشّيطان لا يسلم أبداً، وتأوّل قوله عليه السّلام في شيطانه وهو القرين الموكل به: إن الله أعانه عليه فأسلم (٥٠).

روى برفع الميم وفتحها أيضاً، فتأوّل هذا القائل الرّفع بأنّه قال: فأسلمُ منه، أي ليس له عليّ سبيل، وهكذا تأوّله المخالف، وتأول الفتح فيه على الإنقياد، قال: فمعناه انقاد مع كونه عدوا، فهو بعينه لا يأمرني إلّا بخير، خيراً من الله وعصمة لرسول الله صلّى الله عليه وآله، وقال المخالف معنى فأسْلَمَ بالفتح أي آمن بالله كما يسلم الكافر عندنا فيرجع مؤمناً، وهو الأولى والأوجه.

---

(٥٠) قوله: إنّ الله أعانه عليه فأسلم.

أخرج ابن حنبل في مسنده ج ١، ص ٢٥٧، بإسناده عن ابن عباس عن رسول الله(ص) قال: ليس منكم من أحد إلّا وقد وكل به قرينه من الشياطين، قالوا: وأنت يا رسول الله، قال: نعم ولكن الله أعانني عليه فأسلم.

وأخرجه أيضاً كنز العمّال ج ١، ص ٢٥٣، الحديث ١٢٧٥.

وفي حديث آخر (١٢٧٦) فلا يأمرني إلّا بخير.

وفي كشف الغمّة ج ٢، ص ٧٨ نقلاً عن الجنابذي الحنبلي في كتابه معالم العشرة، مرسلاً عن آدم (ع) قال:

إنّي لسيّد البشر يوم القيامة إلّا رجل من ذرّيتي، نبيّ من الأنبياء يقال له: أحمد (ص) فضّل عليّ باثنتين: زوجته عاونته وكانت له عوناً، وكانت زوجتي عليّ عوناً، وأنّ الله أعانه على شيطانه فأسلم وكفر شيطاني.

(أوّل الأشقياء من الجنّ هو إبليس)

وأكثر النّاس يزعمون أنّه أوّل الجنّ وهو بمنزلة آدم من النّاس، وليس كذلك عندنا، بل هو واحد من الجنّ، وانّ الأوّل فيهم الّذي بمنزلة آدم من البشر إنّما هو غيره، ولذلك قال تعالىٰ:

﴿إلّا ابليس كان من الجنّ﴾ [سورة الكهف: ٥٠].

أي من هذا الصّنف من المخلوقين، كما كان قابيل من البشر وكتبه الله شقياً، فهو أوّل الأشقياء من البشر، وإبليس أوّل الأشقياء من الجنّ، وعذاب الشّياطين من الجنّ في جهنّم أكثر ما يكون بالزّمهرير لا بالحرور، وقد يعذّب بالنّار، وبنو آدم أكثر عذابهم بالنّار.

ووقفت يوماً على مخبول العقل من الأولياء، وعيناه تدمعان وهو يقول للنّاس: لاتقفوا مع قوله تعالى:

﴿لأملأنّ جهنّم منك﴾ [سورة ص: ٨٥].

لإبليس فقط، بل انظروا في إشارته سبحانه لكم بقوله لإبليس: جهنم منك، فإنّه مخلوق من النّار فيعود لعنه الله إلى أصله، وإن عُذّب به فعذاب الفجّار (الفخار) بالنّار أشدّ، فتحفّظوا، فما نظر هذا الولي من ذكر جهنم إلّا النّار خاصّة، وغفل عن أن جهنم اسم لحرورها وزمهريرها، وبجملتها (لجهامتها) سمّيت جهنّم لأنّها كريهة المنظر، والجهام: السّحاب الّذي قد هرق ماءه، والغيث رحمة الله. فلمّا أزال الله الغيث من السّحاب بإنزاله، أطلق عليه اسم الجهام، لزوال الرحمة الّذي هو الغيث عنه، كذلك الرّحمة أزالها الله من جهنّم فكانت كريهة المنظر والمخبر، وسمّيت أيضاً جهنّم لبعد قعرها، يقال:

ركيّة جهنام، إذا كانت بعيدة القعر، نسأل الله العظيم لنا وللمؤمنين، الأمن منها، ويكفي هذا القدر من هذا الباب.

وهذا آخره، وكان الغرض منه بحث الملك، والجنّ، وآدم، وابليس، وأمّا ذكر الجنّة والجحيم، والبرزخ وغير ذلك، فسيجئ في آخر المقدّمة السّادسة، مبسوطاً مفصّلاً من كلامنا وكلام الشيخ أيضاً، والحمد لله وحده.

وحيث (قلنا) بنقل من كلام الشّيخ ما هو مناسب بهذا المقام سيّما ببحث العالَم وترتيبه وايجاده وتحقيقه، فبقي هناك باب آخر في هذا الباب ننقله ونقطع هذا البحث عليه بحيث يكون هذا الجزء بتمامه مخصوصاً بكلامه.

وهذا الباب عندي أحسن الأبواب وأبسطها في كثرة اللطائف والحقايق الّتي فيه، كما ستعرفها إن شاء الله وهو هذا، وبالله التّوفيق.



الباب الحادي عشر
في معرفة آبائنا العلويّات وأمّهاتنا السّفليّات (٥١)

أنـــا ابـنُ آبـاءِ أرواحٍ مـطهّرةٍ وأُمّـــهاتِ نـفوس عـنصريّات
مـابين روح وجـسم كـانَ مـظهرنا عـن (عـند) اجـتماع بـتعنيق ولذّات
ما كنت عـن واحـد حـتّى أوحّـده بـل عـن جمـاعةِ آبـاءٍ وأمّـات
هـم للإلـه إذا حـقّقتَ شـأنهم كـصانع صـنع الأشـياء بـآلآت
فـنسبة الصّـنع للـنّجّار ليس لهـا كـذاك أوجَـدَنا ربُّ البريّـات
فيصدق الشخص في توحيدِ موجده ويصدق الشخص في إثبات عـلّاتِ
فـإن نـظرتَ إلى الآلات طـال بِـنا إسـنادُ عَـنْعَةٍ حـتّىٰ إلى الذّات
وإن نـظرت إليـه وهـو يُـوجدنا قـلنا بـوحدته لا بـالجماعات
إنّي وُلدتُ وَحـيد العـين منفرداً والنّـاس كـلُّهم أولاد عـلّات

(المقصود من العالم الإنسان وهو الإمام)

إعلم، أيّدك(نا) الله وإيّاكم، أنّه لمّا كان المقصود من هذا العالَم، الإنسان، وهو الإمام، لذلك أضفنا الآباء والأمّهات إليه فقلنا: آبائنا العلويات وأمّهاتنا السّفليّات.

(في معنى الأب والابن والأمّ)

فكلّ مؤثّر أب، وكلّ مؤثّر فيه أمّ، هذا هو الضّابط لهذا الباب، والمتولّد بينهما من ذلك الأثر يسمّى إبنا ومولّداً، وكذلك المعاني في إتناج العلوم إنّما هو بمقدّمتين تنكح

---

(٥١) قوله: الباب الحادي عشر.
الفتوحات المكيّة ج ٢، ص ٣٠٨ ط ج، و ج ١، ص ١٣٨ ط ق.

إحداهما الأخرى بالفرد الواحد الّذي يتكرّر فيهما وهو الرّابط، وهو النّكاح، والنّتيجة الّتي تصدر بينهما هي المطلوبة، والأرواح كلّها آباء والطّبيعة أمّ لما كانت محل الإستحالات، وبتوجّه هذه الأرواح على هذه الأركان الّتي هي العناصر القابلة للتغير والإستحالة تظهر فيها المولّدات وهي المعادن والنّبات والحيوان والجانّ، والإنسان أكملها.

(الإسلام أكمل الشرايع)

وكذلك جاء شرعنا أكمل الشرايع، حيث جرى مجرى الحقايق الكلّيّة، فأوتي جوامع الكَلِم (٥٢)، واقتصر على أربع نسوة وحرّم ما زاد على ذلك بطريق النكاح الموقوف على العقد(٥٣) فلم يدخل في ذلك ملك اليمين، وأباح ملك اليمين في مقابلة

(٥٢) قوله: فأوتي جوامع الكلم.

راجع التعليقة رقم ٢١.

(٥٣) قوله: الموقوف على العقد.

أقول: يلزم أن يُقيّد (العقد) بالدوام، يعني حرمة النكاح زايداً على أربع نسوة في الشرع مبنيّ على العقد الدائم، وأمّا على سبيل الزّواج الموقّت المعبّر عنه بالمتعة فجايز مشروع بلاشكّ، وهذا ثابت بالكتاب والسنّة.

وأكثر أحكام الزواج الموقّت هي نفس أحكام النكاح الدائم بالنّسبة إلى الزوجين، والعدّة والأولاد، إلّا أنّ فيه أحكاماً خاصّة بالنسبة إلى النفقة والإرث والإستمتاع، وقدر الإستمتاع مبيّنان على توافقهما في العقد.

فالزواج الموقّت عقد زواج بين الرّجل والمرأة بمهر معيّن إلى أجل معيّن وبحول الأجل أو بهبة الزّوج المدّة الباقية للزوجة تنحلّ العقد وتنفسخ النكاح، وهذان فيه بمنزلة الطلاق في الزواج الدائم.

ويجب فيه أن تتوفّر جميع الشرائط الشرعيّة في الزواج الدائم مع فقدان جميع الموانع الشرعيّة في الدائم من النسب والسبب، والرضاع، والإحصان، والعِدّة، وغير ذلك من الأحكام والشرايط والموانع المذكورة في الكتب الفقهيّة.

←

. . . .

→ ولابأس بذكر بعض ما قال به العلمين: العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي في تفسيره القيّم «الميزان» في تفسير سورة النساء ج ٤، وفي سورة المؤمنون ج ١٥. والعلّامة الشيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاء في كتابه المبارك «أصل الشيعة وأصولها».

قال العلّامة الطباطبائي في تفسير قوله تعالى:

﴿فما استمتعتم به منهنّ فأتوهنّ أجورهنّ ...﴾ [سورة النساء: ٢٤]. في الميزان ج ٤، ص ٢٧١:

«والمراد بالاستمتاع المذكور في الآية المتعة بلاشكّ، فإنّ الآية مدنيّة نازلة في سورة النساء في الأوّل من عهد النبيّ (ص) بعد الهجرة على ما يشهد به معظم آياتها، وهذا النكاح أعني نكاح المتعة كانت دائرة بينهم معمولة عندهم في هذه البرهة من الزمان من غير شكّ ـ وقد أطبقت الأخبار على تسلم ذلك ـ سواء كان الإسلام هو المشرع لذلك أو لم يكن فأصل وجوده بينهم بمرئى من النبي ومسمع منه لاشكّ فيه، وكان إسمه هذا الإسم ولا يعبر عنه إلّا بهذا اللفظ فلا مناص من كون قوله: ﴿فما استمتعتم به منهنّ﴾ محمولاً عليه مفهوماً منه هذا المعنى كما أن سائر السنن والعادات والرسوم الدائرة بينهم في عهد النزول بأسمائها المعروفة المعهودة كلما نزلت آية متعرضة لحكم متعلّق بشيء من تلك الأسماء بإمضاء أو رد أوامر ونهي لم يكن بد من حمل الأسماء الواردة فيها على معانيها المسماة بها من غير أن تحمل على معانيها اللغوية الأصلية.

وقال خلال بحثه الروائي «بحث آخر روائي» ج ٤، ص ٢٩٨، بعد ذكر بعض الروايات:

هذه عدّة من الروايات الواردة في أمر متعة النساء، والناظر المتأمل الباحث يرى ما فيها (أي في الروايات في الروايات الواردة حول متعة النساء) من التباين والتضارب، ولا يتحصّل للباحث في مضامينها غير أنّ عمر بن الخطاب أيّام خلافته حرّمها ونهى عنها لرأي رآه في قصص عمرو بن حريث، وربيعة ابن أميّة بن خلف الجمحي، وأمّا حديث النسخ بالكتاب أو السنّة فقد عرفت عدم رجوعها إلى محصّل، على أنّ بعض الروايات يدفع البعض في جميع مضامينها إلّا في أنّ عمر بن الخطاب هو الناهي عنها المجري للمنع، المقرّر حرمة العمل، وحدّ الرجم لِمَن فعل ـ هذا أوّلاً ـ.

وأنّها كانت سنة معمولاً بها في زمن النبيّ في الجملة بتجويز منه صلّى الله عليه وآله

←

الأمر الخامس الّذي ذهب إليه بعض العلماء.

← وسلّم: إمّا إمضاء وإمّا تأسيساً، وقد عمل بها من أصحابه من لايتوهّم في حقّه السفاح كجابر بن عبدالله، وعبدالله بن مسعود، والزّبير بن العوام، وأسماء بنت أبي بكر، وقد ولدت بها عبدالله بن الزبير ـ هذا ثانياً ـ.

وأنّ في الصّحابة والتابعين من كان يرى إباحتها كابن مسعود وجابر وعمرو بن حريث وغيرهم، ومجاهد والسدي وسعيد بن جبير وغيرهم ـ وهذا ثالثاً ـ.

وهذا الإختلاف الفاحش بين الروايات هو المفضي للعلماء من الجمهور بعد الخلاف فيها من حيث أصل الجواز والحرمة أوّلاً، إلى الخلاف في نحو حرمتها وكيفيّة منعها ثانياً، وذهابهم فيها إلى أقوال مختلفة عجيبة ربّما أنهي إلى خمسة عشر قولاً». (انتهى كلام العلّامة الطباطبائي).

وقال العلّامة الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء قدس سرّه في كتابه «أصل الشيعة وأصولها» ص ١٩٦ تحت العنوان: (زواج المتعة):

إنّ من ضروريّات مذهب الإسلام الّتي لاينكرها مَن له أدنى إلمام بشرائع هذا الدين الحنيف ـ أنّ المتعة ـ بمعنى العقد إلى أجل مسمّى، وقد شرعها رسول الله (ص) وأباحها وعمل بها جماعة من الصحابة في حياته، بل وبعد وفاته، وقد اتّفق المفسّرون أنّ جماعة من عظماء الصحابة، كعبدالله بن عباس، وجابر بن عبدالله الأنصاري، وعمران بن الحصين، وابن مسعود، وأُبيّ بن كعب وغيرهم، كانوا يفتون بإباحتها ويقرؤون الآية المتقدّمة هكذا: «فما آستمتعتم به منهنّ إلى أجلٍ مُسمّىً».

وممّا ينبغي القطع به أن ليس مرادهم التحريف في كتابه جلّ شأنه والنقص منه (معاذ الله) بل المراد بيان معنى الآية على نحو التفسير الّذي أخذوه من الصادع بالوحي ومن أُنزل عليه ذلك الكتاب الّذي لا ريب فيه».

وإن شئت الإطلاع أكثر من هذا فراجع «تفسير الميزان» ج ١٥، ص ١٢ من طبع البيروت ـ سورة المؤمنون الآية ٥ في بحثه الروائي، وأيضاً كتاب «أصل الشيعة وأصولها ص ١٩٦ العنوان: الزواج المتعة.

وأيضاً راجع الأحاديث الواردة عن طريق أهل البيت عليهم السّلام في الزواج المؤقّت (المتعة): (بحار الأنوار) ج ١٠٣، ص ٣١٢، و(الوسائل الشيعة) ج ١٤، كتاب النكاح، أبواب المتعة، وجامع أحاديث الشيعة ج ٢١، ص ١.

كذلك الأركان من عالم الطّبيعة أربعة، وبنكاح العالم العلوي لهذه الأربعة يوجِد الله ما يتولّد (فيها) منها.

واختلفوا في ذلك على ستّة مذاهب:

فطائفة زعمت أنّ كلّ واحد من هذه الأربعة أصل في نفسه.

وقالت طائفة: ركن النّار هو الأصل فما كثف منه كان هواء، وما كثف من الهواء كان ماءاً، وما كثف من الماء كان تراباً.

وقالت طائفة: ركن الهواء هو الأصل، فما سخف منه كان ناراً، وما كثف منه كان ماءاً.

وقالت طائفة: ركن الماء هو الأصل. وقالت طائفة: ركن التّراب هو الأصل.

وقالت طائفة: الأصل أمر خامس ليس واحد من هذه الأربعة وهذا هو الّذي جعلناه بمنزلة ملك اليمين، فعمّت شريعتنا في النكاح أتمّ المذاهب ليندرج فيها جميع المذاهب.

وهذا المذهب بالأصل الخامس هو الصحيح عندنا، وهو المسمّى بالطبيعة، فإنّ الطّبيعة معقول واحد عنها ظهر ركن النّار وجميع الأركان، فيقال: ركن النّار من الطبيعة ماهو عينها، ولا يصح أن تكون المجموع الّذي هو عين الأربعة، فان بعض الأركان منافر للآخر بالكلّيّة وبعضها منافر لغيره بأمر واحد، كالنّار والماء متنافران من جميع الوجوه والهواء والتّراب كذلك، ولهذا رتّبها الله في الوجود ترتيباً حِكمياً لأجل الإستحالات فلو جعل المنافر مجاوراً لمنافره لما استحال إليه، وتعطلت الحكمة، فجعل الهواء يلي ركن النّار، والجامع بينهما الحرارة، وجعل الماء يلي الهواء، والجامع بينهما الرّطوبة، وجعل التّراب يلي الماء والجامع بينهما البرودة، فالمُحيل أب والمستحيل أمّ، والإستحالة نكاح، والّذي استحال إليها ابن، فالمتكلّم أب، والسّامع أمّ، والتكلّم نكاح، والموجود من ذلك في فهم السّامع ابن.

فكلّ أب علويّ فإنّه مؤثِّر، وكلّ أمّ سفليّة فإنّها مؤثّر فيها، وكلّ نسبة بينهما معيّنة نكاح وتوجّه، وكلّ نتيجة إبن، ومن هنا يفهم قول المتكلّم لمن يريد قيامه: قُم! فيقوم

المراد بالقيام، عن أثر لفظة قُم، فإن لم يقم السّامع وهو أمّ بلاشكّ فهو عقيم وإذا كان عقيماً فليس بأمّ في تلك الحالة.

(النكاح المعنوي بين العقل والنّفس)

وهذا الباب إنّما يختص بالأمّهات، فأول الآباء العلويّة معلوم، وأوّل الأمّهات السّفليّة شيئية المعدوم الممكن، وأوّل نكاح القصد بالأمر، وأول ابنٍ وجود عين تلك الشيئيّة الّتي ذكرنا، فهذا أبٌ ساري الأبوة، وتلك أمّ سارية الأمومة، وذلك النكاح سار في كلّ شيء والنّتيجة دائمة، لاتنقطع في حقّ كلّ ظاهر العين، فهذا يسمّى عندنا: النكاح السّاري في جميع الذراري، يقول الله تعالى في الدّليل على ما قلناه:

﴿إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [سورة النحل: ٤٠].

ولنا فيه كتاب شريف، منيع الحمى، البصير فيه أعمى، فكيف من حلّ به العمى فلو رأيت تفصيل هذا المقام، وتوجهات هذه الأسماء الإلهيّة الأعلام، لرأيت أمراً عظيماً، وشاهدت مقاماً هائلاً جسيماً، فلقد تنزّه العارفون بالله وبصنعه الجميل.

ياوليّ! وبعد أن أشرت إلى فهمك الثاقب ونظرك الصائب بالأب الأول السّاري وهو الإسم الجامع الأعظم الّذي تتبعه جميع الأسماء في رفعه ونصبه وخفضه والسّاري حكمه.

والأمّ الأوليّة الآخريّة السّارية في نسبة الأنوثة في جميع الأبناء، فلنشرع في الآباء الّذين هم أسباب موضوعة بالوضع الإلهي، والأمهات واتصالها بالنكاح المعنوي والحسّي المشروع حتّى يكون الأبناء أبناء حلال، إلى أن أصِل إلى التناسل الإنساني وهو آخر نوع تكوّن وأوّل مبدع بالقصد تعيّن، فنقول:

إن العقل الأول الّذي هو أول مبدع خُلق، هو القلم الأعلىٰ ولم يكن ثمّ محدث سواه، وكان مؤثّراً فيه بما أحدث الله فيه من انبعاث اللوح المحفوظ عنه كانبعاث حواء من آدم في عالم الأجرام، ليكون ذلك اللوح موضعاً ومحلاً لما يكتب فيه ذلك القلم الأعلى الإلهي وتخطيط الحروف الموضوعة للدّلالة على ما جعلها الحقّ تعالى أدلّة عليه، فكان اللوح المحفوظ أوّل موجود انبعاثيّ، وقد ورد في الشّرع:

إن أوّل ما خلق الله القلم، ثمّ خلق اللوح، وقال للقلم: اكتب قال القلم: وما أكتب؟ قال الله (له): اكتب وأنا أملي عليك (٥٤).

---

(٥٤) قوله: وقد ورد في الشّرع: إنّ أوّل ما خلق الله القلم.

روى علي بن إبراهيم القمي في تفسيره عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن هشام، عن الصادق (ع) قال:

أوّل ما خلق الله القلم، فقال له اكتب فكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة. ج ٢، ص ١٩٨ في أوّل سورة سبأ.

وروى أيضاً في أوّل سورة القلم ج ٢، ص ٣٧٩، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عبدالرّحمٰن (الرّحيم) القصير، عن أبي عبدالله (ع)، قال: إن الله خلق القلم من شجرة في الجنّة يقال لها الخلد، ثمّ قال لنهر في الجنّة: كن مداداً فجمد النهر، وكان أشدّ بياضاً من الثلج وأحلى من الشهد، ثمّ قال للقلم: أكتب قال: وما أكتب ياربّ، قال: أكتب ماكان وماهو كائن إلى يوم القيامة، فكتب القلم في رقّ أشدّ بياضاً من الفضّة وأصفى من الياقوت، ثمّ طوّاه وجعله في ركن العرش، ثمّ ختم على فم القلم فلم ينطق بعدُ ولا ينطق أبداً، فهو الكتاب المكنون الّذي منه النُّسخ كلّها. الخبر.

وروى الصدوق (رض) في معاني الأخبار ص ٢٢، باب حروف المقطّعة، الحديث ١، بإسناده عن سفيان بن السعيد الثوري عن الباقر (ع) قال:

وامّا «ن» فهو نهر في الجنّة، قال الله عزّ وجلّ: أجمد، فجمد فصار مداداً، ثمّ قال عزّ وجلّ للقلم: أكتب، فسطر القلم في اللّوح المحفوظ ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فالمداد من نور، والقلم قلم من نور، واللّوح لوح من نور، إلى أن قال (ع): فنون ملك يؤدي إلى القلم وهو ملك، والقلم يؤدّي إلى اللّوح وهو ملك، واللّوح يؤدّي إلى إسرافيل، وإسرافيل يؤدّي إلى ميكائيل، وميكائيل يؤدّي إى جبرئيل، وجبرئيل يؤدّي إلى الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم.

وفي مسند ابن حنبل ج ٥، ص ٣١٧، بإسناده عن عبادة قال: سمعت النّبي (ص) يقول: أوّل ما خلق الله تبارك وتعالى القلم، ثمّ قال له: أكتب، قال: وما أكتب؟ قال: فاكتب مايكون وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة.

وفي سنن أبي داود ج ٤، ص ٢٢٥، الحديث ٤٧٠٠، بإسناده عن عبادة بن صامت ←

فخطّ القلم في اللوح مايلي عليه الحق وهو علمه في خلقه الّذي يخلق إلى يوم القيامة.

فكان بين القلم واللوح نكاح معنوى معقول، وأثر حسّي مشهود، ومن هنا كان العمل بالحروف المرقومة عندنا، وكان ما أودع في اللوح من الأثر مثل الماء الدافق الحاصل في رحم الأنثى، وما ظهر من تلك الكتابة من المعاني المودعة في تلك الحروف الجرمية بمنزلة أرواح الأولاد المودعة في أجسامهم، فافهم، والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.

وجعل الحقّ في هذا اللوح العاقِل عن الله ما أوحى به إليه، المسبِّح بحمده الّذي لايفقه تسبيحه إلّا من أعلمه الله به وفتح سمعه لما يورده كما فتح سمع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، ومن حضر من أصحابه لإدراك تسبيح الحصى في كفّه الطّاهرة الطّيّبة صلّى الله عليه وآله وسلّم، وإنّما قلنا: فتح سمعه، إذ كان الحصى مازال مذ خلقه الله مسبّحاً بحمده، فكان خرق العادة في الإدراك السّمعي لا فيه.

ثمّ أوجد فيه صفتين: صفة علم، وصفة عمل، فبصفة العمل تظهر صور العالم عنه كما تظهر صورة التّابوت للعين عند عمل النجّار، فبها يعطي الصّور، والصّور على قسمين: صور ظاهرة حسّيّة وهي الأجرام وما يتّصل بها حسّاً، كالأشكال والألوان، (والأكوان)، وصور باطنة معنويّة غير محسوسة وهي ما فيها من العلوم والمعارف والإرادات وبتينك الصفتين ظهر ما ظهر من الصّور، فالصّفة العلّامة أب، فإنّها المؤثّرة، والصّفة العاملة أمّ، فإنّها المؤثّر فيها، وعنها ظهرت الصّور الّتي ذكرناها.

← قال: سمعت رسول الله (ص) يقول:

إنّ أوّل ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: ياربّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلّ شيء حتّى تقوم السّاعة.

وفي جامع الترمذي ج ٤، ص ٤٥٨، الحديث ٢١٥٥، بإسناده عن عبادة بن الصامت، قال إني سمعت رسول الله (ص) يقول:

انّ أوّل ما خلق الله القلم، قال له اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: أكتب القَدَر ماكان وما هو كائن إلى الأبد.

فإنّ النجّار المهندس إذا كان عالماً ولا يحسن العمل، فيلق ما عنده على سمع من يحسن عمل النجارة، وهذا الإلقاء نكاح، فكلام المهندس أب، وقبول السّامع أمّ، ثمّ يصير علم السّامع أباً (ثانياً) وجوارحه أمّاً، وإن شئت قلت: فالمهندس أب، والصّانع الّذي هو النّجار أمّ، من حيث ماهو مصغ لما يلقي إليه المهندس، فإذا أثّر فيه، فقد أنزل ما في قوته في نفس النّجار، والصّورة الّتي ظهرت للنّجار في باطنه ممّا ألق إليه المهندس، وحصلت في وجود خياله قائمة ظاهرة له بمنزلة الولد الّذي ولّد له فهمه عن المهندس، ثمّ عمل النّجار فهو أب في الخشب الّذي هو أمّ النّجارة بالآلات الّتي يقع بها النّكاح وإنزاله الماء الّذي هو أثر كلّ ضربة بالقدوم أو قطع بالمنشار، وكلّ قطع وفصل وجمع في القطع المنجورة لإنشاء الصّورة فظهر التّابوت الّذي هو بمنزلة الولد المولود الخارج للحسّ.

فهكذا فلتفهم الحقايق في ترتيب الآباء والأمهات والأبناء وكيفيّة الإنتاج، فكلّ أب ليس عنده صفة العمل فليس هو أب من ذلك الوجه حتّى أنّه لو كان عالماً ومُنع آلة التوصيل بالكلام أو الإشارة ليقع الإفهام وهو غير عامل لم يكن أباً من جميع الوجوه وكان أمّاً لما حصل في نفسه من العلوم غير أنّ الجنين لم يخلق فيه الرّوح في بطن أمّه، أو مات في بطن أمّه فأخالته طبيعة الأم إلى أن تصرّف، ولم يظهر له عين، فافهم.

وبعد أن عرفت الأب الثّاني من الممكنات وأنّه أمّ ثانية للقلم الأعلى، كان ممّا ألق إليها من الإلقاء الأقدس الرّوحاني: الطّبيعة و(الهباء) الهواء فكان أوّل أمّ ولدت توأمين، فأوّل ما ألقت الطّبيعة ثمّ تبعتها بالهباء، فالطّبيعة والهباء أخ وأخت لأب واحد وأمّ واحدة، فأنكح الطّبيعة الهباء فوّلد بينهما صورة الجسم الكلّي وهو أوّل جسم ظهر، فكان الطبيعة الأب، فإن لها الأثر، وكان الهباء الأمّ، فإن فيها ظهر الأثر وكانت النّتيجة الجسم.

ثمّ نزل التّوالد في العالم إلى التّراب على ترتيب مخصوص ذكرنا في كتابنا المسمّى «بعقلة المستوفز»، وفيه طول لا يسعه هذا الباب فانّ الغرض الإختصار.

(نظريّة نهاية الأركان قبال نظريّة المركز)

ونحن لانقول بالمركز، وإنّما نقول بنهاية الأركان وإنّ الأعظم يجذب الأصغر ولهذا نرىٰ البخار والنّار يطلبان العلو، والحجر وما أشبه يطلب السّفل فاختلفت الجهات، وذلك على الإستقامة من الإثنين، أعني طالب العلو والسّفل، فإنّ القائل بالمركز يقول: إنّه أمر معقول دقيق تطلبه الأركان.

ولولا التّراب لدار به الماء، ولولا الماء لدار به الهواء، ولولا الهواء لدار به النّار، ولو كان كما قال، لكنّا نرىٰ البخار يطلب السّفل، والحسّ يشهد بخلاف ذلك، وقد بيّنا هذا الفصل في كتاب المركز لنا وهو جزء لطيف.

فإذا ذكرناه في بعض كتبنا إنّما نسوقه على جهة مثال النقطة من الأُكرة الّتي عنها يحدث المحيط لما لنا في ذلك من الغرض المتعلّق بالمعارف الإلهيّة والنّسب لكون الخطوط الخارجة من النقطة إلى المحيط على السّواء لتساوي النّسب حتّى لايقع هناك تفاضل، فإنّه لو وقع تفاضل أدّى إلى نقص المفضول، والأمر ليس كذلك، وجعلناه محل العنصر الأعظم، تنبيهاً على أن الأعظم يحكم على الأقل، وذكرناه مشاراً إليه في «عقلة المستوفز».

ولمّا أدار الله هذه الأفلاك العلويّة، وأوجد الأيّام بالفلك الأوّل وعيّنه بالفلك الثّاني الّذي فيه الكواكب الثّابتة للأبصار، ثمّ أوجد الأركان تراباً وماءاً وهواءاً وناراً، ثمّ سوّى السّموات سبعاً طباقاً وفتقها أي فصل كلّ سماء على حدة بعدما كانت رتقاً، إذ كانت دخانا، وفتق الأرض إلى سبع أرضين: سماء أولى لأرض أولى، وثانية لثالثة إلى سبع، وخلق الجواري الخنّس خمسة: في كلّ سماء، كوكب، وخلق القمر، وخلق أيضاً الشّمس.

فحدث الليل والنّهار بخلق الشّمس في اليوم، وقد كان اليوم موجوداً فجعل النّصف من هذا اليوم لأهل الأرض نهاراً وهو من طلوع الشّمس إلى غروبها، وجعل النصف الآخر ليلاً وهو من غروب الشّمس إلى طلوعها، واليوم عبارة عن المجموع،

ولهذا خلق السّماوات والأرض في ستة أيّام، فإنّ الأيّام كانت موجودة بوجود حركة فلك البروج، وهي الأيام المعروفة عندنا لاغير، فما قال الله: خلق العرش والكرسيّ، وإنّما قال:

﴿خلق السّموات والأرض في ستّة أيّام﴾ [سورة يونس: ٣].

فإذا دار فلك البروج دورة واحدة فذلك هو اليوم الّذي خلق الله فيه السّماوات والأرض، ثمّ أحدث الله اللّيل والنّهار عند وجود الشّمس لا الأيّام.

وأمّا ما يطرأ فيها من الزّيادة والنّقصان أعني في اللّيل والنّهار لا في السّاعات، فإنّها أربع وعشرون ساعة، وذلك لحلول الشّمس في منطقة البروج وهي حمايلية بالنّسبة إلينا فيها ميل، فيطول النّهار إذا كانت الشّمس في المنازل العالية حيث كانت، وإذا حلّت الشّمس في المنازل النازلة قصر النّهار حيث كانت، وإنّما قلنا: حيث كانت، فإنّه إذا طال الليل عندنا طال النّهار عند غيرنا، فتكون الشّمس في المنازل العالية بالنّسبة إليهم وفي المنازل النازلة بالنّسبة إلينا، فإذا قصر النّهار عندنا طال الليل عندهم لما ذكرناه، واليوم هو اليوم بعينه أربع وعشرون ساعة لايزيد ولا ينقص ولا يطول ولا يقصر في موضع الإعتدال فهذا هو حقيقة اليوم، ثمّ قد سُمّي النّهار وحده يوماً بحكم الاصطلاح فافهم.

(جعل الزمان الّذي هو الليل والنهار)

وقد جعل الله هذا الزمان الّذي هو الليل والنّهار يوماً، والزّمان هو اليوم، والليل والنهار موجودان في الزّمان، جعلها أباً وأمّاً لما يحدث الله فيها، كما قال:

﴿يُغشي اللّيل النّهار﴾ [سورة الاعراف: ٥٤].

كمثل قوله في آدم:

﴿فلمّا تغشّاها حملت﴾ [سورة الاعراف: ١٨٩].

فإذا غَشِي اللّيل النّهار كان اللّيل أباً وكان النّهار أمّاً، وصار كلّ مايحدث الله في النّهار بمنزلة الأولاد الّتي تَلِد المرأة، وإذا غشي النّهار اللّيل، كان النّهار أباً وكان اللّيل

أمّاً وكان مايُحدث الله من الشّئوٌن في اللّيل بمنزلة الأولاد الّتي تَلِد الأمّ، وقد بيّنا هذا الفصل في «كتاب الشأن»، لنا تكلمنا فيه على قوله تعالى:

﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ [سورة الرحمن: ٢٩].

وسيأتي إن شاء الله في هذا الكتاب، إن ذكّرنا الله به من معرفة الأيّام طرفاً شافياً.

وكذلك قال تعالى:

﴿يولج اللّيل في النّهار ويولج النّهار في اللّيل﴾ [سورة الحج: ٦١].

فزاد بياناً في التناكح وأبان سبحانه بقوله:

﴿وآية لهم اللّيل نسلخ منه النّهار﴾ [سورة يس: ٣٧].

أنّ اللّيل أمّ له، وأنّ النّهار متولّد عنه كما ينسلخ المولود من أمّه إذ خرج منها، والحيّة من جلدها، فيظهر مولّدا في عالم آخر غير العالم الّذي يحويه اللّيل، والأب هو اليوم الّذي ذكرناه، وقد بيّنا ذلك في كتاب «الزّمان» لنا، ومعرفة الدّهر.

فهذا اللّيل والنّهار أبوان بوجه، وأمّان بوجه، وما يُحدث الله فيهما في عالم الأركان من المولّدات عند تصريفهما يُسمّون أولاد اللّيل والنّهار كما قررناه.

ولمّا أنشأ الله أجرام العالم كلّه القابل للتّكوين فيه، جعل من حدّ مايلي مُقعّر السّماء الدّنيا إلى باطن الأرض، عالم الطبيعة والإستحالات وظهور الأعيان الّتي تحدث عند الإستحالات وجعلها بمنزلة الأمّ، وجعل من مقعّر فلك السّماء الدّنيا إلى آخر الأفلاك بمنزلة الأب، وقدّر فيها منازل، وزيّنها بالأنوار الثابتة والسّابحة، فالسّابحة تقطع في الثّابتة، والثّابتة والسّابحة تقطع في الفلك المحيط بتقدير العزيز، بدليل أنّه رؤى في بعض الأهرام الّتي بديار مصر مكتوباً بقلم يذكر في ذلك التاريخ الأهرام أنها بنيت والنسر في الأسد، ولا شكّ أنّه الآن في الجدى، كذا ندركه، فدل على أنّ الكواكب الثابتة تقطع في فلك البروج الأطلس، والله يقول في القمر:

﴿والقمر قدّرناه منازل﴾ [سورة يس: ٣٩].

وقال في الكواكب:

﴿كلّ في فلك يسبحون﴾ [سورة يس: ٤٠].

وقال تعالى:

﴿والشّمس تجري لمستقرلها﴾ (وقد قرئ لا مُستَقَرَّ لها).

وليس بين القراءتين تنافر، ثمّ قال:

﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [سورة يس: ٣٩].

ينظر إلى قوله في القمر: «إنّه قدّره منازل»، وقال:

﴿لا الشّمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا اللّيل سابق النّهار وكلّ في فلك يسبحون﴾ [سورة يس: ٤٠].

أي في شيء مستدير.

وجعل هذه الأنوار المسمّاة بالكواكب أشعة متصلة بالأركان، تقوم إتّصالاتها بها مقام نكاح الآباء للأمهات فيحدث الله تعالى عند إتّصال تلك الشعاعات النوريّة في الأركان أربعة من عالم الطّبيعة مايتكوّن فيها ممّا نشاهده حسّاً. فهذه الأركان لها بمنزلة الأربعة النسوة في شرعنا وكما لايكون نكاح شرعي عندنا حلالاً إلّا بعقد شرعي، كذلك أوحى في كلّ سماء أمرها فكان من ذلك الوحي تنزّل الأمر بينهنّ، كما قال تعالى:

﴿يتنزّل الأمر بينهنّ﴾ [سورة الطلاق: ١٢].

يعني الأمر الإلهي.

وفي هذا التنزيل أسرار عظيمة تقرب ممّا نشير إليه في هذا الباب، وقد روى عن ابن عباس أنّه قال في تفسير هذه الآية:

«لو فسّرتها على ما سمعت من رسول الله صلّى الله عليه وآله، لقلتم إنّي كافر» (٥٥).

---

(٥٥) قوله: روى عن ابن عباس.

أخرج أبي جعفر محمّد بن جرير الطبري المتوفّى سنة ٣١٠ هـ، في تفسيره «جامع ←

وفي رواية: لرجمتموني. وإنها من أسرار أي القرآن، قال تعالى:

﴿خلق سبع سمٰوات ومن الأرض مثلهنّ﴾. ثمّ قال: ﴿يتنزّل الأمر بينهنّ﴾، ثمّ تمّم وأبان فقال:

﴿لتعملوا أنّ الله على كلّ شيء قدير﴾ [سورة الطلاق: ١٢].

وهو الّذي أشرنا إليه بصفة العمل الّذي ذكرناه آنفاً من إيجاد الله صفة العلم والعمل في الأب الثّاني، فإنّ القدرة للإيجاد وهو العمل، ثمّ تمّم في الأخبار فقال:

﴿وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً﴾ [سورة الطلاق: ١٢].

وقد أشرنا إليه بصفة العلم الّتي أعطاها الله للأب الثّاني الّذي هو النّفس الكـلّيّة

← البيان» ج ٢٨، ص ٩٩، في سورة الطلاق في تفسير الآية:

﴿الله الّذي خلق سبع سمٰوات ومن الأرض مثلهنّ يتنزل الأمر بينهنّ﴾.

بإسناده عن مجاهد، عن إبن عباس قال: لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم، وكفركم تكذيبكم بها.

وروى أيضاً في تفسيرها باسناده عن سعيد بن جبير، قال: قال رجل لابن عباس: ﴿الله الّذي خلق سبع سمٰوات ومن الأرض مثهلنّ﴾. الآية، فقال ابن عباس: ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر.

وعنه ابن كثير في تفسيره ج ٤، ص ٦٣٣ في سورة الطلاق.

وأخرج السيوطي أيضاً الحديث الثاني في تفسيره الدّر المنثور ج ٨، ص ٢٠٩، في سورة الطلاق، ورواه أيضاً المراغي في تفسيره ج ٢٨، ص ١٥١.

وفي تفسير روح البيان ج ١٠، ص ٤٧ في سورة الطلاق: قال الشيخ نجم الدّين في تأويلاته: وفي هذه الآية الكريمة غوامض من أسرار القرآن مكنونة، ويدلّ عليه قول ابن عباس رضي الله عنهما لمّا سئل عن هذه الآية، وقال لو فسرتها لقطعوا حلقومي ورجموني.

والمعنى الّذي أشار إليه رضي الله عنه ممّا لايعبر عنه ولا يشار إليه ولكن يذاق.

قال الجليل السيّد حيدر الآملي (المؤلّف) في كتابه «جامع الأسرار» ص ٥٤:

قيل: أنّه كان على جبل «عرفات» يوم «عرفة»، فرفع عصاه، وقال بأعلى صوته: «يا قوم! لو فسّرتُ هذه الآية كما سمعتُ من رسول الله (ص) لرجمتموني» وقال: ومعلوم أنّه لو قال معناه على الوجه الّذي هو منقول عنه لرجموه وقتلوه، فراجع.

المنبعثة فهو ﴿العليم﴾ سبحانه ممّا يوجد القدير على إيجاد مايريد إيجاده، لا مانع له، فجعل الأمر ينزل بين السّماء والأرض، كالولد يظهر بين الأبوين.

وأمّا اتّصال الأشعة النوريّة الكوكبيّة، عن الحركة الفلكيّة السّماويّة بالأركان الأربعة الّتي هي أم المولدات في الحين الواحد للكلّ معاً جعله الحقّ مثالاً للعارفين في نكاح أهل الجنّة في الجنّة جميع نسائهم وجواريهم في الآن الواحد نكاحاً حسيّة، كما أن هذه الإتصالات حسيّة فينكح الرّجل في الجنّة جميع من عنده من المنكوحات إذا اشتهى ذلك في الآن الواحد نكاحاً جسميّاً محسوساً بإيلاج وجود لذّة خاصّة بكلّ إمرأة من غير تقدّم ولا تأخّر، وهذا هو النّعيم الدّائم والإقتدار الإلهي، والعقل يعجز عن إدراك هذه الحقيقة من حيث فكره، وإنّما يدرك هذا بقوّة أخرى إلهيّة في قلب من يشاء من عباده، كما انّ الإنسان في الجنّة في «سوق الصّور إذا اشترىٰ صورة دخل فيها، كما تتشكّل الرّوح هنا عندنا وإن كان جسماً، ولكن أعطاه الله هذه القدرة على ذلك والله على كلّ شيء قدير، وحديث سوق الجنّة (٥٦) ذكره أبو عيسى التّرمذي في

(٥٦) قوله: وحديث سوق الجنّة.

اخرجه التّرمذي في الجامع الصحيح ج ٤، كتاب صفة الجنّة، باب ١٥، الحديث ٢٥٥٠، ص ٦٨٦، بإسناده عن عليّ (ع) قال: قال رسول الله (ص): إنّ في الجنّة لسُوقاً ما فيها شراءٌ ولا بيعٌ إلّا الصّور من الرّجال والنساء، فإذا اشتهىٰ الرّجل صورةً دَخَلَ فيها.

وذكره في كنز العمّال ج ١٤، ص ٤٧٩، الحديث ٣٩٣٣٧.

وأخرج الدارمي في سننه ج ٢، باب ١١٦ من كتاب الرقاق، الحديث ٢٨٤١، ص ٤٣٦، بإسناده عن أنس، عن النّبي (ص) قال:

إنّ في الجنّة لسوقاً، قالوا: وما هي؟ قال: كثبان من مسك يخرجون إليها فيجمعون فيها، فيبعث الله عليهم ريحاً فتدخل بيوتهم، فيقول لهم أهلوهم: لقد ازددتم بعدنا حسناً، ويقولون لأهليهم مثل ذلك.

وفي مسلم ج ٤، كتاب الجنّة، باب ٥، الحديث ١٣، ص ٢١٧٨، بإسناده عن أنس بن مالك: أنّ رسول الله (ص) قال:

إنّ في الجنّة لسوقاً، يأتونها كلّ جمعة فتهُبُّ ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم،

←

مصنفه، فانظر هناك».

فإذا اتّصلت الأشعّة النوريّة في الأركان الأربعة، ظهرت المولّدات عن هذا النكاح الّذي قدّره العزيز العليم، فصارت المولّدات بين آباء وهي الأفلاك والأنوار العلويّة، وبين أمّهات وهي الأركان الطبيعيّة السّفليّة، وصارت الأشعة المتّصلة من الأنوار بالأركان كالنكاح، وحركات الأفلاك وسباحات الأنوار بمنزلة حركة المجامع، وكان حركات الأركان بمنزلةالمخاض للمرأة. لإستخراج الزُّبَد الّذي يخرج بالمخض، وهو ما يظهر من المولّدات في هذا الأركان للعين من صورة المعادن والنّبات والحيوان ونوع الجنّ والإنس، فسبحان القادر على ما يشاء لا إله إلّا هو ربّ كلّ شيء ومليكه، قال

← فيزدادون حسناً وجمالاً. فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً. فيقول لهم أهلوهم: والله! لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً. فيقولون: وأنتم، والله! لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً.

وفي مسند ابن حنبل ج ١، ص ١٥٦، بإسناده عن عليّ (ع)، قال: قال رسول الله (ص): إنّ في الجنّة سوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلّا الصّور من النساء والرجال، فإذا اشتهى الرّجل صورةً دخل فيها، وإن فيها لمجمعاً للحور العين، يرفعن أصواتاً لم ير الخلائق مثلها، يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الراضيات فلا نسخط، ونحن الناعمات فلا نبؤس، فطوبى لمن كان لنا وكنّا له.

ذكره الغزالي في إحياء العلوم ج ٤، ص ٥٤١.

والفيض الكاشاني في المحجة البيضاء ج ٨، ص ٣٧٤.

روى صاحب كتاب جامع الأخبار (المنسوب إلى الشيخ الصدوق والشيخ محمد بن محمد الشعيري) في الفصل ١٣٧ في صفة الجنّة ونعيمها، عن أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

إنّ في الجنّة سوقاً ما فيها شرى ولا بيع إلّا الصّور من الرّجال والنساء، من اشتهى صورة دَخل فيها، وإنّ فيها مجمع حور العين يرفعن أصواتهنّ بصوت لم يسمع الخلائق بمثله: نحن النّاعمات فلا نبأس أبداً، ونحن الطاعمات فلا نجوع أبداً، ونحن الكاسيات فلا نعرى أبداً، ونحن الخالدات فلا نموت أبداً، ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً، فطوبىٰ لمن كنّا له وكان لنا، نحن خيرات حسان، أزواجنا أقوام كرام.

عنه البحار ج ٨، ص ١٤٨، الحديث ٧٦.

تعالى:

﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾ [سورة لقمان: ١٤].

(في بيان الشكر لله سبحانه وللوالدين)

فقد تبين لك أيّها الولي! آباؤك وأُمّهاتك من هم إلىٰ أقرب أب لك، وهو الّذي ظهر عينك به، وأمّك، كذلك القريبة إليك إلى الأب الأوّل وهو الجد الأعلى إلى ما بينهما من الآباء والأمهات، فشكرهم الّذي يسرّون به ويفرحون بالثناء عليهم هو أن تنسبهم إلى مالكهم وموجدهم وتسلب الفعل عنهم وتلحقه بمستحقه الّذي هو خالق كلّ شيء، فإذا فعلت هذا فقد أدخلت سروراً على آبائك بفعلك ذلك، وإدخال هذا السّرور عليهم هو عين برّك بهم وشكرك إيّاهم، وإذا لم تفعل هذا ونسيت الله فيهم فما شكرتهم ولا امتثلت أمر الله في شكرهم، فإنّه تعالى قال:

﴿أن أشكر لي﴾، فقدّم نفسه ليعرفك أنّه السّبب الأوّل والأولىٰ، ثمّ عطف وقال: ﴿ولوالديك﴾، وهي الأسباب الّتي أوجدك الله عندها لتنسبها إليه سبحانه ويكون لها عليك فضل التقدّم بالوجود خاصّة لا فضل التأثير، لأنّه في الحقيقة لا أثر لها وإن كانت أسباباً لوجود الآثار، فبهذا القدر صح لها الفضل وطلب منك الشكر لها، وأنزلها الحق لك وعندك منزلته في التقدّم عليك لا في الأثر ليكون الثّناء بالتقدّم والتأثير لله تعالى وبالتقدّم والتوقّف للوالدين ولكن على ما شرطناه:

فلا تشرك بعبادة ربّك أحداً.

فإذا أثنيتُ على الله تعالى وقلت: ربّنا وربّ آبائنا العلويات وأمهاتنا السفليات فلا فرق أن أقولها أنا، أو يقولها جميع بني آدم من البشر، فلم نخاطب شخصاً بعينه حتّى نسوق آباءه وأمّهاته من آدم وحواء إلى زمانه، وإنّما القصد هذا النشوأ الإنساني، فكنت مترجماً عن كلّ مولود بهذا التحميد من عالم الأركان وعالم الطبيعة والإنسان، ثمّ نرتقي في النيابة به عن كلّ مولود بين مؤثّر ومؤثّر فيه، فنحمده بكل لسان، ونتوجّه إليه بكل وجه فيكون الجزاء لنا من عند الله من ذلك المقام الكلّ.

(مخاطب السّلام في الصّلاة)

كما قال لي بعض مشيختي: إذا قلت: السّلام علينا وعلى عباد الله الصّالحين، أو قلت: السّلام عليكم، إذا سلمت في طريقك على أحد، فأحضر في قلبك كلّ صالح من عباده في الأرض والسّماء، وميّت وحيّ، فإنّه من ذلك المقام يردّ عليك، فلا يبقى ملك مقرب، ولا روح مطهر، يبلغه سلامك إلّا ويردّ عليك، وهذا دعاء فيستجاب فيك فتفلح، ومن لم يبلغه سلامك من عباد الله المهيّمين في جلاله المشتغلين به، المستفرغين فيه، وأنت قد سلّمت عليهم بهذا الشمول فإنّ الله ينوب عنهم في الردّ عليك، وكفى بهذا شرفاً بحقّك حيث يسلّم عليك الحقّ، فليته لم يسمع أحداً ممّن سلّمت عليه حتّى ينوب عن الجميع في الرّد عليك، فإنّه بك أشرف.

قال تعالىٰ تشريفاً في حقّ يحيى عليه السّلام:

﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيّاً﴾ [سورة مريم: ١٥].

وهذا سلام فضيلة وأخبار، فكيف بسلام واجب، ناب الحقّ مناب من أجاب عنه؟ وجزاء الفرائض أعظم من جزاء الفضائل في حقّ من قيل فيه:

وسلام عليه يوم ولد.

فيجمع له بين الفضيلتين.

وقد وردت صلاة الله علينا إبتداءاً، وما وصل إليّ هل ورد السّلام ابتداءاً، كما وردت الصّلاة أم لا؟ فمن روى في ذلك شيئاً وتحققه فقد جعلت أمانة في عنقه أن يلحقه في هذا الموضع إلى جانب صلاة الله علينا في هذا الباب ليكون بشرى للمؤمنين، وشرفاً لكتابي هذا، والله المعين والموفق لا ربّ غيره.

(في بيان الآباء والأمّهات الطبيعيين)

وأمّا الآباء الطبيعيون والأمّهات فلم نذكرهم فلنذكر الأمر الكلّ (الكلّي) من ذلك وهم أبوان وأمّان، فالأبوان هما الفاعلان، والأمان هما المنفعلان وما يحدث عنهما هو المنفعل عنهما، فالحرارة والبرودة فاعلان، والرّطوبة واليبوسة منفعلان، فنكحت الحرارة اليبوسة فأنتجا رُكن النّار، ونكحت الحرارة الرّطوبة فأنتجا ركن الهواء، ثمّ نكح البرودة الرّطوبة فأنتجا ركن الماء، ونكح البرودة اليبوسة فأنتجا ركن التّراب.

فحصلت في الأبناء حقائق الآباء والأمّهات، فكانت النّار حارّة يابسة، فحرارتها من (جهة الأب) جهته، ويبوستها من جهة الأمّ، وكان الماء بارداً رطباً، فبرودته من جهة الأب، ورطوبته من جهة الأمّ، وكانت الأرض باردة يابسة، فبرودتها من جهة الأب، ويبوستها من جهة الأمّ، فالحرارة والبرودة من العلم، والرّطوبة واليبوسة من الإرادة، هذا حدّ تعلّقها في وجودها من العلم الإلهي، وما يتولّد عنها من القدرة، ثمّ يقع التّوالد في هذه الأركان من كونها أمّهات لآباء الأنوار العلويّة لا من كونها آباء، وإن كانت الأبوّة فيها موجودة.

فقد عرفناك أن الأبوّة والبنوّة من الإضافات والنِسَب، فالأب ابن لأب هو ابن له، والإبن أب لإبن هو أب له، وكذلك باب النِّسب فانظر فيه، والله الموفق لاربّ غيره.

ولمّا كانت اليبوسة منفعلة عن الحرارة وكانت الرّطوبة منفعلة عن البرودة، قلنا في الرّطوبة واليبوسة، إنّهما منفعلان، وجعلناهما بمنزلة الأمّ للأركان، ولمّا كانت الحرارة والبرودة فاعلين، جعلناهما بمنزلة الأب للأركان.

ولمّا كانت الصنعة تستدعي صانعاً ولابدّ والمنفعل يطلب الفاعل بذاته، فإنّه منفعل بذاته، ولو لم يكن منفعلاً لذاته لما قبل الإنفعال والأثر، وكان مؤثّراً فيه، بخلاف الفاعل فإنّه يفعل بالإختيار إن شاء فعل فيسمّى فاعلاً، وإن شاء ترك، وليس ذلك للمنفعل، ولهذه الحقيقة ذكر تعالى وهو من فصاحة القرآن وإيجازه:

﴿لا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين﴾ [سورة الأنعام: ٥٩].

فذكر المنفعل ولم يذكر: ولا حارّ ولا بارد، لما كانت الرّطوبة واليبوسة عند العلماء بالطبيعة، تطلب الحرارة والبرودة، اللّتين هما منفعلتان عنهما كما تطلب الصّنعة الصّانع، لذلك ذكرهما دون ذكر الأصل وإن كان الكلّ في الكتاب المبين، فلقد حبى الله سيّدنا محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم بعلوم ما نالها أحد سواه، كما قال:

فعلمت علم الأوّلين والآخرين، في حديث الضرب باليد (٥٧).

فالعلم الإلهي هو أصل العلوم كلّها، وإليه ترجع، وقد استوفينا ما يستحقه هذا الباب على غاية الإيجاز والإختصار، فإن الطول فيه إنّما هو بذكر الكيفيات، وأمّا الأصول فقد ذكرناها ومهّدناها.

والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.

هذا آخر الأبواب المنتخبة من الفتوحات، وآخر كلام الشّيخ في هذا الباب.

وهذا البحث وإن طال، لابدّ من التّمسّك والإستشهاد في مجموع ذلك بكلام مولانا وسيّدنا الإمام المعصوم وارث الأنبياء في المعارف والعلوم أسدالله الغالب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام، فإنّ كلامه حجّة عند الكلّ، كما أنّ كلام الشيخ أيضاً عند البعض، ولا يلزم من تقدّم كلام الشيخ على كلامه فضيلة ولا من تأخّر كلامه عنه نقيصة، لأنّ التّقدّم بالذّات والشّرف، أفضل من التّقدم بالزّمان والمكان، كما أنّ القرآن أشرف الكتب الإلهيّة وهو آخر كلامه تعالىٰ وآخر كتب الأنبياء بأجمعهم، ومع ذلك وهو أفضل من الكلّ، وكذلك نبيّنا (ص) بالنّسبة إلى الأنبياء والرّسل فافهم.

وأيضاً قد سبق من كلام أمير المؤمنين عليه السّلام قبل هذا كثيراً في موضع الإحتياج وليس بآخره، كلامه من جميع الوجوه بل للمناسبة بالمقام، والبحث الّذي يقع في ذلك الوقت.

فمن خطبته عليه السّلام لابدّ من ذكر الخطبتين في هذا المكان:

الأولى من غير شرح له والأخرى مع شرح له، لأنّه في غاية البلاغة والفصاحة

---

(٥٧) قوله: حديث الضرب باليد.

أقول: مرّ تحقيقه وإخراجه في تعليقنا الرقم ٣٠، فراجع.

وبغير الشّرح لايحصل من فايدة طائلة. وقد ذكرنا بعضه في أوّل المقدمة في هذا البحث، وواعدنا هناك أنّه نذكره هنا بالتّمام. والوفاء بالعهد ضروريّ.

وأمّا الخطبة الأولى فهي هذه وهي في غاية الغرابة. ومن أجل ذلك ما ورد ذكرها في نهج البلاغة الّذي جمعه السيّد الحسيب النّسب الرّضي الموسوي رحمه الله عليه لأنّها كانت فوق طوره وستعرفها إن شاء الله. والله أعلم وأحكم.

هذه خطبة مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام وهي الاولىٰ من الخطبتين المذكورتين وهي الّتي ما نقلناها من كتاب الخطب للجلودي وهو عبدالعزيز خطيب البصرة (٥٨).

---

(٥٨) قوله: من كتاب الخطب للجلودي.

أقول: الجلودي هو أبو أحمد عبدالعزيز بن يحيى بن عيسى الأزديّ البصريّ الجَلُوديّ، ثقة، إماميّ، شيخ البصرة.

ذكره الشيخ الطوسي (ره) في رجاله في من لم يرو عن الأئمّة (ع)، الرقم ٦٧، ص ٤٨٧ وقال: عبدالعزيز بن يحيى الجلودي أبو أحمد، بصري ثقة.

وذكره أيضاً في كتابه الفهرس باب عبدالعزيز الرقم ٥٣٦ ص ١٤٥ وقال: يكنّي أبا أحمد من أهل البصرة إماميّ المذهب، له كتب....

وذكره النجاشي في كتابه «الفهرس» المشتهر برجال النجاشي، الرقم ٦٤٠، ص ٢٤٠، وقال: عبدالعزيز أحمد بن عيسى الجلوديّ الأزديّ البصريّ أبو أحمد شيخ البصرة وأخباريّها وكان عيسى الجلوديّ من أصحاب أبي جعفر عليه السّلام (الإمام الجواد عليه السّلام) وله كتب، قد ذكرها النّاس، منها.... كتاب خطبه عليه السّلام.

وذكره العلّامة الحلّي في كتابه «إيضاه الإشتباه» ص ٢٤٤، الرقم ٤٩٣، وقال: وجدت بخط السيّد السعيد صفيّ الدّين محمّد بن معد الموسوي ما صورته: رأيت على مقتل الحسين عليه السّلام الّذي صنّفه أبو أحمد الجلوديّ رحمه الله ما هذا حكايته: توفي أبو أحمد عبدالعزيز بن يحيى بن عيسى الجلودي رحمه الله يوم الأثنين لسبعة عشر ليلة خلت من ذي الحجّة، سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة، ودفن رحمه الله في اليوم الثامن عشر وهو يوم الغدير، وغسّله ابن الغسّال أبو الحسن، وصلّى عليه أبو جعفر العلوي ودفن بحضرة منه.

←

روى عن عبدالعزيز خطيب البصرة إنه قال: سئل علي عليه الصّلاة والسّلام (٥٩):

← وذكره السيّد بن الطاووس (ره) في كتابه «محاسبة النفس» ص ٤١ في: فصلٌ فيما يروي عن مولانا علي عليه السّلام، وقال: كتاب خطب مولانا عليّ رضي الله عنه، وهو نسخة عتيقة نقلها بخطّه.

أقول: ذكرنا ترجمة الرّجل في كتابنا في «الرّجال» تفصيلاً مع ذكر طبقته ومشايخه ومن روى عنه.

وذكره ابن النديم في كتابه: «الفهرست» ص ١٢٨، آخر المقالة الثالثة من الفن الأوّل، وقال: الجلودي، وهو أبو أحمد عبدالعزيز بن يحيى الجلودي، من أهل البصرة، أخباري، صاحب سيَر وروايات، وتوفي بعد الثلاثين وثلاثمائة وعنونه أيضاً في آخر المقالة الخامسة من الفنّ الخامس ص ٢٤٦، وقال: من أكابر الشيعة الاماميّة، والرواة للآثار والسير... إلخ، فراجع.

(٥٩) قوله: سئل عليّ عليه الصّلاة والسّلام:

رواها أيضاً قطب الدّين سعيد بن هبة الله الرّاوندي المتوفى في العام ٥٧٣ هـ ق، ومدفنه في الصّحن الجديد (الكبير) بحرم السيّدة الجليلة المعصومة (ع) بقم ـ في كتابه: «قصص الأنبياء» في ذكر آدم عليه السّلام فصل ١، ح ١، ص ٣٥، مسنداً وقال: أخبرني الشيخ عليّ بن علي بن عبدالصمد، عن أبيه، أخبرنا السيّد أبو البركات عليّ بن الحسين الجوزي، أخبرنا الشيخ أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه، أخبرنا أبي ومحمّد بن الحسن ابن أحمد بن الوليد، قالا: أخبرنا سعد بن عبدالله، أخبرنا محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، أخبرنا الحسن بن محبوب، عن عمرو بن أبي المقدام، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السّلام قال: سئل أمير المؤمنين عليه الصّلاة والسّلام هل كان في الأرض خلق من خلق الله تعالى يعبدون الله قبل آدم عليه السّلام وذريّته؟ فقال: نعم. الحديث.

عنه البحار ج ٥٧، ص ٣٢٢، الحديث ٥.

وروى قسماً من هذه الخطبة أيضاً الشيخ الجليل الصدوق في كتابه (علل الشرايع) باب ٩٦ علّة الطبايع والشهوات والمحبات ح ١، ص ١٠٤، بسند آخر، وسنشير إلى نقله وسنده في موضع روايته، وأوردنا موارد اختلاف نقل الراوندي والصدوق، في المتن بين الهلالين.

وروى هذا القسم أيضاً علي بن إبراهيم القمي (ره) في تفسيره بسند آخر له وسنشير إليه أيضاً في موضع روايته، وبما أنّ في نقله يوجد الإختلاف الكثير بالنسبة إلى نقل ←

هل كان في الأرض خلق من خلق الله تعالى (يعبدون الله) قبل آدم وذريّته ؟ (فقال: نعم قد كان لله....) قال: فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على رسول الله صلّى الله عليه وآله، ثمّ قال:

قد كان لله في السّماوات والأرض ممّن خلق، خلق، (خلق من خلق الله) يقدّسون الله ويسبّحونه ويعظّمونه (باللّيل) اللّيل والنّهار لايفترون.

ثمّ إنّ الله خلق (فانّ الله عزّ وجلّ لمّا خلق) الأرضين (خلقها) قبل السّماوات.

ثمّ استوى على عرشه لتدبير الأمور.

(ثمّ) فخلق الملائكة روحانيّين، لهم أجنحة يطيرون بها حيث (يشاء) شاء الله، ثمّ أسكنهم فيما بين أطباق السّماوات يقدّسونه اللّيل والنّهار، واصطفى منهم إسرافيل وميكائيل وجبرئيل.

ثمّ خلق عزّ وجلّ (في الأرض) الجنّ (روحانيّين) لهم أجنحة، فجعلهم (فخلقهم) دون خلق الملائكة، واخفضهم (حفظهم) أن يبلغوا مبلغ الملائكة في الطّيران وغير ذلك، فأسكنهم فيما بين أطباق الأرضين السّبع وعلا فوقهنّ، يقدّسون الله اللّيل والنّهار لايفترون.

ثمّ خلق خلقاً دونهم، لهم أبدان وأرواح بغير أجنحة، (يأكلون ويشربون نسنان أشباه خلقهم) نسناس عليهم أشباه النّاس وليسوا بناس (بإنس) وأسكنهم أوسط الأرض على ظهرها مع الجنّ، يقدّسون الله اللّيل والنّهار (لايفترون).

(قال:) وكانت الجنّ تطير إلى السّماء، فتلقي الملائكة في السّماوات، فيسلمون عليهم ويستخبرونهم، (ويزورونهم) ويستريحون إليهم ويتعلّمون منهم الخير، (الخير).

ثمّ إنّ طايفة من الجنّ والنّاس (الّذين خلقهم الله وأسكنهم أوساط الأرض مع الجنّ) تمرّدوا وعتوا (عن أمر الله) ومرحوا وشيطنوا، وبغوا في الأرض (بغير الحقّ، وعلا بعضهم على بعض في العتوّ على الله تعالى حتّى سفكوا الدّماء فيما بينهم) وأظهروا

← الخطيب عبدالعزيز الّذي نقله السيّد المؤلف قدّس سرّه، سنورده بتمامه في ذلك الموضع إن شاء الله مزيداً للفايدة، فلاحظ.

الفساد في الأرض وجحدوا ربوبيّته تعالى.

(قال:) وأقامت الطائفة المطيعون لأمر الله من الجنّ على رضوان الله وطاعته وتجنبوا (وباينوا) الطائفتين من الجنّ والنسناس (اللّذين عتوا عن أمر الله) فحط الله أجنحة الطايفة من الجنّ الّذين عتوا عن أمر الله وتمرّدوا فكانوا لايقدرون على الطيران إلى السّماء ولا على لقاء الملائكة. فاقعدتهم (وإلى ملاقاة الملائكة لما ارتكبوا) الذّنوب والمعاصي وأقامتهم عليها عن الطيران.

(قال:) وكانت الطّايفة المطيعة لأمر الله من الجنّ تطير إلى السّماء (اللّيل والنّهار) على ما كانت عليه، وكان إبليس (ـ واسمه الحارث ـ يظهر للملائكة أنّه من الطّائفة المطيعة) من الطايفة الّذين عابوا على الطايفتين من الجنّ والنسناس المعاصين، وكان ممّن يصعد إلى السّماء، لايحجب عنها لإجتهاده في الطّاعة لله ولطعنه على أهل المعاصي من الجنّ والنسناس، وكان في عداد الملائكة، معروفاً بذلك لطاعته وعبادته. فكانوا كذلك ما شاء الله.

ثمّ بدا الله فخلق خلقا على خلاف خلق الملائكة، و(على) خلاف خلق الجنّ والنسناس، فخلق خلقا يدبّون كما يدبّ الهوام في الأرض، يأكلون ويشربون كما تأكل الأنعام من مراعي الأرض، وهم (كلّهم) ذكران ليس فيهم أناث، ولم يجعل الله لهم شهوة (النساء) ولا حباً ولا حرضاً في المال، ولا طول الأمل، ولا لذّة عيش، لا يلبسهم اللّيل ولا يغشاهم النّهار، (وليسوا ببهائم ولاهوام) ولباسهم ورق الشجر، وورودهم (وشربهم من) العيون الغزار والأودية الكبار.

(ثمّ أراد الله أن يفرّقهم) ففرّقهم فرقتين بعد سواء، فأسكن إحدى الفرقتين من (فجعل فرقة) خلف مطلع الشّمس من وراء البحر، وكوّن لهم مدينة أنشأها لهم تسمّى «باجَرشا» (جابرسا) طولها اثنا عشر ألف فرسخ (في اثنى عشر ألف فرسخ) وكوّن عليها سور حديد (لهم سوراً من حديد) يقطع الأرض إلى السّماء، ثمّ أسكنهم فيها.

وأسكن الفرقة الاخرى من خلف مغرف الشّمس ومن وراء البحر، وكوّن لهم مدينة أنشأها لهم تسمّى باجَلقا (جابلقا) طولها إثنا عشر ألف فرسخ في اثنى عشر

ألف فرسخ، وكوّن لهم سور حديد (سوراً من حديد) يقطع الأرض إلى السّماء، فأسكن الفرقة الأخرى فيها، لايعلم أهل باجرشا (جابرسا) بأهل جابلقا (بموضع أهل جابلقا)، ولا يعلم أهل باجلقا بموضع أهل باجرشا، ولا يعلم (بهم أهل) أوسط الأرض من الجنّ والنّساس من مكانهما، ولا يعلم أهل مدينتين بموضع أهل أوسط الأرض من الجنّ والنّساس.

فكانت الشّمس تطلع على أهل أوسط الأرض من الجنّ والنّسناس دون المدينة الّتي في ناحية المشرق وهي تجري فتمرّ على أهل أوسط الأرض من الجنّ فينتفعون بحرّها ويستضيئون بنورها، ثمّ تغرب في عين حامية (حمئة) تجري دون المدينة الّتي ممّا تلي المعرب، فلا يعلم بها أهل باجرشا إذا اطلعت، (لأنها تطلع من دون جابرسا، وتغرب من دون جابلقا)، ولا يعلم بها أهل باجلقا إذا غربت.

قال: فقلنا: يا أمير المؤمنين فكيف يبصرون ويذهبون ويجيئون، (ويحيون)؟ وكيف يأكلون ويشربون؟، وليس تطلع عليهم الشمس؟.

فقال صلوات الله عليه: إنّهم يستضيئون بشعاع نور الله فهم في أشدّ ضوء من نور الشّمس في ضحيّها لايعرفون، (ولا يرون أن الله تعالى خلق) شمساً ولا قمراً ولا نجوماً ولا كواكب ولا خلق خلقا غيرهم، (ولا يعرفون شيئاً غيره).

فقيل: يا أمير المؤمنين! فأين إبليس عنهم؟

قال: ما (لا) يعرفون إبليس، ولا سمعوا بذكره، ولا يرون انّ الله خلقه، لايعرفون إلّا الله وحده لاشريك له، لم يكتسب أحد منهم خطيئة قطّ، ولم يعرفوا بها، (ولم يقترف اثما) لايهرمون ولا يسقمون ولا يموتون (يعبدون الله) إلى يوم القيامة لايفترون، الليل والنّهار عندهم سواء.

ثمّ قال عليه السّلام[٦٠]: لمّا أحبّ أن يخلق خلقاً بيده، وذلك بعدما مضى للجنّ

---

(٦٠) قوله: قال علي (ع): لمّا أحبّ.

روى من هذا الموضع الصدوق في العلل وعلي بن إبراهيم القمي في التفسير إلى آخر ←

....

← الخطبة كما أشرنا بها سابقاً.

قال الصدوق في كتابه العلل، باب ٩٦، الحديث ١، ص ١٠٤: حدّثنا محمّد بن الحسن قال: حدّثنا محمّد بن الحسن الصفّار، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن عمرو بن أبي المقدام، عن جابر، عن أبي جعفر (ع) قال: قال أمير المؤمنين (ع): انّ الله تبارك وتعالى لمّا أحبّ الحديث، ولمّا كان اختلاف النسخة أو النقل في النقل الصدوق مع نقل الخطيب والسيّد المؤلف، قليلاً جداً، اكتفينا بالاشارة في بين الهلالين، إلى مواضع الاختلاف.

ورواه أيضاً القمي في تفسيره ج ١ في سورة البقرة ذيل الآية ٣٠:

﴿وإذ قال ربُّكَ للملائكةِ إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠].

بسند آخر كما يلي:

حدثني أبي، عن الحسن بن محبوب، عن عمرو بن (أبي) مقدام، عن ثابت الحذاء، عن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن آبائه (ع)، عن أمير المؤمنين (ع) قال:

انّ الله تبارك وتعالى أراد أن يخلق خلقاً بيده، وذلك بعدما مضى من الجن والنسناس في الأرض سبعة آلاف سنة وكان من شأنه خلق آدم كشط عن اطباق السّموات، قال للملائكة: انظروا إلى أهل الأرض من خلقي من الجنّ والنسناس، فلمّا رأوا مايعملون فيها من المعاصي وسفك الدّماء والفساد في الأرض بغير الحق، عظم ذلك عليهم وغضبوا وتأسّفوا على أهل الأرض ولم يملكوا غضبهم فقالوا: ربّنا أنت العزيز القادر الجبّار القاهر العظيم الشأن، وهذا خلقك الضعيف الذليل يتقلبون في قبضتك، ويعيشون برزقك، ويستمتعون بعافيتك، وهم يعصون بمثل هذه الذّنوب العظام لا تأسّف عليهم، ولا تغضب ولا تنتقم لنفسك لما تسمع منهم وترى، وقد عظم ذلك علينا وأكبرناه فيك. قال: فلمّا سمع ذلك من الملائكة: «قال إنّي جاعل في الأرض خليفة» يكون حجّة في أرضي على خلقي، فقالت الملائكة: «سبحانك أتجعل فيها من يفسد فيها» كما أفسد بنو الجانّ ويسفكون الدّماء، كما سفك بنو الجانّ، ويتحاسدون ويتباغضون، فاجعل ذلك الخليفة منّا فإنّا لا نتحاسد، ولا نتباغض، ولا نسفك الدّماء ونسبح بحمدك ونقدّس لك، قال جلّ وعزّ: «إنّي أعلم ما لاتعلمون» إنّي أريد أن أخلق خلقاً بيدي، واجعل من ذريّته أنبياء، ومرسلين، ←

. . . .

← وعباداً صالحين، وأئمّة مهتدين، أجعلهم خلفاء على خلقي في أرضي ينهون عن معصيتي، وينذرونهم من عذابي، ويهدونهم إلى طاعتي، ويسلكون بهم طريق سبيلي، وأجعلهم لي حجّة عليهم (عذراً ونذراً) وأبيد النسناس من أرضي واطهّرها منهم، وأنقل مردة الجن العصاة من بريّتي وخلقي وخيرتي، واسكّنهم في الهواء في اقطار الأرض فلا يجاورون نسل خلقي، وأجعل بين الجن وبين خلقي حجاباً فلا يرى نسل خلقي الجنّ، ولا يجالسونهم ولا يخالطونهم، فمن عصاني من نسل خلقي الّذين اصطفيتهم وأسكّنهم مساكن العصاة وأوردتهم مواردهم ولا أبالي.

قال: فقالت الملائكة: يا ربّنا افعل ماشئت «لاعلم لنا إلّا ما علّمتنا انّك أنت العليم الحكيم» قال: فباعدهم الله من العرش مسيرة خمسمائة عام، قال: فلاذوا بالعرش وأشاروا بالأصابع، فنظر الرّبّ جلّ جلاله إليهم، ونزلت الرّحمة فوضع لهم البيت المعمور، فقال: طوفوا به، ودعوا العرش فإنّه لي رضاً، فطافوا به وهو البيت الّذي يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك لايعودون أبداً، فوضع الله البيت المعمور توبة لأهل السّماء، ووضع الكعبة توبة لأهل الأرض، فقال الله تبارك وتعالى:

﴿انّي خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [سورة الحجر: ٢٨ ـ ٢٩].

قال: وكان ذلك من الله تعالى في آدم قبل أن يخلقه واحتجاجاً منه عليهم.

قال: فاغترف ربّنا عزّ وجلّ بيمينه من الماء العذب الفرات، وكلتا يديه يمين، فصلصلها في كفّه حتّى جمدت، فقال لها: منك أخلق النبيّين والمرسلين وعبادي الصالحين والأئمّة المهتدين والدعاة إلى الجنّة وأتباعهم إلى يوم القيامة، ولا أبالي ولا أسأل عمّا أفعل وهم يسألون.

ثمّ اغترف غرفة اخرى من الماء المالح الاجاج فصلصلها في كفّه فجمدت، ثمّ قال لها: منك اخلق الجبارين والفراعنة والعتاة واخوان الشياطين والدّعاة إلى النار إلى يوم القيامة وأشياعهم، ولا أبالي وأسأل عمّا أفعل وهم يسألون.

قال: وشرطه في ذلك البداء فيهم، ولم يشترط في أصحاب اليمين، ثمّ خلط المائين جميعاً في كفّه فصلصلها ثمّ (كفأهما) كفها قدام عرشه وهما سلالة من طين ثمّ أمر الله الملائكة الأربعة الشمال والجنوب والصّبا والدّبور ان يجولوا على هذه السلالة من الطين فأمروها ←

والنسناس (في الأرض (ع)) سبعة آلاف سنة.

قال: فلمّا كان من شأن أن يخلق آدم (ع) للّذي أراد من التدبير والتقدير ممّا (لما (ع) فيما (ق)) هو مكونة ومكيفة في السّماوات والأرض، وعلمه بما (لما (ع)) أراد ذلك كلّه سابق كشف (كشط (ع)) عن اطباق السّماوات.

ثمّ قال للملائكة: أنظر إلى أهل الأرض من خلقي من الجنّ والنسناس، هل ترضون أعمالهم وطاعتهم لي، فاطّلعت الملائكة على أهل الأرض من الجنّ والنسناس، فلمّا رأوا مايعملون فيها من المعاصي وسفك الدّماء والفساد في الأرض بغير الحقّ، اغضبهم ذلك (عظم ذلك عليهم (ع) اعظموا ذلك (ق)) وغضبوا الله، وتأسفوا (أسفوا (ع ق)) على أهل الأرض ولم يملكوا غضبهم ان قالوا: ياربّنا أنت العزيز الجبّار (القاهر القادر العظم الشأن) القادر المطعم الرّازق، هذا (هؤلاء كلّهم) خلقك الضعيف الذّليل في أرضك، (كلّهم) يتقلبون (في قبضتك) ويعيشون برزقك، ويستمتعون (يتمتّعون) بعافيتك وهم يعصونك بمثل هذه الذّنوب العظام، لا تأسف ولا تغضب ولا تنتقم لنفسك بما تسمع منهم وترى وقد عظم ذلك علينا وأكبرنا (فيك).

فلمّا سمع الله جل جلاله ذلك من الملائكة (مقالة الملائكة) قال: إنّي جاعل في

← (فأبدوها) وانشؤوها ثمّ انزوها (أبروها) وجزّوها وفصّلوها، وأجروا فيها الطبايع الأربعة الرّيح والدّم والمرّة والبلغم، فجالت الملائكة عليها وهي الشمال والجنوب والصبا والدبور واجروا فيها الطبايع الأربعة، فالريح في الطبايع الأربعة من البدن من ناحية الشمال، والبلغم في الطبائع الأربعة من ناحية الصبا، والمرّة في الطبايع الأربعة من ناحية الدبور، والدّم في الطبايع الأربعة من ناحية الجنوب.

قال: فاستقلّت النّسمة وكمل البدن، فلزمه من ناحية الريح حبّ النساء وطول الأمل والحرص، ولزمه من ناحية البلغم حبّ الطعام والشراب والبرّ والحلم والرفق، ولزمه من ناحية المرّة الحبّ والغضب والسفه والشيطنة والتجبر والتمرّد والعجلة، ولزمه من ناحية الدّم حبّ الفساد واللّذّات وركوب المحارم والشّهوات، قال أبو جعفر (ع): وجدنا هذا في كتاب أمير المؤمنين (ع).

وعنه البحار ج ١١، ص ١٠٣، الحديث ١٠.

الأرض خليفة لي (عليهم) أعلمه فيكون (حجّتي على خلقي في الأرض) حجّة لي في أرضي وخليفتي.

فقالت الملائكة: سبحانك (ربّنا) أتجعل فيها من يفسد فيها مع هؤلاء ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك فاجعله منا، (فإنّا لانفسد في الأرض ولا نسفك الدماء).

قال الله جلّ جلاله: يا ملائكتي إنّي أعلم ما لاتعلمون، إنّي أريد أن أخلق خلقاً بيدي، أجعل من ذرّيته أنبياء مرسلين وعباداً صالحين وأئمّة مهتدين، أجعلهم خلفاء (خلفائي) على خلقي في أرضي ينهونهم عن (المعاصي) معصيتي وينذرونهم عذابي ويهدونهم إلى طاعتي، ويسلكون بهم طريق سبيلي، وأجعلهم حجّة لي عذراً ونذراً، وأبير النسناس (وانفي الشياطين) من أرضي وأطهّرها منهم.

وأنقل مردة (الجنّ) العصاة عن بريّتي وخلقي وخيرتي.

فاسكنهم في الهواء و(في) اقطار الأرض، ولا أجارور (لا يجاورون) نسل خلقي، واجعل بين الجنّ وبين خلقي حجاباً، فلا يرون نسل خلقي، وأحبس الجنّ فلا يجالسونهم (ولا يؤانسونهم) ولا يخالطونهم ولا يبهجون ببهجتهم، فمن عصاني من نسل خلقي الّذين اصطفيتهم لنفسي أسكنتهم مسكن العصاة، وأوردتهم مواردهم ولا أبالي.

(فأسكنهم في الهواء من أقطار الأرض وفي الفيافي، فلا يراهم خلق، ولا يرون شخصهم، ولا يجالسونهم، ولا يخالطونهم، ولا يؤاكلونهم، ولا يشاربونهم، وأنفرّ مردة الجنّ العصاة عن نسل بريّتي وخلقي وخيرتي، فلا يجاورون خلقي، وأجعل بين خلقي وبين الجانّ حجاباً، فلا يرى خلقي شخص الجنّ، ولا يجالسونهم، لايشاربونهم، ولا يتهجّمون تهجّمهم، ومن عصاني من نسل خلقي الّذي عظمته واصطفيته لغيبي أسكنهم مساكن العصاة، وأوردهم موردهم ولا أبالي (ق)).

فقالت الملائكة): ربّنا افعل ما شئت، فلا علم لنا إلّا ما علّمتنا انّك أنت العليم الحكيم.

فقال الله جلّ جلاله للملائكة:

﴿إنّي خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [سورة الحجر: ٢٨ ـ ٢٩].

قال: وكان ذلك من الله تقدمة إلى الملائكة من قبل أن يخلقه احتجاجاً عليهم.

(قال: وكان ذلك من الله تقدمة للملائكة قبل أن يخلقه احتجاجاً منه عليهم، وما كان الله ليغيّر ما بقوم إلّا بعد الحجّة عذراً أو نذراً، فأمر تبارك وتعالى ملكاً من الملائكة، فاغترف غرفة بيمينه، فصلصلها في كفّه فجمدت، فقال الله عزّ وجلّ: منك أخلق (ق))(٦١).

قال فاغترف الجبّار تبارك وتعالى غرفة بيمينه من الماء العذب الفرات وكلتا يديه يمين فصلصلها في كفّه فجمدت، ثمّ قال لها: منك أخلق النبيّين والمرسلين وعبادي الصّالحين والأئمة المهتدين الدّعاة إلى الجنّة وأتباعهم إلى يوم القيامة، ولا أبالي ولا أسأل عمّا أفعل وهم يسألون، يعني بذلك خلقه أنّه يسألهم، ثمّ اغترف الله تعالى بكفّه الأخرى غرفة من الماء الملح (المالح الأجاج) فصلصلها في كفّه فجمدت، ثمّ قال لها منك أخلق خلق الجبّارين والفراعنة والعتاة وإخوان الشّياطين وأئمّة الكفر الدّعاة إلى النّار إلى يوم القيامة وأتباعهم ولا أسأل ولا أبالي عمّا أفعل وهم يسألون.

(قال:) واشترط (وشرط) في ذلك البداء له ولم يشترط في أصحاب اليمنى البداء فيهم ثمّ خلط المائتين في كفيه جميعاً فصلصلها جميعاً ثمّ كفّاهما (ألقاهما) قدام عرشه وهما بلة سلالة من طين.

ثمّ أمر الملائكة الأربعة، الشمال والدبور والصبا والجنوب، أن جوّلوا على هذه (الثلاثة السلالة) البلة من الطين واثيروها (ابرؤها) وانسموها، ثمّ جزؤوها وفصّلوها واجرؤوا فيها (إليها) الطبايع: الرّيح والبلغم والمرّة والدّم، فجالت الملائكة عليها الشمال والدبور والصبا والجنوب، واجروا فيها الطبايع الأربع، فالرّيح من الطبايع

---

(٦١) قوله: منك أخلق.

إلى هنا ما رواه قطب الدّين الراوندي من الخطبة.

الأربع في البدن من ناحية الشمال، والبلغم من الطبايع الأربع في البدن من ناحية الصّبا، والمرّة من الطبايع الأربع في البدن من ناحية الدبور، والدّم من الطبايع الأربع في البدن من ناحية الجنوب، قال: فاستقلت النّسمة وكمل البدن، فلزمه من ناحية الرّيح حبّ الجاه (الحياة) وطول الأمل والحرص، ولزمه من ناحية البلغم حبّ الطعام والشّراب واللبس (اللين) والحلم والرّفق، ولزمه من ناحية المرّة: (التجبر) الغضب والسّفه والشّيطنة والتمرّد والجبن والعجلة، ولزمه من ناحية الدّم شهوة النّساء (اللّذات) وركوب المحارم والشّهوات، (قال عمرو أخبرني جابر، أنّ أبا جعفر (ع) قال: وجدناه في كتاب من كتب عليّ عليه السّلام).

هذا آخر الخطبة المنسوبة عليه الصّلوات والسّلام.

والأغراض من نقلها كثيرة، أحسنها أنّها شاهدة على التّرتيب المتقدّم للعالم الّذي هو الإيجاد من الأسفل إلى الأعلى دون العكس، وتقديم الأجسام على الأرواح، والأخرى أنّها شاهدة أنّ هناك عالم فيه أقوام ليس لهم علم بأنّ الله خلق آدم أو إبليس أو خلق السّموات والأرض، وهذه الأغراض شريفة جداً، فإنّ كلامه كما قلناه حجّة على الكلّ عقلاً ونقلاً وكشفاً ويوافق هذا كلّه ما قال النبيّ صلّى الله عليه وآله في الأقوال المتقدّمة، وهو قوله مروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنّه قال:

إنّ الله تعالى أرضاً بيضاء مسيرة الشّمس فيها ثلثون يوماً هي مثل أيّام الدّنيا ثلثين مرّة مشحونة خلقاً لايعلمون انّ الله خلق السّماوات والأرض، ولا يعلمون أنّ الله خلق آدم وإبليس (٦٢).

---

(٦٢) قوله: إنّ لله تعالى أرضاً.

راجع في أمثال هذا الحديث: بصائر الدّرجات لأبي جعفر محمّد بن الحسن الصفّار المتوفّى ٢٩٠ هـ ق، ج ١٠، باب ١٤ في الأئمّة، انّ الخلق الّذي خلف المشرق والمغرب يعرفونهم ويؤتونهم ويبرؤن من أعدائهم، توجد فيه الأحاديث كثيرة، وأيضاً راجع البحار ج ٥٧، كتاب السّماء والعالم، باب العوالم.

وروى الكليني في الروضة من الكافي، باب حديث القباب، الحديث ٣٠١، ص ٢٣١،

←

....

← بإسناده عن أبي عبدالله (ع) قال:

ولله قباب كثيرة، ألا انّ خلف مغربكم هذا تسعة وثلاثون مغرباً أرضاً بيضاء مملوّة خلقاً يستضيئون بنوره، لم يعصوا الله عزّ وجلّ طرفة عين، مايدرون خُلِق آدم أم لم يخلق، الحديث، فراجع.

وروى المجلسي في البحار ج ٥٧، باب العوالم، الحديث ٤٦، ص ٣٤٩، عن الكفعمي والبرسي، بإسنادهما عن الكاظم موسى بن جعفر عليهما السّلام عن آبائه (ع) عن النّبي (ص) أنّه قال له جبرئيل: والّذي بعثك بالحقّ نبيّاً إنّ خلف المغرب أرضاً بيضاء فيها خلق من خلق الله يعبدونه ولا يعصونه، وقد تمزّقت لحومهم ووجوههم من البكاء، فأوحى الله إليهم: لِمَ تبكون ولم تعصوني طرفة عين؟ قال: نخشى أن يغضب الله علينا ويعذبنا بالنّار، قال علي عليه السّلام: قلت: يارسول الله! ليس هناك إبليس أو أحد من بني آدم؟ فقال: والّذي بعثني بالحقّ نبيّاً مايعلمون أنّ الله خلق آدم ولا إبليس، ولا يحصى عددهم إلّا الله، ومسير الشمس في بلادهم أربعون يوماً لا يأكلون ولا يشربون.

وأخرج السيوطي في تفسيره الدّر المنثور ج ٧، ص ٦٦٣، في سورة النجم في الآية: وأنّ عليه النشأة الأخرى ٤٧، عن النّبي (ص) قال: فان لله تعالى وراء المغرب أرضاً بيضاء بياضها ونورها مسيرة الشمس أربعين يوماً فيها خلق من خلق الله لم يعصوا الله طرفة عين، قيل: يانبيّ الله فأين إبليس عنهم؟ قال: لايدرون خُلِق إبليس أم لم يخلق.

وأخرج الهندي في كنز العمال ج ١٠، ص ٣٦٨، الحديث ٢٩٨٤٣: إنّ لله تعالى أرضاً من وراء أرضكم هذه بيضاء، نورها وبياضها مسيرة شمسكم هذه أربعين يوماً فيها عباد لله تعالى، لم يعصوه طرفة عين، مايعلمون أن الله تعالى خلق الملائكة ولا آدم ولا إبليس؛ هم قوم يقال لهم: الروحانيون خلقهم الله تعالى من ضوء نوره.

روى الصّفار في كتابه بصائر الدّرجات في الجزء العاشر باب ١٤، ص ٤٩٠، باسناده عن أبي عبدالله الصّادق عليه الصّلاة والسّلام قال:

إنّ لله مدينة خلف البحر سعتها مسيرة أربعين يوماً فيها قوم لم يعصوا الله قطّ، ولا يعرفون إبليس ولا يعلمون خلق إبليس، نلقاهم في كل حين فيسألونا عمّا يحتاجون إليه، ويسألونا الدعاء فنعلّمهم، ويسألونا عن قائمنا حتّى يظهر، وفيهم عبادة واجتهاد شديد، إلى أن قال: طعامهم التسبيح، الحديث.

←

وكذلك قوله المرويّ عن أبي ذر (٦٣) المتقدّم ذكره:

«ما السّموات السّبع في الكرسي إلّا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة».

وإلى هذا أشار الحق تعالى في قوله:

﴿وسع كرسيّه السّموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العليّ العظيم﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥].

وكذلك في قوله:

﴿وجنّة عرضها السّموات والأرض أعدّت للمتّقين﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣].

لأنّك إذا اعتبرت المؤمنين كلّها واعتبرت لكلّ مؤمن جنّة عرضها السّموات والأرض ظهر لك سعة هذه العلوالم والأراضي الّتي هي فيها هذه الجنّات، وذلك تقدير العزيز العليم، والله خالق كلّ شيء قدير، ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير، نعم المولى ونعم النصير.

وإذا تحقّق هذا وفرغنا من الخطبة الأولى له، فلنشرع في الخطبة الثّانية مع شرحها كما شرطناه وهو هذا، وبالله التّوفيق والعصمة وهو يقول الحقّ وهو يهدي السّبيل.

← جاء في مسائل عبدالله بن سلام رسول الله (ص): فأخبرني عن جبرئيل ما طعامه وشرابه؟ قال: طعامه التسبيح وشرابه التهليل، الحديث. راجع الاختصاص للمفيد (ره) ص ٤٥.

(٦٣) قوله: المروي عن أبي ذر.

رواه الصدوق عليه الرحمة في معاني الأخبار، باب معنى تحيّة المسجد ح ١، ص ٣٣٢، ورواه أيضاً في الخصال أبواب العشرين وما فوقه الحديث ١٣، ص ٥٢٣، وعنهما البحار ج ٧٧، ص ٧٠، باب ما أوصى به رسول الله (ص) إلى أبي ذر، الحديث ١.

وأخرجه أيضاً السيوطي في تفسيره الدّر المنثور في البقرة في الآية الكرسي ج ٢، ص ١٧.

ومن خطبة له صلوات الله عليه، يذكر فيها إبتداء خلق السّماء والأرض وخلق آدم عليه السّلام وذرّيته ثمّ خلق الملائكة وإبليس وغيرها، وهي هذه:

الحمد لله الّذي لايبلُغُ مدحته القائلون ولا يُحصي نَعماءَه العادّون ولا يُؤَدّي حَقَّه المجتهدون، الّذي لايُدركه بُعد الهمم، ولا يناله غوص الفِطن، الّذي ليس لصفته حَدٌّ محدود، ولا نعتٌ موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود، فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرّياح برحمته، ووَتَّد بالصّخور مَيَدان أرْضه.

أوّلُ الدّين معرفتُه، وكمالُ معرفته التّصديقُ به، وكمالُ التّصديق به توحيده، وكمالُ توحيده الأخلاص له، وكمالُ الإخلاص له نفي الصّفات عنه، لشهادة كلِّ صفةٍ أنّها غيرُ الموصوف، وشهادةِ كُلِّ موصوف أنّه غيرُ الصّفة، فمن وَصَفَ الله سبحانه فقد قَرَنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جَزّأه، ومن جزّأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حَدّه، ومن حَدّه، فقد عَدّه، ومن قال: فيم؟، فقد ضَمَّنه، ومن قال: عَلام؟، فقد أخلَى منه. كائن لاعن حَدَث، موجودٌ لا عن عدم.

مع كلّ شيء لا بمقارنَة، وغير كلّ شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحّد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش من فقده (لفقده).

(خلق العالم)

أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأهُ ابتداءً، بلا رويّة أجالها، ولا تجربة استفادَها، ولا حركة أحدثَها، ولا همامَةِ نفسٍ اضطَرَبَ فيها. أحالَ الأشياءَ لأوقاتِها، ولأم بين مختلفاتها، وغرّز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها، ثمّ أنشأ سبحانه فَتقَ الأجواءِ، وشقّ الأرجاء، وسكائك

الهواء، فاجرىٰ فيها ماءً متلاطماً تيّارُهُ، متراكماً زخّاره. حمّلَه على مَتن الرّيح العاصفة، والزّعزع القاصفة، فأمَرَها بِرَدّه، وسلّطَها على شدّهِ، وقرنها إلى حدّه. الهواء من تحتها فتيق، والماء من فوقها دقيق. ثمّ أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مَهبّها، وأدام مُربّها، وأعصف مَجراها، وأبعَدَ مَنشاهَا، فَأمَرَها بتصفيق الماء الزّخّار، وإثارة موج البِحار، فمخضتهُ مخضَ السّقاء، وعَصَفَت به عَصفَها بالفَضَاء.

تردُّ أوّله إلى آخره، وساجِيَه إلى مائرهِ، حتّى عَبَّ عُبابَه، ورمى بالزّبد رُكامُه، فرفعه في هواء مُنفتِق، وجوٍّ منفهِقٍ، فسوّى منه سبع سمٰوات، جعل سفلاهنّ موجاً مكفوفاً، وعلياهنّ سقفاً محفوظاً، وسمكاً مرفوعاً، بغير عمد يدعَمُها، ولا دِسار ينظِمُها. ثمّ زيّنها بزينةِ الكواكب، وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً، وقمراً مُنيراً في فلكٍ دائرٍ، وسقفٍ سائرٍ، ورقمٍ مائرٍ.

(خلق الملائكة)

ثمّ فتق مابين السّموات العُلا، فملأهُنّ أطواراً من ملائكتِهِ منهم سجودٌ لايركعونَ، وركوعٌ لا يَنتَصِبُونَ، وصافُّونَ لا يتزايَلون، ومُسبّحون لايَسْأمونَ، لايغشاهم نومُ العُيون ولا سهوُ العقول، ولا فترةُ الأبدانِ، ولا غفلَةُ النّسيانِ.

ومنهم أُمَناءُ على وَحيِهِ، وألسِنةٌ إلى رُسله، ومختلفون بقضائِهِ وأمره، ومنهم الحَفَظَةُ لِعبادِه، والسَّدنةُ لأبواب جِنانه.

ومنهم الثابِتةُ في الأرضِين السُّفلىٰ أقدامُهُم، والمارِقَةُ مِنَ السّماء العُليا أعناقُهم، والخارِجَةُ من الأقطار أركانُهم، والمناسِبةُ لقوائم العرش أكتافُهم. ناكِسةٌ دونَه أبصارُهُم، مُتلفّعون تحته بأجنِحَتِهم، مَضرُوبةٌ بينهم وبينَ مَن دونَهم حُجُب العِزّةِ، وأستارُ القدرةِ. لايَتوهّمونَ ربّهُم بالتّصوير، ولا يُجرُون عليه صفاتِ المصنُوعينَ، ولا يَحُدُّونَه بالأماكِنِ، ولا يُشيرون إليه بالنّظائرِ.

(صفة خلق آدم عليه السّلام)

ثمّ جمع سبحانه من حَزن الأرضِ وسَهلها، وعَذبِها وسَبَخِها، تُربةً سَنّها بالماء حتّى خَلصَت، ولاطَهَا بِالبَلّة حتّى لَزبَت، فَجَبَل منها صورةً ذاتَ أحناءٍ ووُصُول، وأعضاءٍ وفصولٍ، أجمدَها حتّى استمسَكت، وأصلَدَها حتّى صَلصَلت لوقتٍ معدودٍ وأجَلٍ (أمد) معلوم، ثمّ نَفَخ فيها من روحه فَمَثُلَت إنساناً ذا أذهانٍ يُجيلُها، وفِكَرٍ يتصرَّفُ بها، وجوارِحَ يَختَدِمُها وأدواتٍ يُقلّبُها، ومَعرفةٍ يَفرُقُ بها بينَ الحقّ والباطلِ، والأذواق والمَشامّ، والألوان والأجناس، معجوناً بطينةِ الألوان المُختلِفةِ، والأشباه المؤتَلِفةِ، والأضدادِ المتعادِيَةِ، والأخلاطِ المُتباينةِ، من الحرّ والبَرد، والبَلّةِ والجُمُود، واستَأدى اللهُ سبحانه الملائكةَ وديعتَهُ لديهم، وعهدَ وصيّتِهِ إليهم، في الإذعان بالسُّجودِ لَه، والخُنُوع لتكرِمَتِهِ، فقال سُبحانه:

﴿اسجدُوا لآدم فسَجَدوا إلّا إبليس﴾ [سورة البقرة: ٣٤].

وقبيله، اعترتهم الحميّة وغلبت عليهم (اعترَته الحَميَّةُ، وغَلَبَت عليه) الشِّقوَة، وَتعزَّزَ بِخِلقَةِ النّار، واستَوهَنَ خلق الصَّلصال، فأعطاهُ اللهُ النَّظِرَةَ استحقاقاً للسُّخطَةِ، واستِتماماً للبليّةِ، وإنجازاً للعِدَةِ، فقال:

﴿فإنّك من المنظَرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ [سورة الحجر: ٣٨].

ثمّ اسكَنَ سبحانَه آدَمَ داراً أرغدَ فيها عَيشَهُ، وآمَنَ فيها مَحَلَّته، وحَذَّرَهُ إبليسَ وعداوَتَه، فَاغترَّهُ عَدُوُّه نفاسَةً عليه بدارِ المُقام، ومُرافَقَةِ الأبرار، فباعَ اليقينَ بشكِّهِ، والعَزيمَة بوَهنِهِ، واستبدَلَ بالجَذَل وَجَلاً، وبالاغترار نَدَماً.

ثُمّ بَسَطَ اللهُ سبحانَه له في توبته، ولقّاهُ كَلِمَةَ رحمَتِه، وَوَعَدَه المَرَدّ إلى جَنّتِهِ، وأهبَطَه إلى دارِ البَليّة، وتناسُل الذُّرِيّة.

(اختيار الأنبياء)

واصطَفى سبحانَه من وَلده أنبياءَ أَخَذَ عَلَى أداء الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرِّسالة أمانَتَهم، لمّا بدَّل أكثَرُ خَلقِهِ عَهدَ الله إليهم فَجَهِلُوا حَقَّه، واتَّخَذُوا الأنداد مَعَه، واجتالَتهم الشياطين عن معرفتِهِ، واقتَطَعتهم عن عبادتِهِ، فبعثَ فيهم رُسُلَه، وواتر إليهم أنبياءَهُ، لِيَستأدُوهُم ميثاقَ فِطرتِهِ، ويُذكِّرُوهُم مَنسيَّ نِعمتِهِ ويَحتجُّوا عليهم بالتبليغ، ويُثيرُوا لهم دفائِنَ العُقُول، ويُرُوهُم آياتِ المَقدِرَة، من سقفٍ فوقَهم مرفوع، ومِهادٍ تحتَهم موضوع ومَعايشَ تُحييهم، وآجالٍ تُفنيهم، وأوصابٍ تُهرِمُهم، وأحداثٍ تَتابعُ عليهم، ولم يُخلِ اللهُ سبحانه خلقه من نبيٍّ مُرسل، أو كتاب مُنزلٍ، أو حجّةٍ لازمةٍ، أو مَحَجَّةٍ قائمةٍ، رسُلٌ لاتُقصِّرُ بهم قلّةُ عَدَدِهم، ولا كثرةُ المكذّبين لهم، من سابقٍ سُمِّي له مَن بَعدَهُ، أو غابرٍ عَرَّفَه مَن قَبلَهُ، على ذلك نَسَلَتِ القرونُ، ومَضَتِ الدُّهور، وسَلَفَتِ الآباءُ، وخَلَفَتِ الأبناء.

(مبعث النّبيّ (ص))

إلى أن بعث الله سبحانه محمّداً رسولَ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لإنجاز عِدَتِه، وإتمام نبوّته، مأخوذاً على النَّبيِّين ميثاقه، مشهورةً سِماتُه، كريماً ميلادُه. وأهل الأرض يومئذ مِلَلٌ متفرّقة، وأهواءٌ منتشرةٌ، وطرائِقُ متشتّتةٌ، بين مشبّهٍ لله بخَلقِهِ، أو ملحدٍ في اسمه، أو مشيرٍ إلى غيره، فَهداهُم به من الضَّلالةِ، وأنقَذَهم بمكانِهِ مِن الجهالة.

ثمّ اختارَ سبحانَه لمحمدٍ صلّى الله عليه وآله، لقاءَه، ورضِيَ له ما عندَه، وأكرَمَه عن دارِ الدُّنيا، ورغِبَ به عن مقام البَلوَي، فَقَبَضه إليه كريماً صلّى الله عليه وآله، وخلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أُممها، إذ لم يَترُكوهم هَمَلاً، بغير طريقٍ واضحٍ، ولا علم قائم.

(القرآن)

كتابَ ربِّكم فيكم، مُبيّناً حلالَه وحرامَه، وفرائِضَه وفضائلَه، وناسِخَه ومنسوخَه، ورُخَصَه وعزائِمَه، وخاصَّه وعامَّه، وعِبَرَه وأمثالَه، ومرسَله ومحدودَه، ومُحكمه ومُتشابِهَه، مُفسِّراً مُجمَلَه، ومُبيّناً غوامِضه، بين مأخوذٍ ميثاقُ عِلمه، وموسَّعٍ على العبادِ في جَهله، وبينَ مُثبَتٍ في الكتاب فرضُه، ومعلومٍ في السُّنَّةِ نسخُهُ، وواجبٍ في السُّنَّة أخذُه، ومُرخَّصٍ في الكتاب تَركُهُ، وبينَ واجبٍ بوَقتِه، وزائلٍ في مستقبَلِهِ. ومُبايَنٌ بين محارِمِه، من كبيرٍ أوْعَدَ عليه نِيرانه، أو صغيرٍ أرْصَدَ له غُفرانَه. وبينَ مقبول في أدناه، وموسَّعٍ في أقصاه.

(الحجّ)

منها، وفَرَضَ عليكم حجَّ بيته الحرام، الّذي جعله قبلةً للأنام، يردُونه ورودَ الأنعام، ويألَهونَ إليه وُلُوه الحَمام، (و) جعله سبحانه علامة لتواضُعِهم لعظمته، وإذعانهم لِعزَّته، واختار من خلقه سُمّاعاً أجَابُوا إليه دَعوَتَه، وصدّقوا كلِمتَهُ، وَوَقَفوا مَواقِفَ أنبيائِه، وتشبَّهوا بملائكتِهِ المُطيفينَ بعرشِه. يُحرِزُونَ الأدباحَ في مَتجَرِ عبادَتِهِ، وَيَتَبادَرُونَ عندَه موعِدَ مغفِرَتِهِ، جَعَلَه سبحانه وتعالىٰ للإسلام عَلَماً، وللعابدين (للعائذين) حرماً، فرض حقَّه، وأوجب حَجَّه، وكتب عليكم وفادَتَه، فقال سبحانه:

﴿ولله على النّاس حِجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كَفَر فإنّ الله غنيّ عَن العالَمين﴾ [سورة آل عمران: ٩٧].

هذا آخر الخطبة الثانية، والغرض من نقلها الّذي سبق في أوّلها، وغير ذلك، وهو أنّ هذه المقدّمات بأسرها محتوية على بحث التطابق بين العالمين لتصحيح التأويل الحقيقي على قاعدة المحقّقين، وهذه الخطبة شاملة لهذه الأبحاث بعد كلام الشيخ الأعظم، وكذلك على بحث آدم والخليفة وذكر إبليس وسجدته، وهذه الخطبة شاملة لهذه كلّها، وعلى بحث القرآن وتحقيقه وكيفيّة تأويله وتفسيره، وهذه الخطبة شاملة

هذه كلّها، وعلى بحث الملائكة والجنّ وأنواعهم وأصنافهم، وهذه الخطبة شاملة لهذه كلّها، وعلى ذكر التّوبة وأقسامها، وهذه الخطبة شاملة لذلك كلّه، وكذلك الحجّ وتحقيقه والكلّ مقصود.

وحيث إنّ ألفاظها وتركيبها في غاية الصّعوبة ولا يفهم منها شيء إلّا بقوّة الشّرح، فلنشرع فيها من حيث الشّرح بالّذي شرحها الشيخ الكامل كمال الملّة والدّين ميثم البحراني قدّس الله روحه العزيز (٦٤)، فانّ شرحه سبب الفهم وستصيب فوائد كثيرة من أنفاسه الشّريفة، وقد كنّا واعدنا بهذا في أوّل الخطبة. فنقول: قال الشّارح رحمة الله عليه:

(٦٤) قوله: الشيخ الكامل ميثم البحراني.

كمال الدّين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، الحكيم المتألّه والفقيه المحقق، فهو فقيه الحكماء وحكيم الفقهاء، المتوفى سنة ستمائة وتسع وسبعين، أو ستمائة وتسع وتسعين أو ما بينهما.

له ثلاثة شروح على نهج البلاغة: الكبير والمتوسط والصغير، والشرح المذكور في المتن شرحه الكبير «مصباح السالكين» وهو أدقّ شروح النهج كما أنّه أروعُها، روى ابن ميثم عن الشيخ كمال الدّين علي بن سليمان البحراني، عن المحقق نصير الدّين الطوسي.

وروى عنه العلّامة الحلّي، والسيّد الأجل عبدالكريم أحمد بن طاووس.

قيل: إنّ ابن ميثم تلمّذ على الخواجة المحقق نصير الدّين الطوسي في الحكمة وتلمّذ الطوسي على ابن ميثم في الفقه.

والسيّد السند مير صدر الدّين محمّد الشيرازي أكثر النقل عنه في حاشية شرح التجريد سيّما في مباحث الجواهر والأعراض.

له مصنّفات: منها: المعراج السّماوي، والقواعد المرام في علم الكلام، والبحر الخضّم في الإلهيّات، وشرح المائة كلمة، وغيرها.

راجع في ترجمته: «أعيان الشيعة» ج ١٠، ص ١٩٧، «روضات الجنّات» ج ٧، ص ٢١٦، «أمل الآمل» ج ٢، ص ٣٣٢، «الكنى والألقاب» ج ١، ص ٤٢٥، «رياض العلماء» ج ٥، ص ٢٢٦، «ريحانة الأدب» ج ٨، ص ٢٤٠، «مصادر نهج البلاغة» ج ١، ص ٢٢٣، «الذريعة» ج ١٤، ص ١٤٩.

إعلم أنّ هذه الخطبة مشتملة على مباحث عظيمة ونكت مهمّة على ترتيب طبيعيّ فلنعقد فيها خمسة فصول:

الفصل الأوّل

في تصديرها بذكر الله جلّ جلاله وتمجيده والثّناء عليه بما هو أهله، وهو قوله:

الحمد لله إلى قوله: ولا يستوحش لفقده.

(شرح المفردات)

فأقول: المدح والمديح: الثّناء الحسن، والمدحة: فعلة من المدح وهي الهيئة والحالةالّتي ينبغي أن يكون المدح عليها، والإحصاء: إنهاء العدّ والإحاطة بالمعدود، يقال: أحصيت الشّيء أي أنهيت عدّه، وهو من لواحق العدد، ولذلك نسبه إلى العادّين، والنّعماء: النّعمة، وهو إسم يقام مقام المصدر، وأدّيت حقّ فلان إذا قابلت إحسانه بإحسان مثله، والإدراك: اللحوق والنيل والإصابة والوصول والوجدان، والهمّة: هي العزم الجازم والإرادة، يقال: فلان بعيد الهمّة إذا كانت إرادته تتعلّق بعليّات الأمور دون محقّراتها، والغوص: الحركة في عمق الشيء، من قولهم: غاص في الماء إذا ذهب في عمقه، والفطن: جمع فطنة، وهي في اللّغة الفهم، وهو عند العلماء عبارة عن جودة إستعداد الذّهن لتصوّر مايريد عليه، وحدّ الشيء: منتهاه، والحدّ المنع، ومنه سمّى العلماء تعريف الشيء بأجزائه حدّاً، لأنّه يمنع أن يدخل في المحدود ماليس منه أو يخرج منه ماهو منه، والنّعت: الصّفة، والأجل: المدّة المضروبة للشيء، والفطرة: الشّق والإبتداع، قال ابن عبّاس: ماكنت أدري مامعنى قوله تعالى:

﴿فاطر السّمٰوات والأرض﴾ [سورة الأنعام: ١٤].

حتّى جائني أعرابيّان يختصمان على بئر فقال أحدهما: «أنا فطرتها» أي أبتدعتها (٦٥).

---

(٦٥) قوله: أنا فطرتها.

والخلائق: جمع خليقة وهي إمّا بمعنى المخلوق، يقال: هم خليقة الله، وخلق الله، أي مخلوقة، أو بمعنى الطّبيعة لأنّ الخليقة هي الطّبيعة أيضاً، والنشر اليسط، وتد بالفتح: أي ضرب الوتد في حائط أو في غيره، والصخورة: الحجارة العظام، والميدان: الحركة بتمايل، وهو الإسم من: ماد يمد ميداً، ومنه غصن ميّاد: متمايل، والدّين في أصل اللّغة يطلق على معان، منها العادة، ومنها الإذلال، يقال: دان له، أي أذلّه وملّكه، ومنه: بيت الحماسة دنّاهم كما دانوا، ومنها المجازاة كقوله تعالى:

﴿أءِنّا لمدينون﴾ [سورة الصافات: ٥٣].

أي مجزيّون، والمثل المشهور(٦٦) كما تدين تدان، ومنها الطّاعة، يقال: دان له أي

← ذكره أبو عبيد المتوفى سنة ٢٢٤ في كتابه (غريب الحديث) ج ٤، ص ٣٧٣ باسناده عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما «فاطر السّموات والأرض» حتّى أتاني أعرابيان يختصما في بئر، فقال أحدهما: «أنا فطرتها» أي أنا ابتدأتها.

وذكر قريباً منه أيضاً الطبري المتوفّى ٣١٠ في تفسيره (جامع البيان) ج ٧، ص ١٠١ في تفسير الآية المذكورة، باسناده عن ابن عباس.

وذكره أيضاً الطبرسي المتوفّى ٥٤٨ في تفسيره (مجمع البيان) في سورة الأنعام في الآية المذكورة، وفيه: قال: ماكنت أدري ما «فاطر السّموات والأرض» أي ابتدأت حفرها».

وذكره أيضاً ابن الأثير المتوفّى ٦٠٦ في كتابه النهاية ج ٣، ص ٤٥٧.

(٦٦) قوله: والمثل المشهور:

قال الفَراهيدي المتوفّى ١٧٥ هـ في كتاب العين ج ٨، ص ٧٣: وفي المثل: كما تَدين تُدان، أي كما تأتي يُؤتيَ إليك. ذكره أيضاً النيسابوري الميداني المتوفّى ٥١٨ هـ في كتابه مجمع الأمثال ج ٢، ص ١٨٣، وقال: أي كما تُجازِي تُجازَى، يعني كما تعمل تجازى، إن كان حَسَناً فَحَسن وإن كان سيئاً فسيّئ، وجاء المثال في كتاب فوائد اللآلي في مجمع الأمثال للشيخ إبراهيم الطرابلسي المتوفّى ١٣٠٧ ج ٢، ص ١٢٢، كما يلي:

كما تَدينُ يا فَتَى تُدانُ ... فَليَكُ منكَ أبداً إحسان

قال ابن منظور المتوفى ٧١١ في لسان العرب:

قال خويلد بن نوفل الكلابي للحرث بن أبي شمر الغسّاني، وكان اغتصبه ابنته:

←

أطاعه كقول عمرو بن كلثوم:

عَصَينا الملك فينا أن تُدينا.

ويطلق في العرف الشّرعي على الشرايع الصادرة بواسطة الرّسل عليهم السّلام، وقرنه: أي جعل له قرينا، والمقارنة الإجتماع، مأخوذ من قرن الثّور وغيره، ومنه القرن للمِثل في السنّ، وكذلك القرن من النّاس وأهل الزّمان الواحد، قال:

إذا ذهب القرنُ الّذي أنت فيهم وخُلِّفت في قرنٍ فأنتَ غريب(٦٧)

والمزايلة: المفارقة وهي مفاعلة من الطّرفين، والمتوحّد بالأمر: المنفرد به عمّن يُشاركه فيه، والسَّكَن بفتح الكاف: كلّ ما سكنت إليه، والإستيناس بالشيء: ميل الطبع إليه وسكونه، وكذلك التأنّس، ومنه الأنيس وهو المونس، والإستيحاش ضدّ الإستيناس وهو نفرة الطّبع، بسبب فقد المؤانس.

واعلم أنّا نفتقر في بيان نظام كلامه عليه السّلام في هذا الفصل إلى تقديم مقدّمة:

(في معنى الصّفة وأقسامها)

فنقول: الصّفة أمر يعتبره العقل لأمر آخر، ولا يمكن أن يعقل إلّا باعتباره معه، ولا يلزم من تصوّر العقل شيئاً لشيء أن يكون ذلك المتصوّر موجوداً لذلك الشيء في نفس الأمر، بيان ذلك ما قيل في رسم المضاف: إنّه الأمر الّذي تعقّل ماهيّته بالقياس إلى غيره وليس له وجود سوى معقوليّته بالقياس إلى ذلك الغير.

← يا أيّها المَلك المَخوفُ، أما ترىٰ ليلاً وصبحاً كيف يختلفان؟
هل تستطيعُ الشمس أن تأتي بها ليلاً، وهل لك بالمليك يَدانِ؟
يا حار، أيقِنْ أنّ مُلكك زائلُ واعلم بأنّ كما تُدينُ تُدانُ

إلى أن قال:

والدّين: الطاعة، وقد دِنْته ودِنتُ له أي أطعته، قال عمرو بن كلثوم:

وأياماً لنا غُرّاً كراماً عَصَينا المَلك فيها ان تَدينا

(٦٧) قوله: قال: إذا ذهب.

ذكر الشعر ابن منظور في لسان العرب في مادّة: قرن، فراجع.

والصّفة تنقسم باعتبار العقل إلى حقيقيّة وإضافيّة وسلبيّة، وذلك لأنّ نسبة العقل للصّفة إلى غيرها، إمّا أن يعقل معها نسبته من المنسوب إليه، أو لايعقل، فإن كان الأوّل فهو المضاف الحقيقي، وحقيقته أنّه المعقول بالقياس إلى غير يكون بإزائه يعقل له إليه نسبة، ولا يكون له وجود سوى معقوليّته بالقياس إليه، لكونه تعالى خالقاً ورازقاً وربّاً، فإنّ حقيقة هذه الصّفات هي كونها معقولة بالقياس إلى مخلوقيّة ومرزوقيّة ومربوبيّة موازية.

وإن كان الثّاني فالمنسوب إليه إمّا أن يكون موجوداً للمضاف أو ليس بموجود له، والأوّل هو الصّفات الحقيقيّة، لكونه تعالى حيّاً، فإنّه أمر يعقل بالقياس إلى صحّة العلم والقدرة له، وليس بإزاء أمر يعقل منه نسبة إليه، والثّاني هو الصّفات السّلبيّة، لكونه تعالى ليس بجسم ولا بعرض وغيرهما، فإنّها أمور تعقل له بالقياس إلى أمور غير موجودة له تعالى.

ثمّ نقول: إنّه لايلزم من اتّصاف ذاته سبحانه بهذه الأنواع الثّلاثة من الصّفات تركيب ولا كثرة في ذاته، لأنّها اعتبارات عقليّة تحدثها عقولنا المقايسة إلى الغير، ولم يلزم ذلك أن تكون موجودة في نفس الأمر وإن لم تعقل، ولمّا كان دأب العقلاء أن يصفوا خالقهم سبحانه بما هو أشرف طرفي النّقيض لما تقرّر في عقولهم من أعظميّته ومناسبة أشرف الطرفين للأعظميّة كان ما وصف به تعالى من الصّفات الحقيقيّة والإضافيّة والسّلبيّة كلّها كذلك.

(في تقدّم الصّفات السلبيّة الصفات على الثبوتيّة)

إذا عرفت ما قلناه فاعلم أنّه عليه السّلام شرع أوّلاً في الإعتبارات السلبيّة وقدّمها على الثبوتيّة لدقيقة، وهي أنّه قد ثبت في علم السّلوك إلى الله أنّ التوحيد المحقّق والإخلاص المطلق لايتقرّر إلّا بنقض كلّ ماعداه عنه وتنزيهه عن كلّ لاحق له وطرحه عن عن درجة الاعتبار وهو المسمّى في عرف المجرّدين وأهل العرفان بمقام التخلية والنقض والتّفريق، ومالا يتحقّق الشيء إلّا به كان اعتباره مقدّماً على اعتباره،

ولهذا التّرتيب كان أجلّ كلمة نطق بها في التوحيد (قولنا): لا إله إلّا الله، إذ كان الجزء الأوّل منها مشتملاً على سلب كلّ ماعدا الحقّ سبحانه، مستلزماً لغَسل درن كلّ شبهة لخاطر سواه، وهو مقام التنزيه والتخلية، حتّى إذا أنزاح كلّ ثان عن محلّ عرفانه استعدّ بجوده للتخلية بنور وجوده وهو ما اشتمل عليه الجزء الثّاني من هذه الكلمة.

ولمّا بيّنا أنّه عليه السّلام كان لسان العارفين والفاتح لأغلاق الطّريق إلى الواحد الحقّ تعالى والمعلّم والمرشد لكيفيّة السّلوك، وكانت الأوهام البشريّة حاكمة بمثليّته تعالى لمدركاتها، والعقول قاصرة عن إدراك حقيقته والواصل إلى ساحل عزّته والمتّزه له عمّا لايجوز عليه إذطا أمكن وجوده نادراً، لم يكن للأوهام الواصفة له تعالى بما لايجوز عليه معارض في أكثر الخلق، بل كانت جارية على حكمها قائدة لعقولها إلى تلك الأحكام الباطلة كالمشبّهة ونحوهم، لاجرم بدأ عليه السّلام بذكر السلب إذ كان تقديه مستلزماً لغَسل درن الحكم الوهميّ في حقّه تعالى عن لوح الخيال والذّكر، حتّى إذا أورد عقب ذلك ذكره تعالى بما هو أهله ورد على ألواح صافية من كدر الباطل فانتشقت بالحقّ كما قال: فصادف قلباً خالياً فتمكّنا.

ثمّ إنّه عليه السّلام بدأ بتقديم حمد الله تعالى على الكلّ ههنا وفي سائر خطبه جرياً على العادة في افتتاح الخطب وتصديرها، وسرّ ذلك تأديب الخلق بلزوم الثناء على الله تعالى، والإعتراف بنعمته عند افتتاح كلّ خطاب لاستلزام ذلك ملاحظة حضرة الجلال والإلتفات إليها عامّة الأحوال، وقد بيّنا أنّ الحمد يفيد معنى الشّكر، ويفيد ما هو أعمّ من ذلك وهو التّعظيم المطلق وبجميع أقسامه مراد ههنا لكون الكلام في معرض التمجيد المطلق.

(عدم امكان ثنائه تعالى بما هو عليه)

قوله: الّذي لايبلغ مدحته القائلون.

أقول: أراد تنزيهه تعالى عن اطّلاع العقول البشريّة على كيفيّة مدحه سبحانه كما هي.

وبيان هذا الحكم أنّ الثّناء الحسن على الشيء إنّما يكون كما هو إذا كان ثناء عليه

بما هو كذلك في نفس الأمر، وذلك غير ممكن في حقّ الواجب الوجود سبحانه إلّا بتعقّل حقيقته وما لها من صفات الجلال ونعوت الكمال كما هي، وعقول البشر قاصرة عن هذا المقام، فالقول وإن صدر عن المادحين بصورة المدح المتعارف بينهم وعلى ما هود دأبهم من وصفة تعالى بما هو أشرف من طرفي النقيض فليس بكمال مدحه في نفس الأمر لعدم اطّلاعهم على ما به يكون المدح الحقّ في حقّه تعالى وإن تصوّر بصورة المدح الحقّ وأشار إلى تأديب الخلق وتنبيههم على بطلان ما تحكّم به أوهامهم في حقّه تعالى من الصّفات وأنّه ليس الأمر كما حكمت به إذ قال في موضع آخر، وقد سأله بعضهم عن التّوحيد فقال:

(في معنى التوحيد)

«التّوحيد أن لاتتَوهَّمَهُ». [نهج البلاغة (فيض)، الحكمة: ٤٦٢، (صبحي): ٤٧٠].

فجعل التّوحيد عبارة عن سلب الحكم الوهميّ في حقّه تعالى، فاستلزم ذلك أنّ من أجرى عليه حكماً وهميّاً فليس بموحّد له على الحقيقة، ومن هذا قال في موضع آخر إذا سئل عن التّوحيد والحقيقة الكلّيّة:

محو الموهوم مع صحو المعلوم(٦٨).

---

(٦٨) قوله: محو الموهوم مع صحو المعلوم.

قال السيّد المؤلّف في كتابه العزيز «جامع الأسرار» ص ٢٨:

أنّه مرويّ عن كميل أنّه سأل أمير المؤمنين عليّاً (ع) عن «الحقيقة» بقوله: «ما الحقيقة؟» فقال عليه السّلام له: «مالك والحقيقة؟» يعني: مَن أنت والسئوال عن الحقيقة، ولستَ بأهلها، فقال كميل: «أولستُ صاحب سرّك؟» قال: «بلى ولكن يرشح عليك ما يطفح منّي» يعني نعم، أنت صاحب سرّي ومن أخصّ تلامذتي، ولكن لستَ بأهل لمثل هذا السّر والاطّلاع عليه، لأنّه «يرشح عليك عليك ما يطفح منّي» ويضرّك ويضرّني لأنّ ظرفك لايحتمل فوق قدرك، وأنا مأمور بوضع الشيء موضعه.

فقال كميل: «أوَ مثلك يخيب سائلا»؟

←

لأنّ الموهومات هي الّتي صارت في معرفته تعالى حاجبة ومانعة عن انكشاف وجه المعلوم الّذي هو الحقّ تعالى وصحويّته المعبّر عنها بالكشف التّام، لقوله عليه السّلام: سترون ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر(٦٩).

← فشرع الإمام بعد ذلك في بيانه وقال:

«الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير اشارة» فقال كميل: «زدني فيه بياناً» قال عليه السّلام: «صحوا الموهوم مع المعلوم» قال: «زدني فيه بياناً» قال عليه السّلام: «هتك السرّ الغلبة السترّ» قال: «زدني فيه بياناً» قال عليه السّلام: نور شرق من صبح الأزل، فيلوح على هياكل التوحيد آثاره، قال: «زدني فيه بياناً» قال عليه السّلام: «اطفِ السراج، فقد طلع الصبح».

الجدير بالذكر: قوله: ومن هذا قال في موضع آخر إلى قوله تعالى: ﴿فبصرك اليوم حديد﴾. لايوجد في النسخة المطبوعة لشرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني.

(٦٩) قوله: سترون ربّكم.

لفظ الحديث كما يلي: عن جَرير قال: خرج علينا رسول الله (ص) ليلة البدر. فقال: «إنّكم سترون ربّكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر، لاتُضامّون في رؤيته».

راجع صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصّلاة، باب ٣٦٩ (من ادرك ركعةً من العصر)، الحديث ٥٢٣، ج ١، ص ٢٩١. وأيضاً ج ٩، ص ٧٩٦، باب ١٢١٨، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾.

وصحيح مسلم ج ١، ص ٤٣٩، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، الحديث ٢١١ و ٢١٢. وسنن ابن ماجة ج ١، باب فيما أنكرت الجهمية، الحديث ١٧٧، ص ٦٣، ومسند ابن حنبل ج ٤، ص ٢٦٠ و ٢٦٥.

وذكره أيضاً الصدوق ابن بابويه القمي في كتابه معاني الأخبار، باب معنى قول النّبي (ص): من كنت مولاه فعليّ مولاه، ص ٧٢، وقال: قال النّبيّ (ص): «إنّكم ترون ربّكم كما ترون القمر في ليلة البدر لاتضامون في رؤيته».

وعنه بحار الأنوار ج ٣٧، ص ٢٣٠.

انظر أيّها القارئ العزيز الكريم والمنصف، وتأمّل في ما يقال في هذا الحديث وتفسيره في مدرسة أهل البيت (ع) وما يقال فيه في المدرسة الأشاعرة. هيهات أين التراب وربّ ←

المشار إليه في القرآن:

﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ [سورة ق: ٢٢].

وإلى هذا النحو أشار الإمام محمّد بن علي الباقر عليهما السّلام مخاطباً:

وهل سمّي عالماً قادراً إلّا لأنّه وهب العلم للعلماء، والقدرة للقادرين، فكلّ ما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم، والباري تعالى واهب الحياة ومقدّر الموت، ولعلّ النمل الصغار تتوهّم أنّ لله تعالى زبانيين كمالها. فإنّها تتصوّر أنّ عدمها نقصان لمن لايكونان له (٧٠).

← الأرباب والماء والسراب والظلمة والنور والضّلالة والهداية، اللّهمّ نوّر قلوبنا بنور الثقلين بمحمّد (ص) حبيبك وعترته الأطهار (ع).

(٧٠) قوله: وإلى هذا أشار الإمام محمّد بن علي الباقر (ع).

ذكره السيّد المؤلف في كتابه «جامع الأسرار» ص ١٤٢، وفي «رسالة نقد النقود» المطبوعة منضماً إلى «جامع الأسرار» ص ٦٤٢، نقلاً عن المولى الأعظم نصير الدّين المحقّق الطوسي في «رسالة العلم».

وذكره أيضاً المولى المجلسي في «بحار الأنوار» ج ٦٩، ص ٢٩٢. وذكره أيضاً في المحقّق الميردامادي في «الرواشح» ص ١٣٣، وذكره أيضاً صدر المتألّهين في تفسيره ج ١، ص ٤٠. وذكره الفيض أيضاً في «علم اليقين» ج ص ٧٣.

فلكلّ حول الحديث المذكور بيان فراجع، وأمّا تمام الحديث على في «جامع الأسرار» كما يلي:

«هل سُمّي عالماً وقادراً إلّا أنّه وَهَب العلم للعلماء والقدرة للقارين؟ وكلُّ ما مَيَّزتموه في أوهامكم في أدقّ معانيكم (معانيه)، فهو مخلوقٌ مصنوعٌ مثلكم، مردود مصروفٌ إليكم، والباري تعالى واهبُ الحياة ومقدِّر الموت، ولَعَلَّ النمل الصِّغار يتوهّم أنّ لله تعالى زبانيتين كما لها، فانّها تتصوّر أنّ عدمَهُما نقصانٌ لِمَن لايكونان له، هكذا حال العقلاء فيما يصفون الله تعالى به، (وإلى الله المفزع) سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون.

وفي «الرواشح» بدل زبانيتين: زبانيين.

روى الصدوق (رض) في «التوحيد» باب ٧، الحديث ٦، ص ١٠٦، بإسناده عن ←

فهكذا شأن الخلق فيما يصفون به بآرائهم، فإنّ أوهامها حاكمة له بكلّ ما يعدّونه كمالاً في حقّهم مالم تقو عقولهم على ردّ بعض تلك الأحكام الوهميّة، ولولا رادع الشرع كقوله عليه السّلام:

تفكّروا في الخلق ولا تتفكّروا في الخالق (٧١).

← عبدالرّحمن ابن أبي نجران، قال: سألت أبا جعفر الثاني الجواد (ع)، عن التوحيد، فقلت: أتَوَهَّم شيئاً، فقال: «نعم غير معقول ولا محدود، فما وقع وهمك عليه من شيء فهو خلافه، لا يُشبهُهُ شيء، ولا تُدر له الأوهام، كيف تُدركه الأوهام وهو خلاف ما يُعقل وخلاف ما يُتصوَّر في الأوهام، إنّما يُتوهَّم شيء غيرُ معقول ولا محدود».

وقال الصادق (ع): من زعم أنّه يعرف الله بتوهّم القلوب فهو مشرك. تحف العقول ص ٣٢٨.

(٧١) قوله: تفكّروا في الخلق.

روى الشيخ الجليل الأقدم الصدوق المتوفّى ٣٨١ هـ ق، في أماليه، المجلس الخامس والستّون، الحديث ٣، ص ٣٤٠، بإسناده عن مولانا الصّادق (ع)، قال: إيّاكم والتفكّر في الله، فإنّ التفكّر في الله لايزيد إلّا تيهاً إنّ الله عزّ وجلّ لاتدركه الأبصار ولا يوصف بمقدار.

وعنه في بحار الأنوار ج ٣، ص ٢٥٩، الحديث ٤.

وأخرج جلال الدّين السيوطي المتوفّى ٩١١ هـ ق، في تفسيره «الدّر المنثور» في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿وأنّ الى ربّك المنتهىٰ﴾ الآية ٤٢، ج ٧، ص ٦٦٣، عن بعض أئمّة الكوفة، عن رسول الله (ص)، قال: «تفكّروا في خلق الله، ولا تفكّروا في الله».

وأيضاً روي عن ابن عباس قال: دخل علينا رسول الله (ص) ونحن في المسجد حلق حلق، فقال لنا: فيم أنتم؟ قلنا: نتفكّر في الشمس كيف طلعت، وكيف غربت؟ قال: «أحسنتم كونوا هكذا تفكّروا في المخلوق ولا تفكّروا في الخالق، الحديث.

وعنه المجلسي في البحار ج ٥٧، ص ٣٤٨، الحديث ٤٣ و ٤٤.

وروى الكليني في أُصول الكافي ج ١، باب النهي عن الكلام في الكيفيّة، ص ٩٢ ـ ٩٣، الحديث ١، بإسناده عن أبي بصير قال: قال الباقر (ع):

تكلّموا في خلق الله ولا تتكلّموا في الله، فإنّ الكلام في الله لايزاد صاحبه إلّا تحيّراً.

والحديث ٢، بإسناده عن سليمان بن خالد قال، قال الصادق (ع): إنّ الله عزّ وجلّ ←

لصرّحوا بكثير من تلك الأحكام في حقّه سبحانه وتعالى عمّا يصفون.

ويحتمل أن يكون المراد: تنزيهه تعالى عن بلوغ العقول والأوهام تمام الثناء الحسن عليه وإحصانه، أي أنّ العبد كان كلّما بلغ مرتبة من مراتب المدح والثناء كان ورائها أطوار من استحقاق الثناء والتعظيم أعلى، كما أشار إليه سيّد المرسلين صلّى الله عليه وآله بقوله:

«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(٧٢).

← يقول: ﴿وأنّ إلى ربّك المنتهى﴾ [سورة النجم: ٤٢]. فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا.

وفي الحديث الخامس: قال الصادق (ص):

من نظر في الله كيف هو؟ هلك.

وفي الحديث السابع، بإسناده عن محمّد بن مسلم، عن الباقر (ع) قال:

إيّاكم والتفكّر في الله ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه.

وفي (الجامع الصغير) للسيوطي ج ١، ص ٥١٤، الأحاديث ٣٣٤٥ ـ ٣٣٤٨، عن النبيّ (ص):

تفكّروا في كلّ شيء ولا تفكّروا في ذات الله تعالى.

تفكّروا في الخلق ولا تفكّروا في الخالق، فإنّكم لاتقدُرون قدره.

تفكروا في خلق الله، ولا تفكّروا في الله فتهلكوا.

تفكّروا في آلاء الله ولا تفكّروا في الله.

أخرجها أيضاً في كنز العمّال ج ٣، ص ١٠٦، الأحاديث ٤ ـ ٨ و ٥٧، فراجع.

(٧٢) قوله: لا أحصي ثناء عليك.

رواه ثقة الإسلام الكليني في الفروع من الكافي ج ٣، ص ٣٢٤، الحديث ١٢، «باب السجود والتسبيح والدعاء...»، عن مولانا الباقر (ع) قال: كان رسول الله (ص) وهو ساجد باك يقول:

«سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي، أبوء إليك بالنعم وأعترف لك بالذّنب العظيم، عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فاغفر لي إنّه لايغفر الذنب العظيم إلّا أنت، أعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ برحمتك من نقمتك، وأعوذ بك

←

وفي تخصيصه عليه السّلام: القائلين، دون المادحين بالذّكر نوع لطف، فإنّ القائل لمّا كان أعمّ من المادح، وكان سلب العامّ مستلزماً لسلب الخاصّ من غير عكس كان ذكر القائلين أبلغ في التنزيه، إذ التقدير: لا واحد من القائلين يبالغ مدحه الله سبحانه.

(الإنسان لايتمكّن حصر نعم الله تعالى)

قوله: «ولا يحصي نعماءه العادّون».

أقول: المراد أنّ جزئيّات نعم الله وأفرادها لايحيط بها حصر الإنسان وعدّة لكثرتها، وبيان هذا الحكم بالنّقل والعقل: أمّا النقل فقوله تعالى:

﴿وإن تعدّوا نعمت الله لاتحصوها﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤].

وهذه الآية هي منشأ هذا الحكم ومصدره.

وأمّا العقل، فلأنّ نعم الله تعالى على العبد، منها ظاهرة، ومنها باطنة، كما قال تعالى:

﴿واسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة﴾ [سورة لقمان: ٢٠].

ويكفينا في صدق هذا الحكم، التّنبيه على بعض جزئيّات نعم الله تعالى على العبد، فنقول: إنّ من جملة نعمه تعالى على الإنسان أن أكرمه بملائكته وجعله مسجوداً لهم ومخدوماً، وجعلهم في ذلك على مراتب، فلنذكر أقربهم إليه وأخصّهم به، وهم الملائكة الّذين يتولّون إصلاح بدنه والقيام بمهمّاته وحوائجه وإن كانوا في ذلك أيضاً على مراتب، فجعل سبحانه لهم رئيساً هوله كالوزير النّاصح المشفق، من شأنه تمييز الأصلح والأنفع له والأمر به، وجعل بين يدي ذلك الوزير ملكاً آخر هو كالحاجب له والمتصرّف بين يديه، من شأنه تمييز صداقة الأصدقاء للملك من عداوة الأعداء له، وجعل لذلك الحاجب ملكاً خازناً يضبط عنه ما يتعرّفه من الأمور ليطالعها الوزير

← منك لا أبلغ مدحك والثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، أستغفرك وأتوب إليك».

وروى مثله مع تفاوت يسير، عن مولانا الصادق (ع)، ليُذكر في سجدة صلاة أُقيمت يوم الجمعة، ذكره الشيخ الطايفة الطوسي في «مصباح المتهجّد» ص ٣١٥، «باب ما جاء في فضل يوم الجمعة... ٣٥/٤٢٣»، وراجع في هذا الدعاء تعليقتنا الرقم ٢٧.

عند الحاجة، ثمّ جعل بين يديه ملكين آخرين: أحدهما ملك الغضب وهو كصاحب الشرطة موكّل بالخصومات والغلبة والبطش والإنتقام، والثاني ملك اللذّة والمتولّي لمشتهيات الإنسان بالطلب والأمر باستحضار، وبين يديه ملائكة اخرى تسعى في تحصيل ما يأمر به ويطلبه، ثمّ جعل سبحانه وراء هؤلاء سبعة أخرى من الملائكة دأبهم إصلاح غذاء الإنسان، فالأوّل موكّل بجذب الغذاء إلى داخل المعدّة إذ الغذاء لايدخل بنفسه، فإنّ الإنسان لو وضع اللقمة في فيه ولم يكن لها جاذب لم تدخل، والثاني موكّل بحفظه في المعدة إلى تمام نضجه وحصول الغرض منه، والثالث موكّل بطبخه وتنضيجه، والرّابع موكّل بتفريق صفوته وخلاصته في البدن سدّاً لبدل ما يتحلّل منه، والخامس موكّل بالزّيادة في أقطار الجسم على التناسب الطّبيعي بما يوصله إليه الرّابع فهما كالباني والمناول، والسّادس موكّل بفصل صورة الدّم من الغذاء، والسّابع الّذي يتولّى دفع الفضلة الغير المنتفع بها عن المعدة.

ثمّ وكّل تعالى خمسة أخرى في خدمته شأنهم أن يوردوا عليه الأخبار من خارج، وجعل لكلّ واحد منهم طريقاً خاصّاً وفعلاً خاصّاً به، وجعل لهم رئيساً يبعثهم ويرجعون إليه بما عملوه، وجعل لذلك الرئيس خازناً كاتباً يضبط عنه ما يصل إليه من تلك الأخبار، ثمّ جعل بين هذا الخازن وبين الخازن الأوّل ملكاً قويّاً على التصرف والحركة سريع الإنتقال بحيث ينتقل في اللحظة الواحدة من المشرق إلى المغرب ومن تخوم الأرض إلى السّماء العليا قادراً على التصرّفات العجيبة، وجعله مؤتمراً للوزير تارة وللحاجب أخرى، وهو موكّل بتفتيش الخزانتين ومراجعة الخازنين بإذن الوزير وواسطة الحاجب إذا أراد استعلام أمر من تلك الأمور، فهذه هي الملائكة الّتي خصّ الله تعالى بها بدنه، وجعلها أقرب الملائكة المتصرّفين في خدمته إليه.

ثمّ إنّ وراء هؤلاء أطواراً أُخَر من الملائكة الأرضيّة كالملائكة الموكّلين بأنواع الحيوانات الّتي ينتفع بها الإنسان وبها تكون مسخّرة له، وأنواع النبات والمعادن والعناصر الأربعة والملائكة السّماويّة الّتي لايعلم عددهم إلّا الله سبحانه وتعالى كما قال:

﴿وما يعلم جنود ربّك إلّا هو﴾ [سورة المدثّر: ٣٣].

فإنّ كلّ واحد منها موكّل بفعل خاصّ وله مقام خاصّ لا يتعدّاه ولا يتجاوزه كما قال تعالى حكاية عنهم:

﴿وما منّا إلّا له مقام معلوم﴾ [سورة الصّافات: ١٦٤].

وهم بأسرهم متحرّكون بمصالح الإنسان ومنافعه من أوّل حياته إلى حين وفاته بإذن المدبّر الحكيم، دع ما سوى الملائكة من ساير الموجودات في هذا العالم المشتملة على منافعه وما أفاض عليه من القوّة العقليّة الّتي هي سبب الخيرات الباقية والنعم الدائمة الّتي لاتنقطع موادّها ولا يتناهى تعدادها فإنّ كلّ ذلك في الحقيقة نعم إلهيّة ربانيّة للعبد بحيث لو اختل شيء منها لاختلّت منفعته من تلك الجهة، ومعلوم أنّه لو قطع وقته أجمع بالنظر إلى آثار رحمة الله تعالى في نوع من هذه النعم لانتهى دونها فكره وقصر عنها إحصاؤه وحصره، وهو مع ذلك كلّه غافل عن شكر الله، جاهل بمعرفة الله، مصرّ على معصية الله، فحقّ أن يقول سبحانه وتعالى بعد تنبيه له على ضرب نعمه والإمتنان بها عليه:

﴿وان تعدّوا نعمت الله لا تُحصوها، إنَّ الإنسان لظلوم كفّار﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤].

ظلوم لنفسه بمعصية الله معتاد للكفر بآلاءِ الله.

﴿قُتل الإنسان ما أكفره﴾ [سورة عبس: ١٧].

﴿إنّ الإنسان لكفور مبين﴾ [سورة الزّخرف: ١٥].

فسبحان الّذي لاتحصى نعماؤه ولا تستقصي آلاؤه.

وغاية هذا الحكم تنبيه الغافلين من مراقد الطبيعة على لزوم شكر الله سبحانه، والإعتراف بنعمه المستلزم لدوام إخطاره بالبال.

(في أنّ شكر النعمة نعمة منه تعالىٰ)

قوله: ولا يؤدّي حقّه المجتهدون.

أقول: هذا الحكم ظاهر الصدق من وجهين:

أحدهما، أنّه لمّا كان أداء حقّ النعمة هو مقابلة الإحسان بجزاء مثله، وثبت في الكلمة السّابقة أنّ نعم الله سبحانه لاتحصى، لزم من ذلك أنّه لايمكن مقابلتها بمثل.

الثّاني، أنّ كلّ ما نتعاطاه من أفعالنا الإختياريّة مستنداً إلى جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وساير أسباب حركاتنا، وهي بأسرها مستندة إلى جوده ومستفادة من نعمته.

وكذلك ما يصدر عنّا من الشكر والحمد وسائر العبادات نعمة منه أفتقابل (فتقابل) نعمة بنعمة، وروى أنّ هذا الخاطر خطر لداود وكذلك لموسىٰ عليهما السّلام فقال:

يا ربّ كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلّا بنعمة ثانية من نعمك.

وفي رواية أخرى:

وشكر ذلك نعمة أخرى توجب عليّ الشكر لك فأوحى الله تعالى إليه: إذا عرفت هذا فقد شكرتني وفي خبر:

إذا عرفت أن النعم منّي رضيت منك بذلك شكراً(٧٣).

---

(٧٣) قوله: رضيت منك بذلك شكراً.

رواه الراوندي في كتابه قصص الأنبياء في ذكر موسى بن عمران (ع)، الفصل الخامس، الحديث ١٧٨، ص ١٦١، بإسناده عن الصادق (ع)، قال: أوحى الله تعالى إلى موسى (ع): يا موسى اشكرني حقّ شكري، فقال: يارب كيف أشكرك حقّ شكرك، وليس من شكر أشكرك به إلّا وأنت أنعمت به عليّ؟ فقال: يا موسى شكرتني حقّ شكري حين علمت أنّ ذلك منّي.

وعنه البحار ج ٧١، ص ٥١، الحديث ٧٥، و ج ١٣، ص ٣٥١، الحديث ٤١.

فأمّا ما يقال في العرف: من أنّ فلاناً مؤدّ لحقّ الله تعالى، فليس المراد منه جزاء النعمة، بل لمّا كانت المطلوبات لله تعالى من التكاليف الشرعيّة والعقليّة تسمّي حقوقاً له لاجرم سمّي المجتهد في الإمتثال مؤدّياً لحقّ الله، وذلك الأداء في الحقيقة من أعظم نعمه تعالى على عبده، إذ كان الإمتثال وسائر أسباب السلوك الموصل إلى الله تعالى كلّها مستندة إلى جوده وعنايته، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿يمنّون عليك أن أسلموا قُل لاتمنّوا عليّ إسلامَكُم بَل الله يمنّ عَلَيكم أن هداكُم للإيمان إن كُنتُم صادِقين﴾ [سورة الحجرات: ١٧].

وما كان في الحقيقة نعمة لله لايكون أداء لنعمة الله وجزاء لها وإن أطلق ذلك في العرف إذ كان من شأن الحقّ المفهوم المتعارف بين الخلق استلزامه وجوب الجزاء والأداء ليسارعوا إلى الإتيان به رغبة ورهبة فيحصل المقصود من التكليف حتّى لولم يعتقدوا أنّه حقّ لله بل هو مجرّد نفع خالص لهم لم يهتمّوا به غاية الإهتمام إذ كانت غايته غير متصوّرة لهم كما هي، وقلّما تهتمّ النّفوس بأمر لاتتصوّر غايته ومنفعته خصوصاً مع المشقّة اللّازمة في تحمّله إلّا بباعث قاهر من خارج.

قوله: **الّذي لايدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن.**

(في انّ الواجب ليس بمركب وما ليس بمركب ليس بمدرك الحقيقة)

أقول: إسناد الغوص ههنا إلى الفطن على سبيل الاستعارة.

إذ الحقيقة إسناده إلى الحيوان بالنسبة إلى الماء مستلزم لتشبيه المعقولات بالماء، ووجه الإستعارة ههنا أنّ صفات الجلال ونعوت الكمال لمّا كانت في عدم تناهيها والوقوف على حقايقها وأغوارها نسبة (تشبه) البحر الخضم الّذي لايصل السائح له إلى ساحل، ولا ينتهي الغائص فيه إلى قرار، وكان السائح لذلك البحر والخائض في تياره هي الفطن الثاقبة، لاجرم كانت الفطنة شبيهة بالغائص في البحر فأسند الغوص إليها، وفي معناه الغوص في الفكر والغوص في النوم، ويقرب منه إسناد الإدراك إلى بعد الهمم إذ كان الإدراك حقيقة في لحوق جسم لجسم آخر.

وإضافة الغوص إلى الفطن، والبعد إلى الهمم، إضافة لمعنى الصّفة بلفظ المصدر إلى

الموصوف، والتقدير: لا تناله الفطن الغائصة، ولا تدركه الهمم البعيدة، ووجه الحسن في هذه الإضافة وتقديم الصفة: أنّ المقصود لمّا كان هو المبالغة في عدم إصابة ذاته تعالى بالفطنة من حيث هي ذات غوص، وبالهمّة من حيث هي بعيدة، كانت تلك الحيثيّة مقصودة بالقصد الأوّل، وقد بيّنا أنّ البلاغة تقتضي تقديم الأهمّ والمقصو الأوّل على ماليس كذلك، وبرهان هذا المطلوب ظاهر، فإنّ حقيقته تعالى لمّا كانت بريّة عن جهات التركيبات، عريّة عن اختلاف الجهات، منزهة عن تكثّر المتكثّرات، وكانت الأشياء إنّما تعلم بما هي من جهة حدودها المؤلّفة من أجزائها، فإذن صدق أنّ واجب الوجود ليس بمركّب وما ليس بمركّب ليس بمدرَك الحقيقة، وصدق أنّ واجب الوجود ليس بمدرك الحقيقة فلا تدركه همّة وإن بعدت، ولا تناله فطنة وإن اشتدّت، فكلّ سائح في بحار جلاله غريق، فكلّ مدّع للوصول فبأنوار كبريائه حريق، لا إله إلّا هو سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً.

قوله: الّذي ليس لصفته حدّ محدود ولا نعت موجود.

أقول: المراد ليس لمطلق ما تعتبره عقولنا له من الصّفات السلبيّة والإضافيّة نهاية معقولة تقف عندها فيكون حدّاً له، وليس لمطلق ما يوصف به أيضاً وصف موجود يجمعه فيكون نعتاً له ومنحصراً فيه.

قال أبو الحسن الكَيذَريّ رحمه الله (٧٤):

---

(٧٤) قوله: أبو الحسن الكَيْذَريّ.

هو: أبو الحسن (أبو الحسين) قطب الدّين محمّد بن الحسين بن الحسن، الكَيْذَريّ (الكيذري) البيهقي النيشابوري، كان من علماء القرن السادس الهجري، المنقول بعض أقواله في الفقه في الكتب الفقهيّة كـ«المختلف» و«المسالك» و«كشف اللثام» وغيرها.

وله مصنّفات، منها: «حدائق الحقائق في تفسير دقائق أحسن الخلائق» (في شرح نهج البلاغة)، و«الإصباح» (في فقه الإماميّة)، وأنوار العقول من أشعار وصيّ الرسول (ص) وغيرها.

وقد أكثر المجلسي (طاب ثراه) في البحار النقل من شرحه على نهج البلاغة وبعض

←

ويمكن أن يُأوّل قوله: حدّ محدود، على ما يُأوّل به كلام العرب: ولا يرى الضبّ بها ينحجر، أي ليس بها ضبّ فينحجر حتّى يكون المراد أنّه ليس له صفة فتحدّ، إذ هو تعالى واحد من كلّ وجه، منزّه عن الكثرة بوجه مّا فيمتنع أن يكون له صفة تزيد على ذاته كما في سائر الممكنات.

وصفاته المعلومة ليست من ذلك في شيء، إنّما هي نِسَب وإضافات لا يوجب وصفه بها كثرة في ذاته.

قال: وممّا يؤكّد هذا التّأويل قوله بعد ذلك:

فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، وهذا التّأويل حسن وهو راجع إلى ما ذكرناه في المعنى، وأمّا وصفه الحدّ بكونه محدوداً فللمبالغة على طريقة قولهم: شعر شاعر، وعلى هذا التأويل يكون قوله: ولا نعت موجود، سلباً للنعت عن ذاته سبحانه، إذ التقدير ليس له صفة تحدّ ولا نعت، وقيل: معنى قوله: ليس لصفته حدّ، أي ليس لها غاية بالنسبة إلى متعلّقاتها كالعلم بالنسبة إلى المعلومات، والقدرة إلى المقدورات.

قوله: ولا وقت معدود ولا أجل ممدود.

أقول: وصف الوقت بكونه معدوداً لقوله تعالى:

﴿في أيّام معدودات﴾ [سورة البقرة: ٢٠٣].

وكقوله:

﴿وما نؤخّره إلّا لأجل معدود﴾ [سورة هود: ١٠٤].

وهو المعلوم الداخل في الإحصاء والعدّ، وذلك أنّ العدّ لا يتعلّق بالوقت الواحد من حيث هو واحد، فإنه من تلك الحيثيّة ليس معدوداً بل مبدأ للعدد، وإنّما يتعلّق به من

← نظراته الفقهيّة.

راجع «الغدير» ج ٤، ص ١٨٧، و«رجال السيّد بحر العلوم» ج ٣، ص ٢٤٠، و«مصادر نهج البلاغة» ج ١، ص ٢٠٩، و«رياض العلماء» ج ٥، ص ٤٥١، و«فوائد الرضويّة» ص ٤٩٣، و«روضات الجنّات» ص ٢٩٥، ج ٦، وريحانة الأدب ج ٤، ص ٤٧٣.

حيث إنّه داخل في الأوقات الكثيرة الموجودة في الزّمان، إمّا بالفرض أو بالفعل الّتي يلحق جملتها عند اعتبار التفصيل كونها معدودة إذ يقال: هذا الفرد معدود في هذه الجملة، أي داخل في عدّها ومراده في هذين الحكمين: نفي نسبة ذاته وما يلحقها إلى الكون في الزّمان، وأن يكون ذات أجل ينتهي إليه فينقطع وجودها بانتهائه، وبيان ذلك من وجهين:

أحدهما، أنّ الزّمان من لواحق الحركة الّتي هي من لواحق الجسم، فلمّا كان الباري سبحانه منزّهاً عن الجسميّة استحال أن يكون في زمان.

الثّاني أنّه تعالى إن أوجد الزّمان وهو في الزّمان لزم كون الزمان متقدّماً على نفسه وإن أوجده بدون أن يكون فيه كان غنيّاً في وجوده عنه فهو المطلوب فإذن صدق هذين السلبَين في حقّه معلوم، وقد حصل في هذه القرائن الأربع السجع المتوازي مع نوع من التجنيس.

قوله: **الّذي فطر الخلائق بقدرته ونشر الرّياح برحمته ووتد بالصخور ميدان أرضه.**

(في بيان معنى الفطر والإنفطار)

أقول: لمّا قدّم الصفات السلبيّة شرع في الصفات الثبوتيّة وهذه الاعتبارات الثلاثة موجودة في القرآن الكريم، أمّا الأوّل فقوله تعالى:

﴿الّذي فطركم أوّل مرّة﴾ [سورة الإسراء: ٥١].

وأمّا الثاني فقوله تعالى:

﴿وهو الّذي أرسل الرّياح بُشرا بين يدي رحمته﴾ [سورة الفرقان: ٤٨].

وأمّا الثالث فقوله تعالى:

﴿وألقىٰ في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ [سورة لقمان: ١٠].

وقوله:

﴿ألم نجعل الأرض مهاداً ۞ والجبال أوتاداً﴾ [سورة النبأ: ٦ ـ ٧].

أمّا المراد بقوله: فطر الخلائق بقدرته، فاعتباره من حيث استناد المخلوقات إلى قدرته ووجودها (عنها)، ولمّا كانت حقيقة الفطر الشقّ في الأجسام كانت نسبته ههنا إلى الخلق استعارة.

وللإمام فخر الدّين الرّازي (٧٥) في بيان الاستعادة في أمثال هذا الموضع بحث لطيف، قال:

«وذلك أنّ المخلوق (٧٦) قبل دخوله في الوجود كان معدوماً محضاً، والعقل يتصوّر من العدم ظلمة متّصلة لا انفراج فيها ولا شقّ، فإذا أخرجه الموجد المبدع من العدم إلى الوجود فكأنّه بحسب التخيّل والتوهّم شقّ ذلك العدم وفطره وأخرج ذلك الموجود منه».

قلت: إلّا أنّ ذلك الشقّ والفطر على هذا التقدير لايكون للموجود المخرج بل للعدم الّذي خرج هذا الموجود منه، اَللّهم إلّا على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه حتّى يكون التقدير الّذي فطر عدم الخلائق، وهو استعمال شائع في العرف والعربيّة كثيراً، وحسنه بين النّاس ظاهر، ومثله:

---

(٧٥) قوله: فخر الدّين الرّازي.

الرّجل هو محمّد بن عمر بن حسين بن حسن بن علي، المعروف بالإمام فخر الرّازي الخطيب، ويقال له: ابن الخطيب الرّي أيضاً، وكان اشعريّ الكلام وشافعي الفقه.

له كتب كثيرة، منها: مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير، ولد في مدينة ري في اليوم الخامس والعشرين من شهر المبارك رمضان سنة ٥٤٤ أو سنة ٥٤٣ هـ، وتوفّي في مدينة هرات في اليوم الإثنين، الأوّل من شهر شوّال المكرّم (يوم الفطر) سنة ٦٠٦هـ ودفن فيها.

(٧٦) قوله: قال: وذلك أنّ المخلوق.

ذكره الإمام فخر الدين الرّازي في تفسيره الكبير ج ١٣، ص ٨٨، في سورة الأنعام الآية:

﴿إنّ الله فالق الحبّ والنّوىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥].

مع تفاوت يسير في اللّفظ.

﴿فالق الحبّ والنوىٰ﴾ [سورة الأنعام: ٩٥].

على قول بعض المفسّرين كما سنبيّنه.

وقال ابن الأنباري(٧٧):

لمّا كان أصل الفطر شقّ الشيء عند ابتدائه، فقوله: فطر الخلائق، أي خلقهم

---

(٧٧) قوله: ابن الأنباري.

هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمّد بن بشّار البغدادي الملقب بابن الأنباري ويقال له أحياناً: ابن الأنباري الأوّل لكي لايشتبه مع كمال‌الدّين أبو البركات عبدالرحمن بن محمّد المعروف بابن الأنباري الّذي يقال له أحياناً: ابن الأنباري الثاني المتوفّى ٥٧٧.

كانت ولادته سنة مائتين وإحدى وسبعين، وتوفّي سنة ثلاثمائة وثمان وعشرين، ودفن في داره.

كان من أكابر الأدباء والنحويّين واللغويّين، قيل: إنّه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً للقرآن الكريم بأسانيدها، وثلاثمائة ألف بين شاهداً في القرآن المجيد، وكان يضرب به المثل في حضور البديهة وسرعة الجواب.

وأملى كتباً كثيرة، منها: «غريب الحديث»، و«شرح المفضّلات»، وغيرهما، وله كتاب في القرآن المعروف بـ«المشمل» نقل عنه المجلسي رحمة الله عليه في بحار الأنوار كثيراً.

طبقته في الحديث:

روى عنه محمد بن التمّار، وأبو العباس، وعلي بن مالك النحوي، والطالقاني، والحسن ابن علي النحوي.

وروى عن: أبيه، وحميد بن محمّد بن حميد، ومحمّد بن يونس، وأحمد بن يحيى، وأحمد ابن عبيد، ومحمّد بن علي بن عمر، ومحمّد بن أحمد الطائي.

هذا ما وجدته في أسناد أحاديث الشيعة الإماميّة.

وهو روى عن عدّة أخرى أيضاً كما روى عنه الدارقطني في سننه كثيراً، وان أردت معرفة من رووا عنه ومن روى عنهم من السُّنّة فراجع أسناد سنن الدارقطني.

راجع في ترجمته: «الفهرست للنديم» ص ٨٢، «وشذرات الذهب» ج ٢، ص ٣١٥، و«روضات الجنات» ج ٧، ص ٣٠٩، و«الكنىٰ والألقاب» ج ١، ص ٢١٣، و«ريحانة الأدب» ج ٧، ص ٣٩٥.

وأنشأهم بالتركيب والتأليف الّذي سبيله أن يحصل فيه الشقّ والتأليف عند ضمّ بعض الأشياء إلى بعض، ثمّ إنّ الفطر كما يكون شقّ إصلاح كقوله تعالى:

﴿فاطر السّموات والأرض﴾ [سورة الأنعام: ١٤].

كذلك يكون شقّ إفساد كقوله تعالى:

﴿إذا السّماء انفطرت﴾ [سورة الانفطار: ١].

﴿هل ترىٰ من فطور﴾ [سورة الملك: ٣].

وأمّا قوله: ونشر الرّياح برحمته، فبيانه أنّ نشر الرّياح وبسطها لمّا كان سبباً عظيماً من أسباب بقاء أنواع الحيوان والنّبات واستعدادات الأمزجة للصحّة والنموّ وغيرها حتّى قال كثير من الأطبّاء: إنّها تستحيل روحاً حيوانيّاً، وكانت عناية الله سبحانه وتعالى وعموم رحمته شاملة لهذا العالم وهي مستند كلّ موجود لاجرم كان نشرها برحمته، ومن أظهر آثار الرّحمة الإلهيّة بنشر الرّياح حملها للسحاب المترع بالماء وإثارتها على وفق الحكمة ليصيب الأرض الميتة فينبت بها الزرع ويملأ الضريع كما قال سبحانه:

﴿ومن يرسل الرياح بشرىٰ بين يدي رحمته﴾ [سورة النمل: ٦٣].

وقال:

﴿يرسل الرّياح مبشرات وليذيقكم من رحمته﴾ [سورة الرّوم: ٤٦].

وقال:

﴿وأرسلنا الرّياح لواقح فأنزلنا من السّماء ماءً فأسقيناكموه﴾ [سورة الحجر: ٢٢].

والمراد تنبيه الغافلين على ضروب نعم الله بذكر هذه النعمة الجليلة ليستديموها بدوام شكره والمواظبة على طاعته، كما قال تعالى:

﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ [سورة البقرة: ٢٣١].

وقوله:

﴿ثمّ تذكروا نعمة ربّكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الّذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين﴾ [سورة الزخرف: ١٣].

قال بعض الفضلاء: إنّ بعض العرب يستعمل الرّيح في العذاب، والرّياح في الرّحمة، وكذلك نزل القرآن الكريم قال تعالى:

﴿بريح صرصر﴾ [سورة الحاقة: ٦].

وقال: ﴿الريح العقيم﴾ [سورة الذاريات: ٤١].

وقال: يرسل الرّياح مبشرات، والرياح لواقع، وأمثاله.

قوله: «ووتد بالصخور ميدان أرضه».

(في بيان المراد من أوتاد الأرض والمقصود من الوتد)

أقول: المراد نسبة نظام الأرض إلى قدرته سبحانه، وههنا بحثان:

البحث الأوّل في أنّ قول القائل: وتدت كذا بكذا معناه جعلته وتداً له، والموتود ههنا في الحقيقة إنّما هو الأرض، وقد جعل الموتود هنا هو ميدان الأرض وهو عرض من الأعراض لايتصوّر جعل الجبل وتداً له، إلّا أنّا نقول: لمّا كان الميدان، علّة حاملة على إيجاد الجبال وإيتاد الأرض بها كان الإهتمام به أشدّ، فلذلك قدّمه وأضافه إضافة الصفة إلى الموصوف، وإن كان التقدير: ووتد بالصخور أرضه المائدة.

البحث الثّاني، أنّ تعليل وجود الجبال بميدان الأرض ورد ههنا وفي القرآن الكريم في مواضع: كقوله تعالى:

﴿وألقىٰ في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ [النحل: ١٥].

وكقوله: ﴿والجبال أوتاداً﴾ [النبأ: ٧].

ولابدّ من البحث عن وجه هذا التعليل، وفيه خمسة أوجه:

الوجه الأوّل، قال المفسّرون[٧٨] في معنى هذه الآيات: إنّ السفينة إذا ألقيت على

---

(٧٨) قوله: قال المفسّرون.

وجه الماء فانّها تميل من جانب إلى جان وتتحرّك، فإذا وضعت الأجرام الثقيلة فيها استقرّت على وجه الماء وسكنت، قالوا فكذلك لمّا خلق الله تعالى الأرض على وجه الماء اضطربت ومادت، فخلق الله عليها الجبال ووتدها بها فاستقرّت على وجه الماء بسبب ثقل الجبال.

قال الإمام فخر الدّين: ويتوجّه على هذا الكلام أن يقال: لاشكّ أنّ الأرض أثقل من الماء، والأثقل يغوص فيه ولا يبقى طافياً عليه، وإذا لم يبق كذلك امتنع أن يقال: إنّها تميد وتميل بخلاف السفينة إذ كانت مركّبة من الأخشاب، وداخلها مجوّف مملوء من الهواء فلذلك تبقى طافية على الماء فلا جرم تميل وتضطرب إلى أن ترسي بالأجرام الثقيلة فإذن الفرق ظاهر.

الوجه الثّاني ما ذكره هو قال: إنّه قد ثبت بالدلائل اليقينيّة أنّ الأرض كرة، وثبت أيضاً أنّ هذه الجبّال على سطح الأرض جارية مجرى خشونات وتضريسات حاصلة على وجه الكرة، فإذا ثبت هذا فلو فرضنا أن هذه الخشونات ما كانت حاصلة بل كانت الأرض كرة حقيقيّة خالية عن الخشونات والتضريسات لصارت بحيث تتحرّك بالاستدارة بأدنى سبب، لأنّ الجرم البسيط المستدير يجب كونه متحرّكاً على نفسه وإن لم يجب ذلك عقلاً إلّا أنّها تصير بأدنى سبب تتحرّك على هذا الوجه، أمّا إذا حصل على سطح كرة الأرض هذه الجبال فكانت كالخشونات الواقعة على وجه الكرة، فكلّ واحد من هذه الجبال إنّما يتوجّه بطبعه إلى مركز العالم وتوجّه ذلك الجبل نحو مركز العالم بثقله العظيم وقوّته الشديدة يكون جارياً مجرى الوتد الّذي يمنع كرة الأرض من الاستدارة وكان تخليق هذه الجبال على الأرض كالأوتاد المعدودة في الكرة المانعة من الحركة المستديرة.

الوجه الثالث، ان نقول: لما كانت فائدة الوتد أن يحفظ الموتود في بعض المواضع

← راجع فيما قال به في الوجه الأوّل والوجه الثاني «تفسير الكبير» للإمام الفخر الرّازي ج ٢٠، ص ٨ و ٩ في سورة النحل الآية:

﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ [سورة النحل: ١٥].

عن الحركة والاضطراب حتّى يكون قارّاً ساكناً، وكان من لوازم ذلك السكون في بعض الإشياء صحّة الاستقرار على ذلك الشيء والتصرّف عليه وكان من فائدة وجود الجبال والتّضريسات الموجودة في وجه الأرض أن لاتكون مغمورة بالماء ليحصل للحيوان الإستقرار والتصرّف عليها، لا جرم كان بين الأوتاد والجبال الخارجة من الماء في الأرض اشتراك في كونهما مستلزمَين لصحّة الاستقرار مانعَين من عدمه، لا جرم حسنت استعارة نسبة الإيتاد إلى الصخور والجبال.

وأمّا إشعاره بالميدان، فلأن الحيوان كما يكون صادقاً عليه أنّه غير مستقرّ على الأرض بسبب انغمارها في الماء لو لم توجد الجبال، كذلك يصدق على الأرض انّها غير مستقرّة تحته، ومضطربة بالنّسبة إليه، فثبت حينئذٍ أنّه لولا وجود الجبّال في سطح الأرض لكانت مضطربة ومائدة بالنّسبة إلى الحيوان لعدم تمكّنه من الإستقرار عليها.

الوجه الرّابع، قال بعض العلماء: إنّه يحتمل أن تكون الإشارة بالصخور إلى الأنبياء والأولياء والعلماء، وبالأرض إلى الدّنيا.

وأمّا وجه التّجوّز بالصخور عن الأنبياء والأولياء والعلماء، فلأنّ الصخور والجبال لمّا كانت على غاية من الثبات والإستقرار، مانعة لما يكون تحتها من الحركة والإضطراب، عاصمة لما يلتجئ إليها من الحيوان عمّا يوجب له الهرب، فيسكن بذلك اضطرابُه وقَلقَلتُه، أشبهت الأوتاد من بعض هذه الجهات.

ثمّ لمّا كانت الأنبياء والعلماء هم السبب في انتظام أمور الدنيا وعدم اضطراب أحوال أهلها كانوا كالأوتاد للأرض، فلا جرم صحّت استعارة لفظ الصخور لهم، ولذلك يحسن في العرف أن يقال: فلان جبل منيع يأوى إليه كلّ ملهوف، إذا كان يرجع إليه في المهمّات والحوائج، والعلماء أوتاد الله في الأرض.

الوجه الخامس، أن المقصود من جعل الجبال كالأوتاد في الأرض أن يهتدي بها على طرقها والمقاصد فيها، فلا تميد جهاتها المشتبهة بأهلها ولا تميل بهم فيتيهون فيها عن طرقهم ومقاصدهم، وبالله التّوفيق.

وباقي أقواله عليه السّلام إلى قوله:

ثمّ أنشأ الخلق إنشاء.

وشرحها في التوحيد والتنزيه والمعارف والتحقيق، وذلك يطول مع أنّه قد سبق في قولنا وقول غيرنا كثيراً، فترجع من هذا المكان إلى قوله: ثمّ أنشأ، ونقول ما هو المراد منه وهو هذا:

الفصل الثاني
في نسبة إيجاد العالم إلى قدرة الله تعالىٰ جملة وتفصيلاً، وفي كيفيّة ذلك وهو اقتصاص في معرض المدح

قوله: أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه إبتداءً، بلا رويّة أجالها، ولا تجربة استفادها، إلى قوله: ولا يحدّونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنّظائر.

(شرح ألفاظ الخطبة)

أقول: لم أجد لأهل اللغة فرقاً بين الإنشاء والإبتداء، وهو الإيجاد الّذي لم يسبق بمثله، إلّا أنّه يمكن أن يفرق ههنا بينهما صونا لكلامه عليه السّلام عن التّكرار بأن يقال: المفهوم من الإنشاء هو الإيجاد الّذي لم يسبق غير الموجد الموجَد إليه، والمفهوم من الابتداء هو الإيجاد الّذي لم يقع من الموجد قبل، والرّوية: الفكر، وهمامة النّفس إهتمامها بالأمور ومن روى همامة نفس، فالمراد تريد العزوم مأخوذ من الهمهمة وهي ترديد الصّوت الخفيّ، وروى أيضاً همّة نفس، والإحالة: التحويل والنقل والتّغيير والإنقلاب من حال إلى آخر، وروى أجال بالجيم، وروى أيضاً أجّل أي وقّت، والملائمة: الجمع. والغرائز: جمع غريزة وهي الطّبيعة الّتي طبع عليها الإنسان كأنّها غرّزت فيه، والسنخ الأصل، وروى أشباحها جمع شبح وهو الشّخص، والقرائن جمع قرينة، وهي مايقترن بالشّيء، والأحناء: جمع حنو، وهي الناحية، والأجواء: جمع جوّ وهو الفضاء الواسع. وفتقها: شقّها والأرجاء جمع رجاء مقصور، وهو النّاحية والسكائك جمع سكاكة كذوابة وذوائب، وهي الفضاء مابين السّماء والأرض، وكلّ

مكان خال فهو هواء وأجار أي أجرىٰ ومن روى، أحار أي أدار وجمع. وتلاطم الماء: تراد أمواجه، وضرب بعضها بعضاً. والزّخّار: مبالغة في الزاخر وهو الممتلي. ومتن كلّ شيء: ما صلب منه واشتدّ. وعصف الرّيح: شدّة جريانها. وريح زعزع: تحرّك الأشياء بقوّة وتزعزعها. والرّيح العاصفة: الشديدة كأنّها لشدّتها تكسّر الأشياء وتقصفها. وسلّطها أي جعل لها سلاطة وهي القهر. والفتيق: المنفتق. والدفيق: المندفق. والإعتقام: الشدّ والعقد. واعتقم أيضاً (الأرض) مهبّها: أي جعله خالياً لا نبت به، من قولهم: عقمت الرّحم إذا لم يقدر بها ولد، وروى بغير تاء أي جعلها عقيمة لاتلقح شجراً ولا سحاباً. والمربّ: المجمع. والعصف: الجري بشدّة وقوّة. والصفق والتصفيق: الضرب المترادّ المصوّت. وإثارة الموج: رفعه وهيّجه، وأصل البحر: الماء المتّبسع الغمر، وربّما خصّص في العرف بالمالح. وتموّج البحر: اضطرابه، وموجه: ما ارتفع منه حال هيجانه وحركته. والمخض: التحريك. السقاء: وعاء اللبن والماء أيضاً. والمائر: المتحرّك. والعباب بالضمّ: معظم الماء، وعبّ أي علا وتدفّق. والركام: الماء المتراكم. والمنفهق: الواسع. والتسوية: التعديل. والمكفوف: الممنوع من السقوط (الجوهري). والسقف اسم للسماء، وسمك البيت: سقفه، والسموك: الإرتفاع. والعمد: جمع كثرة لعمود البيت، ودعامة البيت: عموده وما يمنعه من السقوط. والدسار: كلّ شيء أدخلته في شيء لشدّة كمسمار وحبل ونحوهما. والمستطير: المنتشر. والفلك: من أسماء السماء، قيل: مأخوذ من فلكة المغزل في الإستدارة. والرّقيم: اسم للفلك أيضاً واشتقاقه من الرقم وهو الكتابة والنّقش لأنّ الكواكب به تشبه الرّقوم. والأطوار: الحالات المختلفة والأنواع المتباينة. قال الكسائي: أصل الملائك: مئالك بتقديم الهمزة من الألوك وهي الرّسالة، ثمّ قلّبت وقدّمت اللّام، وقيل: ملأك ثمّ تركت همزته لكثرة الإستعمال، فقيل: ملك فلمّا جمعوه ردّوها إليه، فقالوا ملائكة وملائك. والسأم: الملال. والسدنة: جمع سادن وهو الخازن. ومرق السّهم من الرمية إذا خرج من الجانب الأخر. والقطر: النّاحية. والركن: الجانب. وتلفع بثوبه: التحف به. والنظائر: الأمثال.

ولنرجع إلى المعنى فنقول:

أنشأ الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً. يشير إلى كيفيّة إيجاد الخلق على الجملة عن قدرة الله تعالى بعد أن ينبّه على أصل الإيجاد بقوله: فطر الخلائق بقدرته. فإنّ الباري تعالى لمّا لم يكن مسبوقاً بغيره لاجرم صدق الإنشاء منه، ولمّا لم يكن العالم موجوداً قبل وجوده لاجرم صدق ابتداؤه له.

(في بيان انّ إيجاد العالم كان بلا تفكّر ولا حركة)

قوله: بلا رويّة أجالها ولا تجربة استفادها ولا حركة أحدثها ولا همامة نفس اضطرب فيها.

أقول: لمّا كانت هذه الكيفيّات الأربع من شرائط علوم النّاس وأفعالهم الّتي لايمكن حصولها إلّا بها، أراد تنزيه الله سبحانه عن أن يكون إيجاده للعالم موقوفاً على شيء منها.

أمّا الرويّة والفكر فلمّا كانت عبارة عن حركة القوّة المفكّرة في تحصيل مبادئ المطالب والإنتقال منها إليها أو عن تلك القوّة أيضاً نفسها كان ذلك في حقّ الله تعالى محالاً لوجهين:

أحدهما انّ القوّة المفكرة من خواصّ نوع الإنسان.

الثاني أن فائدتها تحصيل المطالب المجهولة والجهل على الله محال.

وأمّا التجربة فلمّا كانت عبارة عن حكم العقل بأمر على أمر بواسطة مشاهدات متكرّرة معدّة لليقين بسبب انضمامه قياس خفيّ إليها، وهو أنّه لوكان هذا الأمر اتّفاقيّا لما كان دائماً ولا أكثريّاً، كان توقف فعل الله تعالى على استفادة الأحكام منها محالاً لوجهين:

أحدهما أنّها مركّبة من مقتضى الحسّ والعقل، وذلك أنّ الحسّ بعد مشاهدة وقوع الإسهال مثلاً عقيب شرب الدّواء مرّة ومرّة ينتزع العقل منها حكماً كلّيّاً بأنّ ذلك الدواء مسهل، ومعلوم أنّ اجتماع الحسّ والعقل من خواصّ نوع الإنسان.

الثاني انّ التجربة إنّما تفيد علماً لم يكن، فالمحتاج إلى التجربة لإستفادة العلم بها

ناقص بذاته مستكمل بها والمستكمل بالغير محتاج إليه فيكون ممكناً على ما مرّ وذلك على الله محال.

وأمّا الحركة فقد عرفت أنّها من خواصّ الأجسام، والباري سبحانه منزّه عن الجسميّة فيمتنع صدق المتحرّك عليه وإن صدق أنّه محرّك الكلّ، لأنّ المتحرّك ماقامت به الحركة، والمحرّك أعم من ذلك.

وأمّا الهمامة أو الهمّة، فلمّا كانت مأخوذة من الإهتمام، وحقيقته الميل النفساني الجازم إلى فعل الشيء مع التألّم والغمّ بسبب فقده كان ذلك في حقّ الله تعالى محالاً لوجهين:

أحدهما، أنّ الميل النفساني من خواصّ الإنسان طلباً لجلب المنفعة، والباري سبحانه منزّه عن الميول النفسانيّة وجلب المنافع.

الثاني، أنّه مستلزم للتألّم المطلوب، والتألّم على الله تعالىٰ محال، وإذ ليس إيجاده تعالىٰ للعالَم على أحد الأنحاء المذكورة، فهو إذن بمحض الإختراع والإبداع البرئ من الحاجة إلى أمر خارج ذاته المقدّسة:

﴿بديع السّمٰوات والأرض وإذا قضىٰ أمراً فإنّما يقول له كن فيكون﴾ [سورة البقرة: ١١٧].

واعلم أنّه عليه السّلام أردف كلّاً من هذه الأمور بما هو كيفيّة في وجوده، فأردف الرّويّة بالإحالة والتجربة بالإستفادة والحركة بالإحداث والهمامة بالإضطراب لتنتفي الكيفيّة بانتفاء ماهي عن ذاته المقدّسة، وبالله التوفيق.

قوله: **أجال الأشياء لأوقاتها ولاءم بين مختلفاتها، وغرّز غرائزها وألزمها أشباحها.**

أقول: لمّا نبّه على نسبة إيجاد العالم إلى الله تعالى جملة، أشار بعده إلى أنّ ترتيبه وما هو عليه من بديع الصنع والحكمة كان مفصّلاً في علمه وفق حكمته البالغة قبل إيجاده.

والمراد بقوله: أجال الأشياء لأوقاتها: الإشارة إلى ربط كلّ ذي وقت بوقته بحسب ماكتب في اللوح المحفوظ بالقلم الإلهي بحيث لايتأخّر متقدّم ولا يتقدّم متأخّر

منها، ومعنى الإجالة نقل كلّ منها إلى وقته، وتحويله من العدم والإمكان الصرف إلى مدّته المضروبة لوجوده، واللّام في لأوقاتها لام التعليل أي لأجل أوقاتها إذ كلّ وقت يستحق بحسب قدرة الله وعلمه أن يكون فيه مالا يكون في غيره، وعلى النسخة الأخرى فمعنى تأجيلها جعل أوقاتها آجالاً لها لاتتقدّم عليها ولا تتأخر عنها كما قال:

﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [سورة الأعراف: ٣٤].

ونبّه بقوله: ولأم بين مختلفاتها، على كمال قدرة الله تعالىٰ، وبيان ذلك في صورتين:

إحديها أنّ العناصر الأربعة متضادّة الكيفيّات، ثمّ إنّها إذا اجتمعت بقدرة الله تعالى وعلى وفق حكمته حتّى انكسرت صورة كلّ واحد منها بالآخرة وهو المسمّى بالتفاعل حصلت كيفيّة متوسّطة بين الأضداد متشابهة وهي المزاج فامتزاج اللطف بالكثيف على مابينهما تضادّ الكيفيّات وغاية البعد بقدرته التّامّة من أعظم الدلائل الدّالة على كمالها.

الثّانية، أنّ الملائمة بين الأرواح اللطيفة والنفوس المجرّدة الّتي لاحاجة بها في قوامها في الوجود إلى مادّة أصلاً وبين هذه الأبدان المظلمة الكثيفة واختصاص كلّ نفس ببدن منها وتدبيره واستعماله فيما يعود إليها من المصالح على النظام الأقصد والطريق الأرشد ممّا يشهد بكمال قدرته ولطيف حكمته.

وقوله: وغرّز غرائزها، إشارة إلى ركز القوى الجسمانيّة النفسانيّة فيما هي قوىً له، وخلق كلّ ذي طبيعة على خلقه ومقتضى قواه الّتي غرزت فيه من لوازمه وخواصّه مثلاً كقوّة التعجب والضحك للإنسان، وقوّة الشجاعة للأسد والجبن للأرنب، والمكر للثعلب وغير ذلك، وعبّر عن إيجادها فيها بالغرز وهو الرّكز، استعارة لما يعقل من المشابهة بينها وبين العود الّذي يركز في الأرض من جهة المبدأ ومن جهة الغاية، وذلك أنّ الله سبحانه لمّا غرّز هذه الغرائز في محالّها وأصولها وكانت الغاية من ذلك ما يحصل منها من الآثار الموافقة لمصلحة العالم أشبه ذلك غرز الإنسان العود في الأرض لغاية أن يثمر ثمرة منتفعاً بها.

وقوله: وألزمها أسناخها، إشارة إلى أنّها لاتفارق أصولها ولا يمكن زوالها عنها لأنّ اللّازم هذا شأنه، ومن روى أشباحها بالشين المعجمة فالمراد أنّ ما غرّز في الأشخاص

من اللوازم والغرائز لاتفارقها، سواء كانت تلك الغرائز من لوازم الشخص كالذكاء والفطنة بالنسبة إلى بعض النّاس والبلادة والغفلة لآخر أو من لوازم المهيّات وطباعها لوجود المهيّات في أشخاصها. هذا إن قلنا: إنّ الضمير في قوله: وألزمها عائد إلى الغرائز، أمّا ان قلنا انّه عايد إلى الأشياء كان المراد أنّ الله سبحانه لمّا أجال الأشياء لأوقاتها ولائم بين مختلفاتها وغرّز غرائزها في علمه وقضائه ألزمها بعد كونه كلّية أشخاصها الجزئيّة الّتي وجدت فيها.

لايقال: إنّ لوازم المهيّات مقتضى المهيّات فكيف يمكن نسبة إلزامها لأصولها إلى قدرة الله تعالىٰ.

لأنّا نقول: المستند إلى مهيّة الملزوم ليس إلّا مهيّة لازمة، وامّا وجوده له فبقدرة الله تعالىٰ. فيكون معنى إلزامها لأصولها إيجادها في أصولها تبعاً لإيجاد أصولها على تقدير وجودها.

قوله: عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها.

(في إحاطة علمه تعالىٰ بالأشياء)

أقول: المنصوبات الثلاثة وهي قوله: عالماً وعارفاً ومحيطاً، منصوبة على الحال، والعامل فيها قوله: ألزمها إعمالاً للأقرب، والأحوال الثلاثة مفسّرة لمثلها عقيب الأفعال الثلاثة الأول إذ كانت صالحة لأن تكون أحوالاً عنها.

والمراد في القضيّة الأولى إثبات الأفعال الأربعة له حال كونه عالماً بالأشياء قبل إيجادها، حاضرة في علمه بالفعل كلّيها وجزئيّها.

وفي القضيّة الثانية نسبة تلك الأفعال إليه حال إحاطة علمه بحدودها وحقائقها المميّزة لبعضها عن بعض، وإنّ كلّاً منته بحدّه واقف عنده وهو نهايته وغايته، ويحتمل أن يريد بانتهائها انتهاء كلّ ممكن إلى سببه وانتهاء الكلّ في سلسلة الحاجة إلى الله.

وفي القضيّة الثالثة نسبه الأفعال إلى قدرته حال علمه بما يقترن بالأشياء من لوازمها وعوارضها، وعلمه بكلّ شيء يقترن بشيء آخر على وجه التركيب أو

المجاورة كاقتران بعض العناصر ببعض في أحيازها الطبيعيّة على التّرتيب الطبيعي وعلمه بأحنائها وجوانبها الّتي بها تنتهي وتقارن غيرها.

(في بيان تعداد أسماء الله الحسنىٰ)

وبيان هذه الأحكام له تعالى ببيان أنّه عالم بكلّ المعلومات من الكلّيّات والجزئيّات، وذلك ممّا علم في العلم الإلهي.

فإن قلت: إطلاق إسم العارف على الله تعالى لايجوز لقول النّبي صلّى الله عليه وآله: إنّ لله تسعة وتسعين إسماً[٧٩] من أحصاها دخل الجنّة. وإجماع علماء النقل على أنّ

---

(٧٩) قوله: لقول النبيّ (ص): إنّ لله (تعالىٰ) تسعة وتسعين إسماً.

روى الصدوق رحمه الله في «التوحيد» ص ١٩٤، الحديث ٨، باب أسماء الله تعالى، بإسناده عن عليّ بن أبي طالب (ع)، قال: قال رسول الله (ص):

إنّ لله تبارك وتعالىٰ تسعةً وتسعين إسماً مائةً إلّا واحداً، من أحصاها دخل الجنّة. الحديث.

وأخرج مثله السيوطي في «جامع الصغير» ج ١، الحديث ٢٣٥٣، ص ٣٥٨.

ومسلم أيضاً في «صحيحه» ج ٤، ص ٢٠٦٣، الحديث ٦، باب ٣ من كتاب الذكر، وأيضاً البخاري في «صحيحه» في كتاب التوحيد، باب ١٢٠٦، الحديث ٢١٩٤، ص ٧٨٤، وفي كتاب الشروط باب ٦٠٦، الحديث ٩٣٥، ص ٣٨٤، ج ٤.

وأخرجه أيضاً ابن ماجة ج ٢، باب ١٠، كتاب الدعاء، الحديث ٣٨٦٠، ص ١٢٦٩، وأيضاً روى الصدوق (رض) في «التوحيد» ص ١٩٥، الحديث ٩، بإسناده عن عليّ بن أبي طالب (ع) قال: قال رسول الله (ص):

لله عزّ وجلّ تسعة وتسعون إسماً، من دعا بها استجاب له، ومن أحصاها دخل الجنّة.

وروى أيضاً في ص ٢١٩، الحديث ١١، بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص):

إنّ لله تبارك وتعالىٰ تسعةً وتسعين إسماً مائة إلّا واحداً، إنّه وَتْر، يحبّ الوَتْر، من أحصاها دخل الجنّة. الحديث.

←

. . . .

← وأخرج مثله أيضاً مسلم في صحيحه ج ٤، ص ٢٠٦٣، ذيل حديث ٦، وأخرج أيضاً في ص ٢٠٦٢، الحديث ٥، باسناده عن أبي هريرة، عن النبيّ (ص) قال:

لله تسعة وتسعون إسماً، من حفظها دخل الجنّة، وإنّ الله وَتر يحبّ الوَتْر.

وأخرجه أيضاً ابن ماجة ج ٢، ص ١٢٦٩، الحديث ٣٨٦١.

وأخرج قريب منه السيوطي ج ١، الحديث ٢٣٥٤ والحديث ٢٣٦٩.

وأخرج السيوطي ص ٣٦٠، الحديث ٢٣٦٦:

إنّ لله عزّ وجلّ تسعة وتسعين إسماً، مائة غير واحدة، إنّه وَتر يحبّ الوَتر، وما من عبد يدعو بها إلّا وجبت له الجنّة.

وفيه أيضاً الحديث ٢٣٧٠:

إنّ لله تعالى مائة إسم غير اسم من دعا بها استجاب الله له.

وروى الكليني في أُصول الكافي ج ١، كتاب التوحيد، باب معاني الأسماء، ص ١١٤، الحديث ٢، بإسناده عن هشام بن الحكم عن الصادق (ع) قال:

لله تسعة وتسعون إسماً فلو كان الإسم هو المسمّىٰ لكان كلّ إسم منها إلهاً، ولكنّ الله معنى يدلّ عليه بهذه الأسماء وكلّها غيره، الحديث.

أقول: وقد ورد هذا العدد (تسعة وتسعون) في رحمة الله تعالى وخلقه، وفي عذاب الكافر في قبره أيضاً، وبما أنّ الوقوف على هذه الروايات له مدخليّة في معنى الحديث وتفسيره، لا بأس بذكر جملة منها في المقام:

ألف ـ أخرج عين القضاة في كتابه تمهيدات ص ٣٤٥:

قال رسول الله (ص): إنّ لله تسعة وتسعين خُلقاً من تخلّق بها دخل الجنّة.

وفي حديث إنّ لله تعالىٰ مائة خلق وسبعة عشر خلقاً من أتاه بخُلُقٍ منها دخل الجنّة.
أخرجه السيوطي في جامع الصغير، ص ٣٦٠، ج ١، والعسقلاني في كتابه المطالب العالية ج ٢، ص ٣٨٩، الحديث ٢٥٤٤.

ب ـ أخرج ابن ماجة في ج ٢، كتاب الزهد، باب ٣٥، الحديث ٤٢٩٣، ص ١٤٣٠، بإسناده عن النبيّ (ص) قال:

إنّ لله مائة رحمة، قسم منها رحمة بين جميع الخلائق، فيها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها تعطف الوحش على أولادها، وأخّر تسعة وتسعين رحمةً يرحم بها عباده يوم القيامة.

←

. . . .

← وفي حديث بعده:

خلق الله عزّ وجلّ يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، فجعل في الأرض منها رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها والبهائم بعضها على بعض، والطّير، وأخّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة أكملها الله بهذه الرّحمة.

وأخرج مسلم أيضاً في ج ٤، ص ٢١٠٨، الحديث ٢٠ و ٢١، كتاب التوبة قريب منها، والحاكم أيضاً في المستدرك ج ١، ص ١٤، والغزالي في إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٥٤٤، فراجع.

ج ـ روى الكليني في الكافي ج ٣، ص ١٣٦، الحديث ٧، باب المسألة في القبر، بإسناده عن بشير الدهّان عن الصادق (ع) قال: يجيئ الملكان منكر ونكير إلى الميّت حين يُدفن، أصواتهما كالرّعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يخطّان (يخدّان) الأرض بأنيابهما ويطأن (يطئان) في شعورهما، إلى أن قال: وإذا كان الرّجل كافراً دخلا عليه وأقيم الشيطان بين يديه، عيناه من نُحاس، فيقولان له: مَنْ ربّك؟ وما دينك؟ وما تقول في هذا الرّجل الّذي قد خرج من بين ظهرانيكم؟ فيقول: لا أدري، فيخلّيان بينه وبين الشيطان، فيُسلّط عليه في قبره تسعةً وتسعون تِنّيناً لو أنّ تنّيناً واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبتت شجراً أبداً ويُفتح له باب إلى النّار ويرىٰ مقعده منها.

وأخرج قريب منه السيوطي في تفسيره الدرّ المنثور، ج ٥، ص ٦٠٨، ذيل الآية الكريمة: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً﴾ [سورة طٰه: ١٢٤].

عن النبيّ (ص) قال:

هل تدرون فيما أُنزلت: فانّ له معيشة ضنكاً، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: عذاب الكافر في قبره، يسلّط عليه تسعة وتسعون تنّيناً... هل تدرون ما التّنّين؟ تسعة وتسعون حيّةً، لكلّ حيّةٍ سبعة رؤوس، يخدشونه ويلسعونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون.

قال الغزالي في إحياء العلوم ج ٤، ص ٥٠٠، ذيل الحديث:

ولا ينبغي أن يتعجّب من هذا العدد على الخصوص، فانّ أعداد هذه الحيّات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات، فانّ لها أُصولاً معدودة، ثمّ تتشعّب منها فروع معدودة، ثمّ تنقسم فروعها إلى أقسام، وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلّب عقارب وحيّات (في تلك النشأة).

←

هذا الإسم ليس منها.

قلت: الأشبه أنّ أسماء الله تعالى تزيد على التسعة والتسعين لوجهين: أحدهما قول النّبي صلّى الله عليه وآله[٨٠]:

← قال المولى الفيض في كتابه علم اليقين ج ٢، ص ٨٨١:

قيل: لمّا كان لله سبحانه تسعة وتسعون إسماً من أحصاها دخل الجنّة، وله تسعة وتسعون رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة، والكافر لم يعرف الله بشيء من تلك الأسماء جُعل له في مقابلة كلّ اسم ورحمة تنّين تنهشه في قبره.

وراجع في هذا أيضاً كتاب الأربعين للشيخ البهائي، ذيل الحديث التاسع والثلاثون.

وفي علم اليقين أيضاً ج ١، ص ١٠٢:

قال بعض أهل المعرفة: إحصاؤها أن يجعلها أسماء لنفسه بتحصيل معانيها فيها بقدر الامكان، وهذا كقوله (ص):

تخلّقوا بأخلاق الله، وإلّا فلو أنّ أحداً أحصىٰ ألف ألف إسم من أسمائه العظام بمجرّد اللّسان من غير أن تنطبع في طبعه، وينتقش في نفسه تلك المعاني المدلول عليها بتلك الأسامي. ﴿فمثل الّذين كفروا كمثل الّذي ينعق بما لا يسمع إلّا دعاء ونداء﴾، أراد بذلك أن يثبت للعبد من هذه الصفات أمور يناسبها على الجملة ويشاركها في الإسم وإن لم يماثلها مماثلة تامّة.

(٨٠) قوله: قول النبيّ (ص):

روى السيّد ابن طاووس رحمه الله تعالىٰ في «مهج الدعوات» ص ١٦٩، بإسناده عن الباقر (ع)، عن آبائه، عن جدّه رسول الله (ص) دعاءً طويلاً من دعا به كان في حرز الله سبحانه، ومنه:

اللّهمّ انّي أسألك بكلّ اسم هو لك سمّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تصلّي علىٰ محمّد وأن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حزني وذهاب همّي. الدعاء عنه البحار ج ٨٦، ص ٣٢٤، الحديث ٦٩.

كما جاءت نفس العبارة في «حرز الكامل» للإمام السجّاد عليّ بن الحسين (ع) الّذي أورده أيضاً السيّد ابن طاووس في المهج مرسلاً ص ١٤، وفيه: «وأنزلته في كتابك» بدل «أو». عنه البحار ج ٨٦، ص ٣١١، الحديث ٦٣.

←

أسئلك بكلّ إسم سمّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك.

فإنّ هذا صرح في أنّه استأثر ببعض الأسماء.

الثاني، أنه صلّى الله عليه وآله قال في رمضان:

إنّه إسم من أسماء الله تعالى(٨١).

وكذلك كان الصحابة يقولون: فلان أوتي الأسم الأعظم وكان ذلك ينسب إلى بعض الأنبياء والأولياء وذلك يدلّ على أنّه خارج من التسعة والتسعين. فإذا كان

← وأيضاً رواه شيخ الطائفة الطوسي في «مصباح المتهجّد» ص ٣١٥، في دعاء صلاة في يوم الجمعة عن الصادق (ع). وأيضاً مثله في دعاء يوم الأربعاء، عن أبي الحسن الكاظم (ع)، ذكره الطوسي في المصباح ص ٥٠٩، وعنه البحار ج ٩٠، ص ٢٠١، الحديث ٣٢.

وأيضاً روى المجلسي في البحار ج ٩٥، ص ٢٧٩، الحديث ١، نقلاً عن «دعوات الراوندي» عن النبيّ (ص) قال:

ما أصاب أحداً همّ ولا حزن فقال: ـ ذكره الدعاء المذكور ـ إلّا أذهب الله همّه، وأنزل مكانه فرحاً.

روى هذه الحديث الأخير أيضاً أحمد بن حنبل في مسنده ج ١، ص ٣٩١، والحاكم في «المستدرك» ج ١، ص ٥٠٩، والهندي في «كنز العمّال» ج ٢، ص ١٢٣، وابن كثير في تفسيره ج ٢، ص ٤٤١ في سورة الأعراف الآية ١٨٠. والسيوطي في «الدرّ المنثور» ج ٣، ص ٦١٦ في تلك السورة ونفس الآية.

(٨١) قوله: قال في رمضان: إنّه إسم من أسماء الله تعالى.

رواه الكليني في الفروع من الكافي ج ٤، باب في النهي عن قول رمضان بلا شهر، ص ٦٩، الحديث ٢، بإسناده عن سعد (مسعدة)، عن الباقر عليه السّلام، قال: كنّا عنده ثمانية رجال فذكرنا رمضان فقال:

لا تقولوا: هذا رمضان، ولا: ذهب رمضان، ولا: جاء رمضان، فإنّ رمضان إسم من أسماء الله عزّ وجلّ لا يجيئ ولا يذهب، وإنّما يجيئ ويذهب الزّائل، ولكن قولوا: شهر رمضان، فإنّ الشهر مضاف الإسم والإسم الله عزّ وجلّ ذكره وهو الشهر الّذي أُنزل فيه القرآن جعله مثلاً وعيداً.

كذلك كان كلّ الكلام في قوله صلّى الله عليه وآله: إنّ لله تسعة وتسعين إسماً من أحصاها دخل الجنّة. قضيّة واحدة معناها الإخبار بأنّ من أسماء لله تعالى تسعة وتسعين من أحصاها يدخل الجنّة، ويكون تخصيصها بالذكر لاختصاصها بمزيد شرف لايكون لباقي الأسماء وهي كونها مثلاً جامعة لأنواع من المعاني المنبئة عن الكمال بحيث لايكون لغيرها لا لنفي أن يكون لله تعالى اسم غيرها، وإذا كان كذلك جاز أن يكون العارف من تلك الأسماء.

لايقال: إنّ الإسم الأعظم غير داخل فيها لاشتهارها واختصاص معرفته بالأنبياء، وإذا كان كذلك فكيف يصدق عليها أنّها أشرف الأسماء.

لأنّا نقول: يحتمل أن يكون خارجاً منها ويكون شرفها حاصلاً بالنسبة إلى باقي الأسماء الّتي هي غيره، ويحتمل أن يكون داخلاً فيها إلّا أنّا لانعرفه بعينه ويكون ما يختصّ به النبيّ أو الوليّ إنّما هو تعيينه منها.

(في كيفيّة الخلق وتفصيل إيجاده والإشارة إلى مباديه)

قوله: ثمّ أنشأ سبحانه فتق الأجواء (وشقّ الأرجاء، وسكائك الهواء) إلى قوله: فسوّى منه سبع سموات.

أقول: لمّا أشار عليه السّلام في الفصل المتقدّم إلى نسبة خلق العالم إلى قدرة الله تعالى على سبيل الإجمال، شرع بعده في تفصيل الخلق وكيفيّة إيجاده والإشارة إلى مباديه ولذلك حسن إيراد ثمّ هٰهنا، وفي هذا الفصل أبحاث:

البحث الأوّل، اعلم أنّ خلاصة مايفهم من هذا الفصل أنّ الله قدّر أحيازاً وأمكنة أجرى فيها الماء الموصوف وخلق ريحاً قويّة على ضبطه وحفظه، حمله عليها وأمرها بضبطه، ويفهم من قوله: الهواء من تحتها فتيق والماء من فوقها دفيق.

أنّ تلك الأحياز والأمكنة تحتها، وأنّها أمرت بحفظه وضبطه لتوصّله إلى تلك الأحياز، وربّما فهم منه أنّ تلك الأحياز تحتها للماء وهي سطح الريح الحاوي له، وأنّ تحت تلك الريح فضاء آخراً واسعاً وهي محفوظة بقدرة الله تعالى، كما ورد في الخبر:

ثمّ خلق سبحانه ريحاً آخراً لأجل تموّج ذلك الماء فأرسلها وعقد مهبّها. أي أرسلها بمقدار مخصوص على وفق الحكمة والمصلحة الّتي أرادها بإجرائها ولم يرسلها مطلقاً، ومن روى بالتّاء فالمراد أنّه أخلى مهبّها عن العوائق أو أنّه أرسلها بحيث لايعرف مهبّها وأدام حركتها وملازمتها لتحريك الماء وأعصف جريانها وأبعد مبتداها، ثمّ سلّطها على تموّج ذلك الماء فلمّا عبّ عبابه وقذف بالزبد رفع تعالى ذلك الزّبد في الفضاء وكوّن منه السّماوات العلى.

البحث الثّاني، أنّ هذه الإشارة وردت في القرآن الكريم فإنّه أشير فيه إلى أنّ السماوات تكوّنت من الدّخان، كقوله تعالى:

﴿ثمّ استوىٰ إلى السّماء وهي دخان﴾ [سورة فصّلت: ١١].

والمراد بخار الماء، كذلك وردت في أقوال كثيرة:

(في نقل أقوال الحكماء في خلق السّموات والأرض)

الأوّل، ماروى عن الباقر محمّد بن علي عليه السّلام قال: لمّا أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق السّماء أمر الرّياح فضربن البحر حتّى أزبد فخرج من ذلك الموج، والزّبد دخان ساطع من وسطه من غير نار فخلق الله منه السّماء(٨٢).

---

(٨٢) قوله: لمّا أراد الله سبحانه.

في تفسير العيّاشي في سورة آل عمران ج ١، ص ١٨٦، الحديث ٩١: عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر (ع) قال: كان الله تبارك وتعالىٰ كما وصف نفسه، وكان عرشه على الماء، والماء على الهواء، والهواء لايجري، ولم يكن غير الماء خلف، والماء يومئذ عذب فرات، فلمّا أراد أن يخلق الأرض أمر الرّياح الأربع فضربن الماء صار موجاً، ثمّ أزبد زبدة واحدة فجمعه في موضع البيت، فأمر الله فصار جبلاً من زبد، ثمّ دحى الأرض من تحته ثمّ قال: ﴿إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للّذي ببكّة مباركاً وهدىً للعالمين﴾. عنه البحار ج ٥٧، ص ٨٦، الحديث ٧١.

وفي الروضة من الكافي ص ٩٤، الحديث ٦٧، بإسناده عن باقر العلوم أبي جعفر (ع) ←

الثاني، ما نقل أنّه جاء في السفر الأوّل من التّوراة(٨٣):

← في حديث قال: (إنّ الله تبارك وتعالى) كان إذ لا شيء غيره وخلق الشيء الّذي جميع الأشياء منه وهو الماء الّذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب كلّ شيء إلى الماء، ولم يجعل للماء نسباً يُضاف إليه، وخلق الرّيح من الماء، ثمّ سلّط الريح على الماء فشقّقت الرّيح متن الماء حتّى ثار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يثور، فخلق من ذلك الزّبد أرضاً بيضاء نقيّة ليس فيها صدع ولا ثقب ولا صعود ولا هبوط ولا شجرة، ثمّ طواها فوضعها فوق الماء، ثمّ خلق الله النّار من الماء فشققت النّار متن الماء حتّى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء الله أن يثور، فخلق من ذلك الدّخان سماءاً صافية نقيّة ليس فيها صدع ولا ثقب، وذلك قوله: ﴿السّماء بناها. رفع سمكها فسوّاها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٢٩]. الحديث.

عنه البحار ج ٥٧، ص ٩٦، الحديث ٨١.

وأخرج السيوطي في «الدرّ المنثور» ج ١، ص ١٠٧ في تفسير سورة البقرة في الآية ﴿ثمّ استوى إلى السّماء فسوّاهنّ سبع سموات﴾ [البقرة: ٢٩]، نقلاً عن كتاب «الردّ على الجهميّة» عن عبدالله بن عمر قال: لمّا أراد الله أن يخلق الأشياء إذ كان عرشه على الماء، وإذا لا أرض ولا سماء، خلق الرّيح فسلطها على الماء حتّى اضطربت أمواجه وأثار ركامه، فأخرج من الماء دخاناً وطيناً وزبداً، فأمر الدّخان فعلا وسما ونما، فخلق من السماوات، وخلق من الطّين الأرضين، وخلق من الزبد الجبال.

(٨٣) قوله: جاء في السفر الأوّل من التوراة.

جاء في التوراة (المطبوع باللّغة العربية عندنا) التكوين الأوّل (الأصحاح الأوّل):

«وكان الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة، وروحُ الله يرفّ على وجه المياه. وقال الله ليكن نورٌ فكان نور. إلى أن قال:

وقال الله ليكن جَلَدٌ في وسط المياه. ولْيَكُنْ فاصلاً بين مِياهٍ ومِياهٍ، فعمل الله الجَلَدَ وفصل بين المياه التي تحت الجَلَد والمياه التي فوق الجلد وكان كذلك ودعا الله سماءً. إلى أن قال:

«وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة، وكان كذلك ودعا الله اليابسة أرضاً.

أخرج الإمام الرّازي المتوفّى ٦٠٦ في تفسيره في سورة القلم ج ٣٠، ص ٧٨، وأيضاً ←

....

← نظام الدين الحسن بن محمّد بن الحسين القمّي النيسابوريّ المتوفّى ٧٣٨ هـ في تفسير «غرائب القرآن» في سورة القلم ج ٢٩، ص ١٨:

أوّل ما خلق الله جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فذابت وتسخّنت، فارتفع منها دخان وزبد، فخلق من الدّخان السماء ومن الزّبد الأرض.

وروىٰ فرات الكوفيّ (وهو من معاصري ثقة الإسلام الكلينيّ وكان من الأعلام في زمان الغيبة الصغرىٰ) في تفسيره في سورة هود ص ١٨٣، بإسناده عن (الإمام) الحسن بن عليّ بن أبي طالب (ع)، قال:

شهدت أبي عند عمر بن الخطّاب وعنده كعب الأحبار، وكان رجلاً قد قرأ التوراة وكتب الأنبياء (ع)، فقال له عمر: يا كعب: مَن كان أعلم بني إسرائيل بعد موسىٰ بن عمران بن يوشع بن نون وكان وصيّ موسىٰ بن عمران بعده، وكذلك كلّ نبيّ خلا من قبل موسىٰ بن عمران ومن بعده كان له وصيّ يقوم في أمّته من بعده... إلى أن قال: فقال (عمر): يا كعب: فمن ترىٰ وصيّ نبيّنا؟ قال كعب: معروف في جميع كتب الأنبياء والكتب المنزلة من السّماء «عليّ أخو النبيّ العربيّ (ص) يعينه على أمره يؤازره على من ناواه، له زوجة مباركة وله منها ابنان يقتلهما أمّته من بعده، ويحسد وصيّه كما حسدت الأمم أوصياء أنبيائها، فيدفعونه عن حقّه ويقتلون ولده من بعده كحذو (كحسد) الأمم الماضية، إلى أن قال: فلمّا دخل عليّ بن أبي طالب (ع)، فقال كعب: يا أبا الحسن: أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ:

﴿وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾ [سورة هود: ٧].

قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام: نعم، كان عرشه على الماء حين لا أرض مدحيّة، ولا سماء مبنيّة... إلى أن قال: ثمّ بدأ يخلق فضرب بزارخ (بأمواج) البحور فثار منها مثل الدّخان كأعظم مايكون من خلق الله، فبنىٰ بها سماءً رتقاً، ثمّ دحى الأرض من موضع الكعبة وهي وسط الأرض... إلى أن قال: فقال كعب: عليّ بن أبي طالب (ع) وصيّ الأنبياء، ومحمّد خاتم الأنبياء (ص)، وعليّ خاتم الأوصياء، وليس على الأرض اليوم منفوسة إلّا وعليّ بن أبي طالب أعلم منه، والله ما ذكر من خلق الإنس والجنّ والسّماء والأرض والملائكة شيئاً إلّا وقد قرأته في التوراة كما قرأ. وعنه البحار ج ٥٧، ص ٩٠، الحديث ٧٩.

←

أنّ مبدأ الخلق جوهر خلقه الله، ثمّ نظر إليه نظر الهيبة فذابت أجزاؤه فصارت ماء فثار من الماء بخاراً كالدّخان فخلق منه السّماوات، وظهر على وجه الماء زبد مثل زبد البحر، فخلق منه الأرض، ثمّ أرساها بالجبال.

وفي رواية أخرى فخلق منه أرض مكّة ثمّ بسط الأرض من تحت الكعبة ولذلك تسمّى مكّة أمّ القرىٰ(٨٤).

← وروى المجلسي في البحار ج ١٥، ص ٢٦، عن الشيخ أبو الحسن البكريّ في كتابه المسمّىٰ بكتاب الأنوار، عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام في حديث، قال: كان الله ولا شيء معه، فأوّل ما خلق نور حبيبه محمّد صلّى الله عليه وآله، ... إلى أن قال: ثمّ خلق من نور محمّد (ص) جوهرة، وقسّمها قسمين، فنظر إلى القسم الأوّل بعين الهيبة فصار ماءً عذباً، ونظر إلى القسم الثاني بعين الشّفقة فخلق منها العرش فاستوىٰ على وجه الماء، فخلق الكرسيّ من نور العرش، وخلق من نور الكرسيّ اللّوح، وخلق من نور اللّوح القلم. إلى أن قال: ثمّ نظر إلى باقي الجوهرة بعين الهيبة فذابت، فخلق من دخانها السّماوات، ومن زبدها الأرضين. الحديث.

(٨٤) قوله: وفي رواية أُخرىٰ.

روى الشيخ الصدوق (رض) في «علل الشرائع» ص ٥٩٣ ح ٤٤، وأيضاً في «عيون أخبار الرّضا (ع)» ج ١، ص ٢٤٠، الباب ٢٤، الحديث ١، بإسناده عن عبدالله بن أحمد ابن عامر الطائيّ، عن عليّ بن موسى الرّضا (ع)، عن آبائه، عن الحسين بن عليّ (ع)، قال: كان عليّ بن أبي طالب (ع) بالكوفة في الجامع إذ قام إليه رجل من أهل الشّام فقال: يا أمير المؤمنين انّي أسألك عن أشياء، فقال: سَلْ تفقّهاً، ولا تسأل تعنّتاً، فأحدق النّاس بأبصارهم، فقال: أخبرني عن أوّل ماخلق الله تعالىٰ؟ فقال (ع): خلق النور، قال: فممّ خُلقت السّماوات؟ قال (ع): من بخار الماء، قال: فممّ خُلقت الأرض؟ قال (ع): من زبد الماء، قال: فممّ خُلقت الجبال؟ قال (ع): من الأمواج، قال: فلِمَ سُمّيت مكّة أمّ القرىٰ؟ قال (ع): لأنّ الأرض دُحيت من تحتها. إلى أن قال: وسأله عن أوّل بقعة بُسطت من الأرض أيّام الطّوفان؟ فقال له (ع): موضع الكعبة، وكانت زبرجدة خضراء. الحديث، والحديث طويل، فراجع.

وفي «البحار» ج ٥٧، ص ٢٩، الحديث ٤، عن «شرح نهج البلاغة» للكيدري من ←

الثالث، نقل عن كعب ما يقرب من ذلك قال(٨٥):

إنّ الله خلق ياقوتة خضراء ثمّ نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد، ثمّ خلق الرّيح فجعل الماء على متنها، ثمّ وضع العرش على الماء، كما قال تعالى:

﴿وكان عرشه على الماء﴾ [سورة هود: ٧].

الرّابع، مانقل عن تاليس الملطي(٨٦)، وكان من مشاهير الحكماء القدماء فإنّه نقل عنه، بعد أن وحّد الصانع الأوّل للعالم ونزّهه أنّه قال:

لكنّه أبدع العنصر الّذي فيه صور الموجودات والمعلومات كلّها وسمّاه المبدع الأوّل، ثمّ نقل عنه أنّ ذلك العنصر هو الماء، قال: ومنه أنواع الجواهر كلّها من السّماء والأرض وما بينهما وهو علّة كلّ مبدع وعلّة كلّ مركب من العنصر الجسماني، فذكر: أن من جمود الماء تكوّنت الأرض، ومن انحلاله تكوّن الهواء، ومن صفوته تكوّنت النّار، ومن الدّخان والأبخرة تكوّنت السّماء.

وقيل: إنّه أخذت ذلك من التّوراة.

الخامس، ما وجدته في كتاب سلينوس (بلينوس) الحكيم الّذي سمّاه الجامع لعلل الأشياء قريباً من هذه الإشارة وذلك أنّه قال: إنّ الخالق تبارك وتعالى كان قبل الخلق وأراد أن يخلق الخلق، فقال: ليكن كذا وكذا، فكان ما أراد بكلمته، فأوّل الحدث كلمة الله المطاعة الّتي كانت بها الحركة، ثمّ قال بعده: إنّ أوّل ماحدث بعد كلام الله تعالى الفعل، فدلّ بالفعل على الحركة، ودلّ بالحركة على الحرارة، ثمّ لمّا نقصت الحرارة جاء

← علماء القرن السّادس، نفس الخبر الذي نُقل في المتن.

وأيضاً في «البحار» ج ٥٧، ص ٢٠٧، ح ١٦٠، عن تفسير «الدرّ المنثور»، عن ابن عبّاس حديث في معناه، فراجع.

(٨٥) قوله: نقل عن كعب.

نقله الفخر الرّازي في تفسيره الكبير ج ١٧، ص ١٨٧ في سورة هود في الآية: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ [الآية: ٧].

(٨٦) قوله: مانقل عن تاليس الملطيّ.

راجع «الملل والنّحل» للشهرستانيّ ص ٦١.

السكون عند فنائها، فدلّ بالسكون على البرد.

ثمّ ذكر بعد ذلك: أنّ طبائع العناصر الأربعة إنّما كانت من هاتين القوّتين أعني الحرّ والبرد، قال: وذلك أنّ الحرارة حدث منها اللين، ومن البرودة اليبس، فكانت أربع قوى مفردات فامتزج بعضها ببعض، فحدث من امتزاجها الطبائع الأربع وكانت هذه الكيفيّات قائمة بأنفسها غير مركّبة فمن امتزاج الحرارة واليبس حصلت النّار، ومن الرطوبة والبرودة حدث الماء ومن الحرارة والرطوبة حدث الهواء ومن امتزاج البرد واليبس حصلت الأرض.

ثمّ قال: إنّ الحرارة لمّا حرّكت طبيعة الماء والأرض تحرّك الماء للطفه عن ثقل الأرض، وأثقلت ما أصابه من الحر فصار بخاراً لطيفاً هوائيّاً رقيقاً روحانيّاً، وهو أوّل دخان طلع من أسفل الماء وامتزج بالهواء فسما إلى العلو لخفّته ولطافته، وبلغ الغاية في صعوده على قدر قوّته ونفرته من الحرارة فكان منه الفلك الأعلى وهو فلك زحل، ثمّ حرّكت النّار الماء أيضاً فطلع منه دخان هو أقلّ لطفاً ممّا صعد أوّلاً وأضعف، فلمّا صار بخاراً سما إلى العلو بجوهره ولطافته ولم يبلغ فلك زحل لعلّة لطافته عمّا قبله فكان منه الفلك الثاني وهو فلك المشتري، (وهكذا) بيّن في طلوع الدخان مرّة ومرّة، وتكون الأفلاك الخمسة الباقية عنه.

فهذه الإشارات كلّها متطابقة على أنّ الماء هو الأصل الّذي تكوّنت عنه السّماوات والأرض وذلك مطابق لكلامه عليه السّلام.

البحث الثّالث، قوله: وأدامَ مُرَبَّها.

قال قطب الدّين الرّاوندي(٨٧): أي أدام جمع الريح للماء وتسويتها له. قلت: تقرير

---

(٨٧) قوله: قال قطب الدين الرّاونديّ.

هو الشيخ أبو الحسين سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندي، كان من تلامذة صاحب تفسير «مجمع البيان» الطبرسيّ، وكان من تلامذته: ابن شهر آشوب صاحب «المناقب»، وله تصانيف منها: «منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة»، ومن مآخذ شرح قطب الدين ←

ذلك أنّ الماء لمّا كان مقرّ الريح الّذي انتهت إليه وعملت في تحريكه كان ذلك هو مربّها أي الموضع الّذي لزمته وأقامت به، فقوله: وأدام مربّها أي أدام حركة الماء واضطرابه ومخضُه وهو محلّ إربابها، ويحتمل أن يكون قد استعمل اسم الموضع استعمال المصدر، والتقدير: أدام إربابها أي ملازمتها لتحريك الماء، وأيضاً فيحتمل أن يكون قد شبّهها في كونها سبباً للآثار الخيريّة، وفي كثرتها وقوّتها بالدِيمة فكان محلّها ومقرّها الّذي يصل إليه ويقيم به، قد أدامه الله أي سقاه الله ديمة.

وقوله: وأبعد منشأها، قال: أي أبعد ارتفاعها.

قلت: المنشأ محلّ النّشوء وهو الموضع الّذي أنشأها منه فلا يفهم منه الإرتفاع اللّهم إلّا على تقدير استعماله لموضع الإنشاء استعمال المصدر أي بلغ بإنشائها غاية بعيدة، والأقرب أنّه يشير إلى أنّها نشأت من مبدأ بعيد ولا يمكن الوقوف على أوّله وهو قدرة الحقّ سبحانه وجوده.

وقوله: وأمرها.

قال رحمه الله: أمر الموكّلين بها من الملائكة بضرب الماء بعضه بعضاً، وتحريكه لمخض اللبن للزّبد وأُطلق الأمر عليها مجازاً، لأنّ الحكيم لا يأمر الجماد.

قلت: (بل) حمله على أمر الريح أولى لأنّ في التقدير الّذي ذكره يكون التجوّز في لفظ الأمر لعدم القول المخصوص هناك فيحمل على قهر ملائكتها وفي نسبته إلى الرّيح أيضاً (مجاز) إذا أريد ملائكتها، أمّا إذا حملناه على ظاهره كان التجوّز في لفظ الأمر دون النسبة فكان أولى.

وقوله: مخض السقاء وعصفها بالفضاء.

أي ومثل مخض السقاء ومثل عصفها، فحذف المضاف الّذي هو صفة المصدر وأقام

← الكيدري وابن أبي الحديد وابن ميثم البحراني وغيرها من شروح نهج البلاغة، ونقل عنه المجلسيّ في البحار أيضاً، راجع «البحار» ج ١٠٥، ص ٢٣٥، و «الذريعة» ج ١٤، ص ١٢٦، و «أعيان الشيعة» ج ٧، ص ٢٣٩ و ص ٢٦٠، وغيرها من الكتب التراجم. وقد تقدّم أيضاً ترجمته في تعليقتنا الرّقم ٥٩.

المضاف إليه مقامه فلذلك نصبه نصب المصادر.

واعلم أنّ اللّام في قوله: بتصفيق الماء، للمعهود السّابق في قوله: ماء متلاطماً لأنّ المائين واحد، ومثل هذا التكرار جاز في الكلام الفصيح كقوله تعالى:

﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً * فعصىٰ فرعون الرّسول﴾ [سورة المزّمّل: ١٥ ـ ١٦].

فان قلت: إنّ الأجواء والأرجاء وسكائك الهواء أمور عدميّة فكيف يصحّ نسبتها إلى الإنشاء عن القدرة؟

قلت: إنّ هذه الأشياء عبارة عن الخلاء والأحياز، والخلاف في أنّ الخلاء والحيّز والمكان هل هي أمور وجوديّة أو عدميّة مشهور، فإن كانت وجوديّة كانت نسبتها إلى القدرة ظاهرة، ويكون معنى فتقها وشقّ العدم عنها كما مرّ في قوله: فطر الخلائق بقدرته، وإن كانت عدميّة كان معنى فتقها وشقّها ونسبتها إلى القدرة تقديرها وجعلها أحيازاً للماء ومقرّاً له لأنّه لمّا كان تميّزها عن مطلق الهواء والخلاء بإيجاد الله فيها الماء صار تعيّنها له بسبب قدرته تعالى فيصحّ نسبتها إلى إنشائه فكأنّه سبحانه شقّها وفتقها بحصول الجسم فيها.

روى أنّ زرارة وهشاماً(٨٨) اختلفا في الهواء أهو مخلوق أم لا؟ فرفع بعض موالي الصادق جعفر بن محمّد عليه السّلام إليه ذلك وقال له: إنّي متحيّر وأرىٰ أصحابنا يختلفون فيه. فقال عليه السّلام: ليس هذا بخلاف يؤدّي إلى الكفر والضلال.

واعلم، أنّه عليه السّلام إنّما أعرض عن بيان ذلك لأنّ أولياء الله الموكّلين بإيضاح سبيله (سبله) وتثبيت خلقه على صراط المستقيم لايلتفتون بالذّات إلّا إلى أحد أمرين:

أحدهما ما يؤدّي إلى الهدىٰ أداءً ظاهراً واضحاً.

---

(٨٨) قوله: روىٰ أنّ زرارة وهشاماً.

روى المجلسيّ رحمه الله في البحار ج ٥٧، ص ١٨٢ و ج٥٩، ص ٣٤١، الحديث ٨، عن شرح نهج البلاغة لمحمّد بن الحسين الكيدري أيضاً.

والثّاني مايصرف عن الضّلال ويردّ إلى سواء السبيل، وبيان أنّ الهواء مخلوق أو غير مخلوق لايفيد كثير فائدة في أمر المعاد فلا يكون الجهل به ممّا يضرّ في ذلك فكان ترك بيانه والإشتغال بما هو أهمّ منه أولىٰ.

(في بيان ماتكوّنت منه السّماء)

البحث الرابع، أنّ القرآن الكريم نطق بأنّ السّماء تكوّنت من الدّخان وكلامه عليه السّلام ناطق بأنّها تكوّنت من الزبد، وما ورد في الخبر:

أنّ ذلك الزّبد هو الّذي تكوّنت منه الأرض، فلابدّ من بيان وجه الجمع بين هذه الإشارات فنقول:

وجه الجمع بين كلامه عليه السّلام، وبين لفظ القرآن الكريم ماذكره الباقر عليه السّلام وهو قوله:

فخرج من ذلك الموج والزبد دخان ساطع من وسطه من غير نار فخلق منه السّماء.

ولا شكّ أنّ القرآن الكريم لايريد بلفظ الدّخان حقيقته، لأنّ ذلك إنّما يكون عن النّار، واتّفق المفسّرون على أنّ هذا الدّخان لم يكن عن نار بل عن تنفّس الماء وتبخيره بسبب تموّجه، فهو إذن استعارة للبخار الصاعد من الماء وإذا كان كذلك فنقول:

إنّ كلامه عليه السّلام، مطابق للفظ القرآن الكريم وذلك أنّ الزّبد بخار يتصاعد على وجه الماء عن حرارة حركته إلّا أنّه مادامت الكثافة غالبة عليه وهو باق على وجه الماء لم ينفصل فإنّه يُخَصُّ باسم الزبد وما لطف وغلبت عليه الأجزاء الهوائيّة فانفصل خصّ باسم البخار، وإذا كان الزبد بخاراً والبخار هو المراد بالدخان في القرآن الكريم كان مقصده ومقصد القرآن واحد فكان البخار المنفصل هو الّذي تكوّنت عنه السّماوات والّذي لم ينفصل هو الّذي تكوّنت عنه الأرض وهو الزّبد.

وأمّا وجه المشابهة بين الدّخان والبخار الّذي صحّت لأجله استعارة لفظه فهو

أمران:

أحدهما حسّي وهو الصّورة المشاهدة من الدّخان والبخار حتّى لايكاد يفرق بينهما في الحسّ البصري.

والثاني معنوي وهو كون البخار أجزاء مائيّة خالطت الهواء بسبب لطافتها عـن حرارة الحركة كما أنّ الدّخان كذلك ولكن عن حرارة النّار، فانّ الدّخان أيضاً أجزاء مائيّة انفصلت من جرم المحترق بسبب لطافتها عن حرّ النّار فكان الإختلاف بينهما ليس إلّا بالسّبب، فلذلك صحّ استعارة اسم أحدهما للآخر وبالله التوفيق.

(في أنّ الماء أصل في تكوين الخلق وبيان جواهر الفرد)

البحث الخامس، قال المتكلّمون:

إنّ هذه (الظواهر) من القرآن، وكلام عليّ عليه السّلام لمّا دلّت على ما دلّت عليه من كون الماء أصلاً تكوّنت عنه السّموات والأرض وغير ذلك، وثبت أنّ التّرتـيب المذكور في المخلوقات أمر ممكن في نفسه، وثبت أنّ الباري تعالى فاعل مختار قادر على جميع الممكنات، ثمّ لم يقم عندنا دليل عقلي يمنع من اجراء هذه الظواهر على ما دلّت عليه بظاهرها، وجب علينا القول بمقتضى تلك الظواهر، ولا حاجة بنا إلى التأويل.

لا يُقال: إنّ جمهور المتكلّمين متّفقون على إثبات جوهر الفرد وأنّ الأجسام مركّبة عنه، فبعضهم يقول:

إن الجواهر كانت ثابتة في عدمها والفاعل المختار كساها صفة التأليف والوجود.

وبعضهم وإن منع ثبوتها في العدم إلّا أنّه يقول:

إنّ الله تعالىٰ يوجد أوّلاً تلك الجواهر، ثمّ يؤلّف بينها فيوجد منها الأجسام، فكيف يقال: إنّ السّموات والأرض تكوّنت من الماء، لأنّا نقول: هذا ظاهر لأنّه يجـوز أن يخلق الله تعالى أوّل الأجسام من تلك الجواهر، ثمّ تكوّن باقي الأجسام عن الأجسام الأول.

وأمّا الحكماء فلمّا لم يكن الترتيب الّذي اقتضته هذه الظواهر في تكوين الأجسام

موافقاً لمقتضى أدلّتهم لتأخّر وجودها العناصر عندهم عن وجود السّموات، لاجرم عدل بعضهم إلى تأويلها توفيقاً بينها وبين مقتضى أدلّتهم وذكروا من التأويل وجهين:

(في أنّ العالَم عالَمان: عالَم الأمر وعالَم الخلق)

الوجه الأول، قالوا: العالَم عالمان: عالَم يسمّىٰ عالَم الأمر وهو عالم الملائكة الروحانيّة والمجرّدات، وعالَم يسمّىٰ عالم الخلق وهو عالَم الجسمانيّة وعلى ذلك حملوا قوله تعالى:

﴿ألا له الخلق والأمر﴾ [سورة الأعراف: ٥٤].

ثمّ قالوا: ما من موجود في عالم الجسمانيّات إلّا وله نسبة إلى عالم الرّوحانيّات، وهو مثال له بوجه مّا ولولا ذلك لأنسدّ طريق التّرقي إلى العالم الروحانيّ وتعذّر السفر إلى الحضرة الإلهيّة.

ثمّ كان من بحثهم أن بيّنوا أنّ قدرة الله سبحانه ترجع إلى كون ذاته عالمة بالكلّ علماً هو مبدأ الكلّ مبدئيّة بالذّات غير مأخوذة عن شيء ولا متوقفة على وجود شيء، ثمّ لمّا دلّ دليلهم على أنّ رتبة صدور عالم الأمر أعلى في الوجود وأسبق نسبته إلى قدرة المبدع الأول من عالم الخلق إذ كان صدور عالم الخلق إنّما هو بواسطة عالم الأمر كان اعتبار إيجاد عالم الأمر عن القدرة أمراً أوّلاً وإيجاد عالم الخلق عنها أمراً ثانياً متأخّراً عنه، فعند ذلك قالوا: إنّ الّذي أشار إليه عليه السّلام ههنا موافق لما أصّلناه ومناسب له، وذلك أنّه أشار بالأجواء والأرجاء وسكائك الهواء إلى سلسلة وجود الملائكة المسمّاة بالعقول الفعّالة على مراتبها متنازلة، وبإنشائها إلى إيجادها، وبفتقها وشقّها إلى وجودها، وبالماء المتلاطم المتراكم إلى الكمالات الّتي وجبت عنه سبحانه، وبإجرائه فيها إلى إفاضته على كلّ واحد منها ما استحقّه بواسطة ما قبله، وبالرّيح العاصف إلى الأمر الأوّل الّذي أشرنا إليه عن القدرة.

وأمّا وجه المناسبة بين هذه الأمور وبين ماذكره، فأمّا في التعبير عن العقول بالأرجاء والأجواء والسّكائك فمن جهة أنّها قابلة للفيض والكمالات عن مبدئها الأوّل كما أنّ الأرجاء والأجواء وسكائك الهواء قابلة للماء عمّا يخرج عنه من سحاب

أو ينبوع، وأمّا في تشبيه الفيض بالماء فلأنّه لمّا لم يكن بحيث يتوقّف إلّا على تمام القابل فحيث وجد سأل بطبعه إليه كذلك، كذلك الفيض الإلهي لايتوقّف صدوره عن واهبة إلّا على تمام القابل لكون الفاعل تامّ الفاعليّة في ذاته، ولأنّ الماء لمّا كان به قوام كلّ حيّ جسمانيّ في عالم الكون، كذلك الفيض الإلهيّ هو مبدأ قوام كلّ موجود قالوا: ومثل هذا التشبيه جاء في القرآن الكريم، قال جمهور المفسّرين ومنهم ابن عبّاس رضي الله عنه في قوله تعالى:

﴿أنزل من السّماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ [سورة الرّعد: ١٧].

إنّ المراد بالماء هو العلم، وبالأودية قلوب العباد، وبأنزاله إفاضته على القلوب، وبقوله: فسالت أودية بقدرها: أن كلّ قلب منها يصل إليه مقدار ما يستحقّه ويقبله.

قالوا: وذلك أنّ الله سبحانه أنزل من سماء الكبرياء والجلالة والإحسان ماء بيان القرآن وعلومه على قلوب العباد، لأنّ القلوب يستقرّ فيها أنوار علوم القرآن كما أنّ الأودية تستقرّ فيها المياه النازلة من السّماء، وكما أنّ كلّ وادي فانّما يحصل فيه من مياه الأمطار مايليق بسعته وضيقه، فكذلك ههنا كلّ قلب إنّما يحصل فيه من أنوار علم القرآن مايليق بذلك القلب من طهارته وخبثه وقوّة فهمه وبصره وتمام التشبيه في الآية مذكور في التفاسير.

وأمّا تشبيه الأمر الأول بالرّيح العاصفة فلأنّ وقوعه لمّا كان دفعة غير منسوب إلى زمان يتوقّف عليه كان أنسب مايشبه به من الأجسام في السّرعة والنفوذ وهو الرّيح العاصف لكونها أسرع الأجسام حركة، ولذلك أكّدها بوصف العصف تقريراً للسرعة التّامة.

﴿وما أمرنا إلّا واحدةٌ كلمح بالبصر﴾ [سورة القمر: ٥٠].

وبوصف الزعزعة والقصب تحقيقاً للقوّة الغالبة والشدّة الشديدة، وأمّا أمره لها (بردّه) وتسليطها على شدّة فلأنّه لمّا صوّرها بصورة الريح شاع أن يقال: انّه أمرها وهو عبارة عن نسبة ذلك الأمر إلى ذاته تعالى النّسبة الّتي تحدثها عقولنا الضعيفة، وفائدة الرّد والشدّ ههنا هو ضبط أمره سبحانه على وفق حكمته الكمالات الفائضة عنه على كلّ مورد مورد بحسب نوعه المستلزم لردّه عمّن ليس له ذلك الكمال المعيّن،

وأمّا قرنها إلى حدّه، فإشارة إلى احاطة أمره سبحانه بما لتلك القوابل من الكمالات الفائضة واشتماله عليها.

وقوله: الهواء من تحتها فتيق، إشارة إلى قبول القوابل المذكورة، والماء من فوقها دفيق إشارة إلى مايحمله أمر الله من الفيض المذكور، ويلقيه على تلك القوابل، وكلّ ذلك بترتيب عقليّ لأزمان تلحقه فيعقل فيه التراخي.

وأمّا الريح الثانيّة، فأشار بها عليه السّلام إلى الأمر الثاني، ووصفها باعتقام مهبّها، إشارة إلى عقد ذلك الأمر وإيقاعه على وفق الحكمة الإلهيّة، وإلى عدم مانع لجريان ذلك الأمر، وبإدامة مربّها إلى إفاضة مقارّ ذلك الأمر فكأنّه شبّه الفيض الصادر بهذا الأمر على هيولات الأجسام الفلكيّة بالديمة الهاطلة على الأماكن الّتي يجتمع بها ويقيم، أو أراد أنّ المحالّ القابلة لذلك الأمر المستلزمة له ذاتيّة دائمة، وأشار بعصف مجراها إلى سرعة ذلك الأمر كما وصف به الريح الأولى، وببعد منشأها إلى عدم أوليّة مبدائية، وبأمره لهذا الريح إلى نسبة ذلك الأمر إلى ذاته كما مرّ، وبتصفيق الماء الزخار وآثاره أمواج البحار إلى نسبة فيضان صور الأفلاك وكمالاتها إلى أمره سبحانه بواسطة تلك الكمالات الفعليّة للملائكة وأنّها غير مستقلّة بإيجاد شيء بل على شرائط بعضها لبعض ولغيرها، وبالبخار إلى تلك الملائكة وبمخضها له مخض السقاء وعصفها به كعصفها بالفضاء وترديد بعضه على بعض وإلى قوّة أمر الله عليها وتصريفها على حسب علمه بنظام الكلّ وتقدير ما لكلّ فلك من الكمالات في ذات كلّ مبدأ من تلك المبادئ.

وقوله: حتّى عبّ عبابه، إشارة إلى بلوغ الكمالات لتلك الملائكة الحاصلة لها بالفعل عن أمر الله إلى رتبه أن يعطي بواسطتها الفيض لغيرها، وكذلك قوله: ورمى بالزبد ركامه، إشارة إلى إعطاء صور الأفلاك وكمالاتها بواسطتها، ولمّا كانت صور الأفلاك محتاجة في قيامها في الوجود إلى الهيولىٰ كانت نسبتها إلى الملائكة المجرّدة نسبة أخسّ إلى أشرف فبالحريّ أن أطلق عليها إسم الزبد، ولأنّ هذه الصورة حاصلة عن تلك الكمالات العقليّة وفايضة عليها كما أنّ الزّبد منفصل عن الماء ومكوّن عنه فتشابها. وأمّا رفعه في هواء منفتق، وجوّ منفهق، فإشارة إلى إلحاق صور

الأفلاك بموادّها المستعدّة أو إلى تخصيص وجود الأفلاك بأحيازها ورفعها إليها.

وقوله: فسوّى عنه سبع سماوات، إشارة إلى كمال الأفلاك بما هي عليه من الوضع والتعديل والترتيب، وأمّا تخصيصه بالسّبع فلأنّ الفلكين الباقيين في الشريعة معروفان باسمين آخرين وهما العرش والكرسي، ثمّ قالوا: وإلى هذا أشار الحكماء السابقون أيضاً، فإنّ مراد تاليس الملطي بالعنصر الأوّل هو المبدع الأوّل وكونه هو الماء، لأنّ المبدع الأوّل واسطة في باقي الموجودات وفيه صورها وعنه تفاض كمالاتها كما أنّ بالماء قوام كلّ حيّ عنصري وبواسطته تكوّن وكذلك سرّ ما جاء في التّوراة، فإنّ المراد بالجوهر المخلوق لله أوّلاً هو المبدع الأوّل وكونه تعالى نظر إليه نظر الهيبة، وذوبان أجزائه إشارة إلى صدور الفيض عنه بأمر الله سبحانه وقدرته، والزّبد الّذي تكوّنت منه الأرض والدّخان الّذي تكوّنت منه السّماوات إشارة إلى كمالات السّماوات والأرض وصورها الصادرة عن كمالات عللها صدور البخار والزبد عن الماء وكلّ هذا تجوّزات واستعارات يلاحظ في تفاوت حسنها قرب المناسبة وبعدها.

الوجه الثاني، قالوا: يحتمل أن يكون مراده بالريح الأولى هو العقل الأوّل فإنّه الحامل للفيض الإلهيّ إلى مابعده وهو المحيط بصور الموجودات، ويؤيّد ذلك قوله:

الهواء من تحتها فتيق والماء من فوقها دفيق.

فانّ الهواء إشارة إلى القوابل بعده وبواسطته، وبالماء إشارة إلى الفيض الصادر عن الأوّل سبحانه، فإنّ التدفّق لمّا كان مستلزماً لسرعة حركة الماء وجريانه عبّر به عن الفيض الّذي لاتوقّف فيه، وبالريح الثانية عن العقل الثاني، فإنّه هو الواسطة في إفاضة أنوار الله سبحانه على مابعده من العقول الّتي بواسطتها تصدر السّموات السّبع، ووصف الريحين بالعصف، والقصف إشارة إلى مايخصّ هذين المبدئين من القدرة.

وأمره للريح الثانية بتصفيق الماء الزخّار وإثارة موج البحار إشارة إلى تحريك العقل الثاني للعقول الّتي بعده إلى إفاضة كمالات الأفلاك بأمر الله تعالى، وباقي التأويل كما في التأويل الأوّل.

قوله: جعل سفلاهنّ موجاً مكفوفاً، إلى قوله: وسقف سائر، ورقيم مائر.

أقول: ههنا أبحاث.

البحث الأوّل ـ هذا الكلام يجري مجرى الشرح والتفسير لقوله: فسوّى، لأنّ التسوية عبارة عن التعديل والوضع والهيئة الّتي عليها السّماوات بما فيهنّ، والغرض بهذا التفصيل تنبيه الأذهان الغافلة عن حكمة الصانع سبحانه في ملكوت السّماوات وبدائع صنعه وضروب نعمه ليتذكّروا نعمة ربّهم فيواظبوا على عبادته وحمده على تمام ذلك الإحسان كما قال تعالى:

﴿ثمّ تذكروا نعمة ربّكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الّذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مُقرنين﴾ [سورة الزخرف: ١٣].

فإنّ كلّ هذه نعم على العباد وهي إن كان فيها ما يبعد عن الأذهان الضعيفة كونه نعمه على العباد كحركات السّماوات مثلاً، فإنّي أحسب أنّ كثيراً من الغافلين يقولون:

وما فائدة حركة السّماء في حقّنا لكنّه إذا انتبهت أذهانهم لذلك علمت أنّه لولا تلك الحركة لم يحصل شيء من المركّبات في هذا العالم أصلاً فلم يكن العبد في نفسه فضلاً عمّا يجري عليه من النعم الخارجة عنه، إلّا أنّ تلك الحركة قد تستلزم نعمة هي أقرب إلى العبد من غيرها كالإستضاءة بنور الكواكب والإهتداء بها في ظلمات البرّ والبحر وإعدادها الأبدان للصحّة ونحو ذلك، وقد يستلزم نعماً أخرى إلى أن يتّصل بالعبد كإعدادها الأرض مثلاً لحصول المركّبات الّتي منها قوام حياة العبد.

(في عظمة شأن السّمٰوات)

واعلم أنّ الله سبحانه ذكر أمر السّماوات في كتابه في مواضع كثيرة، ولا شكّ أن إكثاره من ذكرها دليل عظيم شأنها وعلى أنّ له سبحانه فيها أسراراً لا تصل إليها عقول البشر.

إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ قوله عليه السّلام:

وعلياهنّ سقفاً محفوظاً، كقوله تعالى:

﴿وجعلنا السّماء سقفاً محفوظاً﴾ [سورة الأنبياء: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وحفظناها من كلّ شيطان رجيم﴾ [سورة الحجر: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وحفظاً من كلّ شيطان مارد﴾ [سورة الصافات: ٧].

وقوله (ع): وسمكاً مرفوعاً بغير عمد يدعمها، ولا دسار ينظمها.

كقوله تعالى:

﴿خلق السّموات بغير عمد ترونها﴾ [سورة لقمان: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿ويمسك السّماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه﴾ [سورة الحج: ٦٥].

وقوله (ع): ثمّ زيّنها بزينة الكواكب وضياء الثّواقب.

كقوله تعالى: ﴿إنّا زيّنا السّماء الدّنيا بزينة الكواكب﴾ [سورة الصّافات: ٦].

وقوله عليه السّلام: وأجرىٰ فيها سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً.

كقوله تعالى: ﴿وجعل القمر فيهنّ نوراً وجعل الشّمس سراجاً﴾ [سورة نوح: ١٦].

البحث الثاني ـ في هذا الفصل استعارات:

الأولىٰ قوله: جعل سفلاهنّ موجاً مكفوفاً، استعار لفظ الموج للسّماء (للسمكة) لما بينهما من المشابهة في العلوّ والإرتفاع وما يتوهّم من اللون، وقال بعض الشارحين: أراد أنّها كانت في الأولى موجاً ثمّ عقدها وكفّها أي منعها من السقوط.

الثانية، قوله: سقفاً محفوظاً استعار لفظ السقف من البيت للسماء في الأصل لما بينهما من المشابهة في الإرتفاع والإحاطة، ثمّ كثر ذلك الاستعمال حتّى صار إسماً من أسماء السّماء ويحتمل أن لايكون منقولاً، وأراد بقوله محفوظاً، أي من الشيطان.

قال ابن عبّاس رضي الله عنه[٨٩]:

(٨٩) قوله: قال ابن عبّاس رضي الله عنه.

روى ابن بابويه الصّدوق (رض) في كتابه «الأمالي» المجلس الثامن والأربعون، الحديث ١، ص ٢٣٥، بإسناده عن أبي عبدالله الإمام الصادق (ع) في حديث طويل، قال:

←

كانت الشياطين لاتحجب عن السّماوات وكانوا يدخلونها ويختبرون أخبارها فلمّا ولد عيسى عليه السّلام منعوا من ثلاث سماوات، فلمّا ولد محمّد صلّى الله عليه وآله منعوا من السّماوات كلّها فما منهم أحد استرق السمع إلّا رمى بشهاب فذلك معنى قوله تعالى:

﴿وحفظناها من كلّ شيطان رجيم * إلّا من استرق السّمع فأتبعه شهاب مبين﴾ [سورة الحجر: ١٧ ـ ١٨].

وسنشير إلى سرّ ذلك إنشاء الله تعالى.

قوله: «بغير عمدٍ يدعمها ولا دسار ينتظمها».

أقول: لمّا كان مقتضى قدرة العبد وغايتها إذا تمكّن من بناء بيت وإنشاء سقف، أنّه لابدّ له من أساطين وعَمَد يقوم عليها ذلك السقف وروابط تشدّ بعضه إلى بعض وكانت قدرة الحقّ سبحانه وتعالى أجل وأعلى من الحاجة إلى أمثال ذلك، أراد أن يشير إلى عظمته سبحانه وقوّة قهره بسلب صفات المخلوقين عنه وشرائط آثارهم عن قدرته.

والمعنى أنّ هذه الأجرام العظيمة بقيت واقعة في الجوّ العالي ويستحيل أن يكون وقوفها هناك لذواتها، لأنّ الأجسام متساوية في الجسميّة فلو وجب حصول جسم في حيّز لوجب حصول كلّ جسم في ذلك الحيّز، ولأنّ الأحياز والخلاء متشابه فلا اختصاص فيه لموضوع دون آخر ولا يجوز أن يقال: إنّها معلّقة بجسم آخر وإلّا لكان الكلام في وقوف ذلك الجسم في الجوّ كالكلام في أوّل ويلزم التسلسل فلم يبق إلّا أن

← كان إبليس (لع) يخترق السّماوات السّبع، فلمّا ولد عيسىٰ (ع) حجب عن ثلاث سماوات وكان يخترق أربع سماوات، فلمّا ولد رسول الله (ص) حجب عن السّبع كلّها ورميت الشياطين بالنجوم، الحديث. عنه البحار ج ١٥، ص ٢٥٧، الحديث ٩.

ورواه أيضاً البيضاوي المتوفّى (٤٦٧ هـ ق) في تفسيره، في سورة الحجر الآية ١٧، ج ٢، ص ٣٧٤، عن ابن عبّاس مع تفاوت يسير. وأيضاً أخرجه عن ابن عبّاس النيسابوري في تفسيره «غرائب القرآن» المطبوع بهامش تفسير الطبري، تفسير الطبري ج ١٤، ص ١١.

يقال: إنّ وقوفها بقدرة الصانع الحكيم القادر المختار.

وإن قلت: قوله تعالىٰ: ﴿ترونها﴾، يفهم منه أنّ هناك عمد ولكنّها غير مرئيّة لنا وذلك ينافي سلبه عليه السّلام للعمد مطلقاً.

قلت: الجواب عنه من وجوه(٩٠):

أحدها، أنّه يحتمل أن يكون قوله: ترونها كلاماً مستأنفاً والتقدير بغير عمد وأنتم ترونها كذلك.

الثّاني، يحتمل أن يكون في الكلام تقديم وتأخير كما نقل عن الحسن البصري أنّه قال: التقدير ترونها بغير عمد.

الثالث، وهو الألطف ماذكره الإمام فخرالدّين رحمه الله فقال: إنّ العماد هو مايعمد عليه والسّماوات متعمدة وقائمة على قدرة الله تعالى فكانت هي العمد الّتي لاترى وذلك لاينافي كلامه عليه السّلام.

الرابع، وهو الأحقّ ماذكرته وهو أنّه قد ثبت في أصول الفقه: أنّ تخصيص الشيء بحكم لايدلّ على أنّ حكم غيره بخلاف ذلك الحكم، فتخصيص العمد المرئيّة للسّماوات بالسلب لايستلزم ثبوت العمد غير المرئيّة لها.

الثالثة الثواقب، استعارة في الأصل للشهب عن الأجسام الّتي تثقب جسماً آخر وتنفذ فيه، ووجه المشابهة الّتي لأجلها سمّي الشهاب ثاقباً لأنّه يثقب بنوره الهواء كما يثقب جسم آخر (جسماً) لكنّه لكثرة الإستعمال فيه صار إطلاقه عليه حقيقة أو قريباً منها.

الرابعة، قوله: سراجاً مستطيراً، إستعارة للشّمس ووجه المشابهة أنّ السّراج القويّ المستطير لمّا كان من شأنه أن يضيئ ماحوله وينتشر في جميع نواحي البيت ويهتدي به من الظلمة، كذلك الشّمس مضيئة لهذا العالم ويهتدي بها المتصرّف فيه.

---

(٩٠) قوله: الجواب عنه من وجوه.

أنظر في تلك الوجوه «التفسير الكبير» للفخر الرّازي في سورة الرّعد الآية ٢، ج ١٨، ص ٢٣٢.

الخامسة، قوله: رقيم، إستعارة أصليّة للفلك تشبيهاً له باللوح المرقوم فيه، ثمّ كثر استعمال هذا اللفظ في الفلك حتّى صار إسماً من أسمائه.

(في تشبيه العالم ببيت واحد)

البحث الثالث، إعلم أنّ هذه الإستعارات تستلزم ملاحظة أخرى وهو تشبيه هذا العالم بأسره ببيت واحد، فالسّماء كقبة خضراء نصبت على الأرض وجعلت سقفاً محفوظاً محجوباً عن أن تصل إليه مردة الشياطين كما تحمي غرف البيت بالسهام والحراب عن مردة اللصوص، ثمّ هو مع غاية علوّه وارتفاعه غير محمول بعمد تدعمه ولا منظوم بدسار يشدّه، بل بقدرة صانعه ومبدعه، ثمّ إنّ تلك القبّة متزيّنة بالكواكب وضيائها الّذي هو أحسن الزّينة وأكملها، فلو لم يحصل صور الكواكب في الفلك لبقي سطحاً مظلماً، فلمّا خلق الله تعالى هذه الكواكب المشرقة في سطحه لاجرم استنار وزاد بذلك النّور والضّوء، كما قال ابن عباس في قوله:

﴿بزينة الكواكب﴾ [سورة الصّافات: ٦].

أي بضوءها.

وأنت إذا تأمّلت هذه الكواكب المشرقة المضيئة في سطح الفلك وجدتها عند النظر إليها كجواهر مرصوصة في سطح من زمرّد على أوضاع اقتضتها الحكمة أو كما قال:

وكأنّ أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق

ثمّ جعل من جملتها كوكبين هما أعظم الكواكب جرماً وأشدّها إشراقاً وأتمّها ضياءً، ومع اشتمالها على تمام الحسن والزينة جعل أحدهما ضياء للنّهار والآخر ضياء للّيل، ثمّ لم يجعل ذلك السقف ساكناً بل جعله متحرّكاً ليكون أثر صنعه فيه أظهر وصنع حكمته فيه أبدع ولم يجعل ذلك السقف طبقاً واحداً بل طباقاً أسكن في كلّ طبق ملاءً من جنوده وخواصّ ملكه الّذين ضربت بينهم وبين من دونهم حجب العزّة وأستار القدرة فلا يستطيع أحد أن ينظر إليهم فضلاً عن أن يشبّه بمالكهم وخالقهم سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً، هذا هو الحكمة الظاهرة الّتي يتنبّه لها من له أدنى فطنة، فيحصل منها عبرة شاملة لأصناف الخلق بحيث إذا لاحظوا مع جزئي من

جزئيّات آثار هذه القدرة أيّ أثر كان استعظم واستحسن من أيّ ملك فرض من ملوك الدنيا لم يكن بينهما من المناسبة إلّا خيال ضعيف، فإنّ أيّ ملك فرض إذا همّ بوضع بنيان وبالغ في تحسينه وترويق سقوفه، وترصيعها بأنواع الجواهر، وتزيينه بالأوضاع المعجبة لأبناء نوعه، وبذل فيه جهده، واستفرغ فيه فكره، لم يكن غايته إلّا أن يلحظ ممّا عمله نسبة خياليّة بعيدة إلى ظاهر هذا الصنع العجيب والتّرتيب اللطيف، هذا مع اشتمل عليه من الحكم الخفيّة والأسرار الإلهيّة الّتي تعجز القوى البشريّة عن إدراكها، ويحتاج فيما لاح منها إلى لطف قريحة وتوقّد ذهن.

﴿فسبحان الّذي بيده ملكوت كلّ شيء وإليه ترجعون﴾ [سورة يس: ٨٣].

فانظر أيّها المستبصر بعين بصيرتك المناسبة بين بيتك الّذي تبنيه وهذا البيت العظيم، وقس سراجك إلى سراجه وزينتك إلى زينته ثمّ لاحظ مع ذلك أنّه إنّما خلقه لك ولأبناء نوعك ليكون فيه ومنه قوام حياتكم ووجودكم ولتستدلّوا بملكوت ماخلق على كمال قدرته وحكمته لترجعوا بذلك إلى حضرته طاهرين من الرجس متشبّهين بسكّان سقف هذا البيت وغرفه، لا أنّ له حاجة إليه فإنّه الغنيّ المطلق الّذي لاحاجة به إلى شيء، والعجب من الإنسان أنّه ربّما رأى خطّاً حسناً أو ترويقاً على حائط فلا يزال يتعجّب من حسنه وحذق صانعه، ثمّ يرى هذا الصنع العجيب والإبداع اللطيف فلا يدهشه عظمة صانعه وقدرته ولا يحيّره جلال مبدعه وحكمته.

(في تطابق الشرع والبرهان في انّ تعداد الأفلاك تسع)

البحث الرابع، الشرع والبرهان قد تطابقا على أنّ ههنا تسع أفلاك بعضها فوق بعض، فنها سبع سماوات ثمّ الكرسي والعرش بعبارة النّاموس الإلهي، ثمّ أكثرها يشتمل على الكواكب وهي أجرام نورانيّة مستديرة مصمتة مركوزة في اجرام الأفلاك.

فأوّل الأفلاك ممّا يلينا ليس فيه من الكواكب إلّا القمر، وليس في الثاني إلّا عطارد، وليس في الثالث إلّا الزّهرة، وليس في الرابع إلّا الشمس، وليس في الخامس إلّا المريخ، وليس في السادس إلّا المشتري وليس في السابع إلّا زحل، وهذه هي المسمّاة

بالكواكب السبعة السيّارة، وما سواها من الكواكب فيشتمل عليها الفلك الثّامن، وأمّا التّاسع فخال عن الكواكب أو إن كان فليس بمدرَك لنا. ثمّ قد دلّ البرهان على أنّ الأفلاك هي المتحرّكة بما فيها من الكواكب وأنّ تلك الحركة دوريّة وكان كلامه عليه السّلام مطابقاً لذلك حيث قال:

في فلك دائر، وسقف سائر، ورقيم مائر.

(في أنّ النّظام الموجود نظام أتمّ وأحسن)

إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ الله سبحانه خلق الموجودات كلّها على أتمّ أنحاء الوجود وأكمله فجميع الموجودات من الأفلاك ومقاديرها وأعدادها وحركاتها المختلفة هيئاتها، وهيئة الأرض وما عليها من حيوان ونبات ومعدن ونحوه إنّما وجد على الوجه الّذي وجد عليه لحصول النظام الكلّي للعالم ولو كان بخلاف ما عليه لكان شرّاً وناقصاً. فخلق الأفلاك والكواكب وماهي عليه من الحركات والأوضاع وجعلها أسباباً لحدوث الحوادث في عالم الكون والفساد بواسطة كيفيّات تحدثها فيها من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة يوجب ذلك امتزاج بعضها ببعض امتزاجات مختلفة ومستعدّة لقبول صور مختلفة من حيوان ونبات ومعدن، وأظهر الكواكب تأثيراً هو الشمس والقمر، فإنّ بحركة الشمس اليوميّة يحصل النهار والليل، فالنّهار هو زمان طلوعها يكون زمان التكسب والطلب للمعاش الّذي به يحصل قوام الحياة ويكون سبباً إلى السعادة الأخرويّة، ثمّ إنّها في مدّة حركتها اليوميّة لاتزال تدور فتغشى جهة بعد جهة حتّى تنتهي إلى المغرب وقد أخذت كلّ جهة من الجهات حظّاً من الإشراق والاستعداد به.

وأمّا الليل وهو زمان غروبها فإنّ فيها هدوء الخلق وقرارهم الّذي به تحصل الراحة وانبعاث القوّة الهاضمة وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء كما قال تعالى:

﴿هو الّذي جعل لكم اللّيل لتسكنوا فيه والنّهار مبصراً﴾ [سورة يونس: ٦٧].

﴿وجعلنا اللّيل لباساً * وجعلنا النّهار معاشاً﴾ [سورة النبأ: ١٠ ـ ١١].

ثمّ كانت الشمس من جهة ضوئها كسراج (يرفع) يرتفع لأهل كلّ بيت بمقدار

حاجتهم ثمّ يرفع عنهم فصار النّور والظّلمة على تضادّهما متظاهرين على مافيه مصلحة هذا العالم.

وأمّا بحسب حركاتها الجنوبيّة والشماليّة فقد جعل سبحانه ذلك سبباً لإقامة الفصول الأربعة ففي الشتاء تغور الحرارة والنبات فيتولّد منها موادّ البحار ويكثر السحاب والأمطار ويقوىٰ أبدان الحيوانات بسبب احتقان الحرارة الغريزيّة في البواطن، وفي الربيع تتحرّك الطبائع وتظهر الموادّ المتولّدة في الشتاء فيطلع النبات وينوّر الشجر ويهيج الحيوان للفساد، وفي الصيف يحتدم الهواء وتتحلّ فضول الأبدان ويجفّ وجه الأرض ويتهيّئ للبناء والعمارة، وفي الخريف يظهر اليبس والبرد فينتقل فيه الأبدان على التدريج إلى الشتاء فإنّه لو وقع الإنتقال دفعة لهلكت وفسدت.

وأمّا القمر فإنّ بحركته تحصل الشهور والأعوام كما قال سبحانه:

﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ [سورة يونس: ٥].

فيتمكّن العبد بالحساب من ترتيب معاشه بالزراعة والحراثة وإعداد مهمّات الشتاء والصيف، وباختلاف حاله في زيادته ونقصانه يختلف أحوال الرطوبات في هذا العالم، فلو أنّه سبحانه خلق الأفلاك دون الكواكب لكان إن خلقها مظلمة لم يحصل ماذكرنا من اختلاف الفصول والحرّ والبرد، فلم يتمّ في هذا العالم ماكانت أسباباً فيه من الاستعدادات ولم يتميّز لنا «فصل عن فصل» قصد عن قصد كما قال تعالى:

﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ [سورة النحل: ١٦].

وقوله:

﴿وهو الّذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر﴾ [سورة الأنعام: ٩٧].

وان خلقها مضيئة تشابه أثرها في الأمكنة والأزمنة، بل خلق فيها الكواكب ولم يخلقها ساكنة وإلّا لأفرط أثرها في موضع بعينه فيفسد استعداده ويخلوا موضع آخر عن التأثيرات، ولمّا تميّزت فصول السّنة، ولمّا حصل البرد المحتاج إليه والحرّ المحتاج إليه فلم يتمّ نشوء النبات والحيوان، وعلى الجملة فالنظام الكلّي لايحصل إلّا فهو أكمل

أنحاء الوجود، كلّ ذلك يدلّ على كمال رحمة الله بخلقه وشمول عنايته لهم، إذ كان جميع ماذكرناه من المنافع الحاصلة في هذا العالم مستندة إلى علوّ تدبيره وكمال حكمته كما قال تعالى:

﴿وسخّر لكم الشّمس والقمر دائبين وسخّر لكم اللّيل والنّهار * وآتاكم من كلّ ما سألتموه وإن تعدّوا نعمت الله لاتحصوها إنّ الإنسان لظلوم كفّار﴾ [سورة إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

لايقال: السئوال على ماذكرتم من وجهين:

أحدهما، أنّ الترتيب الّذي ذكرتموه في تخصيص كلّ فلك ببعض الكواكب يشكل بقوله تعالى:

﴿إنّا زيّنا السّماء الدّنيا بزينة الكواكب﴾ [سورة الصافات: ٦].

وقوله تعالى:

﴿ولقد زيّنا السّماء الدّنيا بمصابيح﴾ [سورة الملك: ٥].

الثاني، أنّ الشهب الثواقب الّتي جعلت رجوماً للشياطين على مانطق به القرآن الكريم، إمّا أن يكون من الكواكب الّتي زيّنت بها السّماء أو لاتكون، والأوّل باطل، لأنّ هذه الشهب تبطل بالانقضاض وتضمحلّ فكان يلزم من ذلك على مرور الزمان فناء الكواكب ونقصان أعدادها، ومعلوم أنّه لم يوجد ذلك النقصان ألبتة. والثاني أنّه يشكل بقوله تعالى:

﴿ولقد زيّنا السّماء الدّنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشّياطين﴾ [سورة الملك: ٥].

فإنّه نصّ على كون الشهب الّتي جعلت رجوماً للشياطين هي تلك المصابيح والكواكب الّتي زيّنت بها السّماء.

لأنّا نجيب عن الأوّل: بأنّه لاتنافي بين ظاهر الآية وبين ماذكرناه، وذلك أنّ السّماء الدّنيا لمّا كانت لاتحجب ضوء الكواكب وكانت أوهام الخلق حاكمة عند النظر إلى السماء ومشاهدة الكواكب بكونها مزيّنة بها لاجرم صحّ قوله تعالى:

﴿إنّا زيّنا السّماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ .

لأنّ الزّينة با إنّما هي بالنسبة إلى أوهام الخلق للسّماء الدنيا .

وعن الثاني أنّا نقول: هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية .

فأمّا قوله :

﴿وزيّنا السّماء الدّنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ .

فنقول: كلّ مضيء حصل في الجوّ العالي أو في السّماء فهو مصباح لأهل الأرض إلّا أنّ تلك المصابيح، منها باقية على طول الزمان وهي الثوابت، ومنها متغيّرة وهي الشهب الّتي يحدثها الله تعالىٰ ويجعلها رجوماً للشياطين ويصدق عليها أنّها زينة للسّماء أيضاً بالنسبة إلى أوهامنا وبالله التوفيق .

قوله : ثمّ فتق مابين السّماوات العلىٰ إلى قوله : ولا يشيرون إليه بالنظائر . وفيه أبحاث :

البحث الأوّل ، هذا الفصل أيضاً من تمام التفسير لقوله :

« فسوّىٰ منه سبع سماوات » .

إذ كان ما أشار إليه هٰهنا من فتق السّماوات إلى طبقاتها وإسكان كلّ طبقة منها ملأ معيناً من ملائكته هو من تمام التسوية والتعديل لعالم السّماوات .

فإن قلت : لم أخّر ذكر فتق السّماوات وإسكان الملائكة لها عن ذكر إجراء الشّمس والقمر فيها وتزيينها بالكواكب ، ومعلوم أنّ فتقها متقدّم على اختصاص بعضها ببعض الكواكب .

قلت : إنّ إشارته عليه السّلام إلى تسوية السّماوات إشارة جميلة فكأنّه قدّر أوّلاً أنّ الله خلق السّماوات كرة واحدة كما عليه بعض المفسّرين لقوله تعالى :

﴿إنّ السّمٰوات والأرض كانتا رتقاً﴾[سورة الأنبياء: ٣٠].

ثمّ ذكر علياهنّ وسفلاهنّ لجريانهما مجرى السطحين الداخل والخارج لتلك الكرة ، ثمّ أشار إلى بعض كمالاتها وهي الكواكب والشمس ولقمر جملة، ثمّ بعد ذلك أراد التفصيل فأشار إلى تفصيلها وتميز بعضها عن بعض بالفتق ، وإسكان كلّ واحدة منهنّ

ملاء معيّناً من الملائكة ثمّ عقّب ذلك بتفصيل الملائكة، ولا شكّ أنّ تقديم الإجمال في الذكر وتعقيبه بالتفصيل أولى في الفصاحة والبلاغة في الخطابة من العكس.

إذا عرفت ذلك فنقول: قوله عليه السّلام:

ثمّ فتق مابين السّماوات العلى كقوله تعالى:

﴿أولم ير الّذين كفروا أنّ السّمٰوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠].

وقوله:

«فملأهنّ أطواراً من ملائكته منهم سجود لا يركعون».

كقوله تعالى:

﴿ولله يسجد من في السّمٰوات والأرض﴾ [سورة الرعد: ١٥].

وقوله:

﴿وله يسجدون﴾، [سورة الأعراف: ٢٠٦].

ونحوه وقوله: وصافّون لايتزايلون، كقوله تعالى:

﴿وإنّا لنحن الصّافون﴾ [سورة الصّافات: ١٦٥].

﴿والصافّات صفّاً﴾ [سورة الصّافات: ١].

وقوله: ومسبّحون لايسأمون، كقوله تعالى:

﴿يسبحون اللّيل والنّهار وهم لايسأمون﴾ [سورة فصّلت: ٣٨].

وقوله: ولا فترةُ الأبدان، كقوله تعالى:

﴿لايفتُرُون﴾ [سورة الأنبياء: ٢٠].

قوله: ومنهم أمناء على وحيه، كقوله تعالى:

﴿نزل به الرّوح الأمين علىٰ قلبك﴾ [سورة الشعراء: ١٩٤].

وقوله: وألسنة إلى رسله، كقوله تعالى:

﴿جاعل الملائكة رسلاً﴾ [سورة فاطر: ١].

وقوله: مختلفون بقضائه وأمره، كقوله:

﴿تنزّل الملائكة والرّوح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر﴾ [سورة القدر: ٤].

وقوله تعالى:

﴿ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ [سورة النحل: ٢].

وقوله: ومنهم الحفظة لعباده، كقوله تعالى:

﴿يرسل عليكم حفظة﴾ [سورة الأنعام: ٦١].

وقوله:

﴿وإنّ عليكم لحافظين﴾ [سورة الانفطار: ١٠].

وقوله:

﴿له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ [سورة الرعد: ١١].

وقوله: والسدنة لأبواب جنانه، كقوله تعالى:

﴿وقال لهم خزنتها﴾ [سورة الزمر: ٧١ ـ ٧٣].

وقوله: والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم، كقوله تعالى:

﴿ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذٍ ثمانية﴾ [سورة الحاقة: ١٧].

وقوله: بأجنحتهم كقوله تعالى:

﴿أولي أجنحة﴾ [سورة فاطر: ١].

(تفصيل الأقوال في تفسير الآية: ﴿أوَ لَمْ يرَ الّذين كفروا انّ السّمٰوات...﴾)

البحث الثاني، إعلم، أنّ للنّاس في تفسير قوله:

﴿أوَ لَم ير الّذين كفروا أنّ السّموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠].

أقوالاً(٩١): أحدها، قال ابن عبّاس(٩٢) والضحّاك وعطاء وقتادة:

---

(٩١) قوله: أقوالاً.

راجع في تفصيل تلك الأقوال ومصادرها: تفسير «جامع البيان» للطبري ج ١٧، ص ١٣ في سورة الأنبياء، وتفسير «غرائب القرآن» للنيسابوري في هامشه ص ١٧، و «تفسير الكبير» للفخر الرّازي ج ٢٢، ص ١٦٢، وتفسير «مجمع البيان» ج ٧، ص ٧٢ في تفسير الآية المذكورة في سورة الأنبياء.

(٩٢) قوله: إبن عبّاس.

ابن عبّاس هو عبدالله بن عبّاس بن عبدالمطّلب بن هاشم بن مناف القرشيّ الهاشميّ، ابن عمّ رسول الله (ص)، وُلد قبل الهجرة في الشّعب بثلاث سنين، وتوفّيَ بالطائف سنة ٦٨ هـ. وصفه الرسول الخاتم (ص) بترجمان القرآن، وفارس القرآن، وحبر الأمّة. (الإتقان ج ١، ص ٢٢٣، الذريعة ج ٤، ص ٢٣٣).

كان ابن عبّاس من خواصّ تلاميذ الإمام أمير المؤمنين عليّ (ع) في التفسير. (حلية الأولياء ج ١، ص ٣١٦).

قال ابن عبّاس: ما أخذت من تفسير القرآن فعن عليّ بن أبي طالب، (التفسير والمفسّرون ج ١، ص ٩٠) قال رسول الله (ص) فيه: اللّهمّ فقّهه في الدّين وانتشر منه. سفينة البحار ج ٢، ص ١٥٤.

وقال (ص): اللّهمّ علّمه التأويل وفقّهه في الدّين. (مروج الذهب ج ٣، ص ١٣١، الإتقان ج ٤، ص ٢٣٤، البرهان في علوم القرآن ج ٢، ص ١٥٠، الإصابة ج ٢، ص ٣٣١).

وقال (ص): لكلّ شي فارس، وفارس القرآن عبدالله بن عبّاس. سفينة البحار ج ١، ص ١٥٠.

وقال (ص): اللّهمّ علّمه الحكمة وتأويل الكتاب. (تارسخ الإسلام للذهبي ص ١٥٠، حوادث سنة ٦٠ ـ ٨٠ هـ).

وقال ابن عبّاس: عليّ عَلِم علماً علّمه رسول الله (ص)، علّمه الله، فعلم النبيّ من علم الله، وعلم عليّ به علم النبيّ، وعلمي من علم عليّ (ع)، وما عِلمي وعلم أصحاب محمّد (ص) في علم عليّ إلّا كقطرة في سبعة أبحر. (سفينة البحار ج ٢، ص ٤١٤).

وهو أوّل من انتخبه أمير المؤمنين (ع) في قضيّة الحكمين في الصفّين. فهرس النجاشي ص ٢٤٢.

←

. . . .

← وكان من أصحاب رسول الله (ص) وأمير المؤمنين (ع). (رجال الشيخ).

وكان محبّاً لعليّ (ع) وتلميذه، حاله في الجلالة والإخلاص لأمير المؤمنين (ع) أشهر من أن يخفىٰ. (الخلاصة للعلّامة وسفينة البحار (عبس)).

وهناك بعض الأحاديث رواها ابن عبّاس أو مرتبطة به، لا بأس بذكر بعضها:

ألف ـ روى الصدوق (ره) في «الخصال» باب (الخلفاء والأئمّة بعد النبيّ (ص) اثنا عشر (ع)) الحديث ٤١، بإسناده عن سليم بن قيس الهلاليّ، قال: سمعت عبدالله بن جعفر الطيّار يقول: كنّا عند معاوية أنا والحسن والحسين وعبدالله بن عبّاس وعمر بن أبي سلمة، وأُسامة بن زيد، فجرىٰ بيني وبين معاوية كلام، فقلت لمعاوية: سمعتُ رسول الله (ص) يقول: أنا أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، ثمّ أخي عليّ بن أبي طالب (ع) أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا استشهد عليّ فالحسن بن عليّ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، ثمّ ابنه الحسين بعده أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا استشهد فابنه عليّ بن الحسين الأكبر أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، ثمّ ابني محمّد بن عليّ الباقر أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، وستدركه يا حسين، ثمّ تكمله اثنىٰ عشر إماماً تسعة من ولد الحسين رضى الله عنه. قال: عبدالله بن جعفر: ثمّ استشهدت الحسن، والحسين، وعبدالله بن عبّاس، وعمر بن أبي سلمة، وأُسامة بن زيد، فشهدوا لي عند معاوية، قال: سليم بن قيس الهلاليّ: وقد سمعت ذلك من سلمان، وأبي ذرّ، والمقداد، وذكروا أنّهم سمعوا ذلك من رسول الله (ص).

ب ـ روى الكشّي في رجاله الرقم ١٥، ص ٥٤، بإسناده عن ابن عبّاس، أنّه قال عند موته: اللّهمّ انّي أحي على ما حي عليه عليّ بن أبي طالب، وأموت على ما مات عليّ بن أبي طالب.

ج ـ روى المفيد (رض) في الإرشاد، باب ذكر الإمام بعد أمير المؤمنين (ع)، بإسناده عن أبي اسحاق السبيعي وغيره، قالوا: خطب الحسن بن عليّ (ع) في صبيحة اللّيلة التي قُبض فيها أمير المؤمنين (ع)، (إلى أن قال): ثمّ جلس فقام عبدالله بن عبّاس رحمه الله بين يديه فقال: معاشر الناس هذا ابن نبيّكم ووصيّ إمامكم. فبايعوه، فاستجاب له الناس. الحديث.

د ـ روى كاتب الواقديّ في طبقاته (الطبقات الكبرىٰ ج ٢، ص ٢٤٣ و ٢٤٤)، عن ابن عبّاس قال: لما حضرت النبيّ (ص) الوفاة، وفي البيت رجال فيهم عمر، فقال (ص):

←

إنّ السماء والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتزمتين ففصّل الله بينهما في الهواء.

الثاني، قال كعب: خلق الله السّماوات والأرض بعضها على بعض ثمّ خلق ريحاً توسّطها ففتحها بها.

الثالث، قال مجاهد والسّدى: كانت السّماوات طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبع سماوات وكذلك الأرض.

الرابع، قال عكرمة وعطيّة وابن عبّاس برواية أخرىٰ عنه:

إنّ معنى كون السّماء رتقاً أنّها كانت لاتمطر، وكانت الأرض رتقاً أي لاتنبت نباتاً، ففتق الله السّماء بالمطر والأرض بالنبات، ويؤيّد ذلك قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠].

ونظيره قوله تعالى:

﴿وفتحنا أبواب السّماء بماء منهمر﴾[سورة القمر: ١١].

وقوله:

﴿والأرضِ ذات الصدع﴾ [سورة الطارق: ١٢].

وقوله تعالى:

﴿إنّا صببنا الماء صبّاً * ثمّ شققنا الأرض شقّاً * فأنبتنا فيها حبّاً﴾ [سورة عبس: ٢٥ ـ ٢٧].

الخامس، قال بعض الفضلاء: إنّ معنى قوله كانتا رتقاً أي كانت أموراً كليّة في علم الله تعالىٰ وفي اللوح المحفوظ، وقوله: ففتقناهما إشارة إلى تشخّصاتها في الوجود

← «هلمّ أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده»، فقال عمر: إنّ النبيّ قد غلبه الوجع! وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله»، الحديث.

وروى أيضاً في خبر آخر عن سعيد بن جبير قال: كأنّي أنظر إلى دموع ابن عبّاس على خدّه كأنّها نظام اللّؤلؤ، وكان يقول: يوم الخميس وما يوم الخميس! قال النبيّ (ص): «إيتوني بالكتف والدّواة أكتب لكم كتاباً لاتضلّوا بعده أبداً»، فقالوا: إنّما يهجر النبيّ!.

راجع قاموس الرجال أيضاً، ج ٦، ص ٤٩١.ز

الخارجي وتميز بعضها عن بعض، وهذا القول مناسب للأقوال الثلاثة الأول، ويصلح تحقيقاً لها. ويحمل الريح الّتي ذكرها كعب على أمر الله تعالى إستعارة لما بينهما من المشابهة في السرعة.

السّادس، قال بعضهم: إنّ معنى الرّتق في هذه الآية هو انطباق دائرة معدّل النّهار على فلك البروج، ثمّ إنّ الفتق بعد ذلك عبارة عن ظهور الميل، قالوا: وممّا يناسب ذلك قول ابن عباس وعكرمة، فإنّهم لمّا قالوا: إنّ معنى كون السّماء رتقاً أنّها لاتمطر، ومعنى كون الأرض رتقاً أنّها لاتنبت، كان الفتق والرتق بالمعنى الّذي ذكرناه إشارة إلى أسباب ماذكروه، إذ انطباق الدائرتين وهو الرتق يوجب خراب العالم السفلي وعدم المطر، وظهور الميل الّذي هو الفتق يوجب وجود الفصول وظهور المطر والنبات وسائر أنواع المركبّات.

إذا عرفت (ذلك) هذا فاعلم، أن قوله عليه السّلام:

«ثمّ فتق مابين السّموات العلى».

موافق للأقوال الثلاثة الأولى مع القول الخامس، والتحقيق به أليق، وأمّا القول السّادس فهو بعيد المناسبة لقوله عليه السّلام، وبيان ذلك: أنّ قوله: ثمّ فتق مابين السّموات العلى إنّما هو في معرض بيان كيفيّة تخليق العالم الأعلى، ولذلك أردفه وعقّبه بالفاء في قوله:

«فملأهنّ أطواراً من ملائكته».

والرتق والفتق في هذا القول متأخّر عن كلام الأجرام العلويّة بما فيها وما يتعلّق بها ولا يقبل تقدّم ظهور الميل بوجهٍ مّا على وجود الملائكة السّماويّة وإسكانها أطباق السّماوات وبالله التوفيق.

(في بيان أنواع الملائكة وأصنافها)

البحث الثالث، الملائكة على أنواع كثيرة ومراتب متفاوتة. فالمرتبة الأولى، الملائكة المقربون كما قال تعالى:

﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون﴾ [سورة النساء: ١٧٢].

الثانية، الملائكة الحاملون للعرش، كقوله:

﴿الّذين يحملون العرش﴾ [سورة غافر: ٧].

وقوله:

﴿ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذٍ ثمانية﴾ [سورة الحاقة: ١٧].

الثّالثة، الحافّون حول العرش، كما قال تعالى:

﴿وترى الملائكة حافّين من حول العرش﴾ [سورة الزمر: ٧٥].

وقوله:

﴿ومن حوله﴾ [سورة غافر: ٧].

الرّابعة، ملائكة السّموات والكرسي.

الخامسة، ملائكة العناصر.

السادسة، الملائكة الموكّلون بالمركّبات من المعدن والنبات والحيوان.

السابعة، الملائكة الحفظة الكرام الكاتبون، كما قال تعالى:

﴿وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين﴾ [سورة الانفطار: ١٠].

ويدخل فيهم المعقّبات المشار إليه بقوله تعالى:

﴿له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ [سورة الرعد: ١١].

الثامنة، ملائكة الجنّة وخزنتها، كما قال تعالى:

﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم﴾ [سورة الزمر: ٧٣].

التّاسعة، ملائكة النار، كما قال تعالى:

﴿عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ [سورة التحريم: ٦].

وقال:

﴿عليها تسعة عشر﴾ [سورة المدثر: ٣٠].

وقال:

﴿وما جعلنا أصحاب النّار إلّا ملائكة﴾ [سورة المدثر: ٣١].

إذا عرفت ذلك، فنقول: اتّفق الكلّ على أنّ الملائكة ليس عبارة عن أشخاص جسمانيّة كثيفة تجيء وتذهب كالناس والبهائم بل القول المحصّل فيها قولان:

الأوّل، هو قول المتكلّمين: إنّها أجسام نورانيّة إلهيّة خيّرة سعيدة قادرة على التصرّفات السريعة، والأفعال الشاقّة، ذوات عقول وأفهام، وبعضها أقرب عند الله من البعض وأكمل درجة، كما قال تعالى حكاية عنهم:

﴿وما منّا إلّا له مقام معلوم﴾ [سورة الصافات: ١٦٤].

والقول الثاني، قول غيرهم وهي: أنّها ليست بأجسام لكنّ منهاما هو مجرّد عن الجسميّة، وعن تدبير الأجسام، ومنها من له الأمر الأوّل دون الثاني، ومنها من ليس بمجرّد بل جسمانيّ حالّ في الأجسام وقائم بها وهم في تنزيل المراتب المذكورة على قولهم تفصيل.

أمّا المقرّبون فإشارة إلى الذوات المقدّسة عن الجسميّة والجهة، وعن حاجتها إلى القيام بها وعن تدبيرها.

وأمّا حملة العرش فالأرواح الموكّلة بتدبير العرش، وقيل هم الثمانية المذكورة في القرآن الكريم:

﴿ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ [سورة الحاقة: ١٧].

وهم رؤساء الملائكة المدبّرين للكرسي والسّماوات السبع، وذلك أنّ هذه الأجرام لها كالأبدان فهي بأبدانها أشخاص حاملون للعرش فوقهم.

وأمّا الحافّون حول العرش فقيل: هم صفوف وأقربهم إلى العرش هي الأرواح الحاملة للكرسي، والموكّلة والمتصرّفة فيه.

وأمّا ملائكة السّماوات، فالأرواح الموكّلة بها والمتصرفة (المتعرّفة) فيها بالتحريك الإدارة (الإرادة) بإذن الله عزّ وجلّ، وكذلك ملائكة العناصر والجبال والبحار

والبراري والقفار وسائر المركّبات من المعدن والنبات والحيوان المسخر كلّ منها لفعله المخصوص على اختلاف مراتبها.

وأمّا الملائكة الحافظون الكرام الكاتبون فلهم فيها أقوال:

أحدها، قال بعضهم: إنّ الله تعالى خلط الطبايع المتضادّة ومزّج بين العناصر المتنافرة حتّى استعدّ ذلك الممزج بسبب ذلك الإمتزاج لقبول النّفس المدبّرة والقوى الحسيّة والمحرّكة.

فالمراد بتلك الحفظة الّتي أرسلها الله، هي تلك النفوس والقوى الّتي تحفظ تلك الطبايع المقهورة على امتزاجاتها وهي الضابطة على أنفسها أعمالها، والمكتوب في ألواحها صور ما تفعله لتشهد به على أنفسها يوم القيامة كما قال تعالى:

﴿قالوا شهدنا على أنفسنا وغرّتهم الحيوٰة الدّنيا وشهدوا علىٰ أنفسهم أنّهم كانوا كافرين﴾ [سورة الأنعام: ١٣٠].

وهي المعقّبات من بين يدي الإنسان ومن خلفه الحافظون له من أمر الله، وقيل: الحفظة للعباد غير الحفظة على العباد والكاتبين لأعمالهم، وسنشير إلى ذلك.

الثاني، قال بعض القدماء: إنّ هذه النفوس البشريّة والأرواح الإنسانيّة مختلفة بجواهرها، فبعضها خيّرة وبعضها شريرة، وكذا القول في البلادة، والزكاء والفجور والعفّة والحريّة والهذالة والشرف والدنائة وغيرها من الهيئات، ولكلّ طائفة من هذه الأرواح السفليّة روح سماويّ هو لها كالأب المشفق والسيّد الرحيم يعينها على مهمّاتها في يقظتها ومناماتها، تارة على سبيل الرؤيا وأخرى على سبيل الإلهامات، وهي مبدء لما يحدث فيها من خير وشرّ، وتعرف تلك المبادئ في مصطلحهم بالطباع التامّ، يعني أنّ تلك الأرواح الفلكيّة في تلك الطباع والأخلاق تامّة كاملة بالنسبة إلى هذه الأرواح السفليّة وهي الحافظة لها وعليها كما قال تعالى:

﴿في صحف مكرّمةٍ * مرفوعةٍ مطهّرة * بأيدي سفرةٍ * كرام بررةٍ﴾ [سورة عبس: ١٣ ـ ١٦].

الثالث، قول بعضهم: إنّ للنفوس المتعلّقة بهذه الأجساد مشاكلة ومشابهة مع

النفوس المفارقة عن الأجساد فيكون لتلك المفارقة ميل إلى النفوس الّتي لم تفارق فيكون لها تعلّق أيضاً بوجهٍ مّا بهذه الأبدان بسبب مابينها وبين نفوسها من المشابهة والموافقة فتصير معاونة لهذه النفوس على مقتضى طباعها، وشاهدة عليها كما قال تعالى:

﴿ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾ [سورة ق: ١٨].

﴿وجاءت كلّ نفس معها سائق وشهيد﴾ [سورة ق: ٢١].

وأمّا ملائكة الجنّة، فاعلم أنّ الجنان المذكورة في القرآن ثمان(٩٣)، وهي: ﴿جنّة

---

(٩٣) قوله: انّ الجنان المذكورة في القرآن ثمان... الخ.

أقول: كما أنّ للجنّة مراتب ودرجات ثمان المعبّر عنها بالأبواب تارة وبالدرجات أخرىٰ، وكذلك لجهنّم والجحيم أيضاً مراتب سبعة يعبّر عنها أيضاً بالأبواب والدّركات كما أنّ التعبير عن صاحب الجنّة أعني الملائكة الموكّلين بها بخازن وعن صاحب الجحيم بمالك، قرآنيّ.

وليعلم أنّ تعبير الأبواب وهكذا الأسماء كما سنذكرها ليس تعبيراً اعتبارياً صرفاً بل كل إسم وباب مقام ورتبة ولكلّ مرتبة أهل وصاحب من الواردين والواصلين على مراتب الإيمان والإخلاص والتوحيد، وكذلك مراتب الكفر والشرك والشقاوة بالنسبة إلى دركات الجحيم.

ونشير إلى الآيات الكريمة:

أمّا أنّ للجنّة والجحيم أبواب فيدلّ عليها قوله تعالىٰ:

﴿جنّات عدن مفتّحة لهم الأبواب﴾ [سورة ص: ٥٠].

وقوله تعالىٰ:

﴿وإنّ جهنّم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكلّ باب منهم جزء مقسوم﴾ [سورة الحجر: ٤٤]، وآيات أُخر فراجع القرآن.

وأمّا أنّ إسم صاحب الجنّة خازن، وانّ إسم صاحب الجحيم مالك فيدل عليه قوله تعالىٰ:

﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ [سورة الزّمر: ٧٣].

←

....

→ وقوله تعالىٰ:

﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربّك قال إنّكم ماكثون﴾ [سورة الزخرف: ٧٧].

ولا يخفىٰ أنّ في القرآن تعبير الخازن عن صاحب جهنّم أيضاً موجود ويدلّ عليه قوله تعالىٰ:

﴿وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربّكم﴾ [سورة الزّمر: ٧١].

وأمّا التعبير عن مراتب الجنّة بالدّرجات توجد في عدّة آيات، منها:

﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل الصّالحات فأولئك لهم الدرجات العلىٰ * جنّات عدن﴾ [سورة طٰه: ٧٥ ـ ٧٦].

وأمّا التعبير بالدّرك عن مراتب الجحيم، لقوله تعالىٰ:

﴿إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار﴾ [سورة النساء: ١٤٥].

أمّا درجات الجنّة وأسمائها فهي ثمانية كما أنّ أبوابها ثمانية، فهي: جنّة النعيم ـ جنّة عرضها كعرض السّماء والأرض ـ جنّة عدن ـ جنّة المأوىٰ ـ جنّة السّلام ـ جنّة الفردوس ـ جنّة عالية ـ جنّة الذّات.

ألف: جنّة النعيم: وهي مقام للمقرّبين والخليل (ع) طلبها من ربّه وقال في قوله تعالىٰ:

﴿ربِّ هب لي حكماً وألحقني بالصّالحين * واجعل لي لسان صدقٍ في الآخرين * واجعلني من ورثة جنّة النعيم﴾ [سورة الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥].

وأمّا المقرّبين في قوله تعالىٰ:

﴿فأمّا إن كان من المقرّبين فروح وريحان وجنّة النعيم﴾ [سورة الواقعة: ٨٩].

ب ـ جنّة عرضها كعرض السّماء والأرض:

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها السّمٰوات والأرض﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣].

وقوله تعالىٰ:

﴿سابقوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها السّماء والأرض﴾ [سورة الحديد: ٢١].

ج ـ جنّة عدن: قوله تعالىٰ:

﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيّبة في جنّات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾ [سورة التوبة: ٧٢].

←

. . . .

← وقوله تعالىٰ:

﴿إلّا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأُولٰئك يدخلون الجنّة ولا يُظلمون شيئاً * جنّات عدن الّتي وعد الرّحمٰن عباده بالغيب إنّه كان وعده مأتيّاً﴾ [سورة مريم: ٦٠ ـ ٦١].

وأمّا عباد الرّحمٰن فقد ذكر سبحانه وتعالىٰ أوصافهم في القرآن في سورة الفرقان:

﴿وعبادُ الرّحمٰن الّذين يمشون على الأرضِ هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً * والّذين يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً﴾ [الآيتان: ٦٣ ـ ٦٤].

وقوله تعالىٰ:

﴿وإنّ للمتّقين لحسن مآب * جنّات عدن مفتّحة لهم الأبواب﴾ [سورة ص: ٥٠].

د ـ جنّة المأوىٰ:

﴿ولقد رآه نزلة أخرىٰ * عند سدرة المنتهىٰ * عندها جنّة المأوىٰ﴾ [سورة النجم: ١٣ ـ ١٥].

هـ ـ جنّة السّلام:

﴿من خشيَ الرّحمٰن بالغيب وجاء بقلب منيب *ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود﴾[ق:٣٩].

﴿لهم دار السّلام عند ربّهم وهو وليّهم بما كانوا يعملون﴾ [سورة الأنعام: ١٢٧].

و ـ جنّة الفردوس:

﴿الّذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ [سورة المؤمنون: ١١].

﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات كانت لهم جنّات الفردوس نزلاً﴾ [سورة الكهف: ١٠٧].

ز ـ جنّة عالية:

﴿فهو في عيشة راضية * في جنّة عالية﴾ [سورة الحاقّة: ٢٢].

﴿وجوهٌ يومئذٍ ناعمة * لسعيها راضية * في جنّة عالية﴾ [سورة الغاشية: ٨ ـ ١٠].

ح ـ جنّة الذّات:

﴿يا أيّتها النّفس المطمئنّة * ارجعي إلىٰ ربّك راضية مرضيّة * فادخلي في عبادي * وادخلي جنّتي﴾ [سورة الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

إعلم نوّرك الله بأنوار كتابه انّ لكل مقام من مقامات الجنّة وأهلها وشرايط إحرازها بيان ليس المقام محلّه ولعلّ الله تعالىٰ يحدث بعد ذلك أمراً.

←

....

← أمّا الأحاديث، منها:

الخصال للصّدوق رحمه الله باب الثمانية، ص ٤٠٧، الحديث ٦، بإسناده عن الصادق (ع)، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ (ع) قال:

إنّ للجنّة ثمانية أبواب، باب يدخل منه النبيّون والصدّيقون. وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبّونا، فلا أزال واقفاً على الصّراط أدعو وأقول: ربّ سلّم شيعتي ومحبّي وأنصاري ومن تولّاني في الدّنيا، فإذا النّداء من بُطنان العرش قد أُجيبت دعوتك وشفّعت، في شيعتك ويشفع كلّ رجل من شيعتي ومن تولّاني ونصرني وحارب من حاربني بفعل أو قول في سبعين ألف من جيرانه وأقربائه. وباب يدخل منه سائر المسلمين ممّن شهد أن لا إله إلّا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرّة من بغضنا أهل البيت.

ومنها:

وفي المصدر أيضاً ص ٤٠١، الحديث ٧:

بإسناده عن جابر الجعفي عن الباقر (ع) قال:

أحسنوا الظنّ بالله، واعلموا أنّ للجنّة ثمانية أبواب عرض كلّ باب منها مسيرة أربعين سنة.

وأمّا أسماء دركات جهنّم وأبوابها وهي سبعة أبواب:

المهين، الحريق، السعير، الواصب، النُكر، الصعد، الحميم. ولكلٍّ أهل، ولواردها ذنب، أو أشدّ، أعني أنّ الوارد من كلّ باب، صاحب مرتبةٍ ودَرَكٍ من الجحيم وصاحب مرتبةٍ من الكفر أو الشرك والشقاوة والنفاق، وهذا يستفاد من الآيات والأحاديث، وللتفصيل مقام آخر. ونذكر هٰهنا من الكتاب بعض الآيات ومن الأحاديث حديثين فقط كما فعلنا في بيان مراتب الجنّة.

ألف ـ عذاب مهين = عذاب الهون، أشار به تعالىٰ في كتابه في آيات، منها:

﴿فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تفسقون﴾ [سورة الأحقاف: ٢٠].

ومنها:

﴿ولا يحسبنّ الذين كفروا إنّما نُملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنّما نُملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب ←

. . . .

← مهين ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٨].

ومنها:

﴿ومن النّاس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم ويتّخذها هزواً أُولٰئك لهم عذاب مهين ﴾ [سورة لقمان: ٦].

ب ـ عذاب الحريق، وفيه آيات، منها:

﴿لقد سمع الله قول الّذين قالوا إنّ الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حقّ ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ [سورة آل عمران: ١٨١].

ومنها:

﴿إنّ الّذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثمّ لم يتوبوا فلهم عذاب جهنّم ولهم عذاب الحريق ﴾ [سورة البروج: ١٠].

ج ـ عذاب السّعير، وفيه أيضاً آيات، منها:

﴿وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السّعير ﴾ [سورة لقمان: ٢١].

ومنها:

﴿فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السّعير ﴾ [سورة الملك: ١١].

ومنها:

﴿بل كذّبوا بالسّاعة واعتدنا لمن كذّب بالسّاعة سعيراً ﴾ [سورة الفرقان: ١١].

د ـ عذاب الواصب في قوله تعالىٰ:

﴿وحفظاً من كلّ شيطان مارد * لا يسّمّعون إلى الملإ الأعلىٰ ويقذفون من كلّ جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب ﴾ [سورة الصّافّات: ٧ ـ ٩].

هـ ـ عذاب النكر: في قوله تعالىٰ:

﴿أمّا من ظلم فسوف نعذّبه ثمّ يردّ إلى ربّه فيعذّبه عذاباً نكراً ﴾ [سورة الكهف: ٨٧].

و ـ عذاب الصّعد، في قوله تعالىٰ:

﴿ومن يعرض عن ذكر ربّه يسلكه عذاباً صعداً ﴾ [سورة الجن: ١٧].

ز ـ عذاب الحميم، في قوله تعالىٰ:

﴿الّذين كذّبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون * اذ الأغلال في أعناقهم

←

النعيم﴾ [سورة الشعراء: ٨٥]، و﴿جنّات الفردوس﴾ [سورة الكهف: ١٠٧]، و﴿جنّة

← والسّلاسل يسحبون * في الحميم ثمّ في النّار يسجرون﴾ [سورة غافر: ٧٢].

وفي قوله تعالىٰ:

﴿خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثمّ صبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنّك أنت العزيز الكريم﴾ [سورة الدّخان: ٤٩].

أمّا الدّركات السّبعة لجهنّم في الأحاديث نورد هٰهنا حديثين أيضاً كما فعلنا في نقل الحديث في درجات الجنّة:

١ ـ في كتاب الخصال ص ٣٥٢، باب السّبعة، الحديث ٣٣:

قال الصّادق (ع):

إنّ من العلماء من يحبّ أن يخزن علمه ولا يؤخذ عنه، فذاك في الدّرك الأوّل من النّار.

ومن العلماء من إذا وعظ أنف، وإذا وعظ عنف، فذاك في الدّرك الثّاني من النّار.

ومن العلماء من يرىٰ أن يضع العلم عند ذوي الثروة والشرف، ولا يرىٰ له في المساكين وضعاً، فذاك في الدّرك الثّالث من النّار.

ومن العلماء من يذهب في علمه مذهب الجبابرة والسّلاطين، فان ردّ عليه شيء من قوله أو قصّر في شيء من أمره غضب، فذاك في الدّرك الرّابع من النّار.

ومن العلماء من يطلب أحاديث اليهود والنصارىٰ ليغزّر به ويكثّر به حديثه، وذاك في الدّرك الخامس من النّار.

ومن العلماء من يضع نفسه للفتيا ويقول: سلوني... إلخ، ولعلّه لايصيب حرفاً واحداً والله لايحبّ المتكلّفين، فذاك في الدّرك السّادس من النّار.

ومن العلماء من يتّخذ علمه مروءة وعقلاً، فذاك في الدّرك السّابع من النّار.

٢ ـ في الخصال أيضاً، باب السّبعة، ص ٣٦١، الحديث ٥١:

عن الصّادق (ع)، عن أبيه، عن جدّه (ع) قال:

للنّار سبعة أبواب: باب يدخل منه فرعون وهامان وقارون، وباب يدخل منه المشركون والكفّار ممّن لم يؤمن بالله طرفة عين، وباب يدخل منه بنو أميّة هو لهم خاصّة لايزاحمهم فيه أحد، وهو باب لظىٰ، وهو باب سقر، وهو باب الهاوية تهوي بهم سبعين خريفاً، وكلّما هوىٰ بهم سبعين خريفاً فار بهم فورة قذف بهم في أعلاها سبعين خريفاً، ثمّ تهوي بهم كذلك سبعين خريفاً، فلا يزالون هكذا خالدين مخلّدين، وباب يدخل منه مبغضونا ومحاربونا وخاذلونا، وأنّه لأعظم الأبواب وأشدّها حرّاً. الحديث.

الخلد ﴾ [سورة الفرقان: ١٥]، و ﴿جنّة المأوىٰ ﴾ [سورة النجم: ١٥]، و ﴿جنّات عدن ﴾ [سورة مريم: ٦١ وفي سور كثيرة]، و ﴿دار السّلام ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٧]، و ﴿دار القرار ﴾ [سورة غافر: ٣٩]، و ﴿جنّة عرضها السّماوات والأرض أُعدّت للمتّقين ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣]، ومن وراء الكلّ عرش الرّحمٰن ذي الجلال والإكرام.

(سكّان الجنان وخزّانها)

إذا عرفت ذلك، فاعلم، أنّ هذه الجنان سكّاناً وخزّاناً من الملائكة.

أمّا السّكان، فهم الّذين عند ربّك لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون اللّيل والنّهار لا يفترون، وهم الّذين[٩٤] يتلقّون عباد الله الصالحين، بالشفقة والبشارة بالجنّة، وذلك أنّ الإنسان الطائع إذا أكملت طاعته وبلغ النهاية في الصورة الإنسانيّة واستحقّ بأعماله الصالحة وما اكتسبه من الأفعال الزكيّة صورة ملكيّة، ورتبة سماويّة تلقّيه الملائكة الطيّبون بالرأفة والرّحمة والشفقة، وتقبّلوه بالروح والرّيحان، وقبلوه كما تقبل القوابل والرايات أولاد الملوك بفاخر أمور الدّنيا وطيّبات روائحها من مناديل السندس والإستبرق، وبالفرح والسرور، ومرّوا به إلى الجنّة فيعاين من البهجة والسرور ما لا عين رأت[٩٥]، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب

---

(٩٤) قوله: فهم الّذين.

اقتباس من القرآن الحكيم، سورة الأنبياء، الآية ١٩ ـ ٢٠:

﴿وله من في السّمٰوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبّحون اللّيل والنّهار لا يفترون ﴾.

(٩٥) قوله: ما لا عين رأت.

هذه العبارة مقتبسة من حديث قدسيّ ورد في بيان درجة بعض المؤمنين ومنزلتهم في الجنّة يوم القيامة، وهذا لوجود بعض الأعمال والأوصاف عند هؤلاء المؤمنين الذين يوجب وصولهم إلى هذه الدرجة، ولا بأس هنا بذكر قسم من تلك الأعمال الّتي سينال

←

. . . .

← صاحبها تلك المكانة في الجنان:

منها، أنّها أجر لمن أحبّه الله سبحانه واكرامه له، روي هذا عن رسول الله(ص) في حديث في زواج فاطمة(ع)، قال رسول الله(ص) في ذلك الحديث:

«يا عليّ إنّ الله إذا أحبّ عبداً أكرمه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فقال عليّ: يا ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ، فقال النبيّ (ص) آمين آمين». بحار الأنوار ج ١٠٤، ص ٨٨، الحديث ٥٣، ودلائل الإمامة لأبي جعفر الطبري، ص ١٣، ومسند فاطمة (ع)، ص ١٧٩.

منها، أنّها ثواب زيارة قبر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) ذكره المجلسي في البحار ج ١٠٠، ص ١٢٠، الحديث ٢٢، نقلاً عن كتاب «فرحة الغري»، بإسناده عن الباقر (ع)، عن آبائه، عن رسول الله (ص)، قال:

«يا عليّ!... ومن زار قبوركم عدل ذلك ثواب سبعين حجّة بعد حجّة الإسلام وخرج من ذنوبه حتّىٰ يرجع من زيارتكم كيوم ولدته أمّه، فأبشر وبشّر أولياءك ومحبّيك من النعيم وقرّة العين بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

منها، أنّها أجر كلّ من استشهد في الجهاد، روي هذا عن الرضا (ع)، عن آبائه (ع)، عن أمير المؤمنين (ع)، عن رسول الله (ص)، قال:

«وإذا زال (فإذا أزيل) الشهيد عن فرسه بطعنة أو ضربة لم يصل إلى الأرض حتّىٰ يبعث الله عزّ وجلّ زوجتَهُ مِن الحور العين فتبشّره بما أعدّ الله له من الكرامة، فإذا وصل إلى الأرض تقول له: مرحباً بالروح الطيّبة الّتي أُخرجت من البدن الطيّب، أبشر فإنّ لك ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويقول الله عزّ وجلّ: أنا خليفته في أهله، ومن أرضاهم فقد أرضاني، ومن أسخطهم فقد أسخطني»، الحديث. بحار الأنوار ج ١٠٠، ص ١٢، الحديث ٢٧، وصحيفة الإمام الرضا (ع)، ص ٩١، الحديث ٢٧.

منها، أنّها ثواب الصدقة في رجب ابتغاء وجه الله تعالىٰ، رواه الصّدوق في «الأمالي»، ص ٤٣٥، الحديث ١، بإسناده عن أمير المؤمنين (ع)، قال:

«من تصدّق بصدقة في رجب ابتغاء وجه الله، أكرمه الله يوم القيامة في الجنّة من الثواب بما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

منها، أنّها أجر من يصلّي يوم الخميس ركعتين، رواه السيد الجليل ابن طاووس المتوفّىٰ
←

....

→ ٦٦٤ هـ في كتابه «جمال الاسبوع» ص ٧٨، عن رسول الله (ص)، قال:

«من صلّىٰ يوم الخميس ركعتين، يقرأ في الركعة الأولىٰ الحمد مرّة وثلاثمائة مرّة قل هو الله أحد، وفي الركعة الثانية الحمد مرّة ومائتي مرّة (ويأتي مرّة) قل هو الله أحد، بنى الله له ألف ألف مدينة في جنّة فردوس، وما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلوب المخلوقين»، الحديث. بحار الأنوار ج ٩٠، ص ٣١٢، الحديث ٤٢.

منها أنّها ثواب قراءة الدعاء المعروف بدعاء يستشير، ذكره السيد الجليل ابن طاووس في كتابه «مهج الدعوات» ص ١٢٢، أوّله: بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، الحمد لله الّذي لا إله إلّا هو الملك الحقّ المبين المدبّر بلا وزير ولا خلق من عباده يستشير... الدعاء، رواه السيد الجليل المذكور، بإسناده عن مولانا أمير المؤمنين (ع)، عن رسول الله (ص)، قال:

«ومن دعا به ثلاث مرّات لا يسأل الله عزّ وجلّ اسمه شيئاً من الخير في الدنيا والآخرة إلّا أعطاه سؤله بهذا الدعاء، ومنحه إيّاه بابن آدم وينجّيه الله عزّ وجلّ من عذاب القبر، ويصرف الله عزّ وجلّ عنه ضيق الصّدر، فإذا كان يوم القيامة، وافىٰ صاحب هذا الدّعاء على نجيبه من درّة بيضاء فيقوم بين يدي ربّ العالمين، ويأمر الله عزّ وجلّ له بالكرامة كلّها، ويقول الله تبارك وتعالى: عبدي تبوّأ من الجنّة حيث تشاء، مع ما له عند الله عزّ وجلّ من المزيد والكرامة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلوب المخلوقين ولا ألسنة الواصفين». بحار الأنوار ج ٨٦، ص ٣٣٠، الحديث ٧١.

منها، أنّها ثواب قطرة من الدّمع الّتي ذرفت من العين من خشية الله تعالىٰ، رواه الصّدوق (رض) في كتابه «ثواب الأعمال» ص ٣٤٤، الحديث ١، بإسناده عن ابن عبّاس، عن رسول الله (ص) في حديث طويل، قال:

«ومن ذرفت عيناه من خشية الله كان له بكلّ قطرة من دموعه مثل جبل أُحد يكون في ميزانه، وكان له من الأجر بكلّ قطرة عين من الجنّة، على حافّتيها من المدائن والقصور ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». راجع أيضاً «الأمالي» للصّدوق (رض)، ص ٣٥١.

منها، أنّها منزلة لمحبّي عليّ (ع) يوم القيامة في الجنّة، ورواه المجلسي في «البحار» ج ٤١، ص ١٧٠، الحديث ٧، عن الراوندي في «الخرائج»، بإسناده عن ابن عبّاس، عن النبيّ (ص) قال مخاطباً لعليّ (ع):

←

بشر، ويبق معهم عالماً درّاكاً ما شاء ربّك عطاء غير مجذوذ، ويتّصل بإخوانه المؤمنين في الدنيا أخباره وأحواله، ويتراءىٰ لهم في مناماتهم بالبشارة والسعادة وحسن المنقلب، وإذا كان يوم القيامة الكبرى عرجت به ملائكة الرحمة إلى جنان النعيم والسرور المقيم لايذوقون فيها الموت إلّا الموتة الأولى في غرف من فوقها غرف

← «أبشر فانّ لك ولمحبّيك ولشيعتك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

منها، أنّها ثواب من صام من رجب أربعة عشر يوماً، رواه الصّدوق (رض) في «الأمالي»، بإسناده عن أبي سعيد الخدري، عن النبيّ (ص) قال:

«ومن صام من رجب أربعة عشر يوماً أعطاه الله من الثواب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر من قصور الجنان الّتي بُنيت بالدرّ والياقوت». بحار الأنوار ج ٨، ص ١٧٠، الحديث ١١٣.

منها، أنّها ثواب نَفَس من أنفاس مولانا أمير المؤمنين ليلة بيتوتته على فراش رسول الله (ص)، رواه المجلسي عن التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع)، عن النبيّ (ص)، قال في الحديث:

«فيقولون: يا أخا رسول الله: تجعل لنا بإزاء ظلامتنا قِبله ثواب نَفَس من أنفاسك ليلة بيتوتتك على فراش محمّد (ص)، فيقول عليّ (ع): قد وهبت ذلك لكم، فيقول الله عزّ وجلّ: فانظروا يا عبادي الآن إلى ما نلتموه من عليّ، فداءً لصاحبه من ظلاماتكم، ويظهر لهم ثواب نَفَس واحد في الجنان من عجائب قصورها وخيراتها، فيكون ذلك ما يرضي الله به خصماء أُولئك المؤمنين، ثمّ يريهم بعد ذلك من الدرجات والمنازل ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على بال بشر». الحديث. بحار الأنوار ج ٨، ص ٦٠.

ومنها، أنّها منزلة للعباد الصالحين في الجنّة، روي هذا عن النبيّ (ص)، قال:

«قال الله تعالىٰ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير في سورة السجدة، باب ٤٤٣، الحديث ١٢٠٣، ج ٦، ص ٤٨١. ورواه الحنبلي في مسنده ج ٢، ص ٣١٣ و ص ٤٣٨، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنّة، ج ٤، ص ٢١٧٤، الحديث ٢ و ٣ و ٤ و ٥. أُنظر في هذا الحديث أيضاً تعليقنا الرقم ٦٥ في الجزء الأوّل من تفسير المحيط الأعظم ص ٣٠٧.

مبنيّة، تجري من تحتهم الأنهار، ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين﴾ [سورة يونس: ١٠].

قال بعض حكماء الإسلام: إنّ تلك الملائكة المتلقّية له بالروح والريحان هي روحانيّات الزهرة والمشتري وكأنّ القائل يقول: إنّ النفوس الإنسانيّة السعيدة إذا فارقت أبدانها وحملت القوّة المتوهّمة معها والهيئات المتخيّلة الّتي حصلت من الوعد الكريم في دار الدنيا من الجنان والحدائق والأنهار والأثمار والحور العين والكأس المعين واللؤلؤ والمرجان والولدان والغلمان فإنّه يفاض عليها بحسب استعدادها وطهارتها ورجاء ثواب الآخرة، صورة عقليّة في غاية البهاء والزينة مناسبة لما كانت متخيّلة من الأمور المذكورة مناسبةً مّا. ولما كان لهذين الكوكبين أثر تامّ في إعداد النفوس للمتخيّلات البهيّة الحسنة، وللفرح والسرور كما ينسب في المشهور إلى روحانيتها من الأفعال الحسنة نسب تلقّ الإنسان بعد المفارقة بالرأفة والرّحمة والشفقة إلى روحانيتها، والله أعلم.

أمّا الخزنة للجنان، فيشبه أن يكون هم السكّان لها أيضاً باعتبار آخر، وذلك أنّه لما كان الخازن هو المتولّي لأحوال أبواب الخزانة بفتحها وتفريق ما فيها على مستحقيها بإذن ربّ الخزانة ومالكها، وغلقها ومنعها عن غير مستحقّها وكانت الملائكة هم المتولّون لإفاضة الكمالات وتفريق ضروب الإحسان والنعم على مستحقّيها وحفظها ومنعها من غير مستحقّيها والمستعدّين بالطاعة لها بإذن الله وحكمته لاجرم صدق أنّهم خزّان الجنان بهذا الإعتبار، وهم الّذين يدخلون على المؤمنين من كلّ باب:

﴿سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدّار﴾ [سورة الرّعد: ٢٤].

قال بعض الفضلاء: إنّ العبد إذا راض نفسه حتّى استكمل مراتب القوّة النظريّة، ومراتب القوّة العمليّة فإنّه يستعدّ بكلّ مرتبة من تلك المراتب لكمال خاص يفاض عليه من الله تعالى وتأتيه الملائكة فيدخلون عليه من كلّ باب من تلك الأبواب بالسّلام والتحيّة والإكرام ثمّ إنّ الرضاء بقضاء الله من خير وشرّ، باب عظيم من تلك الأبواب فالملك الّذي يدخل على الإنسان منه برضاء الله كما قال تعالى:

﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [سورة المائدة: ١١٩].

هو رضوان خازن الجنان والله أعلم.

وأمّا ملائكة النّار، فقال بعض الفضلاء: هي تسعة عشر نوعاً من الزبانية ﴿لايعصون الله ما أمرهم﴾ [سورة التحريم: ٦]، وهم الخمسة الّذين ذكرنا أنّهم يوردون عليه الأخبار من خارج، ورئيسهم والخازنان والحاجب والملك المتصرّف بين يديه بإذن ربّه، وملكا الغضب والشّهوة، والسبعة الموكّلون بأمر الغذاء، وذلك أنّه إذا كان يوم الطامّة الكبرىٰ وكان الإنسان ممّن طغى وآثر الحياة الدّنيا حتّى كانت الجحيم هي المأوى كانت أولئك التسعة عشر من الزبانية هم الناقلين له إلى الهاوية بسبب ما استكثر من المشتهيات، واقترف من السيّئات وأعرض عن قوله تعالىٰ:

﴿وأن ليس للإنسان إلّا ما سعىٰ * وأنّ سعيه سوف يرىٰ * ثمّ يجزيه الجزاء الأوفىٰ * وأنّ إلىٰ ربّك المنتهىٰ﴾ [سورة النجم: ٣٩ ـ ٤١].

واعلم وفّقك الله أنّ هؤلاء الّذين ذكر هذا القائل، أنّهم ملائكة النّار ربّما كانوا أيضاً مع إنسان آخر من ملائكة الجنان، وذلك إذا استخدمهم ذلك الإنسان في دار الدنيا على وفق أوامر الله، وأوفقهم على طاعة الله دون أن يطلب منهم فوق ما خلقوا لأجله وأمروا به من طاعته، ويعبر بهم إلى معصية الله وارتكاب نواهيه ومحارمه وبالله التوفيق.

البحث الرابع، أنّه عليه السّلام ذكر من الملائكة أنواعاً وأشار بالسجود والركوع والصفّ والتسبيح إلى تفاوت مراتبهم في العبادة والخضوع (الخشوع)، وذلك أنّ الله سبحانه قد خصّ كلّاً منهم بمرتبة معيّنة من الكمال في العلم والقدرة لايصل إليها من دونه، وكلّ من كانت نعمة الله عليه أكمل وأتمّ كانت عبادته أعلى وطاعته أوفى ثمّ إنّ السجود والركوع والصفّ والتسبيح عبادات متعارفة بين الخلق ومتفاوتة في استلزام كمال الخضوع والخشوع، ولا يمكن حملها على ظواهرها المفهومة منها لأنّ وضع الجبهة على الأرض وانحناء الظهر والوقوف في خطّ واحد وحركة اللسان بالتسبيح أمور مبنيّة على وجود هذه الآلات الّتي هي خاصّة ببعض الحيوانات فبالحريّ أن يحمل تفاوت المراتب المذكورة لهم على تفاوت كمالاتهم في الخضوع والخشوع

لكبرياء الله وعظمته إطلاقاً للفظ الملزوم على لازمه على أنّ السجود في اللغة هو الإنقياد والخضوع كما مرّ.

إذا عرفت ذلك، فنقول: يحتمل أن يكون قوله عليه السّلام: منهم سجود، إشارة إلى مرتبة الملائكة المقربين لأنّ درجتهم أكمل درجات الملائكة فكانت نسبة عبادتهم وخضوعهم إلى خضوع من دونهم كنسبة خضوع السجود إلى خضوع الركوع.

فإن قلت: إنّه قد تقدّم أنّ الملائكة المقربين مبرّؤن عن تدبير الأجسام والتعلّق بها فكيف يستقيم أن يكونوا من سكّان السّماوات ومن الأطوار الّذين ملئت بهم.

قلت: إنّ علاقة الشّيء بالشيء وإضافته إليه يكفي فيها أدنى مناسبة بينهما، والمناسبة ههنا حاصلة بين الأجرام السماويّة وبين هذا الطور من الملائكة وهي مناسبة العلّة للمعلول أو الشرط للمشروط، فكما جاز أن ينسب الباري جلّ جلاله إلى الإختصاص بالعرش والإستواء عليه في لفظ القرآن الكريم مع تنزيهه تعالى وتقدّسه عن هذا الظّاهر، ولم يجز في الحكمة أن يكشف للخلق من عظمة الحقّ سبحانه أكثر من هذا القدر، فكذلك جاز أن ينسب الملائكة المقربون إلى الكون في السّماوات بطريق الأولى وان تنزّهوا عن الأجسام وتدبيرها، لأنّ عليّاً عليه السّلام قاصد مقصد الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، وقصد القرآن الكريم وناطق به، فليس له أن يفصح بما تنبوا عنه الأفهام، وبالله التوفيق.

وقوله: وركوع، يشبه أن يكون إشارة إلى حملة العرش إذ كانوا أكمل ممّن دونهم فكانت نسبة عبادتهم إلى عبادة من دونهم كنسبة خضوع الركوع إلى خضوع الصفّ.

قوله: وصافّون، يحتمل أن يكون إشارة إلى الملائكة الحافّين من حول العرش.

قيل: إنّهم يقفون صفوفاً لأداء العبادة كما أخبر تعالىٰ عنهم:

﴿وإنّا لنحن الصّافّون﴾ [سورة الصّافات: ١٦٥].

وتحقيق ذلك، أنّ لكلّ واحد منهم مرتبة معيّنة ودرجة معيّنة من الكمال يخصّه وتلك الدرجات باقية غير متغيّرة وذلك يشبه الصفوف.

وممّا يؤيّد القول بأنّهم الحافّون حول العرش ما جاء في الخبر(٩٦):

أنّ حول العرش سبعين ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم أحد إلّا وهو يسبّح.

قوله: ومسبّحون، يحتمل أن يكون المراد بهم الصّافون وغيرهم من الملائكة، والواو العاطفة وإن اقتضت المغايرة إلّا أنّ المغايرة حاصلة، إذ هم من حيث هم صافّون غيرهم من حيث هم مسبّحون، وتعدّد هذه الاعتبارات يسوّغ تعديد الأقسام بحسبها، وعطف بعضها على بعض، ويؤيّد ذلك الجمع بين كونهم صافّين وبين كونهم مسبّحين في قوله تعالى:

﴿**وإنّا لنحن الصّافّون * وإنّا لنحن المسبّحون**﴾ [سورة الصافات: ١٦٥].

ويحتمل أن يريد نوعاً وأنواعاً أُخر من ملائكة السّماوات، فأمّا سلب الركوع عن السّاجدين، وسلب الإنتصاب عن الراكعين، وسلب المزائلة عن الصافّين، وسلب السأم عن المسبّحين، فإشارة إلى كمال في مراتبهم المعيّنة، كلّ بالنّسبة إلى من هو دونه، وتأكيد لها بعدم النقصانات اللاحقة فإنّ الركوع وإن كان عبادة إلّا أنّه نقصان بالنّسبة إلى السّجود، والإنتصاب نقصان في درجة الراكع بالنّسبة إلى ركوعه، وكذلك التزايل انفصال عن مرتبة الصفّ ونقص فيها، وكذلك السأم في التسبيح نقصان فيه وإعراض عن الجهة المقصودة به وأيضاً فالسأم والملال عبارة عن إعراض النفس عن الشيء بسبب كلال بعض القوى الطبيعيّة عن أفعالها، وذلك غير متصوّر في حقّ الملائكة السّماويّة. وأمّا سلب غشيان النوم عنهم في قوله لا يغشاهم نوم العيون فهو ظاهر الصّدق:

وبيانه أنّ غشيان النوم لهم مستلزم لصحّة النوم عليهم واللّازم باطل في حقّهم فالملزوم مثله، أمّا الملازمة فظاهرة، وأمّا بطلان اللّازم فلأنّ النوم عبارة عن تعطيل

(٩٦) قوله: ما جاء في الخبر ـ لم أجد هذا الخبر بعدما بحثت في كتب التفسير والحديث من الشيعة والسنّة.

الحواس الظاهرة عن أفعالها لعدم انصباب الروح النفساني إليها ورجوعها بعد الكلال والضعف، والملائكة السّماويّة منزّهون عن هذه الأنساب والآلات، فوجب أن يكون النوم غير صحيح في حقّهم فوجب أن لايغشاهم، وأمّا سلب سهو العقول وغفلة النسيان.

فاعلم أنّ الغفلة عبارة عن عدم التفطن للشيء وعدم تعقّله بالفعل، وهي أعمّ من السّهو والنسيان، وكالجنس لهما.

بيان ذلك أنّ السّهو هو الغفلة عن الشيء مع بقاء صورته، أو معناه في الخيال، أو الذّكر بسبب اشتغال النّفس والتفاتها إلى بعض مهمّاتها، وأمّا النسيان فهو الغفلة عنه مع انمحاء صورته، أو معناه عن إحدى الخزانتين بالكلّيّة، ولذلك يحتاج النّاسي للشيء إلى تجشّم كسب جديد وكلفة في تحصيله ثانيا، ولهذا يظهر الفرق بين الغفلة والسّهو والنّسيان.

وإذا عرفت ذلك ظهر أنّ هذه الأمور الثلاثة من لواحق القوى الإنسانيّة، فوجب أن تكون مسلوبة عن الملائكة السّماويّة لسلب معروضاتها عنهم، ولمّا ذكر سهو العقول ونفاه عنهم أردفه بسلب ماهو أعمّ منه وهو الغفلة لاستلزام سلبها سلب النسيان، وقد كان ذلك كافياً في سلب النسيان إلّا أنّه أضاف الغفلة إليه ليتأكّد سلبه بسلبها.

وأمّا قوله: ولا فترة الأبدان، فلأنّ الفترة هي وقوف الأعضاء البدنيّة عن العمل وقصورها بسبب الخلل الأرواح البدنيّة وضعفها ورجوعها للإستراحة، وكلّ ذلك من توابع المزاج الحيواني فلا جرم صدق سلبها عنهم.

قوله: ومنهم أمناء على وحيه وألسنة رسله مختلفون بقضائه وأمره.

يشبه أن يكون هذا القسم داخلاً في الأقسام السابقة من الملائكة، وإنّما ذكره ثانياً باعتبار وصف الأمانة على الوحي والرّسالة، والإختلاف بالأمر إلى الأنبياء عليهم السّلام وغيرهم، لأنّ من جملة الملائكة المرسلين جبرئيل عليه السّلام وهو من الملائكة المقرّبين.

واعلم لمّا ثبت أنّ الوحي وسائر الإضافات (الإفاضات) من الله تعالى على عباده إنّما هو بواسطة الملائكة، كما علمت كيفيّة ذلك، لاجرم صدق أنّ منهم أمناء على وحيه وألسنة إلى رسله إذ كان الأمين هو الحافظ لما كلّف بحفظه على ماهو عليه ليؤدّيه إلى مستحقّه.

وإفاضة الوحي النازل بواسطة الملائكة محفوظة نازلة كما هي مبرّاة عن الخلل الصّادرة عن سهو لعدم معروضات السهو هناك، أو عن عمد لعدم الدّاعي إليه، ولقوله تعالى:

﴿يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [سورة النحل: ٥٠].

وأمّاكونهم ألسنة إلى رسله، فهي استعارة حسنة، إذ يقال: فلان لسان قومه، أي المفصح عن أحوالهم والمخاطب عنهم فيطلق عليه اسم اللسان لكونه مفصحاً عمّا في النفس، ولمّا كانت الملائكة وسائط بين الحقّ سبحانه، وبين رسله في تأدية خطابه الكريم إليهم لاجرم حسن استعارة هذا اللفظ لهم لمكان المشابهة.

والمراد هٰهنا بالإختلاف: «التّردد بأمر الله» وما قضى به مرّة بعد أخرى، وبالقضاء: الأمور المقضيّة إذ يقال: هذا قضاء الله أي مقضي الله، ولا يراد به المصدر فانّ معنى ذلك هو سطر ماكان وما يكون في اللوح المحفوظ بالعلم الإلهي، وذلك أمر قد فرغ منه، كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم:

جفّ القلم بما هو كائن(٩٧).

---

(٩٧) قوله: جفّ القلم بما هو كائن.

ورد الحديث بألفاظ مختلفة نشير إلى بعضها فيما يلي:

روى القمّي (رض) في تفسيره ج ٢، ص ٢١٠، في سورة فاطر الآية ٤٥: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بماكسبوا﴾، بإسناده عن السكوني، عن الإمام الصادق (ع)، عن أبيه الإمام الباقر (ع)، قال: قال رسول الله (ص):

«سبق العلم، وجفّ القلم، ومضى القضاء، وتمّ القدر»، الحديث. ورواه أيضاً الصدوق (رض) في «التوحيد» باب المشيّة والإرادة، الحديث ١٣، ص ٣٤٣، بإسناده عن معاذ بن

←

. . . .

← جبل، عن النبيّ (ص)، وبإسناده عن عبدالله بن عمر، عن النبيّ (ص) الحديث ١٠، ص ٣٤٠.

وروى أيضاً عن الإمام الصادق (ع) أنّه قال:

«الصّمت شعار المحقّقين بحقائق ما سبق وجفّ القلم به». مصباح الشريعة، الباب السابع والعشرون.

وأخرج النسائي في سننه، باب النهي عن التبتّل، ج ٦، ص ٥٩، بإسناده عن أبي سَلَمَة، عن النبيّ (ص)، قال: «جفّ القلم بما أنت لاق».

وأخرج ابن ماجة في سننه ج ١، باب في القدر، ص ٣٥، الحديث ٨٩، بإسناده عن جابر، عن رسول الله (ص) قال: «ما قُدّر لنفس شيء إلّا هي كائنة».

وفي الحديث ٩١، بإسناده عن سُراقة بن جعشم، قال: قلت: يا رسول الله! العمل فيما جفّ القلم وجرت به المقادير أم في أمر مستقبل؟ قال: «بل فيما جفّ به القلم وجرت به المقادير، وكلّ ميسّرٌ لما خلق له».

وأخرج الترمذي في «الجامع» ج ٤، ص ٦٦٧، الحديث ٢٥١٦، بإسناده عن ابن عبّاس، عن النبيّ (ص) قال:

«واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلّا بشيء قد كتبه الله علي:، رفعت الأقلام وجفّت الصّحف».

وأخرج ابن داود في سننه ج ٢، باب ما جاء في العزل، ص ٢٥٢، الحديث ٢١٧٢/٣، عن أبا سعيد الخدري، عن النبيّ (ص) قال: «ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلّا وهي كائنة».

وأخرج ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ١٧٦ وص ١٩٦، بإسناده عن عبدالله بن عمر، عن النبيّ (ص) قال: «إنّ الله عزّ وجلّ خلق خلقه في ظلمة، ثمّ ألقىٰ عليهم من نوره يومئذ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدىٰ ومن أخطأه ضلّ فلذلك أقول: جفّ القلم على علم الله عزّ وجلّ».

أقول: وهناك أحاديث أخرىٰ لها مناسبة وعلاقة للمقام وردت في تفسير «القلم» نأتي بطَرَف منها في ما يلي:

←

....

روى القمّي (رض) في تفسيره في سورة القلم ج ٢، ص ٣٧٩، بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال: إنّ الله خلق القلم من شجرة في الجنّة يُقال لها الخُلد، ثمّ قال لنهر في الجنّة كن مداداً فجمد النهر، وكان أشدّ بياضاً من الثلج وأحلىٰ من الشّهد، ثمّ قال للقلم: اكتب، قال: وما أكتب يا ربّ، قال: اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب القلم في رقّ أشدّ بياضاً من الفضّة وأصفىٰ من الياقوت، ثمّ طواه فجعله في ركن العرش، ثمّ ختم على فم القلم فلم ينطق بعدُ ولا ينطق أبداً، فهو الكتاب المكنون الذي منه النُسَخُ كلّها.

وروى الصدوق (رض) في «العلل» في حديث بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال: «وأمّا (نون) فكان نهراً في الجنّة أشدّ بياضاً من الثلج وأحلىٰ من العسل، قال الله تعالىٰ له: كن مداداً فكان مداداً، ثمّ أخذ شجرة فغرسها بيده، ثمّ قال: واليد القوّة وليس بحيث تذهب إليه المشبهة، ثمّ قال لها كوني قلماً، ثمّ قال له: اكتب فقال له: يا ربّ وما أكتب، قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، ففعل ذلك، ثمّ ختم وقال: لاتنطقن إلى يوم الوقت المعلوم». علل الشرايع، باب ١٤١، الحديث ٢، ص ٤٠٢.

وروي أيضاً في «معاني الأخبار» في حديث بإسناده عن سفيان بن سعيد الثوري، عن الإمام الباقر (ع) قال: «وأمّا (نون) فهو نهر في الجنّة قال الله عزّ وجلّ: (أجمد) فجمد فصار مداداً، ثمّ قال عزّ وجلّ للقلم: (اكتب) فسطر القلم في اللّوح المحفوظ ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة. فالمداد مداد من نور، والقلم قلم من نور، واللّوح لوح من نور. وقال سفيان: فقلت له: يا ابن رسول الله: بيّن لي أمر اللّوح والقلم والمداد فضل بيان، وعلّمني ممّا علّمك الله. فقال: يا ابن سعيد لولا أنّك أهل للجواب ما أجبتك، فنون ملك يؤدّي إلى القلم وهو ملك، والقلم يؤدّي إلى اللّوح وهو ملك، واللّوح يؤدّي إلى إسرافيل، وإسرافيل يؤدّي إلى ميكائيل، وميكائيل يؤدّي إلى جبرئيل، وجبرئيل يؤدّي إلى الأنبياء والرّسل صلوات الله عليهم، قال: ثمّ قال لي: قم يا سفيان فلا آمن عليك». معاني الأخبار، باب معاني الحروف المقطّعة، الحديث ١، ص ٢٣.

وروي أيضاً فيه بإسناده عن ابراهيم الكرخيّ أنّه سأل الإمام الباقر (ع)، عن اللّوح والقلم، فقال (ع): «هما ملكان». معاني الأخبار، ص ٣٩، الحديث ١، باب معنى اللّوح والقلم.

وروي أيضاً في أماليه المجلس الثاني والخمسون، ص ٢٦١، الحديث ٢، بإسناده عن

. . . .

← الأصبغ بن نباتة، عن أمير المؤمنين (ع) في (حديث) قال: «وأمّا النّون، فنون والقلم وما يسطرون، فالقلم قلم من نور وكتاب من نور في كتاب من نور في لوح محفوظ يشهده المقرّبون وكفىٰ بالله شهيداً. الحديث.

(أقول: لايخفىٰ على المتأمّل المحقّق أنّ هذه الأحاديث تفسّر بعضها بعضاً، فلهذا نذكر هنا بعضها مع بعض، فلا تغفل).

وفي «الدرّ المنثور» ج ٨، ص ٢٤١، في سورة القلم، عن معاوية بن قرّة، عن أبيه، قال: قال رسول الله (ص): « ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ قال: لوح من نور، وقلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة» .

وفيه أيضاً عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله (ص): «إنّ أوّل ما خلق الله القلم والحوت، قال: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: كلّ شيء إلى يوم القيامة، ثمّ قرأ ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ فالنون الحوت والقلم القلم».

وفيه أيضاً عن عبادة بن الصّامت، (قال:) سمعت رسول الله (ص) يقول: «إنّ أوّل ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرىٰ بما هو كائن إلى الأبد». الجامع الصحيح للترمذي ج ٥، ص ٤٢٤، الحديث ٣٣١٩، من كتاب تفسير القرآن، باب ٦٧ في تفسير سورة «ن».

وفي «الدرّ المنثور» أيضاً عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: «إنّ أول شيء خلق الله القلم، ثمّ خلق النون، وهي الدّواة، ثمّ قال له: اكتب، قال وما أكتب؟ قال: ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، وذلك قوله: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾، ثمّ ختم على في القلم فلم ينطق، ولا ينطق إلى يوم القيامة، ثمّ خلق الله العقل، فقال، وعزّتي لأكملنّك فيمن أحببت ولأنقصنّك فيمن أبغضت».

هذا وفي المقام روايات أخرىٰ لا بأس بذكرها، وهي هذه:

روى الكليني (رض) في الكافي ج ٥، باب الإجمال في الطّلب، الحديث ٩، ص ٨١، بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال: «كان أمير المؤمنين (ع) كثيراً ما يقول: «اعلموا علماً يقيناً، أنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل للعبد وان اشتدّ جهده وعظمت حيلته وكثرت مكابدته أن يسبق ما سمّي له في الذّكر الحكيم، ولم يحلّ من العبد في ضعفه وقلّة حيلته أن يبلغ ما سمّي له في الذّكر الحكيم»، الحديث. راجع أيضاً «نهج البلاغة» الحكمة ٢٧٣، و «تحف العقول» ص ١٥٥، و«التهذيب» ج ٦، باب المكاسب، الحديث ٤، ص ٣٢٢.

←

. . . .

→ وروى الصدوق (رض) في «التوحيد» باب القضاء، الحديث ٣، ص ١٦٥، بإسناده عن عبدالملك بن عَنْتَرَةَ الشّيبانيّ، عن أبيه، عن جدّه، قال: جاء رجل إلى أمير المؤمنين (ع) فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، قال (ع): «بحر عميق فلا تلجه»، قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال (ع): «سرّ الله فلا تكلّفه (تتكلّفه)»، قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال أمير المؤمنين (ع): «أمّا إذا أبيت فإنّي سائلك، أخبرني أكانت رحمةُ الله للعباد قَبْلَ أعمال العباد، أم كانت أعمال العباد قَبْلَ رحمة الله؟»، قال: فقال الرّجل: بل كانت رحمةُ الله قَبْلَ أعمال العباد، فقال أمير المؤمنين (ع): قوموا فسلّموا على أخيكم فقد أسلم وقد كان كافراً، الحديث.

وفيه أيضاً بإسناده عن الأصبغ بن نباتة، قال: قال أمير المؤمنين (ع) في القدر: «ألا إنّ القدر سرٌّ من سرّ الله، وستر من ستر الله، وحرز من حِرز الله، مرفوع في حجاب الله، مطويّ عن خلق الله، مختوم بخاتم الله، سابق في علم الله، وضع الله العباد عن علمه، ورفعه فوق شهاداتهم ومبلغ عقولهم لأنّهم لاينالونه بحقيقة الربّانيّة ولا بقدرة الصمدانيّة ولا بعظمة النورانيّة ولا بعزّة الوحدانيّة، لأنّه بحرٌ زاخرٌ خالصٌ لله تعالىٰ، عُمقه ما بين السّماء والأرض، عَرْضُه ما بين المشرق والمغرب، أسود كاللّيل الدّامس، كثيرُ الحيّات والحيتان، يعلو مرّة ويسفل أُخرىٰ، في قعره شمس تضيئ، لاينبغي أن يطّلع إليها إلّا الله الواحد الفرد، فمن تطلّع إليها فقد ضادّ الله عزّ وجلّ في حكمه ونازعه في سلطانه، وكشف عن ستره وسرّه، وباء بغضب من الله ومأواه جهنّم وبئس المصير. التوحيد، ص ٣٨٣، الحديث ٣٢.

وهناك بعض الآيات القرآنية نذكرها مزيداً للفايدة وتطبيقاً بين الأحاديث المذكورة وبين هذه الآيات، فهي هذه:

﴿ إنّا كلّ شيءٍ خلقناه بقدر * وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر ﴾ [سورة القمر: ٤٩ - ٥٠].

﴿ وكلّ صغير وكبير مستطر ﴾ [سورة القمر: ٥٣].

﴿ وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزّله إلّا بقدر معلوم ﴾ [سورة الحجر: ٢١].

﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة إنّ الله سميع بصير ﴾ [سورة لقمان: ٢٨].

﴿ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلّا هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين ﴾ [سورة الأنعام: ←

فإن قلت: كيف يصحّ أن يكون هذا القسم داخلاً في السجود، لأنّ من كان أبداً ساجداً كيف يتصوّر أن يكون مع ذلك متردّداً في الرسالة والنزول والصعود مختلفاً بالأوامر والنّواهي إلى الرّسل عليهم السّلام.

قلت: إنّا بيّنا أنّه ليس المراد بسجود الملائكة هو وضع الجبهة على الأرض بالكيفيّة الّتي نحن عليها، وإنّما هو عبارة عن كمال عبوديّتهم لله تعالى وخضوعهم تحت قهر قدرته وذلّتهم برقّ الامكان والحاجة تحت ملك وجوب وجوده، ومعلوم أنّه ليس بين السجود بهذا المعنى وبين تردّدهم بأوامر الله تعالى واختلافهم بقضائه على وفق مشيّته وأمره منافاة، بل كلّ ذلك من كمال عبوديّتهم وخضوعهم لعزّته واعترافهم بكمال عظمته.

قوله: ومنهم الحفظة لعباده.

فاعلم، أنّ في هذا القسم مطلوبين: أحدهما ما الحفظة؟ والثّاني ما المراد منهم؟

ثمّ الحفظة، منهم حفظة للعباد، كما قال تعالى:

﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ [سورة الرعد: ١١].

← ٥٩].

﴿ونكتب ما قدّموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [سورة يس: ١٢].

﴿وما من دابّة في الأرض إلّا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلّ في كتاب مبين﴾ [سورة هود: ٦].

﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلّا في كتاب من قبل أن نبرأها إنّ ذلك على الله يسير﴾ [سورة الحديد: ٢٢].

﴿ولكلّ أمّة أجل فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [سورة الأعراف: ٣٤].

فتأمّل أيّها القارئ العزيز أنّ هذه كلّها تشتمل على الأمور التكوينيّة وغيرها ممّا هو مرتبط بالإنسان من الأفعال والأرزاق وغيرها، وهذا معنى: «فكلّ ميسّر لما خلق له»، فراجع تعليقنا ٦٩ في الجزء الأوّل، ولا ينافي هذا كلّه بأن يصدر أعمالنا وأفكارنا باختيارنا.

ومنهم حفظة على العباد، كما قال تعالى:

﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ [سورة الأنعام: ٦١].

والمراد من الأوّلين حفظ العباد بأمر الله تعالى من الآفات الّتي تعرض لهم، ومن الآخرين ضبط الأعمال والأقوال من الطاعات والمعاصي كما قال:

﴿كراماً كاتبين * يعملون ماتفعلون﴾ [سورة الانفطار: ١١ ـ ١٢].

وكقوله:

﴿ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾ [سورة ق: ١٨].

قال ابن عبّاس(٩٨):

---

(٩٨) قوله: قال ابن عبّاس: إنّ مع كلّ انسان ملكين... الخ.

روى الكليني (رض) في «الأصول من الكافي» ج ٢، ص ٤٢٩، باب من يهمّ بالحسنة أو السيّئة، الحديث ٤، بإسناده عن الصادق (ع) قال: قال رسول الله (ص): «أربع من كنّ فيه لم يهلك على الله بعدهنّ الّا هالك: يهمّ العبد بالحسنة فيعملها فإن هو لم يعملها كتب الله له حسنة بحسن نيّته وإن هو عملها كتب الله له عشراً، ويهمّ بالسيّئة أن يعملها فإن لم يعملها لم يكتب عليه شيء وإن هو عملها أُجّلَ سبع ساعات، وقال صاحب الحسنات لصاحب السيّئات وهو صاحب الشمال: لاتعجل عسىٰ أن يتبعها بحسنة تمحوها، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إنّ الحسنات يُذهبن السيّئات﴾ [سورة هود: ١١٥].

أو الإستغفار فإن هو قال: أستغفر الله الّذي لا إله إلّا هو، عالم الغيب والشّهادة العزيز الحكيم، الغفور الرّحيم، ذو الجلال والإكرام وأتوب إليه، لم يُكتب عليه شيء وإن مضت سبع ساعات ولم يتبعها بحسنة واستغفار قال صاحب الحسنات لصاحب السيّئات: اكتب على الشقيّ المحروم.

وروى الطبرسي (رض) في «جوامع الجامع» في سورة ق الآية ١٨:

﴿وما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾.

عن النبيّ الخاتم (ص) قال:

كاتب الحسنات على يمين الرّجل، وكاتب السيّئات على يساره، وصاحب اليمين أميرٌ على صاحب الشمال، فإذا عمل حسنة كتبها مَلَك اليمين عشراً، وإذا عمل سيّئة قال صاحب

←

إنّ مع كلّ إنسان ملكين أحدهما على يمينه والآخر على يساره، فإذا تكلّم الإنسان بحسنة كتبها من على يمينه، وإذا تكلّم بسيّئة قال من على اليمين لمن على اليسار: انتظر لعلّه يتوب منها، فإن لم يتب كتب عليه.

قال المفسرون: فائدة ذلك انّ المكلّف إذا علم أنّ الملائكة موكلون به يحضرون عليه أعماله ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد في موقف القيامة، كان ذلك أزجر له عن القبائح.

واعلم، أنّه يحتمل أن يكون التعدّد المذكور في الحفظة تعدّداً بحسب الذوات، ويحتمل أن يكون بحسب الإعتبار.

قال بعض من زعم أنّ الحفظة للعباد هي القوى (الّتي أرسلها الله تعالى من سماء جوده على الأبدان البشريّة:

يحتمل أن يكون الحفظة على العباد هي مبادئ تلك القوى)، ويكون معنى كِتبة السيّئات والحسنات وضبطها على العباد إمّا باعتبار مايصدر ويتعدّد عن العبد من السيّئات والحسنات في علم تلك المبادئ، أو يكون معناها كِتبة صور الأفعال الخيريّة والشرّية إلى العبد بقلم الإفاضة في لوح نفسه بحسب استعدادها لذلك. قال: ويشبه أن تكون إشارة ابن عباس رضي الله عنه، بانتظار ملك اليسار كاتب السيّئات توبة العبد إلى أنّه مادامت السيّئة حالة غير ممكنة من جوهر نفس العبد، فإنّ رحمة الله تعالى تسعة فإذا تاب من تلك السيّئة لم تكتب في لوح نفسه، وإن لم يتب حتّى صارت

← اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعلّه يسبّح ويستغفر.

وروى قريباً منه السيوطي في «الدرّ المنثور» في تفسير الآية المذكورة عن ابن عبّاس (رض)، ج ٧، ص ٥٩٤.

وأخرج البغوي في «معالم التنزيل» ج ٥، ص ٢١٤ في تفسير الآية المذكورة، بإسناده عن أبي أمامة، عن النبيّ الخاتم (ص) قال:

كاتب الحسنات على يمين الرّجل، وكاتب السيّئات على يسار الرّجل، وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيّئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً، وإذا عمل سيّئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعلّه يسبّح أو يستغفر.

ملكة راسخة في نفسه كتب وعذّب بها يوم تقوم الساعة.

قال: ويحتمل أن يكون الحفظة على العباد هم بأعيانهم من الحفظة لهم، فإنّ النّفس تحفظ في جوهرها مايفعله من خير وشرّ وتحصّيه يوم البعث على نفسها إذا زالت عنها الغواشي البدنيّة وتجده مصوّراً مفصّلاً لايغيب عنها منه شيء كما قال تعالى:

﴿يوم تجد كلّ نفس ماعملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ [سورة آل عمران: ٣٠].

وكما قال تعالى:

﴿ونخرج له يوم القيمة كتاباً يلقيه منشوراً * إقرأ كتابك كفىٰ بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [سورة الإسراء: ١٣ ـ ١٤].

وكما قال تعالى:

﴿إذا بعثر ما في القبور * وحُصّل ما في الصّدور﴾ [سورة العاديات: ٩ ـ ١٠].

وقال: وأمّا معنى كونهم من ملائكة السّماء فلأن أصلهم من ملائكة السّماء، ثمّ أُرسلوا إلى الأرض، والله أعلم.

وأمّا السّدنة لأبواب جنانه: فقد عرفت ما قيل فيهم.

قوله: فنهم الثابتة في الأرضين السّفلى أقدامهم، المارقة من العليا أعناقهم، والخارجة من الأركان أقطارهم (من الأقطار أركانهم) والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم:

فاعلم أنّ هذه الأوصاف وردت في صفة الملائكة الحاملين للعرش في كثير من الأخبار، فيشبه أن يكونوا هم المقصودون بها ههنا، وروى عن ميسرة أنّه قال:

أرجلهم في الأرض السفلى، ورؤوسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لايرفعون طرفهم، وهم أشدّ خوفاً من أهل السّماء السّابعة، وأهل السّماء السّابعة أشدّ خوفاً من أهل السّماء السّادسة، وهكذا إلى سماء الدنيا(٩٩).

---

(٩٩) قوله: وروي عن ميسرة... إلخ.

....

← أخرجه السيوطي في تفسيره «الدرّ المنثور» في سورة غافر الآية ٧، ج ٧، ص ٢٧٦،
وردت الأحاديث الكثيرة في حملة العرش لا بأس بذكر بعضها هنا مزيداً للفائدة:

روى الصدوق (رض) في «الخصال» باب الثمانية، الحديث ٤، ص ٤٠٧، بإسناده عن الصادق (ع) قال: إنّ حملة العرش ثمانية، لكلّ واحد منهم ثمانية أعين، كلّ عين طباق الدنيا.

وروى أيضاً بإسناده في المصدر نفسه، الحديث ٥، بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال: إنّ حملة العرش ثمانية، أحدهم على صورة ابن آدم يسترزق الله لولد آدم، والثاني على صورة الدّيك يسترزق الله للطير، والثالث على صورة الأسد يسترزق الله للسّباع، والرابع على صورة الثور يسترزق الله للبهائم، ونكّس الثور رأسه منذ عبد بنو إسرائيل العجل، فإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية.

وقريب منه رواه القمّي في تفسيره ج ١، ص ٨٥ وفيه بدل الدّيك: النّسر، وعنه البحار ج ٥٨، ص ٢١، الحديث ٣٨.

وأخرج السيوطي في «الدرّ المنثور» ج ٧، ص ٢٧٥ قريباً منه، عن مكحول، عن رسول الله (ص)، إلّا أنّ فيه أيضاً عوض الدّيك: النّسر، ولا توجد فيه الجملة الأخيرة: فإذا كان... إلخ.

وأخرج أيضاً فيه عن وهب، قال: حملة العرش أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيّدوا بأربعة آخرين، الحديث.

وروى الصدوق (رض) في «معاني الأخبار» باب معنى العرش، الحديث ١، ص ٢٩، بإسناده عن الصادق (ع) قال: العرش في وجه هو جملة الخلق والكرسيّ دعاؤه، وفي وجه آخر العرش هو العلم الّذي أطلع الله عيه أنبياءه ورسله وحججه، والكرسيّ هو العلم الّذي لم يطلع (الله) عليه أحداً من أنبيائه ورسوله (ورسله) وحججه (ع).

وفي تفسير القمّي في تفسير سورة الحاقّة الآية ١٧:

﴿ ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾.

قال: حملة العرش ثمانية، أربعة من الأوّلين، وأربعة من الآخرين، فأمّا الأربعة من الأوّلين: فنوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ (ع)، وأمّا الأربعة من الآخرين: فمحمّد (ص)، وعليّ، والحسن، والحسين، ومعنىٰ «يحملون العرش» يعني العلم. راجع ج ٢، ص ٣٨٤،
←

. . . .

← وبحار الأنوار ج ٥٨، ص ٢٧، الحديث ٤٣.

وفي أُصول الكافي، باب العرش والكرسيّ، ج ١، ص ١٢٩، الحديث ١، روى بإسناده عن أمير المؤمنين (ع) في حديث: قال: إنّ العرش خلقه الله تعالىٰ من أنوار أربعة: نور أحمر منه احمرّت الحمرة، ونور أخضر منه اخضرّت الخضرة، ونور أصفر منه اصفرّت الصفرة، ونور أبيض منه ابيضّ البياض وهو العلم الّذي حمّله الله الحملة، وذلك نور من عظمته فبعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين، الحديث.

وأيضاً فيه الحديث ٢، بإسناده عن أبي الحسن الرضا (ع) قال: العرش ليس هو الله، والعرش اسم علم وقدرة، وعرش فيه كلّ شي، الحديث.

قال صدر المتألّهين في كتابه «شرح أُصول الكافي» (ج ٣، ص ٣٣٦، ط ج) في شرح هذا الحديث: وأمّا اختلاف ألوانها من الحمرة والخضرة والصفرة والبياض، كما وصفه (ع) فذلك: لأنّ كلّ ما يوجد في المعاليل من الذات والصفة لابدّ أن يكون في عللها الفعّالة ما هو بازائه لكن هناك على وجه يليق بها، إذ نسبة المجعول إلى الجاعل نسبة الظلّ إلى ذي ظلّ،... فتلك الأنوار الأربعة لمّا كانت أسباباً فعّالة لهذه العناصر، فلها صفات هي أُصول الصفات التي توجد لهذه العناصر، فالنور الأحمر يناسب من العناصر النار ومن الأخلاط الأربعة الدّم ومنه أحمرّ كلّ حمرة في هذا العالم، والنور الأخضر يناسب الأرض والسوداء ومنه اخضرّ كلّ ذي خضرة، والنور الأصفر يناسب الهواء والصفراء ومنه أصفرّ كلّ أصفر، والنور الأبيض يناسب الماء والبلغم ومنه ابيضّ كلّ أبيض.

قوله (ع): وهو العلم الذي حمله الله الحملة وذلك نور من عظمته، قد سبق: أنّ القلب الانسانيّ الذي هو في العالم الصغير الانساني بازاء العرش، وقد قال في ص ٣٣٥: المراد بعرش الربّ: القلب الانسانيّ الذي هو محلّ معرفة الله وحامل علمه وعند الاستكمال يصير عين المعرفة والعلم، كما رآه الحكماء: إنّ النفس الانسانيّة المسمّاة بالقلب في عرف الشريعة تصير عقلاً محضاً ونوراً صرفاً.

وأيضاً في الحديث ٦، بإسناده عن الامام الصادق (ع) قال: حملة العرش ـ والعرش: العلم ـ ثمانية: أربعة منّا وأربعة ممّن شاء الله.

وأيضاً فيه الحديث ٧، بإسناده عن الامام الصادق (ع) قال في الآية الكريمة:

﴿وكان عرشه على الماء﴾ [هود: ٣٨].

←

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

لاتتفكروا في عظمة ربّكم ولكن تفكّروا فيا خلق من الملائكة فانّ خلقاً منهم يقال له إسرافيل من زوايا العرش على كاهله، وقدماه في الأرض السفلى، وقد مرق رأسه من سبع سماوات، وأنّه ليتضاءل من عظمة الله حتّى يصير كأنّه الوصع(١٠٠).

← إنّ الله حمّل دينه وعلمه الماء قبل أن يكون أرض، أو سماء، أو جنّ، أو إنس، أو شمس، أو قمر، فلمّا أراد الله أن يخلق الخلق نثرهم بين يديه فقال لهم: من ربّكم؟ فأوّل من نطق: رسول الله (ص) وأمير المؤمنين (ع) والأئمّة صلوات الله عليهم، فقالوا: أنت ربّنا، فحملهم العلم والدّين، ثمّ قال للملائكة: هؤلاء حملة ديني وعلمي وأُمنائي في خلقي وهم المسؤولون، الحديث.

أقول: المتحصّل من هذه الأحاديث هو أنّ الحاملون للعرش طائفتان: طائفة يحملون العرش لأجل أن يعملوا في العالم وهم: المدبّرات الأمر وغيرهم، وأمّا الطائفة الثانية يحملون حقيقة العرش ـ وهو العلم ـ وهم الأنبياء والرسول الخاتم (ص) والأئمّة المعصومون (ع)، فيكون قبلهم هو عرش الرّحمٰن كما جاء في الحديث:

«قلب المؤمن عرش الرّحمٰن».

وجاء في الحديث القدسيّ:

«لم يسعني سمائي ولا أرضي، ووسعني قلب عبدي المؤمن».

وروي أيضاً:

«القلب حرم الله، ولا تُسكن في حرم الله غير الله».

ولعلّه نظراً إلى هذه الأحاديث ونظيرها، قال الصدوق (رحمة الله عليه):

إعتقادنا في العرض أنّه جملة جميع الخلق، والعرش في وجه آخر هو العلم... وأمّا العرش الذي هو جملة جمع الخلق فحملته ثمانية من الملائكة، لكلّ واحد ثماني أعين، كلّ عين طباق الدّنيا،..... وأمّا العرش الذي هو العلم فحملته أربعة من الأوّلين وأربعة من الآخرين..... هكذا روي بالأسانيد الصحيحة عن الأئمّة (ع) في العرش وحملته. بحار الأنوار ج ٥٨، ص ٧.

(١٠٠) قوله: لاتتفكّروا في عظمة ربّكم... إلخ.

راجع «الدرّ المنثور» ج ٧، ص ٢٧٦، سورة غافر الآية ٧، وفيه:

←

والوصع طائر صغير.

وعن ابن عباس أيضاً انّه قال: لمّا خلق الله تعالى حملة العرش قال لهم: احملوا عرشي فلم يطيقوا، فقال لهم: قولوا: لاحول ولا قوّة إلّا بالله، فلمّا قالوا ذلك استقلّ عرش ربّنا فنفذت أقدامهم في الأرض السابعة على متن الثرىٰ فلم تستقرّ فكتب في قدم كلّ ملك منهم إسماً من أسمائه فاستقرت أقدامهم(١٠١).

← عن ابن عبّاس (رض)، انّ رسول الله (ص) خرج على أصحابه فقال: «ما جمعكم، قالوا: اجتمعنا نذكر ربّنا، ونتفكّر في عظمته، فقال: لن تدركوا التفكّر في عظمته، ألا أخبركم ببعض عظمة ربّكم؟ قيل: بلى يا رسول الله، قال: إنّ ملكاً من حملة العرش يقال له إسرافيل، زاوية من زوايا العرش على كاهله، قد مرقت قدماه في الأرض السابعة السّفلىٰ، ومرق رأسه من السماء السابعة في مثله من خليقة ربّكم تعالىٰ. راجع أيضاً تعليقنا الرقم ٧١.

(١٠١) قوله: لمّا خلق الله تعالىٰ حملة العرش.

روي في التفسير المنسوب إلى الامام العسكريّ (ع)، ص ١٤٦، الحديث ٧٣، في سورة البقرة الآية ٢٢: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾، عن النبيّ (ص) قال:

«إنّ الله عزّ وجلّ لمّا خلق العرش خلق له ثلاثمائة وستّين ألف ركن، وخلق عند كلّ ركن ثلاثمائة وستّين ألف ملك، لو أذن الله تعالىٰ لأصغرهم التقم (فالتقم) السّماوات السّبع والأرضين السّبع ما كان ذلك بين لهواته إلّا كالرّملة في المفازة الفضفاضة.

فقال الله تعالىٰ لهم: يا عبادي احملوا عرشي هذا، فتعاطوه فلم يطيقوا حمله ولا تحريكه.

فخلق الله تعالىٰ مع كلّ واحد منهم واحداً، فلم يقدروا أن يزعزعوه.

فخلق الله عزّ وجلّ مع كلّ واحد منهم عشرة، فلم يقدروا أن يحرّكوه.

فخلق الله تعالىٰ بعدد كلّ واحد منهم مثل جماعتهم، فلم يقدروا أن يحرّكوه، فقال الله عزّ وجلّ لجميعهم: خلّوه عليّ أمسكه بقدرتي، فخلّوه فأمسكه الله عزّ وجلّ بقدرته، ثمّ قال لثمانية منهم: احملوه أنتم، فقالوا: (يا) ربّنا لم نطقه نحن وهذا الخلق الكثير والجمّ الغفير، فكيف نطيقه الآن دونهم؟ فقال الله عزّ وجلّ: إنّي (لأنّي) أنا الله المقرّب للبعيد، والمذلّل للعنيد (للعبيد)، والمخفّف للشّديد، والمسهّل للعسير، أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد، أعلّمكم

←

ووجه هذا الخبر أنّ وجودهم وبقائهم وحولهم وقوّتهم الّتي بها هم (على) ماهم إنّما هو من حوله وقوّته وهيبته، فلو أنّه سبحانه خلقهم وقال لهم: احملوا عرشي ولم تكن لهم استعانة ولا مدد بحول الله وقوّته ومعونته لم ينتهضوا بحمل ذرّة من ذرّاة مبدعاته ومكوّناته فضلاً عن تدبير العرش الّذي هو أعظم الأجرام الموجودة في العالم.

إذا عرفت ذلك فنقول:

أمّا من قال بأنّ الملائكة أجسام كان حمل صفاتهم المذكورة في هذه الأخبار في كلامه عليه السّلام على ظاهرها أمراً ممكناً (وانّه) والله تعالى قادر على جميع الممكنات.

وأمّا من نزّههم عن الجسميّة فقال: إنّ الله سبحانه لمّا خلق الملائكة السّماويّة مسخّرين لأجرام السّماوات مدبّرين لعالمنا عالم الكون والفساد وأسباباً لما يحدث فيه كانوا محيطين بإذن الله علماً بما في السّماوات والأرض، فلاجرم كان منهم من ثبت في تخوم الأرض السفلى أقدام إدراكاتهم الّتي ثبتت واستقرّت باسم الله الأعظم وعلمه الأعزّ الأكرم ونفذت في بواطن (الوجودات) الموجودات خبراً، ومرقت من السّماء العليا أعناق عقولهم، وخرجت من أقطارها أركان قواهم العقليّة.

وقوله: المناسبة لقوائم العرش أكتافهم.

يريد أنّهم مشبّهون ومناسبون لقوائم العرش في بقائهم وثباتهم عن التزايل (الزائل) من تحته أبداً إلى ما شاء الله.

← كلمات تقولونها يخفّف بها عليكم، قالوا: وما هي يا ربّنا؟ قال: تقولون: (بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وصلّى الله على محمّد وآله الطيّبين).

فقالوها، فحملوه، وخفّ على كواهلهم كشعرة نابتة على كاهل رجل جلد قويّ، فقال الله عزّ وجلّ لسائر تلك الأملاك: خلّوا على هؤلاء الثمانية عرشي ليحملوه، وطوفوا أنتم حوله، وسبّحوني ومجّدوني وقدّسوني، فانّي أنا الله القادر على ما رأيتم وعلى كلّ شيء قدير. روى عنه البحار ج ٥٨، ص ٣٣، الحديث ٥٣.

فإن قلت: فهل هناك قوائم غير الحاملين للعرش الّذي أشار إليهم، وتكون هذه الطائفة من الملائكة مناسبة لتلك القوائم أم لا؟.

قلت: قد جاء في الخبر أنّ العرش له قوائم، روى عن جعفر بن محمد الصّادق عن أبيه عليهما السّلام، عن جدّه صلّى الله عليه وآله أنّه قال:

إنّ بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الأخرى خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام(١٠٢).

قال بعض المحققين: إنّ هناك قوائم ثمان قد فوّض الله تعالى إلى كلّ ملك من الملائكة الثمانية الحاملين للعرش تدبير قائمة منها وحملها ووكّله بها.

إذا عرفت ذلك فنقول:

يحتمل أن يكون قد أشار عليه السّلام بقوله مناسبة لقوائم العرش اكتافهم إلى اثبات قوائم العرش واثبات مناسبة لاكتاف هؤلاء الملائكة مع تلك القوائم، ووجه المناسبة أنّ الكِتف لمّا كان محلّ القوّة والشدّة استعاره عليه السّلام ههنا للقوّة والقدرة الّتي يخصّ كلّ ملك من تلك الملائكة، وبها يريد (يدبّر) تلك القوائم من العرش.

ولا شكّ أنّ بين كلّ قائمة من تلك القوائم، وبين كلّ قدرة من تلك القدر مناسبة مّا، لأجلها خصّ الله سبحانه ذلك الملك بحمل تلك القائمة وذلك معنى قوله المناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ويحتمل أن يكون كما استعار لهم لهم لفظ الأقدام استعار لهم أيضاً لفظ الأكتاف ثمّ شبّه قيامهم بأمر الله في حملهم للعرش بقيام الأساطين الّتي يبني عليها

---

(١٠٢) قوله: قد جاء في الخبر.

رواه المجلسيّ في البحار ج ٥٨، ص ٣٤، الحديث ٥٤، نقلاً عن كتاب «روضة الواعظين» للشيخ محمّد بن الحسن بن عليّ بن أحمد بن عليّ الفتّال النيسابوريّ الواعظ الشهيد، استشهد (قدّس سرّه) بيد أبي المحاسن عبدالرزّاق رئيس نيسابور في سنة ٥٠٨ هـ، كان من جملة مشايخه: الشيخ الطوسيّ وابن بابويه القمّيّ، ومن جملة تلامذته: ابن شهر آشوب والشيخ منتخب الدّين والقطب الرّاونديّ.

ورواه أيضاً نقلاً عن «بيان التنزيل» لابن شهر آشوب، ص ٣٦، الحديث ٦١.

الواحد منّا عرشه فهم مناسبون ومشابهون لقوائم العرش الّتي يبني عليها من غير أن يكون هناك تعرّض لإثبات قوائم بل ما يشبه القوائم.

قوله: ناكسة دونه أبصارهم متلفعون تحته بأجنحتهم.

الضميران في دونه وتحته راجعان إلى العرش وقد جاء في الخبر عن وهب ابن منبّه قال: إنّ لكلّ ملك من حملة العرش ومن حوله أربعة أجنحةٍ، أمّا جناحان فعلى وجهه مخافة أن ينظر إلى العرش فيصعق، وأمّا جناحان فيهفوا بهما ليس كلام إلّا التسبيح والتحميد(١٠٣).

وكنّى عليه عليه السّلام بنكس أبصارهم عن كمال خشيتهم لله تعالى واعترافهم بقصور أبصار عقولهم عن إدراك ماوراء كمالاتهم المقدّرة لهم وضعفها عن قبول ما (عمّا) لايحتمله من أنوار الله وعظمته المشاهدة في خلق عرشه وما فوقهم من مبدعاته، فإنّ شعاع أبصارهم مُنْتَه واقف دون حجب عزّة الله.

وعن يزيد الرّقاشيّ(١٠٤): أنّ لله تعالى ملائكة حول العرش يسمّون المخلخلين

---

(١٠٣) قوله: جاء في الخبر عن وهب.

أخرجه السيوطيّ في الدرّ المنثور ج ٧، ص ٢٧٥، عن أبو الشيخ، عن وهب.

وراجع أيضاً البحار ج ٥٩، ص ١٤٤، باب ٢٣ حقيقة الملائكة وصفاتهم وشؤونهم، توجَد فيه الأخبار الكثيرة في معناه.

(١٠٤) قوله: وعن يزيد الرّقاشيّ.

أمّا ما قال، ما عثرت عليه، وأمّا الرّجل نفسه فهو: يزيد بن أبان الرّقاشيّ البصريّ أبو عمر، الزّاهد العابد.

راجع «الجرح والتعديل» ج ٩، ص ٢٥١، و «ميزان الإعتدال» ج ٤، ص ٤١٨، و «تاريخ الإسلام» للذهبي الجزء (حوادث ووفيّات ١٢١ ـ ١٤٠ هـ) ص ٣٠٢، و «تهذيب التهذيب» ج ١١، ص ٣٠٨، وراجع في ضبط الرّقاشيّ «تنقيح المقال» للمامقاني، في ترجمة محمّد بن دریاب الرّقاشيّ ج ٣، ص ١١٥.

كان رجلاً صالحاً، صاحب العبادة، وكان أحد الوعّاظ البكّائين، ومن كبار الخائفين، قال ابن عديّ: «له أحاديث صالحة عن أنس وغيره، وأرجو أنّه لا بأس به لرواية الثقات

←

. . . .

← عنه»، وقال ابن حيان: «كان من خيار عباد الله، من البكّائين باللّيل، لكنّه غفل عن حفظ الحديث شغلاً بالعبادة»، وضعّفه بعض، ولعلّه بسبب رواياته في مدح أهل البيت (ع)، ولا بأس بذكر بعض ما رواه فيهم عليهم آلاف التحيّة والسّلام:

روى أبو عمر ومحمّد بن عمر الكشّي ـ في رجاله ص٤٦، الرقم ١٢، في ترجمة البَراء ابن عازب ـ عن عبدالله بن ابراهيم، عن أبي مريم الأنصاريّ، عن المنهال بن عمرو، عن زر بن (ذر بن) حُبَيْش، قال: خرج عليّ بن أبي طالب (ع) من القصر، فاستقبله ركبان متقلّدون بالسيوف عليهم العمائم، فقالوا: السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، السّلام عليك يا مولانا، فقال عليّ (ع) من هٰهنا من أصحاب رسول الله (ص)؟ فقام خالد بن يزيد أبو أيوب، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وقيس بن سعد بن عبادة، وعبدالله بن بديل بن ورقاء، فشهدوا جميعاً أنّهم سمعوا رسول الله (ص) يقول يوم غدير خم: «من كنتُ مولاه فعليّ مولاه» فقال عليّ لأنس بن مالك، والبراء بن عازب: ما منعكما أن تقوما فتشهدا، فقد سمعتما كما سمع القوم؟ ثمّ قال اللّهمّ إن كانت كتماها معاندة فابتلهما، فعمى البراء بن عازب، وبرص قدما أنس بن مالك، فحلف أنس بن مالك أن لايكتم منقبة لعليّ ابن أبي طالب ولا فضلاً أبداً.

نقلنا هذا الحديث لكي يكون مطلعاً للأحاديث التالية المنقولة عن أنس بن مالك.

روى الشيخ الصدوق (ره) في «معاني الأخبار» باب معنى الشمس والقمر، ص ١١٥، الحديث ٣، عن أبو عليّ أحمد بن أبي جعفر البيهقيّ، عن عليّ بن جعفر المدينيّ، عن أبي جعفر المحاربيّ، عن ظهير بن صالح العمريّ، عن يحيىٰ بن تميم، عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن يزيد الرّقاشيّ، عن أنس بن مالك قال: صلّى بنا رسول الله (ص) صلاة الفجر، فلمّا انتقل من صلاته أقبل علينا بوجهه الكريم فقال: «يا معشر الناس من افتقد الشمس فليستمسك بالقمر، ومن افتقد القمر فليستمسك بالزّهرة، ومن افتقد الزّهرة فليستمسك بالفرقدين»، قيل: يا رسول الله ما الشمس والقمر والزّهرة والفرقدان؟ قال: «أنا الشمس، وعليّ القمر، وفاطمة الزّهرة، والحسن والحسين الفرقدان، وكتاب الله لايفترقان حتى يردا عليّ الحوض». عنه البحار ج ٢٤، ص ٧٤، الحديث ١٠، قال المجلسي في ذيله: قوله: وكتاب الله لعلّ تقديره: معهم كتاب الله، أو هو مبتدأ ولا يفترقان خبره.

وروى الشيخ الأجلّ محمّد بن ابراهيم بن جعفر النعمانيّ في كتابه «الغيبة» (باب ما

←

تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة يميدون كأنّما تنفضهم (تنقضهم) الرّياح من خشية الله تعالى فيقول لهم الرّبّ جلّ جلاله:

ما الّذي يخفيكم؟ فيقولون: ربّنا لو أنّ أهل الأرض اطّلعوا من عزّتك وعظمتك على ما اطّلعنا عليه، ما ساغوا طعاماً ولا شراباً، ولا انبسطوا في فرشهم ولخرجوا إلى الصحراء يخورون كما يخور الثور.

واعلم، أنّه لمّا كان الجناح من الطائر والإنسان عبارة عن محلّ القوّة والقدرة والبطش صحّ أن يستعار للملائكة على سبيل الكناية عن كمالهم في قدرتهم وقوّتهم الّتي يطيرون في بيداء جلال الله وعظمته، وتصدر بواسطتهم كمالات ما دونهم من مخلوقات الله، وصحّ أن توصف تلك الأجنحة بالقلّة والكثرة في آحادهم، ويكون ذلك كناية عن تفاوت مراتبهم وزيادة كمال بعضهم على بعض، ولمّا استعار لفظ الأجنحة استلزام ذلك أن يكون قد شبّههم بالطائر ذي الجناح، ثمّ لمّا كان الطائر عند قبض جناحه يشبه المتلفّع بثوبه والملتحف به وكانت أجنحة الملائكة الّتي هي عبارة عن كمالهم في قدرهم وعلومهم مقبوضة قاصرة عن التعلّق بمثل مقدورات الله ومبدعاته، واقفةً دون جلاله وعظمته في صنعه، لاجرم أشبه ذلك قبض الأجنحة

← روي أنّ الأئمّة اثنا عشر إماماً) ص ٧٥ و ٧٦: عن عبدالسّلام بن هاشم البزّاز، عن عبدالله بن أُميّة مولىٰ بني مجاشع، عن يزيد الرّقاشيّ، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (ص) لن يزال (يزل) هذا الأمر قائماً إلى اثنىٰ عشر قيّماً (خليفة كلّهم) من قريش.

وروى شيخ الطائفة الطوسيّ (ره) في أماليه ج ١١، ص ٣١٤، عن أبو منصور السكّري، عن جدّه عليّ بن عمر، عن العبّاس بن يوسف السكليّ، عن عبيدالله بن هشام، عن محمّد بن مصعب القرقساني، عن الهيثم بن حمّاد، عن يزيد الرّقاشيّ، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله (ص) في حديث:

«معاشر الناس ما لي إذا ذكر آل ابراهيم (ع) تهلّلت وجوهكم، وإذا ذكر آل محمّد (ص) كأنّما يفقأ في وجوهكم حبّ الزمان، فوالذي بعثني بالحقّ نبيّاً، لو جاء أحدكم يوم القيامة بأعمال كأمثال الجبال ولم يجيء بولاية عليّ ابن أبي طالب لأكبّه الله عزّ وجلّ في النّار». عنه البحار ج ٢٧، ص ١٧١، الحديث ١٢، ومستدرك الوسائل ج ١، ص ١٥٥، الحديث ١٧/٢٤٢ ط ج.

المشبّة للتلفّع بالثوب، فاستعار عليه السّلام لفظ التلفّع أيضاً وكنّى به عن كمال خضوعهم وانقهارهم تحت سلطان الله وقوّته والمشاهدة في صورة عرشه.

فإن قلت: إنّك بيّنت أنّ المراد بالركوع هم حملة العرش فكيف يستقيم مع ذلك أن يقال: إنّ هذا القسم هم حملة العرش أيضاً، فإنّ من كان أقدامهم في تخوم الأرضين، وأعناقهم خارجة من السّماوات السّبع، ومن الكرسي والعرش، كيف يكون مع ذلك راكعاً؟

قلت: الجواب عنه قد سبق في قوله: ومنهم أمناء على وحيه، فإن الرّكوع أيضاً المقصود منه الخشوع لعزّ الله وعظمته وذلك غير مناف للأوصاف المذكورة ههنا، وبالله التوفيق.

قوله: مضروبة بينهم وبين مَن دونهم حُجُبُ العزّة وأستارُ القدرة.

إشارة إلى أنّ الآلات البشريّة قاصرة عن إدراكهم والوصول إليهم، وذلك لتنزّههم عن الجسميّة والجهة وقربهم من عزّة مبدعهم الأوّل جلّ جلاله، وبعد القوى الإنسانيّة عن الوقوف على أطوارهم المختلفة ومراتبهم المتفاوتة، وإذا كان الحال في الملك العظيم من ملوك الدنيا إذا بلغ في التّعزز والتعظيم إلى حيث لايراه إلّا أجلّاء خواصّه، وكان الحال أيضاً في بعض خواصّه كذلك كالوزير والحاجب والنديم، فإنّهم لايصل إليهم كلّ النّاس بل لايصل إليهم إلّا من كانت له إليهم وسيلة تامّة وعلاقة قويّة، وكان منشأ ذلك إنّما هو عظمة الملك وهيبته وقربهم منه، فكان الحائل بينهم وبين غيرهم إنّما هو حجب عزّة الملك وأستار قدرته وقهره، فكيف الحال في جبّار الجبابرة، ومالك الدنيا والآخرة، وحال ملائكته المقرّبين ومن يليهم من حملة العرش الروحانيّين، فبالحريّ أن ينسب عدم وصول قوانا الضعيفة إليهم وإدراكها لمراتبهم إلى حجب عزّة الله وعظمته لهم وكمال ملكه وتمام قدرته وما أهلّهم له من قربه ومطالعة أنوار كبريائه عزّ سلطانه و(لا إله إلّا هو) ولا إله غيره.

قوله: ولا يتوهّمون ربّهم بالتصوير.

إشارة إلى تنزيههم عن الإدراكات الوهميّة والخياليّة في حقّ مبدعهم عزّ سلطانه، إذ كان الوهم إنّما يتعلّق بالأمور المحسوسة ذات الصور والأحياز والمحالّ الجسمانيّة

فالوهم وإن أرسل طرفه إلى قبلة وجوب الوجود وبالغ في تقليب حدقته فلن يرجع إلّا بمعنى جزئيّ يتعلّق بمحسوس حتّى أنّه لايقدر نفسه ولا يدركها إلّا ذات مقدار وحجم، ولمّا كان الوهم من خواصّ المزاج الحيوانيّ لاجرم سلب التوهّم عن الطور من الملائكة لعدم قوّة الوهم هناك. فإنّ هذه القوّة لمّا كانت موجودة للإنسان لاجرم كان يرى ربّه في جهة ويشير إليه متحيّزاً ذا مقدار وصورة، ولذلك وردت الكتب الإلهيّة والنواميس الشرعيّة مشحونة بصفات التجسيم كالعين واليد، والإصبع والإستواء على العرش ونحو ذلك خطاباً للخلق بما تدركه أوهامهم وتوطيناً لهم وإيناساً، حتّى أنّ الشارع لو أخذ في مبدأ الأمر بيّن لهم أنّ الصانع الحكيم ليس داخل العالم ولا خارجه ولا في جهة من الجهات وليس بجسم ولا عرض لاشتدّ نفار أكثرهم من قبول ذلك وعظم إنكارهم له. فإنّ الوهم في طبيعته لايثبت موجوداً بهذه الصفة ولا يتصوّره، ومن شأنه أن ينكر ما لا تصوّر فكان منكراً لهذا القسم من الموجودات والخطابات الشرعيّة وإن وردت بصفات التجسيم إلّا أنّ الألفاظ الموهمة لذلك لمّا كانت قابلة للتأويل محتملة له، كانت وافية بالمقاصد، إذ العاميّ المغمور في ظلمات الجهل يحمله على ظاهره ويحصل بذلك تقييده عن تشتّت اعتقاده، وذو البصيرة المترقّي عن تلك الدرجة يحمله على مايحتمله عقله من التأويل، وكذلك حال من هو أعلى منه، والنّاس في ذلك على مراتب فكان إيرادها حسناً وحكمة.

قوله: ولا يُجرون عليه صفات المصنوعين.

أقول: إجراء صفات المصنوعين عليه إنّما يكون بمناسبته، ومُماثلته مع مصنوعاته ومكوّناته، وكلّ ذلك بقياس من الوهم ومحاكاة من المتخيّلة له بصورة المصنوع، فكان الوهم يحكم أوّلاً بكون الباري عزّ سلطانه مثلاً لمصنوعاته الّتي يتعلّق إدراكه بها من المتحيّزات وما يقوم بها ويخيّله بصورة منها ثمّ يساعده العقل في مقدّمة أخرى هي أنّ حكم الشيء حكم مثله فيجري حينئذ عليه صفات مصنوعاته الّتي حكم بمثليّته لها، ولمّا كانت الملائكة السّماويّة منزّهين عن الوهم والخيال، لا جرم وجب تنزيههم عن أن يجروا عليه صفات مصنوعاته، سبحانه وتعالى عمّا يقول الظّالمون علوّاً كبيراً.

وكذلك قوله: ولا يحدّونه بالأماكن ولا يشيرون إليه بالنظائر.

فإنّ الحاكم بحدّه في مكان وتحيّزه فيه والمشير إليه بالمثل المتصوّر له بالقياس إلى نظير يُشاكله ويُشابهه، إنّما هو الوهم والخيال، ولمّا عرفت انّهما يخصّان للحيوان العنصري لا جرم كانت هذه الأحكام مسلوبة عن الملائكة السماويّة مطلقاً وبالله التوفيق.

الفصل الثالث

في كيفيّة خلق آدم عليه السّلام

قوله: ثمّ جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها إلى قوله: وتناسل الذريّة.

(شرح ألفاظ الخطبة)

أقول: الحزن من الأرض: ماغلظ منها واشتدّ كالجبل، والسهل: ما لان، وعذبها: ما طاب منها واستعدّ للنبات والزرع، والسّبخ: ما ملح منها، والمسنون: الطين الرطب في قول ابن عبّاس، وعن ابن السكيت عن أبي عمر: أنّه المتغير، وقول ابن عباس أنسب إلى كلام عليّ عليه السّلام، لأنّ قوله: وَسنّها بالماء حتّى لزبت، أي أنّه خلّطها بالماء حتّى صارت طيناً رطباً يلتصق، وصلصت: قال بعضهم: الصلصال هو المنتن من قولهم: صَلَّ اللحم وأصلّ إذا أنتن، وقيل: هو الطين اليابس الّذي يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار، وقيل: إذا توهّمت في صوته مدّاً فهو صليل، وإذا توهّمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة، ولاطها بالبلّة أي خلّطها بالرطوبة ومزّجها بها، والبِلّة بالكسرة: النداوة، وبالفتح واحدة البلّ، واللازب: اللاصق، وأصل الباء الميم، وجبل: أي خلق، والأحناء: جمع حنو وهي الجوانب، والوصول: جمع كثرة للوصول وهي المفاصل وجمع القلّة أوصال، وأعضاء جمع عضو بالكسر والضمّ، كاليد والرجل للحيوان، وأصلدها: أي جعلها صلداً وهي الصلبة الملساء، والذّهن: في اللغة الفطنة والحفظ، وفي الإصطلاح العلمي عبارة عن القوى المدركة من العقل والحس الباطن، والفكر: جمع فكرة وهي قوّة للنفس بها تحصل الإدراكات العقليّة، ويشبه أن يكون أصل الإنسان: أُنس وهو الأنيس، والألف والنون في أصل لحوقها له للتثنية، وذلك لأنّ الأنس أمر نسبيّ لايتحقّق إلّا بين شيئين فصاعداً، ولمّا كان كلّ واحد من النّاس

يأنس بصاحبه قيل إنسان، ثمّ كثر إستعماله مثنّى فأجريت على النون وجوه الإعراب، والمساءة: الغم، والجوارح: الأعضاء: والإختدام والإستخدام بمعنى، والأدواة: جمع أدات، وأصلها الواو ولذلك ردّت في الجمع، والاستيداء: طلب الأداء، والخنوع: الخضوع، واشتقاق: إبليس من الأبلاس وهو اليأس والبعد، لبعده من رحمة الله. والحميّة الأنفة. واعترتهم: أي غشيتهم. والوهن: الضعف، والنظرة بفتح النون وكسر الظاء: الإمهال. والسخط: الغضب، واغترّه أي استغفله، ونفست عليه بالأمر نفاسة: إذا لم تره مستحقّاً له، والعزيمة: الإهتمام بالشيء، والجذل: السرور، والإهباط: الإنزال.

إذا عرفت هذا فنقول: للنّاس في هذه القصّة طريقان:

الطريق الأول، أنّ جمهور المسلمين والمفسرين والمتكلمين حملوا هذه القصّة على ظاهرها ثمّ ذكروا فيها أبحاثاً:

في بيان تكرّر قصّة آدم والملائكة وإبليس في القرآن

البحث الأوّل: أنّ هذه قد كرّرها سبحانه في كتابه الكريم في سبع سور، وهي: سورة البقرة، والأعراف، والحجر، وسورة بني إسرائيل، والكهف، وطه، وسورة ص، وذلك (لمن) لما يشتمل عليه من تذكير الخلق وتنبيههم من مراقد الطبيعة الّتي جذبهم إليها إبليس، والتحذير من فتنته وفتنة جنوده، والجذب إلى جناب الله ومطالعة أنوار كبريائه كما قال تعالى:

﴿يابني آدم لايفتنّنكم الشّيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة﴾ [سورة الأعراف: ٢٧].

فقوله عليه السّلام: تربة كقوله تعالى:

﴿خلقه من تراب﴾ [سورة آل عمران: ٥٩].

وقوله: سنّها بالماء، كقوله تعالى:

﴿من حمإٍ مسنون﴾ [سورة الحجر: ٢٦].

وقوله: لاطها بالبلّة حتّى لزبت كقوله تعالى:

﴿من طين لازب﴾ [سورة الصافات: ١١].

وقوله: حتّى صلصلت، كقوله تعالى:

﴿من صلصال﴾ [سورة الحجر: ٢٨].

وقوله: ثمّ نفخ فيه من روحه، كقوله:

﴿ونفخت فيه من روحي﴾ [سورة الحجر: ٢٩].

وقوله:

﴿ونَفَخَ فيه من روحه﴾ [سورة السجدة: ٩].

وقوله: ذا أذهان يجيلها، وفكر يتصرّف فيها، وجوارح يختدمها، كقوله تعالى:

﴿وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة﴾ [سورة النحل: ٧٨].

قوله: واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم، وعهد وصيّته إليهم، كقوله تعالى:

﴿فسجد الملائكة كلّهم أجمعون * إلّا إبليس﴾ [سورة الحجر: ٣٠ ـ ٣١].

وقوله: اعترته الحميّة إلى قوله تعزّز بخلقة النار، واستهون خلق الصلصال، كقوله تعالى حكاية عن إبليس:

﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [سورة الأعراف: ١٢].

وقوله: فأعطاه الله النظرة،

حذف قبله، تقديره: فسأل النظرة، وذلك قوله:

﴿فأنظرني﴾ [سورة ص: ٧٩] فأعطاه الله النظرة إلى يوم الوقت المعلوم.

كقوله تعالى:

﴿قال فإنّك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم﴾ [سورة ص: ٨٠ ـ ٨١].

وقوله: ثمّ أسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه، كقوله تعالى:

﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة وكُلا منها رغداً حيث شئتما﴾ [سورة البقرة: ٣٥].

وقوله: وحذّره إبليس وعداوته، كقوله:

﴿قلنا يا آدم إنّ هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يُخرجنّكما من الجنّة فتشقىٰ﴾ [سورة طه: ١١٧].

وقوله: فاغترّه إبليس نفاسة عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار، كقوله:

﴿فوسوس إليه الشّيطان﴾ [سورة طه: ١٢٠].

وقوله:

﴿فدلّيهما بغرور﴾ [سورة الأعراف: ٢٢].

وقوله: فباع اليقين بشكّه والعزيمة بوهنه، كقوله تعالى:

﴿فنسيٰ ولم نجد له عزماً﴾ [سورة طه: ١١٥].

وقوله: واستبدل بالجذل وجلا وبالإغترار ندما، كقوله تعالى:

﴿قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ [سورة الأعراف: ٢٣].

وقوله: ثمّ بسط الله في توبته ولقاه كلمة رحمته، كقوله تعالى:

﴿فتلقّ آدم من ربّه كلمات فتاب عليه﴾ [سورة البقرة: ٣٧].

وقوله: ووعده المردّة إلى جنته ذلك الوعد، في قوله تعالى:

﴿فإمّا يأتينّكم منّي هُدىً فمن اتّبعَ هُداي فَلا يضلُّ ولا يَشقىٰ﴾ [سورة طه: ١٢٣].

وقوله: فاهبطه إلى دار البليّة، كقوله تعالى:

﴿أهبطا منها جميعاً﴾ [سورة طه: ١٢٣].

(في خلقت آدم من تراب)

البحث الثاني: أن الله تعالى أشار في مواضع من كتابه الكريم إلى خلق آدم من تراب، فقال:

﴿إنّ مثل عيسىٰ عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾ [سورة آل عمران: ٥٩].

وقال في موضع آخر:

وقال في موضع آخر:

﴿إنّي خالق بشراً من طين﴾ [سورة ص: ٧١].

وقال في موضع آخر:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون﴾ [سورة الحجر: ٢٦].

قال المتكلّمون:

وإنّما خلقه الله على هذا الوجه، إما لمحض المشيئة، أو لما فيه من دلالة الملائكة على كمال قدرته وعجيب صنعته، لأنّ خلق الإنسان في هذه المراتب أعجب عندهم من خلقه من جنسهم.

إذا عرفت ذلك، فاعلم أنّ كلامه عليه السّلام ههنا يجري مجرى (الترتيب) التفسير لهذه الآيات (١٠٥).

---

(١٠٥) قوله: أنّ كلامه عليه السّلام ههنا يجري مجرى التفسير لهذه الآيات.

أقول: لمّا قال الله سبحانه:

﴿ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين﴾ [سورة الأنعام: ٥٩].

وقال:

﴿وكلّ شيءٍ أحصيناه في إمام مبين﴾ [سورة يس: ١٢].

وقال:

﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ [سورة الرعد: ٤٣].

وقال:

﴿إنّه لقرءان كريم * في كتاب مكنون * لايمسّه إلّا المطهّرون﴾ [سورة الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩].

وقال:

﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ [سورة الأحزاب: ٣٣].

←

. . . .

← وقال النبيّ (ص) حينما نزلت آية التطهير فدعا فاطمة وحسناً وحسيناً وعبّاس (ع)، فجلّلهم بكساء:

اللّهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. (راجع تعليقنا ١٥٦ ص ٥٠٢ في الجزء الأول من التفسير المحيط الأعظم).

ولمّا كان أهل البيت عليهم السّلام وهم عترة النبيّ (ص) دائماً مع القرآن والقرآن معهم. تشريعاً وتكويناً. جعلاً حقيقيّاً واعتبارياً من قبل الله سبحانه وتعالى ـ لِما قال رسول الخاتم (ص):

إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي، ألا وهما الخليفتان من بعدي، ولن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض. (راجع تعليقنا ١١٢ ص ٤٣٤ في الجزء الأول من تفسير المحيط الأعظم).

فإذن يكون كل كلام صدر منهم عليهم السّلام تفسيراً للقرآن الكريم وبياناً له، وأيضاً يكون الإنسان الكامل صورةً كاملةً من القرآن، والإنسان الكامل هو الإمام المبين والولي المطلق وهو القطب في العالم وقلبه كما قال علي أمير المؤمنين عليه السّلام:

وانّما أنا قطب الرّحا تدور عليّ وأنا بمكاني. نهج البلاغة خ ١١٩.

وقال:

انّ محلّي منها محلّ القطب من الرّحا، ينحدر عنّي السيل، ولا يرقىٰ إليّ الطّير. نهج البلاغة خ ٣.

وكما جاء في مناظرة هشام بن الحكم مع عمرو بن عبيد أبي مروان، قال هشام عند الإمام الصادق عليه السّلام: قلت له: يا أبا مروان فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتّى جعل لها إماماً (أي القلب) يصحّح لها الصحيح ويتيقّن به ما شكّ فيه، ويترك هذا الخلق كلّهم في حيرتهم وشكّهم واختلافهم، لايقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك تردّ إليه حيرتك وشكّك؟!

فضحك أبو عبدالله (ع) وقال: ياهشام من علّمك هذا؟ قال: شيء أخذته منك وألّفته. فقال عليه السّلام:

هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى. اصول الكافي ج١، ص ١٦٩، الحديث ٣.

←

فإنّه أشار أوّلاً إلى كونه من تراب بقوله:

« **ثمّ جمع سبحانه من سهل الأرض وحزنها وعذبها وسبخها تربة** »، ونحو ذلك ما روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال(١٠٦):

← يعني ان كون الإمام الحقيقي الّذي جُعل من قبل الله تعالى إماماً على الخلق هو قلب العالم بين الناس وما جاء في كلام الله سبحانه وتعالى في صحف إبراهيم وموسى عليهما السّلام، اضافة على انّه عليه السّلام أيّد قول هشام بأن الإمام قلب بالنّسبة إلى العالم فالعالم حيّ بحياة الإمام فلو عدم الإمام عن العالم انعدم العالم.

فالإنسان الكامل هو خليفة الله في أرضه وهو الجامع لجميع الأسماء الحسنى والصفات العليا وهو الّذي يتخلّق باخلاق الله سبحانه وتعالى، بما أنّ شأن الخلافة تقتضي ذلك كلّه.

على أنّ العالم كلّه ظاهره وباطنه أيضاً تفصيل وفرقان للقرآن، فإذن العالم والإنسان والقرآن شيء واحد ولكن في صور مختلفة.

(١٠٦) قوله: ما روي عن رسول الله (ص).

رواه ابن داوُد في سننه ج ٤، ص ٢٢٢، الحديث ٤٦٩٣ باب في القدر، ورواه أيضاً ابن حنبل في مسنده ج ٤، ص ٤٠٠ و٤٠٦، والبيهقي في السنن الكبرى ج ٩، كتاب السير باب مبتدأ الخلق ص ٣.

وروى قطب الدّين الراوندي في كتابه قصص القرآن في ذكر أبينا آدم (ع) الفصل ٢، الحديث ٢، ص ٤١، باسناده عن حبة العرني عن أمير المؤمنين (ع): إنّ الله خلق آدم صلوات الله عليه من أديم الأرض، فمنه السّباخ، والمالح، والطيّب، ومن ذريّته الصالح، والطالح.

وروي في تفسير الفرات ص ١٨٦، الحديث ٢٣٥، باسناده عن الحسن عليه السّلام فيما سأل كعب الأحبار أمير المؤمنين (ع) قال: (لما أراد الله تعالى خلق آدم) بعث الله جبرئيل عليه السّلام، فأخذ من أديم الأرض قبضة فعجنه بالماء العذب والمالح، وركب فيه الطبايع قبل أن ينفخ فيه الرّوح، فخلقه من أديم الأرض، الحديث. عنه بحار الأنوار ج ٦٣، ص ١٩٧، الحديث ٨.

وروى الصفّار في بصائر الدرجات باب ٩، ج ١٠، ص ١٧، باسناده عن الإمام علي ابن الحسين زين العابدين عليه السّلام قال:

←

إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، السهل والحزن والخبيث والطيّب.

واعلم، أنّ جمهور المفسّرين على أنّ الإنسان في قوله تعالى:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ [سورة المؤمنون: ١٢].

هو أبونا آدم عليه السّلام، ونقل عن محمّد بن عليّ الباقر عليه السّلام أنّه قال:

← إنّ الله بعث جبرئيل إلى الجنّة فأتاه بطينة من طينتها (طينها)، وبعث ملك الموت إلى الأرض فجاءه بطينة من طينتها، فجمع الطينتين ثمّ قسّمها نصفين، فجعلنا من خير القسمين، وجعل شيعتنا من طينتنا، فما كان من شيعتنا ممّا يرغب بهم عنه (عنهم) من الأعمال القبيحة فذاك ممّا خالطهم من الطينة الخبيثة ومصيرها إلى الجنّة، وما كان في عدوّنا من برّ وصلاة ومن الأعمال الحسنة فذاك لما خالطهم طينتنا الطيّبة ومصيرهم إلى النار.

وروى الصدوق في علل الشرايع باب ٢٤٠، ص ١، ص ٤٨٩، بإسناده عن الإمام الباقر عليه السّلام قال في حديث:

إنّ الله تعالى لمّا كان متفرّداً بالوحدانيّة ابتدأ الأشياء لا من شيء، فأجرى الماء العذب على الأرض طيبة طاهرة سبعة أيّام بلياليها، ثمّ نضب الماء عنها فقبض قبضة من صفوة ذلك الطين وهي طينة أهل البيت، ثمّ قبض قبضة من أسفل ذلك الطين وهي طينة شيعتنا، ثمّ اصطفانا لنفسه. إلى أن قال: ولكن الله تعالى أجرى الماء المالح على أرض ملعونة سبعة أيّام ولياليها، ثمّ نضب الماء عنها، ثمّ قبض قبضة وهي طينة ملعونة من حمأ مسنون، وهي طينة خبال وهي طينة أعدائنا... إلى أن قال: ولكن الله تبارك وتعالى جمع الطينتين: طينتكم وطينتهم وعركها عرك الأديم ومزجها بالمائين، فما رأيت من أخيك المؤمن من شرّ.... فليس من جوهريته ولا من إيمانه، إنّما هو بمسحة الناصب اجترح هذه السّيئات... وما رأيت من الناصب من حسن وجهه وحسن خلق.... فليس من جوهريّته، إنّما تلك الأفاعيل من مسحة الإيمان اكتسبها وهو اكتساب مسحة الإيمان.

راجع أيضاً في هذا تعليقنا الرقم ١٧ و١٨ و١٩ من هذا الجزء.

قد انقضى قبل آدم الّذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر(١٠٧).

قال بعض العلماء: وهذا لاينافي حدوث العالم، فانّه كيف كان لابدّ من الإنتهاء إلى إنسان هو أوّل النّاس، فأمّا أنّ ذلك الإنسان هو أبونا آدم فلا طريق إلى إثباته إلّا من جهة السّمع.

في حقيقة سجود الملائكة لآدم (ع)

البحث الثالث: أجمع المسلمون على أنّ سجود الملائكة لآدم لم يكن سجوده عبادة، لأنّ العبادة لغير الله كفر، ثمّ اختلفوا على ثلاثة أقوال:

الأوّل، أنّ ذلك السجود كان لله وكان آدم كالقبلة، وكما يحسن أن يقال: سجدوا لآدم، كذلك يحسن أن يقال: سجدوا للقبلة بدليل قول حسّان بن ثابت(١٠٨):

---

(١٠٧) قوله: ونقل عن محمّد بن عليّ الباقر عليه السّلام.

رواه الصدوق (رضي) في «التوحيد» باب ذكر عظمة الله جلّ جلاله الحديث ٢، ص ٢٧٧، وأيضاً رواه في «الخصال» باب ما بعد الألف الحديث ٥٤، ص ٦٥٢.

روي فيها باسناده عن الإمام الباقر عليه السّلام قال: إنّ الله عزّ وجلّ إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم وسكن أهل الجنّة الجنّة، وأهل النّار النّار، جدّد الله عالماً غير هذا العالم، وجدّد خلقاً (عالماً) من غيرفحولة ولا إناث يعبدونه ويوحّدونه، وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم، وسماءً غير هذه السّماء وتظلّهم، لعلّك ترىٰ انّ الله عزّ وجلّ إنّما خلق هذا العالم الواحدَ، وترىٰ أنّ الله عزّ وجلّ لم يخلق بشراً غيركم، بل والله لقد خلق الله تبارك وتعالى ألف ألف عام وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميّين.

(١٠٨) قوله: حسّان بن ثابت.

الرجل هو أبو الوليد حسّان بن ثابت بن المنذر الأنصاري، أبو الحُسام، شاعر رسول الله (ص)، ومن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، وله ديوان، وكان بيته أحد بيوتات الشعر، قال دعبل والمبرِّد:

أعرق النّاس كانوا في الشعر آل حسّان فنهم يُعدّون ستّة في نسق كلّهم شاعر: سعيد

←

....

← ابن عبدالرحمن بن حسّان بن ثابت بن المنذر بن حرام.

انّ العرب قد اجتمعت على أنّ حسّان أشعر أهل المدن وانّه فضل الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار، وشاعر النبيّ في أيّامه صلّى الله عليه وآله، وشاعر اليمن، كلّها في الإسلام. الغدير ج ٢، ص ٦٣.

كان رسول الله (ص) يضع لحسّان منبراً في المسجد يقوم عليه قياماً ويفاخر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، ويقول رسول الله (ص): إنّ الله يؤيّد حسّان بروح القدس ما نافَحَ أو فاخَرَ عن رسول الله (ص).

وقال النبيّ (ص) له: إنّ روح القدس معك ما هاجيتهم. المستدرك للحاكم ج ٣، ص ٤٨٧.

وفي رجال الكشي ص ١٨١، الرقم ٨٤، روي عن الإمام الباقر عليه السّلام قال لكميت بن زيد الأسدي: والله ياكميت لو ان عندنا مالاً لاعطيناك منه، ولكن لك ما قال رسول الله (ص) لحسّان: لايزال معك روح القدس ماذببت عنّا.

كان من الأنصار ومتقدّماً في الإسلام، وُلد قبل مولد النبيّ القدسيّ (ص) بثمان سنين، وعاش في الجاهليّة ستّين سنة، وفي الإسلام ستين سنة، ودعا له النبيّ (ص): «اللّهم أيّده بروح القدس». وتوفي سنة أربع وخمسين. تاريخ الاسلام للذهبي (٤١ هـ ٦٠ هـ) ص ١٩٤، المعارف لابن قتيبة ص ٣١٢، الغدير ج ٢، ص ٦٥.

له أشعار في بيان ما وقع يوم الغدير، أنشدها يوم الغدير بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، رواهاسليم بن قيس الهلالي التابعي في كتابه ص ١٨٨، والشيخ الصدوق (رضي) في (أماليه) المجلس الرابع والثمانون الحديث ٣، ص ٤٦٠ باسناده عن أبي سعيد الخدري وذكرها العلّامة الأميني في (الغدير) ج ٢، ص ٣٩ و٣٤، نقلاً عن كتاب (مرقاة الشعر) للحافظ المرزباني محمّد بن عمران الخراساني المتوفّى ٣٧٨ باسناده عن أبي سعيد الخدري، وأمّا الأبيات فهي:

يُناديهمُ يوم الغدير نبيّهم ... بخمٍّ وأسمع بالنبيّ مناديا
وقد جاءه جبريل عن أمر ربّه ... بأنّك معصومٌ فلا تك وانيا
وبلّغهم ما أنزل الله ربّهم إليك ... ولا تخش هناك الأعاديا
فقام به إذ ذاك رافع كفّه ... بكفّ عليٍّ مُعلن الصوت عاليا

←

ماكنت أحسب أنّ الأمر منصرفٌ عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن
أليس أوّل من صلّى لقبلتكم وأعرف النّاس بالآيات والسّنن(١٠٩)

فقوله: صلّى لقبلتكم، نصّ على المقصود.

الثاني، أنّ السجود كان لآدم تعظيماً له وتحيّة كالسّلام منهم عليه، وقد كانت الأمم

→

فقال: فمن مولاكم ووليّكم(نبيّكم)؟ فقالوا ولم يبدوا هناك تعاميا:
إلهك مولانا وأنت وليّنا (نبيّنا) ولن تجدن فينا لك اليوم عاصيا
فقال له: قم ياعليٌّ فإنّني رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليّه فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا اللّهم وال وليّه وكن للّذي عادى عليّاً معاديا
فيا ربّ أنصر ناصريه لنصرهم إمام هدى كالبدر يجلو الدياجيا

فانظر أيّها القارئ العزيز انّ هذه الأبيات الّتي قُرئت عند رسول الله (ص) تفسير ظاهر للآيات المرتبطة ولما قال النبيّ في الغدير، أي المراد من: «بلّغ ما أنزل» والمراد من «مولاه» هو الولاية بمعنى الامامة والخلافة.

(١٠٩) قوله: ماكنت أحسب.

الأبيات في بيان أنّ أوّل من أسلم وآمن وصلّى وركع مع سول الله (ص) عليّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام، كما ورد فيه الأحاديث الكثيرة، وهناك خلاف في قائلها وشاعرها، قيل: هو حسّان بن ثابت كما في المتن، وقيل: هو ربيعة بن الحرث بن عبدالمطلب، وقيل: هو أبو سليمان بن حرب، وتمام الأبيات كما يلي:

ماكنت أحسب أنّ الأمر منصرفٌ عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسنِ
أليس أوّل من صلّى لقبلتهم؟ وأعلم النّاس بالآيات والسننِ؟
وآخر الناس عهداً بالنبيّ؟ ومَن جبريل عون له في الغسل والكفنِ؟
مَن فيه ما فيهمُ ما تمترون به؟ وليس في القوم ما فيه من الحسنِ
ماذا الّذي ردّكم عنه؟ فنعلمه ها إنّ بيعتكم من أوّل الفتنِ

راجع (الغدير) ج ٣، ص ٢٣١، وراجع كتاب سليم بن قيس الهلالي ص ٢٨، وفيه الأبيات المذكورة منسوبة إلى العباس بن عبدالمطلب وفي لفظها أيضاً تفاوت يسير.

السّالفة تفعل ذلك كما يحيّي المسلمون بعضهم بعضاً، وعن صهيب(١١٠): أنّ معاذاً رضي الله عنه لمّا قَدِم من اليمن يَجَد للنّبي صلّى الله عليه وآله، فقال له:

يامعاذ ما هذا؟ فقال: رأيت اليهود تسجد لعظمائها وعلمائها، ورأيت النصارىٰ تسجد لقسّيسيها وبطارقتها، فقلت: ماهذا؟ فقالوا: تحيّة الأنبياء، فقال صلّى الله عليه وآله: كذبوا على أنبيائهم.

الثالث، أنّ السجود في أصل اللغة عبارة عن الإنقياد والخضوع كما قال الشاعر: ترى الأُكم فيها سجّداً للحوافر(١١١)، أي أن تلك الجبال الصغار كانت مذلّلة لحوافر الخيل، ومنه قوله تعالى:

﴿والنّجم والشّجر يسجدان﴾ [سورة الرحمن: ٦].

والقول الثاني هو مقتضى كلامه عليه السّلام إذ فسّر السجود به فقال: «والخضوع لتكرمته» والخنوع لتكرمته، وبالله التوفيق.

(في أنّ الملائكة المأمورين بالسجود من هم؟)

البحث الرابع: اختلفوا: في الملائكة الّذين أمروا بالسّجود لآدم، فاستعظم بعضهم

---

(١١٠) قوله: عن صهيب.

ذكره الفخر الرازي في تفسير ج ٢، ص ٢١٣ في قوله تعالى:

﴿وإذ قُلنا للملائكةِ اسجدوا لآدم﴾ [سورة البقرة: ٣٤].

وقريب منه رواه ابن ماجة باسناده عن عبدالله بن أبي أوفى في (سننه) كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة الحديث ١٨٥٣، ص ٥٩٥.

وأيضاً رواه ابن حنبل في مسنده ج ٤، ص ٣٨١.

(١١١) قوله: كما قال الشاعر.

تمام الشعر:

بجمع تظلّ البلق في حجراته ترى الأكم فيها سجّداً للحوافر

راجع البحار الحديث ٥، ص ٢٦٥.

الأُكُم والأُكَم جمع الأَكَمَة: التلّ أو الموضع الّذي يكون أكثر ارتفاعاً ممّا حوله.

سجود ملائكة السماء له، وقالوا: المأمورون بذلك هم الملائكة الّذين أهبطوا مع إبليس إلى الأرض، قالوا: وذلك أنّ الله تعالىٰ لمّا خلق السّماوات والأرض، وخلق الملائكة أهبط منهم ملأ إلى الأرض يسمّون بالجنّ رأسهم إبليس، وأسكنهم إيّاها وكانوا أخفّ الملائكة عبادة، فأعجب إبليس بنفسه، وتداخله الكبر فأطلع الله عزّ وجلّ على ما انطوىٰ عليه، فقال له ولجنده:

﴿إنّي خالق بشراً من طين فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [سورة ص: ٧٢].

وقال بعضهم: إنّ المأمورين بالسجود لآم هم كلّ الملائكة بدليل قوله تعالى:

﴿فسجد الملائكة كلّهم أجمعون﴾ [سورة ص: ٧٣].

فأكّد جمعهم بأكمل وجوه التأكيد.

(في أنّ إبليس أهو من الملائكة أم لا ؟)

البحث الخامس: أكثر المتكلّمين لاسيّما المعتزلة على أنّ إبليس لم يكن من الملائكة، وقال جمهور المفسّرين ومنهم ابن عبّاس: إنّه كان من ملائكة الأرض الّذين أهبطوا قبل آدم.

حجّة الأوّلين قوله تعالى:

﴿إلّا إبليس كان من الجنّ﴾ [سورة الكهف: ٥٠].

والجنّ لم يكونوا من الملائكة بدليل قوله تعالىٰ للملائكة:

﴿أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبدون﴾ [سورة سبأ: ٤٠].

وقول الملائكة:

﴿سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ﴾ [سورة سبأ: ٤١].

واحتجّ من قال إنّه منهم باستثناء إبليس من الملائكة في غير موضع من القرآن الكريم، والإستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل، وذلك يدلّ على أنّ إبليس من الملائكة.

وأجابوا عن حجّة الأوّلين من وجهين:

أحدهما المعارضة بقوله تعالى:

﴿وجعلوا بينه وبين الجِنّة نسباً﴾ [سورة الصافات: ١٥٨].

وذلك الجعل هو قول قريش: الملائكة بنات الله بدليل قوله تعالى:

﴿وجعلوا الملائكة الّذين هم عباد الرّحمٰن إناثاً﴾ [سورة الزخرف: ١٩].

فهذه الآية تدلّ على أنّ الملائكة من الجنّ.

الثاني، أنّ كون إبليس من الجنّ لاينافي كونه من الملائكة لأنّ الملائكة يصدق عليهم اسم الجنّ لأنّ الجنّ مأخوذ من الإجتنان وهو الإستتار، ومنه سمّي الجنين لإستتاره في بطن أمّه، ومنه (المجنون) الجنون لإستتار العقل فيه، والملائكة مستترون عن الأعين فوجب جواز إطلاق لفظ الجنّ عليهم.

واعلم، أنّ الخلاف لفظيّ فإنّه إذا ثبت أنّ الملائكة الّذين أهبطوا إلى الأرض قبل آدم هم المسمّون بالجنّ، وإبليس من الجنّ، ثبت أنّ إبليس من الملائكة، وليس النّزاع في أنّه من ملائكة الأرض أو من ملائكة السّماء، بل في كونه من الملائكة مطلقاً، فإذن ليس بينهم خلاف في المعنى.

(في بيان سبب عداوة إبليس لآدم)

البحث السّادس: اختلفوا في سبب عداوة إبليس لآدم فقال بعضهم: إنّه الحسد، وذلك أنّ إبليس لمّا رآى ما أكرم الله به آدم من إسجاد الملائكة وتعليمه مالم يطّلع عليه الملائكة حسده وعاداه.

وقال آخرون: إنّ السبب تباين أصليها ولمنافرة الأصلين أثر قويّ في منافرة الفرعين، قالوا: وتباين أصليها هو منشأ القياس الفاسد من إبليس حين أُمر بالسّجود، وذلك قوله:

﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [سورة الأعراف: ١٢].

وكأنّه في خطابه يقول: إنّ آدم جسمانيّ كثيف وأنا روحانيّ لطيف، والجسمانيّ أدون

حالاً من الرّوحاني، والأدون كيف يليق أن يكون مسجوداً للأعلى.

وأيضاً فإنّ أصل آدم من صلصال من حمإ مسنون، والصلصال في غاية الدناءة، وأصلي من أشرف العناصر، وإذا كان أصلي خيراً من أصله وجب أن أكون خيراً منه وأشرف، والأشرف يقبح أن يؤمر بالسّجود للأدون.

قالوا: فكان ذلك قياساً منه، فأوّل من قاس هو إبليس، فأجابه الله تعالى جواباً على سبيل التنبيه دون التّصريح بقوله:

﴿اخرج منها مذءوماً مدحوراً﴾ [سورة الأعراف: ١٨].

قال بعض الفضلاء: وتقريره أنّ الّذي قاله تعالى نصّ بحكم الحكمة الإلهيّة والقدرة الرّبانيّة، والّذي قاله إبليس قياس، ومن عارض النصّ بالقياس كان مرجوماً ملعوناً.

(في احتجاج الأشاعرة بخلق الكفر في الكافرين وجوابهم)

البحث السّابع: احتجّت الأشعريّة على أنّه تعالى قدير خلق الكفر في الكافرين، من هذه القصّة بوجهين:

أحدهما، أنّه تعالى أنظر إبليس مع أنّه يعلم أنّه إنّما قصده إغواء بني آدم، ولو أهلكه استراحوا وعُدم الشرّ الحاصل منه ومن ذرّيته.

الثاني، أنّه قال: اغويتني، فنسب الإغواء إلى الله تعالى، مع أنه تعالى لم ينكر عليه هذا الكلام وهذا تصريح في أنّه تعالى يفعل الإغواء.

أجابت المعتزلة عن الأوّل: بأنّ الله تعالى خلق آدم وذرّيته قادرين على رفع إبليس عن أنفسهم، فهم الّذين اختاروا الكفر والفساد، أقصى ما في الباب أن يقال: إنّ الإحتراز عن القبيح حال عدم إبليس أسهل منه حال وجوده إلّا أنّ على هذا التقدير تصير وسوسته سبباً لزيادة المشقّة في أداء الطّاعات فيزداد المكلّف بتكلّفها ثواباً كما قال عليه السّلام:

«أفضل الأعمال أحمزها أي أشقّها»(١١٢).

وذلك لايمنع الحكيم من فعله، كما أنّ إنزال المشاق والآلام وإنزال المتشابهات صار سبباً لزيادة الشبهات، ومع ذلك لم يمتنع فعلها من الله تعالى، وهذا الوجه قريب من قوله عليه السّلام: استتماماً للبليّة.

وعن الثاني أنّ المراد من قوله: بما أغويتني أي بما خيّبتني من رحمتك، وقيل: معنى إضافة غوايته إلى الله تعالى، أنّ الله تعالى لمّا أمره بالسّجود لأدم عصى وغوى فكان الباري هو الأصل في حصول الإغواء له فلذلك نسبه إليه، واحتجّ أيضاً من جواز الخطاء على الأنبياء عليهم السّلام من هذه القصّة، بقوله تعالى:

﴿وعصى آدمُ ربّه فغوى﴾ [سورة طه: ١٢١].

وأجاب من أوجب عصمتهم من حين الولادة بأنّه لمّا دلّ الدّليل على وجوب عصمتهم وجب صرف هذا اللفظ ونحوه على ترك الأولى وهو في حقّهم سيّئة ومعصية، وإن كان في حقّ غيرهم حسنة، كما قيل:

حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

ومن أوجب عصمتهم من حين الرّسالة فله أن يحمل هذه المعصية على ما قبل الرّسالة، والمسألة مستقصاة في الكلام.

---

(١١٢) قوله: (ع) أفضل الأعمال.

قال ابن الأثير في (النّهاية) في مادّة حمز: في حديث ابن عباس:

«سئل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أيّ الأعمال أفضل؟ فقال: أحمزها» وعبّر المجلسي (ره) في البحار ج ٨٢، ص ٢٢٨ عن الخبر المذكور. الخبر المشهود بين الخاصّة والعامّة.

وهناك خبر آخر مرويّ عن النبيّ (ص) انّه قال:

«أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس».

ذكر الغزالي في (إحياء علوم الدّين) ج ٤، ص ٤١٧.

(في معنىٰ تلقّي آدم كلمات ربّه وتفصيل الأقوال فيه)

البحث الثامن: قال القفّال: أصل التلقّي في قوله:

﴿فتلقّ آدم من ربّه كلمات﴾ [سورة البقرة: ٣٧].

وقوله عليه السّلام: ولقّاه كلمة رحمته، هو التعرّض للقادم (للقاء) وضع (ثمّ يوضع في) موضع الاستقبال للمسئ والجاني (للشّيء الجـائي) (ثمّ يوضع) ثمّ وضع موضع القبول والأخذ، قال الله تعالى:

﴿وإنّك لتُلَقّ القرآن من لدن حكيم عليم﴾ [سورة النمل: ٦].

أي تلقّنه [١١٣]، ويقال: تلقينا الحجاج أي استقبلناهم، (ويقال:) تلقّيت هذه الكلمة من فلان أي أخذتها منه. وإذا كان هذا أصل الكلمة وكان مِن: تلقي رجلاً فتلاقيا، لقي كل واحد منهما صاحبه وأضيف بالإجتماع (فأضيف الاجتماع) إليهما معاً فصلح (صلح) أن يشتركا في الوصف بذلك، (فيقال:) كلّ ما تلقّيته فقد تلقّاك، فجاز أن يقال: تلق آدم من ربّه كلمات، أي أخذها ووعاها واستقبلها بالقبول، ولقاه الله إيّاها أي أرسلها إليه وواجهه.

---

(١١٣) قوله: تلقّنه.

قوله تعالى: ﴿لتُلقّ﴾ أي لتُلقّن ولتُعطي ولتؤتاه.

لَقِنَ الكلام، وتلقَّن الكلام من فلان: أخذه مشافهةً وفهِمَه. وتَلَقَّنَ الشيءَ والكـلامَ: فَهِمَه وتمكَّن منه. ولَقَّنَه الكلام: فهّمه إياه مشافهةً. ولقّنه الكلام: ألقاه إليه ليعيده.

وفي (المصباح المنير): لقِنَ الرَّجلُ فهو لَقِنٌ، مِن باب تَعِبَ فَهِمَهُ، ويعدَّي بالتَّضعيف إلى ثان فيقال: لقَّنتُهُ الشيءَ فتلقَّنَهُ: إذا أخذه من فيكَ مشافهةً.

لقِيَ يلْقَى لِقاءً، لَقِيَ فلاناً: استقبله، صادفه، رآه. لاقىٰ لِقاءً ومـلاقاة الرّجـلَ: صـادفه وقابله. تلق الشيء بمعنى لقيه أي استقبله.

وفي (المصباح المنير): كلُّ شيءٍ استقبل شيئاً أو صادفه: فقد لَقِيَهُ. والقَيتُ إليه القول، وبالقول أبلغته وألقيته عليه، بمعنى أمليْتُهُ وهو كالتعليم.

ثمّ ذكر المفسّرون في ذلك الكلمات أقوالاً (١١٤):

---

(١١٤) قوله: ثمّ ذكر المفسّرون.

انظر في ألفاظ هذا الفصل والأقوال المنقولة في (تفسير الكبير) للفخر الرازي ج ٣، ص ١٩، في الآية: ﴿فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه انّه هو التوّاب الرّحيم﴾ [سورة البقرة: ٣٧].

وصححنا الفاظ الفصل أيضاً به، وراجع أيضاً في تفسير الآية المذكورة وبيان المراد من الكلمات الّتي تلقّاها آدم عليه السّلام ربّه، (الدّر المنثور) و(تفسير ابن كثير) و(معالم التنزيل) و(جامع البيان) للطبري، وتفسير (البرهان) و(نور الثقلين) و(الميزان) وغيرها من التفاسير، وبحار الأنوار ج ١١، أبواب قصص آدم باب ٣ و ٤. ولأجل المزيد في الفايدة نذكر في المقام بعض الأحاديث الواردة في تفسير «الكلمات» عن بعض كتب الأحاديث والتفاسير الرّوائيّة.

١ ـ روى العياشي في تفسيره ج ١، ص ٤٠، الحديث ٢٤، باسناده عن الإمام الباقر عليه السّلام قال: قال رسول الله (ص): إنّ الله حين أهبط آدم إلى الأرض أمره أن يحرث بيده فيأكل من كدّه بعد الجنّة ونعيمها، فلبث يجأر ويبكي على الجنّة مائتي سنة، ثمّ إنّه سجد لله سجدةً فلم يرفع رأسه ثلاثة أيّام ولياليها، ثمّ قال: أي ربّ ألم تخلقني؟ فقال الله: قد فعلت، فقال: ألم تنفخ فيّ من روحك؟ قال: قد فعلت، قال: ألم تسكنّي جنّتك؟ قال: قد فعلت، قال: ألم تسبق لي رحمتك غضبك؟ قال الله: قد فعلت فهل صبرت أو شكرت؟ قال آدم: «لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي ظلمت نفسي فاغفرلي إنّك أنت الغفور الرّحيم»، فرحمه الله بذلك وتاب عليه انّه هو التّواب الرّحيم.

٢ ـ روى الصدوق (ره) في (معاني الأخبار) ص ١٢٦، الحديث ١، باسناده عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه، وهو أنّه قال: «ياربّ أسألك بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت عليّ» فتاب الله عليه إنّه هو التّواب الرّحيم. ورواه أيضاً في (كمال الدّين) ج ٢، باب ٣٣، الحديث ٥٥، ص ٢٨.

٣ ـ أخرج السيوطي في (الدّر المنثور) وقال: أخرج ابن النجّار عن ابن عباس قال: سألت رسول الله (ص) عن الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه قال: سأل بحقّ محمّد، وعليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، إلّا تبت عليّ فتاب عليه.

٤ ـ روى الكليني في (الرّوضة) ص ٣٠٤، الحديث ٤٧٢، باسناده عن أحدهما عليهما ←

الأوّل، روى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنه:

انّ آدم عليه السّلام قال: ياربّ ألم تخلقني بيدك بلا واسطة؟

قال: بلى، (قال: ياربّ ألم تنفخ فيّ مِن روحك؟ قال: بلىٰ،) قال: ألم تسكنّي جنّتك؟ قال: بلى، قال: ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: إن تبت واصلحت أتردّني إلى الجنّة؟ قال: نعم، وهو قوله تعالى: ﴿فتلقّىٰ آدم من ربّه كلمات﴾.

الثاني، قال النخعي: أتيت ابن عباس، فقلت: ما الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه؟ قال: علّم الله تعالى آدم وحوّاء أمر الحجّ والكلمات الّتي يقال فيه فحجّا، فلمّا فرغا أوحى الله تعالى إليهما: «إنّي قد قبلت توبتكما».

الثالث، قال مجاهد وقتادة وفي إحدى الروايتين عنهما: هي قوله:

﴿ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾ [سورة الأعراف: ٢٣].

الرّابع، قال سعد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهم: إنّها قوله:

لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفرلي إنّك خير الغافرين.

لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنّك أرحم الرّاحمين،

لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ إنّك أنَ

← السّلام في قول الله عزّ وجلّ:

﴿فتلقّىٰ آدم من ربّه كلمات﴾.

قال: لا إله إلّا أنت سبحانك، اللّهم وبحمدك عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فاغفرلي وأنت خير الغافرين، لا إله إلّا أنت سبحانك اللّهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفرلي وارحمني وأنت أرحم الرحمين، لا إله إلّا أنت سبحانك اللّهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ انّك أنت التّواب الرّحيم.

وروي قريب منه في حديث طويل على بن إبراهيم قمّيّ في تفسير ج ١، ص ٤٤.

التّواب الرّحيم.

الخامس، قول عايشة: لمّا أراد الله تعالى أن يتوب على آدم طاف بالبيت سبعاً، والبيت حينئذٍ ربوة حمراء، فلمّا صلّى ركعتين استقبل (القبلة) البيت، وقال: اللّهم إنّك تعلم سرّي وعلانيتي فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فاعطني سؤلي، وتعلم مافي نفسي، فاغفرلي ذنوبي، اللّهمّ إنّي أسألك إيماناً تباشر به قلبي، ويقيناً صادقاً حتّى أعلم أنّه لن يصيبني إلّا ما كتبت لي، وأرضني بما قسمت لي.

فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم قد غفرت لك ذنبك، ولن يأتيني أحد من ذرّيّتك فيدعوني بمثل ما دعوتني به إلّا قد غفرت ذنوبه وكشفت همومه، ونزعت الفقر من بين عينيه وجاءته الدّنيا وهو لايريدها.

البحث التّاسع: في حقيقة التّوبة.

قال الإمام الغزالي رحمة الله عليه (١١٥): التوبة عبارة عن معنى مركّب من ثلاثة أمور مترتبة: علم، ثمّ حال، ثمّ ترك.

أمّا العلم فأن يعلم العبد ضرر الذنوب وكونه حجاباً بينه وبين الله تعالى، وقيداً يمنعه من دخول الجنّة. فإذا علم ذلك بيقين غالب على قلبه فإنّ ذلك يوجب له تألّماً نفسانيّاً بسبب فوات الخير العظيم المطلوب لكلّ عاقل، فيسمّى تألمه بسبب فعله المفوّت لمحبوبه ومطلوبه ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب أوجب له القصد إلى أمرين: أحدهما ترك الذنوب الّتي كان ملابساً لها أوّلاً، والثاني العزم على ترك الذنب المفوّت لمطلوبه في المستقبل إلى آخر العمر فهذه حقيقتها، وينشأ من ذلك تلافي مافات بالجبر والقضاء وإن كان قابلاً للجبر.

والعلم هو الأصل في إظهار هذه الخيرات، فإنّ القلب إذا أيقين بأنّ الذنوب كالسّموم المهلكة، والحجب الحائلة بينه وبين محبوبه فلابدّ أن يتمّ نور ذلك اليقين

---

(١١٥) قوله: قال الإمام الغزالي.

راجع احياء علوم الدين كتاب التوبة الركن الأوّل ج ٤، ص ٨، وتفسير الكبير للرازي ج ٣، ص ٢٠، و(المحجة البيضاء) للفيض الكاشاني ج ٧، ص ٣.

فتشتعل فيه نيران الندم فيتألّم به القلب، وحينئذ ينبعث من تلك النار طلب الإنتهاض للتدارك، فالعلم والندم والقصد المتعلّق بالترك في الحال، والإستقبال، والتلافي للماضي، ثلاثة معان مترتّبة يطلق إسم التّوبة على مجموعها، وربّما أطلق اسم التوبة على الندم وحده، وجعل العلم كالباعث، والترك كالثمرة المتأخّرة، ولهذا الإعتبار قال صلّى الله عليه وآله:

«الندم توبة»(١١٦)، إذ الندم مستلزم لعلم أوجبه ولعزم يتبعه.

وأمّا وجوبها فمن وجهين:

أحدهما، أنّ التوبة مرضاة للرحمن مسخطة للشيطان، مفتّحة لأبواب الجنان معدّة لإشراق شموس المعارف الإلهيّة على ألواح النّفوس، مستلزمة للمواهب الرّبانيّة من الملك القدّوس.

الثاني، الأوامر الواردة بها في القرآن الكريم:

﴿يا أيّها الّذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ [سورة التحريم: ٨].

والوعد الصادق على فعلها:

---

(١١٦) قوله: قال (ص) الندم توبة.

رواه الصدوق (ره) في (عيون أخبار الرضا) الحديث ١، ص ١٣٧، الحديث ٣٥، باب ١١، ورواه ابن شعبة في (تحف العقول) ص ٥٥، وأخرجه ابن ماجه ج ٢، ص ١٤٢٠، الحديث ٤٢٥٢، والحاكم في (المستدرك) ج ٤، ص ٢٤٣.

قال الإمام زين العابدين عليه السّلام في الدعا الحادي والثلاثين في الصحيفة السّجاديّة:

«اللّهم إن يكن الندمُ توبةً إليك فأنا أندم النادمين».

وأيضاً قال في الدعاء الثامن والثلاثين:

فصلّ على محمّد وآله، واجعل ندامتي علىٰ ما وقعت فيه من الزّلات، وعزمي على ترك مايعرضُ لي من السيّئات، توبةً توجب لي محبّتك يامحبَّ التوابين.

وروى الصدوق (ره) في الخصال ص ١٦، الحديث ٥٨ باسناده عن الإمام الباقر (ع) قال: كفى بالندم توبة. عنه البحار ج ٦، ص ٢٠، الحديث ٩.

﴿عسى ربّكم أن يكفّر عنكم سيّئاتكم ويدخلكم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ [سورة التحريم: ٨].

والوعد الحتم على تركها:

﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظّالمون﴾ [سورة الحجرات: ١١].

ونحوه ممّا يدلّ على وجوبها.

فأمّا قبولها فمن وجهين:

أحدهما، قوله تعالى:

﴿وهو الّذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السّيّئات﴾ [سورة الشورى: ٢٥].

وقوله تعالى:

﴿غافر الذنب وقابل التّوب﴾ [سورة غافر: ٣].

الثاني، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله(١١٧):

«أفرج بالتّوبة من العبد المذنب».

والفرج وراء القبول فهو دليل على القبول.

وقال صلّى الله عليه وآله:

---

(١١٧) قوله: قال رسول الله (ص).

أخرجه مسلم في صحيحه كتاب التوبة باب ١، الحديث ١ إلى ٨، ج ٤، ص ٢١٠٤، باسناده عن النبيّ (ص) قال: قال الله عزّ وجلّ: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه حيث يَذكُرُني، والله! لَلّهُ أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالّته بالفَلاة. وأخرجه أيضاً ابن ماجه ج ٢، ص ١٤١٩.

وروى الكليني (ره) في (اصول الكافي) ج ٢، باب التوبة ص ٤٣٥، الحديث ٨، باسناده عن الإمام الباقر عليه السّلام، قال: إنّ الله تعالى أشدُّ فرحا بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها.

«لو عملتم الخطايا إلى (حتّى) السّماء ثمّ ندمتم عليها لتاب الله عليكم»(١١٨).

البحث العاشر: فيما عساه يبقى من المقاصد المشكلة في هذه القصّة:

الأوّل: الوديعة والوصيّة الّتي استأداها الله سبحانه من الملائكة في قوله عليه السّلام:

«واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم».

إشارة إلى قوله تعالى:

﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [سورة الحجر: ٢٩].

فكان تعالى قد عهد إليهم بهذا القول وأوصاهم بمقتضاه ثمّ استأداه منهم بما ذكره عليه السّلام في قوله تعالى:

﴿اسجدوا لآدم﴾ [سورة البقرة: ٣٤].

الثاني، قوله: «فاغترّه» إبليس، فالإغترار طلب الغِرّة من آدم والتماسها منه بالوسوسة الّتي ألقاها إليه كما سنبيّن معنى الوسوسة إنشاء الله.

الثالث، قوله: «دار المقام»، هي جنّة الخلد ومرافقة الأبرار، إشارة إلى مصاحبة الملائكة: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ [سورة القمر: ٥٥].

الرّابع، قوله: فباع اليقين بشكّه، للشارحين.

فيه أقوال: أنّ معيشة آدم كانت في الجنّة على حال يعملها يقيناً:

أوّلها، وما كان يعلم كيف معاشه في الدنيا إذا انتقل إليها ولا حاله بعد مفارقة

---

(١١٨) قوله: قال رسول الله (ص).

أخرجه ابن في سننه ج ٢، ص ١٤١٩، الحديث ٤٢٤٨ باسناده عن النبيّ (ص) قال: لو أخطأتم حتّى تبلُغ خطاياكم السّماء، ثمّ تُبتم لتاب عليكم.

روى الصدوق (رض) في (أمالي) المجلس الحادي عشر الحديث ٣، ص ٤٥، (في حديث طويل) باسناده عن النبيّ (ص) قال:

يغفر الله لك وإن كانت مثل الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها ومافيها من الخلق، يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل السّماوات ونجومها ومثل العرش والكرسي.

الجنّة، ثمّ إنّ إبليس شكّكه في صدق مقاله: «إنّي لكما لمن الناصحين»، فنسى ماكان عنده يقيناً ممّا هو فيه من الخير الدائم وشكّ في نصح إبليس فكأنّه باع اليقين بالشكّ بمتابعته، وهي استعارة حسنة على سبيل الكناية عن استيعاض آدم الشكّ عن اليقين.

الثّاني، قالوا: لمّا أخبره الله تعالى عن عداوة إبليس له تيقّن ذلك فلمّا وسوس له إبليس شكّ في نصحه فكأنّه باع يقين عداوته بالشكّ (في ذلك).

الثالث، قول من نزّه آدم عليه السّلام، ههنا مثل قديم للعرب لمن عمل عملاً لايفيده وترك ماينبغي له أن يفعله، تمثّل به أمير المؤمنين عليه السّلام ههنا ولم يرد أنّ آدم عليه السّلام شك في أمر الله تعالى.

الرابع، قوله: «والعزيمة بوهنه». قال ابن عبّاس في قوله تعالى:

﴿ولم نجد له عزماً﴾ [سورة طه: ١١٥].

(أي لم نجده) حفظاً لما أمر الله به.

وقال قتادة: صبراً. وقال ضحاك: صريمة أمر (١١٩).

وحاصل هذه الأقوال يعود إلى أنّه لم يكن له قوّة على حفظ أوامر (ما أمر) الله، فكأنه باع العزم الّذي كان ينبغي له، والقوّة الّتي كان ينبغي أن يحتفظ بها عن متابعة إبليس بالضعف والوهن عن تحمّل ما أمر الله به.

الخامس، قوله: «دار البليّة»، هي دار الدنيا، إذ كانت دار المحنة والإبتلاء بمقاساة إبليس ومجاهدته.

---

(١١٩) قوله: وقال ضحاك.

راجع في الأقوال المذكورة: (مجمع البيان) سورة طه الآية ١١٥، والدر المنثور، ومعالم التنزيل ج ٤، ص ٣٤، في الآية المذكورة، وتفسير الطبري جامع البيان ج ١٦، ص ١٦١، أيضاً فيها.

الصريمة: إحكام الأمر وإبرامه والعزيمة فيه، وجمعها: الصرائم.

قال ابن منظور في لسان العرب: الصريمة: إحكامُك أمراً وعزمُك عليه، ويقال: فلان ماضي الصريمة والعزيمة. قال أبو الهيثم: الصريمة والعزيمة واحد.

وسجن الصّالحين، كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم:

«الدّنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر»(١٢٠).

(في بيان التحذير عن المعاصي في قصة آدم وإبليس)

واعلم، أنّ في هذه القصّة تحذيراً عظيماً عن المعاصي، وذلك من وجوه:

أحدها، أنّ من تصوّر ماجرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزّلّة كان على وجَل شديد من المعاصي.

قال الشاعر:

يا ناظراً نوراً بعيني راقد (راغد) ومشاهداً للأمر غير مشاهد

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي درك الجنان ونيل فوز (نور) العابد

أنسيتَ أنّ الله أخرج آدماً منها إلى الدّنيا بذنب واحد

وعن فتح الموصلي أنّه قال: كنّا قوماً من أهل الجنّة فسبانا إبليس إلى الدنيا فليس لنا إلّا الهمّ والحزن حتّى نردّ إلى الدّار الّتي أخرجنا منها.

وثانيها، التحذير عن الإستكبار والحسد والحرص، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿أبى واستكبر﴾ [سورة البقرة: ٣٤].

قال: حسد عدوّ الله إبليس آدم على ما أعطاه الله تعالىٰ من الكرامة فقال: أنا ناريّ وهذا طيني ثمّ ألقى الحرص والحسد في قلب ابن آدم حتّى حمله على ارتكاب المنهى عنه.

وثالثها، انّه تعالى بيّن العداوة الشديدة بين ذرّيّة آدم وإبليس، وهذا تنبيه عظيم

---

(١٢٠) قوله: الدّنيا سجن المؤمن.

الحديث معروف عند الشيعة والسنّة، ونقلوه في كتبهم منها:

معاني الأخبار للصدوق باب معنى الموت ص ٢٨٨، الحديث ٣، وصحيح مسلم ج ٤، كتاب الزّهد الحديث ١، ص ٢٢٧٢.

على وجوب الحذر منه ومن ذريّته كما قال:

﴿ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لاتعبدوا الشّيطان إنّه لكم عدوّ مبين﴾ [سورة يس: ٦٠].

وأمثال ذلك في هذا الباب كثيرة فاطلب من مظانّها والله المستعان وعليه التكلان.

هذا آخر الطريق الأوّل من الطريقين المذكورين الموعودين في هذا، والطريق الثاني منها هو الطريق من حيث التأويل لهذه القصّة، وقد تركناه بأسره لإستغنائنا عنه، لأنّ كلّ يمكن في (من) هذا المقام من التأويل، سيجيء من تأويلنا في موضعه إن شاء الله، والأولى أن يحمل آدم فيما ذكره هٰهنا في هذه القصّة على مطلق النوع الإنساني.

وإذا تقرّر هذا فلنرجع إلى المتن مرّة أخرى، ونقول ما قال فيه الشارح قدّس الله سرّه.

فقوله: ثمّ جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنّها بالماء حتّى خلصت، ولاطها بالبلّة حتّى لزبت،

إشارة إلى أصل امتزاج العناصر، وإنّما خصّ هذين العنصرين وهما الأرض والماء دون الباقيين لأنّهما الأصل في تكوّن الأعضاء المشاهدة الّتي تدور عليها صورة الإنسان المحسوسة.

وقوله: «حتّى خلصت وحتّى لزبت».

إشارة إلى بلوغها في الإستعداد الغاية الّتي معها تفاض صورة مايتكوّن منها.

وقوله: «فجبل منها صورة ذات أحناءٍ ووصول وأعضاءٍ وفصول».

إشارة إلى خلق الصّورة الإنسانيّة وإفاضتها بكمال أعضائها ومفاصلها وما تقوم به صورةً.

وقوله: «منها»، الضمير راجع إلى التربة ويفهم من ظاهر اللفظ أنّ الصورة الإنسانيّة هي المفاضة على كمال استعداد التربة من غير واسطة انتقالات أخر في أطوار الخلقة، وإنّما يتمّ ذلك إذا حملنا آدم على أوّل شخص يكون من هذا النوع فأمّا

إذا حملنا على مطلق النوع كان المراد أنّه جبل منها الصّورة الإنسانيّة بوسائط من صور ترددت في أطوار الخلقة كما قال تعالى:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ [سورة المؤمنون: ١٢ ـ ١٣].

فالصورة الإنسانيّة جبلت من النطفة المتولّدة من فضل الهضم الرابع المتولّد من الأغذية، وهي إمّا حيوانيّة أو نباتيّة، والحيوانيّة تنتهي إلى النباتيّة، والنباتيّة إنّما تتولّد من صفو الأرض والماء وهي التربة المستعدة للإنبات وليس في ذلك مخالفة للظاهر، فانّ تلك التربة بعد أن تواردت عليها أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منيّاً فصدق عليها ان الصّورة الإنسانيّة جبلت منها.

وقوله: «أجمدها حتّى استمسكت وأصلدها حتّى صلصلت».

الضمير في الجملتين راجع إلى الصّورة وما يتعلّق بها من الأعضاء فالإجماد لغاية الإستمساك راجع إلى بعضها كاللحم والأعصاب والعروق وأشباهها، والأصداد لغايته راجع إلى بعض آخر كالعظام والأسنان، وإسناد ذلك إلى المدبّر الحكيم سبحانه لأنّه العلّة الأولى وإن كان هناك لهذه الآثار أسباب قريبة طبيعيّة كالحارّ الغريزي فإنّه المستعدّ لتحريك الموادّ ويتبعه البرد ليسكنه عند الكمالات من الخلق، وكالرطوبة فإنّها هي الّتي تتخلق وتتشكل ويتبعها اليبوسة لحفظ الأشكال وإفادة التماسك.

وقوله: «لوقت معدود وأجل معلوم (وأمد معلوم)».

يحتمل أن يراد به أن لكلّ مرتبة من مراتب تركيب بدن الإنسان وانتقاله في أدوار الخلقة وقتاً معدوداً يقع فيه وأجلاً معلوماً يتمّ به، ويحتمل أن يراد بالوقت المعدود والأجل المعلوم الوقت الّذي يعلم الله سبحانه انحلال هذا التركيب فيه كما قال تعالى:

﴿وما نؤخّره إلّا لأجل معدود﴾ [سورة هود: ١٠٤].

قوله: «ثمّ نفخ فيها من روحه».

أقول: الضمير المؤنّث راجع إلى الصورة، وقد علمت أنّ هذه الإشارة جارية في القرآن الكريم كما قال تعالى:

﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [سورة الحجر: ٢٩].

والمراد بالتسويّة إفاضة تمام إعداد البدن وتهيئته لقبول النقش، والمراد بالنفخ ههنا هو إفاضة النفس عليه عند كمال ذلك الإستعداد، واستعمال النفخ ههنا استعارة حسنة فإنّ النفخ له صورة وهو إخراج الهواء من فم النافخ إلى المنفوخ فيه ليشتعل فيه النار.

ولمّا كانت حقيقة النفخ ممتنعة في حقّ الله تعالى وجب العدول إلى حمل لفظه على ما يشبهه، ولمّا كان اشتعال نور النفس في فتيلة البدن عن الجود الإلهيّ المعطي لكلّ قابل مايستحقّه بحسب محاكاة خيالنا الضعيف ما نشاهد من اشتعال النار في المحل القابل لها عن صورة النفخ ،لاجرم حسن التعبير والتجوّز بلفظ النفخ عن إفاضة الجود الإلهيّ للنفس على البدن لما كان لمشابهته المتخيّلة وإن كان الأمر أجلّ ممّا عندنا وأعلى.

وأمّا نسبة الرّوح إلى الله.

(في المراد من الرّوح في الآية: نفخت)

فاعلم أنّ الروح يحتمل أن يراد به أحد ثلاثة معان:

الأوّل جبرئيل عليه السّلام وهو روح الله الأمين، ونسبته إليه ظاهرة، وأمّا نسبته النفخ إلى الله حينئذ فلكونه العلّة الأولى، وجبرئيل واسطة جعله الله تعالى مبدأً في هذا اللفظ لنفخ النفس في صورة آدم منه.

الثّاني، جود الله ونعمته وفيضه الصّادر على آدم وغيره وإنّما كان ذلك روحاً لأنّه مبدأ كلّ حياة فهو الروح الكلّيّة الّتي بها قوام كلّ وجود، ونسبته إليه ظاهرة، وتكون مِن ههنا للتبعيض.

الثالث، أن يراد بالروح النّفس الإنسانيّة وتكون مِن زايدة، وإنّما نسب إليه دون ساير مصنوعاته اللطيفة لما علمت انّ الروح منزّه عن الجهة والمكان وفي قوّته العلم بجميع الأشياء والإطلاع عليها، وهذه مضاهاة ومناسبة بوجه مّا مع العلّة الّتي ليست حاصلة لما عدا هذا الجوهر ممّا هو جسم أو جسمانيّ، فلذلك شرّفها بالإضافة إليه.

(في قوى الانسان باطنيّة وظاهريّة)

وقوله: «فمثلت إنساناً».

إشارة إلى الصّورة المجبولة، وفيه لطيفة وهي أنّها إنّما كانت إنساناً بنفخ الروح فيها، ولذلك رتّب صيرورتها إنساناً بالفاء على نفخ الروح فيها.

وقوله: «ذا أذهان يجليها»، إشارة إلى ما للإنسان من القوى الباطنة المدرِكة والمتصرّفة، ومعنى إجالتها تحريكها وبعثها في انتزاع الصّور الجزئيّة كما للحسّ المشترك، أو المعاني الجزئيّة كما للوهم.

وقوله: «وفكر يتصرّف بها».

إشارة إلى القوى المفكّرة في آحاد النوع الإنساني وتصرّفها في تفتيش الخزانتين وتركيب بعض مودوعاتها ببعض وتحليلها.

وقوله: «وجوارح يختدمها».

إشارة إلى عامّة الأعضاء الّتي بيّنا أنّها كلّها خِدم للنفس، والأدوات الّتي تقلّبها (تقلّبها) من تلك الأدوات يشبه ان يختص بالأيدي كقوله تعالى:

﴿فأصبح يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها﴾ [سورة الكهف: ٤٢].

ويمكن أن يكون أعمّ من ذلك كالبصر والقلب لقوله عليه السّلام:

«يا مقلّب القلوب والأبصار»(١٢١). فيصدق عليها اسم التقليب.

---

(١٢١) قوله: يامقلّب القلوب.

روى السيّد الجليل ابن طاووس في كتابه (فلاح السائل) في ذكر مايقرأ في نوافل الزّوال ص ١٢٨، باسناده عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: اقرأ في صلوة الزوال.... إلى أن قال عليه السّلام: فإذا فرغت قلت (فقل) سبع مرّات: اللّهم مقلّب القلوب والأبصار، ثبت قلبي على دينك ودين نبيّك، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من ←

. . . .

← لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب، وأجرني من النّار برحمتك. عنه البحار ج ٨٧، ص ٥٧، الحديث ١١.

هذا مايقرأ بعد الفراغ عن نوافل الصلاة الظهر. وأمّا ما يقال له: دعاء الغريق فهو ما يلي:

روى الصدوق (ره) في (كمال الدّين) باب ٣٤. ج ٢، ص ٢٠، الحديث ٥٠. بإسناده عن عبدالله بن سنان، عن الإمام الصادق عليه السّلام، قال: شبهة سيصيبكم فتبقون بلا عَلَم يرى، وإمام هُدى، ولا ينجو منها إلّا من دعا بدعاء الغريق، قلت: كيف دعاء الغريق؟ قال: تقول: «يا الله يارحمن يارحيم، يامقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك»، فقلت: «يامقلّب القلوب والأبصار ثبّت قلبي على دينك» فقال: إنّ الله عزّ وجلّ مقلّب القلوب والأبصار ولكن قل كما أقول: يامقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك.

أقول: نستفيد من هذا الحديث توقيفيّة الأدعيّة الّتي رويت قرائتها في الأوقات أو الحالات أو الأمكنة الخاصّة، أي يجب أن نلتزم في القرائة بالألفاظ المأثورة بلا زيادة ونقصان.

تلاحظ الآيات التالية أنّها تبيّن لنا: انّه سبحانه وتعالى مقلّب القلوب والأبصار إلى الهداية تارة وإلى الظلالة أخرى وتبيّن أيضاً إنّه تعالى لماذا يقلّب القلوب وكيف يقلّب.

ومعنى تقليبه تعالى الإنسان للظلالة: عدم هدايته بالهداية الرحيميّة، أي سلبه الهداية الرّحيميّة الّتي تختصّ للمؤمنين والمتّقين، ولِمَن اهتدى إلى هدايته الرحمانيّة الّتي تشمل الناس قاطبةً. وهذا يعني إغلاق أبواب الهداية الثانويّة الكفائيّة والوهبيّة في وجه مَن يُريد عدم هدايته، وسلب توفيق وصوله إليها.

وأمّا الآيات فهي:

﴿إنّا هديناه السّبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾ [سورة الإنسان: ٣].

﴿فريقاً هدىٰ وفريقاً حقّ عليهم الضّلالة إنّهم اتّخذوا الشّياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنّهم مهتدون﴾ [سورة الأعراف: ٣٠].

﴿والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبلنا وإنّ الله لَمَعَ المحسنين﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩].

﴿فَمَن يُرد الله أن يهديه يشرح صَدره للإسلام ومَن يُرِد أن يضلّه يجعل صَدره ضيّقاً حرجاً﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥].

←

وقوله: «ومعرفة يفرق بها بين الحقّ والباطل».

إشارة إلى استعداد النفس لدرك المعقولات الثانية المسمّى عقلاً بالملكة بحسب مالها من المعارف الأولى، أعني البديهيّات فإنّ الحقّ والباطل أمور كلّيّة وليس للقوى البدنيّة في إدراك الأمور الكلّيّة حظّ، ويحتمل أن يشير بالمعرفة إلى القوّة الإستعداديّة الأولى للإنسان المسماّة عقلاً هيولانيّاً.

وقوله: «والأذواق والمشام والألوان والأجناس».

نبّه ههنا على ثلاثة أمور:

أحدها أنّ للإنسان آلة بها يدرِك المذوقات، وأخرىٰ بها يدرِك المشمومات، وأخرىٰ بها يدرِك الألوان، وقد بيّنا ذلك.

الثاني، نبّه على أنت النّفس مدركة للجزئيّات بواسطة هذه القوى، إذ عدّها في نسق ما تتصرّف فيه النفس وتفرّق بينه وبين غيره.

الثالث، انّه أخّر قوله: «الأجناس»، تنبيها على أنّ النفس تنتزع الأمور الكلّيّة من تصفّح الجزئيّات؛ فإنّ الأجناس أمور كلّيّة والنفس بعد إدراك الجزئيّات وتصفّحها تتنبّه لمشاركات بينها ومباننات فتنتزع منها تصوّرات كلّيّة وتصديقات كلّيّة، وكأنّه عنى بالأجناس هٰهنا الأمور الكلّيّة مطلقاً لابعضها كما هو في الإصطلاح العلمي.

وقوله: «معجوناً بطينة الألوان المختلفة».

النصب على الحال من قوله إنساناً أو الصفة له، والمراد الإشارة إلى أنّ اختلاف

← ﴿وتقلّبُ أفئدتهم وأبصارهُم كما لم يؤمنوا به أوّل مرّةٍ ونذرهُم في طُغيانهم يَعمهون﴾ [سورة الأنعام: ١١٠].

﴿أفرأيتَ مَن اتّخذ إلٰههُ هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل علىٰ بصره غَشاوة﴾ [سورة الجاثية: ٢٣].

﴿إنّ الله لا يظلم النّاس شيئاً ولكنّ النّاس أنفسهم يظلمون﴾ [سورة يونس: ٤٤].

﴿ربّنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهَبْ لنا من لدنك رحمة إنّك أنتَ الوهّاب﴾ [سورة آل عمران: ٨].

أبدان النوع بعضها من بعض بالألوان، بسبب قوّة استعداداتها لذلك كما قال (ص):

فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، كما سبق.

وطينة الألوان: أصلها، وعجنه بها: مزجه بها، وتهيّئه وإعداده لقبولها على اختلافها، وكذلك الحال في البدن الواحد فانّه ليس لجملة أجزائه لون واحد، فإنّ امتزاج بعض الأعضاء يقتضي أن يكون أبيض كالعظام والأسنان، وبعضها أحمر كالدم، وبعضها أسود كالحدقة والشعر، وكذلك اختلاف الأشخاص في الصّفات المكنّى بها عن الاختلاف الواردة في تمام الخبر من قوله:

«والسهل والحزن والخبيث والطيّب».

يرجع إلى أنّ الأرض لمّا كانت أكثر العناصر شركة في هذه الأبدان كان لاختلاف بقاعها أثر تامّ في تفاوت الإمتزاج لقبول الأخلاق بالسّهو والحزونة والخبيث والطيّب.

وقوله: «والأشباه المؤتلفة والأضداد المتعادية والأخلاط المتباينة من الحرّ والبرد والبلّة والجمود (والمساءة والسرور)».

أمّا الأشباه المؤتلفة فكالعظام والأسنان وأشباهها فإنّها أجسام متشابهة ائتلف بعضها مع بعض، وبها قامت الصورة البدنيّة وامتزجت بطينتها، وأمّا الأضداد المتعادية فكالكيفيّات الأربع الّتي ذكرها عليه السّلام، وهي الحرارة والبرودة والرطوبة الّتي هي البلّة، واليبس الّذي هو الجمود، وعبّر عنه بلازمه وهو الجمود على ان الجمود في اللغة هو اليبس أيضاً، وأمّا الأخلاط المتباينة فهي الأخلاط الأربعة، كما عرفت من الدم والبلغم والصّفراء والسوداء، وأمّا المساءة والسرور فهي من الكيفيّات النفسانيّة وماهيّة كلّ منها ظاهرة.

(في سبب السرور في الإنسان)

وأمّا أسبابها فاعلم، انّ للسرور سبباً جسمانيّاً معدّاً وهو كون حامله الّذي هو الروح النّفساني على كمال أحواله في الكمّيّة لأنّ زيادة الجوهر في الكم يوجب زيادة

القوّة في الكيفيّة وهي ان يكون معتدلاً في اللطافة والغلظ، وأن يكون شديد الصفا. وأمّا السبب الفاعلي له فالأصل فيه تخيّل الكمال كالعلم والقدرة والإحساس بالمحسوسات الملائمة والتمكّن من تحصيل المرادات والقهر والإستيلاء على الغير والخروج عن المؤلم وتذكر الملذّات. وأمّا أسباب الغم فمقابلات هذه، أمّا السّبب المعدّ الجسماني فهو إمّا قلّة الروح كما للناقهين والمنهوكين بالأمراض و(الشيوخ) والمشايخ، وأمّا غِلَظُه (غلظة) فكما للسوداويين، وأمّا رقّته (رقّة) فكما للنساء، وأمّا الفاعلي فقابل أسباب السرور، وقد يشتدّ كلّ منهما بعد الأسباب المذكورة بتكرّره فيصير السرور أو الغمّ ملكة، ويسمّي صاحبه مفراحاً أو مخراناً، ومقصوده عليه السّلام التنبيه على أنّ طبيعة الإنسان فيها قوّة قبول واستعداد لهذه الكفيّات وأمثالها، وتلك القوّة هي المراد بطينة المساءة والسّرور، والفرق بينها وبين الإستعداد أنّ القوّة تكون على الضدّين والإستعداد لايكون إلّا لأحدهما.

قوله: «واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم، وعهد وصيّته إليهم إلى قوله: إلّا إبليس».

أقول: لمّا كان الّذي يشير إليه كلّ إنسان بقوله أنا هو النّفس الناطقة كان آدم عندهم عبارة عن النّفس الناطقة ثمّ قالوا: المراد بالملائكة الّذين أمروا بالسّجود لآدم هي القوى البدنيّة الّتي أمرت بالخضوع والخشوع لتكرمة النّفس العاقلة، والإنقياد تحت حكمها وهو الأمر الّذي لأجله خلقوا، أمّا عهد الله لديهم ووصيّته إليهم فهو المشار إليه بقوله تعالى:

﴿إذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [سورة ص: ٧٢].

والخطاب ههنا خطاب الحكمة الإلهيّة بالقضاء الأزلي قبل الوجود والإستيذاء لذلك العهد وتلك الوصيّة هو طلب المأمور به أوّلاً من الإنقياد، والخضوع من تلك القوى بعد الوجود على ألسنة الرّسل عليهم السّلام بالوحي المنزل وهو قوله: «فاسجدوا لادم»، وقوله: «فسجدوا»، إشارة إلى القوى المطيعة لنفوسها العاقلة في أشخاص عباد الله الصّالحين، قوله: «إلّا إبليس» وقبيله إشارة إلى الوهم وسائر

القوى التابعة له في معارضة العقل في أشخاص الكفار والفاسقين عن أوامر الله سبحانه. وقد عرفت أنّ الوهم رئيس القوى البدنيّة فهي إذن عند معارضته للعقل ومتابعتها له جنود إبليس وقبيله.

وأمّا قوله: «اعترته الحميّة، وغلبت عليه الشّقوة، وتعزّز بخِلقةِ النّار واستوهن خلق الصلصال».

فقالوا: إنّ المراد بكون إبليس وقبيله (جنوده) خلقوا من نار، أنّ الأرواح الحاملة لهذه القوى كما عرفت أجسام لطيفة تتكوّن عن لطافة الأخلاط وهي حارّة جدّاً (حدّاً) مائلة إلى (في) الإفراط. والنّاريّة والهوائيّة عليها أغلب وتولّدها عنها أسهل وهي آخر أجزاء البدن. وكذلك القلب الّذي هو منبعها فكانت تلك الأرواح كالأبدان لهذه القوى. فكذلك نسب إبليس إلى النّار فقال تعالى حكاية عنه:

﴿خلقتني من نار﴾ [سورة الأعراف: ١٢].

وقال:

﴿والجانّ خلقناه من قبل من نار السّموم﴾ [سورة الحجر: ٢٧].

أي قدّرنا قبل وجوده أن تكون الناريّة والهوائيّة على وجود أغلب.

وقال بعضهم أنّه لمّا كانت النّار ألطف العناصر وكانت هذه القوى وأرواحها ألطف الأمور الجسمانيّة، وتكوّنها عن ألطف الأخلاط كانت نسبتها إلى النّار أولى من سائر العناصر لمكان المشابهة في اللطافة. فجاز أن يطلق على أصله أنّه نار.

(في بيان سبب استكبار إبليس عن السجود)

لا يقال: إذا كان آدم هو النفس الناطقة فما معنى قول إبليس وخلقته من طين.

لأنّا نقول: كما صدق أن إبليس مخلوق من نار بمعنى أنّ الغالب على الروح الحامل له هو عنصر النار كذلك يصدق أنّ آدم من طين بمعنى أنّ الغالب على بدنه الأرضيّة، وأيضاً فإنّ الوهم لايدرك إلّا المعاني الجزئيّة المتعلّقة بالمحسوسات فلا يصدق حكمه ومساعدته إلّا فيما كان محسوساً، ولمّا ثبت أنّ النفس جوهر مجرّد لم يكن إعتقاد

إبليس أنّ الإنسان شيء غير هذا البدن المتكوّن عن الطين، إذا ثبت ذلك فنقول: اعتراء الحميّة والتعزّز بالإنتساب إلى عنصر النار نسبة مجازيّة. إذا العادة جارية بأن يأنف الإنسان من الأصل الناقص وأن يفتخر ويتعزّز بالأصل الشريف والإنتساب إليه، فكان لسان حال إبليس والقوىٰ المتابعة له يقول على جهة الإستنكار والإستكبار: أأسجد لبشر خلقته من صلصال من حماء مسنون، وأنا مخلوق من النّار الّتي هي أشرف العناصر، قالوا: ولمّا علم الله ذلك من حال إبليس لعنه وطرده وأخرجه من الجنّة، وذلك قوله تعالى:

﴿فاخرج منها فإنّك رجيم * وإنّ عليك اللّعنة إلىٰ يوم الدّين﴾ [سورة الحجر: ٣٤ ـ ٣٥].

قالوا: وذلك انّك علمت أنّ الجنّة تعود إلى معارف الحقّ سبحانه، والإبتهاج بمطالعة أنوار كبريائه، ودرجات الجنّة هي المراتب الّتي ينتقل العقل فيها في مقامات السلوك إلى حظائر القدس ومجاورة الملاء الأعلى، وعلمت أنّ حال الوهم قاصر عن الإنتقال على تلك المراتب فطرده ولعنه وتحريم الجنّة عليه يعود إلى تكوينه على الطبيعة الّتي هو عليها القاصرة عن إدراك العلوم الكلّيّة الّتي هي ثمار الجنّة وقطوفها والقضاء عليه بذلك قالوا: وممّا ينبّه على ذلك قوله:

﴿ربّ بما أغويتني لازيّننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين * إلّا عبادك منهم المخلصين﴾ [سورة الحجر: ٣٩ ـ ٤٠].

أي بما خلقتني على هذه الجبلّة لا اهتدي لدخول الجنّة ولا أتمكّن منها لأجذبنّهم إلى المشتهيات وتزيين الملذّات الجاذبة لهم عن عبادتك حتّى لايهتدوا إلى الجنّة الّتي لأجلها خلقتهم ولا يلتفتوا إليها إلّا من عصمته منّي وجعلت له سلطاناً على قهري وغلبتي وهم عبادك المخلصون أي النفوس الكاملة المطهّرة عن متابعة قواها المسلّط على قهر شياطينها وقهرها وكذلك قوله:

﴿قال ربّ فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾ [سورة الحجر: ٣٦].

فإنّه لمّا كان البعث الأوّل هو مفارقة النّفوس لأبدانها وانبعاثها إلى عالمها وكانت طبيعة الوهم قاضية بمحبّة البقاء في دار الدنيا إذ لاحظّ له في غيرها أحسن من لسان

حاله أنّ يقول: «ربّ انظرني إلى يوم يبعثون».

وقوله: فأعطاه الله النظرة، لمّا كان الوهم باقياً في البدن هو وجنوده إلى يوم البعث حسن من لسان الحكمة الإلهيّة أن يقول إنّك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم وذلك معنى إعطائه النظرة،

قوله: «استحقاقاً للسخطة، واستتماماً للبليّة، وإنجازاً للعِدَة».

فقد عرفت أنّ البليّة نصب على المفعول له، ثمّ إنّ إفساد (فساد) الوهم وابتلاء الخلق به والشرّ الصادر عنه أمور داخلة في القضاء الإلهي بالعرض فيصدق عليه أنّه مراد وأنّ الإنظار والإمهال له وكذلك استحقاق السخطة وإنجاز العِدَة، واطلاق لفظ السخطة استعارة فإنّ السخط لمّا كان عبارة عن حالة للإنسان يستلزم وجود مغضوب عليه غير مرضيّ بأفعاله، وكان حال إبليس في إنظار الله إيّاه وفسوقه عن أمر ربّه مستلزماً لإعراض الله سبحانه عنه وعمّن عصاه بمتابعته كان هناك نوع مشابهة، فحسن لأجلها إطلاق لفظ السخطة أمّا العدة فتعود إلى قضاء الحكمة الإلهيّة ببقاء الوهم إلى يوم البعث، وإنجازها يعود إلى موافقة القدر لذلك القضاء، وقال بعضهم: إنّه لمّا كان ههنا صورة مطرودة ومبعّد وملعون حسن إطلاق (لفظ) السخطة وإستحقاقها وانّه إنّما انظر لأجلها وهو ترشيح للاستعارة.

قوله: «ثمّ أسكن الله سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه، وآمن فيها مَحلّته وحذّره إبليسَ وعداوَته».

(في طهارة الإنسان بالفطرة)

أقول: الدار الّتي أسكن فيها آدم هي الجنّة والإشارة هٰهنا إلى (أنّ) الإنسان من أوّل زمان إفاضة القوّة العاقلة عليه إلى حين استرجاعها مادام مراعياً لأوامر الحقّ سبحانه غير منحرف عن فطرته الأصليّة ولا معرض عن عبادته ولا ملتفت إلى غيره فإنّه في الجنّة وإن كانت الجنّة على مراتب كما قال تعالى:

﴿لهم غرف من فوقها غرف مبنيّة تجري من تحتها الأنهار﴾ [سورة الزمر: ٢٠].

ولذلك قال صلّى الله عليه وآله:

كلّ مولود يولد على الفطرة وإنّما أبواه هما اللذان يهوّدانه وينصّرانه (١٢٢).

إذ كانت نفسه قبل الجواذب الخارجيّة عن القبلة الحقيقيّة غير مدنّسة بشيء من الإعتقادات الفاسدة والهيئات الرديئة، وان كانت المرتبة السامية والغرفة العالية إنّما تنال بعد المفارقة، واستصحاب النّفس لأكمل زاد، وأمّا إرغاد العيش فيعود إلى إبتهاجه بالمعقولات والمعارف الكلّيّة وأمان المحلّة أمان مكانه في الجنّة أن يعرض له خوف أو حزن مادام فيها، وأمّا تحذيره من إبليس وعدواته فظاهر من الأوامر الشرعيّة ولسان الوحي ناطق كما قال تعالى:

﴿إنّ هذا عدوّ لك ولزوجك﴾ [سورة طه: ١١٧].



(١٢٢) قوله: كلّ مولود يولد.

حديث معروف عند الفريقين، أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى) ج ٦، ص ٢٠٢، باب الولد يتبع أبويه الكفر، وذكره أيضاً السّيوطي في (الجامع الصغير) ج ٢٨٧٢، الحديث ٦٣٥٧.

وروى الصدوق (ره) في (التوحيد) باب فطرة الله الحديث ٩، ص ٣٣٠، بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام، قال: سألتهُ عن قول الله عزّ وجلّ:

﴿حنفاء لله غير مشركين به﴾ [سورة الحج: ٣١].

وعن الحنفيّة، فقال: هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله، وقال: «فطرهم الله على المعرفة»، قال زرارة: وسألته عن قول الله عزّ وجلّ:

﴿وإذ أخذ ربّك مِن بني آدم من ظهورهم﴾.

قال: أخرج من ظهر آدم ذرّيّته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذرّ، فعرّفهم وأراهم صُنعه، ولولا ذلك لم يعرف أحَد ربّه، وقال: قال رسول الله (ص) «كلّ مولود يولد على الفطرة». يعني على المعرفة بأنّ الله عزّ وجلّ خالقه، فذلك قوله:

﴿ولئن سألتهم من خلق السّموات والأرض ليقولُنّ الله﴾ [سورة لقمان: ٢٥ ـ وسورة الزمر: ٣٨].

(في بيان وجه عداوة إبليس مع آدم (ع))

ووجه العداوة ظاهر ممّا قلنا، فإنّ النفس لمّا كانت من عالم المجرّدات وكان الوهم بطبعة منكراً لهذا القسم من الممكنات كان منكراً لما تأمر به النّفس من الأمور الكلّيّة الّتي لاحظّ له في إدراكها وذلك من مقتضيات العداوة، ولأنّ نظام أمر النفس ومصلحتها لايتمّ إلّا بقهر الوهم والقوى البدنيّة عن مقتضيات طباعها وتمام مطالب القوىٰ لايحصل إلّا بانقهار النفس فكانت بينهما مجاذبة طبيعية وعداوة أصليّة إذ لامعنى للمَعاداة إلّا المجانبة لما يتصوّر كونه مؤذياً.

قوله: «فاغترّه عدوّه نفاسةً عليه بدار المُقام ومُرافقة الأبرار».

أقول: يقال: إنّ الله تعالى لمّا حذّره إبليس وعداوته كان قد نهاه عن أكل شجرة يقال أنها شجرة البرّ، وأعلمه أنّه إن أكل منها كان ظالماً لنفسه مستحقّاً لسخط الله عليه، وذلك قوله تعالى:

﴿ولا تقربا هذه الشّجرة فتكونا من الظّالمين﴾ [سورة البقرة: ٣٥].

قالوا: وتلك الشجرة هي الشجرة الخبيثة الّتي اجتثّت من فوق الأرض مالها من قرار وهي عائدة إلى المشتهيات الدنيويّة الفانية واللذّات البدنيّة الخارجة عن المحدودات في أوامر الله، وتناولها هو العبور فيها إلى طرف الإفراط عن وسط القانون العدل.

وأمّا كونها شجرة البرّ فقالوا: إنّ البرّ لمّا كان هو قوام الأبدان وعليه الإعتماد في أنواع المطعومات والملاذ البدنيّة حسن أن يعبّر به عنها، فيقال: هي شجرة البرّ كناية عن الفرع بالأصل.

فأمّا اغترار إبليس له فاعلم، أنّ حقيقة الغرور هو سكون النّفس إلى مايوافق الهوىٰ ويميل إليه بالطبع عن شبهة وخدعة من إبليس، فاغتراره يعود إلى استغفال النفس بالوسوسة الّتي حكى الله تعالى عنها بقوله:

﴿فوسوس إليه الشّيطان قال يا آدم هل أدلّك علىٰ شجرة الخلد ومُلكٍ لا يَبلىٰ﴾ [سورة طه: ١٢٠].

(في بيان حقيقة الوسوسة)

ولنبحث عن حقيقة الوسوسة فنقول:

انّ الفعل إنّما يصدر عن الإنسان بواسطة أمور مترتبة ترتيباً طبيعيّاً، أوّلها تصوّر كون الفعل ملائماً وهو المسمّى بالداعي، ثمّ إنّ ذلك الشعور يترتّب عليه ميل النفس إلى الفعل المسمّىٰ ذلك الميل إرادة فيترتّب على ذلك الميل حركة القوّة النزوعيّة المحرّكة للقوّة المسماّة القدرة المحرّكة للعضل إلى الفعل.

إذا عرفت ذلك فنقول:

صدور الفعل عن مجموع القدرة والإرادة أمر واجب فليس للشّيطان فيه مدخل، ووجود الميل عن تصوّر كونه نافعاً وخيراً أمر لازم فلا مدخل للشّيطان أيضاً فيه فلم يبق له مدخل إلّا في إلقاء ما يتوهّم كونه نافعاً أو لذيذاً إلى النفس ممّا يخالف أمر الله سبحانه فذلك الإلتقاء في الحقيقة هو الوسوسة وهو عين ما حكى الله سبحانه عنه بقوله:

﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ [سورة إبراهيم: ٢٢].

(في بيان سبب متابعة الشيطان)

إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ متابعة إبليس يعود إلى إنقياد النفس لجذب الوهم والقوى البدنيّة الّتي هي الشيطان عن الوجهة المقصودة والقبلة الحقيقيّة، وهي عبادة الحقّ سبحانه، وفتنتها لها بتزيين ماحرّم الله عليها، فأمّا مايقال: إنّ إبليس لم يكن له تمكّن من دخول الجنّة، وإنّما توسّل بالحيّة ودخل في فمها إلى الجنّة حتّى تمكّن من الوسوسة لآدم عليه السّلام واغتراره، فقالوا:

المراد بالحيّة هي القوّة المتخيّلة، وذلك أنّ الوهم إنّما يتمكّن من التصرّف وبعث القوى المحرّكة كالشهوة والغضب الّتي هي جنوده وشياطينه على طلب الملاذ البدنيّة والشهوات الحسيّة الدنيّة، وجذب النّفس إليها بتصوير كونها لذيذة نافعة بواسطة

القوّة المتخيّلة، ووجه تشبيهها بالحيّة أنّ الحيّة لمّا كانت لطيفة سريعة الحركة تتمكّن من الدخول في المنافذ الضيّقة وتقدر على التصرّف الكثير، وهي مع ذلك سبب من أسباب الهلاك بما تحمله من السمّ وكانت المتخيّلة في سرعة حركاتها وقدرتها على التصرّف السريع، والإدراك ألطف من سائر القوىٰ، وهي الواسطة بين النفس والوهم، كانت بما اشتملت عليه من تحمّل كيد إبليس وإلقاء الوسوسة بواسطتها إلى النفس سبباً قويّاً للهلاك السرمد والعذاب المؤبّد، لاجرم كان أشبه مايشبه به الحيّة لما بينهما من المناسبة فحسن إطلاق لفظ الحيّة عليها.

قوله: «نفاسة عليه»، ترشيح للإستعارة لأنّه لمّا كان جذب الوهم للنفس إلى الجنّة السافلة مانعاً لها من الكرامة بدار المقامة ومستنزلاً لها عن درجة مرافقة الملأ الأعلى، وكان ذلك أعظم ماتنفس به كما قال تعالىٰ:

﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ [سورة المطفّفين: ٢٦].

وعرفت أنّ ذلك الجذب عن صورة معاداة كما سبق وكان من لوازم المعاداة النفاسة على العدوّ بكلّ مايعدّ كمالاً له لاجرم حسن اطلاق النفاسة ههنا ترشيحاً لاستعارة العداوة، (والنصب على المفعول له).

قوله: «فباع اليقين بشكّه والعزيمة بوهنه».

أي لمّا حصلت الوسوسة والإغترار لآدم فانقاد لها كان قد بدّل ما تيقّنه ومن أنّ شجرة الخلد والملك الّذي لايبلي هو نور الحقّ والبقاء في جنّته ودوام مطالعة كبريائه بالشكّ فيه بواسطة وسوسة إبليس، وذلك أنّ الأمور الموعودة من متابع الآخرة وما أعدّه الله لعباده الصالحين أمور خفيت حقائقها على أكثر البصائر البشريّة، وإنّما الغاية في تشويقهم إليها أن يمثّل لهم بما هو مشاهد لهم من اللذّات البدنيّة الحاضرة فترى كثيراً منهم لايخطر بباله أن يكون في الجنّة أمر زائد على هذه اللّذات فهو يجتهد في تحصيلها، إذ لا يتصوّر وراءها أكثر منها، ثمّ إن صدق بها على سبيل الجملة تصديقاً للوعد الكريم فإنّه لايتصوّر كثير تفاوت بين الموعود به والحاضر، بحيث يرجّح ذلك التفاوت عنده ترك الحاضر لما وعد به، بل يكون ميل طبعه إلى الحاضر، وتوهّم كونه أنفع وأولى به أغلب عليه، وأن تيقّن بأصل عقله أنّ الأولى به وأنفع له والأبقى هو

متاع الآخرة، فتارة يطرأ على ذلك اليقين غفلة عنه ونسيان له بسبب الإشتغال باللّذات الحاضرة والإنهاك فيها، وذلك معنى قوله تعالىٰ: ﴿فنسى﴾.

وتارة لاتحصل الغفلة الكلّيّة بل يكون الوهم المذكور قويّاً فيعارض ذلك اليقين بحيث يوجب في مقابلته شبهة وشكّاً، وذلك معنى قوله عليه السّلام: فباع اليقين بشكّه، ولا منافاة بين قوله تعالىٰ: ﴿فنسي﴾، وبين الشكّ هٰهنا.

وقوله: والعزيمة بوهنه، أي تعوّض من العزم والتصميم الّذي كان ينبغي له في طاعة الحقّ سبحانه بالضعف والتعاجز عن تحمّله كما قال تعالىٰ:

﴿ولم نجد له عزماً﴾ [سورة طه: ١١٥].

واطلاق لفظ البيع هٰهنا إستعارة حسنة إذ كان مدار البيع على استعاضة شيء بشيء سواء كان المستعاض أجلّ أو أنقص، ومثله قوله تعالىٰ:

﴿أولئك الّذين اشتروا الحياة الدّنيا بالآخرة﴾ [سورة البقرة: ٨٦].

﴿فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين﴾ [سورة البقرة: ١٦].

وقوله: «فاستبدل بالجذل وَجَلا»، وبالإغترار ندماً، إلى قوله: «وتناسُل الذُّرِّيّة».

فيه تقديم وتأخير، وتقديره: والعزيمة بوهنه، فأهبطه الله إلى دار البليّة وتناسل الذريّة، فاستبدل بالجذل وَجَلا وبالاغترار ندما، ثمّ أناب إلى الله فبسط له في توبته ولقاه كلمة رحمته ووعده المردّ إلى جنّته، وذلك لأنّ الإهباط عقيب الزلّة، واستبدال الجذل بالوجل بعد الإهباط من الجنّة، والإخراج منها، وقد ورد القرآن الكريم بهذا النظم في سورة البقرة، وهو قوله:

﴿فأزلّهما الشّيطان عنها فأخرجهما ممّا كانا فيه وقلنا اهبطوا﴾ [سورة البقرة: ٣٦].

ثمّ قال عقيبه:

﴿فتلقّىٰ آدم من ربّه كلمات فتاب عليه﴾ [سورة البقرة: ٣٧].

وورد أيضاً على النظم الّذي ذكره عليه السّلام في سورة طه وذلك قوله:

﴿وعصى آدم ربّه فغوىٰ * ثمّ اجتبه ربّه فتاب عليه وهدىٰ * قال أهبطا﴾ [سورة طه: ١٢١ ـ ١٢٣].

فقدم الإجتباء والتوبة على الإهباط وكلاهما حسن، قالوا: ومعنى الإهباط له هو انزاله عن دار كرامته واستحقاق إفاضة نعيم الجنّة، وذلك أنّ النفس الناطقة إذا اعرضت عن جناب الحق سبحانه، والتفتت إلى متابعة الشياطين وأبناء الجنّ وموافقة إبليس بعدت عن رحمة الله وتسوّد لوحها عن قبول الأنوار الإلهيّة، وامّا دار البليّة وتناسل الذريّة، فإشارة إلى الدنيا، فإنّ الإنسان إذا التفت بوجهه إليها، وأقبل بكلّيته عليها هبط من أعلى علّيّين إلى أسفل سافلين، ولم يزل ممنوّاً ببلاء (على) أثر إذ لا يقدّم في كلّ لحظة ووقت فوت مطلوب أو فقد محبوب يطلب مالا يدرك، ويجد مالا يطلب وكفى بانقطاعه عن الله تعالى بالتفاته إليها بلاء وأعظم به شفاء إذ كان سبب البعد عن رحمته والطرد عن أبواب جنّته.

فإن قلت: لم ذكر تناسل الذريّة في معرض الإهانة لآدم مع أنّه في الحقيقة من الأمور الخيريّة المندرجة في سلك العناية الإلهيّة، فإنّ به بقاء النوع ودوام الإفاضة.

قلت: إنّه وإن كان كذلك إلّا أنّه لانسبة له في الحقيقة إلى الخير الّذي كان في الجنّة، فإنّ تناسل الذريّة خير إضافيّ عرضيّ بالنسبة إلى الكمال الّذي يحصل لأبناء النوع وذريّته.

ثمّ النسبة إن حصلت فنسبة (أخص) أخسّ إلى أشرف، فإنّ إنزاله وإهباطه عن استحقاق تلك المراتب السامية والإفاضات العالية إلى هذه المرتبة الّتي يشارك فيها البهيمة وسائر أنواع الحشرات نقصان عظيم وخسران مبين.

قوله: «**واستبدل بالجَذَل وجلاً، وبالإغترار ندما**.

ظاهر، فإنّ المقبل بوجهه على عباده الحقّ سبحانه المستشرق لأنوار كبريائه المعرض عمّا سواه أبداً مسرور مبتهج فإذا أعرض عمّا يوجب السرور والفرج والتفت إلى خسائس الأمور بسبب شيطان قاده إليها وزيّنها لعينه فانكشف عنه سرّ الله وبدت سوئته للناظرين بعين العاقبة من عباد الله الصالحين، ثمّ أخذت بصبعه العناية الإلهيّة وتداركته الرحمة الربّانيّة فانتبه من رقدة الغافلين في مراقد الطبيعة فرأى السلائل والأغلال قد أحاطت به وشاهد الجحيم مسعّرة عن جنبتي الصراط المستقيم، وتذكّر قوله تعالى:

﴿فإمّا يأتينّكم منّي هدىً فمن اتّبع هدايَ فلا يضلّ ولا يشقىٰ * ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيٰمة أعمىٰ﴾ [سورة طه: ١٢٣ ـ ١٢٤].

فلابدّ وأن يصبح وجلاً قلقا يقلّب كفّيه حسرةً وندماً وجلاً ممّا يلحقه من سخط الله نادماً على ما فرّط في جنب الله.

وقوله: «ثمّ بسط الله سبحانه له في توبته، ولقّاه كلمة رحمته».

فالمراد الإشارة إلى أنّ الجود الإلهي لا بخل فيه، ولا منع من جهته، وإنّما النقصان من جنبه (جهة) القابل وعدم استعداده فإذا استعدّت النفس لتدارك رحمة الله وجذبتها العناية الإلهيّة من ورطات الهلاك الأبدي فأيّدتها بالمعونة على إبليس وجنوده وبصّرتها بمقابح أفعاله (بمقابح أحواله) وما يدعوا إليه، فأخذت في مقاومته والترصّد لدفع مكائده، فذلك هو معنى إنابتها وتوبتها، وأمّا كلمة رحمة الله الّتي لقّاها آدم فتعود إلى السوانح الإلهيّة الّتي (تنسخ) تسنح للعبد فتكون سبباً لجذبه عن مهاوي الهلاك وتوجيهه عن الجنّة السافلة إلى القبلة الحقيقيّة وإمداده بالملائكة حالاً فحالاً ورفعه في مدارج الجلال الّتي هي درجات الجنّة.

وقوله: «ووعده المردّ إلى جنّته».

إشارة إلى وعد القضاء الإلهي الناطق عنه لسان الوحي الكريم:

﴿فمن اتّبع هداي فلا يضلّ ولا يشقىٰ﴾ [سورة طه: ١٢٣].

﴿يا أيّها الّذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسىٰ ربّكم أن يكفّر عنكم سيّئاتكم ويدخلكم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ [سورة التحريم: ٨].

وكذلك سائر أنواع وعد التائبين فهذا مايتعلّق بهذه القصّة من التأويل، وبالله العصمة والتوفيق.

الفصل الرابع
في بعث الأنبياء والرّسل من ذريّته والكتب النازلة عليهم من الله تعالىٰ

قوله: «واصطفىٰ سبحانه من ولده أنبياء أخَذَ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرّسالة أمانَتهم، لمّا بدّل أكثرُ خَلقه عَهد الله إليهم فَجَهِلوا حقَّه، واتّخذوا الأندادَ مَعَه، واجتالَتهم الشياطينُ عن معرفتِه، واقتَطَعَتهم عن عبادته. فبَعثَ فيهم رُسُلَه، وواتَرَ إليهم أنبياءَه، ليستأدُوهم ميثاقَ فِطرتِه، ويُذكِّروهم مَنسيَّ نِعمته، ويَحتَجُّوا عليهم بالتبليغِ، ويُثيروا لهم دَفائِنَ العقول، ويُرُوهم آيات (المَقدرة) القدرة (المقدّرة): من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تُحييهم، وآجال تُفنيهم، وأوصاب تُهرمهم، وأحداث تَتابع عليهم، ولم يُخل الله سبحانه خلقه مِن نبيٍّ مرسَل، أو كتاب مُنزَل، أو حجّةٍ لازِمة، أو مَحَجةٍ قائمة: رسلٌ لا تُقصّر بهم قلّةُ عَدَدهم، ولا كثرةُ المكذِّبين لهم: مِن سابق سُمِّي له من بَعدَه أو غابر عَرَّفه مِن قَبله: على ذلك نَسلت القرون، ومَضَت الدهور، وسَلَفت الآباء، وخَلَفت الأبناء.

إلى أن بَعثَ الله سبحانه محمَّداً رسول الله صلّى الله عليه وآله، لإنجاز عِدَته، وتمام (إتمام) نبوّته، مأخوذاً على النبيّين ميثاقُه، مشهورةً سِماتُه، كريماً ميلادُه، وأهلُ الأرض يومئذٍ مِلَلٌ متفرّقةٌ، وأهواءٌ منتشِرةٌ، وطرائقُ متشتّتةٌ، بين مُشبِّه لِلّه بخَلقِه، أو مُلحِدٍ في إسمِه، أو مشيرٍ إلىٰ غيره، فَهَداهم به مِن الضَّلالة، وأنقذَهم بمكانِه من الجَهالة، ثمّ اختار سبحانه لمحمّد صلّى الله عليه وآله لِقاءَه، ورَضيَ له ماعندَه، وأكرَمَه عن دار الدنيا، ورَغِب به عن مقام (مُقارَنة) البَلوى فقَبَضَه إليه كريماً صلّى الله عليه وآله، وخَلّف فيكم ما خَلّفتِ الأنبياءُ في أُممها، إذ لم يَترُكوهم هَمَلاً، بغير طريقٍ واضحٍ، ولا عَلَمٍ قائمٍ،

كتابَ ربِّكم فيكم: مُبيِّنا حلالَه وحَرامه، وفرائضَه وفضائله، وناسِخه ومنسوخَه،

ورُخَصَه وعزائمه، وخاصَّه وعامَّه، وعِبَرَه وأمثاله، ومُرسَله ومحدوده، ومحكَمَه ومتشابِهه، مُفسِّراً مجمَله (جمله) ومُبيِّنا غوامضه، بين مأخوذٍ ميثاقُ علمه، وموسَّعٍ على العباد في جَهله، وبين مُثبَت في الكتاب فرضُه، ومعلومٍ في السُّنّةِ نَسخُه، وواجبٍ في السّنة أخذُه، ومرخَّصٍ في الكتاب تَركُه، وبين واجبٍ بِوَقتِه، وزائلٍ في مُستقبَلِهِ، ومبايَنٌ بين محارِمه، من كبيرٍ أوْعَدَ عليه نيرانَه، أو صغيرٍ أَرْصَدَ له غفرانَه، وبين مَقبولٍ في أدناه، موسَّعٍ في أقصَاه.

(في شرح ألفاظ الفصل الرّابع من الخطبة)

أقول: الإصطفاء: الإستخلاص، والأنداد: الأمثال، واجتالتهم، أي أدارتهم واجتذبتهم، وواتر، أي أرسل وتراً بعد وتر، أي واحداً بعد آخر، والفطرة الخلقة، والمهاد الفراش، والأوصاب الأمراض، والأحداث المَصائب وتخصيصها بذلك عرفيّ، والحجّة مايحجّ به الإنسان غيره أي يغلبه به، والمحجّة جادّة الطريق، والغابر الباقي والماضي أيضاً وهو من الأضداد، والقرن الأمّة، ونَسَلت أي درجت ومضت مأخوذ من نسل ريش الطائر ونسل الوبر إذ وقع، والعدة الوعد، وانجازها قضاؤها، والسِمة: العلامة، وميلاد الرجل محلّ ولادته من الزمان أو المكان، والملحد العادل عن الاستقامة على الحقّ، والنسخ في اللغة الإزالة، والرخصة التساهل في الأمر، والعزيمة الهمّة، وهذه الألفاظ الثلاثة مخصوصة في العرف بصورة (على معان) أخرىٰ كما نذكره، وأرصدت له كذا أي هيّأته له، وههنا أبحاث:

البحث الأوّل: الضمير في ولده راجع إلى آدم عليه السّلام، ثمّ إن كانت الإشارة بآدم إلى النوع الإنساني فنسبة الولادة إليه في العرف ظاهرة صادقة، فإنّ كلّ أشخاص نوع هم أبناء ذلك النوع في اصطلاح أهل التأويل، وكذلك إن كان المراد به أوّل شخ وجد.

واعلم أنّ اصطفاء الله للأنبياء يعود إلى إفاضة الكمال النبويّ عليهم بحسب ما

وهبت لهم العناية الإلهيّة من القبول والاستعداد، وأخذه على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم هو حكم الحكمة الإلهيّة عليهم بالقوّة على ماكلّفوا به من ضبط الوحي في ألواح قواهم وجذب سائر النفوس الناقصة إلى جناب عـزّة بحسب مـا أفاضهم من القوّة على ذلك الإستعداد له وما منحهم من الكمال الّذي يقتدرون معه على تكميل الناقصين من أبناء نوعهم، ولمّا كانت صورة العهد وأخذ الأمانة في العرف أن يوغر إلى الإنسان بأمر ويؤكّد عليه القيام به بالإيمان وإشهاد الحقّ سبحانه، وكان الحكم الإلهي جارياً بإرسال النفوس الإنسانيّة إلى هذا العالم وكان مراد العناية الإلهيّة من ذلك البعث أن يظهر ما في قوّة كلّ نفس من كمال أو تكميل إلى الفعل، وكان ذلك لايتمّ إلّا بواسطة بعضها للبعض، كان الوجه الّذي بعثت عليه مشبهاً للعهد والميثاق المأخوذ والأمانة المودعة كلّ لما في قوّته وما أعدّ له فحسن إطـلاق هـذه الألفـاظ واستعارتها ههنا.

(في بيان سبب إرسال الرّسل وآثارهم في الإنسان)

قوله: «لمّا بدّل أكثر خلق الله عهده إليهـم فجهلوا حـقّه واتّخـذوا الأنـداد مـعه واجتالتهم الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته إلى آخره».

إشارة إلى وجه الحكمة الإلهيّة في وجود الأنبياء عليهم السّـلام ولوازمـه وهـي شرطيّة متصلة قدّم فيها التالي لتعلّق ذكر الأنبياء عليهم السّلام بذكر آدم، والتقدير لمّا بدّل أكثر فخلق الله عهده إليهم اصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم فبعثهم في الخلق، وذلك العهد هو المشار إليه بقوله تعالى:

﴿وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢].

قال ابن عبّاس:

لمّا خلق الله آدم مسح على ظهره فأخرج منه كلّ نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فقال:

﴿ألست بربّكم قالوا بلىٰ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢].

فنودي يومئذٍ: حفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة (١٢٣).

واعلم، أنّ أخذ الذرّية يعود إلى إحاطة اللوح المحفوظ بما يكون من وجود النوع الإنساني بأشخاصه، وانتقاشه بذلك عن قلم القضاء الإلهي، ولمّا كان بالإنسان تمام العالمين في الوجود الخارجي فكذلك هو في التقدير القضائي المطابق له، وبه يكون تمام التقدير وجفاف القلم، وامّا إشهادهم على أنفسهم فيعود إلى إنطاق إمكانهم بلسان الحاجة إليه وأنّه الإلّه المطلق الّذي لا إلّه غيره، وامّا بيان ملازمة الشرطيّة فلأنّه لمّا كان الغالب على الخلق حبّ الدنيا، والإعراض عن مقتضى الفطرة الأصليّة الّتي فطرهم عليها، والإلتفات عن القبلة الحقيقيّة الّتي أمروا بالتوجّه إليها، وذلك بحسب ماركّب فيهم من القوى البدنيّة المتنازعة إلى كمالاتها لاجرم كان من شأن كونهم على هذا التركيب المخصوص أن يبدّل أكثرهم عهد الله سبحانه إليهم من الدوام على عبادته والإستقامة على صراطه المستقيم، وعدم الإنقياد لعبادة الشيطان، كما قال سبحانه:

﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لاتعبدوا الشّيطان﴾ [سورة يس: ٦٠].

وأن يجهلوا حقّه للغفلة بحاضر لذّاتهم عمّا يستحقّه من دوام الشكر، وأن يتخذوا الأنداد معه لنسيانهم العهد القديم، وأن يجتذبهم عن معرفته الّتي هي ألذّ ثمار الجنّة، وأن تقطعهم عن عبادته الّتي هي المرقاة إلى اقتطاف تلك الثّمرة، ولمّا كان من شأنهم ذلك وجب في الحكمة الإلهيّة أن يختصّ صنفاً منهم بكمال أشرف يقتدر معه أبناء ذلك الصنف على ضبط الجوانب المتجاذبة، وعلى تكميل الناقصين ممّن دونهم، وهم صنف الأنبياء عليهم السّلام (والغاية منهم ما أشار إليه) بقوله: «ليستأدوهم ميثاق فطرته»، أي ليبعثوهم على أداء ما خلقوا لأجله وفطروا عليه من الإقرار بالعبوديّة لله، ويجذبوهم عمّا التفتوا إليه من اتّباع الشّهوات الباطلة (الباطنة) واقتناء اللّذات الوهميّة الزائلة، وذلك البعث والجذب تارة يكون بتذكيرهم نعم الله الجسميّة وتنبيههم على شكر ما أولاهم به من مننه العظيمة، وتارة يكون بالترغيب فيما عنده (عقده) سبحانه

---

(١٢٣) قوله: فنودي يومئذٍ.

انظر تعليقتنا الرقم: ٩٧.

ممّا أعدّه لأوليائه الأبرار، وتارة بالترهيب ممّا أعدّه لأعدائه الظالمين من عذاب النار، وتارة بالتنفير عن خسائس هذه الدار، وبيان وجوه الإستهانة بها والإستحقار، وإلى ذلك أشار بقوله: «ويذكّروهم منسيّ نعمته».

ولا بدّ للمجادلة والمخاطبة من احتجاج مقنع ومقحم فيحتجّوا عليهم بتبليغ رسالات ربّهم وإنذارهم لقاء يومهم الّذي يوعدون، ويثيروا (يشيروا) لهم وجوه الأدلّة على وحدانيّة المبدع الأوّل، وتفرّده باستحقاق العبادة، وهو المراد بدفائن العقول وكنوزها، واستعمال الدفائن ههنا استعارة لطيفة فإنّه لمّا كانت جواهر العقول ونتائج الأفكار موجودة في النفوس بالقوّة أشبهت الدفائن، فحسن استعارة لفظ الدفينة لها، ولمّا كانت الأنبياء هم الأصل في استخراج تلك الجواهر لإعداد النفوس لإظهارها حسنت إضافة إثارتها إليهم، وكذلك ليرشدهم إلى تحصيل مقدّمات تلك الأدلّة والبراهين وموادّها وهي آيات القدرة الإلهيّة وآثارها من سقف فوقهم محفوظ مرفوع مشتمل على بدائع الصنع وغرائب الحكم، ومهاد تحتهم موضوع، فيه ينتشرون وعليه يتصرفون، ومعايش بها يكون قوام حياتهم الدنيا، وبلاغاً لمدّة بقائهم لما خلقوا له، وآجال مقدّرة بها يكون فناؤهم ورجوعهم إلى بارئهم، وأعظم بالأجل آية رادعة وتقديراً جاذباً إلى الله تعالى، ولذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم:

أكثروا من ذكرها ذِم اللّذات [١٢٤].

إلى غير ذلك من الأمراض الّتي تضعف قواهم وتهرمهم، والمصائب الّتي تتتابع

---

(١٢٤) قوله: أكثروا ذكرها ذِم.

رواه الصدوق في (عيون أخبار الرضا (ع)) بإسناده عن الإمام الرضا عليه السّلام عن رسول الله (ص)، ج ٢، ص ٧٠، الحديث ٣٢٥، وأخرجه أيضاً ابن ماجة في سننه ج ٢، باب ذكر الموت الحديث ٤٢٥٨، ص ١٤٢٢، والحاكم في المستدرك ج ٤، ص ٣٢١، والسيوطي في الجامع الصغير ج ١، ص ٢٠٧، الحديث ١٣٩٦.

وروى القاضي النعمان في دعائم الإسلام ج ١، ص ٢٢١، بإسناده عن النّبي (ص) أنّه قال: أكثروا من ذكرها ذِم اللّذات، فقيل: يارسول الله وما هاذِم اللّذات؟ قال: الموت، فإنّ أكيَس المؤمنين أكثرهم للموت ذكراً وأشدّهم له استعداداً.

عليهم فإنّ كلّ هذه الآثار موادّ احتجاج الأنبياء على الخلق لينبّهوهم بصدورها عن العزيز الجبار عزّ سلطانه، على أنّه هو الملك المطلق الّذي له الخلق والأمر، وليقرّروا في أذهانهم صورة ما نسوه من العهد المأخوذ عليهم في الفطرة الأصليّة من أنّه سبحانه هو الواحد الحقّ المتفرّد باستحقاق العبادة، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم:

﴿وجعلنا السّماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ [سورة الأنبياء: ٣٢].

وقوله:

﴿إنّ في خلق السّموات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار والفلك الّتي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السّماءِ مِن ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ [سورة البقرة: ١٦٤]

وقوله تعالى:

﴿والسّماء بنيناها بأيْيْدٍ وإنّا لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون * ومن كلّ شيء خلقنا زوجين لعلّكم تذكّرون﴾ [سورة الذاريات: ٤٧ ـ ٤٩].

إلى غير ذلك من الآيات الدّالة على احتجاج الخالق سبحانه على خلقه بألسنة رسله وتراجمة وحيه، وجذبهم بهذه الألطاف إلى القرب من ساحل عزّته والوصول إلى حضرة قدسه سبحانه وتعالىٰ عمّا يشركون،

﴿وان تعدّوا نعمت الله لاتحصوها إنّ الإنسان لظلوم كفّار﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤].

(في أنّ الله سبحانه لم يخل أمّة من نبيّ مرسل)

قوله: «ولم يُخل الله سبحانه خلقه إلى قوله: وخَلَفت الأبناء».

أقول: المقصود الإشارة إلى بيان عناية الله سبحانه بالخلق حيث لم يخل أمّة منهم من نبيّ مرسل يجذبهم إلى جناب عزّته كما قال تعالى:

﴿وإن من أمّة إلّا خلا فيها نذير﴾ [سورة فاطر: ٢٤].

أو (و)كتاب منزل يدعوهم إلى عبادته ويذكّرهم فيه منسيّ عهده ويتلى عليهم فيه أخبار الماضين والعبر اللاحقة للأوّلين ويحتجّ عليهم فيه بالحجج البالغة، والدلائل

القاطعة، ويوضح لهم فيه أمور نظامهم وينبّههم على مبدئهم ومعادهم، والإنفصال ههنا انفصال مانع من الخلوّ كما هو مصرّح به.

قوله: «رسل لاتقصّر بهم قلّة عددهم، ولا كثرة المكذّبين لهم».

أي هم رسل كذلك، والمراد الإشارة إلى أنّهم وإن كانوا قليلي العدد بالنسبة إلى كثرة الخلق، وكان عدد المكذّبين لهم كثيراً كما هو المعلوم من أنّ كلّ نبيّ بعث إلى أمّة فلابدّ فيهم فرقة تنابذه وتعانده، وتكذّب مقالة فإنّ ذلك لا يولّيهم قصوراً عن أداءِ ما كلّفوا القيام به من حمل الخلق على ما يكرهون ممّا هو مصلحة لهم في معاشهم ومعادهم، بل يقوم أحدهم وحده ويدعوا إلى طاعة بارئه ويتحمّل أعباء المشقة التّامّة في مجاهدة أعداء الدّين، وينشر دعوته في أطراف الأرض بحسب العناية الأزليّة والحكمة الإلهيّة، وتبق آثارها محفوظة وسنتها قائمة إلى أن تقتضي الحكمة وجود شخص آخر منهم يقوم ذلك المقام.

﴿رسلا مبشّرين ومنذرين لئلّا يكونَ للنّاس على الله حجّة بعد الرّسل﴾ [سورة النساء: ١٦٥].

قوله: «من سابق سمّي من بعدَه». تفصيل (تفضيل) للأنبياء، و«من» ههنا للتمييز والتبيين، والمراد أنّ السّابق منهم قد اطلعه الله تعالى على العلم بوجود اللاحق له بعده فبعضهم كالمقدّمة لتصديق البعض كعيسى عليه السّلام حيث قال:

﴿ومبشّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [سورة الصفّ: ٦].

وبين لاحق سمّاه من قبله كمحمّد صلّى الله عليه وآله، وعلى ذلك أي على هذه الوتيرة والأسلوب والنظام الإلهي، مضت الأمم وسلفت الآباء وخلفتهم (خلفت) الأبناء.

قوله: «إلى أن بعث الله سبحانه محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم» إلى قوله: «من الجهالة».

واعلم أنّه عليه السّلام ساق هذه الخطبة من لدن آدم إلى أن انتهى إلى محمّد صلّى الله عليه وآله كما هو الترتيب الطبيعي إذ هوالغاية من طينة النبوّة وخاتم النبيّين كما

نطق به القرآن الكريم:

﴿ما كان محمّدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسولَ الله وخـاتمَ النـبيّين﴾ [سـورة الأحزاب: ٤٠].

ثمّ شرع بعد ذلك في التنبيه على كيفيّة اهتداء الخلق به وانتظام أمورهم في معاشهم ومعادهم بوجوده، كلّ ذلك استدراج لأذهان السامعين وتمهيد لمـا يـريد أن يـقرّره عليهم من مصالح دينيّة أو دنيويّة فأشار إلى أنّه الغاية من طينة النبوّة وتمام لها بقوله: إلى أن بعث محمّداً صلّى الله عليه وآله لإنجاز عدته لخلقه على ألسنة رسله السابقين بوجوده وإتمام نبوّته صلّى الله عليه وآله.

قوله: «**مأخوذاً على النبيّين ميثاقه**».

المراد بأخذ ميثاقه عليهم ما ذكر وقرّر في فطرتهم من الإعتراف بحقيّة نبوّته صلّى الله عليه وآله تصديقه فيما سيجيء به، إذ كان ذلك من تمام عبادة الحقّ سبحانه، فبعث صلّى الله عليه وآله حال ماكان ذلك الميثاق مأخوذاً على الأنبياء ومن عداهم، وحال ماكانت إمارات ظهوره والبشارة بمقدّمة مشهورة بينهم مع زكاء أصله وكـرم مـادّة حملته وشرف وقت سمح به، ثمّ أراد أن يزيد بعثة محمّد صلّى الله عليه وآله تـعظيماً، ويبيّن فضيلة شرعه وكيفيّة انتفاع الخلق به فقال: وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة وأهواء (منتشرة) متشتّتة، والواو في قوله: «وأهل الأرض» للحال (أيضاً)، وموضع الجملة نصب، وقوله: «وأهواء»، خبر مبتدأ محذوف، تقديره أهوائهم أهواء متفرّقة، وكذلك قوله: «وطوائف» أي وطوائفهم طرائق متشتّتة، أي بعثه وحال أهل الأرض يوم بعثه ماذكر مـن تـفرّق الأديـان وانـتشار الآراء واخـتلافها وتشـتّت الطـرق والمذاهب.

(في بيان أحوال الأمم السابقة علىٰ نبيّنا (ص))

واعلم أنّ الخلق عند مقدم محمّد صلّى الله عليه وآله إمّا مَن عليه اسم الشرايع أو غيرهم، أمّا الأوّلون فاليهود والنصارى والصـائبة والمجـوس، وقـد كـانت أديـانهم

اضمحلّت من أيديهم، وإنّما بقوا متشبهين بأهل الملل، وقد كان الغالب عليهم دين التشبيه ومذهب التجسيم كما حكى القرآن الكريم عنهم:

﴿وقالت اليهود والنصارىٰ نحن أبناء الله وأحبّاؤه﴾ [سورة المائدة: ١٨].

﴿وقالت اليهود عزيرٌ ابنُ الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ [سورة التوبة: ٣٠].

﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾ [سورة المائدة: ٦٤].

والمجوس أثبتوا أصلين أسندوا إلى أحدهما الخير، وإلى الثاني الشرّ، ثمّ زعموا أنّه جرت بينهما محاربة ثمّ إنّ الملائكة توسطت واصلحت بينهما على أن يكون العالم السفلي للشرير مدّة سبعة آلاف سنة إلى غير ذلك من هذيانهم وخطبهم.

وأمّا غيرهم من أهل الأهواء المنتشرة والطوائف المتشتّتة فهم على أصناف شتّى، فنهم العرب أهل مكّة وغيرهم، وقد كان منهم معطّلة ومنهم محصّلة نوع تحصيل، أمّا المعطّلة فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي، والدهر (المفني) المهلك، وهم الّذين حكى القرآن عنهم:

﴿وقالوا ما هي إلّا حياتنا الدّنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلّا الدهر﴾ [سورة الجاثية: ٢٤].

وقصروا الحياة والموت على تحلّل الطبائع المحسوسة وتركّبها، فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر،

﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلّا يظنّون﴾ [سورة الجاثية: ٢٤].

وصنف منهم أقرّوا بالخالق وابتداء الخلق عنه وأنكروا البعث والإعادة وهم المحكيّ عنهم في القرآن الكريم،

﴿وضرب لنا مثلاً ونسيَ خلقهُ قال من يحيي العظام وهي رميم * قُل يُحيِيها﴾ [سورة يس: ٧٨ ـ ٧٩].

وصنف منهم اعترفوا بالخالق ونوع من الإعادة لكنّهم عبدوا الأصنام وزعموا أنّها شفعاؤهم عند الله كما قال:

﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [سورة يونس: ١٨].

ومن هؤلاء قبيلة ثقيف وهم أصحاب اللات بالطائف وقريش وبنو كنانه، وغيرهم أصحاب العزّى، ومنهم من كان يجعل الأصنام على صور الملائكة ويتوجّه بها إلى الملائكة، ومنهم من كان يعبد الملائكة، كما قال تعالىٰ:

﴿بل كانوا يعبدون الجنّ﴾ [سورة سبأ: ٤١].

وامّا المحصّلة فقد كانوا في الجاهليّة على ثلاثة أنواع من العلوم:

أحدها علم الأنساب والتواريخ والأديان، والثاني علم تعبير الرؤيا، والثالث علم الأنواءِ، وذلك بما يتولّاه الكهنة والقافة منهم، وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله (١٢٥):

---

(١٢٥) قوله: عن النبيّ (ص): مطرنا بنَوْءٍ.

روى الصدوق في (معاني الأخبار) باب معنى الأنواء، الحديث ١، ص ٣٢٦، بإسناده عن الإمام الباقر (ع): ثلاثة من عمل الجاهليّة: الفخر بالأنساب، والطعن في الأحساب، والإستسقاء بالأنواء.

ونقل ذيله باسناده عن أبي عبيد، أنّه قال: سمعت عدّة من أهل العلم يقولون:

إنّ الأنواء ثمانية وعشرون نجماً معروفة المطالع في أزمنة السّنة، كلّها من الصيف والشتاء والربيع والخريف، يسقط منها في كلّ ثلاث عشر ليلة نجم في المغرب مع طلوع الفجر ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته وكلاهما معلوم مسمّى، وانقضاء هذه الثمانية والعشرين كلّها مع انقضاء السنة، ثمّ يرجع الأمر إلى النجم الأوّل مع استئناف السّنة المقبلة وكانت العرب في الجاهليّة إذا سقط يكون عند ذلك إلى النجم الّذي يسقط حينئذ فيقولون: مطرنا بنوء الثريّا والدبران والسماك وما كان من هذه النجوم، فعلى هذا فهذه هي الأنواء، واحدها (نوء) وإنّما سمّي نوءاً لأنّه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق بالطلوع وهو ينوء نوءاً، وذلك النهوض هو النوء فسمّي النّجم به وكذلك كلّ ناهض ينتقل بإبطاء فإنّه ينوء عند نهوضه، قال تبارك وتعالىٰ:

﴿لتنوء بالعصبة أولي القوّة﴾ [سورة القصص: ٧٦].

راجع أيضاً في هذا الحديث وحول موضوع النوء الكتب التفاسير سورة الواقعة الآية:

←

من قال: مطرنا بنَوْءٍ كذا فقد كفر بما أنزل على محمّد (ص).

ومن غير العرب البراهمة من أهل الهند، ومدار مقالتهم على التحسين والتقبيح العقليّين والرجوع في كلّ الأحكام إلى العقل وإنكار الشرايع وانتسابهم إلى رجل منهم يقال له براهام.

ومِنهم أصحاب البَدَدَة، والبدّ عندهم شخص في هذا العالم لايولد ولا ينكح ولا يطعم ولا يشرب ولا يهرم ولا يموت.

ومنهم أهل الفكرة وهم أهل العلم، منهم بالفلك وأحكام النجوم، ومنهم أصحاب الروحانيّات الّذين أثبتوا وسائط روحانيّة تأتيهم بالرسالة من عند الله في صورة البشر من غير كتاب فتأمرهم وتنهاهم، ومنهم عبدة الكواكب، ومنهم عبدة الشمس، ومنهم عبدة القمر، وهؤلاء يرجعون بالآخرة إلى عبادة الأصنام إذ لا يستمرّ لهم طريقة إلّا بشخص حاضر ينظرون إليه ويرجعون إليه في مهمّاتهم، ولهذا كان أصحاب الروحانيات والكواكب يتّخذون (يأخذون) أصناماً على صورها فكان الأصل في وضع الأصنام ذلك، إذ يبعد ممّن له أدنى فطنة أن يعمل خشباً بيده ثمّ يتّخذه إلهاً إلّا أنّ الخلق لمّا عكفوا عليها وربطوا حوائجهم بها من غير إذن شرعي ولا حجّة ولا برهان من الله تعالى كان عكوفهم ذلك وعبادتهم لها إثباتاً لإلهيّتها، ووراء ذلك من أصناف الآراء الباطلة والمذاهب الفاسدة أكثر من أن تحصى وهي مذكورة في الكتب

← ﴿وتجعلون رزقكم أنّكم تكذّبون﴾ [سورة الواقعة: ٨٢].

خاصّة التفاسير الروائيّة والمجمع البيان للطبرسي وتفسير علي بن إبراهيم القمي، وأيضاً بحار الأنوار ج ٥٨، باب في النهي عن الإستمطار بالأنواء ص ٣١٢.

وأخرج السيوطي في الدّر المنثور نقلاً عن البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وغيرهم من زيد الخالد الجهني، قال: صلّى بنا رسول الله (ص) صلاة الصبح زمن الحديبيّة في أثر سماء، فلمّا أقبل علينا فقال: «ألم تسمعوا ما قال ربّكم في هذه الآية: ما أنعمت على عبادي نعمة إلّا أصبح فريق منهم بها كافرين، فأمّا من آمن بي وحمدني على سقياي فذلك الّذي آمن بي، وكفر بالكواكب، وأمّا من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك الّذي آمن بالكوكب وكفر بي» ج ٨، ص ٣٦، سورة الواقعة الآية: ٨٢.

المصنّفة في هذا الفنّ[١٢٦].

وإذا عرفت ذلك ظهر معنى قوله عليه السّلام: من «مُشَبِّهٍ لله بخلقه» كالبقيّة من أصحاب الملل السابقة، فانّهم وإن أثبتوا صانعاً إلّا أنّ أذهانهم مكيّفة بكيفيّة بعض مصنوعاته في نفس الأمر من الجسميّة وتوابعها، ومن ملحد في إسمه كالّذين عدلوا عن الحقّ عن أسمائه بتحريفها عمّا هي عليه إلى أسماء اشتقّوها لأوثانهم وزادوا فيها ونقصوا كاشتقاقهم اللّات من الله، والعزّي من العزيز ومناة من المنّان، وهذا التأويل مذهب ابن عبّاس، ومنهم من فسّر الملحدين في أسماء الله تعالى بالكاذبين في أسمائه، وعلى هذا كلّ من سمّي اح بما لم يسمّ به نفسه (ذهنه) ولم ينطق به (كتاب) ولا ورد فيه إذن شرعيّ فهو ملحد في أسمائه.

وقوله: «ومن مشير إلى غيره». كالدهريّة وغيرهم من عبدة الأصنام، والانفصال هٰهنا لمنع الخلوّ أيضاً. فلمّا اقتضت العناية بعثته صلّى الله عليه وآله ليهتدوا سبيل الحقّ ويفيئوا من ضلالهم القديم إلى سلوك الصراط المستقيم، ولينقذهم ببركة نوره من ظلمات الجهل إلى أنوار اليقين، فقام بالدعوة إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة والجادلة بالّتي هي أحسن، فجلى الله بنوره صداء قلوب الخلق، وأزهق باطل الشيطان بما جاء به من الحقّ والصدق وانطلقت الألسن بذكر الله واستنارت البصائر بمعرفة الله وكمل به دينه في أقصى بلاد العالم، وأتمّ به نعمته على كافّة عباده، كما قال تعالى:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [سورة المائدة: ٣].

أحبّ الله سبحانه لقاءه كما أحبّ هو لقاء الله كما قال صلّى الله عليه وآله:

من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه[١٢٧].

---

(١٢٦) قوله: الكتب المصنّفة في هذا الفنّ.

راجع (الملل والنحل) ج ٢، ص ٢٣٢ إلى ٢٦٥.

(١٢٧) قوله: من أحبّ لقاء الله.

ورضي له ماعنده من الكرامة التامّة، والنعمة العامّة في جواره الأمين في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فأكرمه عن دار الدنيا، ورغب به عن مجاورة البلوى ومقام الأذى فقبضه (الله) إليه عند انتهاء أجله كريماً عن أدناس الذنوب طاهراً في ولادته الجسمانيّة والرّوحانيّة صلّى الله عليه وآله، ما برق بارق وذرّ شارق.

قوله: «وخَلَّف فيكم ما خَلَّفت الأنبياء في أممها، إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح، ولا علم قائم».

أقول: لما كان هذا الشّخص الّذي هو النّبيّ صلّى الله عليه وآله ليس ممّا يتكوّن وجود مثله في كلّ وقت لما أنّ المادّة الّتي تقبل كمال مثله إنّما يقع في قليل من الأمزجة وجب إذن أن يشرع للنّاس بعده في أمورهم سنّة باقية بإذن الله وأمره ووحيه وإنزاله الروح القدس عليه، وواجب أن يكون قد دبّر لبقاء ما يسنّه ويشرعه في أمور المصالح الإنسانيّة تدبيراً، والغاية من ذلك التدبير هو بقاء الخلق واستمرارهم على معرفة الصانع المعبود ودوام ذكره وذكر المعاد، وحسم وقوع النسيان فيه مع انقراض القرآن الّذي يلي النبيّ ومن بعده، فواجب إذن أن يأتيهم بكتاب من عند الله ويكون وافياً بالمطالب الإلهيّة والأذكار الجاذبة إلى الله سبحانه ولإخطاره بالبال في كلّ حال

← روى الصدوق في (معاني الأخبار) ص ٢٣٦، بإسناده عن الصادق عليه السّلام سئله بعض أصحابه عن الحديث المذكور وقال له: أصلحك الله، من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن أبغض لقاء الله أبغض الله لقاءه؟

قال (ع): نعم، فقال: فوالله إنّا لنكره الموت، فقال (ع): ليس ذلك حيث تذهب، إنّما ذلك عند المعايَنَة إذا رأى مايحبّ فليس شيء أحبّ إليه من أن يتقدّم والله يحبّ لقاءه وهو يحبّ لقاء الله حينئذ، وإذا رأى ما يكره فليس شيء أبغض إليه من لقاء الله والله عزّ وجلّ يبغض لقاءه.

ورُوي الحديث أيضاً في (مصباح الشريعة) الباب الثالث والثمانون في ذكر الموت عن الصّادق عليه السّلام عن النبيّ (ص).

وراجع أيضاً مسند أحمد بن حنبل الحديث ٣، ص ١٠٧، وج ٤، ص ٢٥٩. وصحيح مسلم ج ٤، ص ٥٠٦٥، الحديث ١٥ و١٦ و١٧، وكنز العمّال ج ١٥، ص ٥٦٥، الحديث ٤٢١٩٦.

مشتملاً على أنواع من الوعد على طاعة الله ورسوله بجزيل الثواب عند المصير إليه، والوعيد على معصيته بعظيم العقاب عند القدوم عليه، ولابدّ أن يعظّم أمره ويسنّ على الخلق تكراره وحفظه، أو (بحثه) بعضه، ودراسته وتعلّمه وتعليمه وتفهّم معانيه ومقاصده ليدوم به التذكّر لله سبحانه، والملأ الأعلى من ملائكته، ثمّ يسنّ عليهم أفعالاً وأعمالاً تتكرّر في أوقات مخصوصة تتقارب ويتلوا بعضها بعضاً مشفوعة بألفاظ تقال ونيّات تنوي في الخيال ليحصل بها دوام تذكّر المعبود الأوّل وينتفع بها في أمر المعاد وإلّا فلا فائدة فيها، وهذه الأفعال كالعبادات الخمس المفروضة على النّاس وما يلحقها من الوظائف ولمّا بدأ عليه السّلام ههنا بذكر الكتاب العزيز لكونه مشتملاً على ذكر سائر ما جاء به الرّسول (ص) إمّا مطابقة أو التزاماً وفي بسط قوانينيّة الكلّيّة بحسب السنّة النبويّة وفاءاً بجميع المطالب الإلٰهيّة، فنحن نبدأ بذكر شرفه ووظائفه وشرائط تلاوته ونؤخّر الكلام في باقي العبادات إلى مواضعها.

(في بيان فضيلة القرآن)

البحث الثاني: في فضيلة الكتاب، أمّا الفضيلة فمن وجوه:

الأوّل، قوله تعالى:

﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون﴾ [سورة الأنبياء: ٥٠].

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكّرَ أُولوا ٱلألباب﴾ [سورة ص: ٢٩].

وقوله:

﴿وما كان هذا القرآن أن يُفترىٰ من دون الله ولكن تصديقَ الّذي بين يديه﴾ [سورة يونس: ٣٧].

الثاني، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

من قرأ القرآن ثمّ رأى أنّ أحداً أوتي أفضل ممّا أوتي فقد استصغر ما (عظمه) عظّم

الله تعالى (١٢٨).

الثالث، قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

ما من شفيع أفضل منزلة عند الله تعالىٰ يوم القيامة من القرآن، لا نبيّ ولا ملك، ولا غيره (١٢٩).

---

(١٢٨) قوله: من قرأ القرآن.

راجع أحياء علوم الدّين للغزالي ج ١، ص ٢٧٢، كتاب آداب القرآن الباب الأوّل.

وروى ثقة الإسلام الكليني في الكافي ج ٢، باب فضل حامل القرآن ص ٦٠٤، الحديث ٥، باسناده عن الإمام الصادق عليه السّلام عن النبيّ (ص) قال:

«ومن أوتي القرآن فظنّ أن أحداً من النّاس أوتي أفضل ممّا أوتي فقد عظّم ما حقّر الله، وحقّر ما عظّم الله».

ورُوي أيضاً في التفسير المنسوب إلى الإمام أبي محمّد العسكري (ع) عن رسول الله (ص) قال: «ما أنعم الله عزّ وجلّ على عبد بَعد الإيمان أفضل من العلم بكتاب الله والمعرفة بتأويله، ومن جُعل له في ذلك حظّاً، ثمّ ظنّ أنّ أحداً ـ لم يُفعل به ما فُعل به ـ قد فضّل عليه فقد حقّر نعم الله عليه». ص ١٥، الحديث ١، باب فضل القرآن.

وروى الصدوق في معاني الأخبار ص ٢٧٩ عن النبيّ (ص) قال:

أنّ من أعطي القرآن فظنّ أنّ أحداً أُعطي أكثر ممّا أُعطي فقد عظّم صغيراً وصغّر كبيراً، فلا ينبغي لحامل القرآن أن يرى أنّ أحداً من أهل الأرض أغنى منه ولو ملك الدّنيا برحبها.

وأخرج الهندي في كنز العمّال ج ١، ص ٥٢٥، الحديث ٢٣٥٠:

من قرأ القرآن فرأى أن من خَلق الله أُعطي أفضل ممّا أعطي فقد صغّر ما عظّم الله، وعظّم الله ما صغّر الله، لاينبغي لحامل القرآن أن يحدّ فيمن يحدّ ولا يجهلَ فيمن يجهل ولكن يعفو ويصفح لعزّ القرآن.

(١٢٩) قوله: ما من شفيع أفضل.

ذكره الغزالي في إحياء العلوم ج ١، باب فضيلة القرآن ص ٢٧٣.

وروى الكليني في الكافي ج ٢، ص ٦٠١، الحديث ١١، (كتاب فصل القرآن) بإسناده عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السّلام قال: «يجيئ القرآن يوم القيامة في أحسن منظور

←

ويلوح لك من سرّ هذه الإشارة أنّ ذلك انّما هو في حقّ من تدبّره، وسلك المنهج (النهج) المطلوب منه المشتمل عليه، ووصل (به) إلى جناب الله في جوار الملائكة المقرّبين، ولا غاية من الشفاعة إلّا الوصول إلى نيل الرّضوان من المشفوع، وعلمت أنّ تمام رضوان الله بغير سلوك الطريق المشتمل عليها الكتاب العزيز لايحصل، ولا ينفع فيه شفاعة شافع كما قال تعالى:

﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين * فمالهُم عن ٱلتّذكرةِ مُعرضين﴾ [سورة المدّثر: ٤٨ ـ ٤٩].

الرابع، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم:

«لو كان القرآن في إهاب لما مسّته النار»(١٣٠).

← إليه صورةً فيمرّ بالمسلمين فيقولون: هذا الرّجل منّا، فيجاوزهم إلى النّبيّين فيقولون: هو منّا، فيجاوزهم إلى الملائكة المقرّبين فيقولون هو منّا حتّى ينتهي إلى ربّ العزّة عزّ وجلّ فيقول: ياربّ فلانُ بن فلان أظمأت هواجره وأسهرت ليلة في دار الدّنيا، وفلانُ بن فلان لم أظمأ هو أجره ولم أسهر ليله، فيقول تبارك وتعالى: أدخلهم الجنّة على منازلهم فيقوم فيتّبعونه، فيقول للمؤمن: أقرأ وأرقه، قال: فيقرأ ويرقي حتّى يبلغ كلّ رجل منهم منزلته الّتي هي له فينزلها».

وأخرج الدارمي في سننه باب فصل القرآن ج ٢، ص ٥٢٣، الحديث ٣٣١٢، بإسناده عن ابن عمر قال: يجيئ القرآن يشفع لصاحبه يقول: ياربّ لكل عامل عملة من عمله، وإنّي كنت أمنعه اللّذة والنوم، فأكرمه، فيقال: أبسط يمينك فيملأ من رضوان الله، ثمّ يقال: أبسط شمالك فيملأ من رضوان الله، ويُكشي كسوة الكرامة، ويحلّى حلية الكرامة، ويلبس تاج الكرامة.

(١٣٠) قوله: لو كان القرآن في إهاب.

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٤، ص ١٥٥، والطبرسي في مجمع البيان في الفن السادس من المقدمة.

والغزالي في احياء العلوم ج ١، ص ٢٧٣، وأخرج الدارمي أيضاً باسناده عن رسول الله (ص) قال: لو جعل القرآن في إهاب ثمّ ألق في النار ما احترق. ج ٢، ص ٥٢٢، الحديث ٣٣١٠، وراجع كنز العمّال ج ١، ص، الحديث ٢ و٣ و٢٢٠٤ و٢٣١٣.

والمراد أيّ ظرف وعاه وتدبّره وسلك طريقه لم تمسّه النار، أمّا نار الآخرة فظاهر، وأمّا نار الدنيا فلأنّ الواصلين من أولياء الله الكاملين في قوّتهم النظريّة والعمليّة يبلغون حدّاً تنفعل العناصر عن نفوسهم فتتصرّف فيها كتصرّفها في أبدانها فلا يكون لها في أبدانهم تأثير، وقد عرفت أسباب ذلك في المقدمات.

الخامس، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم:

أفضل عبادة أمّتي (قراءة) القرآن، وأهل القرآن هم أهل الله وخاصّته[١٣١]، والمقصود مع شرائطه الّتي سنذكرها.

(في بيان وظائف القارئ للقرآن)

البحث الثالث: في وظائفه، أمّا مداومة الكتاب بالتلاوة والدرس فيحتاج إلى وظائف وإلّا لم ينتفع بها كما قال أنس:

ربّ تال للقرآن والقرآن يلعنه[١٣٢].

---

(١٣١) قوله: أفضل عبادة أمّتي.

ذكره الغزالي في إحياء العلوم ج ١، ص ٢٧٣. وفي البحار ج ٩٣، ص ٣٠٠، الحديث ٣٧، نقلاً عن (الدعوات) للراوندي، قال رسول الله (ص): أفضل عبادة أمّتي بعد قراءة القرآن الدعاء، الحديث.

وروى الكليني، بإسناده عن الزّهري قال: قلت لعليّ بن الحسين (ع) أيّ الأعمال أفضل؟ قال: الحالّ المرتحل، قلت: وما الحالّ المرتحل؟ قال: فتح القرآن وختمه، كلّما جاء بأوّله ارتحل في آخره. الكافي ج ١، ص ٦٠٥، الحديث ٧.

(١٣٢) قوله: ربّ تال للقرآن.

ذكره الغزالي في إحياء العلوم ج ١، ص ٢٧٤. ورواه مؤلّف جامع الأخبار في الفصل ٢٣ في القراءة عن أبي عبدالله الصادق عليه السّلام ص ١٣٠، الحديث ٦/٢٥٥. وفي البحار ج ٩٢، ص ١٨٥، الحديث ٢٤ عن (أسرار الصلاة) للشهيد الثاني، عن النّبي (ص) قال: كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه، راجع أسرار الصّلاة، الخاتمة البحث الأوّل ص ١٨٥.

والّذي ينبغي أن يوظّف في ذلك ما لخّصه الإمام أبو حامد الغزّالي في كتاب الإحياء(١٣٣) فإنه لامزيد عليه وهي أمور عشرة:

الأوّل، أن يتصوّر الإنسان حال سماعه للتلاوة عظمة كلام الله سبحانه وإفاضة كماله ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة أفهام الخلق في إيصال معاني كلامه إلى أذهانهم، وكيف تجلّت لهم الحقائق الإلهيّة في طيّ حروف وأصوات هي صفات البشر؟ إذ يعجز البشر عن الوصول إلى مدارج الجلال ونعوت الكمال إلّا بوسيلة. ولولا استتار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى، ولتلاشي ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره. فالصّموت والحروف للحكمة جسد، وهي بالنسبة إليه نفس وروح. ولمّا كان شرف الأجساد وعزّتها بشرف أرواحها فكذلك شرف الحروف والصّوت بشرف الحكمة الّتي فيها.

الثاني، التعظيم للمتكلّم، وينبغي أن يحضر في ذهن القاري عظمة المتكلّم، ويعلم أنّ ما يقرأه ليس بكلام البشر، وأنّ في تلاوة كلام الله غاية الخطر فإنه تعالى قال:

﴿لا يمسّه إلّا المطهّرون﴾ [سورة الواقعة: ٧٩].

وكما أنّ ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللّامس الغير (المتطهر) المطهر، فكذلك باطن معناه كلمة عزّة وجلالة (بحكم عزّه وجلاله) محجوب عن باطن القلب (إذ لا) أن يستضيء بنوره إلّا إذا كان متطهّراً عن كلّ رجس، مستنيراً بنور التعظيم والتوقير عن ظلمة الشرك. وكما لاتصلح للمسّ جلد المصحف كلّ يد، فلا يصلح لتلاوة حروفه كلّ إنسان، ولا لحمل أنواره كلّ قلب، ولهذا (ولأجل هذا) الإجلال كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف يغشى عليه ويقول: هو

(١٣٣) قوله: ما لخّصه الإمام أبو حامد الغزّالي.

راجع (إحياء العلوم) ج ١، ص ٢٨٠ إلى ص ٢٨٨، الباب الثالث في أعمال الباطن في التلاوة، ومفاتيح الغيب لصدر المتألهين ص ٥٨ وراجع أيضاً المحجّة البيضاء) ج ٢، ص ٢٣٤، إلى ص ٢٥٠. ولا يخفى أنّ المؤلّف (البحراني) لخّص مافي إحياء العلوم ونقّحه وتصرّف في عباراته أحياناً فلا تغفل.

كلام ربّي فيعظّم الكلام بتعظيم المتكلّم، وعلمت أنّ عظمة المتكلّم لا تخطر في القلب بدون الفكر في صفات جلاله ونعوت كماله وأفعاله. وإذا خطر ببالك الكرسيّ والعرش والسّماوات والأرضون وما بينها، وعلمت أنّ الخالق لجميعها والقادر عليها والرّازق لها هو الله الواحد القهّار، وأنّ الكلّ في قبضته، والسّموات مطويّات بيمينه، والكلّ سائر إليه وأنّه الّذي يقول: هؤلاء في الجنّة ولا أبالي فإنّك تستحضر من ذلك عظمة المتكلّم ثمّ عظمة الكلام.

الثالث، حضور القلب وترك حديث النفس، قيل في تفسير قوله:

﴿يايحيى خذ الكتاب بقوّة﴾ [سورة مريم: ١٢].

أي بجدّ واجتهاد، وأخذه بالجدّ أن يتجرّد عند قرائته بحذف جميع المشغلات والهموم عنه، وهذه الوظيفة تحصل ممّا قبلها، فإنّ المعظم للكلام الّذي يتلوه يستبشر به ويستأنس إليه ولا يغفل عنه، فإنّ (في) القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي له أهلاً، وكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وفيه بساتين العارفين، ورياض الأولياء، وميادين أولي الألباب.

الرابع، التدبّر وهو طور وراء حضور القلب فإنّ الإنسان قد لايتفكّر في غير القرآن، ولكنّه يقتصر على سماع القرآن من نفسه هو لا يتدبّره، والمقصود من التلاوة التدبّر قال سبحانه:

﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [سورة محمّد: ٢٤].

﴿أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [سورة النساء: ٨٢].

وقال:

﴿ورتّل القرآن ترتيلاً﴾ [سورة المزّمل: ٤].

لأنّ التّرتيل يمكّن الإنسان من تدبّر الباطن، وقال صلّى الله عليه وآله:

لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قرائة لا تدبّر فيها (١٣٤).

وإذا لم (يمكن) يكن التدبّر إلّا بالترديد فليردّد، قال أبو ذر: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله ليلة يردّد قوله تعالى:

﴿إن تعذّبهم فإنّهم عبادُك وإن تغفر لهم فانّك أنت العزيز الحكيم﴾ [سورة المائدة: ١١٨].

الخامس، التفهّم وهو أن يستوضح من كلّ آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله تعالى وأفعاله وأحوال أنبيائه والمكذّبين لهم وأحوال ملائكته وذكر أوامره وزواجره وذكر الجنّة والنّار والوعد والوعيد، فليتأمّل معاني هذه الأسماء والصّفات لتنكشف له أسرارها، فتحتها دفائن الأسرار وكنوز الحقايق، وإلى ذلك أشار عليّ عليه السّلام بقوله:

ما أسرَّ إليّ رسول الله (ص) شيئاً كتمه عن النّاس إلّا أن يؤتي الله عزّ وجلّ عبداً فهماً في كتابه فليكن حريصاً على طلب ذلك الفهم (١٣٥).

---

(١٣٤) قوله: لا خير في عبادة.

روى الصّدوق في (معاني الأخبار) باب معنى الفقيه حقّاً الحديث ١، ص ٢٢٦، بإسناده عن الإمام أمير المؤمنين (ع) قال: ألا أُخبركم بالفقيه حقّاً؟ قالوا: بلىٰ يا أمير المؤمنين قال: من يقنّطُ الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من عذاب، ولم يرخّص لهم في معاصي الله، ولم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره، ألا لا خير في علم ليس فيه تفهّم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقّه.

ورواه ابن شعبة في (تحف العقول) ص ٢٠٤، مع تفاوت يسير في بعض الكلمات، وأيضاً رواه أبو نعيم في (حلية الأولياء) بإسناده عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ج ١، ص ٧٧، والمتقي في كنز العمّال ج ١٠ ص ٣٠٨، الحديث ٢٩٥٤٦.

(١٣٥) قوله: أشار عليّ (ع).

أخرج البخاري في (صحيحه) كتاب الجهاد باب ٨١٠ (فَكاكِ الأسير) ج ٤، ص ٤٨٩، الحديث ١٢٢٤، بإسناده عن أبي جُحيفَة قال: قلت لعليّ رضي الله عنه: هل عندكم شيءٌ من الوحي إلّا ما في كتاب الله، قال: لا والّذي فَلَقَ الجنّة وبَرَأ النَّسَمَةَ ما أَعْلَمُه إلّا فهماً ←

. . . .

→ يُعطيه الله رجلاً في القرآن وما في هذه الصحيفة، الحديث.

ورواه أيضاً في كتاب العلم باب ٨٢، كتابه العلم الحديث ١٠٩، ج ١، ص ١١٨.

وأخرجه أيضاً ابن حنبل في مسنده ج ١، ص ٧٩، وعبدالسّلام الحرّاني المتوفّى ٦٥٣ في (المنتقى) ج ٢، ص ٣٩١١، الحديث ٢٩٠٦، باب ما جاء: لايقتل مسلم بكافر.

ذكر المؤلف الجليل هذا الحديث في الجزء الأوّل من التفسير ص ٣٦١، فراجع، وأيضاً ذكره في الأسرار ص ٢٨٢.

هنا تبصرة وملاحظة وهي:

قال شارح البخاري بدرالدّين محمود العيني (في عمد القاري) في شرح الحديث المذكور ج، ص ١٦٠:

«قوله: «هل عندكم» الخطاب لعليّ رضي الله عنه والجمع للتعظيم، أو لإرادته مع سائر أهل البيت، ... وإنّما سأله أبو جحيفة عن ذلك؛ لأنّ الشيعة كانوا يزعمون أنّه عليه الصّلاة والسّلام خصّ أهل بيته لاسيّما عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه بأسرار من علم الوحي لم يذكرها لغيره» ـ إلى أن قال ـ: «قوله: «قال لا» أي لا كتاب، أي ليس عندنا كتاب غير كتاب الله تعالى». إلى أن قال:

«بيان استنباط الأحكام: الأوّل، قال ابن بطان فيه مايقطع بدعة الشيعة والمدعين على عليّ رضي الله عنه أنّه الوصيّ وأنّه المخصوص بعلم من عند رسول الله عليه الصّلاة والسّلام لم يعرفه غيره.

هذا وقال الشارح الآخر شهاب‌الدّين أحمد القسطلاني في (إرشاد السّاري) ج ٥، ص ١٦٦ في شرح الحديث:

«قلت لعليّ رضي الله عنه هل عندكم» أهل البيت النبويّ «شيء من الوحي خصّكم به النبيّ (ص) دون غيركم كما تزعم الشيعة.

أقول: نذكر هنا بعض الأحاديث حتّى تلاحظ أيّها القارئ العزيز كيف يحرّفون الكلم عن مواضعه ويكتبون مايريدون خلاف ما يقول الشيعة الّذين يتّبعون مدرسة أهل البيت أهل العصمه والطهارة عملاً بسنّة رسول الله الخاتم (ص) واتباعاً بقوله (ص) في حديث الثقلين والغدير وغيرهما.

فبملاحظة الأحاديث التالية يُعلم أنّ الشيعة الإثنا عشريّة لايقول في عليّ أمير المؤمنين

←

. . . .

← عليه السّلام غير ما قال الله سبحانه وتعالى ورسوله الخاتم (ص) في حقّه ويُعلم أيضاً أنّ الشيعة هم أهل السنّة في الحقيقة. وأمّا الأحاديث وهي:

الف ـ روى الصّدوق في الخصال ج ٢، ص ٦٤٣، الحديث ٢٣ باسناده عن عبدالله بن عمر، قال: قال رسول الله (ص) في مرضه الّذي توفّي فيه: ادعوا لي أخي فأرسلوا إلى عليّ (ع) فدخل فولّيا وجوههما إلى الحائط وردّا عليهما ثوباً فأسرَّ إليه والنّاس محتوشون وراء الباب، فخرج عليّ (ع) فقال له رجل من الناس: أسرّ إليك نبيُّ الله شيئاً؟ قال: نعم أسرّ إليّ ألف باب في كلّ باب ألف باب، قال وعيته؟ قال: نعم وعقلته.

ب ـ روى الصدوق في الخصال ج ٢، ص ٦٤٩، الحديث ٤٢، بإسناده عن أبي بصير، عن الإمام الصادق (ع) قال: كان في ذؤابة سيف رسول الله (ص) صحيفة صغيرة، فقلت لأبي عبدالله (ع): أيّ شيء كان في تلك الصحيفة قال: هي الأحرف الّتي يفتح كلّ حرف منها ألف حرف، قال أبو بصير: قال أبو عبدالله (ع) فما خرج منها إلّا حرفان حتّى السّاعة.

ج ـ روى أبو نعيم المتوفى ٤٣٠ في (حلية الأولياء) ج ١، ص ٦٨ باسناده عن عليّ أمير المؤمنين عليه السّلام قال: والله ما نَزَلتْ آيةٌ إلّا وقد علمتُ فيم أُنزلت، وأين أُنزلت، إنّ ربّي وَهَبَ لي قلباً عقولاً، ولساناً سئوولاً.

هـ ـ هناك أحاديث كثيرة بعبارات مختلفة متواترة وبأسانيد متضافرة رواها الفريقان عن النّبي (ص) قال:

أنا مدينة العلم وعليّ بابها.
أنا مدينة الحكمة وعليّ بابها.
أنا دار الحكمة وعليّ بابها.
أنا ميزان العلم وعليّ كفّتاه.
أنا دار العلم وعليّ بابها.
أنا مدينة الفقه وعليّ بابها.
أنا المدينة وأنت الباب، ولا يؤتي المدينة إلّا من بابها.
أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت بابه.
عليّ أخي وعليّ منّي وأنا من عليّ فهو باب علمي ووصيّي.

و ـ وهناك روايات كثيرة تدلّ على الآيات التالية أي آية التطهير وآية أهل الذّكر وآية

←

وقال ابن مسعود:

من أراد علم الأوّلين والآخرين فعليه بالقرآن(١٣٦).

→ المباهلة نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السّلام:

﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ [سورة الأحزاب: ٣٣].

﴿فاسألوا أهل الذّكر إن كُنتم لاتعلمون﴾ [سورة النحل: ٤٣].

﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ [سورة آل عمران: ٦١].

راجع: صحيح الترمذي ج ٥، ص ٣١، الحديث ٣٢٥٨، وص ٣٢٨، الحديث ٣٨٧٥، وص ٣٦١، الحديث ٣٩٦٣، وتفسير ابن كثير ج ٣، ص ٤٨٤ و٤٨٥، وتفسير الطبري الحديث ٢٢، ص ٧ و٨، والدّر المنثور ج ٥، ص ١٩٨.

وأيضاً تفسير ابن كثير ج ٢، ص ٥٧٠، وروح المعاني ج ١٤، ص ١٣٤.

وأيضاً صحيح مسلم ج ٢، ص ٣٦٠، والمستدرك للحاكم ج ٣، ص ١٥٠، وتفسير الطبري ج ٣، ص ٢٩٩، وتفسير ابن كثير ج ١، ص ٣٧٠، والدّر المنثور ج ٢، ص ٣٨، وغيرها من التفاسير وجوامع الحديث.

فتبين من انّ عليّاً (ع) بمنزلة نفس النّبي (ص) وانّه أهل الذكر الّذي يجب ان يُتعلّم العلم والقرآن منه وانّه عليه السّلام المطهّر من قبل الله سبحانه وتعالى، والقرآن لايمسّه إلّا المطهرون، فعليّ (ع) وأهل البيت هم أهل القرآن، فإذن أهل البيت هم الذين يتمكنون ان يبيّنوا القرآن ويفسّروه.

قال أمير المؤمنين عليه السّلام: «ولقد سمعتُ رَنَّةَ الشيطان حين نزل الوحي عليه صلّى الله عليه وآله، فقلت: يارسول الله ما هذه الرنّةُ؟ فقال: «هذا الشيطان قد أيِس مِن عبادتِه، إنّك تسمَعُ ما أسمعُ، وترى ما أرى إلّا أنّك لستَ بنبيّ ولكنّك لوزير وإنّك لعلىٰ خير». نهج البلاغة خطبة ١٩٢ صبحي صالح.

(١٣٦) قوله: من أراد علم الأوّلين.

روى فرات (من أعلام الغيبة الصغرى) في تفسيره ص ٦٧، الحديث ٣٨، بإسناده عن سليم بن قيس عن مولانا أمير المؤمنين عليه السّلام قال في حديث: وسلوني عن القرآن

←

واعلم، أنّ أعظم علوم القرآن تحت أسماء الله تعالىٰ وصفاته، ولم يدرك الخلق منها إلّا بقدر أفهامهم، وإليه الإشارة بقوله:

﴿أنزل من السّماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السّيل زبداً رابياً﴾ [سورة الرعد: ١٧].

فالماء هو العلم أنزله من سماء جوده ففاضت أودية القلوب كلّ على حسب استعداده وإمكانه وإن كان وراء ما أدركوه أطوار أخرىٰ لم يقفوا عليها، وكنوز لم يعثروا على أغوارها.

أمّا أفعاله تعالى، وما أشار إليه من خلق السّماوات والأرض وغيرها، فالّذي ينبغي أن يفهم التالي منها وهو صفات الله وجلاله لاستلزام الفعل الفاعل، فيستدلّ بعظمة فعله على عظمته ليلاحظ بالأخرة الفاعل دون الفعل، فيقرأ في المقام الأوّل:

﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الّذين من دونه﴾ [سورة لقمان: ١١].

ويقرأ في المقام الثاني:

﴿كلّ شيءٍ هالكٌ إلّا وجهه﴾ [سورة القصص: ٨٨].

فمن عرف الحقّ رآه في كلّ شيء، ومن بلغ إلى حذف (حدّ) العرفان عن درجة الإعتبار لم يرمعه غيره فاذا تلا قوله:

﴿أفرأيتم ما تُمنون﴾ [سورة الواقعة: ٥٨].

﴿أفرأيتم الماء الّذي تشربون﴾ [سورة الواقعة: ٦٨].

﴿أفرأيتم النّار الّتي تورون﴾ [سورة الواقعة: ٧١].

← فإنّ في القرآن بيان كلّ شيء، فيه علم الأولين والآخرين.

وفي إحياء العلوم ج ١، ص ٢٨٣: قال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد علم الأوّلين والآخرين فليثوّر القرآن.

قال ابن الأثير في النهاية في (ثور): ومنه الحديث «من أراد العلم فليثوّر القرآن»، أي ليُنَقّر عنه ويفكّر في معانيه وتفسيره وقراءته ومنه حديث عبدالله: أثيروا القرآن فإنّ فيه علم الأوّلين والآخرين.

فلا ينبغي أن يقصّر نظره على النطفة والماء والنّار، بل ينظر في المني وهو نطفة، ثمّ في كيفيّة انقسامها إلى اللحم والعظم والعصب والعروق وغيرها، ثمّ في كيفيّة أشكال أعضائها المختلفة من المستدير والطويل والعريض والمستقيم والمنحني والرّخوة والصلب والرقيق والغليظ، وما أودع في كلّ من القوّة وهيّأ (وَهْباً) له من المنفعة الّتي لو اختلّ شيء منها لاختلّ أمر البدن ومصالح الإنسان، فليتأمل في هذه العجائب وأمثالها ليترقّى فيها إلى عجيب قدرة الله تعالىٰ والمبدأ الّذي صدرت عنه هذه الآثار، فلا يزال مشاهداً لكمال الصانع في كمال صنعه.

وأمّا أحوال الأنبياء عليهم السّلام، فليفهم من سماع كيفيّة تكذيبهم وقتل بعضهم صفة استغناء الله تعالى عنهم، ولو هلكوا بأجمعهم لم يتضرّر بذلك ولم يؤثّر في ملكه، فإذا سمع نصرتهم فليفهم أنّ ذلك بتأييد إلهيّ كما قال تعالى:

﴿حتّى إذا آستيأس الرّسل وظنّوا أنّهم قد كُذبوا جاءهُم نصرنا فنُجّي من نشاء﴾ [سورة يوسف: ١١٠].

وأمّا أحوال المكذّبين لهم كعاد وثمود وكيفيّة إهلاكهم فلينتبّه من سماعه لاستشعار الخوف من سطوة الله ونقمته وليكن حظّه منه الإعتبار في نفسه، وأنّه إن غفل وأساء الأدب فربّما أدركته النقمة ونفذت فيه القضيّة حيث لاينفع مال ولا بنون، وكذلك إذا سمع أحوال الجنّة والنّار فليحصل منها على خوف ورجاء وليتصوّر أنّه بقدر مايبعد عن أحدهما يقرب من الآخر، وليفهم منها ومن سائر القرآن أنّ استقصاء ما هناك من الأسرار الإلهيّة غير ممكن لعدم نهايته، قال تعالى:

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ [سورة الكهف: ١٠٩].

وقال عليّ عليه السّلام:

لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب[١٣٧].

---

(١٣٧) قوله: لو شئت لأوقرت.

فمن لم يتفهّم معاني القرآن في تلاوته وسماعه ولو في أدنى المراتب لدخل في قوله تعالى:

﴿أولئك الّذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمىٰ أبصارهم * أفلا يتدبّرون القرآن أم علىٰ قلوب أقفالها﴾ [سورة محمّد: ۲۳ ـ ۲٤].

وتلك الأفعال هي الموانع الّتي سنذكرها.

السّادس، التخلّي عن موانع الفهم فإنّ أكثر النّاس منعوا من فهم القرآن لأسبابٍ وحجبٍ أسد لها الشيطان على قلوبهم فحجبت عن عجائب أسراره، قال صلّى الله عليه وآله:

لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت ومعاني القرآن (۱۳۸).

← قد مرّ الحديث في الجزء الأوّل من التفسير ص ۳٦۲ وذكرنا هناك أيضاً مصادره فراجع. وذكره الغزالي في (إحياء العلوم) ص ۲۸۲.

رواه ابن شهرآشوب في المناقب ج ۲، ص ٤۳، ورواه السيّد الجليل النجفي المرعشي قدّس سرّه في (ملحقات الإحقاق) ج ۷، ص ۵۹۳ إلى ۵۹۵ عن عدّة من علماء السنّة وكتبهم فراجع.

(۱۳۸) قوله: لولا أنّ الشياطين.

مرّ الحديث في الجزء الأوّل ص ۲۷۲ وذكرنا مصادره هناك في الرقم ٤۹ فراجع، ونذكر هنا بعض الآيات والأحاديث المناسبة:

الف ـ قوله تعالى:

﴿كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلّا إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون﴾ [سورة المطففين: ۱٤ ـ ۱۵].

ب ـ قوله تعالى:

﴿كلّا إنّ كتاب الأبرار لفي علّيّين * وما أدراك ما علّيون * كتاب مرقوم * يشهده المقرّبون﴾ [سورة المطففين: ۱۸ ـ ۲۱].

ج ـ قوله تعالى:

←

ومعاني القرآن وأسراره من جملة الملكوت.

والحجب المانعة:

أوّلها، الإشتغال بتحقيق الحروف وإخراجها من مخارجها، والتشدّق (الشدق) بها عن ملاحظة المعنى، وقيل: إنّ المتولّي لحفظ ذلك شيطان وكل بالقرائة ليصرف عن معاني كلام الله فلايزال يحملهم على ترديد الحرف، ويخيل (يحيل) إليهم أنّه لم يخرج من

← ﴿واتل عليهم نبأ الّذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشّيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه﴾ [سورة الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

د ـ قوله تعالى:

﴿كلّا لو تعلمون علم اليقين * لترونّ الجحيم * ثمّ لترونّها عين اليقين﴾ [سورة التكاثر: ٥ ـ ٧].

هـ ـ قوله تعالى:

﴿وكذلك نُريَ إبراهيم ملكوت السّموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ [سورة الأنعام: ٧٥].

ز ـ روى الكليني في الكافي ج ٢، ص ٦٣، الحديث ٢، باب حقيقة الايمان واليقين، باسناده عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: انّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم صلّى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب (في حديث آخر هو: حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري) في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله (ص): كيف أصبحت يافلان؟ قال: أصبحت يارسول الله موقناً، فعجب رسول الله (ص) من قوله وقال: إنّ لكلّ يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟ فقال: إنّ يقيني يارسول الله هو الّذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدّنيا وما فيها حتّى كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم وكأنّي أنظر إلى أهل النّار وهم فيها معذبون مصطرخون وكأنّي الآن أسمع زفير النّار، يدور في مسامعي، فقال رسول الله (ص) لأصحابه: هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان، ثمّ قال له: ألزم ما أنت عليه، فقال الشاب: ادع الله لي يارسول الله أن أرزق الشهادة معك، فدعا له رسول الله (ص) فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبيّ (ص) فاستشهد بعد تسعة نفرات وكان هو العاشر.

وراجع أيضاً في شرح الحديث مفاتيح الغيب (لمؤلّفه صدر المتألهين) ص ١٨٨ و ٢١٠.

مخرجه فيكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف، فمتى تنكشف له المعاني، وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبس.

وثانيها، أن يقلّد مذهباً سمعه، أو تفسيراً ظاهراً نقل إليه عن ابن عباس، أو مجاهد، أو غيرهما فيحمل على التعصّب له من غير علم فيصير نظره موقوفاً على مسموعه حتّى لو لاح له بعض الأسرار حمل عليه شيطان التقليد جهله، ولم يسوّغ له مخالفة آبائه ومعلّميه في ترك ماهو عليه من الإعتقاد، وإلى مثل هذا أشارت الصوفيّة بقولهم: العلم حجاب، وعنوا بالعلم العقائد الّتي استمرّ عليها أكثر الناس بالتعليم والتقليد، أو بمجرّد كلمات جدليّة حرّرها المتعصّبون للمذاهب، وألقوها إليهم لا العلم الحقيقيّ الّذي هو المشاهدة بأنوار البصيرة، ثمّ ذلك التقليد قد يكون باطلاً كمن يحمل «الاستواء على العرش» على ظاهره فان خطر له في القدّوس أنّه المقدّس عن كلّ مايجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من استقرار ذلك الخاطر في نفسه حتّى ينساق إلى كشف ثان وثالث، ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره، ويجعله وسوسة، وقد يكون حقّاً ويكون أيضاً مانعاً من الفهم؛ لأنّ الحقّ الّذي كلّف الخلق طلبه، له مراتب ودرجات وظاهر وباطن، فجمود الطبع على ظاهره يمنع من الوصول إلى الباطن.

فإن قلت: كيف يجوز أن يتجاوز الإنسان المسموع، وقد قال (ص):

من فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النّار (١٣٩).

---

(١٣٩) قوله: من فسّر القرآن.

ورد الحديث عن النبيّ الخاتم (ص) والأئمّة المعصومين عليهم السّلام بعبارات مختلفة، نذكرها ذيلاً لمزيد الاستفادة وأهميّة الموضوع، فهي:

الصدوق باسناده عن النبيّ (ص) قال: من فسّر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب. كمال الدّين باب ٢٤، الحديث ١، ص ٣٦٩.

روى الصدوق بإسناده عن الإمام السّجاد (ع) النبيّ الخاتم (ص) قال: من قال في القرآن بغير علم فليتبوّء مقعده من النار. التوحيد ص ٩٠، الحديث ٤، وسنن الترمذي ج ٥، ص ١٩٩، الحديث ٢٩٥٠ و٢٩٥١.

←

وفي النهي عن ذلك آثار كثيرة.

قلت: الجواب عنه من وجوه:

الأوّل، أنّه معارض بقوله صلّى الله عليه وآله:

إنّ للقرآن ظهراً وبطناً وحدّاً ومطلعاً (١٤٠).

وبقول علي عليه السّلام:

← قال الصادق (ع):

من فسّر القرآن برأيه فأصاب لم يوجر، وان اخطأ كان اثمه عليه. العياشي في تفسيره ج ١، ص ١٧، الحديث ٢.

قال الصادق (ع): من فسّر القرآن برأيه إن أصاب لم يوجر وإن أخطأ فهو أبعد من السّماء. المصدر الحديث ٤.

أيضاً عن الإمام الصادق (ع) قال: من فسّر برأيه آية من كتاب الله فقد كفر. المصدر الحديث ٥، وجامع الاصول لابن الأثير ج ٢، ص ٣، الحديث ٤٦٩.

عن النبيّ (ص) قال: من فسّر القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ. مجمع البيان ج ١، الفن الثالث من المقدمة ص ٨٠ ـ وكنز العمال ج ٢، ص ١٦، الحديث ٢٩٥٧، ومعالم التنزيل ج ١، ص ٢١.

عن النبيّ (ص) قال: من قال في القرآن بغير مايعلم جاء يوم القيامة مُلجَماً بلجام من نار. الترغيب والترهيب ج، ص ١٢١، الحديث ٣.

عن النبيّ (ص) قال: من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ. التاج ج ٤، ص ٣٦، وجامع الاصول الجزري ج ٢، ص ٣، الحديث ٤٦٩، وتفسير ابن كثير ج ١، ص ١٠.

وقد مرّ الحديث وبعض مصادره أيضاً في الجزء الأوّل من هذا التفسير ص ٢٣٢ ورقم التعليقة ٢٣ فراجع، وانظر أيضاً البحار ج ٩٢، ص ١٠٧ باب تفسير القرآن بالمرأى.

(١٤٠) قوله: إنّ للقرآن ظهراً وبطناً.

راجع الجزء الأوّل تعليقتنا الرقم ١٠ و١١ ص ٢٠٣، وبحار الأنوار ج ٩٢، ص ٧٨، باب ٨. وذكره أيضاً الغزالي في إحياء العلوم ج ١، ص ٨٩، و٢٨٩.

إلّا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن (١٤١).

ولو لم يكن سوى الترّجمة المنقولة فما فائدة ذلك الفهم.

الثاني، أنّه لو لم يكن غير المنقول لاشترط أن يكون مسموعاً من رسول الله صلّى الله عليه وآله، وذلك ممّا لايصادف إلّا في بعض القرآن، وأمّا ما يقوله ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من أنفسهم فينبغي أن لايقبل ويقال هو تفسير بالرأي.

الثالث، أنّ الصّحابة والمفسّرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات. فقالوا فيها أقاويل مختلفة لايمكن الجمع بينها، وسماع ذلك عن رسول الله صلّى الله عليه وآله محال فكيف يكون الكلّ مسموعاً.

الرابع، أنّه عليه السّلام دعا لابن عبّاس فقال:

اللّهم فقّهه في الدّين، وعلّمه التأويل (١٤٢).

فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل ومحفوظاً مثله فلا معنى لتخصيص ابن عباس بذلك.

الخامس، قوله تعالى:

﴿لَعَلِمَه الّذين يستنبطونه منهم﴾ [سورة النساء: ٨٣].

فأثبت للعلماء استنباطاً، ومعلوم أنّه وراء المسموع فإذن الواجب أن يحمل النّهي عن التفسير بالرأي على أحد معنيين:

أحدهما، أن يكون للإنسان في الشّيء رأي وله إليه ميل بطبعه فيتأوّل القرآن على وفق رأيه حتّى لو لم يكن له ذلك الميل لما خطر ذلك التأويل له، وسواء كان الرأي مقصداً صحيحاً أو غير صحيح، وذلك كمَن يدعوا إلى مجاهدة القلب القاسي، فيستدلّ على تصحيح غرضه من القرآن بقوله تعالى:

---

(١٤١) قوله: إلّا أن يؤتي الله عبداً.

قد مرّ الحديث والبحث حوله في تعليقتنا الرقم ١٣٥ فراجع.

(١٤٢) قوله: اللّهم فقّهه في الدّين.

راجع تعليقتنا الرقم ٩٢.

﴿إذهب إلى فرعون إنّه طغىٰ﴾ [سورة طه: ٢٤].

ويشير إلى أنّ قلبه هو المراد بفرعون كما يستعمله بعض الوعّاظ تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع.

الثاني، أن يتسرّع إلى تفسير القرآن بظاهر العربيّة من غير استظهار بالسّماع والنقل فيما يتعلّق بغرائب القرآن وما فيها من الألفاظ المبهمة وما يتعلّق به من الإختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير والمجاز، فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرّد فهم العربيّة كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسّر بالرأي، مثاله قوله تعالى:

﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرةً فظلموا بها﴾ [سورة الإسراء: ٥٩].

فالناظر إلى ظاهر العربيّة ربّما يظنّ أنّ المراد أنّ الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء، والمعنى: آية مبصرة، ثمّ لايدري أنّهم إذا ظلموا غيرهم، ومن ذلك المنقول المنقلب كقوله تعالى:

﴿وطور سينين﴾ [سورة التين: ٢].

أي وطور سيناً، وكذلك باقي أجزاء البلاغة، فكلّ مكتف في التفسير بظاهر العربيّة من غير استظهار بالنقل فهو مفسّر برأيه، فهذا هو المنهي عنه دون التفهّم لأسرار المعاني، وظاهر أنّ النقل لايكفي فيه، وإنّما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر صفاء عقولهم، وشدّة استعدادهم له وللطلب والفحص والتفهّم وملاحظة الأسرار والعبر ويكون لكلّ واحد منهم جدّ في الترقي إلى درجة منه بعد الأشتراك في الظّاهر، ومثاله ما فهم بعض العارفين من قوله صلّى الله عليه وآله في سجوده:

أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، (وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك)، وأعوذ بك من منك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما اثنيت على نفسك (١٤٣).

---

(١٤٣) قوله: أعوذ بعفوك من عقابك.

راجع في هذا تعليقتنا الرقم ٥٢ في الجزء الأوّل ص ٢٨١، وروى الكافي ج ٣، ←

وفوق مايقول القائلون، أنّه قيل له:

﴿وٱسجد وٱقترب﴾ [سورة العلق: ١٩].

فوجد القرب في السّجود فنظر إلى الصّفات فاستعاذ ببعضها من بعض، فانّ الرّضا والسّخط وصفان متضادّان ثمّ زاد قربه فاندرج القرب الأوّل فيه فرقي إلى الذّات، فقال: أعوذ بك منك، ثمّ زاد قربه بما استحيا به على سائر القرب فالتجأ إلى الثّناء، فأثنى بقوله:

لا أحصي ثناء عليك، ثمّ علم أنّ ذلك قصور، فقال: أنت كما أثنيت على نفسك، فهذه خواطر تسنح للعارفين، لايفهم من تفسير الظاهر وليس مناقضاً له، وإنّما هو استكمال لما تحته من الأسرار.

الثالث، من الموانع أن يكون مبتلى من الدّنيا بهوى مطاع فانّ ذلك سبب لظلمة القلب وكالصداء على المرآة فيمنع جليّة الحقّ أن يتجلّى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الأكثرون، وكلّما كانت الشّهوات أكثر تراكماً على القلب كان البعد عن أسرار الله أكثر، ولذلك قال صلّى الله عليه وآله:

الدّنيا والآخرة ضرّتان بقدر ماتقرب من إحديهما تبعد من الأخرى (١٤٤).

← ص ٣٢٤، الحديث ١٢ بإسناده عن الإمام الباقر أبي جعفر عليه السّلام قال:

كان رسول الله (ص) عند عايشة ذات ليلة فقام يتنفّل فاستيقظت عايشة فضربت بيدها فلم تجده فظنّت أنّه قد قام إلى جاريتها فقامت تطوف عليه فوطئت عنقه (ص) وهو ساجد باك يقول:

سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي، أبوء إليك بالنعم، واعترف لك بالذنب العظيم، عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفرلي إنّه لايغفر الذنب إلّا أنت، أعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ برحمتك من نقمتك، وأعوذ بك منك لا أبلغ مدحك والثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، أستغفرك وأتوب إليك.

وقريب منه رواه ابن ماجة في سننه ج ٢، ص ١٢٦٢، الحديث ٣٨٤١. وراجع أمالي الطوسي ص ١٥٨، ج ١، وانظر تعليقتنا الرقم ٢٧ أيضاً.

(١٤٤) قوله: الدّنيا والآخرة ضرّتان.

السابع، يخصّص نفسه بكلّ خطاب في القرآن من أمر أو نهي، أو وَعدٍ أو وعيدٍ، ويقدّر أنّه هو المقصود به، كذلك إن سمع قصص الأوّلين والأنبياء عليه السّلام علم أنّ السمر (١٤٥) غير مقصود، وإنّما المقصود الإعتبار، فلا يعتقد أنّ كلّ خطاب خاصّ في القرآن فالمراد به الخصوص فإنّ القرآن وسائر الخطابات الشرعيّة وارادة بإيّاكِ أعْنِي واسْمَعِي يا جارَةُ (١٤٦)، وهي كلّها نور وهدى ورحمة للعالمين، ولذلك أمر الحقّ تعالى

← الصدوق بإسناده عن الإمام زين العابدين عليه السّلام قال: والله ما الدّنيا والآخرة إلّا ككفتي الميزان فأيّهما رجع ذهب بالآخرة. الخصال ج ١، ص ٦٤، الحديث ٩٥.

تحف العقول ص ٢١٢ قال عليّ عليه السّلام: الدّنيا والآخرة عدوّان متعاديان وسبيلان مختلفان، من أحبّ ووالاها أبغض الآخرة وعاداها، مَثَلُها مثل المشرق والمغرب والماشي بينهما لايزداد مِن أحدهما قرباً إلّا ازداد من الآخر بُعداً.

في بحار الأنوار ج ٧٣، ص ١٢٢ نقلاً عن كتاب عيون الحكم لعليّ بن محمّد الواسطي، قال المسيح عليه السّلام: مثل الدّنيا والآخرة كمثل رجل له ضرّتان، إن أرضى احداهما أسخط الأخرى.

(١٤٥) قوله: السمر.

لسان العرب: سَمَرَ يسمُرُ سَمْراً وسُمُوراً: لم يَنَمْ. السَمَرُ: المُسامَرَة، وهو الحديث بالليل، والسُّمْرةُ: الأُحدوثة بالليل، ويقال: لا آتيك السَّمَرَ والقَمَرَ أي مادام النّاس يسمرون في ليلة قَمْراء.

الراغب في المفردات: السَّمَرُ سواد اللّيل ومنه قيل: لا آتيك السَّمَرَ والقَمَرَ، وقيل: للحديث باللّيل السَّمَرُ وسَمَرَ فلانٌ إذا تحدَّثَ ليلاً.

المنجد: قوم سَمَرٌ: متسامرون. الوسيط: سَمَرَ سمراً: تحدّث مع جليسه ليلاً.

(١٤٦) قوله: إيّاكَ أعْنِي واسْمَعِي ياجارَةُ.

مَثَل يضرب: لِمَن يتكلّم بكلام ويريد شيئاً آخر ويقال:

لِمَن يتكلّم وألقى الكلام إلى شخص والمخاطب في الحقيقة غير ذلك الشخص.

قال القميّ في تفسيره في سورة القصص في آية ٨٨ ﴿ولا تدع مع الله إلها آخر﴾: المخاطبة للنبيّ والمعنى للنّاس وهو قول الصادق (ع): إنّ الله بعث نبيّه بإيّاك أعني واسمعي ياجارة. ج ٢، ص ١٤٧.

←

الكافّة بشكر نعمة الكتاب فقال:

﴿واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾ [سورة البقرة: ٢٣١].

وإذ قدّر أنّه المقصود لم يتّخذ دراسة القرآن عملاً بل قرأه كقرائة العبد كتاب مولاه الّذي كتبه إليه ليتدبّره ويعمل بمقتضاه كما قال حكيم:

هذا القرآن رسائل (وسائل) أتتنا من قِبَل رَبِّنا عـزّ وجـلّ بـعهوده نتدبّرها في الصّلوات، ونقف عليها في الخلوات، ونُعِدّها (وننفذها) في الطاعات بالسّنن المتّبعات.

الثامن، التأثّر وهو أنّ يتأثّر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كلّ فهم حال ووَجد يتصف به عندما يوجّه نفسه في كلّ حالة إلى الجهة الّتي فهمها من خوف أو حزن أو رجاء أو غيره، فيستعدّ بذلك وينفعل ويحصل له التأثّر والخشية، ومهما قويت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه، فإنّ التضييق غالب على العارفين فلا يرى ذكر المغفرة والرّحمة إلّا مقروناً بشروط يقصر العارف

← أوّل من قال ذلك سهل بن مالك الفزاريّ، حين ما خرج ويريد النعمان، فامّ رحله، فلم يجده ولكن رأى أخته وكانت عقيلة قومها وأجمل أهل دهرها، فقصد خِطبتها ولم يدري كيف يعلنها، فجلس بفناء الخباء يوماً وهي تسمع كلامه فقال:

يا أختَ خيرِ البدوِ والحَضارَه ... كـيف تَـرَيْنَ في فَتًى فـزارَه

أصـبَحَ يَهْـوَى حُـرَّةً مِـعطارَه ... إيّـاكِ أعْـني واسْمَـعِي يـاجاره

وقيل أيضاً:

يانفس وَعْـظِي لكِ بـالإشارَة ... إيّـاكِ أعـني واسْمَـعِي يـاجاره

ونظيره في اللغة الفارسية:

در بتو ميگويم ديوار تو بشنو.

دختر بتو مى‌گويم عروس تو گوش كن.

سخن را روى با صاحبدلان است

سخن خود را كجا شنيدى آنجا كه سخن ديگران را

راجع: «مجمع الأمثال» للنيسابوري الميداني و«فرائد اللآل في مجمع الأمثال» للشيخ إبراهيم الطرابلسي، و«أمثال وحكم» دهخدا ج ١.

عن نيلها كقوله تعالى:

﴿وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدىٰ﴾ [سورة طه: ٨٢].

فإنّه قرن المغفرة بهذه الشروط الأربعة، وكذلك قوله:

﴿والعصر * إنّ الإنسان لفي خسر﴾ [سورة العصر: ١ ـ ٢].

السّورة ذُكر فيها أربعة شروط، وحيث أوجزه واقتصر، ذكر شرطاً واحداً جامعاً للشرائط، فقال تعالى:

﴿إنّ رحمت الله قريب من المحسنين﴾ [سورة الأعراف: ٥٦].

إذ كان الإحسان جامعاً لكلّ الشّرائط، وتأثر العبد بالتّلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوّة، فعند الوعيد يتضاءل من خشية الله، وعند الوعد يستبشر فرحاً بالله، وعند ذكر صفات الله وأسمائه يتطأطأ خضوعاً لجلاله، وعند ذكر الكفّار في حقّ الله ما يمتنع عليه كالصحابة والولد يغضّ صوته، وينكسر في باطنه حياءً من قبح أفعالهم، ويكبّر الله ويقدّسه عمّا يقول الظالمون، وعند ذكر الجنّة ينبعث بباطنه شوقاً إليها، وعند ذكر النّار ترعد فرائصه خوفاً منها ولمّا قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لإبن مسعود (١٤٧):

إقرأ عليّ، قال: فافتتحت سورة النساء، فلمّا بلغت:

---

(١٤٧) قوله: قال رسول الله (ص) لإبن مسعود.

أخرجه الغزالي في إحياء العلوم ج ١، ص ٢٨٠، وص ٢٨٦، ورواه أيضاً الشهيد الثاني في (أسرار الصّلاة) في وظائف القارئ في الرقم السادس ص ١٥٤.

ولفظ الحديث كما في الدّر المنثور في سورة النساء في تفسير الآية ٤١ فهو روىٰ عن البخاري والترمذي والنسائي وغيرهم، هكذا:

قال ابن مسعود: قال لي رسول الله (ص): «إقرأ عليّ، قلت: يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: نعم، إنّي أحبّ أن أسمعه من غيري، فقرأت سورة النساء حتّى أتيت على هذه الآية: ﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك علىٰ هـؤلاء شهيداً﴾ فقال حسبك الآن.. فإذا عيناه تذرفان».

﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك علىٰ هؤلاء شهيداً﴾ [سورة النساء: ٤١].

رأيت عيينه تَذْرفان من الدمع، فقال لي: حسبك الآن.

وذلك لإستغراق تلك الحالة بقلبه بالكلّيّة، وبالجملة فالقرآن إنّما يراد بهذه الأحوال واستجلابها إلى القلب والعمل بها، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت عليه (له) جلودكم، فإذا اختلفتم فلستم تقرؤونه [١٤٨].

وقال تعالى:

﴿الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ [سورة الأنفال: ٢].

وإلّا فالمؤونة في تحريك اللّسان خفيفة، قال بعضهم، (بعض القراء):

قرأت (القرآن) على شيخ لي، ثمّ رجعت اقرأ عليه ثانياً فانتهرني وقال: جعلتَ القراءة عملاً، إذهب فاقرأه على الله تعالى، وانظر ماذا يأمرك، وماذا يفهمك.

ومات رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم [١٤٩] عن عشرين ألفاً من الصّحابة لم يكن ليحفظ القرآن (منهم) غير ستّة، واختلف منهم في إثنين، وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين، وكان الّذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم.

---

(١٤٨) قوله: اقرأوا القرآن.

رواه الشهيد الثاني في أسرار الصّلاة ص ١٥٥ والغزالي ج ١، ص ٢٨٦، ورواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب ٦٠٦ باب اقرأوا القرآن الحديث ١٤٨٦، ج ٦، ص ٦٠٣ ـ ورواه الدارمي ج ٢، ص ٥٣٤ باب إذا اختلفتم بالقرآن الحديث ٣٣٥٩، وابن حنبل ج ٤، ص ٣١٣ وفي روايتهم هكذا: «اقرأوا القرآن ما ائْتَلَفَتْ قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه.

(١٤٩) قوله: ومات رسول الله (ص).

راجع إحياء العلوم ج ١، ص ٢٨٧.

كلّ ذلك من اشتغالهم (لاشتغالهم) بتفهّم معاني القرآن عن حفظه كلّه، وجاء إليه (ص) واحد ليعلّمه القرآن فانتهى إلى قوله تعالى:

﴿فمن يعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرّةٍ شرّاً يره﴾ [سورة الزلزلة: ٧ ـ ٨].

فقال: يكفيني هذا وانصرف، فقال رسول الله (ص) انصرف الرجل وهو فقيه (١٥٠).

فالعزيز مثل تلك الحالة الّتي يمنّ الله تعالى بها على القلب عقيب تفهّم الآية، وأمّا التالي باللسان المعرض عن العمل فجدير بأن يكون المراد بقوله تعالى:

﴿ومَن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً ونحشرُهُ يومَ القِيامَةِ أعمىٰ﴾ [سورة طه: ١٢٤].

وإنّما حظّ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظّ العقل تفسير المعاني، وحظّ القلب الإتّعاظ والتأثّر بالإنزجار والإئتمار.

التاسع، الترقي، وهو ان يوجّه قلبه وعقله إلى القبلة الحقيقيّة فيسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه.

ودرجات القراءة ثلاث:

---

(١٥٠) قوله: وجاء إليه (ص) واحد.

رواه الغزالي في احياء العلوم ج ١، ص ٢٨٧ والشهيد الثاني في أسرار ص ١٥٥، وفي المستدرك للحاكم ج ٢، ص ٥٣٢، بإسناده عن عبدالله بن عمرو قال:

أتى رجل رسول الله (ص) فقال: أقرئني يارسول الله، فقال له: اقرأ ثلاثاً من ذوات الراء، فقال الرجل: كبرت سنّي واشتدّ قلبي وغلظ لساني، قال: اقرأ ثلاثاً من ذوات حم فقال مثل مقالته الأولى، فقال اقرأ ثلاثاً من المسبحات فقال مثل مقالته، فقال الرجل يارسول الله اقرئني سورة جامعة، فأقرأه رسول الله (ص) إذا زلزلت حتّى فرغ منها، فقال الرّجل: والّذي بعثك بالحقّ لا أزيد عليه أبداً، ثمّ أدبر الرّجل، فقال رسول الله (ص): افلح الرويجل، ثمّ ذكر ما يقيمه.

أدناها ان يقدّر العبد كأنّه يقرأ على الله تعالى واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه، ومستمع منه فيكون حاله عند هذا التقدير السئوال والتضرّع والإبتهال.

الثانية، أن يشهد كأنّه يخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه، وهو في مقام الحياء والتعظيم لِمِنَن الله والإصغاء إليه والفهم عنه.

الثالثة، أن يرى في الكلام المتكلّم، وفي الكلمات الصّفات، ولا ينظر إلى قلبه ولا إلى قرائته ولا إلى التعلّق بالإنعام من حيث هو منعم عليه بل يقصر الهمّ على المتكلّم، ويوقف فكره عليه ويستغرق في مشاهدته، هذه درجة المقرّبين، عنها أخبر الصادق جعفر بن محمّد الباقر عليه السّلام فقال:

لقد تجلّى الله تعالى لخلقه في كلامه ولكنّهم لا يبصرون (١٥١).

وقال أيضاً وقد سألوه عن حالة لحقته في الصّلاة (١٥٢) حتّى خرّ مغشيّاً عليه، فلمّا أفاق

---

(١٥١) قوله: أخبر جعفر بن محمّد الصادق (ع).

قد مرّ الحديث في الجزء الأول ص ٢٠٧ وذكرناه في تعليقتنا الرقم ١١ فراجع وذكره الغزالي في احياء العلوم ج ١، ص ٢٨٧ والشهيد الثاني في أسرار الصّلاة ص ١٥٧.

(١٥٢) قوله: وقال أيضاً وقد سألوه عن حالة لحقته في الصّلاة.

رواه الغزالي في إحياء العلوم ج ١، ص ٢٨٧ والشهيد الثاني في أسرار الصّلاة ص ١٥٧ وفي (فلاح السائل) للسيّد ابن طاووس ص ١٠٧:

فقد روى انّ مولانا جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام كان يتلو القرآن في صلاته فغشي عليه فلما أفاق سئل ما الّذي أوجب ما انتهت حالك إليه؟ فقال: مامعناه: مازلت اكرّر آيات القرآن حتّى بلغت إلى حال كأنّي سمعت مشافهة ممّن أنزلها على المكاشفة والعيان،

وفيه أيضاً ص ١٠٤:

فقد روى محمّد بن يعقوب الكليني ما معناه: أنّ مولانا زين العابدين وهو صاحب المقام المكين، كان إذا قال: مالك يوم الدّين يكرّرها في قرائته حتّى يظنّ من يراه أنّه قد أشرف على مماته، وما لخوف منه يحذرون ولا الخنا عليهم ولكن هيبة هي ماهيا.

روى الكليني في الكافي ج ٢، ص ٦٠٢، الحديث ١٣ بإسناده عن الإمام زين العابدين

←

قيل له في ذلك فقال:

مازلت (اردّد) اكرّر هذه الآية على قلبي حتّى سمعت (سمعتها) من المتكلّم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته.

ففي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة، وبهذا الترقّي يكون العبد ممتثلاً لقوله تعالى:

﴿ففرّوا إلى الله﴾ [سورة الذاريات: ٥٠].

وبمشاهدة المتكلّم دون ماعداه يكون ممتثلاً لقوله تعالى:

﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر﴾ [سورة الذاريات: ٥١].

فإنّ رؤية غير الله معه شرك خفيّ لاتخلّص منه إلّا برؤيته وحده.

العاشر، التبرّي، والمراد به أن يبرأ من حوله وقوّته ولا يلتفت إلى نفسه بعين الرضا والتزكية (فإذا تلا آيات الوعد ومدح الصالحين حذف نفسه عن درجة الإعتبار وشهد فيها الموقنين والصّدّيقين، ويشوّق إلى أن يلحقه الله تعالى بهم)، وإذا تلا آيات المقت والذمّ للمقصّرين شهد نفسه هناك وقدّر أنّه المخاطب خوفاً وإشفاقاً.

قيل ليوسف بن أسباط: إذا قرأت القرآن بماذا تدعو، قال: بماذا أدعو أستغفر الله عن تقصيري سبعين مرّة، ومن رأى نفسه بصورة التقصير في القرائة كان ذلك سبب قربه، فإنّ من شهد البعد في القرب لطف له بالخوف حتّى يسوقه إلى درجة أعلى في القرب، ومن شهد القرب في البعد ردّه أمنه إلى درجة أدنى في البعد ممّا هو فيه، ومهما شاهد نفسه بعين الرّضا صار محجوباً بنفسه، فإذا جاوز حدّ الإلتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلّا الله في قرائته انكشف له الملكوت، والمكاشفات تابعة لحال المكاشف، فحيث يتلوا آيات الرجاء يغلب عليه استبشار وينكشف له صورة الجنّة فيشاهدها كأنّه يراها، وإن غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتّى يرى أنواع عذابها، وذلك لأنّ

← علي بن الحسين عليه السّلام قال: لو مات مَن بين المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي، وكان عليه السّلام إذا قرأ ﴿مالك يوم الدّين﴾ يكرّرها حتّى كاد أن يموت.

وروى مثله العياشي في تفسيره في سورة الحمد ص ٢٣.

كلام الله تعالى وارد باللطف والسهولة والشدّة والعسف والرّجاء والخوف وذلك بحسب أوصافه إذ منها الرّحمة واللطف والإنعام والبطش، فبحسب مشاهدة الكمالات والصفات يتقلّب في اختلاف الحالات، وبحسب كلّ حالة منها يستعدّ لنوع من المكاشفة مناسب لتلك الحالة إذ يستحيل أن يكون حال المستمع واحداً والمسموع مختلف، إذ فيه كلام رضي، وكلام غضب، وكلام إنعام، وكلام إنتقام، وكلام جبروت وتكبّر، وكلام جنّة وتعطّف.

فهذه هي وظائف التلاوة ولنرجع إلى المتن فنقول:

قوله: «وخلّف فيكم ماخلّفت الأنبياء في أممها إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح ولا علم قائم».

إشارة إلى وضع مايجب وضعه في الحكمة الإلهيّة على ألسنة الرسل عليهم السّلام من العبادات الشرعيّة والقوانين الكلّيّة الّتي بها يبقى ذكر الله سبحانه محفوظاً، واستعمال لفظ القائم هٰهنا استعارة حسنة للآثار الباقية عن الأنبياء الّتي يهتدي بها الأوصياء والأولياء الّذين يرجع إليهم الخلق.

قوله: «كتاب ربّكم»، عطف بيان لما في قوله: «ما خلّفت الأنبياء»، ولا ينبغي أن يفهم من «ما» شخص الكتاب حتّى يكون ما أتى به محمد (ص) من الكتاب هو عين ما أتت به الأنبياء السّابقون عليهم السّلام وشخصه فإنّ ذلك محال، بل المراد «بما» نوع ما خلّفت الأنبياء في أممها من الحقّ، وما جاء به محمّد (ص) شخص من أشخاص ذلك النوع، وبيان ذلك أنّ القوانين الكلّيّة الّتي أشتركت في الإتيان بها جميع الأنبياء عليهم السّلام من التوحيد والتنزيه لله تعالى وأحوال البعث والقيامة وسائر القواعد الكلّيّة الّتي بها يكون النظام الكلّي للعالم كتحريم الكذب والظلم والقتل والزنا وغير ذلك ممّا لم يخالف فيه نبيّ نبيّاً بمنزلة بماهيّة واحدة كلّيّة وجدت في أشخاص، وكما تعرض لبعض أشخاص الماهيّة عوارض لاتكون للشخص الآخر وبها يكون اختلاف بين الأشخاص بحسب الموادّ الّتي نشأت منها الصّور الشخصيّة، كذلك الكتب المنزلة على ألسنة الأنبياء عليهم السّلام بمنزلة أشخاص اشتملت على ماهيّة واحدة تختلف بحسب الزيادات والعوارض على تلك الماهيّة بحسب اختلاف الأمم

والأوقات المشتملة على المصالح المختلفة باختلافها.

قوله: «مبيّناً»، منصوب على الحال والعامل خلّف وذو الحال الفاعل وهو ضمير النبيّ صلّى الله عليه وآله.

قوله: «حلاله وحرامه، وفضائله وفرائضه»، إشارة إلى الأحكام الخمسة الشرعيّة الّتي يدور عليها علم الفقه، وهي الوجوب والندب والحظر والكراهة والإباحة، وعبّر بالحلال عن المباح والمكروه، وبالحرام عن المحظور، وبالفضائل عن المندوب، وبالفرائض عن الواجب، وبالنسخ عن رفع الحكم الثابت بالنصّ المتقدّم بحكم آخر مثله. فالناسخ هو الحكم الرافع كقوله:

﴿اقتلوا المشركين﴾ [سورة التوبة: ٥].

والمنسوخ هو الحكم المرفوع، كقوله:

﴿لا إكراه في الدّين﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦].

وبالرخص عمّا أذن في فعله مع قيام السبب المحرّم له لضرورة أو غيرها كقوله:

﴿فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ﴾ [سورة البقرة: ١٧٣].

وبالعزائم عمّا كان من الأحكام الشرعيّة جارياً على وفق سببه الشرعي لقوله:

﴿فاعلم أنّه لا إله إلّا الله﴾ [سورة محمّد: ١٩].

وبالعام ههنا عن اللفظ المستغرق لجميع مايصلح له بحسب وضع واحد، كقوله تعالى:

﴿والله بكلّ شيء عليم﴾ [سورة النساء: ١٧٦].

وكقوله:

﴿ولله على النّاس حجّ البيت﴾.

وبالخاصّ عمّا لم يتناول الجميع بالنسبة إلى ما يتناوله كقوله:

﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ [سورة آل عمران: ٩٧].

والخاصّ المطلق هو مايمنع تصوّر مفهومه من وقوع الشركة فيه كما عرفته، والعبر

جمع عبرة وهي الإعتبار واشتقاقها من العبور وهو انتقال الجسم من موضع إلى آخر، ولما كان الذّهن ينتقل من الشيء إلى غيره حسن إطلاق العبرة عليه، وأكثر مايختصّ إطلاق العبرة بإنتقال ذهن الإنسان من المصائب الواقعة بالغير أو (الأمور) المكروهة له إلى نفسه فيقدّرها كأنّها نازلة به فيحصل له بسبب ذلك انزعاج عن الدنيا وانتقال الذهن إلى ماورائها من أمر المعاد والرجوع إلى بارئه ويسمّى ذلك عبرة، وكذلك من المصائب اللاحقة له في نفسه المذكّرة له بجناب العزّة والملفتة له بتكرارها عن دار البلوى والمحن، فينتقل ذهنه بسببها إلى أنّ الدنيا دار البوار وأنّ الآخرة هي دار القرار، وذلك كقصّة أصحاب الفيل، وكقوله:

﴿فقال أنا ربّكم الأعلىٰ * فأخذه ٱلله نكالَ الآخرة والأُولىٰ * إنّ في ذلك لعبرة لِمَن يخشىٰ﴾ [سورة النازعات: ٢٦].

وقوله تعالى:

﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [سورة الذاريات: ٢١].

وإن كان قد تستعمل العبرة في كلّ مايفيد إعتباراً من طرف الإحسان أيضاً، كقوله تعالى:

﴿وإنّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم ممّا في بطونها﴾ [سورة المؤمنون: ٢١].

وكقوله تعالى:

﴿فئة تقاتل في سبيل ٱلله وأخرىٰ كافرةٌ يرونهم مثلَيهم رأي ٱلعين والله يؤيّدُ بنصره من يشاءُ إنّ في ذلك لعبرةً لأُولي ٱلأبصار﴾ [سورة آل عمران: ١٣].

فجعل سبحانه نصر المؤمنين على قلّتهم، وخذلان المشركين على كثرتهم، ومشاهدة المسلمين لكونهم مثليهم محلاً مثليهم محلاً للعبرة، إذ يحصل بذلك انتقال الذّهن من نعمه إلى أنّه الإلٰه المطلق المستحقّ للعبادة، المتفرّد بالقدرة على مايشاء أهل الرحمة والجود وإفاضة تمام الوجود.

وأمّا الأمثال فظاهرة كقوله تعالى:

﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لايقدر علىٰ شيء﴾ [سورة النحل: ٧٥].

وكقوله:

﴿مثلهم كمثل الّذي استوقد ناراً﴾ [سورة البقرة: ١٧].

ونحوه.

وأراد بالمرسل الألفاظ المطلقة المهملة وهي الألفاظ الّتي لاتمنع نفس مفهوماتها وقوع الشركة فيها لكنّها لم تُبيِّن فيها كميّة الحكم ومقداره، ولم تقيّد بقيد (يفيد) العموم ولا الخصوص وهي محتملة لهما كأسماء المجموع في النكرات، كقوله تعالىٰ:

﴿وعلى الأعراف رجال﴾ [سورة الأعراف: ٤٦].

وكان لمفرد المعرّف باللام أو المنكّر، كقوله:

﴿والعصر * إنّ الإنسان لفي خُسر﴾ [سورة العصر: ١ ـ ٢].

وكقوله:

﴿إن جاءكم فاسق﴾ [سورة الحجرات: ٦].

وقوله:

﴿فتحرير رقبة﴾ [سورة النساء: ٩٢].

فإنّ كلّ هذه الألفاظ يراد بها الطبيعة دون الكلّ أو البعض إلّا بدليل منفصل، والفرق بينها وبين العامّ، أنّ لكلّ شيء ماهيّة هو بها ماهو، وهي مغايرة لكلّ ماعداها فإنّ مفهوم الإنسان مثلاً ليس إلّا أنّه الإنسان، فأمّا أنّه واحد أو كثير، أو ليس أحدهما فمفهوم آخر مغاير لما هيّته.

إذا عرفت ذلك فاللفظ الدالّ على الحقيقة من حيث هي من غير دلالة على شيء آخر معها هو اللفظ المطلق والمهمل، والدالّ معها على قيد العموم بحيث يفهم منه تعدّد الماهيّة وتكثّرها في جميع مواردها فهو اللفظ العامّ، أو في بعض مواردها وهو الخاصّ، وإن كان العموم والخصوص للمعاني، وأراد بالحدود المقيّد، كقوله تعالى في الكفّارة في موضع آخر:

﴿فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ﴾ [سورة النساء: ٩٢].

وأمّا المحكم والمتشابه والمجمل والمبيّن فقد سبق بيانها في المقدّمة مثال المحكم قوله تعالى:

﴿قُل هوَ الله أحد﴾ [سورة التوحيد: ١].

مثال المتشابه قوله:

﴿الرّحمٰن على ٱلعرش ٱستوىٰ﴾ [سورة طه: ٥].

مثال المجمل، قوله تعالى:

﴿إلّا ما يتلىٰ عليكُم﴾ [سورة المائدة: ١].

وقوله:

﴿وأحلّ لكم ماوراء ذٰلكُم﴾ [سورة النساء: ٢٤].

مثال المبيّن، قوله بعد ذلك:

﴿أن تبتغُوا بأموالكُم﴾ [سورة النساء: ٢٤].

والتفسير هو التبيين، والغوامض دقائق المسائل، وإنّما أضاف هذه المعاني كلّها إلى الكتاب لإشتماله عليها وكونه مبدءاً لها، ولمّا كانت محتاجة إلى البيان كان الرّسول (ص) هو المبيّن لها بسنّته الكريمة.

قوله: «بَيْنَ مأخوذٍ ميثاقُ عِلمه، وموسَّعٍ علىٰ العِباد في جَهله» إلى آخره.

الضمائر تعود إلى الأحكام المذكورة المشتمل عليها الكتاب العزيز وذكر عليه السّلام منها أنواعاً:

أحدها، مايجب تعلّمه وغير موسّع للخلق في جهله كوحدانيّة الصانع وأمر المعاد والعبادات الخمس وشرائطها.

وثانيها، ما لا يتعيّن على كافّة الخلق كافّة الخلق العلم به، بل يعذّر بعضهم في الجهل ويوسّع لهم في تركه كالآيات المتشابهات، وكأوائل السور كقوله تعالى: كهيعص، وحمعسق، ونحوها.

وثالثها، ماهو مثبت في الكتاب فرضه معلوم في السنّة نسخه، وذلك كقوله تعالى:

﴿واللّاتي يأتينَ الفاحشةَ من نسائكم فاستشهدوا عليهنّ أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهنّ في البيوت حتّى يتوفّاهنّ الموت أو يجعل الله لهنّ سبيلاً * واللّذان يأتينها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرِضوا عنهما﴾ [سورة النساء: ١٥ ـ ١٦].

فكانت الثيّب إذا زنت في بدو الإسلام تمسّك في البيوت إلى المهات، والبكر تؤذى بالكلام ونحوه بمقتضى هاتين الآيتين، ثمّ نسخ ذلك في حقّ الثيّب بالرجم، وفي حقّ البكر بالجلد والتعذيب بحكم السنّة (١٥٣).

---

(١٥٣) قوله: ثمّ نسخ ذلك.

الفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، ويشتدّ قبحه من الذنوب والمعاصي، والفحش في اللّغة بمعنى الزّيادة والكثرة، والتعدّي عمّا يُعتاد، فكلّ شيء جاوز قدره وحدّه فهو فاحش.

تطلق الفاحشة في القرآن على الزنا كما في قوله تعالى:

﴿ولا تقربوا الزنى إنّه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ [سورة الإسراء: ٣٢].

وقوله تعالى:

﴿ولا تعضلوهنّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنّ إلّا أن يأتين بفاحشة مبيّنة وعاشروهنّ بالمعروف﴾ [سورة النساء: ١٩].

وتطلق على اللواط أيضاً كما في قوله تعالى:

﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتاتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ [سورة النمل: ٥٤].

فالفاحشة تعمّ السحق والزنا واللواط.

ومفهوم ﴿ونساءكم﴾ في الآية الكريمة غير ما يفهم من قولنا: من أزواجكم فالنساء غير الأزواج وإضافة «النساء» بـ«كم» لاتدلّ على اختصاصها بالأزواج كما تشهد عليه الآيات التالية:

﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ [سورة آل عمران: ٦١].

﴿قال سَنُقَتِّلُ أبناءهُم ونستحيي نساءهُم﴾ [سورة الأعراف: ١٢٧].

﴿قالوا اقتُلوا أبناءَ الّذين آمنوا معه واستحيُوا نساءهُم﴾ [سورة غافر: ٢٥].

﴿يُذبِّحون أبناءكُم ويستحيونَ نساءكُم﴾ [سورة البقرة: ٤٩].

←

→ فليس المقصود في الآية المذكورة خصوص الأزواج وهذا ظاهر.

فظهور الآية ـ مع غض النظر عن الأحاديث والأقوال والفتاوي ـ في أنّ «اللّاتي» شاملة للمحصنة وغير المحصنة، والثيّب وغيرها وذات البعل والباكرة، فتختصّ الآية الأولى للنسوة، وأمّا الآية الثانية فتشمل الرجال فقط، فهي ظاهرة في اللواط وإن لايبعد شمولها للزنا أيضاً.

فنقول: إنّ الآيتين المذكورتين تبيّنان وظيفة المسلمين في قبال الّذين ارتكبوا الفاحشة، وهذا هو الّذي حكمت به الآيتين وهذا الحكم باق مستمرّ إلى يوم القيامة لأنّه من ظهور الآيتين، والظهور حجّة ما لم يكن هناك دليلاً على خلافه، وليعلم أنّ هذا الحكم من باب دفع المنكر ومنع المرتكب، كما روى الطوسي بسند صحيح عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: جاء رجل إلى رسول الله (ص) فقال: إنّ أُمّي لاتدفع يد لامس، فقال: فاحبسها، قال: قد فعلت، قال: فامنع مَن يدخل عليها، قال: قد فعلت، قال: قيّدها فإنك لا تبرّها بشيء أفضل من أن تمنعها من محارم الله عزّ وجلّ. الوسائل ج ١٨، ص ٤١٤ باب ٤٨ من أبواب حدّ الزنا.

وأمّا حكم القاضي ـ بعد أن سُلّط عليهم ـ بالحد يعني الجلد أو القتل أو الرجم، أمر آخر أجنبيّ عن هذا الحكم المستفاد من الآيتين ولا تداخل بينهما.

فالمخاطب بهذا الحكم يعني وجوب إمساك المرأة الّتي ارتكبت الفاحشة في البيت حتّى يفرّج الله عنها، وإيذاء الرجل المرتكب للفاحشة حتّى يتوب، المسلمون مطلقاً يعني من يتعلّق بالمرتكب.

فحكم الحدّ يجب أن يُجري بيد الحاكم والقاضي، وأمّا هذا الحكم فيجب أن يعمل به الزوج، أو الوليّ أو الأسرة قبل أن يطلع القاضي أو الحاكم على ارتكاب الشخص العاصي الفاحشة.

وأمّا السّبيل فيحصل إمّا بالتوبة النصوح الصادقة الّتي يؤمَّن معها من ارتكاب الفاحشة مرّة ثانية، وإمّا بخروج المرأة عن قابليّة ارتكاب الفاحشة لكبر سنّها ونحوه، وإمّا بغير ذلك من الأسباب المؤمِّنة من الإرتكاب.

هذا مايقتضيه ظهور الآيتين، فالآيتان اجنبيّتان عن موضوع النسخ تماماً، وباقي الأبحاث المرتبطة موكول إلى الفقه.

←

. . . .

→ وأمّا ما ورد من الرّوايات في أنّ الآية منسوخة فهي ضعاف لايعتمد عليها فهي مايلي:

الف ـ روى الكليني محمّد بن يعقوب، عن علي بن محمّد، عن بعض أصحابه، عن آدم ابن إسحاق، عن عبدالرزّاق بن مهران، عن الحسين بن ميمون، عن محمّد بن سالم، عن أبي جعفر عليه السّلام قال: ـ الحديث طويل ـ (منه في تفسير السبيل) قال: وسورة النّور أنزلت بعد سورة النساء، وتصديق ذلك أنّ الله عزّ وجلّ أنزل عليه في سورة النساء:

﴿واللّاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهنّ أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهنّ في البيوت حتّىٰ يتوفاهنّ الموت أو يجعل الله لهنّ سبيلاً﴾. والسبيل الّذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿سورةٌ أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيّنات لعلّكم تذكّرون * الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كُنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ [سورة النور: ١ و٢] اصول الكافي ج ٢، ص ٣٣.

وفي سنده مع ارساله مجاهيل فلا يمكن الاعتماد عليه.

ب ـ ما رواه العياشي في تفسيره مرسلاً، ج ١، ص ٢٢٧ في تفسير الآية الحديث ٦٠ و٦١ عن جابر، عن أبي أبي جعفر (ع) في قول الله تعالى: ﴿واللّاتي يأتين الفاحشة من نسائكم إلى سبيلاً﴾ قال: منسوخة والسبيل هو الحدود.

وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السّلام، قال: سألته عن هذه الآية ﴿واللّاتي يأتين الفاحشة من نسائكم﴾ إلى ﴿سبيلاً﴾ [قال]: هذه منسوخة، قال: قلت: كيف كانت؟ قال: المرأة إذا فجرت فقام عليها أربعة شهود، أدخلت بيتاً ولم تحدث ولم تكلّم ولم تجالس، وأوتيت فيه بطعامها وشرابها حتّى تموت، قلت: فقوله: ﴿أو يجعل الله لهنّ سبيلاً﴾ قال: السبيل الجلد والرجم والإمساك في البيوت، قال: قلت: قوله: ﴿واللّذان يأتيانها منكم﴾؟ قال: يعني البكر إذا أتت الفاحشة الّتي أتتها هذه الثيّب، ﴿فآذوها﴾ قال تحبس، ﴿فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إنّ الله كان توّاباً رحيماً﴾.

وهذان الحديثان أيضاً مرسلان كما هو ظاهر.

ج ـ ما رواه أبو عبدالله محمّد بن إبراهيم بن جعفر النعماني، عن أحمد بن محمّد بن سعيد ابن عقدة، عن أحمد بن يوسف بن يعقوب الجعفي، عن إسماعيل بن مهران، عن الحسن بن علي بن أبي حمزة، عن أبيه، عن إسماعيل بن جابر قال: سمعت أبا عبدالله جعفر بن محمّد

←

ورابعها، ما هو بعكس ذلك أي مثبت في السنّة: أخذه مأذون في الكتاب في تركه، وذلك كالتوجّه إلى بيت المقدّس في ابتداء الإسلام، فانّه كان ثابتاً في السنّة ثمّ نسخ بقوله تعالىٰ:

﴿فلنُوَلّينّك قبلةً ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره﴾ [سورة البقرة: ١٤٤].

وكثبوت صلاة الخوف في القرآن حال القتال الرافع لجواز تأخيرها في السنّة إلى انجلاء القتال.

وخامسها، مايجب لوقته ويزول في مستقبله كالحجّ الواجب في العمر مرّة، وكالنذور المقيّدة بوقت معيّن وأمثالها، فإنّ وجوبها تابع لوقتها المعيّن ولا يتكرّر بتكرّر أمثاله.

قوله: «ومباين بين محارمه»، عطف على المجرورات السابقة والياء المفتوحة، وفي معنى الكلام وتقديره لطف، فإنّ المحارم لمّا كانت هي محالّ الحكم المسمّى بالحرمة صار المعنى: وبين حكم مباين بين محالّة هو الحرمة.

وقوله: «من كبير أوعد عليه نيرانيه، أو صغير أرصد له غفرانه».

بيان لتلك المحالّ وإشارة إلى تفاوتها بالشدّة والضعف في كونها مبعّدة عن رحمة الله على سبيل الجملة، فالأوّل كالقتل في قوله تعالى:

← الصادق عليه السّلام يقول: .... فكانت من شريعتهم في الجاهليّة أنّ المرأة إذا زنت حُبست في بيت وأُقيم بأودها حتّى يأتي الموت، وإذا زنى الرّجل نفوه عن مجالسهم وشتموه وآذوه وعيّروه ولم يكونوا يعرفون غير هذا.

قال الله تعالى في أوّل الإسلام: ﴿واللّاتي يأتين الفاحشة﴾ ـ الآيتين.

فلمّا كثر المسلمون، وقوي الإسلام، واستوحشوا أمور الجاهليّة، أنزل الله تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة﴾ إلى آخر الآية، فنسخت هذه الآية آية الحبس والأذى. البحار ج ٩٣، ص ١.

في سند هذه الرواية أيضاً مجهول وضعيف ومردّد، فلا يعتمد عليها.

والله العالم.

﴿ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤُه جهنّم﴾ [سورة النساء: ٩٣].

وكذلك ساير الكباير من الظّلم والزّنا وغيرها، والثّاني، قال الفقهاء كالتطفيف بالحبّة، وسرقة باقة من بصل ونحو ذلك، وإرصاد الغفران بإزاء هذه وأمثالها في الكتاب العزيز كقوله تعالى:

﴿إنّ ربّك لذو مغفرة﴾ [سورة فصّلت: ٤٣].

للناس على ظلمهم.

وساير آيات الوعد بالمغفرة، فإنّها إن كانت عامّة في كلّ الذنوب فالصغاير داخلة بطريق الأولى وإلّا كانت محمولة على الصغاير، وسرّ أولويّتها بالغفران أنّها لايكاد تكسب النّفس ملكة الإفراط والجور إلّا عن بعد بعيد وتكرار طويل بخلاف الكبائر، فإنّ الإقدام عليها في غالب الأحوال لايقع إلّا عن نفس مستعدّة للشرّ، بعيدة عن رحمة الله، وبالله العصمة التوفيق.

الفصل الخامس: في الحجّ وترتيبه وأركانه.

وهذا الفصل له طول وعرض، وهذا المقام غير محتاج إليه لأن غرضنا من نقل هذه الخطبة مع شرحها كما سبق ذكره، كان بيان إيجاد العالم وإيجاد آدم من الأسفل إلى الأعلى وبالعكس، وبيان الملائكة والجنّ وكيفيّة السجود والتّرك وغير ذلك، ثمّ بيان الكتاب القرآني وما اشتمل عليه من العلوم والأسرار، إستشهاداً وإعضاداً بقوله عليه السّلام، وقد حصل.

وأمّا الحجّ وأقسامه وترتيبه، فسيجئ في موضعه من المقدّمة السادسة، ونفس التأويل أيضاً إن شاء الله.

هذا آخر بحث العالم المعبّر عنه بالآفاق وما يتعلّق به من كلامنا وكلام غيرنا من الأئمّة والمشايخ رضوان الله عليهم أجمعين، تارةً من الأعلى إلى الأسفل وتارةً من الأسفل إلى الأعلى، مضافاً إلى بحث آدم وإبليس والملك والجنّ والجنّة والنّار وغير ذلك من الأسرار، وحيث فرغنا من هذا بهذه الوجوه المختلفة والإستشهادات المتنوّعة، نقطع هذا البحث عليه ونشرع في غيره وهو بحث الحروف وتطبيقها بالعالم إجمالاً وتفصيلاً كما شرطناه في أوّل الكتاب، وخصّصنا به المقدّمة الثالثة وهي هذه:

المقدّمة الثالثة

في بيان الحروف الآفاقيّة الإلهيّة وتطبيقها بالحروف القرآنيّة مطابقاً للحروف الأنفسيّة الإنسانيّة

إعلم، أنّ هذه المقدّمة مشتملة على بيان حروف الله الآفاقيّة وتطبيقها بحروف الله القرآنية، وبيان أنّ العالم على سبيل الإجمال واقع على ترتيبها، وبل الوجود مطلقا مع مظاهره العلويّة والسفليّة المعبّر عنها بالكتب والصحف تارةً، وبالآيات والكلمات والحرف أخرى، والحقّ أنّه إذا ثبت أنّ الوجود كلّه كتاب الله الكبير المشتمل على حروفه وكلماته وآياته، لم يكن هذا البحث ضرورياً لأنّه يفهم منه المقصود. لكن لمّا تقرّر في الفهرست أن نبيّنه على سبيل التفصيل دون الإجمال، صار ضرورياً، ومعلوم أنّ فائدة التفصيل أعظم من فائدة الإجمال، وعليه تقديم بحث الحروف على بحث الكلمات والآيات، وهي أنّ الكلمات والآيات مركّبان من الحروف، وتقديم البسائط على المركّبات أمر ضروريّ كتقديم أجزاء الكلّ على الكلّ، وهذا ترتيب طبيعيّ وقانون عقلي لا يجوز خلافه.

وإذا عرفت هذا،

(في أنّ حروف العالم عبارة عن الحقايق البسيطة من الأعيان)
(في علم الحقّ سبحانه)

فاعلم، أنّ حروف العالم المعبّر عنه بالكتاب الكبير الآفاقي عبارة عن الحقايق البسيطة من الأعيان والماهيّات الثابتة في علم الحقّ أزلاً وأبداً المتقدّمة على المركبات،

والمشخّصات المعبّرة عنها بالكلمات والآيات بالذّات والشّرف دون الزّمان والمكان ويسمّيها العارف الشّئون الذّاتيّة والكمالات الوجوديّة.

(في أنّه تعالىٰ كلّ يوم في شأن) (١٤٥)

المشار إليها في قوله تعالى:

﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ [سورة الرّحمٰن: ٢٩].

ومعناه، أي كلّ يوم من أيّام الألوهيّة أو الرّبوبية أو الزمانيّة المقدرة من نطقة إلى نقطة هو في شأن من إظهار تلك الحروف الوجوديّة والآيات والكلمات المركبة منها،

---

(١٥٤) قوله تعالىٰ: كلّ يوم هو في شأن.

قال البغوي في «معالم التنزيل» في تفسير الآية ج ٥، ص ٢٧٤:

قال مقاتل: نزلت في اليهود حين قالوا: إنّ الله لا يقضي يوم السبت شيئاً.

وقال مثله الطبرسي في مجمع البيان، في ذيل نفس الآية ج ٩، ص ٣٠٦.

قال الشيخ المفيد (ره) في «الارشاد» ص ٢١٨:

فروى عن عن الفرزدق أنّه قال: حججت بأمّي في سنّة ستّين، فبينا أنا أسوق بعيرها حين دخلت الحرم إذ لقيت الحسين (ع) خارجاً من مكّة، معه أسيافه وتراسه، فقلت: لِمَن هذا القطار؟ فقيل: للحسين بن عليّ (ع) فأتيته فسلمت عليه، وقلت له أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحبّ بأبي وأمّي يا ابن رسول الله ما أعجلك عن الحجّ؟ قال: لولم أُعجل لأخذت، ثمّ قال لي: من أنت؟ قلت: رجل من العرب، فلا والله مافتّشني عن أكثر من ذلك.

ثمّ قال لي: أخبرني عن النّاس خلفك؟ فقلت: الخبير سألت، قلوب النّاس معك وأسيافهم عليك، والقضاء ينزل من السّماء والله يفعل مايشاء، قال: «صدقت لله الأمر (من قبل ومن بعد)، وكلّ يوم (ربّنا) هو في شأن،إن نزل القضاء بما نحبّ ونحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء، فلم يبعد من كان الحقّ نيته، والتقوى سيرته. عنه البحار ج ٤٤، ص ٣٦٥.

راجع أيضاً «كامل ابن أثير» ج ٤، ص ٤٠.

وهذه الآية نزلت في معرض أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال فرغ الله تعالى من أربع، من الخَلْقَ والخُلُق، والرزق والأجل، فقالت اليهود فالآن ليس له شغل، وهذا أمر بالتعطيل، وإعتقاد فاسد عند التحقيق، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله:

نعم له شغل من غير اشتغال به وهو إيصال ما ثبت في القضاء إلى القدر. فنزل جبرئيل عليه السّلام بقوله تعالى:

﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ [سورة الرّحمٰن: ٢٩].

وشأنه ماذكرناه، وهو إيصال القضاء الّذي هو الإجمال إلى القدر الّذي هو التفصيل، لقوله أيضاً:

﴿يدبّر الأمر من السّماء إلى الأرض﴾ [سورة السجدة: ٥].

أي من العلويّات إلى السّفليّات، ومن الرّوحانيّات إلى الجسمانيّات، أو من الملكوت إلى الملك، أو من الغيب إلى الشهادة، فإنّ الكلّ واحد كما قيل:

العين واحدة والحكم مختلف   وذاك سرّ لأهل العلم ينكشف

فافهم جداً فإنّه دقيق.

وإلى الشؤون المذكورة أشار القوم في اصطلاحهم بقولهم:

الشؤون الذاتيّة اعتبار نقوش الأعيان والحقايق في الذّات الأحديّة كالشجرة وأغصانها وأوراقها وأزهارها وثمارها في النّواة مثلاً وهي الّتي تظهر في الحضرة الواحديّة وتنفصل في الحضرة الأحديّة، وقسّموها أيضاً أقساماً وجعلوا هذا القسم من الحروف العاليات والشئون الذاتيّات، لقولهم:

الحروف العاليات هي الحقايق الكامنة في ذاته المقدّسة، كالشجرة في النواة.

ومعلوم أنّ الذّات الأحديّة أعلى العاليات وأعظم الموجودات وأشرفها وبل موجودها ومنشئها، وإلى هذه الحروف وثبوتها في الحضرة العلميّة، والعوالم الغيبيّة المعبّرة عنها بالذّات الأحديّة، أشار العارف نظماً وقال:

كـنّا حـروفاً عـالياتٍ لم نَـقلِ
مـتعلّقاتٍ في ذري أعـلَى القُـلل
أنـا أنت فـيه ونَحـن أنتَ وأنت هـو
والكلّ في هو هو فَسل عمّن وَصل (١٥٥)

وقد سبقت هذه في الخطبة للكتاب وغيرها من المواضع، وما اتّفق لها شرح ولا بسط، وهذا الموضع أنسب من كلّ المواضع، لأنّه مخصوص ببحث الحروف، وحيث أن شرحها يحتاج إلى مقدّمة كلمة، تقدّم أوّلاً تلك المقدّمة ثمّ نشرع فيها.

فنقول:

(في أنّ الوجود من حيث هو وجود واحد من جميع الجهات)

إعلم، أنّ أصول جميع المحققين من أرباب التوحيد كما سبق ذكرها غير مرّة، وهي أنّ الوجود من حيث هو وجود، واحد من جميع الجهات، وليس فيه تكثّر بوجه من الوجوه، وذلك الوجود هو الحقّ تعالى جلّ ذكره وليس لغيره وجود أصلاً، لا ذهناً ولا خارجاً، وقد أثبتوا هذا بالبراهين العقليّة والدّلائل القطعيّة بعد أن شاهدوه بعين البصيرة كشفاً وذوقاً، وهذا الوجود نظراً إلى إطلاقه ووحدته، وتجرّده وتنزّهه عن التقيّد والتعيّن سمّوه بالمطلق، ونظراً إلى تنزّله في هذه المراتب المذكورة وتقيّده بصور المظاهر المختلفة سمّوه بالمقيّد ومع اسقاط هذين القيدين أي الإطلاق والتقييد سمّوه بهو هو، لأنّه من حيث هو هو لا مطلق ولا مقيّد، لأنّ الإطلاق بالنّسبة إليه يوهم أنّه الإطلاق الّذي بإزاء التقييد، والتقييد بالتقييد الّذي هو بازاء المطلق وليس كذلك، لأنّ المراد بالإطلاق عليه عندهم سلب القيد مطلقاً وبالتقييد إضافة المقيّدات إليه لقولهم:

التوحيد إسقاط الإضافات.

---

(١٥٥) قوله: كنّا حروفاً.

الشاعر هو الشيخ الأكبر محيي الدّين العربي، راجع شرح فصوص الحكم للخوارزمي ج ١، ص ٣٨، كما ذكره أيضاً صائن الدّين ابن التُركة في «تمهيد القواعد» ص ١٣١.

(في انّ التوحيد اسقاط الاضافات)

والإضافة أمر إعتباريّ نسبيّ لا وجود له في الخارج، فرادهم حينئذٍ يكون الوجود من حيث هو وجود واعتباره في عالمي الوحدة والكثرة وحضرتي الإطلاق والتقييد والوجوب والإمكان والذّات والصّفة والظهور والبطون، وإلّا الوجود من حيث هو هو منزّه عن جميع ذلك فضلاً عن الإطلاق وعدم الإطلاق والتقييد وعدم التقييد، وكذلك الظهور والبطون والأوّل والآخر. لأنّ الأوّل إسم له بالنّسبة إلى الآخر، والظّاهر بالنسبة إلى الباطن، وكذلك القديم بالنّسبة إلى الحادث، والواجب بالنسبة إلى الممكن، والعالم إلى المعلوم، والقادر إلى المقدور، وهلمّ جرّاً، والحاصل أنّه ليس له إسم عند التّحقيق ولا صفة ولا رسم ولا نعت ولا عين ولا فصل وأمثال ذلك من الاعتبارات، فإنّ الكلّ عند التحقيق إضافات معدومات، ونسب اعتباريات، وإلى هذا المعنى أشار الامام المعصوم سلطان الأولياء والوصيّين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام في بعض خطبه وهي الّتي سبقت متناً وشرحاً وهو قوله:

«أوّل الدّين معرفته وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده وكمال توحيده الإخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثنّاه ومن ثنّاه فقد جزّأه ومن جزّأه فقد جهله ومن جهله فقد أشار إليه ومن أشار إليه فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه ومن عدّه فقد أبطل أزله»، إلى قوله:

«مع كلّ شيء لا بمقارنة وغير كلّ شيء لا بمزايلة» (١٥٦).

---

(١٥٦) قوله: أوّل الدّين معرفته.

قطعة من خطبة الأولى في نهج البلاغة.

وأمّا قوله (ع) في مانقله السيّد المؤلف: «ومن عدّه فقد أبطل أزله» فلا يوجد في نسخ نهج البلاغة التي بأيدينا. ولكنّه منقول عنه عليه السّلام في حديث آخر، رواه الكليني في «الكافي» ج ١، ص ١٣٩، الحديث ٥ باب جوامع التوحيد. وعن مولانا عليّ بن موسى الرضا (ع) كما رواه الصدوق في «التوحيد»، باب التوحيد ونفي التشبيه الحديث ١٤، ←

فإنّ الكلّ إشارة إلى تنزيهه عن الأسماء والصّفات والنّسب والإضافات والتقييد والإطلاق وأمثال ذلك.

(في أنّ ظهور الوجود المطلق لايكون إلّا من حيث الإضافات)

وإذا عرفت هذا فاعلم أنّ ظهور هذا الوجود المطلق المقدس المنزّه عن جميع الإعتبارات ليس إلّا من حيث النّسب والإضافات السّاقطة عند التّوحيد الصّرف والتجرّد المحض، وتنزّله وتقيّده من عالم الوحدة إلى عالم الكثرة ليس إلّا بذلك لقوله في الأوّل:

﴿إنّ الله لغنيّ عن العالمين﴾ [العنكبوت: ٦].

ولقوله في الثاني:

كنت كنزاً مخفيّاً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق (١٥٧).

← ص ٥٦.

وأمّا ما رواه الكليني باسناده عن الإمام الصادق عليه السّلام عن أمير المؤمنين فهو كما يلي:

خطب أمير المؤمنين عليه السّلام النّاس بالكوفة فقال:

«الحمد لله الملهم عباده حمده وفاطرهم على معرفة ربوبيّته، الدالّ على وجوده بخلقه، وبحدوث خلقه على أزله، وباشتباههم على أن لا شبه له، المستشهد بآياته على قدرته، الممتنعة من الصفات ذاته ومن الأبصار رؤيته ومن الأوهام الإحاطة به، إلى أن قال:

فمن وصف الله فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه ومن عدّه فقد أبطل أزله، ومن قال: أين؟ فقد غيّاه، ومن قال: علام؟ فقد أخلا منه، ومن قال فيهم فقد ضمّنه.

وما رواه الصدوق عن الإمام الرضا عليه السّلام أيضاً قريب منه وإضافة فراجع.

(١٥٧) قوله: كنت كنزاً مخفيّاً.

رواه المجلسي في البحار ج ٨٧، ص ١٩٩، وص ٣٤٥ فراجع، وانظر أيضاً في هذا الحديث القدسي تعليقتنا الرقم ٧٧، ص ١٠٥ و ٣٢٤، ص ٤٠٥ في الجزء الأوّل.

أقول: الحديث يبيّن مقام الإبتهاج وذلك غير مقام الجلاء والإستجلاء والأحديّة بل

←

وترتيب ظهوره ونزوله من عالم الإطلاق والتجريد إلى عـالم التـقييد والتـفصيل، وتعيّنه ترتيب ظهور الألف من عالم إطلاقه، وتجرّده إلى عالم التركيب والترتيب، أعني كما ينسب هذا الوجود المطلق الواحد إلى كلّ واحد واحد مـن المـقيّدات المـمكنة ويحصل بسببه ظهور وكثرة فكذلك الألف فانّه ينسب أيضاً إلى كلّ واحد واحد من الحروف المقطّعة ويحصل بسببه ظهور وكثرة، فكما يحـصل للألف بسبب تـعيّن كـلّ حرف من الحروف إسم ووصف مغاير لإسم آخر ووصف آخر، فكذلك الحقّ تعالى فإنّه يحـصل به بسبب تعيّن كلّ موجود مشخّص إسم ووصـف مـغاير لإسم آخـر ووصف آخر، لأنّ الألف مثلاً كما يحصل له أسم الباء بالنسبة إلى الباء وإسم الجـيم بالنسبة إلى الجيم وإسم الدّال بالنسبة إلى الدال، فكذلك الحقّ تعالى فانّه يحـصل له إسم العالم بالنسبة إلى المعلوم وإسم القادر بالنسبة إلى المقدور وإسم الخالق بالنسبة إلى المخلوق، وكذلك جميع الأسماء والصفات، والوحدات والكثرات:

﴿وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلّا العالمون﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣].

وقد سبق ان العلم ماله تأثير في المعلوم بالنسبة إلى الواجب أو الممكن، وقد تقدّم أنّه تعالىٰ عالم بالمعلومات الذّاتيّة أذلاً وأبداً. فـحينئذٍ ظـهوره بـصورة مـعلوم مـن المعلومات لايكون إلّا على الوجه الّذي كان عالماً بـذلك المـعلوم، فـظهوره بـصور مفردات العالم وبسايطه الّتي هي مظاهره الأوّليّة العلويّة لايكون إلّا على الوجه الّذي كانت هي عليه، وهذه المفردات في الآفاق والكتاب الإلهيّ تسمّي حروفاً، وظهوره بصور مركبات العالم ومشخّصاته الّتي هي مظاهره الثانيّة لايكون إلّا على الوجه الّذي كانت هي عليه، وهذه المركبات في الآفاق والكتاب الإلهي تسمّى كلماتاً، وظـهوره بصور كليّات العالم وأجناسه الّتي هي مظاهره الثالثة لايكون إلّا على الوجه الّـذي

← هو فوق هذه المقامات، وشرحه يقتضي المقام الآخر. والله العالم.

وقالت فاطمة الزاهراء بنت رسول الله (ص) في خطبتها الغرّاء الفدكيّة:

«ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها»... إلى أن قالت:

«من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها إلّا تثبيتاً لحكمته، وتنبيهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته، وتعبّداً لبريّته، وإعزازاً لدعوته.

كانت هي عليه، وهذه الكلّيّات في الآفاق والكتاب الإلهي يسمّى آياتاً. وظهوره بصورة الكلّ من حيث الكلّ يسمّى كتاباً ومصحفاً وغير ذلك من الأسماء لقولهم:

أحد بالذات كلّ بالأسماء (١٥٨).

وكذلك الألف المجرّد فإنّه أيضاً يصير موسوماً في كلّ مرتبة من مراتب ظهوره بأسماء من أسماء الحروف الّتي هي مظاهره حرفاً كانت أو كلمة أو آية، لأنّ في الحقيقة ليس هناك إلّا الألف والكلّ هو مع تعيّن آخر علماً كان أو عيناً كما ستعرفه.

هذا من حيث العلم والوجود العلمي، وأمّا من حيث العين والوجود العيني فكذلك، لأنّ الوجود العلمي لايوجد في العين إلّا مطابقاً للعلم، فإذا وجدت هذه المعلومات العلميّة في الخارج وحصل له الوجود الخارجي يصير موسوماً باسم خارجي أيضاً، فإنّه إذا ظهر بصورة العقلي صار متعيناً به في الخارج وسمّي به وإذا ظهر بصورة النّفس صار متعيّناً به في الخارج وسمّي به، وكذلك الجسم الكلّ فانّه إذا ظهر بصورة الجسم المطلق صار متعيّناً به في الخارج وسمّي به، وقس على ذلك جميع الموجودات العلويّة والسفليّة لقوله تعالى:

﴿هو الأوّل والآخر والظّاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم﴾ [سورة الحديد: ٣].

ولقوله:

﴿أوَ لَم يكف بربّك أنّه علىٰ كلّ شيءٍ شهيدٌ * ألا إنّهم في مرية من لقاء ربّهم ألا إنّه بكلّ شيءٍ محيط﴾ [سورة فصّلت: ٥٣ ـ ٥٤].

ولقول العارف:

تجلّى لي المحبوب من كلّ وجهة فشاهدته في كلّ معنى وصورة (١٥٩)

---

(١٥٨) قوله: أحد بالذات.

قاله الشيخ الأكبر محيي الدّين العربي في فصوص الحكم الفص الإسماعيلي ص ٢٠١ شرح القيصري،

هذا كما قال صدر المتألهين: بسيط الحقيقة كلّ الأشياء.

(١٥٩) قوله: تجلّى لي المحبوب، (شعر).

وكذلك الألف فإنّه إذا ظهر بصورة الباء صار متعيّناً به في الخارج وسمّي بالباء، وإذا ظهر بصورة الجيم صار متعيّناً به في الخارج وسمّي بالجيم، وإذا ظهر بصورة الدّال صار متعيناً به وسمّي بالدّال وكذلك إلى آخر الحروف، ومن هذا وقع العقل الأوّل بمثابة الباء في الوجود والنّفس الكلّيّة بمثابة الجيم، والجسم الكلّي بمثابة الدّال إلى آخر الموجود وآخر الحروف، وقد سبق ترتيب ذلك غير مرّة في الدّائرة الوجوديّة وغيرها، وهذا هو المراد من هذا البحث في هذه المقدّمة إلى أن يتحقّق عندك أنّ ظهور الوجود الحقيقي أو الحقّ تعالىٰ جل ذكره بصورة العالم أو الموجودات الممكنة بعينه ظهور الألف المجرّد بصور الحروف وتراكيبها كلّها، وهذا وضع إلٰهيّ وقانون ربّانيّ قد نطق به الأنبياء والرّسل صلوات الله عليهم أجمعين.

(في أنّ الظهور والإضافات لابدّ له تعالى من حيث الكمال والإقتضاءات الأسمائيّة)

وإذا عرفت هذا فاعلم انّه تعالىٰ من حيث الذّات والوجود وان كان منزّهاً مستغنياً من نسبة هذه الإضافات والظهور إليه لكن من حيث الكمالات الذّاتيّة والإقتضاءات الأسمائيّة لابدّ له من ذلك فانّه من هذه الحيثيّة عين الكلّ، فإنّ الكلّ لايظهر في الكلّ إلّا من حيث كلّيّته، وفيه قيل: ليس في الوجود سوى الله تعالى

← في شرح الخوارزمي لفصوص الحكم ج ١، ص ٢٢٧:

تجلّى لي المحبوب من كلّ وجهة — فشاهدته من كل عين وصورة

ذكره المؤلف الجليل في (نصّ النصوص) أيضاً ص ٢٧٠ وص ٤٥٩ مع بيت آخر:

فقال: كذاك الأمر لكنما إذا — تعيّنت الأشياء بي كنت نسختي

وهناك شعر آخر ذكره الخوارزمي ج ١، ص ٣٧٤:

تجلّى لي المحبوب خلف الستاير — وشرفني لطفاً بكشف السرائر
فشاهدته في كلّ معنى وصورة — وعاينته في كلّ خاف وظاهر
فخاطبته سرّ المقول حالتي — وأبصرته جهراً بعين البصائر
نظرت ببالي فأبصرت جهرة — جمال حبيبي في مرايا المظاهر
تبدّى جمال الحقّ في كلّ مظهر — وليس له غير الجلال بساتر

وأسمائه وصفاته وأفعاله فالكلّ هو وبه ومنه وإليه (١٦٠).

﴿كلّ شيء هالك إلّا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ [سورة القصص: ٨٨].

(في بيان نسبة الموجودات العلميّة والعينيّة إلى) (الفيض الأقدس والفيض المقدّس)

ثمّ اعلم أنّ الوجودات العلميّة المذكورة منسوبة إلى الفيض الأقدس والقابليّة الصرفة الّتي ليست بجعل الجاعل، والموجودات العينيّة منسوبة إلى الفيض المقدّس الّذي هو إعطاء وجود كلّ موجود في الخارج بحسب وجوده العلمي الأزلي الذّاتي، وكلّ ذلك بوجه آخر منسوب إلى النَفَس الرحماني الّذي هو سبب إخراج هذه الموجودات من العلم إلى العين كاخراج الكلمات والآيات والحروف في النفس الإنساني على سطح الهواء.

وبيان ذلك وهو أنّ الكلمات الصّوريّة كما أنّ إخراجها من القوّة إلى الفعل موقوفة على النَّفَس الإنسانيّة بأسباب من المخارج حتّى يحصل له الوجود الخارجي في الهواء إن كانت روحانيّة، وفي الألواح إن كانت جسمانيّة بقلم المعلوم والدّواة المعلومة، فكذلك الكلمات الوجوديّة الإلهيّة فإنّ إخراجها من العلم إلى العين موقوفة على النَّفَس الرّحماني بأسباب إلهيّة حتّى يحصل له الوجود الخارجي في العالم إن كانت روحانيّة، وإن كانت جسمانيّة بقلم العقل الأوّل ودواة النّفس الكليّة لقوله تعالى:

﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ [سورة القلم: ١].

لأنّه إشارة إلى هذا الترتيب الإلهي والقانون الربّاني، وأصل ذلك كلّه من علمه بذاته أزلاً لأنّ أوّل التعيّن والتقيّد له في عالم الإطلاق والتجرّد هو من علمه بذاته لأنّه إذا صار عالماً بذاته صارت ذاته معلوماً له، وكلّ معلوم متعيّن فتتعيّن ذاته بذلك ومن

---

(١٦٠) قوله: ليس في الوجود.
راجع الجزء الأوّل ص ٢٤٢ وتعليقتنا فيه الرقم ٢٩.

تعيّنه تعيّن الكلّ، وذلك لأنّه لو لم يكن عالماً بذاته لم يكن عالماً بكمالاته وإذا لم يكن عالماً بكمالاته لم يكن عالماً بمعلوماته الذّاتيّة، لأنّ من جملة معلوماته ذاته وكمالاته، فلو لم يكن عالماً بذاته وكمالاته الذاتيّة لم يتمكن من إبرازها في الخارج على الوجه الّذي هو عليه فلم يصدق حينئذ انّه ظاهر أو باطن أو عالم أو قادر وليس الحال كذلك، فمن علمه بذاته صار متعيّنا وصار عالماً بالكلّ ومن علمه بالكل صار عالماً بظهوره بصورة الكلّ فظهر بصورة الكلّ مطابقاً لعلمه به فصار الكلّ مظهراً له وصار هو ظاهر في الكلّ وصدق عليه انّه:

﴿هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ [سورة الحديد: ٣].

وأمّا الظهور والترتيب الوجودي في ذلك فكان بالنَفَس الرّحماني على الوجه المذكور، وإليه أشار القوم في اصطلاحهم بقولهم: النَفَس الرحمانيّ هو الوجود الإضافيّ الوحدانيّ الحقيقيّ المتكثّر بصور المعاني الّتي هي الأعيان وأحوالها في الحضرة الواحديّة، سمّي به تشبيهاً بنَفَس الإنسان المختلف بصوره الحروف مع كونه هواءً سازجاً في نفسه ونظراً إلى الغاية الّتي هي ترويح الأسماء الداخلة تحت حيطة الإسم الرحمن عن كمونها وهو كمون الأشياء فيها وكونها بالقوّة كترويح الإنسان بالنفس، وحيث إنّ ظهور الحقّ تعالىٰ بصور المظاهر كان منحصراً في الأسماء والصفات والأفعال والأكوان قالوا: حجب الذات بالصفات والصفات بالأفعال والأفعال بالأكوان.

وقالوا:

جمالك في كلّ الحقايق سائر — وليس له إلّا جلالك ساتر
تجلّيتَ للأكوان خلف ستورها — فنمّت بما ضمّت عليه الستائر (١٦١)

---

(١٦١) قوله: جمالك في كلّ الحقايق سائر، (شعر).

ذكره المؤلّف الجليل في «جامع الأسرار» ص ١٥٢، وفي «رسالة نقد النقود» ص ٦٦٦.

(في توقف انكشاف الأفعال على انكشاف الأكوان وهكذا)

ومن هذا صار إنكشاف الأفعال موقوفاً على انكشاف الأكوان، وانكشاف الصّفات على انكشاف الأفعال، وانكشاف الذّات على انكشاف الصفات، فمن كشف له الأكوان على ما ينبغي، كشف له الأفعال على ماهي عليها، ومن كشف له الأفعال على ماينبغي كشف له الصّفات على ماهي عليها، ومن كشف له الصّفات على ماينبغي كشف له الذّات على ما هي عليها، وصار من العارفين الكاملين المحققين وقال بلسان الحال والقال:

لقد كنتُ دَهراً قبل ان يكشف الغطا ... أخالك أنّي ذاكر لك شاكر
فلمّا أضاء اللّيل أصبحتُ شاهداً ... بأنّك مذكور وذكر وذاكر (١٦٢)

رزقنا الله وإيّاكم الوصول إلى هذا المقام بمحمّد وآله الكرام.

وإذا تقرّر هذا وعرفت بعض أسرار الوجود والحروف وتطبيق كلّ واحد منها بالآخر فلنشرع في شرح الأبيات الموعودة الّتي سبقت في هذا المعنى، ونقول:

اعلم، أنّ قوله: «كنّا حروفاً عاليات لم نقل»، إشارة إلى تعيّن الأشياء في علمه الذّاتي قبل تعيّنه في الخارج، و«عاليات»، إشارة إلى علوّها لثبوتها في الذات وليس أعلى من الذات شيء، «ولم نقل»، إشارة إلى الإنتقال من العلم إلى العين، أي كنّا حروفاً وبسايط أي حقايق وأعياناً في الحضرة الذاتيّة العلميّة أعني كنّا معلوماً في الحضرة العلميّة وكان عالماً بنا وبحقائقنا...

قوله عليه السّلام:

«كان الله ولم يكن معه شيء» (١٦٣).

---

(١٦٢) قوله: لقد كنتُ دَهراً، (شعر).

ذكره المؤلف (في جامع الأسرار) ص ١٣٢، والخوارزمي في (شرح فصوص الحكم) ج ١، ص ٣٦، و ج ٢، ص ٦٠٨.

(١٦٣) قوله: كان الله ولم يكن معه شيء.

أي لم يكن في الخارج، وكذلك أمير المؤمنين عليه السّلام في قوله:

«ربّ إذ لا مربوب، وعالم إذ لا معلوم، وقادر إذ لا مقدور» (١٦٤).

والكلّ إشارة إلى عدم الوجود.

وقوله: «متعلقات في ذرى أعلى القلل»: إشارة إلى ثبوتهم في الذات الّتي هي أعلى القلل الوجوديّة بالإتفاق، (و) حيث كنّا من معلوماته الذاتيّة الأزليّة الدّائمة صار إزالتنا علماً وعيناً من المستحيلات وإن لم يصدق عليه إسم القدم والوجوب، لأنّه القديم بالذات ونحن القديم بالغير، وأنّه واجب بالذات ونحن واجب بالغير ومادام الواجب (الغير) باقياً لابدّ وأن نكون نحن من الباقين معه، قال:

أنا أنت فيه ونحن أنت وأنت هو   والكلّ في هو هو فسل عمّن وصل

(في بيان الوحدة المحضة والتوحيد والصّرف)

وهذا إشارة إلى الوحدة المحضة لا الإثنينيّة المغايرة للتوحيد الصرف، لأنّ المغايرة بين الذات الأحديّة العلميّة والعينيّة ليس إلّا بالإعتبار وفي الحقيقة ليس هناك مغايرة،

أأنت أم أنا؟ هذا العين في العين   حاشاي حاشاي من إثبات إثنين (١٦٥)

← قد مرّ الحديث في الجزء الأوّل ص ٣٥٢، راجع تعليقتنا فيه الرقم ٨٧ و ٨٨.
وراجع أيضاً تعليقتنا الرقم ١٦ في هذا الجزء الثاني.

(١٦٤) قوله: ربّ إذ لا مربوب.
في نهج البلاغة خطبة ١٥٢، (صبحي صالح).

(١٦٥) قوله: أأنت أم أنا؟ (شعر).
ذكر المؤلف في جامع الأسرار ص ١٣١، وص ٦٧٦ بنفس اللفظ، وفي نصّ النصوص ص ٣٥٧، والشعر من الحلاج كما ذكره المؤلف في ص ٣٦٤ مع بيت آخر هكذا:

بيني وبينك انّي ينازعني   فارفع بفضلك انّي من البين

وفي شرح فصوص الحكم للخوارزمي ج ١، ص ١٥٣، هكذا:

←

لأن المغايرة الحقيقيّة بين الذّات وكمالاتها الذاتيّة مستحيلة ومن دقّة هذا المعنى ولطافته قال:

«والكلّ في هو هو فسل عمّن وصل»، أي الكلّ من حيث الكلّ ظاهر في الكلّ، فسل عمّن وصل إلى هذا المقام لأنّ كلّ عاقل يعرف أنّ الكلّ من حيث الكلّ لا يظهر إلّا في الكلّ كما قيل:

الكـلّ بـالكلّ مـربوط وليس له عنه انفصال خذوا لما قلته عنّي (١٦٦)

وقولهم:

وكـلّ مـليحٍ حُسـنُه مـن جمـاله مُعارٌ له بل حُسنُ كلّ مليحة (١٦٧)

وذلك لأنّ عند التوحيد الجمعي الحقيقي كما بيّناه مراراً لا يبقى للغير عين ولا أثر فكيف يتصوّر هناك المغايرة أصلاً، وليس في الوجود سوى الله تعالىٰ وأسمائه وصفاته وأفعاله والكلّ هو وبه ومنه وإليه، وإليه الإشارة أيضاً، أي إلى التوحيد الحقيقي في

← أأنت أم أنـا هـذا في الهـين حاشاك حاشاك من إثبات إثـنين
بـيني وبـينك أنّي يـزاحمـني فـارفع بـلطفك أنّـي مـن البـين.

(١٦٦) قوله: الكلّ بالكلّ الخ، (شعر).

الشاعر محيي الدّين قاله في فصوص الحكم، شرح القيصري ص ٩٣ الفصّ الآدمي، وتمام الشعر هكذا:

فالكلّ مفتقرٌ ما الكلّ مُستغنٍ هذا الحقُّ قـد قـلناه لا نَكْـني
فإن ذكرتَ غنيّاً لا افْتقارَ بـه فقد علمتَ الّذي مِن قولنا نَعني
فالكلّ بالكلّ مربوط وليس له عنه انفكاكٌ خُذُوا ما قلتُه عنّي

ذكره المؤلف الجليل في جامع الأسرار أيضاً ص ٦٦٢ (رسالة نقد النقود).

(١٦٧) قوله: وكلّ مليح الخ، (شعر).

ذكره الخوارزمي أيضاً في شرحه للفصوص ج ١، ص ٣٥، وج ٢، ص ٦٠٠.

الشاعر هو ابن الفارض في قصيدته (التائية الكـبرى) راجـع ديـوان ابـن الفـارض ص ٥٦، وذكره المؤلف الجليل أيضاً في (نص النصوص) ص ٤٤٨ وراجع أيضاً «مشارق الدراري» ص ٢٦٢.

مقام الفناء والطمس الكلّي، بقوله تعالى:

﴿كلّ شيء هالك إلّا وجهه﴾ [سورة القصص: ٨٨].

وقوله:

﴿كلّ من عليها فان ويبقىٰ وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾ [سورة الرّحمٰن: ٢٧].

فهذا سرّ لايعرفه إلّا الّذي وصل إليه وصولاً حقيقيّاً ذوقيّاً كشفيّاً لقولهم:

«من لم يذق لم يعرف».

ولهذا قال الشيخ قدّس الله سرّه(١٦٨):

«وهذا لايعرفه عقل بطريق نظرٍ فكريّ، بل هذا الفنّ من الإدراك لايكون إلّا عن كشف إلٰهيّ، منه يُعرف ما أصلُ صور العالم القابلة لأرواحه».

ويكفي في هذا قوله تعالى:

﴿هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم﴾ [سورة الحديد: ٣].

لأنّه يقوم بجواب الكلّ، ولا يعرفه أيضاً إلّا الواصل الحقيقي المستغرق في عين الجمع والفرق لا في أحدهما، لأنّ له في هذا المقام الدرجة العليا والغاية القصوى المعبر عنها...

(في ان ظهور الوجود بصور الموجودات مثل ظهور الألف بصور الحروف)

وليس الغرض هٰهنا هذا البحث، لأنّ هذا البحث قد سبق مراراً وسيجئ مراراً، بل الغرض أن يتحقق عندك أن ظهور الوجود بصور الموجودات بعينه كظهور الألف بصور الحروف والمركبات، وإذا تحقّق هذا فرجع مرّة أخرى ونقول: اعلم أنّ تقييد الوجود المطلق بصور المقيّدات الّتي هي مظاهره بعينه كتقييد الألف المجرّد بصور الحروف المقيّدة الّتي هي مظاهره، وتنزّله من حضرة الذّات إلى حضرة الأسماء

---

(١٦٨) قوله: قال الشيخ قدّس الله سرّه.

ذكره في فصوص الحكم، شرح القصيري ٦٩ ـ والعفيفي ص ٤٩.

والصفات بعين كتنزّل الألف المجرّد إلى حضرة التعيّنات والتقيّدات، وبيان ذلك مفصلاً وهو أنّ الألف كما إذا يعيّن بتعيّن ويقيّد بقيد من صور الحروف وتعيّناتها صار موسوماً بذلك الإسم الّذي لذلك الحرف باءً كان أو تاء، ثاء كان أو جيماً، ليس من هذا في الحقيقة قدح في ذاته ولا نقص في إطلاقه لأنّه على وحدته الذّاتيّة المقتضية لتنزّهه وتجرّده فذلك الحقّ تعالى فإنه إذا ظهر بصورة مظهر أو تعيّن بتعيين موجود من صور الموجودات وتعيّناتها صار موسوماً بذلك الإسم الّذي لذلك الموجود عقلاً كان أو نفساً، روحاً كان أو جسماً، إنساناً أو مَلِكاً فانّه ليس من هذا في الحقيقة قدح في ذاته ولا نقص في إطلاقه، وتصديق هذا بالنسبة إلى الحروف، وهو أنّه ليس في الحقيقة وجود الحروف إلّا وجوداً إعتبارياً إضافيّاً نسبيّاً لا حقيقة له في نفس الأمر لأن الألف من حيث تنزّله من الإطلاق والتجرّد وإضافته إلى الغير ظهر بصورة الحروف من الباء والتّاء أو غير ذلك من الحروف حصل لتلك الحروف وجوداً اعتباريّاً إعتبار نسبة المجرّد إلى المقيّد وإلّا في نفس الأمر الحروف معدومات موهومات موجودات بالنسبة والإضافة وليس لها وجوداً حقيقيّاً أصلاً لأنّ الوجود الحقيقي للألف فقط ومن هذا قيل:

ليس هناك حروف إلّا والألف معه صورة كان أو معنى، أمّا الصّورة فلأنّ الباء مثلاً ألف مع قيد كما أن المقيّد مطلق مع قيد وكذلك الجيم والميم وباقي الحروف لأنّك إذا قلت باء أو قلت تاء وجدت الألف فيهما، وكذلك الميم والجيم والنون فإنّ الياء والواو فيهما يقومان مقام الألف كما لايخفى على أهله.

وأمّا المعنى فلأن الألف صار بانخفاضه من الإرتفاع وإعوجاجه من الإستقامة، فإذا زال الإنخفاض وارتفع الإعوجاج صار ألفاً كما كان، فافهم جدا فانّه لطيف، وتعرف هذا من صورة الألف إذا سوّيت صورة من شمعة مثلاً وغيرتها من تلك الصورة إلى صورة أخرىٰ، فإنّ الذّات والحقيقة من تلك الشمعة لاتتغيّر أصلاً وإن تغيّر صورتها وأوضاعها، وهذا المثال قريب إلى المادّة والصورة وتغيير الصورة ساعة فساعة وبقاء المادة على قرارها.

وأمّا بالنسبة إلى الحقّ وظهوره بصُورة الخلق فهو أنّه ليس في الحقيقة وجود الخلق

إلّا وجوديّاً إعتباريّاً إضافيّاً لا حقيقيّة له في الخارج لأن الوجود الخارجي الحقيقي ليس إلّا للحقّ، فالوجود المضاف الإعتباري هو الّذي يحصل بتنزّلات الحقّ في صور مظاهره أعني أنّ الحقّ تعالى إذا نزل من حضرة إطلاقه وتجرّده وتقيّد بصورة من الصور عقلاً كان أو نفساً أو غيرهما من الموجودات حصل بذلك التنزّل لذلك الموجود وجود إضافيّ نسبيّ معدوم في الحقيقة موجود بالإعتبار بحيث لو اسقطت عنه تلك الأضافة لم يبق إلّا عدماً صرفاً لقولهم: التوحيد إسقاط الإضافات، فعند التحقيق ليس للخلق ولا للمظاهر وجود إلّا بالإعتبار والإضافة وكلّ مايكون وجود بالاعتبار والإضافة لايكون إلّا معدوماً مضمحلاً.

في معيّة الوجوديّة

فالوجود الحقيقي حينئذ لايكون إلّا للحقّ ويكون له المعيّة معهم معيّة وجوديّة ذاتيّة لقوله:

﴿وهو معكم إينما كنتم﴾ [سورة الحديد: ٤].

ولقوله:

﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ [سورة ق: ١٦].

في أنّ ليس في الوجود غيره تعالىٰ وإن صورة العالم صورته سبحانه

وهذه المعيّة بعينه معيّة الألف مع الحروف صورة كان أو معنى أمّا الصورة فلأنّك إذا تحقّقت ان الوجود واحد وأنّه الحقّ تعالىٰ وأنّه ليس في الوجود غيره تحققت أنّ صورة العالم بأسره صورته لقوله:

﴿هو الأوّل والآخر والظّاهر والباطن﴾ [سورة الحديد: ٣].

بحيث لو غاب عنها طرفة عين لم يبق له أثر لا ذهناً ولا خارجاً، وهذا معنى قيّوميّته للأشياء بحكم قوله:

﴿لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥].

وقد سبق في قول الشيخ الأعظم قدّس الله سره مايعضد هذا تصريحاً وهو قوله(١٦٩):

ان العالم غيب لم يظهر قطّ والحقّ تعالىٰ ظاهر ما غاب قطّ والنّاس في هذه المسئلة على عكس القول، فيقولون: العالم ظاهر والحقّ تعالى غيب، فهم بهذا الإعتبار في مقتضى هذا التنزّل كلّهم عبيد للسوى، وقد عافى الله بعض عبيده عن هذا الداء والحمد لله.

(في انّه تعالى حقيقة كلّ شيء كما هو سبحانه صورة كلّ شيء)

وأمّا المعنى فلأنّك إذا عرفت أنّه ليس في الخارج حقيقة إلّا هو، عرفت أنّه حقيقة كلّ شيء وباطنه كما هو صورة كلّ شيء وظاهره لقوله:

﴿أوَ لَمْ يكف بربّك انّه علىٰ كلّ شيء شهيدٌ * ألا إنّهم في مرية من لقاء ربّهم ألا إنّه بكلّ شيء محيط﴾ [سورة فصلت: ٥٣ ـ ٥٤].

وهذا شهود الأنبياء والأولياء والأقطاب والكلّ كما بيّناه مراراً وليس هناك مشهد أعظم من هذا المشهد في هذا الطريق، جعلنا الله الوصول إليه، وليس وراء عبّادان قرية إشارة إلى هذا. وكذلك: «قاب قوسين أو أدنى»، وبناء على هذه القواعد، وكما لايكون هناك حرف من الحروف إلّا ويكون الألف معه صورة ومعنى، فكذلك لايكون هناك موجود من الموجودات إلّا ويكون الحقّ تعالى معه صورة ومعنى، ومثال معيّة الأولى بعينه مثال المداد مع كلّ حرف من حروف هذا الكتاب من غير تفاوت ونقصان لأنّ المداد بالنسبة إلى الحروف لايكون أقرب إلى حرف من حرف آخر من حيث هو مداد، ومثال معيّة الثانية مثال البحر مع أمواجه لأنّ البحر من حيث هو بحر لايكون أقرب إلى موج من موج فإنّ الكلّ بالنسبة إليه على سواء،

---

(١٦٩) قوله: انّ العالم غيب لم يظهر قطّ الخ.
ذكره المؤلّف أيضاً في (جامع الأسرار) ص ١٦٣.

وفيه قيل:

البحر بحر على ما كان من قدم ... انّ الحوادث أمواج وأنهار (١٧٠)

وهذه الأمثلة في غاية الحسن لأجل هذا المعنى، فاجعل قلبك إليها تظفر بأسراره كثيرة منها:

﴿وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلُها إلّا العالِمون﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣].

والغرض منها أن يتحقّق أن ظهور الحقّ بصورة العالم والخلق بعينه كظهور الألف بصورة الحروف وأنّ الوجود أو العالم واقع على ترتيب الحروف حذو النعل بالنعل كما عرفت بعضها وستعرف إن شاء الله البعض الآخر.

(في تفسير قوله (ص): ظهرت الموجودات من باء بسم الله الرّحمٰن الرّحيم)

وإذا عرفت هذا فاعلم:

أنّ هذا البحث لايتحقق على ماينبغي إلّا بعد تفسير قولهم:

بالباء ظهر الوجود وبالنقطة تميّز العابد عن المعبود (١٧١)

وقول النبيّ صلّى الله عليه وآله:

«ظهرت الموجودات من باء بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» (١٧٢)

---

(١٧٠) قوله: البحر بحر، (شعر).

البيت منسوب إلى محيي الدّين العربي وتمامه هكذا:

البحر بحر على ما كان من قدم ... انّ الحوادث أمواج وأنهار

لا يحجبنّك أشكال شياكلها ... عمّن تشكّل فيها فهي أستار

ذكره السيّد المؤلف في (جامع الأسرار) ص ١٦١ و٢٠٧ و٦٦٩.

(١٧١) قوله: بالباء ظهر الوجود الخ.

القائل هو محيي الدّين ابن عربي الشيخ الأكبر، قاله في الفتوحات ج ١، ص ١٠٢ وقد مرّ أيضاً في الجزء الأوّل ص ٢١١.

(١٧٢) قوله: ظهرت الموجودات الخ.

وقول أمير المؤمنين عليه السّلام:

«أنا النقطة تحت الباء»(١٧٣).

لأنّ كلّ هذا إشارة إلى تنزّل الحقّ وظهوره بصورة الخلق، كتنزّل الألف وظهوره بصورة الحروف لأنّ تعيّن الحقّ المطلق الّذي هو المعبود بصورة الخلق المقيّد الّذي هو العابد ليس إلّا بسبب النقطة التعيّنيّة الوجوديّة المسمّاة بالإمكان الّتي تحت الوجود البائي الأوّل الإمكاني المسمّى بالعقل الأوّل تارة وبالروح الأعظم أخرىٰ المتميّز بها العابد الّذي هو العبد عن المعبود الّذي هو الرّبّ وكذلك الحروف، لأنّ تعيّن الألف المجرّد الّذي هو بمثابة الذّات بصورة الباء المقيّد ليس إلّا بسبب النقطة التعينيّة البائيّة الّتي تحت الباء التميّز بها الباء عن الألف أعني كما أنّ الألف إذا نزل من حضرة إطلاقه إلى حضرة تقيّده في صورة البائيّة الّتي هي أوّل مرتبة من مراتبه في عالم الكثرة لم يكن تميّزه منه إلّا بالنقطة البائيّة المتميّزة بها عن غيره من الحروف فكذلك الحقّ تعالىٰ فإنّه إذا نزل من حضرة ذاته ومقام إطلاقه وصورة أحديته في صورة تعيّنه وتقيّده المعبّر عنها بصورة الإمكان في حضرة واحديّته لايكون تميّز تلك الصورة المقيّدة عنه إلّا بالنقطة العنديّة الإمكانيّة الواقعة تحت تعيّنه المتميّزة بها عن غيره من الموجودات، وأوّل تلك الصورة المقيّدة تارة تسمّى بالعقل وتارة بالرّوح وتارة بالنور، وأمثال ذلك كما تسمّى الصّورة المقيّدة الحروفيّة تارة بالباء وتارة بالجيم، وتارة بالدّال إلى آخر الحروف، ولعظمة سرّ هذه الصورة المقيّدة الّتي هي بازاء الباء في الحروف من الكتاب ورد عن النّبي عليه السّلام:

ظهرت الموجودات من باء بسم الله الرّحمٰن الرّحيم.

لأنّ بسم الله الرّحمٰن الرّحيم على سبيل الإجمال شامل لجميع العالم ومراتبه العلويّة والسّفليّة، والألف منها اختفى تحت الباء كما اختفى الحقّ جلّ جلاله في الحضرة

← قد مرّ في الجزء الأوّل ص ٢١٠، راجع تعليقتنا فيه الرقم ١٣.

(١٧٣) قوله: أنا النقطة تحت الباء.

قد مرّ الحديث في الجزء الأول ص ٢١١ وتعليقتنا فيه الرقم ١٤ فراجع.

الواحديّة وتحت التعيّن الأوّل المسمّى بالعقل وآدم وغير ذلك، ونظراً إلى هذا قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

والله لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من باء بسم الله الرّحمٰن الرّحيم (١٧٤).

وكذلك الشيخ أبو مدين المغربي في قوله:

«ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الباء مكتوبة عليه» (١٧٥).

وكذلك الشيخ العارف ابن الفارض المصري في قوله:

فلو كنت بي من نقطة الباء خفضة   رُفِعت إلى ما لم تنله بحيلة (١٧٦)

وكذلك القول السابق من الشيخ الأعظم قدس الله سرّه:

بالباء ظهر الوجود وبالنقطة تميّز العابد عن المعبود.

وهذا المكان بالنسبة إلى هذه الكلمات والأبحاث الّتي نحن في صدد إثباتها يحتاج إلى أقسام ثلاثة:

الأوّل، إلى تحقيق الباء والتعيّن الأوّل الّذي هو مظهره.

والثاني إلى تحقيق النقطة وكيفيّة التميّز بها عن غيره.

والثالث إلى تطبيق الحروف الآفاقيّة والأنفسيّة بالحروف القرآنية كما شرطناه أوّلاً.

---

(١٧٤) قوله: والله لو شئت لأوقرت الخ.

قد مرّ في تعليقتنا الرقم ١٣٧ فراجع.

(١٧٥) قوله: ما رأيت شيئاً الخ.

راجع الفتوحات المكيّة ج ١، ص ١٠٢ ومشارق الدراري ص ١٤٦.

(١٧٦) قوله: فلو كنت بي من نقطة الخ. (شعر).

راجع «مشارق الدراري» ص ١٤٤.

القسم الأوّل في تحقيق الباء والتعيّن الأوّل الّذي هو مظهره

(في أنّ الباء صورة الوجود الظاهر كما أنّ الألف صورة الوجود الباطن)

إعلم، أنّ الباء باتفاق المحققين صورة الوجود الظّاهر المتعيّن المضاف الممكن، كما أنّ الألف صورة الوجود الباطن العالم لمطلق الواجب بالذّات، وبسبب أنّ أوّل موجود أضيف إليه الوجود المطلق كان العقل الأوّل والروح الأعظم بمثابة الباء إلى الألف سمّاه الشرع بالتعيّن الأوّل والموجود الأوّل(١٧٧) وجعله واسطة التكوين ورابطة تعلّق

---

(١٧٧) قوله: سمّاه الشّرع بالتعيّن الأوّل والموجود الأوّل.

وردت في هذا المجال الأحاديث الكثيرة لابأس بذكر بعضها:

العيون للصدوق ـ بإسناده عن الرضا (ع) قال: قال رسول الله (ص) إنّ أوّل ماخلق الله عزّ وجلّ أرواحنا فأنطقها بتوحيده وتحميده ثمّ خلق الملائكة. البحار ٥٧، ص ٥٨، الحديث ٢٩ ـ.

رياض الجنان لفضل الله الفارسي بإسناده إلى جابر الجعفيّ عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام قال:

«كان الله ولا شيء غيره (و) لا معلوم ولا مجهول، فأوّل ما ابتدأ من خلق خلقه أن خلق محمّد (ص) وخلقنا أهل البيت معه من نور عظمته». البحار ج ٥٧، ص ١٦٩، الحديث ١١٢.

وعن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله (ص) «أوّل ما خلق الله نوري، ففتق منه نور علي، ثمّ خلق العرش واللوح والشمس وضوء النهار ونور الأبصار والعقل والمعرفة». البحار ج ٥٧، ص ١٧٠، الحديث ١١٧ أبوالحسن البكري (المتوفى ٩٥٣ بمصر ودفن بجانب قبر الشافعي)، في كتاب الأنوار قال: روي عن أمير المؤمنين أنّه قال:

«كان الله ولا شيء معه فأوّل ماخلق نور حبيبه محمّد (ص) قبل خلق الماء والعرش والكرسي والسّماوات والأرض واللوح والقلم والجنّة والنّار والملائكة وآدم وحوّاء بأربعة وعشرين وأربعمائة ألف عام، فلمّا خلق الله تعالى نور نبيّنا محمّد (ص) بقي ألف عام بين يدي عزّ وجلّ واقفاً يسبّحه ويحمده والحقّ تبارك وتعالى ينظر إلى ويقول: ياعبدي أنت

←

....

← المراد والمريد، وأنت خيرتي من خلقي، وعزّتي وجلالي لولاك مـاخلقت الأفـلاك»، (الحديث طويل فراجع). البحار ج ٥٧، ص ١٩٩، الحديث ١٤٥.

الكافي للكليني بإسناده عن جابر بن زيد قال: قال لي أبو جعفر عليه السّلام:

«انّ الله أوّل ماخلق خلق محمّد وعترته الهداة المهتدين، فكانوا أشباح نور بين يدي الله، قلت: وما الأشباح؟ قال: ظلّ النور، أبدان نورانيّة بلا أرواح، وكان مؤيّداً بنور واحد وهي روح القدس. البحار ج ٥٧، ص ١٩٧، الحديث ١٤٤.

علل الشرايع وعيون أخبار الرضا (ع) للصدوق بإسناده عن أمير المؤمنين عليّ (ع) قال: قال رسول الله (ص): «أوّل ما خلق الله عزّ وجلّ خلق أرواحنا، فأنطقنا بتوحيد وتحميده، ثمّ خلق الملائكة فلمّا شاهدوا أرواحنا نوراً واحداً استعظموا أمرنا، فسبّحنا لتعلم الملائكة أنّا خلق مخلوقون، وأنّه منزّه عن صفاتنا». البحار ج ١٨، ص ٣٤٥، الحديث ٥٦.

كنز الفوائد بإسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام قال:

لقد خلق الله تعالىٰ ليلة القدر أوّل ما خلق الدّنيا، ولقد خلق فيها أول نبيّ يكون، وأوّل وصيّ يكون، ولقد قضي أن يكون في كلّ سنة ليلة يهبط فيها بتفسير الأمور إلى مثلها من السّنة المقبلة، فمن جحد ذلك فـقد ردّ عـلى الله تـعالى عـلمه. البـحار ج ٢٥، ص ٧٣، الحديث ٦٣. تفسير الفرات بإسناده عن أبي ذرّ الغفاري في حديث عن رسول الله (ص) قال: قالوا (الملائكة): يانبي الله إذا رجعت إلى الأرض فاقرأ عليّ بن أبي طالب منّا السّلام، وأعلمه بأن قد طال شوقنا إليه، قلت: ياملائكة ربّي هل تعرفوننا حق معرفتنا؟ فقالوا: يانبيّ الله وكيف لانعرفكم وأنتم أوّل ما خلق الله؟ خلقكم أشباح نور من نور في نور، من سناء عزّه ومن سناء ملكه، ومن نور وجهه الكريم، وجعل لكم مقاعد في ملكوت سلطانه وعرشه على الماء قبل أن تكون السّماء مبنيّة والأرض مدحيّة. البحار ج ٤٠، ص ٥٩.

التوحيد للصدوق ـ بإسناده عن الإمام الباقر عليه السّلام قال:

فأوّل شيء خلقه من خلقه الشيء الّذي جميع الأشياء منه وهو الماء. البحار ج ٥٧، ص ٦٦، الحديث ٤٤.

العيون للصدوق، بإسناده عن الإمام الرضا (ع) عن آبائه (ع) قال: كان عليّ (ع) في جامع الكوفة إذ قام إليه رجل من أهل الشام فقال: أخبرني عن أوّل ماخلق الله، قال: خلق النور. البحار ج ٥٧، ص ٧٣، الحديث ٤٩، تنبيه الخاطر للورّام، عن ابن عبّاس، ←

الوجود من الواجب إلى الممكن، والنقطة الواقعة تحت الباء عبارة عن صورة الممكن وتعيّنها والعين، وبسبب إنّها كانت علّة التميّز عن غيره ومركز التعيّن سمّاها الشرع نقطة، فكما أن الباء يتعيّن بها ويتميّز الألف، فكذلك الوجود المضاف يتعيّن بذات الممكن ويتميّز عن الوجود المطلق، والمراد بالألف عند التحقيق الحضرة الأحديّة المطلقة الّتي هي عبارة عن انتفاء تعدّد الصفات والأسماء والنسب والتعيّنات عن الذّات المطلقة بعد إعتبارها في العلم، وبالباء الحضرة الواحديّة الّتي هي عبارة عن اعتبار الذّات من حيث إنتشاء الأسماء والصّفات وواحديتها بها مع تكثّرها بالتعيّنات، وبالنقطة الرّبوبيّة الّتي هي عبارة عن الذّات من حيث صدور الأفعال والكمالات عنها عيناً أي إيجاد الموجودات والمخلوقات في الخارج بعد تعيينها في العلم.



← عن أمير المؤمنين (ع) قال:

«إنّ الله تعالى أوّل ماخلق الخلق خلق نوراً ابتدعه من غير شيء. البحار ج ٥٧، ص ٩٠، الحديث ٧٨.

الكافي للكليني، بإسناده عن الإمام الباقر (ع) قال:

«كان (الله) إذ لا شيء غيره، وخلق الشيء الّذي جميع الأشياء منه وهو الماء الّذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب كلّ شيء إلى الماء، ولم يجعل للماء نسباً يضاف إليه. البحار ج ٥٧، ص ٩٦، الحديث ٨١، تفسير علي بن إبراهيم بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال:

أوّل ماخلق الله القلم، فقال له: «اكتب» فكتب ماكان وما هو كائن إلى يوم القيامة. البحار ج ٥٧، ص ٣٦٦، الحديث ١.

ومثله في الدر المنثور عن ابن عباس وعن عبادة بن الصامت بحار ج ٥٧، ص ٣٧٠، وص ٣٧١ و ٣٧٢ ـ الحديث ١٣ و ٢١ و ٢٤ و ٢٨.

علل الشرايع للصدوق، بإسناده عن الصادق (ع) قال:

إنّ أوّل ما خلق الله عزّ وجلّ ما خلق منه كلّ شيء... قال: الماء. بحار ج ٥، الحديث ٢٤٠، الحديث ٢٣.

وراجع أيضاً في هذا الموضوع تعليقتنا في الجزء الأوّل الرقم ٧٣ و ٧٤ و ٧٥، ص ٣١٥.

في بيان معنى العماء

ثمّ إعلم، أنّ جميع الإشارات المتقدّمة في صورة الباء والحروف والمظاهر وغيرها كناية عن ظهور الحقّ بصورة الخلق في عالم العماء الّذي هو التعين الأوّل والمرتبة الثانية في الوجود. وعند البعض عن خفائه وكمونه في حضرة الذّات الّتي هي الحضرة الأحديّة، والأوّل أقوى وأقرب إلى الحقّ، وسبب ذلك وهو الّذي ورد في الحديث النبوي انّه سئل عن مكان الربّ قبل أن يخلق الخلق فقال:

كان في عماء الحديث(١٧٨).

---

(١٧٨) قوله: كان في عماء.

أخرجه ابن ماجة في سننه المقدّمة باب ١٣، الحديث ١٨٢، ص ٦٤، بإسناده عن أبي رزين قال: قلت: يارسول الله! أين كان ربّنا قبل أن خلقه؟ قال: «كان في عماء، ماتحته هواء، وما فوقه هواء، وما ثمّ خلق، عرشه على الماء».

أخرجه أيضاً ابن حنبل في مسنده ج ٤، ص ١١.

ورواه أيضاً ابن أبي جمهور في عوالي اللئالي ج ١، ص ٥٤.

أقول: العماء هو برزخ بين المرتبتين، المرتبة العالية والمرتبة الدانية وله عناوين ومراحل مختلفة.

الصادر الأول عماء من وجه ومقام الأحدية أيضاً عماء من وجه كما أنّ مقام الواحديّة أيضاً عماء من وجه.

ويشير أيضاً بالعماء إلى مقام الجمع كما يشر بالغماء إلى المقامات التفصيليّة، فأصبح العماء في المراتب السفليّة غماءاً.

وكما يعبّر عن الصادر الأوّل وهو حقيقة المحمّديّة صلّى الله عليه وآله وسلّم بالهباء وبهذا يمكن أن يكون المقصود من العماء مقام الذات جلّت عظمته الّذي كان يعبّر عنه بعض مشايخنا رحمه الله بمقام الهاهوت وهو مقام غيب الغيوب وهو في حجاب مطلق.

راجع في بيان حقيقة العماء وتفسيره: مصباح الأنس ص ٧٤ وفصوص الحكم (شرح

←

....

← القيصري) ص ١١ و١٣ و٣٨ و٢٥٤.

قال ابن أبي جمهور في شرح الحديث: قال أهل الإشارة: أنّ مرتبة الأحديّة، هي مرتبة العمائية الّتي لايلزمها شيء من الصفات والأسماء والأفعال، فهي مرتبة العماء المشار إليه في الحديث، وتلك المرتبة لايمكن العلم بها، ولا وصول العقول إليها، لعدم الطريق الموصل، فلمّا تنزل من تلك المرتبة إلى مرتبة الوحدانية، الّتي هي مرتبة الصفات والأسماء والأفعال، ظهرت المسمّيات والأفعال وحصل بواسطتها التمييز والمعرفة.

وقال القيصري في شرح الفصوص ص٣٨: فأوّل ظهورها في صورة العقل الأوّل الّذي هو صورة إجماليّة للمرتبة العمائيّة المشار إليها في الحديث الصحيح (ذكر الحديث المذكور) وقال: ولذلك قال عليه السّلام: «أوّل ما خلق الله نوري» وأراد العقل كما أيّده بقوله: «أوّل ما خلق الله العقل» ثمّ في صورة باقي العقول والنفوس الناطقة الفلكيّة وغيرها وفي صورة الطبيعة والهيولى الكلّيّة والصّورة الجسميّة البسيطة والمركبة بأجمعها، ويؤيّد ما ذكرنا قول أمير المؤمنين وليّ الله في الأرضين قطب الموحدين علي بن أبي طالب عليه السّلام في خطبة كان يخطبها للناس: أنا نقطة باء بسم الله، أنا جنب الله الّذي فرطتم فيه، وأنا القلم، وأنا اللوح المحفوظ، وأنا العرش وأنا الكرسي، وأنا السّماوات السبع والأرضون إلى أن صحا في أثناء الخطبة وارتفع عنه حكم تجلّي الوحدة ورجع إلى عالم البشريّة وتجلّى له الحقّ بحكم الكثرة فشرع معتذراً فاقر بعبوديّته وانقهاره تحت أحكام الأسماء الإلهيّة، وكذلك قيل: الإنسان الكامل لابدّ أن يسري في جميع الموجودات كسريان الحقّ فيها.

قال محيي الدّين بن عربي في الفتوحات المكّيّة ج ٢، ص ٧٠، ط ج.

فاعلم أيّها الولي الحميم، أنّ المحقق الواقف العارف بما تقتضيه الحضرة الإلهيّة من التقديس والتنزيه ونفي المماثلة والتشبيه، ولا يحجبه ما نطقت به الآيات والأخبار في حقّ تعالىٰ من أدوات التقييد بالزمان والجهة والمكان كقوله عليه السّلام: أين الله؟ .... وقال تعالىٰ في الظاهر:

﴿أأمنتم من في السّماء﴾ [سورة الملك: ١٦].

وقال:

﴿وكان الله بكلّ شيء عليماً﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠].

و:

←

....

← ﴿الرّحمٰن علَى العرش استوى﴾ [سورة طه: ٥].

﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ [سورة الحديد: ٤].

﴿مايكون من نجوىٰ ثلاثة إلّا هو رابعهم﴾ [سورة المجادلة: ٧].

و«يفرح بتوبة عبده» و«يعجب من الشاب ليست له صبوة»، وما أشبه ذلك من الأدوات اللفظيّة التشبيهيّة.

وقال أيضاً في ج ٢، ص ٣٤٩، ط ج:

إعلم أنّ الله تعالى كان قبل أن يخلق الخلق ولا قبليّة زمان، وإنّما ذلك عبارة للتوصيل، تدل على نسبة يحصل بها المقصود في نفس السامع، كان جلّ تعالى في عماء، ماتحته هواء وما فوقه هواء، وهو أوّل مظهر إلى ظرفيه، سرى فيه النور الذاتي كما ظهر في قوله:

﴿الله نور السّموات والأرض﴾ [سورة النور: ٣٥].

فلمّا انصبغ ذلك العماء بالنور فتح فيه صور الملائكة المهيّمين الّذين هم فوق عالم الأجساد الطبيعيّة، ولا عرش ولا مخلوق تقدمهم، فلمّا أوجدهم تجلّى لهم، فصار لهم ذلك التجلّي غيباً، كان ذلك الغيب روحاً لهم، أي لتلك الصور، وتجلّى لهم في اسمه الجميل، فهاموا في جلال جماله فهم لايفيقون.

أقول: هناك أحاديث عن أهل البيت عليهم السّلام في نفي الأين والمكان عن الله سبحانه وتعالىٰ ولا منافات بينها وبين الحديث المذكور بعدما تبيّن المقصود منه. فأمّا الأحاديث الواردة عن المعصومين عليهم السّلام فنذكر هنا بعضها تيمّناً فهي مايلي:

روى الكليني في الكافي ج ١، ص ٩٠، الحديث ٦ بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال: «قال رأس الجالوت لليهود: إن المسلمين يزعمون أنّ عليّاً (ع) من أجدل النّاس وأعلمهم، إذهبوا بنا إليه لعلّي أسأله عن مسألة واخطِّئه فيها فأتاه فقال: يا أمير المؤمنين أنّي أريد أن أسألك عن مسألة، قال: سل عمّا شئت، قال: يا أمير المؤمنين متى كان ربّنا؟ قال له: يايهوديّ إنّما يقال: متى كان لِمَن لم يكن، فكان متى كان، هو كائن بلا كينونيّة، كائن كان بلا كيف يكون،بلى يايهودي ثمّ بلى يايهوديّ كيف يكون له قبل؟! هو قبل القبل بلا غاية ولا منتهى غاية ولا غاية لها، انقطعت الغايات عنده، هو غاية كلّ غاية فقال: أشهد أنّ دينك الحقّ وأنّ ما خالفه باطل.

وروى الصدوق في «التوحيد» ص ١١٥، الحديث ١٤ باب ما جاء في الرؤية، بإسناده ←

فإن نظرنا إلى اللغة ومعنى العماء الّذي هو الغيم الرقيق الحايل بين السّماء والأرض يكون المراد به الحضرة الواحديّة والتعيّن الأوّل الحايل بين أرض الكثرة الخلقيّة وسماء الأحديّة الذّاتيّة، وإن نظرنا إلى الإصطلاح والسئوال من لسان الأعرابي فيكون المراد به الحضرة الأحديّة، لأنّ المراد عن السئوال كان العلم بمكان خفائه قبل الظهور لأنّ الحقّ جلّ ذكره قبل الظهور لم يكن إلّا في الحضرة الأحديّة الّتي هي حضرة الذّات ومقام الإطلاق.

وعند المحقّقين ليس المراد بالقبل والبعد في مثل هذه المواضع القبليّة الزّمانيّة والبعديّة المكانيّة، لأنّ مثل هذا يليق بجنابه، وتقدّمه وتأخّره ليس إلّا بالذّات فقط كما هو معلوم لأهله ولا يلزم من هذا قدم العالم إن أردت بالعالم ماسوى الله تعالى، وإن أردت شيئاً آخر فهناك أبحاث لايليق بهذا المكان، وأمّا بحث العماء والاختلاف فيه بين العلماء، فقد سبق في الفصل السابق على هذا البحث فانظر هناك(١٧٩).

في بيان أسماء التعين الأوّل

(في المراد بالتعيّن الأوّل وبيان أسمائه)

وأمّا التعيّن الأوّل الّذي بازاء الباء في الحروف فله بحسب كلّ كمال في ذاته أو

← عن أبي عبدالله الإمام الصادق عليه السّلام قال:

إنّ الله عظيم، رفيع، لايقدر العباد على صفته، ولا يبلغون كنه عظمته، لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، ولا يوصف بكيف ولا أين ولا حيث، فكيف أصفه بكيف وهو الّذي كيّف الكيف حتّى صار كيفاً، فعرفت الكيف بما كيّف لنا من الكيف،أم كيف أصفه بأين وهو الّذي أيّن الأين حتّى صار أيناً، فعرفت الأين بما أيّن لنا من الأين، أم كيف أصفه بحيث وهو الّذي حيّث الحيث حتّى صار حيثاً، فعرفت الحيث بما حيّث لنا من الحيث، فالله تبارك وتعالى داخل في كلّ مكان، وخارج من كلّ شيء، لاتدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، لا إله إلّا هو العليّ العظيم، وهو اللطيف الخبير.

(١٧٩) قوله: فانظر هناك.

أشار به في الفصل التاسع (في العالم) وهو كل ما سوى الله سبحانه.

موجود صدر عنه إسم مناسب لتلك الكمال أو لذلك الصدور والوجود، والباء أحد أسمائه. والحكمة في ذلك انّه خليفة الله تعالىٰ، والخليفة يجب أن يكون له مناسبة بالمستخلف صورة ومعنى والحقّ تعالىٰ له أسماء كثيرة بحسب كلّ كمال وصفة فيجب أن يكون خليفة كذلك، والأسماء في الصورتين غير متناهية من حيث الجزئيّة لكن من حيث الكلّي كما ورد في الشرع بالنسبة إلى الحقّ تعالى: العليم القدير المريد المتكلّم إلى تمام المائة والألف والسبعة وغير ذلك. فكذلك لهذا الخليفة فإنّ له أسماء كثيرة بحسب الجزئي غير متناهية لكن بحسب الكلّي سمّي بالبرزخ والعماء والتعيّن الأوّل وحقيقة الحقايق وغير ذلك، وحيث إنّ هذا المكان لايحتمل مجموعها نذكر بعضها الّتي هي الأهم والأولى:

(عناوين الخليفة)

فمنها، البرزخ الجامع وذلك لجامعيّته بين الخلق والخالق والظاهر والباطن والوجوب والإمكان، لأنّ هذا الموجود الأوّل الموسوم بالإنسان الكبير، والروح الأعظم، له وجه إلى الحقّ ووجه إلى الخلق يستمدّ الفيض من الحقّ على حسب استعداده ويمدّ إلى ماتحته من المخلوقات، كما سبق ذكره عند بحث النبوّة والولاية وأخذ الوحي والإلهام من الله تعالىٰ، وأيصالها إلى الخلق، وكل برزخ هذا حالة أعني يكون فاصلاً بين الشيئين أو بين العالَمين ويكون لكلّ منها له حظ ونصيب، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿مَرَجَ البحرينِ يلتقيانِ * بينهُما برزخ لايبغيَان﴾ [سورة الرحمن: ١٩ ـ ٢٠].

وفي قوله:

﴿ومن ورائهم برزخ إلىٰ يوم يبعثون﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٠].

وفي البرازخ أبحاث كثيرة لأنّها مبتدائيّة ومنتهائيّة وما بين المبدأ والمنتهىٰ بحسب كلّ عالمين وما بينهما ستعرفها إن شاء الله.

ومنها الخليفة الأعظم، وذلك لخلافة الحق والقيام بقضاء حوائج عبيده في العالمين صورة ومعنىً لقوله تعالى:

﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خَليفة﴾ [سورة البقرة: ٣٠].

ولقوله:

﴿يا داوُد إنّا جعلناكَ خليفة في الأرض فاحكم بينَ النّاس﴾ [سورة ص: ٢٦].

وقد تقدّم بحث الخلافة الكبرى والصغرىٰ بالنّسبة إلى الإنسان الكبير والإنسان الصغير مبسوطاً في المقدمة السابقة على هذه المقدّمة فارجع إليها فإنه ليس من الأدب العود إلى ما سبق.

ومنها حقيقة الحقايق، وذلك لرجوع الحقايق كلّها وصدورها منها وقد سبق تحقيقها مبسوطاً في الفصل السابق وتقسيمها إلى ثلاثة:

الأولى حقيقة مطلقة بالذّات، فعّالة مؤثرة بالذّات وجودها واجب لها من ذاتها وهو عينها غير زايد عليها، وهي حقيقة الله سبحانه.

والثانية حقيقة منفعلة بالذّات مقيّدة متأثّرة سافلة قابلة مستفيدة للوجود من الحقيقة الواجبيّة بالفيض والتجلّي وهي حقيقة العالم وحقيقته ثلاثة هي أحديّة جمعيّة بين الإطلاق والتقييد والفعل والتأثير والإنفعال والتأثر فهي مطلقة من وجه مقيّده من وجه آخر، فعّالة باعتبار، منفعلة باعتبار، وهذه الحقيقة أحديّة جمع الحقيقيين، ولها المرتبة الأوّليّة الكبرىٰ والآخريّة العظمى، فإن أردت تحقيق ذلك أبسط من هذا فاطلب من موضعه والسّلام.

ومنها العقل الأوّل، لتعقّله الموجود ولتعقّله الأشياء كلّها إجمالاً في نفسه وتفصيلاً في المرتبة الثانية الّتي هي مرتبة النفس الكلّيّة، ولتعقّله ذاته على ماهي عليها من الإمكان والقبول لما يفيض عليه الفايض المطلق، وأمثال ذلك، وورد(١٨٠):

---

(١٨٠) قوله: وورد: أوّل ما خلق الله العقل.

روى محمّد بن يعقوب الكليني في اصول الكافي كتاب العقل والجهل الحديث ١، ص ١٠، بإسناده عن محمّد بن مسلم، عن الباقر عليه السّلام قال:

لمّا خلق الله العقل استنطقه ثمّ قال له: أقبل، فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال: ←

أوّل ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فاقبل، وقال له: أدبر فأدبر فقال: ما خلقت خلقاً أعزّ إليّ منك بك أعطي وبك آخذ وبك أثيب وبك أعاقب الحديث بتمامه.

ومنها النور لإضاءته بنفسه وإضافته على غيره من الموجودات كالشمس مثلاً فإنّها مضيئة بنفسها ومفيضة على غيرها من القمر والكواكب ويصدّق ذلك قول النبيّ صلّى الله عليه وآله:

أوّل ما خلق الله تعالى نوري[١٨١].

← وعزّتي وجلالي ماخلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك ولا أكملتك إلّا فيمن أحبّ، أما إنّي إيّاك آمر، وإيّاك أنهى، وإيّاك أعاقب، وإيّاك أثيب.

وقريب منه الحديث ٣٢، ص ٢٧ والحديث ٢٦، ص ٢٦ وروى أيضاً في ص ٢٠، الحديث ١٤، بإسناده عن سماعة بن مهران، قال: قال الصادق (ع):

إنّ الله عزّ وجلّ خلق العقل وهو أوّل خلق من الروحانيّين عن يمين العرش من نوره، فقال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال له: أقبل، فأقبل، فقال الله تبارك وتعالى: خلقتك خلقاً عظيماً وكرّمتك على جميع خلقي. الحديث.

وروى الصدوق (رضي) في الفقيه ج ٤، ص ٢٦٧، باب ١٧٦، باب النوادر بإسناده عن أمير المؤمنين عليّ (ع)، عن النّبي (ص) قال:

إنّ أوّل خلق خلقه الله عزّ وجلّ العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر، فقال الله: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب، وبك أعاقب.

وأخرج أبو نعيم في حلية الأولياء ج ٧، ص ٣١٨، بإسناده عن عايشة قالت: حدثني رسول الله (ص):

أنّ أوّل ما خلق الله سبحانه وتعالىٰ العقل، فقال أقبل فأقبل، ثمّ قال: أدبر فأدبر، ثمّ قال: ما خلقت شيئاً أحسن منك، بك آخذه وبك أعطي.

(١٨١) قوله: ويصدّق ذلك قول النّبي (ص): أوّل ما خلق الله تعالىٰ نوري.

روى المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار ج ١٥ ص ٢٣ الحديث ٤٤ عن كتاب لفضل الله ابن محمود الفارسي (المخطوط) بإسناده عن جابر بن عبدالله قال:

قال رسول الله (ص):

←

ثمّ قول الله تعالى:

﴿الله نور السّموات والأرض مثل نوره كمشكاة﴾ [سورة النور: ٣٥].

ومنها القلم الأعلىٰ، لإضافته العلوم والحقايق على النفس الكلّيّة بالتخصيص وعلى ما دونها بالتّعميم.

﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ [سورة القلم: ١].

إشارة إلى هذا المعنى. وكذلك قوله عليه السّلام:

«أوّل ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فكتب كلّ مايجري إلى يوم القيمة وجفّ القلم بما هو كائن»(١٨٢).

إشارة إليه.

ومنها الروح الأعظم، لإفاضته الحياة الحقيقيّة على الكلّ وإستفاضته من الحقّ بغير الواسطة.

﴿ونفخت فيه من روحي﴾ [سورة الحجر: ٢٩].

← أوّل ما خلق الله نوري، ابتدعه من نوره، واشتقّه من جلال عظمته.

وأيضاً في الحديث ٤٣ عن جابر بن عبدالله قال: قلت لرسول الله (ص): أوّل شيء خلق الله تعالىٰ ما هو؟ فقال:

نور نبيّك يا جابر، خلقه الله ثمّ خلق منه كلّ خير.

ورواهما أيضاً في ج ٢٥ ص ٢٢ الحديث ٣٦ و ٣٧.

وروى الكليني في أصول الكافي ج ١ ص ٤٤٢ الحديث ٩ بإسناده عن أحمد بن علي عن الصادق عليه السّلام قال:

إنّ الله كان إذ لا كان، فخلق الكان والمكان وخلق نور الأرض الّذي نوّرت منه الأنوار، وأجرى فيه من نوره الّذي نوّرت منه الأنوار وهو النّور الّذي خلق منه محمّداً وعليّاً. الحديث.

راجع أيضاً تعليقتنا الرقم ١٨٠، وفي الجزء الأوّل الرقم ٧٣ و ٧٤ و ٧٥.

(١٨٢) قوله: جفّ القلم.

راجع تعليقتنا الرقم ٥٤ و ٩٧.

إشارة إلى نفخه الروح الجزئي في الإنسان الصغير لأنّه كالأب بالنسبة إلى ذريّته الصوريّة والمعنويّة، لقول النبيّ صلّى الله عليه وآله:

«كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطّين»(١٨٣).

ولقول عارف أمّته فيه:

وإنّي وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوّتي(١٨٤)

في ذكر عبارة الشيخ الأكبر في بيان التعيّن الأوّل

هذا ما عندي، فأمّا الشيخ الأعظم محيي الدّين ابن عربي قدّس الله سرّه قد أشار إلى هذا المعنى في «التدبيرات الإلهيّة»(١٨٥) وإلى اختلاف العلماء بحسب العبارة، وإلى الّذي سنح له بحسب كلّ إسم واصطلاح، وهو حسن بذكره، ثمّ نرجع إلى القسم الثاني، وهو قوله:

إعلم، نوّر الله بصيرتك أنّ أوّل موجود اخترعه الله تعالى، جوهر بسيط روحاني فرد غير متحيّز في مذهب قوم، ومتحيّز في مذهب آخرين إرادة واختياراً. ولو شاء سبحانه لاخترع موجودات متعدّدة دفعةً واحدة خلافاً لما يدّعيه بعض الفلاسفة (الناس) من أنّه: لايصدر عن الواحد إلّا الواحد(١٨٦). ولو كان هذا، لكانت الإرادة

---

(١٨٣) قوله: كنت نبيّاً وآدم.

راجع تعليقتنا الرقم ٤٥، في الجزء الأوّل ص ٢٦٧.

(١٨٤) قوله: وإنّي وإن كنت، (شعر).

ذكره السيّد المؤلف في نصّ النصوص أيضاً ص ٤٩٨.

(١٨٥) قوله: في (التدبيرات الإلهيّة).

راجع (التدبيرات الإلهيّة في اصلاح المملكة الإنسانيّة) ص ١٢١ إلى ١٢٨، نقله المؤلف مع حذف بعض الكلمات وتغييرها وأشرنا إلى بعضها أحياناً.

(١٨٦) قوله: خلافاً لما يدّعيه بعض الفلاسفة من أنّه لايصدر عن الواحد إلّا الواحد.

←

. . . .

← عنون هذه القاعدة ـ أي الواحد لايصدر عنه إلّا الواحد. الفلاسفة وبعض المتكلمين في كتبهم وهي قاعدة مشهورة وكأنّ مفهومها مسلّم عند الحكماء، ولا ريب عندهم فيها، ولا شكّ أنّ تصوّر الصحيح من الوحدة والبساطة وما قصد بها الحكماء، يوجب تصديقها والاشكال أو الشبهات الّتي توجد في بعض الكلمات أحياناً نشأت من عدم تصورها وعدم تصور المراد منها صحيحاً.

ولا بأس بذكر بعض ما قال بعض العرفاء أو الحكماء والمتكلمين حول هذه القاعدة هنا وذكر بعض البراهين الّتي أقاموها على إثباتها بعدما ذكروا أنّها أمر بديهيّ، والبراهين حولها من قبيل التنبيه، وأمّا البحث فيها تفصيلاً يحتاج إلى كتابة رسالة مستقلة ومقام آخر، هذا وإليك بعض تلك العبارات.

ابن عربي في الفتوحات ج ٤، ص ١٥٥ ط ج:

وصل، كلّ خط يخرج من النقطة إلى المحيط، مساوٍ لصاحبه؛ وينتهي إلى نقطة من المحيط، والنقطة في ذاتها ما تعدّدت ولا تزيدت مع كثرة الخطوط الخارجة منها إلى المحيط، وهي تقابل كل نقطة من المحيط بذاتها، إذ لو كان ما تقابل به نقطة من المحيط غير ما تقابل به نقطة أخرى لانقسمت ولم يصح أن تكون واحدة، وهي واحدة، فما قابلت النقط كلّها على كثرتها إلّا بذاتها، فقد ظهرت الكثرة عن الواحد العين، ولم يتكثر هو في ذاته، فبطل من قال: «إنّه لايصدر عن الواحد إلّا واحد».

وقال أيضاً في ج ١٠، ص ٣٩١ ط ج:

فلا أدري في العالم أجهل ممّن قال: «لايصدر عن الواحد إلّا واحد» مع قول صاحب هذا القول: بالعليّة، ومعقوليّة كون الشيء علّة لشيء (هي) خلاف معقوليّة شيئيته، والنِسَب من جملة وجوه الجمع، فما أبعد صاحب هذا القول من الحقائق، ومن معرفة مَن له الأسماء الحسنى، ألا ترى أهل الشرائع ـ وهم أهل الحقّ ـ يقولون: بنسبة الألوهة لهذا الموجِد للمكن المألوه، ومعقول الألوهة ماهو معقول الذات، فالأحديّة معقولة، لاتتمكّن العبارة عنها إلّا بمجموع، مع كون العقل يعقلها وهي أحديّة المجموع وآحادُهُ.

ألا ترى أنّ التجلّي الإلهي لايصحّ في الأحديّة أصلاً، وما ثمّ غير الأحديّة، وما يتعقل أثر عن واحد لا جمعيّة له، فياليت شعري كيف جهلت العقول ماهو أظهر من الشمس فيقول قائلهم: «ما مصدر عن الواحد إلّا واحد» ويقول: «إنّ الحقّ واحدٌ من جميع ←

. . . .

← الوجوه»، وهو يعلم أنّ النِسَب من بعض الوجوه وأنّ الصفات في مذهب الآخر من بعض الوجوه، فأين الواحد من جميع الوجوه؟

فلا أعلم من الله بالله، حيث لم يفرض الوحدة إلّا أحديّة المجموع وهي أحديّة الألوهة له تعالى فقال:

﴿هُوَ اللهُ الَّذي لا إلٰهَ إلّا هو عالِمُ الغيبِ والشَّهادةِ هوَ الرَّحمٰنُ الرَّحيم * هوَ اللهُ الَّذي لا إلٰهَ إلّا هوَ الملِكُ القدّوسُ السَّلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبّارُ المتكبِّرُ سبحانَهُ اللهِ عمّا يُشرِكون * هوَ اللهُ الخالقُ البارئُ المصوِّرُ لهُ الأسماءُ الحُسنىٰ﴾ [سورة الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

وهي تسعة وتسعون إسماً، مائة إلّا واحداً، وكلّ اسم واحد مدلوله ليس مدلول عين الإسم الآخر، وإن كان المسمّى بالكلّ واحداً، فما عرف الله إلّا الله.

وقال ابن عربي في الفتوحات أيضاً ج ١٣، ص ٦٦، ط ج وج ٢، ص ١١٥ ط ق حين ما شرح معنى (القبضة) في قوله تعالى: ﴿والأرض جميعاً قبضته﴾ [سورة الزمر: ٦٧]:

فالقبضة على الحقيقة (هي) قوله تعالىٰ:

﴿وكان الله بكلّ شيء محيطاً﴾ [سورة النساء: ١٢٦].

﴿ألا إنّه بكلّ شيء محيط﴾ [سورة فصّلت: ٥٤].

ومن أحاط بك فقد قبض عليك، لأنّه ليس لك منفذ مع وجود الإحاطة، وإلّا فليست إحاطة، وما هو محيط، وصورة ذلك أنّه ما من موجود سوى الله من الممكنات إلّا وهو مرتبط بنسبة إلٰهيّة وحقيقة ربّانيّة تسمّى أسماءاً حسنىٰ، فكلّ ممكن في قبضة حقيقة إلٰهيّة، فالكلّ في القبضة. إلى أن قال: ومن هنا وُجد في العالم الأمور المبهمة، لأنّه ما من شيء في العالم إلّا وأصله من حقيقة إلٰهيّة، ولهذا وصف الحقّ نفسه بما يقوم الدليل العقلي على تنزيهه عن ذلك....... إلى أن قال: فالعامّة في مقام التشبيه وهؤلاء أعني أصحاب الكشف في مقام التشبيه والتنزيه، والعقلاء في مقام التنزيه خاصّة، فجمع الله لأهل خاصّته بين الطرفين.

فمن لم يعرف القبضة هكذا فما «قدر الله حق قدره» ـ. فإنّه إن لم يقل العبد: ان الله «ليس كمثله شيء» ـ فما «قدر الله حق قدره» وإن لم يقل: «إنّ الله خلق آدم بيده» فما «قدر الله حق قدره». وأين الإنقسام من عدم الإنقسام، وأين المركّب من البسيط؟ فالكون يغاير مركّبَهُ بسيطَه، وعددُهُ توحيدهوأحديّته، والحقّ: عين تركيبه عين بسيطه، عين أحديّته عين كثرته، من غير مغايرة ولا اختلاف نِسب، وإن اختلف الآثار فعن عين واحدة، وهذا

←

. . . .

→ لايصح إلّا في الحقّ تعالى، ولكن إذا نسبنا نحن بالعبارة فلابدّ أن نغاير: كان كذا من نِسبة كذا، وكذا من نسبة كذا، لابدّ من ذلك للإفهام.

وهنا كلام للسيّد الجليل المؤلف قاله في جامع الأسرار وهو هذا:

وأمّا التوحيد الفعلي.... اعلم أنّ الله تعالىٰ عبارة عن صدور الموجودات عنه، إجمالاً وتفصيلاً، غيباً وشهادة، من الأزل إلى الأبد، صدوراً غير منقطع، لقوله تعالى:

﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ [سورة الرحمن: ٢٩].

ولقوله تعالى:

﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾ [سورة ق: ١٥].

وبيان ذلك على حسب الترتيب هو أنّ الله تعالىٰ لما أراد التنزّل من حضرة الذات إلى حضرة الأسماء والصفات، ومنها إلى حضرة الأكوان المعبّر عنها بالعالم، والظهور بصورها (الثابتة) في قوله:

«كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق».

ظهر أوّلاً بصورة حقيقة كليّة وتعيّن بها وتقيّد بصورتها وهي حقيقة «الإنسان الكبير» المسمّى بآدم، لقول النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم:

«خلق الله تعالىٰ آدم على صورته».

أعني «آدم الحقيقي» لا آدم الصّوريّ، وهذه الحقيقة لها أسماء كثيرة بحسب اعتباراتها، منها النور، لقوله (ص):

«أوّل ما خلق الله نوري».

ومنها العقل لقوله:

«أوّل ما خلق الله العقل».

ومنها القلم، لقوله:

«أوّل ما خلق الله القلم».

ومنها الروح الأعظم، لقوله:

«أوّل ما خلق الله الروح».

وغير ذلك من الأسماء.

ثمّ بعد ذلك ظهر تعالىٰ بصورة حقيقة أخرى، وهي هذا الإنسان المسماة بـ«حواء

←

. . . .

← الحقيقيّة» المخلوقة من ضلعه الأيسر لا الأيمن، لأنّ ضلعه الأيمن (مصروف) إلى الله تعالى لا غير، أعني (مصروفاً) إلى الحقّ لا إلى الخلق، لقوله تعالى:

﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ [سورة الأعراف: ١٨٩].

ولها أيضاً أسماء كثيرة منها النفس الكلّيّة، واللوح المحفوظ والكتاب المبين، وغير ذلك من الأسماء بحسب اعتباراتها أيضاً.

ثمّ ظهر بواسطة هاتين الحقيقتين بصورة كلّ موجود في الوجود، علماً كان أو عيناً، بسيطاً كان أو مركّباً، لطيفاً كان أو كثيفاً من العقول والنفوس والأفلاك والأجرام والعناصر والمواليد، لقوله تعالى:

﴿وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾ [سورة النساء: ١].

وكذلك إلى ما لا يتناهي، أي وكذلك يظهر بصورة كلّ موجود بحسب الجزئيّات والكلّيّات أيضاً، إلى مالا يتناهي. فليس في هذا العالم، أو في هذا الوجود، فاعل بالحقيقة إلّا هو، ولا فعل إلّا له:

﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين﴾ [سورة الأعراف: ٥٤].

هذا على مذهب أهل التحقيق من أرباب التوحيد وأهل الباطن، وههنا دقيقة بل دقائق، بسبب اسناد الأفعال كلّها إلى الله تعالى، لأنّه (أي هذا الرأي) قريب إلى مذهب الأشعريّ، ولكن (عند التحقيق) ليس كذلك.

وأمّا على مذهب أهل الشريعة من أرباب الظاهر، فإنّه تعالى خلق أوّلاً جوهرةً، ثمّ نظر إليها، فذابت وصارت نصفين، فخلق من نصفها «عالم الأمر» ومن نصفها «عالم الخلق»، لقوله تعالى:

﴿أنّ السّموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠].

وخلق بعد تلك الجوهرة جواهر أخر، ثمّ الأجساد، ثمّ الأعراض، ثمّ الأفلاك، ثمّ الأجرام، ثمّ ابتداء الموجودات وإيجادها من العناصر، وليس بين العبارتين فرق عند التحقيق.

وأمّا على مذهب الحكيم فإنّه يقول: أوّل شيء صدر من الله تعالى هو العقل الأوّل، ثمّ النفس الكلّيّة، ثمّ الأفلاك، ثمّ الأجرام إلى آخرها، وكلّ ذلك عنده معلول له، وهو علّتها، أمّا بواسطة أو بغير واسطة، وكذلك كان في الأزل و(كذلك) يكون إلى الأبد، لأنّ انفكاك

←

....

← العلّة عن المعلول عنده محال، والمراد بذلك أنّ صدور الموجودات منه تعالىٰ لاينقطع أزلاً وأبداً.

وليس ههنا أيضاً إلّا اختلاف العبارة، وإلّا عند النظر الصحيح حاصله حاصل كلام المحققين، لأنّ «ظهر» و«خلق» و«صدر» ألفاظ متغايرة بمعنى واحد.

وبالجملة كلّهم قائلون بأنّ هذه الأفعال أفعال الله تعالى بلا خلاف ولكن غاية ما في الباب أنّ بعضهم قائلون بالواسطة، وبعضهم بعدمها، وعلى جميع التقادير ليس الفاعل فيها حقيقة إلّا هو. جامع الأسرار ص ١٤٤، وقال أيضاً في نفس الكتاب ص ٤٨١، نقلاً عن المحقق الطوسي في الاشكال على قاعدة الواحد:

قوله قدّس سرّه: «قالت الفلاسفة: الواحد لايصدر عنه إلّا واحد، وكلّ شبهة لهم على هذه الدعوى (هي) في غاية الركاكة، ولذلك قالوا:

لا يصدر عن البارئ تعالى بلا واسطة إلّا عقل واحد، والعقل فيه كثرة، هي الوجوب والإمكان ويعقّل الواجب ويعقّل ذاته، ولذلك صدر عنه عقل آخر ونفس وفلك مركّب من الهيولى والصورة.

ويلزمهم أنّ أيّ موجودين فرضنا (وجودهما) في العالم كان أحدهما (ضرورةً) علّةً للآخر، بواسطة أو بغيرها، وأيضاً: التكثّرات الّتي في العقل، إن كانت موجودة صادرة عن البارئ لزم صدورها عن الواحد، وإن صدرت عن غيره، لزم تعدّد الواجب، وإن لم تكن موجودةً لم يكن تأثيرها في الموجودات معقولاً.

كلمات بعض الحكماء في المقام:

قال الحكيم ميرداماد في القبسات ص ٣٥١:

من أمّهات الأصول العقليّة، أنّ الواحد بما هو واحد لايصدر عنه من تلك الحيثيّة الواحدة إلّا واحداً، إذ ليس في طباع الكثرة بما هي كثرة أن تصدر عن علّة واحدة من حيثيّة واحدة، فلعلّ هذا الأصل بما تلوناه عليك في الضابط من فطريّات العقل الصريح، إذا كان القلب سليماً والقريحة غير مَؤوفةٍ راجع القبسات في بحثه حول هذه القاعدة ص ٣٥١ إلى ص ٣٧٢.

قال قطب الدّين الشيرازي في شرح حكمة الأشراق ص ٣١٤:

(فصل في انّ الواحد الحقيقي وهو الواحد من جميع الوجوه لايصدر عنه من حيث هو

←

. . . .

→ كذلك أكثر من معلول واحد)؛ وإن جاز صدور أكثر من ذلك باعتبارات وشرائط مختلفة مثل تعدد الآيات والقوابل وما يجري مجراها، وهذا الحكم قريب من الوضوح يكفي فيه مجرّد التنبيه، وإنّما يتوقف فيه من يغفل عن معنى الواحد الحقيقي وإليه أشار (المصنّف الشيخ الإشراق):

لا يجوز أن يحصل من نور الأنوار غير نور من الظلمات.

راجع حكمة الإشراق ص ١٢٥ إلى ص ١٤٨، المقالة الثانية. وص ٣١٤ إلى ص ٣٥٦ من شرح حكمة الإشراق.

قال صدر المتألّهين في تعليقته على شرح حكمة الإشراق ص ٣١٤:

انّ الوجود البسيط الّذي لا تركيب فيه أصلاً لايكون علّة لشيئين بينهما معيّة في الوجود، لأنّ معنى كون البسيط علّة لشيء أنّ حقيقة البسيط عن علّة ذلك الشيء بحيث لايمكن تحليلها إلى ذات وعلّة، ولا إلى حيثيتين باحديهما يتجوهر ذاته وبالأخرىٰ يحصل شيئاً آخر، كما أنّ لنا تسيئين بأحدهما نتجوهر وهو النطق وبالآخر نكتب وهو القدرة على الكتابة، فإذا كان المبدأ كذلك وصدر عنه شيئان كـ أ و ب يلزم منه المحال إذ لاشكّ أنّ مفهوم كون الشيء بحيث يجب عنه أغير مفهوم كونه بحيث يجب عنه ب، وأنّ معنى مصدر أغير معنى مصدر ب، لأنّ خصوصيّة كلّ معلول إنّما نشأت من خصوصيّة علّته المفيضة فإذا كان معلول خصوصيتين مختلفتين فلابدّ أن يكون لعلّته أيضاً خصوصيّتان مختلفتان، فيقوّم ذاته من معنيين مختلفين فلا يكون بسيطاً هذا خلف، وهذه المقدمه قريب من الأوليّات عند من عرف الواحد الحقيقي.

فإنّ الموجود الأوّل واجب الوجود من جميع جهاته بلا كثرة، وأنّه أحديّ الذات، أحديّة الصفة وان لا صفة له بالحقيقة إلّا وجوب الوجود ومعاني سائر الصفات يرجع إليه وهو يرجع إلى ذاته فيكون أحديّ الفعل، لا فعل له إلّا إفاضة نور الوجود على الأشياء على ترتيب الأشرف فالأشرف، فالكثرة إنّما جائت بعد ذاته وبعد فيضه الأقدس بواسطة جهة نقصان الوجود وضعف النوريّة ولزوم الإمكانات وشوب الظلمات.

قال السبزواري في أسرار الحكم ص ١٧٤: ما أنكر هذه القاعدة إلّا من يريد سدّ باب العقل.

قال المحقق الطوسي في شرح الاشارات ج ٣، ص ١٢٢:

←

. . . .

← انّ الواحد الحقيقيّ لايوجب من حيث هو واحد إلّا شيئاً واحداً بالعدد و(كأن) هذا الحكم قريب من الوضوح ولذلك وَسَمَ (الشيخ الرئيس) الفصل بالتنبيه، وإنّما كثرت مدافعة الناس إيّاه لإغفالهم عن معنى الوحدة الحقيقيّة. راجع الاشارات ج ٣، ص ١٢٣ وص ٢١٠ وص ٢٤٣.

قال ابن فناري في مصباح الأنس بعد البحث في بيان وجوه القلب نقلاً عن تفسير الفاتحة للقونوي ص ٢٩:

وتأنيسه، قولهم: الواحد من كلّ وجه لايصدر عنه إلّا الواحد، إذ لو صدر عنه اثنان لكان له علّتان، فهو مع كلّ علّتيه غيره مع الأخرى فهو اثنان ولو من جهتين.

لا يقال: فلا يصدر عنه واحد أيضاً وإلّا لكان له عليّة فهو معها غيره بدونها.

لأنّا نقول ليس المراد بالعليّة النسبة الّتي بين العلّة والمعلول، فإنّ النّسبة غير المنتسبين قطعاً، بل المراد كونه بحيث يصدر عنه وأنّ من شأنه الصدور عنه وهذا عينه، ولذا لايوجب اعتبار الغير ولا التعدّد من حيث هو هو بخلاف العلّتين، فإنّ تعدّهما قطعاً باعتبار الغيرين.

فإن قلت: عدم إيجابه اعتبار الغير مسلّم أمّا عدم لزوم التعدّد فلا كما قلنا أنّه بدون ذلك الشأن غيره معه.

قلت: المراد بالواحد من كلّ وجه مّا لايعتبر معه غيره لا مالا يعتبر صفته الذاتيّة أيضاً كالواحدة والوجوب الذاتيّين وغيرهما.... إلى أن قال: ثمّ اعلم أنّ الأصل مسلّم عندنا لكن في تعريفهم (تفريعهم): انّ الواحد الصادر الأوّل عن الحق تعالىٰ هو العقل الأوّل نعم ذكره الشيخ في الرسالة المفصحة وهو لم لايجوز أن يكون ذلك الواحد الصادر الأوّل عن ذات الحق هو الوجود العام كما هو عند المحققين وهو الفيض الذّاتي المعبّر عنه بالتجلّي الساري في حقايق الممكنات والامداد الإلهي المقتضي قوام العالم وهو الوجود المنبسط والرق المنشور الخ فراجع ص ٢٩ و٣٠.

أقول: وأنت خبير أيّها القارئ العزيز إنّ الكلام نفس الكلام ولا خلاف بينهما، والعقل الأوّل في لسان الحكمة المتعالية شأن من شئون الصادر الأوّل وهو النور المحمّدي (ص) وله أسماء مختلفة كما ذكر بعضها ابن فتاري وهذا هو الّذي قال تبارك وتعالى:

﴿وما أمرنا إلّا واحدة﴾ [سورة القمر: ٥٠].

←

قاصرة، والقدرة ناقصة، إذ وجود أشياء متعدّدة دفعة واحدة ممكن لنفسه غير ممتنع، والممكن محلّ (تعلّق) القدرة، فإن ثبت أنّ أوّل موجود واحد فباختيار منه تعالى.

وعبّر أهل الحقايق عن هذا الموجود المشار إليه بعبارات مختلفة. لكلّ عبارة خصوصيّة وتحتها فوائد.

فمنهم من (عبّر) «بالمادّة الأُولى»، ومنهم من عبّر «بالعرش»، ومنهم من عبّر «بالمعلّم الأوّل»، ومنهم من عبّر «بالإمام المبين»، ومنهم من عبّر «بمرآة الحقّ»، وأمثال ذلك، فلنذكر الآن تلك الأسماء بعباراتهم مع ما سنح لنا من الله الجواد.

فنقول: امّا ما أطلق عليها (عليه) بعض المحققين من أهل المعاني، «المادّة الأولى»، فكان الأولى أن يطلق عليه المُمَدّ الأوّل في المحدثات لكنّهم سمّوه بالصّفة الّتي أوجدها الله تعالى لها، وهذا ليس ببعيد أن يسمّى الشيء بما قام به من الصفات، وإنّما عبّر عنه

← وإن شئت الاطلاع على أكثر من هذا حول هذه القاعدة المسلّمة الّتي لاريب فيها فراجع الأسفار الأربعة لصدر المتألهين ج ٢، ص ١٩٤ الفصل ١١ وص ٢٠٤، الفصل ١٣، وأيضاً المجلد السابع الموقف التاسع ص ١٩٣، إلى ص ٢٤٤، وأيضاً المجلد الثامن ص ٦٠.

وراجع أيضاً كتاب (أصل الأصول) (ملّا نعيما طالقاني) ص ٨٠ إلى ص ١٠٣ وأيضاً انظر رسالة (اثبات واجب) (ملّا رجبعلي تبريزي) ـ في كتاب (منتخباتي از آثار حكماء إلهي) ج ص ٢٢٠، ولمعات إلهيّة للزنوزي ص ١٦٥ وشرح المقاصد للتفتازاني ج ٢، ص ٩١ إلى ٩٨.

وكتاب اثولوجيا لافلاطون ص ٧٣، وأساس التوحيد للآشتياني ص ١٥، والتحصيل لبهمنيار ص ٥٣١ ـ وشوارق الالهام في شرح تجريد الكلام للفيّاض ج ١، ص ٢٠٥ المسألة الثانية من الفصل الثالث.

ونهاية الحكمة للسيّد الطباطبائي الفصل الرابع من المرحلة الثامنة ص ١٦٥.

وتلخيص المحصل (نقد المحصل) ص ٢٣٧.

هذا وبناء على نظريّة المدرسة الحكمة المتعالية من أنّ الموجودات كلّها وجود ربطيّ، والإضافة إشراقية، وأنّها جميعاً على نحو المعاني الحرفيّة غير المستقلّة، فالموجد لها جميعاً هو الله سبحانه وتعالى، لا تكون هذه الأمور والأسباب المتوسّطة إلّا عللاً معدّةً وليست هي عللاً موجِدة بذاتها.

بالمادّة الأولىٰ، لأنّ الله تعالىٰ خلق الأشياء على ضربين: منها ما خلق من غير واسطة سبب وجعله سبباً لخلق شيء آخر والإعتقاد الصحيح أنّه تعالى يخلق الأشياء عند الأسباب لا بالأسباب خلافاً لمخالفي أهل الحقّ، والّذي يصحّ أنّ أوّل موجود مخلوق من غير سبب متقدّم، ثمّ صار سبباً لغيره ومادّة له ومتوقفا ذلك الغير عليه أي على العقل الأوّل الّذي تقدّم كتوقف الشبع على الأكل، والريّ على الشرب عادة، وكتوقّف العالم على العلم والحياة على الحيّ عقلاً، وكتوقف الثواب على فعل الطاعة والعقاب على المعصية شرعاً. فلمّا لحظوا هذا المعنى سمّوه بالمادّة الأولىٰ وهو حسن ولا حرج عليهم في ذلك لا شرعاً ولا عقلاً.

وعبّر عنه بعضهم «بالعرش»، والّذي حملهم على ذلك أنّه لمّا كان العرش محيطاً بالعالم في قول، أو هو جملة العالم في قول آخر، وهو منبع إيجاد الأمر والنهي، ووجدوا هذا الموجود المذكور آنفاً يشبه العرش من هذا الوجه أعني الإيجاد والإحاطة فسمّوه بالعرش، فكما أنّ العرش محيط بالعالم وهو الفلك التاسع (في مذهب قوم) كذلك هذا الخليفة محيط بالعالم الإنساني، ألا ترى قوله تعالى:

﴿على العرش استوىٰ﴾ [سورة طه: ٥].

في مَعرض التمدّح فلو كان في المخلوقات أعظم منه لم يكن ذلك تمدّحاً.

سرّ للخواص، لكن ههنا سرّ نرمزه ليلتذّ به صاحبه إذا وقف عليه وهو قوله تعالى:

﴿الرّحمٰن على العرش استوىٰ﴾ [سورة طه: ٥].

والعرش المذكور في هذه الآية «مستوى الرّحمن» وهو محلّ الصفة والخليفة الّذي سمّيناه عرشاً حملاً على هذا «مستوى الله» جلّ جلاله، فبيْن العرشين مابين الله والرّحمن وإن كان أيّاماً تدعوا فله الأسماء الحسنى، فلا خفاء عند أهل الأسرار فيما ذكرناه، وحدّ الاستواء من هذا العرش المرموز قوله صلّى الله عليه وآله:

«خلق الله تعالى آدم على صورته»(١٨٧).

---

(١٨٧) قوله: خلق الله الآدم على صورته.

فالعرش الحامل للذّات، والمحمول عليه الصّفة (للصفة) فتحقّق أيّها العارف وتنبّه أيّها الواقف وانعم أيّها الوارث، والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.

وعبّر عنه بعضهم «بالمعلّم الأوّل»، والّذي حملهم على ذلك انّه لما تحققت عندهم خلافته وانّه حامل الأمانة الأوّليّة (الالهيّة) ونسبته من العالم الأصغر نسبة آدم من العالم الأكبر وقد قيل في آدم:

﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها﴾، كذلك هذا الموجود، ثمّ خاطب الملائكة فقال:

﴿أنبئُوني بأسماء هٰؤلاء إن كُنتم صادقين * قالوا سُبحانك لا علم لنا إلّا ما علّمتنا﴾ [سورة البقرة: ٣١ ـ ٣٢].

فأمر الخليفة أن يعلّمهم ما لم يعلموا، فأمرهم الله سبحانه بالسجود لمعلّمهم، سجود أمر كسجود النّاس (إلى) الكعبة (١٨٨)، وتشريف، لا سجود عبادة نعوذ بالله لا أشرك به أحداً. ويكون (فيكون) في هذا العالم الإنساني ثمرة السجود لا نفس السجود، والسجود إنّما هو التّواضع والخضوع والإقرار بالسبق والعجز والشرف والتقدّم (له)، كتواضع التلميذ لمعلمه وإذا حصل موجود (في) مقام تتعلم منه الملائكة، فأحرى من دونهم، وكذلك (وذلك) تشريف الله سبحانه، ودليل قاطع على ثبوت إرادته يختص برحمته من عبادة من يشاء.

سرّ للخواصّ، وهو حين أوقع الأسماء هل عاين المسمّيات أم لا وإلّا كيف يصحّ إطلاق اسم من غير مسمّى، وهذا موضع نظر وفكر، وسرّ السجود هنا لايمكن إيضاحه، وقد ذكرناه في مطالع الأنوار الإلهيّة، فأما هل عاين المسمّيات؟ فقد نبّه على

---

(١٨٨) قوله: كسجود النّاس إلى الكعبة.

أقول: الكعبة قبلة النّاس ومحور الأرض في الظاهر وفي الصّلاة الصوريّة، وباطن الكعبة بيت المعمور وهو قبلة وكعبة لطواف ملائكة الأرض، وباطن بيت المعمور العرش وهو مطاف الملائكة العالين، وباطن العرش هو قلب الإنسان وباطن كل هذه وأصل العالم وقلب العالم وكعبة كل المخلوقات والموجودات هو الإمام والولي المطلق في كل عصر. وسيأتي إنشاء الله في الجزء الثالث في التفسير في تعاليقنا شرحاً تفصيلياً في هذا الموضوع فانتظر.

ذلك بقوله: بأسماء هؤلاء، فالهاء للإشارة والتنبيه ولا تقع الإشارة إلّا على حاضر، وإن كانت الإشارة في هذا الطريق نداءً على رأس البُعد وبوح (بوحاً) بعين العلّة.

فنقول: إنّه عاين المسمّيات لكن على صورة مّا وذلك أنّه عاينها في نفسه من حيث إنّه مجمع (مجموع) أسرار العالم ونسخته الصغرىٰ وبرنامجه الجامع لفوائده وهذه فائدة الإشارة بقوله تعالى: ﴿هؤلاء﴾ حقّنا، وهو المطلوب والغرض في هذا الكتاب.

وعبّر عنه بعضهم «بمرآة الحق والحقيقة»، والّذي حملهم على ذلك (أنهم) لمّا راؤها موضع تجلّي الحقايق والعلوم الإلهيّة والحكم الرّبانيّة وأنّ الباطل لا سبيل له إليها إذ الباطل هو العدم المحض ولا يصح في العدم تجلّي ولا كشف فالحقّ كلّ ما ظهر في الوجود، وفي إيراد الشّبهات المعارضة للأدلّة يتّضح ما أردنا.

سرّ للخواصّ السبب الموجود لكونه مرآة للحق قوله صلّى الله عليه وآله:
المؤمن مرآة المؤمن ـ ومرآة أخية على رواية (١٨٩).

---

(١٨٩) قوله: المؤمن مرآة المؤمن.

رواه ابن شعبة الحرّاني عن أمير المؤمنين (ع) في وصيّته لكميل بن زياد ص ١٧٣: قال (ع):

«ياكميل المؤمن مِرآة المؤمن، لأنّه يتأمّلة فَيَسُدُّ فاقته ويُجمِل حالَتَهُ.

روي مثله أيضاً المجلسي في البحار ج ٢٦٩ ـ ٢٧٧ عن «بشارة المصطفى» لمحمّد بن علي الطبري.

وأيضاً روى المجلسي في البحار ج ٧٤، ص ٢٣٣ عن «نوادر الراوندي» بإسناده عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) عن آبائه (ع) قال: قال رسول الله (ص):

المؤمن مرآة لأخيه المؤمن، ينصحه إذا غاب عنه ويميط عنه مايكره إذا شهد، ويوسّع له في المجلس.

وروى الكليني في الكافي ج ٢، ص ١٦٦ باب إخوة المؤمنين الحديث ٥، بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال:

المسلم أخو المسلم، (و) هو عينه ومرآته ودليله، لايخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذّبه ولا يغتابه.

←

والأخوّة هنا عبارة عن المثليّة اللّغويّة في قوله تعالى:

﴿ليس كمثله شيء﴾ [سورة الشورى: ١١].

وذلك عند بروز هذا الموجود في أصفى مايمكن وأجلى (ما) ظهر فيه الحقّ بذاته وصفاته المعنويّة لا النفسيّة وتجلّي له من حضرة الجود، وفي هذا الظهور الكريم قال تعالى:

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [سورة التين: ٤].

فتأمّل هذه الإشارة فإنّها لباب المعرفة وينبوع الحكمة.

وعبّر عنه بعضهم «بالإمام المبين» وهو «اللّوح المحفوظ» المعبّر عنه «بكلّ شيء» في قوله تعالى:

﴿وكتبنا له في الألواح من كلّ شيء﴾ [وهو اللوح المحفوظ].

﴿موعظة وتفصيلاً لكلّ شيء﴾ [سورة الأعراف: ١٤٥].

وهو «اللّوح المحفوظ»، والّذي حملهم على ذلك قوله تعالى:

﴿وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [سورة يس: ١٢].

لأنّهم وجدوا (وجدنا) العالم كلّه أسفله وأعلاه مختصراً (محصيً) في الإنسان فسمّوهم (فسمّيناه) «الإمام المبين» وأخذوه (وأخذناه) تنبيهاً من «الإمام المبين» الّذي عند الله تعالى، فهذا هو حظّهم (حظّنا) ونصيبهم فتدبّره وتحقّقه.

سرّ للخواص قال الله تعالى:

← وأخرج أبي داود في سننه ج ٤، كتاب الأدب باب في الصيحة ص ٢٨٠، الحديث ٤٩١٨، بإسناده عن رسول الله (ص) قال:

«المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه».

وأخرج الترمذي في سننه ج ٤، كتاب البرّ باب ماجاء في شفقة المسلم ص ٣٢٥، الحدى ١٩٢٩، بإسناده عن رسول الله (ص) قال:

«إنّ أحدكم مرآة أخيه، فإن رأى به أذًى فليُمِطْه عنه.

وراجع أيضاً في الحديث المذكور تعليقتنا الرقم ٢٠.

﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾ [سورة الأنعام: ٣٨].

اعتباره هو الإنسان «من شيء»: يفصّل العالم بأسره الإمام على الحقيقة المبين: مَنْ كان كلّ شيء مأموماً به وهذا لايصحّ في موجود (ما) لم تـصحّ له المـثليّة اللـغويّة الفرقانيّة، فإذا صحّت المثليّة صحّ وجود الإمام وإذا صحّ وجود الإمام بطلت الإمامة في حقّ غيره،

﴿لَو كانَ فيهما آلهَةٌ إلّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾ [سورة الأنبياء: ٢٢].

فإذا نظرنا في هذا الإمام المبين نظرنا بما استوجب الإمامة فوجدناه أمانة بـيده، فقرأنا:

﴿إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلىٰ أهلها﴾ [سورة النساء: ٥٨].

فلاحت لنا مرآة الحقّ المتقدّمة فضربنا «الإمام المبين» (في) من المؤمن مرآة (أخيه، فخرج لنا واحد في الخارج فسمّاه بعضهم مرآة الحـقّ، وبـعضهم) إمـاماً فـالإمام الكتاب، والمرآة سنّته، (فالإمام كتابيٌّ والمرآة سنّيّةٌ).

وعبّر عنه بعضهم «بالمفيض»، والّذي حملهم على ذلك أنّهم لـما رأوا الأجسـام بيوتاً مظلمة وأقطاراً سوداء مـدلهمة (مـدمهلّة) فـإذا غشـيها نـور الروح أضـاءت فأشرقت كالأقطار إذا غشيها نور الشّمس، وبالضرورة يعلم أنّ النور الّذي في بغداد غير النور الّذي في مكّة، والنّور الّذي في موضع مّا غير النور الّذي في غيره، ثمّ نظرنا إلى السبب لوجود تلك الأنوار الّتي خلقها الله تعالى عنده لا به فوجدنا جسماً كريّاً نورانيّاً يقال له الشّمس وكلّ موضع يقابلها من الأرض يخلق الله منه (فيه) نور يسمّىٰ شمساً فكما تطلق على كلّ نور خلق في الأرض في مقابلة الشمس شمساً ليس يبعد، ولا يمنع ْن يطلق على كلّ نور أضاء به الأبدان روحاً، وكما يختلف قبول الأماكن لهذا النور لإختلافها فلا يكون قبول الأجسام الصقيلة للنور كقبول الأجسام الدَّرنة كذلك يختلف قبول أماكن الأبدان لفيضان الروح لإخـتلافها فـلا يكـون قـبول البهـيمة (لفيضانه) كقبول الإنسان ولا قبول الإنسان، كقبول الملك فلو سمّينا الشمس بالمفيضة صدقنا، وحقيقة الإفاضة في الماء وهو مجاز في غيره، ونسبة هذه الأرواح عندهم إلى الرّوح الكلّي كنسبة ولاة الأمصار إلى الإمام، ولذلك يثابون إن عدلوا ويعاقبون إن

جاروا.

سرّ للخواصّ قال الله تعالى:

﴿وأشرقت الأرض بنور ربّها﴾ [سورة الزمر: ٦٩].

اعتبار الربوبيّة هنا سيادة المعلم الأوّل وتربيته وتأثير سببيّته وهو المرجوع إليه في قوله تعالى على طريق التنبيه:

﴿يا أيّتُها النّفس المطمئنّة * ارجعي إلىٰ رَبِّك﴾ [سورة الفجر: ٢٧ ـ ٢٨].

ونور هذا الربّ المنبّه عليه هو الروح الحيوانيّ الّذي به يشترك البهيمة والإنسان، فاعتبار الموت فيه بحجاب الغمام، واعتبار النوم بغروب الشمس، واعتبار الغفلة بالحجاب الهلاليّ ثمّ قد يغيب الإمام ويبقى الوزير بدله، يفيض على المملكة كالقمر ليلاً، وليس لفيضان الإمام فيض مادة الوزير، وفيضانه إن أفاض (فيّض) بالنظر إلى «النفس النباتيّة»، وهي الحجاب لمادة النفس المطمئنّة، وقد يغيبان أعني الإمام والوزير فتبقى الفقهاء نجوم علوم الأحكام فلا يستطيعون إفاضةً (لقهر) لقمر النّفس الحيوانيّة البهيميّة والنّفس السبعيّة وإستيلاء سلطانها. فتأمل هذا السّر تبدلك (تدرك) الحكمة الإلهيّة.

وعبّر عنه بعضهم بمركز الدائرة، والّذي حملهم على ذلك أنّهم لما نظروا إلى عدل هذا الخليفة في ملكه واستقامة طريقته في هيأته (هباته) وأحكامه وقضاياه، سمّوه مركز دائرة الكون لوجود العدل به، وإنّما حملوه على مركز الكرة نظراً إلى كلّ خط يخرج من النقطة إلى المحيط مساوياً لصاحبه رأوا ذلك غاية العدل، فسمّوه مركز الدائرة لهذا المعنىٰ.

سرّ للخواص، وذلك أنّ نقطة الدايرة أصل في وجود المحيط ومهما قدّرت كرةً وجوداً أو تقديراً فلابدّ أن يكون (تقدّر) لها نقطةٌ هي مركزها ولا يلزم من وجود النقطة وجود المحيط، ووجود الفاعل من هذه الدائرة رأس الضابط، ولا دائرة في الوجود، كان الله ولم يكن معه شيء(١٩٠)، وفخذاه يداه المبسوطتان(١٩١) جوداً

(١٩٠) قوله: كان الله ولم يكن معه شيء.

وإيجاداً. والفخذ المختصّة بالنقطة يد الغيب والملكوت الأعلى، والفخذ المختصّة بالمحيط يد عالم الملك والشهادة، فالواحد للأمر والأخرىٰ للخلق والله بكلّ شيء محيط.

هذا آخر كلامه في هذا الباب، وكان الغرض من إيراده إطّلاعك على عظمة قدر هذا الموجود المعبّر عنه بالباء والأسرار الّتي تحت ألقابه وأسمائه وصفاته، وهذه الوجوه والأسرار وإن كانت كثيرة إلّا بالنسبة إلى الوجوه الّتي سبقت من قوله أيضاً قليلة وهو ما قال:

فلمّا وجد هذا الموجود الأوّل ظهر له من الوجوه إلى الحضرة الإلهيّة ثلاثمائة وستّون وجهاً فأفاض الحقّ تعالى من علمه على قدر ما أوجده عليه من الإستعداد للقبول وكان قبوله ستّة وأربعين ألف ألف نوع وستّمائة ألف نوع وستّة ألف وخمسين ألف نوع، وقال:

ونونه الّتي هي الدّواة عبارة عمّا يحمله من ذاته من العلوم بطريق الإجمال فلا يظهر لها تفصيل إلّا في النّفس الّتي هي اللوح فهو محل التحميل، والنفس محلّ التفصيل،

← راجع في هذا الحديث ومصادره تعليقتنا في الجزء الأوّل الرقم ٨٧ و٨٨، ص ٣٥٢.

(١٩١) قوله: يداه مبسوطتان.

هذا في قوله تعالىٰ:

﴿وقالت اليهودُ يدُ اللهِ مَغلولةٌ غُلّت أيديهم ولُعِنوا بما قالُوا بَل يَداهُ مَبسوطَتانِ يُنفقُ كَيفَ يَشاءُ﴾ [سورة المائدة: ٦٤].

روى الصدوق في (التوحيد) باب ٢٥، الحديث ١، وفي معاني الأخبار ص ١١١، الحديث ١٥، بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال: في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾: لم يعنوا أنّه هكذا، ولكنّهم قالوا: قد فرغ من الأمر، فلا يزيد ولا ينقص، فقال الله جلاّ جلاله تكذيباً لقولهم: ﴿غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ ألم تسمع الله عزّ وجلّ يقول:

﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب﴾ [سورة الرّعد: ٣٩].

وفي تفسير القمي قال القمي ذيل الآية المذكورة: قال: قالوا قد فرغ الله من الأمر لايحدث الله غير ما قد قدّره في التقدير الأوّل، فردّ الله عليهم فقال: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ أي يقدّم ويؤخّر، ويزيد وينقص، وله البداء والمشيّة. ج ١، ص ١٧١.

وهذا القلم له ثلاثمائة وستّون سناً من حيث ما هو قلم، وثلاثمائة وستّون وجهاً من حيث ما هو عقل، وثلاثمائة وستّون لساناً من حيث ما هو روح مترجم عن الله تعالىٰ، ويستمدّ كلّ سنّ من ثلاثمائة وستّين بحراً وهي أصناف العلوم، وسمّيت بحراً لإتّساعها، وهذه البحور هي إجمال الكلمات الّتي لاتنفد لقوله جلّ ذكره:

﴿ولو أنّما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إنّ الله عزيز حكيم﴾ [سورة لقمان: ٢٧].

والكلّ إشارة إلى عظمة هذا الموجود والأسرار الّتي تحته.

وإذا تقرّر هذا فاعلم، أنّ ههنا لطايف ودقايق:

(إنّ القرآن صورة إجمال العالم)

الأُولىٰ منها، وهي أنّ الله تعالىٰ حيث جعل العالم كلّه كالكتاب، ورتّبه على ترتيب الحروف والكلمات والآيات الّتي فيه ركّبها منها، وجعل الباء الّذي بعد الألف الّذي بمثابة الذّات جامعاً لجميع الأسرار الّتي يتعلّق بهذا الكتاب لأنّه مظهر ذاته ومنبع آياته وكلماته، جعل الكتاب القرآن صورة إجماله وتفصيله وأودع جميع ما في ضمنه من الأسرار والحقايق في الباء الّذي في «بسم الله الرّحمن الرّحيم» نيابة عن الألف المنخفض فيه وعوضاً عن طول الباء كما مرّ ذكره ليكون التطبيق صحيحاً.

(ترتيب القرآن مطابق لترتيب العالم)

والثانية، وهي أنّ الله تعالىٰ حيث جعل ترتيب الكتاب القرآني على ترتيب الكتاب الآفاقي، فكما كان إبتداء الكتاب الآفاقي بالباء المشار إليه في الأقوال المتقدّمة، جعل ابتداء الكتاب القرآني كذلك بباء «بسم الله الرّحمن الرّحيم» ليكون قول من قال: ظهرت الموجودات من باء بسم الله الرّحمن الرّحيم (١٩٢)، صحيحاً مطابقاً.

---

(١٩٢) قوله: ظهرت الموجودات الخ.

(إختفاء ذات الحقّ تعالىٰ في باء الآفاق وهو الإنسان)

والثالثة انّه كما اختفى ذاته الّتي بمثابة الألف في الباء الآفاقي الّذي هو الإنسان المعبّر عنه «بكلمة الله» تارة وبآياته تارة، لقوله:

﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [سورة الذاريات: ٢١].

وفي قوله:

﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ [سورة ق: ١٦].

وبما أشار إليه النبي عليه السّلام بقوله:

«خلق الله تعالىٰ آدم على صورته»(١٩٣).

فكذلك اختفى الألف الّذي في الحروف بمثابة ذاته في الباء الّذي في بسم الله الرّحمن الرّحيم كما سبق ذكره في قولنا وقول غيرنا.

(تطابق القرآن مع العالم في الكلمات والحروف وغيرها)

والرّابعة انّه كما جعل الكتاب الآفاقي جامعاً للعدد المذكور في العلوم الحاصلة من القلم الّذي هو بمثابة الباء، جعل الكتاب القرآني جامعاً لجميع ذلك من حيث آياته وكلماته وحروفه وشدّاته ومدّاته وفتحاته وضمّاته وكسراته وأمثال ذلك كما سنبيّنه بعد هذا الكلام مفصّلاً معدوداً، أو للمعنى الّذي تحت كلّ واحد واحد منها على حسب التطابق الصّوري والمعنوي بين الكتابين، وبناء على هذا فقول من قال: «إنّ علوم جميع الكتب السّماويّة مندرجة تحت القرآن وجميع العلوم القرآنيّة مندرجة تحت المفصل من سورة والّتي تحت المفصل من سورة مندرجة تحت حروفه المقطّعة الّتي في أوائل السّورة، والّتي تحت الحروف المقطعة تحت الفاتحة والّتي تحت الفاتحة تحت بسم

← قد مرّت الإشارة به في تعليقتنا الرقم ١٧٥ وفي الجزء الأوّل ص ١٢٠ ورقم التعليقة ١٣ ـ فراجع.

(١٩٣) قوله: خلق الله تعالىٰ آدم على صورته.

راجع تعليقتنا الرقم ٢١ و ١٨٧.

الله الرّحمن الرّحيم والّتي تحت بسم الله الرّحمن الرّحيم تحت بائها المذكور»: صحيح.

ويشهد بصحّته قول أمير المؤمنين عليه السّلام:

والله لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من باء بسم الله الرّحمٰن الرّحيم (١٩٤).

لأنّه العالم بالقرآن على ما هو عليه في نفس الأمر ولا يكون شهادة في هذا الباب أصحّ من شهادته بعد قول رسول الله صلّى الله عليه وآله:

ظهرت الموجودات من باء بسم الله الرّحمٰن الرّحيم (١٩٥).

وههنا لطيفة وهي أن الباء إذا كان إشارة إلى التعيّن الأوّل، وجميع هذه الإشارات تكون متعلّقة به وبأسراره، فلو قال عوض سبعين ألف بعير: سبعين ألف ألف بعير لكان قليلاً كما تقرّر في بيان الكلمات الحقيقيّة الإلهيّة، وعدم تناهيها صورة ومعنى لقوله تعالى:

﴿قُل لَو كانَ البَحرُ مِداداً لكلمات رَبِّي لنفدَ البَحرُ قبل أن تنفد كلمات ربِّي ولَو جِئْنا بِمثلِهِ مَدَداً﴾ [سورة الكهف: ١٠٩].

ومعلوم أنّ الكلمات ليست مركّبة إلّا من الحروف فإذا كانت الكلمات غير متناهية فالحروف بطريق الأولى، المراد بالحروف هٰهنا وبالكلمات أيضاً معناه، أو المركب منهما فإنّها غير متناهية أصلاً وإلّا بحسب الكلّيّات فالحروف والكلمات متناهية ضرورة وإن كانت الضروريّات بعيد (بعيدة) عن أرباب العقول جداً، هذا مضى.

(في تعداد حروف القرآن وحركاته)
(وأنّ تحت كل واحد منها علو وسرّ وباطن)

وأمّا عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه وما يتعلّق بذلك من الشدّات

---

(١٩٤) قوله: والله لو شئت لأوقرت الخ.
راجع تعليقتنا الرقم ١٣٧.

(١٩٥) قوله: ظهرت الموجودات الخ.
راجع تعليقتنا الرقم ١٧٢.

والمدّات والمطابقة للعلوم الصادرة من القلم المعلوم.

فاعلم، أنّ أكثر القرّاء ذهبوا إلى أنّ سور القرآن بأسرها مائة وأربعة عشر سورة، وإلى أنّ آياته ستّ (ستة) آلاف وستمائة وستّون آية، وإلى أنّ كلماته سبعة وسبعون ألفاً وأربعمائة وسبع وثلاثون كلمة، وإلى أنّ حروفه ثلاثمائة آلاف واثنان وعشرون ألفاً وستمائة وسبعون حرفاً، وإلى أن فتحاته ثلاثة وتسعون ألفاً ومائتان وثلاثة وأربعون فتحة، وإلى أن ضمّاته أربعون ألفاً وثمانية وأربع ضمّات، وإلى أنّ كسراته تسعة وثلاثون ألفاً وخمسمائة وستة وثمانون كسرة، وإلى أنّ تشديداته تسعة عشر ألفاً ومائتان وثلاثة وخمسون تشديدة، وإلى أنّ مدّاته ألف وسبعمائة وواحد وسبعون مدّة، وإلى أنّ همزاته ثلاثة آلاف ومائتان وثلاث وسبعون همزةً، وإلى أنّ ألفاته ثمانية وأربعون ألفاً وثمانمائة وإثنان وسبعون ألفاً، وكذلك إلى آخر الحروف إلى أن ينتهي إلى ثمانية وعشرين حرفاً. والمراد من ذلك أنّك إذا نظرت إلى هذه الأعداد ونظرت إلى قول النبيّ صلّى الله عليه وآله:

ما من آية إلّا ولها ظهر وبطن ولكل حرف حدّ ولكل حد مطلع (١٩٦).

ونظرت إلى الّذي ورد في الباء الّذي هو حرف واحد منه ونظرت إلى الّذي قال: «إنّ للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن».

عرفت أنّ هذه الأعداد والأسرار الّتي تحتها موافق للعلوم المذكورة الصادرة من القلم المذكور الإلهي.

(في بيان الأسرار والأقوال في الحروف المقطعة في أوائل السّور)

ثمّ اعلم يقيناً أن الحروف لو لم تكن موضوعةً على أسرار جمّة وحقائق عظيمة ما ابتدأ الحقّ تعالىٰ كتابه بحرف واحد منها وما جعله مشتملاً على هذه الأسرار العظيمة

(١٩٦) قوله: ما من آية إلّا ولها ظهر وبطن.
راجع تعليقتنا الرقم ١٤٠.

ولم يجعل أعظم أسرار القرآن بحث الحروف المقطعة منه بحيث إلى الآن ما اطلع عليها أحد على ما ينبغي إلّا بعض الرّاسخين من أخلص عباده، والّذي جعل افتتاح كلامه وأقسم به بقوله:

﴿الم ذٰلك الكتاب﴾.

أيضاً يدل على عظمة قدر تلك الحروف وجلالة شأنها واختلاف العلماء والمفسّرين فيها وكذلك أرباب التّأويل يشهد بذلك.

والّذي قيل أنّ الألف إشارة إلى الذّات الأحديّة واللّام إلى جبرئيل عليه السّلام، والميم إلى محمّد صلّى الله عليه وآله والّذي هو الخاتم بحسب الصّورة، الكتاب القرآني والكتاب الآفاقي والفاتح لهما فهو أيضاً عظيم جليل لأنّ الوجود يدور على هذه الثلاث في الحقيقة لأنّ جبرئيل جعله بمثابة العقل الفعال، والعقل الفعال والذّات والعقل الكلّ أو العقل الأوّل إذا حقّق حقائقها وعرف معناها يقوم مقام جميع المعارف الداخلية تحت الوجود، وكذلك ما قيل في كهيعص وطه ويس وأخواتها فإنّ كلّ ذلك مشتمل على أسرار لايمكن إفشائها، والوجوه الّتي قد أوردها المفسّرون في تفاسيرهم في هذا الباب، وكذلك أرباب التأويل بأجمعها دالّة على عجزهم وعدم إطّلاعهم على شيء منها،

فمنهم فخر الرّازي رحمة الله عليه فإنّه ذهب إلى أنّها إسم للسّور يعرف كلّ سورة بما افتتحت به. وقال غيره: أنّها أقسام أقسم الله تعالى لكونها مباني كتبه ومعاني أسمائه وصفاته وأصول كلامه وكلماته، وقال بعضهم: أنّها مأخوذة من صفات الله عزّ وجلّ كقول ابن عبّاس رضي الله عنه في كهيعص: أنّ الكاف من كافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من حكيمٍ، والعين من عليمٍ، والصّاد من صادقٍ، والم معناه أنا الله أعلم.

وذكر الواحدي البغدادي في تفسيره الموسوم بالوسيط في أوّل البقرة وهو قوله:

كثر اختلاف المفسرين في الحروف المقطعة في القرآن، فذهب بعضهم إلى أن الله لم يجعل لأحد سبيلاً إلى إدراك معانيها وأنّها ممّا استأثر الله بعلمها، فنحن نؤمن بظاهرها ونكل علمها إلى الله. وقال أيضاً: إنّ داود بن أبي هند قال: كنت أسأل الشعبي عن

فواتح السّور فقال: يا داوود أنّ لكل كتاب سرّ، وأنّ سرّ القرآن في فواتح السّور فدعها وسل عمّا سوى ذلك.

وذكر الطبرسي رحمة الله عليه في تفسيره عند بيان الم ذلك الكتاب وقال: اختلف النّاس في هذه الفواتح المفتتح بها السّور، فورد عن أهل البيت عليهم السّلام أنّها من المشابهات الّتي استأثرها (استأثر الله) بعلمها ولا يعلم تأويلها غيره.

(في أنّ بسم الله الرّحمن الرّحيم مترتّبة علىٰ ترتيب العالم)

وقد سبق في تحقيق بسم الله الرّحمن الرّحيم أنّها مترتبة على ترتيب العالم أو بالعكس وأنّها مركّبة من تسعة عشر حرفاً كما أنّ العالم مرتتبة (مترتب) على تسعة عشر مرتبة كلّيّة مشتملة على جزئيّات غير متناهية وسبق أنّ أعظم الحروف فيها بعد الألف هو الباء الّذي بمثابة التعيّن الأوّل وأنّ النقطة تحته صورة الوجود الإمكاني لأنّه به يميّز عن الواجب، وذلك كلّه إشارة إلى الأسرار الّتي تحت الحروف على العموم، وتحت الباء على الخصوص وحيث نحن في بحث الباء، فقول العارف:

«ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الباء مكتوبة عليه»(١٩٧).

نطلب تحقيقها وتأويلها بحسب هذا المقام فنقول:

كما أنّ المراد بالألف الوجود المطلق العام الحقيقي الواجبي، فالمراد بالباء الوجود الإضافي الإعتباري الإمكاني الوحداني، بذاته المضاف إلى كلّ ممكن، فقوله: ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الباء مكتوبة عليه، مراده به الإمكان اللّازم لكلّ ممكن الّذي به يتميّز عن الواجب كالباء عن الألف بالنقطة التميّزية، وهذا في غاية الوضوح، ومع وضوحه في غاية الدقّة. وقول العارف:

---

(١٩٧) قوله: ما رأيت شيئاً إلخ.

قال الشيخ الأكبر ابن عربي في الفتوحات المكيّة ج ١، ص ١٠٢: وكان الشيخ أبو مدين رحمه الله يقول: ما رأيت إلخ.

فني كلّ شيء لــه آيــة تدلّ على أنّه واحـد[١٩٨]

إشارة إلى الإمكان اللّازم للممكن، فإنّ الآية الّتي في الممكن الدّالة على وحدة الصانع ليست إلّا الإمكان لأنّ كلّ من عرف أنّ وجود الممكن بدون الواجب محال وأنّ وجود الواجبين في الوجود مستحيل، عرف أنّ كلّ موجود بذاته دالّ على وحدته.

وقول العارف أيضاً:

«بالباء ظهر الوجود وبالنقطة تميّز العابد عن المعبود»[١٩٩].

إشارة إلى هذا لأنّ المراد بالباء الموجود الأوّل الإمكاني المتميّز عن الواجب بالنقطة التميزيّة الإمكانيّة، كما أنّ تميّز الباء من الألف في الحروف بواسطة النقطة البائيّة الواقعة تحته، وستعرف هذا البحث أكثر من هذا، وقد سبق أيضاً مبسوطاً، وحيث فرغنا من هذا فلنشرع في النقطة وتحقيقها بعون الله وحسن توفيقه وهو هذا:

---

(١٩٨) قوله: فني كلّ شي إلخ شعر.

ذكره ابن عربي في الفتوحات ج ١، ص ١٨٤ وج ٣، ص ١٧٣ ط ج، ونسبه إلى أبي العتاهية، وهو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان، الشاعر العربي المشهور المتوفّى ٣١٠.

(١٩٩) قوله: بالباء ظهر الوجود إلخ.

القائل هو الشيخ الأكبر ابن عربي قاله في الفتوحات المكيّة ج ١، ص ١٠٢، وقد مرّ أيضاً في تعليقتنا الرقم ١٧١.

القسم الثاني
في تحقيق النقطة وكيفيّة التميّز بها في الصّورتين

إعلم، أنّ المراد بالنقطة الإمكانيّة الإضافيّة بلا خلاف. وأمّا التميّز في الصورتين، فالتميّز في صورة الحروف وهو أنّ الباء لا تتميّز عن الألف إلّا بالنقطة وكذلك من جميع الحروف فتمييزه حينئذٍ لايكون إلّا بالنقطة الصّوريّة، فالنقطة تكون أصل بعينه وتميّزه من الغير.

وأمّا في صورة الموجودات وهو أنّ الموجود الأوّل الّذي بمثابة الباء في الترتيب الوجوديّ لا يتميّز عن الموجد الأوّل الحقّ إلّا بالنّقطة الإمكانيّة المتميّزة بها العبد عن الرّبّ، لأنّ الرّبّ الّذي هو المطلق إذا تقيّد بصورة العبد الّذي هو المقيّد ليس تقيّده إلّا بالنّقطة الإمكانيّة الإضافيّة، فالنّقطة الإمكانيّة حينئذٍ سبب التميّز بين العبد والرّبّ كما أنّ النّقطة الإضافيّة هي سبب التميّز بين الوجود المطلق والمقيّد وكلاهما واحد عند التحقيق، لأنّ المقيّد مطلق بقيد الإضافة المعبّر عنه بالنّقطة التميّزيّة وبالعكس، ومن هذا قلنا: النّقطة هي النّقطة الإضافيّة النسبيّة بين المطلق والمقيّد أو العبد والرّبّ، لأنّ عند إعتبار إسقاط هذه النّقطة لم يبق هناك تميّز بين المطلق والمقيّد ولا بين العبد والرّبّ، لأنّ الحقيقة واحدة وهي الوجود من حيث هو الوجود، فالفارق ليس إلّا التميّز المذكور بسبب النّقطة الإضافيّة النسبيّة وقد تقرّر هذا من قبل أن النّقطة التمييزيّة هي نقطة الإمكان الحاصل لكلّ ممكن بسبب الإضافة فلا تكون حينئذٍ النّقطة إلّا الإمكان الفاصل بين الواجب والممكن والمطلق والمقيّد بسبب الإضافة بين المضاف والمضاف إليه كنسبة كلّ قوّة وعضو إليك ووجوده فإنّه باق أزلاً وأبداً كما قيل:

«الباقي باقٍ في الأزل والفاني فانٍ لم يزل»(٢٠٠).

---

(٢٠٠) قوله: الباقي باق إلخ.

ذكره المؤلف أيضاً في جامع الأسرار ص ٦٦٨، وفي تعليقة ذلك الكتاب نسب المحقق

←

وذلك فإنّه كذلك بعينه.

ومن هذا ثبتت التوحيد بإسقاط تلك الإضافة لأنّ التوحيد صيرورة شيئين شيئاً واحداً.

(في انّ الموجودات الممكنة اضافات هالكة)

وههنا قد أثبت وجود الممكن ووجود الواجب بسبب الإضافة فعند إسقاطها لايكون الوجود إلّا واحداً وهو وجود الحقّ تعالىٰ جلّ ذكره، وكلّ شيء هالك إلّا وجهه، هذا معناه. لأنّ عند اسقاط تلك الإضافة، الكلّ هالك زايل معدوم مضمحلّ، لايبق غيره، له الحكم وإليه ترجعون، وإليه الإشارة أيضاً:

﴿كلّ من عليها فان ويبقىٰ وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾ [سورة الرّحمن: ٢٧].

وقوله:

﴿فأينما تُولّوا فثمّ وجه الله﴾ [سورة البقرة: ١١٥].

يقوم بجواب الكلّ. لأنّ تقديره: أينما توجّهوا ثمّ ذات الله ووجهه ووجوده، لأنّه محيط والمحيط هذا شأنه، والله بكلّ شيء محيط. (إقتباس من الكتاب العزيز وفي الكتاب تارة: ﴿إنّه بكلّ شيء محيط﴾ [سورة فصّلت: ٥٤]، وأخرى: ﴿وَكانَ اللهُ بكُلّ شيءٍ مُحيطًا﴾ [سورة النساء: ١٢٦].

وإذا عرفت هذا بهذه الوجوه كلّها،

(في تفسير قول علي (ع): أنا النقطة و: كنت ولياً وآدم بين الماء والطين)

فاعلم، أنّ قول أمير المؤمنين عليه السّلام:

← الكلام لابن العريف، وهو شيخ أبو عبدالله الغزّال الّذي هو من أساتذة الشيخ الأكبر، راجع الفتوحات ج ٣، ص ٣٨٥، وقد نقل الشيخ الأكبر كثيراً من المطالب عن ابن العريف في الفتوحات.

أنا النّقطة تحت الباء[٢٠١].

إشارة إلى أنّ التميّز بين الموجود الأوّل الّذي هو بمثابة الباء والموجد الّذي بمثابة الألف ليس إلّا بسبب النّقطة الإمكانيّة اللّازمة للحقيقة الإنسانيّة الّتي أنا أوّلها بحكم قولي:

«كنت وليّاً وآدم بين الماء والطّين»[٢٠٢].

وبحكم قول الّذي أنا منه:

«كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين»[٢٠٣].

وذلك لأنّ نوري ونور النبيّ نور واحد، لقوله عليه السّلام:

«أنا وعليّ من نور واحد»[٢٠٤].

وله إعتباران، إعتبار الظاهر وإعتبار الباطن، فبحسب الظاهر وهو مخصوص بالنبيّ وبحسب الباطن وهو مخصوص بي كالباء والنّقطة مثلاً، فإنّ الباء في الحقيقة حرف واحد لكن عند الإعتبار حرف ونقطة، فكذلك نور النبوّة ونور الولاية كما سنشير بعد هذا الكلام إليهما وإلى أبحاثهما في الحقيقة، وقد أسند هذا القول بعض العارفين إلى الشبلي رحمة الله عليه، منهم الشيخ الأعظم محيي الدّين ابن عربي قدّس الله سرّه، وشارح القصيدة التائيّة، وغيرهم من العارفين، وليس في الواقع كذلك لأنّ هذا قول أمير المؤمنين عليه السّلام، وهذا الكلام صدر منه على رأس المنبر بالكوفة بجمع من الأعيان والأشراف والمهاجرين والأنصار، وهو في (من) خطبة طويلة موسومة بالخطبة الإفتخاريّة مشهورة عند أربابها، وبعض ذلك قوله:

---

(٢٠١) قوله: أنا النقطة تحت الباء.

قد مرّت الاشارة إليه في تعليقتنا ١٧٣ وفي الجزء الأوّل ص ٢١١ رقم ١٤.

(٢٠٢) و (٢٠٣) قوله: كنت وليّاً ـ وكنت نبيّاً.

راجع فيهما تعليقتنا الرقم ٤٦ و ٤٥ من الجزء الأوّل، ص ٢٦٧.

(٢٠٤) قوله: أنا وعليّ من نور واحد.

راجع فيه تعليقتنا في الجزء الأوّل، الرقم ١٥٩، ص ٥١٠.

أنا وجه الله ، أنا يد الله ، أنا جنب الله ، أنا القرآن الناطق ، أنا البرهان الصادق ، أنا الم ذلك الكتاب ، أنا كهيعص ، أنا طٰهٰ ويٰس إلى قوله : أنا النقطة تحت الباء ، أنا الممدوح في هل أتى(٢٠٥).

وأين الشبلي من هذا الكلام ، والحال أنّ الشبلي والجنيد ، ومعروف الكرخي وأمثالهم مستغرقين في بحار معرفته وحقايقه ، مستغرقين في تيّار علمه وحكمته وليس نسبة خرقه الكلّ إلّا إليه وأولاده ومريديه كما بيّناه مفصلاً مسنداً ، لأنّ الخرقة الصوريّة لاتنسب إلّا إلى ثلاثة أنفس ، أوّلهم جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام وهو ولده ، وثانيهم كميل بن زياد النخعي رحمة الله عليه وهو تلميذه ومريده ، وكان في خدمته سنين متتالية ، وثالثهم الحسن البصري وهو أيضاً تلميذه ومريده ، وكان في خدمته مدّة مديدة ، أمّا الشبلي فهو كان مريداً للجنيد ، والجنيد مريداً لخاله السريّ السقطي ، والسّري كان مريداً لمعروف الكرخي ، ومعروف الكرخي كان مريداً للإمام محمّد بن علي الجواد عليهم السّلام ، فكيف يصدر منه هذا الكلام ، ولا أظن أنّ الشبلي ينسب هذا إلى نفسه بل كان ناقلاً عنه عليه السّلام في بعض مجالسه ، وكان هناك جماعة من المتعصّبين أسقطوا الإسناد والنقل ونسبوا إليه تعصّباً وعداوة ، وكم جرى مثل هذا وكم يجري ومع ذلك كلّه هذا الكلام من الشبلي لا يخلو من وجهين ، إمّا أن يكون بالنسبة إلى مطلق الإنسان ومطلق الإمكان اللّازم له ، وإمّا إلى الكامل منهم فإن كان الأوّل فلا خصوصيّة للشبلي ، وإن كان الثاني ، فأمير المؤمنين عليه السّلام أكمل منه وأعظم بمراتب غير متناهية ، وبل الجنيد وكثير من العارفين مثله ، وعلى التقديرين نسبة هذا الكلام إلى أمير المؤمنين أنسب من نسبته إلى الشبلي ، ومع ذلك نتمسّك بقول يقول (به) الأنبياء والمشايخ رضوان الله عليهم أجمعين .

أمّا الأنبياء فيكفي فيه قول نبيّنا صلّى الله عليه وآله فإنّه أعظمهم وأكملهم وهو

---

(٢٠٥) قوله: أنا وجه الله إلخ.

قد فصّلنا القول في تلك الخطبة في الجزء الأوّل في تعليقتنا الرقم ١٩ و ٢٠ فراجع هناك ، وأيضاً راجع في: «أنا النقطة تحت الباء» عن أمير المؤمنين عليّ (ع) ، تعليقتنا في الجزء الأوّل ، الرقم ١٤ ، ص ٢١١.

قوله:

أوّل ما خلق الله تعالىٰ نوري(٢٠٦).

وقوله:

أنا وعلي من نور واحد(٢٠٧).

وقوله:

خلق الله تعالىٰ روحي وروح علي بن أبي طالب قبل أن يخلق الخلق بألفي ألفي عام (٢٠٨).

وأمّا المشايخ فيكفي فيه قول الشيخ الكامل محيي الدّين ابن عربي قدّس الله سرّه فإنّه أشار إلى هذا بقوله في الفتوحات المكّيّة بقوله:

وكان وجوده من ذلك النور الإلهي ومن الهبا ومن الحقيقة الكلّيّة وفي الهبا وجد عينه وعين العالَم تجليه وأقرب النّاس إليه علي بن أبي طالب وأسرار الأنبياء أجمعين (٢٠٩).

وهذا البحث يحتاج إلى بحث غير هذا ليعلم الحقيقة.

فنقول:

في بيان أنّ النقطة مخصوصة بالوليّ المطلق

إعلم، أنّ الألف كما هو مخصوص بمرتبة الوجود المطلق والذّات المجرد، والباء

(٢٠٦) قوله: أوّل ما خلق الله نوري.

راجع تعليقتنا الرقم ١٧٧ وفي الجزء الأوّل الرقم ٧٣، ص ٣١٥.

(٢٠٧) و (٢٠٨) قوله: أنا وعليّ ـ خلق الله تعالىٰ.

راجع تعليقتنا في الجزء الأوّل الرقم ١٩٥، ص ٥١٠.

(٢٠٩) قوله: أقرب الناس إليه عليّ بن أبي طالب.

ذكر الشيخ الأكبر في الفتوحات المكيّة في الباب السادس ج ٢، ص ٢٢٧، ط ج.

بمرتبة النبيّ المطلق وخاتم الأنبياء، فالنقطة مخصوصة بالوليّ المطلق وخاتم الأولياء، لأنّ الباء كما لايتعيّن إلّا بالنقطة فكذلك النبوّة لاتتحقّق إلّا بالولاية، فالنبوّة تكون في المرتبة البائيّة الأوّليّة والولاية في المرتبة الثانية النقطيّة وبالعكس ولهذا قال خاتم الأنبياء:

«كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطّين».

وقال خاتم الأولياء:

«كنت وليّاً وآدم بين الماء والطّين».

وكذلك لارتباط كلّ واحدة من النبوّة والولاية قال خاتم النبوّة:

«خلق الله تعالى روحي وروح علي بن أبي طالب قبل أن يخلق الخلق بالفي ألفي عام».

وقال غيره من لسانه:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

والمراد بالكرم هٰهنا العالم وبالشرف الشهود الأزل وبالمحبوب المحبوب الحقيق، وهذا كلّه يشهد بسبق الأرواح على الأجسام وسبق بعض الأرواح على البعض، كسبق روح نبيّنا على روح الأنبياء وسبق روح عليّ علىٰ الأولياء وقد ذكر هذا المعنى بعينه الشيخ الأعظم محيي الدّين الأعرابي قدّس الله سرّه في فصوصه وفتوحاته. أمّا الفصوص فكقوله الّذي تقدّم مراراً[٢١٠]:

فكلّ نبيّ من لدن آدم إلى آخر نبيّ ما منهم أحد يأخذ إلّا من مشكاة خاتم النبيّين وإن تأخّر وجود طينته فإنّه بحقيقته موجود وهو قوله:

كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطّين.

وغيره من الأنبياء ما كان نبيّاً إلّا حين بعث، وكذلك خاتم الأولياء كان وليّاً وآدم

---

(٢١٠) قوله: أمّا الفصوص:

راجع شرح القيصري، الفص الشيثي، ص ١١٢.

بين الماء والطين، وغيره من الأولياء ما كان وليّاً إلّا بعد تحصيله شرايط الولاية من الأخلاق الإلهيّة والإتّصاف بها من كون الله يسمّى بالولي الحميد، فخاتم الرّسل من حيث ولايته نسبته مع الختم للولاية نسبة الأنبياء والرّسل معه فإنّه الوليّ الرسول النبيّ، وخاتم الأولياء الولي الوارث الآخذ عن الأصل المشاهد للمراتب وهو حسنة من حسنات خاتم الرّسل محمّد صلّى الله عليه وآله.

وهذا الكلام يشهد بشيئين:

(في أنّ الولاية أعظم من النبوّة وخاتم الأولياء وارث الأنبياء)

الأوّل ان الولاية أعظم من النبوّة وأسبق، لكن من حيث اعتبارهما في شجرة واحدة كما سبق ذكره لئلّا يتوهّم أحد أنّ الولي أعظم من النّبيّ فإنّه ليس كذلك.

والثّاني بأنّ خاتم الأولياء وارث لخاتم الأنبياء وحسنة من حسناته، وكلّ عاقل يعرف أن هذا المقام لايليق إلّا بأمير المؤمنين عليه السّلام لأنّه نفسه وخليفته وحسنة من حسناته المعبّر عنها بالخلافة كما سنبيّنه في المقدّمة السّادسة إن شاء الله من حيث العقل والنقل والكشف.

(في أنّ الهباء أوّل موجود في العالم)

وأمّا الفتوحات فقد ذكر في الباب السادس في معرفة بدؤ الخلق الروحاني وهو أوّل موجود فيه وهو قوله في فصل منه: كان الله ولم يكن معه شيء، ثمّ أدرج فيه وهو الآن على ما كان لم يرجع إليه في إيجاد العالم صفه لم يكن عليها بل كان موصوفاً لنفسه ومسمّى قبل خلقه بالأسماء الّتي يدعونه بها خلقه فلمّا أراد وجود العالم وبدأه على حدّ ما علمه بعلمه بنفسه انفعل عن تلك الإرادة المقدسة بضرب تجلّى من تجليات التنزيه إلى الحقيقة الكلّيّة، انفعل عنها حقيقة تسمّى الهباء بمنزلة طرح لبنّاء الجصّ ليفتح فيها ما شاء من الأشكال والصّور وهذا هو أوّل موجود في العالم وقد ذكر علي بن أبي طالب عليه السّلام وسهل بن عبدالله رحمه الله وغيرهما من أهل التحقيق، أهل

الكشف والوجود. ثمّ إنّه سبحانه تجلّى بنوره إلى ذلك الهباء ويسمّونه أهل الأفكار الهيولىٰ الكلّي، والعالم كلّه فيه بالقوّة والصلاحيّة، فقبل منه كلّ شيء من ذلك الهباء على حسب قوّته واستعداده كما تقبل زوايا البيت نور السراج وعلى قدر قربه من ذلك النور يشتدّ ضوئه وقبوله. قال تعالى:

﴿مثل نوره كمشكوٰة فيها مصباح﴾ [سورة النور: ٣٥].

فشبّه نوره بالمصباح فلم يكن أقرب إليه تعالى قبولاً في ذلك الهباء إلّا حقيقة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم لا المسماة بالعقل الأوّل (في المطبوع: المساة بالعقل) فكان سيّد العالم بأسره وأوّل ظاهر في الوجود فكان وجوده من ذلك النور الإلهيّ ومن الهباء ومن الحقيقة الكلّيّة وفي الهباء وجد عينه وعين العالم تجلّيه وأقرب النّاس إليه علي بن أبي طالب وأسرار الأنبياء أجمعين.

وهذا الكلام برهان قاطع على صدق ما قلناه من أن قول علي عليه السّلام: أنا النقطة تحت الباء.

لا يليق إلّا به وليس الشبلي في هذا المقام حتى ينسب مثل هذا الكلام إليه ويعرف هذا أيضاً من بحث النبوّة والولاية والرّسالة في المقدمة الثالثة وأنّ الولاية المحمّديّة الأزليّة هي الولاية الحقيقيّة المخصوصة بعليّ بن أبي طالب عليه السّلام بقوله:

كنت وليّاً وآدم بين الماء والطين. بالإرث المعنوي والقرب الذّاتي هذا مضىٰ، وليس الغرض ههنا هذا البحث لأنّ هذا البحث له موضع مخصوص به، فنرجع ونقول:

إعلم، أنّه ورد عن أهل البيت عليهم السّلام أنّهم قالوا[٢١١]:

---

(٢١١) قوله: جميع الأسرار القرآنيّة.

روى مير سيد شريف في رسالة له (المخطوطة) في شرح خطبة البيان عن عليّ (ع)، ص ١٣: جميع أسرار الله تعالىٰ في الكتب السّماويّة وجميع ما في الكتب السّماويّة في القرآن، وجميع ما في القرآن في فاتحة الكتاب، وجميع ما في فاتحة الكتاب في بسم الله، وجميع ما في بسم الله في الباء، وجميع ما في الباء في النقطة تحت الباء، وأنا النقطة تحت الباء.

←

جميع الأسرار القرآنيّة تحت حروفه المفردة من حروف التهجي وجميع الأسرار الّتي تحت الحروف المفردة هي تحت الحروف المقطعة الّتي في أوائل السور، وجميع الأسرار الّتي في الحروف المقطعة هي تحت القسم الّتي في غير الحروف المقطعة، وجميع الأسرار الّتي تحت القسم هي تحت المفصل من السّور، وجميع الأسرار الّتي تحت المفصل هي تحت الفاتحة، وجميع الأسرار الّتي تحت الفاتحة هي تحت بسم الله الرّحمن الرّحيم، وجميع الأسرار الّتي تحت بسم الله الرّحمن الرّحيم هي بائها المذكورة وجميع الأسرار الّتي تحت الباء هي تحت نقطتها. كما قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

العلم نقطة كثّرها الجهّال(٢١٢).

(في تطبيق العالم بالقرآن والإنسان)

وإذا تقرّر هذا فعليك بالتطبيق بالكتاب الآفاقي فإنّك تجده مطابقاً، وذلك بأن

← كما روى الحديث: «العلم نقطة كثّرها الجاهلون» ص ١٦.

قال الطبرسي في مجمع البيان في أوّل سورة البقرة:

وروت العامّة عن أمير المؤمنين (ع) أنّه قال:

إنّ لكلّ كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حرف التهجّي.

وروى الصدوق عليه الرحمة في (أماليه) ص ١٤٨، الحديث ٢، المجلس ٣٣، وأيضاً في كتابه «عيون أخبار الرضا» ج ١، ص ٣٠١، الحديث ٦٠، باب ٢٩ (في ماجاء عن الامام عليّ بن موسى (ع) من الأخبار المتفرقة)، بإسناده عن أمير المؤمنين (ع) قال:

إنّ بسم الله الرّحمٰن الرّحيم آية من فاتحة الكتاب، وهي سبع آيات تمامها «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم»، سمعت رسول الله (ص) يقول: إنّ الله عزّ وجلّ قال لي: يا محمّد:

﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ [سورة الفجر: ٨٧].

فأفرد الإمتناع عليّ بفاتحة الكتاب، وجعلها بأزاء القرآن العظيم، وأنّ فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش، وأنّ الله عزّ وجلّ خصّ محمّداً (ص) وشرّفه بها ولم يشرك معه فيها أحداً من أنبيائه. الحديث.

(٢١٢) قوله: العلم نقطة إلخ.

رواه ابن أبي جمهور الأحسائي في (عوالي اللّئالي) ج ٤، ص ١٢٩، الحديث ٢٢٣.

تعرف أنّ جميع الأسرار الإلهيّة الآفاقيّة تحت مفرداته من البسائط الّتي هي بمثابة الحروف وجميع الأسرار الّتي تحت مفرداته هي تحت مركباته منها الّتي هي بمثابة الكلمات وجميع ما في مركباته من الأسرار هي تحت كلّيّاته الّتي هي بمثابة الآيات وجميع ما في هذا المجموع وهو تحت عوالم الأرواح والنّفوس المجرّدة الّتي هي بمثابة المعاني من القرآن وجميع ما في هذه العوالم وهي تحت عوالم العقول والمفارقات العلويّة وجميع ما في هذه العوالم كلّها وهي تحت التعيّن الأوّل الّتي هي بمثابة الباء وجميع ما في التعيّن الأوّل وهي تحت حقيقته الّتي هو بها هو المعبّرة عنها بالنقطة وهي حقيقة الإنسان الكبير والنبيّ المطلق المنقسم إلى النبوّة المطلقة والولاية المطلقة لأنّ هذه الحقيقة هي الّتي صارت سبب التميّز بين الحقّ والخلق والواجب والممكن والمطلق والمقيّد لقولهم:

بالباء ظهرت الوجود وبالنقطة تميّز العابد عن المعبود(٢١٣).

وهذه الحقيقة والنقطة هي المسماة بجميع ما ذكرناه من الأسماء كالمادّة والعرش والروح والخليفة والنّبيّ والإمام وغير ذلك، وهذا كلّه ترتيب الكتاب من حيث الحروف والآيات والكلمات وما يتعلّق بها.

فأمّا إن أردت كلمة تكون جامعة لهذه الأسرار كلّها كبسم الله الرّحمن الرّحيم في القرآن فعليك بالإنسان الصغير وما اشتمل عليه صورة ومعنى فإنّه جامع لجميع ذلك كما بيّناه غير مرّة، ونظراً إلى هذا قال الإمام المحقّ جعفر بن محمّد عليه السّلام وهو قوله:

إنّ الصّورة الإنسانيّة هي أكبر حجّة الله على خلقه وهي الكتاب الّذي كتبه بيده وهي الهيكل الّذي بناه بحكمته وهي مجموع صور العالمين، وهي المختصر من اللوح المحفوظ، وهي الشاهد على كلّ غايب وهي الحجّة على كلّ جاحد، وهي الطريق

---

(٢١٣) بالباء ظهر الوجود.

قد مرّت الإشارة إليه في تعليقتنا ١٧١.

المستقيم إلى كلّ خير، وهي الصراط الممدود بين الجنّة والنّار (٢١٤).

---

(٢١٤) قوله: إنّ الصورة الإنسانية إلخ.

رواه أيضاً ابن أبي جمهور الأحسائي في كتابه المُجلى، ص ١٦٩، عن أمير المؤمنين (ع).

وقال تعالىٰ:

﴿يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ﴾ [سورة ص: ٧٥].

روى الكليني (ره) في أصول الكافي ج ١، ص ٢٠٧، (باب أنّ الآيات التي ذكرها إلخ)، الحديث ٣، بإسناده عن الإمام أبي جعفر الباقر (ع) قال: كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول: «ما لله عزّ وجلّ آيةٌ هي أكبر منّي ولا لله من نبإٍ أعظم منّي».

وروى السيد الجليل ابن طاووس في (إقبال الأعمال) ص ٦٤٦ في دعاء قُرأ في كلّ يوم من شهر رجب، بإسناده عن الناحية المقدّسة في توقيع من الصاحب المنتظر (ع):

«اللّهمّ إنّي أسألك بمعاني جميع ما يدعوك به ولاة أمرك (إلى أن قال): لا فرق بينك وبينها إلّا أنّهم عبادك وخلقك، فتقها ورتقها بيدك بدؤها منك وعودها إليك»، الدعاء.

ورواه الشيخ الطوسي أيضاً في مصباح المتهجّد في أعمال شهر رجب، ص ٨٠٣، بإسناده عن صاحب الزّمان أرواحنا له الفداء في التوقيع.

قال أمير المؤمنين (ع):

فإنّا صنائع ربّنا والنّاس بَعدُ صنائع لنا. نهج البلاغة، الكتاب ٢٨ صبحي صالح.

وروى الصدوق في الخصال في حديث أربعمائة، ص ٦١٤، بإسناده عن أمير المؤمنين (ع) قال: إيّاكم والغلوّ فينا، قولوا إنّا عبيد وقولوا في فضلنا ما شئتم.

قال القيصري في مقدّماته على شرح الفصوص ص ٦١:

«ومرتبة الانسان الكامل عبارة عن جمع جميع المراتب الإلهيّة والكونيّة من العقول والنفوس الكلّيّة والجزئيّة، ومراتب الطبيعة إلى آخر تنزّلات الوجود ويسمّىٰ بالمرتبة العمائيّة أيضاً، فهي مضاهية للمرتبة الإلهيّة ولا فرق بينهما إلّا بالربوبيّة والمربوبيّة لذلك صار خليفة الله».

قال صدر المتألّهين في الأسفار الأربعة ج ٧، ص ٢١:

تبصرة فافتح بصيرتك يا إنسان! بنور معارف القرآن، وانظر أوّليّة الرّحمٰن بآخريّة الرسول الهادي إلى عالم النور والرضوان: واعلم أنّ الباري وحدانيّ الذّات في أوّل الأوّلين وخليفة الله فردانيّ الذات في آخر الآخرين: ﴿كما بدأكم تعودون﴾ فالله سبحانه ربّ ←

ولا يقال: إنّ هذا مكرّر وقد مرّ ذكره مراراً، فإنّ في كلّ موضع له فايدة، وإن لم يفهم ذلك فاثبت للقرآن تكرار متكرّر فإنّه صادق لكن ليس كذلك فإن لكلّ لفظ في كلّ موضع خاصيّة وسرّ، كما قال النّبي صلّى الله عليه وآله:

ما من آية إلّا ولها ظهر وبطن ولكلّ حرف حدّ ولكلّ حد مطلع(٢١٥).

فحينئذٍ كلّ من يريد أن يطلع على أسرار الكتب السّماويّة بأسرها يجب عليه أن يطّلع على الكتاب القرآنيّ الجمعي الّذي هو الجامع للكلّ صورة ومعنىً، وكلّ من يريد أن يطّلع على الكتاب القرآني بطريق المذكور يجب عليه أن يطّلع على أسرار حروفه المفردة ثمّ على أسرار الحروف المقطعة، ثمّ على المفصّل منه، ثمّ على الفاتحة، ثمّ على بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، ثمّ على بائها، ثمّ على نقطتها مترتّباً على التّرتيب السابق، فكذلك كلّ من يريد أن يطّلع على الكتاب الآفاقي وما فيه من الأسرار يجب عليه أن يطّلع أوّلاً على مفرداته وبسائطه وخواصّها ولوازمها، ثمّ على مركباته كذلك، ثمّ على كلّيّاته، ثمّ على مجرّداته من الأرواح، ثمّ على مفارقاته من العقول وعوالم القدسيّة، ثمّ على التّعيّن الأوّل الّذي هو بمثابة الباء من الكتاب القرآني، ثمّ على النّقطة التّمييزيّة لهذه الحقيقة المعبّرة عنها بحقيقة الإنسان الكبير، لأنّ كلّ من يطّلع على هذه الحقيقة وهذه النّقطة وعلى الأسرار الّتي تحتها فهو كمن يطّلع على الوجود الحقيقي وما في ضمنه من الأسرار والحقايق.

← الأرض والسّماء، وهذه الخليفة مرآةٌ يُرى بها كل الأشياء، ويتجلّى فيها الحق بجميع الأسماء، وينكشف بنور عينه عين المسمّى، «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» ﴿النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾، فاعرفه أيّها السّالك إلى الله حتّى تعرف ربّك، قال تعالى: ﴿من يُطع الرّسول فقد أطاع الله﴾، وقال الرسول (ص): «من رآني فقد رأى الحقّ».

(٢١٥) قوله: ما من آية إلّا ولها إلخ.

قد ذكرناه في تعليقتنا الرقم ١٤٠ و ١٩٦ فراجع.

(في علم النبيّ (ص) والولي (ع): بأسرار العالم والإنسان والقرآن)

ولإطلاع نبيّنا صلّى اح عليه وآله هذه الحقيقة لها في الحقيقة هي حقيقته قال:

عُلِّمت علم الأوّلين والآخرين(٢١٦).

وكذلك قرينه وحبيبه أمير المؤمنين عليه السّلام الّذي قال:

سلوني عمّا دون العرش(٢١٧).

وقال:

(٢١٦) قوله: عُلِّمت علم الأوّلين والآخرين.

راجع في مصادر الحديث تعلقتنا الرقم ٣٩ من الجزء الأوّل، ص ٢٥٨.

إضافة عليها، روي في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع)، ص ١٥٢، في الآية: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ [سورة البقرة: ٢١]: (أي) من مثل محمّد (ص) رجل منكم لايقرأ ولا يكتب ولم يدرس كتاباً، ولا اختلف إلى عالمٍ ولا تعلّم من أحد، وأنتم تعرفونه في أسفاره وحضره، بق كذلك أربعين سنة ثمّ أوتي جوامع العلم (حتّى علم) علم الأوّلين والآخرين.

(٢١٧) قوله: سلوني عمّا دون العرش.

روى الحديث بلفظه المجلسي في البحار ج ٨٢، ص ٢٥٤.

وروى الديلمي في كتابه (إرشاد القلوب) ص ٣٧٦:

إنّ يوماً حضر الناس عند أمير المؤمنين (ع) وهو يخطب بالكوفة ويقول: سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّي لا سُئلت عن شيء دون العرش إلّا أجبت فيه، لايقولها بعدي إلّا مدّع أو كذّاب مفتر، الحديث.

وروى الصدوق في كتابه (التوحيد) باب ٤٣، الحديث ١، ص ٣٠٤، بإسناده عن الأصبغ بن نباتة، عن أمير المؤمنين (ع)، قال في حديث طويل:

يا معشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سَفَطُ العلم، هذا لُعاب رسول الله (ص)، هذا ما زَقّني رسول الله (ص) زقّاً زقّاً، سلوني فإنّ عندي علم الأوّلين والآخرين، الحديث.

وراجع أيضاً تعليقتنا الرقم ١٣٧ في الجزء الأوّل.

لو كشف الغطاء ما أزددت يقيناً(٢١٨).

---

(٢١٨) قوله: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً.

هذا الحديث معروف رواه الفريقين عن أمير المؤمنين (ع).

رواه التفتازاني في (شرح المقاصد) ج ٥، ص ٢١٢، في المبحث الثالث في أنّ الإيمان هل يزيد وينقص؟

ورواه أيضاً ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ج ٧، ص ٢٥٣، الخطبة ١١٢ في شرح قوله (ع): «ونؤمن به من عاين الغيوب»، وقال الشارح: وهذا إشارة إلى إيمان العارفين الذين هو (ع) سيّدهم ورئيسهم، ولذلك قال: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

ورواه أيضاً في شرح الخطبة ١٨٦، ج ١٠، ص ١٤٢، وأيضاً في شرح الحديث ٢١٧، في بيان أحوال العارفين، ج ١١، ص ٢٠٢، وأيضاً في شرح الخطبة ٢٢٥، ج ١٣، ص ٨.

ورواه الخوارزمي المتوفّى ٥٦٨ هـ في المناقب، الفصل ٢٤، الحديث ٣٩٥، ص ٣٧٤، بإسناده عن الجاحظ، عن أمير المؤمنين (ع).

وراجع أيضاً في مصادر الحديث المذكور في كتب القوم يعني السنّة:

«ملحقات الاحقاق» للعلّامة السيّد الجليل النجفي المرعشي نوّر الله مرقده ج ٧، ص ٦٠٥، الحديث ١٩، وأيضاً ج ١٧، ص ٤٦١.

ورواه المجلسي أيضاً، عن الكيدري شارح نهج البلاغة، في بحار الأنوار ج ٦٧، ص ٣٢١.

ورواه ابن شهر آشوب في المناقب ج ١، ص ٣٨ وقال:

روى حنش (حبيش) الكناني أنّه سمع عليّاً يقول: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، راجع في هذا الحديث تعليقتنا الرقم ٣٣، الجزء الأوّل، ص ٢٤٩.

وهناك حديث يضمّ هذان الحديثان المذكوران أيضاً ولا بأس بذكره هنا مزيداً للفائدة، رواه السيّد الجليل المرعشي النجفي نوّر الله مرقده في إحقاق الحقّ ج ٥، ص ٤٧، الحديث ٦٩، نقلاً عن العلّامة المحدّث العارف الشيخ جمال الدين محمّد بن أحمد الحنفي الموصلي الشهير بابن حسنويه المتوفّى ٦٨٠. عن كتابه «در بحر المناقب» المخطوط.

ورواه أيضاً المجلسي في البحار ج ٤٦، نقلاً عن كتاب: فضائل ابن شاذان وعن كتاب الرّوضة.

قال مؤلّفوا هذه الكتب جميعاً: وروى عن جماعة ثقاة، أنّه لمّا وردت حرّة بنت حليمة

←

. . . .

→ السعديّة على الحجّاج بن يوسف الثقفيّ فمثلت بين يديه، قال لها: أنتِ حرّة بنت حليمة السعديّة؟ قالت له: فراسة من غير مؤمن! فقال لها: الله جاء بكِ فقد قيل عنكِ إنّكِ تفضّلين عليّاً على أبي بكر، وعمر، وعثمان، فقالت: لقد كذب الّذي قال إنّي أفضّله على هؤلاء خاصّة، قال: وعلى مَن غير هؤلاء؟ قالت: أفضّله على آدم ونوح وإبراهيم، وموسىٰ وداود وسليمان، وعيسى بن مريم، فقال لها: أقول لكِ أنّكِ تفضّلينه على الصّحابة وتزيدين عليهم سبعة من الأنبياء من أولي العزم من الرّسل؟ إن لم تأتيني ببيان ما قلتِ، ضربتُ عنقك، فقالت: ما أنا مفضّلته (فضّلته) على هؤلاء الأنبياء، ولكنّ الله عزّ وجلّ فضّله عليهم في القرآن بقوله عزّ وجلّ في حقّ آدم:

﴿وعصىٰ آدم ربّه فغوىٰ﴾ [سورة طٰه: ١٢١].

وقال في حقّ عليّ:

﴿وكان سعيكم مشكوراً﴾ [سورة الإنسان: ٢٢].

فقال: أحسنت يا حرّة، فبما تفضّلينه على نوح ولوط؟ فقالت: الله عزّ وجلّ فضّله عليهما بقوله:

﴿ضرب الله مثلاً للّذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخُلا النّار مع الدّاخلين﴾ [سورة التحريم: ١٠].

وعليّ بن أبي طالب كان ملاكه تحت سدرة المنتهىٰ، زوجته بنت محمّد الزّهراء التي يرضى الله تعالىٰ لرضاها ويسخط لسخطها.

فقال الحجّاج: أحسنت يا حرّة فبما تفضّلينه على أبي الأنبياء إبراهيم خيل الله؟ فقالت: الله عزّ وجلّ فضّله بقوله:

﴿وإذ قال إبراهيم ربّي أرني كيف تُحيي الموتىٰ قال أوَ لَم تؤمن قال بلىٰ ولكن ليطمئنّ قلبي﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠].

ومولاي أمير المؤمنين قال قولاً لايختلف فيه أحد من المسلمين:

«لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

وهذه كلمة ما قالها أحد قبله ولا بعده فقال: أحسنت يا حرّة، فبما تفضّلينه على موسىٰ كليم الله؟ قالت: يقول الله عزّ وجلّ:

﴿فخرج منها خائفاً يترقّب﴾ [سورة القصص: ١٨].

←

....

← وعلي بن أبي طالب (ع) بات على فراش رسول الله (ص) لم يخف حتىٰ أنزل الله في حقّه:

﴿ومن النّاس من يشري نفسهُ ابتغاء مرضات الله﴾ [سورة البقرة: ٢٠٧].

قال الحجّاج: أحسنت يا حرّة، فبما تفضّلينه على داود وسليمان (ع)؟ قالت: الله تعالىٰ فضّله عليهما بقوله عزّ وجلّ:

﴿يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتّبع الهوىٰ فيضلّك عن سبيل الله﴾ [سورة ص: ٢٦].

قال لها: في أيّ شيء كانت حكومته؟ قالت: في رجلَين: رجل كان كرم، والآخر له غنم، فنفشت الغنم بالكرم فرعته فاحتكما إلى داود (ع)، فقال: تباع الغنم وينفق ثمنها على الكرم حتىٰ يعود إلى ما كان عليه، فقال له ولده: لا يا أبة بل يؤخذ من لبنها وصوفها، قال الله تعالىٰ:

﴿ففهّمناها سليمان﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وأنّ أمير المؤمنين عليّاً (ع) قال:

«سلوني عمّا فوق العرش، سلوني عمّا تحت العرش، سلوني قبل أن تفقدوني».

وأنّه (ع) دخل علىٰ رسول الله (ص) يوم فتح خيبر فقال النبيّ (ص) للحاضرين:

«أفضلكم وأعلمكم وأقضاكم عليّ».

فقال لها: أحسنتِ فبما تفضّلينه على سليمان؟ قالت: الله فضّله عليه بقوله تعالىٰ:

﴿ربِّ هب لي ملكاً لاينبغي لأحدٍ من بعدي﴾ [سورة ص: ٣٥].

ومولانا أمير المؤمنين عليّ (ع) قال:

«طلّقتكِ يا دنيا ثلاثاً لا حاجة لي فيكِ».

فعند ذلك أنزل الله تعالىٰ فيه:

﴿تلك الدّار الآخرة نجعلها للّذين لايريدون علوّاً في الأرضِ ولا فساداً﴾ [سورة القصص: ٨٣].

فقال: أحسنتِ يا حرّة، فبما تفضّلينه على عيسىٰ بن مريم (ع)؟

قالت: الله تعالىٰ عزّ وجلّ فضّله بقوله تعالىٰ:

﴿إذ قال يا عيسىٰ ابن مريم أ أنتَ قلتَ للناس اتّخذوني وأُمّي إلٰهين من دون الله قال ←

وهذه النّقطة هي الموسومة عندهم بعبّادان.

وفي قولهم: ليس وراء عبّادان قرية،

وهي الموسومة أيضاً «بأو أدنىٰ»، لأنّ بعد مرتبة قاب قوسين ليس إلّا مرتبة «أو أدنىٰ». (إشارة إلى الآية من القرآن الكريم السورة النّجم الآية ٩).

وكذلك بالمقام المحمود المشار إليه في قوله تعالى:

﴿عسىٰ أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً﴾ [سورة الإسراء: ٧٩].

هذا أحسن الوجوه في هذا الباب وأكثرها ممّا سنح لنا من الله الجواد المطلق.

(في انّ الإنسان هو النقطة المركزيّة الّتي يدور عليها الوجود)

ووجه آخر وهو أن نفرض أو نسمّي هذه النقطة بالنّقطة المركزيّة الّتي هي واقعة بين دائرة المحيط، وعليها يدور الوجود الكلّي واليها تنتهي خطوط الموجودات كلّها، وليس تلك النّقطة في الحقيقة إلّا الإنسان صغيراً كان أو كبيراً، لأنّه المركز الحقيقي والنّقطة الحقيقة وعليه يدور الوجود، وعليها دوران الكلّ وقد بسطنا الكلام فيه قبل هذا وذلك لأنّ الوجود بالاتّفاق دوريّ لتقابل النقطة المبدائيّة بالنّقطة المنتهائيّة كما عرفته في الدائرة المتقدّمة من شكل العالم، وبيان «قاب قوسين أو أدنىٰ» ويدلّ على ذلك قوله تعالى:

﴿كما بدأكم تعودون﴾ [سورة الأعراف: ٢٩].

← سبحانك مايكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنّك أنت علّام الغيوب * ما قلت لهم إلّا ما أمرتني به﴾[سورة المائدة: ١١٦].

فأخّر الحكومة إلى يوم القيامة.

وعليّ بن أبي طالب لمّا ادّعى النصيريّة فيه ما ادّعوه قتلهم ولم يؤخّر حكومتهم.

فهذه كانت فضائله لم تُعدُّ (تعدل) بفضائل غيره.

قال: أحسنتِ يا حرّة، خرجتِ من جوابك، ولولا ذلك لكان ذلك، ثمّ أجازها وأعطاها وسرّحها سراحاً حسناً رحمة الله عليها.

وقوله:

﴿كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤].

والإنسان بين تلك الدَوَران (الدورتين) كالنقطة الواقعة بين المحيط والقطب الّذي يدور عليه الرّحي ويحكم بصدق هذا قوله تعالىٰ لنبيّه صلّى الله عليه وآله:

لولاك لما خلقت الأفلاك(٢١٩).

---

(٢١٩) قوله: لولاك لما خلقت الأفلاك.

راجع في هذا الحديث ومصادره تعليقتنا الرقم ١٦٧، ص ٥٤٨، الجزء الأوّل.

روى المجلسي رحمة الله عليه في البحار ج ٤٠، ص ١٨، الحديث ٣٦ نقلاً عن العلّامة الحلّيّ في كتابه كشف اليقين في الإمامة (اليقين في إمرة أمير المؤمنين، ص ١٥٧)، بإسناده عن ابن عبّاس في حديث طويل عن النبيّ (ص)، قال: قال لي الجليل سبحانه وتعالىٰ: يا محمّد وعزّتي وجلالي لولاك لما خلقت آدم، ولولا عليّ ما خلقت الجنّة. الحديث، فراجع.

وأيضاً روى في البحار ج ٥٧، ص ١٩٨، عن أبي الحسن البكري أستاذ الشهيد الثاني، عن كتابه «الأنوار في مولد النبيّ (ص)»: عن أمير المؤمنين (ع) قال: فلمّا خلق الله تعالىٰ نور نبيّنا محمّد (ص) بقي ألف عام ينظر إليه ويقول: ياعبدي أنت المراد والمريد، وأنت خيرتي من خلقي، وعزّتي وجلالي لولاك ما خلقت الأفلاك، من أحبّك أحببته ومن أبغضك أبغضته، الحديث، فراجع الحديث وفيه توجد المعارف والعلوم الكثيرة.

أقول: أيّها القارئ العزيز: يجب أن يُعلم أنّ الكتب الفلسفيّة يعني الحكمة المتعالية والصحف العرفانيّة كلّها شرح لأمثال هذا الحديث، ويمكن أن يُقال أنّ مثل كتاب شرح الفصوص للقيصري وابن عربي مثلاً شرح لواحد من هذا القبيل من الأحاديث، فأين العلماء والمحققون حتىٰ يشرحون هذه الأحاديث الواردة عن أهل البيت (ع) التي فيها البحور المحيطة من العلوم التي لا نهاية لها.

روى العلّامة المحدّث العارف الشيخ جمال الدين محمّد بن أحمد الحنفي الموصلي المتوفّىٰ سنة ٦٨٠ في كتابه «در بحر المناقب» ص ٢٦٥ المخطوط، بإسناده عن النبيّ (ص) في حديث طويل، وفيه قال (ص):

فإنّي أفضل النبيّين، ووصيّي أفضل الوصيّين، وإنّ آدم (ع) لمّا رأى إسمي وإسم أخي عليّ وإسم فاطمة والحسن والحسين (ع) مكتوباً على ساق العرش بالنور، قال: إلٰهي

←

وقوله:

﴿وسخّر لكم ما في السّموات وما في الأرض جميعاً﴾ [سورة الجاثية: ١٣].

(في بيان مقام الفناء والرّجوع والخفاء والبطون، والوصول إلى مقام الوحدة الصرفة)

والكلام في هذه النّقطة والباء كثير لايحتمل هذا المقام لكلّ من ذلك، لكن هذا كلّه من حيث المبدأ والظهور والوجود والنزول والبروز، فبق هناك حينئذ أبحاث بالنسبة إلى الفناء والرجوع والخفاء والبطون والوصول إلى مقام الوحدة الصرفة وأمثال ذلك وأعظم دليل عليه قول الإمام الكامل الشيخ شرف الدّين ابن الفارض المصري رحمة الله عليه في قصيدة التائيّة وهو ما قال نظماً من لسان المحبوب الحقيقي:

فلو كنتَ بي مِن نقطةِ الباء خَفْضةً رُفِعت إلى ما لَم تَنَلْهُ بحيلة

وبيان ذلك وهو انّ المحبوب الحقيقي يقول للمحبّ تعليماً له وتنبيهاً على سلوك طريقه لو كنت معي دليلاً متواضعاً منخفضاً كخفظة النقطة تحت الباء صرت مرفوعاً إلى منبع جنابي ودفيع مآبي ونلت من الإرب ما لم تنله بجهد وحيلة. وقال عقيبه:

بحيثُ تَرى أن لاتَرى ما عَدَدْتَه وأنّ الّذي أعددتُه غيرُ عدّة(٢٢٠)

يعني حصل لك هذه المرتبة بمكان تشاهد فيه انّ الّذي اعتبرته وعددته في عداد الوجود لا تراه أي لاتعتدّ به لسقوطه عن درجة الإعتبار وأنّ الّذي هيأته من العلوم والأحوال وطينة عدّة يتوصّل بها إليّ هو ليس بعدّة وذلك لأنّ المكاشف بحقيقة الغيب إذا انكشفت له قناع الرّيب لايشاهد ما يوهمه من الوجود والصّفات بأسرها

← خلقت خلقاً هو أكرم عليك منّي، قال: يا آدم: لولا هذه الأسماء لّما خلقت سماءً مبنيّة ولا أرضاً مدحيّة ولا مَلَكاً مقرّباً ولا نبيّاً مرسلاً ولا خلقتك يا آدم، الحديث. فراجع: إحقاق الحقّ ج ٩٥.

(٢٢٠) قوله: بحيث ترىٰ أن لا ترىٰ (شعر).

الشاعر هو ابن الفارض، راجع ديوانه ص ٧٢، ومشارق الدراري ص ١٤٤.

إلّا ظلالاً متلاشية من أشعة سطوع الشمس الحقيقة فكيف يسبق له رؤية إعتبار وجوده وعدّة صفاته، وهذا إشارة إلى فناء المحبّ في المحبوب بحيث لايرىٰ غيره حتى وجود نفسه، لقولهم:

وجودك ذنب لا يُقاس به ذنب(٢٢١).

---

(٢٢١) قوله: وجودك ذنبٌ لا يُقاس به ذنب.

تمام البيت:

فقلتُ وما أذنبتُ قالتْ مجيبةً وجودُكَ ذنبٌ لا يُقاس به ذنبٌ

ذكره القيصري في شرح الفصوص، الفصّ الإسماعيلي، ص ٢١١.

يعني توجّه العبد إلى وجود نفسه ورؤية وجوده في هذا المقام والمنزلة من المعرفة هو ذنب كبير ولا يُقاس به أي ذنب لأنّه شرك في الوجود وغفلة عن الحق المحبوب، لو أراد أن لايكون له ذنب يجب أن لايرى الوجود إلّا له، إضافة بأنّ نفس وجود العبد حجاب لابدّ منه ولا يرتفع هذا الحجاب قطّ.

قال مولانا في أشعاره في المثنوي باللّغة الفارسية:

آی یکی آمد دَرِ یاری بِزد گفت یارش کیستی ای معتمد
گفت من، گفتش برو هنگام نیست بر چنین خوانی مقام خام نیست
خام را جز آتش هجر و فراق کی پزکی وا رهاند از نفاق
رفت آن مسکین و سالی در سفر در فراق دوست سوزید از شرر
پخته شد آن سوخته پس بازگشت بازگرد خانهٔ أنبار گشت
حلقه زد بر در بصد ترس و أدب تا بِنَجهد بِی أدب لفظی زلب
بانگ زد یارش که بر در کیست آن گفت بر در هم توی ای دلستان
گفت اکنون چون منی ای من درآ نیست گنجایی دومن را در سرا.

الدفتر الأوّل، ص ١٥١ (طبعة أمير كبير).

قال تعالىٰ:

﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه﴾ [سورة الأحزاب: ٤].

روى الصدوق في التوحيد ص ١٧٨، الحديث ١٢، باب ٢٨، بإسناده عن الإمام الكاظم (ع) في حديث قال:

←

ويشهد بذلك قول الناظم عقيبه:

فلم تهوَني ما لم تكن فيَّ فانياً
ولم تَفن ما لم تُجتَلىٰ فيك صورتي(٢٢٢)

لأنّه أيضاً إشارة إلى فناء السالك في التوحيد والرجوع إلى ما كان في الأزل لقوله تعالى:

﴿وَقَد خَلَقتُكَ مِن قَبلُ وَلَم تَكُ شَيئاً﴾ [سورة مريم: ٩].

وتقديره أي لو كنت معنا الآن كما كنت في الأزل معدوماً هالكاً وما احتجبت بالنّقطة الإمكانيّة التعيّنية الموجبة لتميّزك عن غيرك لحصل لك الوصول إلينا والبقاء بنا، ووصلت إلى مقام لم يكن الوصول إليه بحيلة وجدّ واجتهاد، لأنّ مقام الّذي حصل لهم هذا المقام لم يكن كسبياً ولا اجتهادياً بل كان لمحض عطائنا وسبق إنعامنا في حقهم بعد فنائهم فينا ورجوعهم إلينا لقولنا:

﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ [سورة ص: ٣٩].

ومعلوم أنّ مقامات الأنبياء والأولياء عليهم السّلام ليست كسبيّة ولا إجتهاديّة، وبالجملة هو الأمر بالفناء والرّجوع إلى ما كان في الأزل، وقد قيل:

الفقر من يكون مع الله الآن كهو في الأزل.

← «ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه».

ومثله أيضاً في حديث آخر حدّثه عن أمير المؤمنين (ع) ص ٣٠٩، الحديث ٢، باب ٤٢، وروى أيضاً في باب ٢ (باب التوحيد ونفي التشبيه) في حديث طويل، الحديث ٣، ص ٣٥، بإسناده عن الإمام أبي الحسن الرضا (ع)، قال:

«خلق الله الخلق حجاب بينه وبينهم»، الحديث.

وفي حديث آخر رواه ص ٥٦، الحديث ١٤، بإسناده عن أبي الحسن الرضا (ع)، قال: «فالحجاب بينه وبين خلقه، لإمتناعه ممّا يمكن في ذواتهم، ولإمكان ذواتهم ممّا يمتنع منه ذاته».

(٢٢٢) قوله: فلم تهوني (شعر).

الشاعر هو ابن الفارض، راجع ديوانه ص ٧٣، ومشارق الدراري ص ٥٠.

وقد قال العارف الّذي وصل إلى هذا المقام في جواب قول سمع:

«كان الله ولم يكن معه شي»: «الآن كما كان»(٢٢٣).

لأنّه ما شاهد معه غيره وهذا من كمال الفناء فيه والبقاء به لقولهم من لسانه جلّ ذكره:

«ولم تفن ما لم يجتلي فيك صورتي».

لأنّ هذا قول دال على أنّ فناء السالك ليس إلّا بتجلّياته الموجبة لإفنائه له وفي هذا المقام قال المنصور:

بيني وبينك إنّيّ ينـازعني فارفع بفضلك إنّيّ من البين

لأنّه ليس حجاب السّالك إلّا إنيّته الّتي يحجبه عن مطلوبه ومقصوده، وفيه قيل:

«الفقير لايحتاج إلى شيء ولا يحتاج إليه شيء»

وهذا من فنائه عن وجوده ورجوعه إلى عدمه الأصل وسقوط وجوده عن درجة الإعتبار بالكلّي لأنّ الإحتياج من لوازم الوجود وليس له وجود فلا يحتاج إلى شيء ولا يحتاج إليه شيء، لأنّه عدم صرف ولا شيء محض ولا يحتاج أحد إلى العدم أصلاً. وإشارة سيّد المرسلين صلوات الله عليه وآله وسلّم في قوله:

الفقر سواد الوجه في الدارين(٢٢٤).

---

(٢٢٣) قوله: كان الله ولم يكن معه شيء.

قد مرّت الاشارة إلى هذه العبارة في تعليقتنا ١٩٠، وأيضاً في الجزء الأوّل، ص ٣٥٢، الرقم ٧٨ و ٨٨.

(٢٢٤) قوله: الفقر سواد الوجه.

رواه ابن أبي جمهور في عوالي اللّئالي ج ١، ص ٤٠، الحديث ٤١.

ورواه أيضاً المجلسي في البحار، نقلاً عن العامّة ج ٧٢، ص ٣٠.

ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ج ٣، ص ٥٣، بإسناده عن النبيّ (ص)، قال: «كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الحسد أن يغلب القدر».

←

كناية عن هذا المقام لان وجه الشيء ذاته ووجوده، وسواده عبارة عن فنائه وزواله لأنّ فناء وعدم يسمّى ظلمة وسواداً، وكلّ وجود وبقاء يسمّى نوراً وضياء، فكمال الفقر لايكون إلّا في إفناء السّالك والفقير نفسه ووجوده في الدارين أي دار الدّنيا ودار الآخرة أو ظاهر العالم وباطنه، أو عالم الغيب والشهادة.

وإن تحققت عرفت أنّ النبيّ (ص) بمثل هذا الفقر إفتخر على ساير الأنبياء والمرسلين لا الفقر الصوري الّذي يمكن هناك أفقر منه من حيث الصّورة وبل كان واقعاً لأنّ في مكّة شرّفها الله، في ذلك الوقت كانوا أفقر منه أشخاصاً كثيرة، وكلام ابن الفارض في القصيدة:

وجئتَ بوجهٍ أبيضٍ غير مُسقطٍ
لجاهك في الداريْك خاطِبَ صَفوَتي [٢٢٥]

كناية عن هذا الأمر وتقديره أي وجئتني حال كونك غير مسقط لجاهك في دنياك وعقباك وحال خطبتك عروس حبّي وصلي بما ظننت صداقها ووسيلة عناقها من بياض وجهك في الدنيا والعقبى لاستغنائك بزخارف العلوم والأحوال والأخلاق والأعمال التابع لوجودك الّذي هو أصل الحجاب والمنع عن مطلوبك ليس الأمر كما زعمت وظننت، لأنّك لاتصل إلى جناب عزّتي إلّا بتذلّلك وخمولك وإسقاط قبولك والفناء عن وجودك، وعقيب هذا جاء البيت المتقدّم:

فلو كنت بي مِن نقطةِ الباء خفضةً رُفعت إلى ما لَمْ تَنَلْه بحيلةِ

← ومثله أيضاً في نفس المصدر ص ١٠٩.

وروى الصدوق أيضاً نفس هذا الحديث في (أماليه)، المجلس ٤٩، ص ٢٤٣، الحديث ٦، بإسناده عن الصادق (ع).

وفي الجامع الصغير للسيوطي ج ٢، ص ٢٦٦، الحديث ٢١٩٩، وفي حلية الأولياء ج ٨، ص ٢٥٣، عن النبيّ (ص) قال:

«كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الحسد أن يكون سبق القدر».

(٢٢٥) قوله: وجئت بوجه أبيض (شعر).

قائله ابن الفارض، راجع ديوانه ص ٧٢، ومشارق الدراري ص ١٤٤.

ليعرف أنّ المقصود منه هذا لا غير، وكلّ من يرجع إلى المبدأ الأصلي الّذي هو العدم على الوجه المذكور أعني الفناء والهلاك والطمس الكلّي بقوّة التوحيد الذّات والكشف الحقيقي لا شكّ ولا خلاف أنّه يحصل له هذا المقام ويصل إلى مرتبة لم يمكن الوصول إليها أصلاً لا بجدّ ولا اجتهاد ولا حيلة ولا سعي، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فعليك إذن باسقاط النقطة الإمكانيّة الإضافيّة المشار إليها جميع هذه الإشارات ليحصل لك الفناء في الله والبقاء به وتكون من الواصلين المقرّبين والكاملين المحققين، لأن عند التحقيق ليس هذا الفناء إلّا عين البقاء، ولا هذا الإسقاط إلّا عين الإثبات، لأنّ مَن فنيٰ عن وجوده بق بوجود الحقّ تعالىٰ ومَن مات في سبيله صار حيّاً بحياته، لقوله:

﴿وَلا تَحسبنَّ الّذينَ قُتلوا في سبيلِ الله أمواتاً بل أحياءٌ عندَ ربِّهم يرزقون * فَرحينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِن فَضلهِ ويَستَبشرونَ بالّذينَ لَم يلحقُوا بِهم من خَلفِهم ألّا خوفٌ عَليهِم وَلا هُم يَحزَنُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

ولقوله:

ومن قتلته فأنا ديته(٢٢٦).

---

(٢٢٦) قوله: ومن قتلته فأنا ديته.

تمام الحديث كما يلي:

مَن طَلَبني وَجَدَني، وَمَن وَجَدَني عَرَفَني، وَمن عَرَفَني أَحَبّني، ومَن أَحَبّني عَشَقَني، ومَن عَشَقَني عَشقتُهُ، ومَن عَشَقتُهُ قَتَلْتُهُ، ومَن قَتَلْتُهُ فَعَلَيَّ دِيته، ومَن عَلَيَّ دِيَتُهُ فأنا دِيَتُهُ.

راجع «المنهج القوي» ج ٤، ص ٣٩٨.

روى الشهيد الثاني في «مسكّن الفؤاد» ص ٢٧، في خبار داود (ع):

يا داود! بلّغ (أبلغ) أهل الأرض: أنّي حبيب من أحبّني، وجليس من جالسني، ومونس من أنِسَ بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لِمَن أطاعني، ما أحبّني أحد من خلقي عرفت ذلك من قلبه إلّا أحببتُه حبّاً لايتقدّمهُ أحد من

←

ولقوله:

﴿أوَ مَن كانَ مَيتاً فَاحيَيْناه وَجَعلْنا لَه نوراً يمشي بِه فِي النّاس كمن مثلُه في الظُّلمات لَيسَ بخارجٍ مِنها كَذلك زيّن للكافرين ما كانوا يَعملون﴾ [سورة الأنعام: ١٢٢].

ولقول النبيّ صلّى الله عليه وآله:

موتوا قبل أن تموتوا(٢٢٧).

← خلق. (ما أحبّني أحد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلّا قبلتُه لنفسي لا يتقدّمه أحد من خلق) من طلبني وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلمّوا إلى كرامتي ومصاحبتي، ومجالستي، ومؤانستي، وآنِسوا لي بي أوآنسكم، وأسارع إلى محبّتكم. عنه البحار ج ٧٠، الحديث ٢٨.

في «مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة» المنسوب بالإمام الصادق (ع)، باب ٩٦، قال: حبّ الله إذا أضاء على سرّ عبده (عبد) أخلاه عن كلّ شاغل (وكلّ ذكر سوى الله ظلمة) إلى أن قال: وقال أمير المؤمنين (ع):

«حبّ الله نار لايمرّ على شيء إلّا احترق». الحديث.

(٢٢٧) قوله: موتوا قبل أن تموتوا.

رواه المجلسي في البحار ج ٧٢، ص ٥٩، وعبّر عنه بالحديث المشهور وقال:

وقد ورد في الحديث المشهور: موتوا قبل أن تموتوا.

وذكره أيضاً صدر المتألّهين في تفسيره ج ٣، سورة البقرة في الآية ٥٤، ص ٣٩٩، وقال: وفي الحديث النبويّ على قائله وآله أشرف سلام الله: «موتوا قبل أن تموتوا»، وروي أنّه قال أيضاً: «من أراد أن ينظر إلى ميّت يمشي فلينظر إليّ».

ورواه أيضاً سعيدالدين سعيد الفرغاني في مشارق الدراري ص ١٥٢.

قال أمير المؤمنين (ع) في وصف سالك الطريق إلى الله سبحانه:

«قد أحيا عقله وأماتَ نفسه، حتّىٰ دقّ جَليلُهُ، ولطف غليظُهُ، وبرق له لامعٌ كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السّلامة، ودار الإقامة، وثَبتْ رِجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والرّاحة، بما استعمل قلبه، وأرضىٰ ربّه. نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٠ صبحي الصالح.

قال سبحانه وتعالى:

←

إشارة إلى هذا الموت والفناء وبعده إلى الوصول واللقاء.

ولقول العارف أيضاً:

اقتلوني ياثقاتي، انّ حياتي في مماتي ومماتي في حياتي

فإنّه أيضاً إشارة إليه.

وحيث بلغ الكلام هذا المبلغ وورد إذا تمّ الفقر فهو الله، وقد سبق الكلام في الفقر والفقير، والخبر الوارد فيهما، فلنشرع في تحقيق الفقر وسبب غنائه وبقائه به، والتوفيق بين الأخبار الواردة فيه.

(في بيان حقيقة الفقر ومعناه)

فنقول: إعلم، أنّ الفقر هو عدم التمليك مطلقاً حتّى عن وجوده، وكلّ شخص يحصل له هذا الفقر على ماينبغي لا شكّ أنّه يخرج من حكم الوجود الإضافي الإمكاني وإذاخرج من حكم الوجود الإضافي الإمكاني لابدّ وأن يدخل في حكم الوجود الحقيقي الواجبي الكلّي، لأنّ الشّيء إذا جاوز حدّه انعكس ضدّه، والوجود إمّا واجبيّ أو امكانيّ، والإتّصاف بأحدهما ضروريّ، فافهم وحقق معنى قولهم:

إذا تمّ الفقر فهو الله.

وأعرف بالحقيقة أنّ افتخار النّبي عليه السّلام بالفقر لم يكن إلّا بمثل هذا، وسبحاني ما شأني، ليس إلّا في هذا المقام، وكذلك أنا الحقّ، ومن مثلي، وهل في الدارين غيري، وليس في جبّتي سوى الله، وأمثال ذلك، والأخبار الواردة في الفقر

← ﴿يا أيّتها النّفس المطمئنّة * ارجعي إلى ربّكِ راضية مرضيّة * فادخلي في عبادي وأدخلي جنّتي﴾ [الفجر: ٣٠].

وقال سبحانه:

﴿إنّ المتّقين في جنّات ونهر * في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مُقتدِر﴾ [القمر: ٥٥].

من مات في الدنيا وقامت قيامته الكبرىٰ يكون مصداقاً لما قال سبحانه في هاتين الآيتين في هذه النشأة الدنياويّة أيضاً. والله هو العالم.

ثلاثة:

الأولىٰ، قوله: فخري[٢٢٨]. وقد عرفت معناه.

والثانية، قوله: الفقر سواد الوجه في الدارين[٢٢٩]. وقد عرفت معناه.

والثالثة، قوله: كاد الفقر أن يكون كفراً[٢٣٠]. وهذا القول يطابق القولين، لأنّه إذا حصل الفقر الحقيقي للفقير الّذي هو عدم التمليك، لا شكّ أنّه يشاهد نفسه في مقام لم يكن له حاصلاً ذلك المقام، والمقام الحاصل بعد الفقر الحقيقي كما سبق ليس إلّا مقام الإتّصاف بصفات الله والتخلّق بأخلاقه، وهذا المقام لابدّ له من دعوى الرّبوبيّة إذا لم يكن الفقر ثابتاً في مقامه، فذلك هو الكفر ولهذا قال: كاد، فأمّا إذا كان الفقير كاملاً عارفاً متمكّناً يعرف: أنّ الوجود المضاف إليه وما يتعلّق به ليس إلّا للحقّ تعالىٰ لا يدّعي هذا ولا يقول به، فلا يكون بالنسبة إليه كفر، وبل يكون موجباً للإفتخار على جميع الأنبياء صورة ومعنىً لأنّه الآن في أغنى الغناء وأبق البقاء، رزقنا الله وإيّاكم الوصول إليها بحق محمّد وولديها والله أعلم وأحكم وهو يقول الحقّ وهو يهدي السبيل، وسيجئ البحث في النّقطة والباء أكثر من هذا عند تأويل بسم الله الرّحمٰن الرّحيم. وحيث عرفت هذا بقدر هذا المقام فلنشرع في تطبيق الحروف الآفاقيّة بالحروف القرآنيّة كما شرطناه وهو هذا:

---

(٢٢٨) قوله: الفقر فخري.

رواه ابن أبي جمهور في عوالي اللّئالي ج ١، ص ٣٩، وقال:

وروي عنه (ص): «الفقر فخري وبه أفتخر على سائر الأنبياء».

ورواه أيضاً صاحب جامع الأخبار في الفصل السابع والستّون في الفقراء.

ورواه أيضاً أحمد بن فهد الحلّيّ في (عدّة الدّاعي) ص ١٢٣، قال: قال نبيّنا (ص): «الفقر فخري وبه أفتخر».

أنظر أيضاً تعليقتنا الرقم ١، ص ١٩٥، الجزء الأوّل.

(٢٢٩) و (٢٣٠) قوله: الفقر سواد الوجه ـ وقوله: كاد الفقر...

قد مرّ في الرّقم ٢٢٤.

القسم الثالث
في تطبيق الحروف الآفاقيّة بالحروف القرآنيّة
على سبيل التفصيل

إعلم، أنّ الحروف القرآنيّة كما هي منحصرة في ثمانية وعشرين حرفاً، فكذلك الحروف الآفاقيّة فإنّها منحصرة في ثمانية وعشرين حرفاً.

أمّا الحروف القرآنيّة فمعلومة مشهورة.

(في بيان المقصود من الحروف الآفاقيّة)

وأمّا الحروف الآفاقيّة وهي عبارة عن بسايط العالم ومفرداته ملكاً وملكوتاً، أمّا الملك فالهيولى الأولى والأفلاك التسعة والعناصر الأربعة فإنّها أربعة عشر حرفاً، وأمّا الملكوت فبواطن هذه كلّها لأنّ لكلّ ظاهر باطن ولكلّ باطن ظاهر، ويشهد بذلك قوله تعالى:

﴿فسبحان الّذي بيده ملكوت كلّ شيء وإليه ترجعون﴾ [سورة يس: ٨٣].

فيكون المجموع ثمانية وعشرين حرفاً، وكما ان الحروف الآفاقيّة منقسمة إلى الملك والملكوت، فكذلك الحروف القرآنيّة، فإنّها منقسمة إلى الملك والملكوت، لأنّ المنقوطة منها بحسب الملك لتعيّنها وتقيّدها بالنّقطة والغير المنقوطة بحساب الملكوت لعدم تقييدها وتعيينها.

(في انّ تركيب الحاصل من الحروف القرآنيّة وأيضاً الآفاقيّة لا تقبلان الحصر)

ثمّ اعلم أنّ تركيب الحاصل من الحروف القرآنيّة كما لايقبل الحصر من حيث التفصيل، فكذلك التركيب الحاصل من الحروف الآفاقيّة فإنّها لاتقبل الحصر أيضاً من حيث التّفصيل، وتركيب الحاصل من الأولى كالقرآن والكتب السّماويّة وغير ذلك من الكتب والصّحف تركيب إجماليّ غير تفصيليّ لإنحصاره في سورة معدودة وآيات

وكلمات معيّنة. فكذلك التركيب الحاصل من الثانية فإنّها أيضاً تركيب إجماليّ غير تفصيليّ لإنحصاره في أربعة عشر عاماً أو ثمانية وعشرين عاماً، أو ثمانية عشر ألف عالم أو تسعة عشر عالم على إختلاف الآراء وتعبير العبارات. ونظراً إلى تركيب الجزئيّ الحاصل من الحروف القرآنيّ الغير القابل للإنتهاء، قال:

﴿وَلو أنّما في الأرض من شَجَرة أقلام وَالبَحر يمدّه مِن بَعده سَبعَة أبحر ما نفدت كلمات الله إنّ الله عَزيز حَكيم﴾ [سورة لقمان: ٢٧].

ونظر إلى تركيب الجزئي الحاصل من الحروف الآفاقي الغير القابل للإنتهاء، قال:

﴿فأمّا الّذينَ شَقُوا فَفِي النّارِ لَهُم فِيهَا زفيرُ وشَهيقٌ * خالدينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السّمٰواتُ والأرْضُ إلّا مَا شاءَ ربُّكَ إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأمّا الّذينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خالدينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السّمٰواتُ وَالأرْضُ إلّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجذُوذٍ﴾ [سورة هود: ١٠٦ ـ ١٠٨].

والخلود فيهما دالّ على عدم تناهيهما وعدم تناهيهما يدلّ على عدم تناهي العالم والممكنات كما قرّرناه مراراً.

وحيث تقرّر أنّ القرآن صورة إجمال العالم وتفصيله، وكلّ حكم يصدق على القرآن يصدق على الآفاق، وقد ثبت أنّ القرآن من حيث المعنى والتركيب الجزئيّة الحاصلة من حروفه غير متناهية، فثبت أنّ الآفاق المسمّى بالعالم أيضاً كذلك خصوصاً إذا شهد به العقل والنقل.

(في بيان مركّبات القرآن والآفاق وحركاتهما)

ثمّ اعلم، أنّ مركّبات القرآن ثلاثة، سورة وآية وكلمة، إمّا إسم أو فعل أو حرف، فكذلك مركّبات الآفاق فإنّها أيضاً ثلاثة، معدن ونبات وحيوان، أو مَلَك وإنس وجنّ. وحركات القرآن أيضاً ثلاثة، ضمّة وفتحة وكسرة، فكذلك حركات الآفاق فإنّها أيضاً ثلاثة، مستقيمة وأفقيّة ومنكوسة، والمستقيمة مخصوصة بالإنسان، والأفقيّة بالحيوان، والمنكوسة بالنبات، أو نصب ورفع وجرّ، فإنّها أيضاً ثلاثة مقابلة للثلاثة الآفاقيّة حركات مبتدائيّة وحركات وسطيّة وحركات منتهائيّة، هذا بالنّسبة

إلى مطلق التطابق بين الكتابين، وأمّا بالنسبة إلى بعض التطابق فقد عرفت من تطابق حروف «بسم الله الرّحمن الرّحيم» الّتي هي تسعة عشرة حرفاً بمراتب العالم من حيث الكلّيّات الّتي هي تسعة عشرة مرتبة وهذا من حيث اعتبار حروفها المكتوبة، فأمّا من حيث إعتبار حروفها الملفوظة الّذي هو اثنين وعشرين حرفاً فبإزاء اثنين وعشرين عالماً أمّا التسعة عشرة فقد عرفتها، وأمّا الاثنين والعشرين فبإنضمام العوالم الإلهيّة إليها الّتي هي الثلاثة من عالم الذات وعالم الصفات وعالم الأفعال والملك والملكوت والجبروت بإزائها.

(في المراد من ستّة أيّام في خلق العالم)

وإن قلت: إنّكم بيّنتم في الخطبة إجمالاً: أنّ الكتاب الآفاقي قد تمّ في ستّة أيّام متمسّكاً بقول الله تعالى:

﴿وَهوَ الّذي خَلَقَ السّموات والأرض في ستّة أيّام﴾ [سورة هود: ٧].

وإنّ العالم المعبّر عنه بثمانية عشر ألف عالم هو أيضاً من إقتضاء وضع العالم على ستّة أيّام الّتي هي عبارة عن المراتب الوجودي، والعالم على ثلاثة مراتب: العقول والنفوس والأجسام، أو الملك والملكوت والجبروت، فيكون المجموع ثمانية عشر ألف عالم، وما عرفنا معناه ولا مقصودكم منه، وما الحكمة في الستّة، ولم لايكون أكثر وأقلّ؟

قلنا: هذا في غاية السهولة، وقد سبق بيان ذلك من كلام صاحب اخوان الصفا وفيثاغورس الحكيم في خواص العالم ووقوعه على ترتيب العدد، وكذلك من كلام بعض الحكماء، ولكن ما نقنع به ونشرع فيه على ما ينبغي، ونقول فيه على ماهو عليه في نفس الأمر:

أمّا الأيّام الستّة وتخليق العالم عليها، بأنّ العالم فعل الحكيم الكامل وفعل الحكيم يجب أن يكون على أتمّ الوجوه من الإتقان والإحكام، والستّة عدد تامّ غير ناقص ولا زايد، فمن هذا وقع عليها.

وإن قلت: هناك الأعداد كثيرة وكلّه تامّ فأيّ خصوصيّة لستّة؟

قلنا : الخصوصيّة في ذلك وهي أنّه يجب فعل الحكيم أن يكون على أتمّ الوجوه ولم يكن من المراتب العدديّة التّامّة أقلّ من السنّة ، الفعل الّذي يحصل بأقلّ شيء لايجوز وقوعه بأكثر منه وإلّا لايكون منسوباً إلى الحكيم، وأمّا أنّ الستّة مرتبة تامّة .

(في بيان وقوع الموجودات علىٰ طبيعة العدد)

فاعلم ، أنّ العدد كلّه على رأي أرباب هذا ألف من حيث الكلّي على أربعة أقسام، أزواج ، وأفراد ، وصحيح ، وكسور، ومراتب الموجودات الّتي في العالم مناسبة لهذه الأعداد كطبيعة عالم الأرواح فإنّها يشبه الأفراد من العدد، ومراتب الموجودات في عالم الأجسام بطبيعة الأزواج أشبه ومراتب الموجودات الّتي في عالم الأفلاك بطبيعة الأعداد الصحيحة أشبه، ومراتب الموجودات الّتي في عالم الكون والفساد ، بطبيعة الكسور أشبه، والغالب على ظنّي أنّ في هذا المكان بالنّسبة إلى بعض الأذهان يحتاج إلى بيان هذه المراتب من الأعداد أكثر من هذا.

فنقول : إعلم أنّ المراتب الأربعة من أقسام العدد من الزّوج والفرد والصحيح والكسور بعضها تامّ وبعضها ناقص ، أمّا الزّوج والفرد فهما مستغنيان عن البيان لوجودهما وشهرتهما بين النّاس ، وأمّا الصحيح والكسور فبيانه على ما قال صاحب الفنّ: وهو أنّ العدد على ثلاثة أقسام، زايد، وناقص ، وتامّ. أمّا الزايد فكلّ عدد يكون أجزاء كسوره أزيد من أصله المخرج منه مثل عدد إثنا عشر مثلاً فإنّ كسوره الّتي يخرج منه نصف وربع وثلث وسدس ، فالنصف ستّة والربع ثلاثة والثلث أربعة والسّدس إثنان ، يكون المجموع المجموع خمسة عشر ، فيكون أجزاء كسوره أزيد من الأصل ، وبهذا الإعتبار يسمّىٰ زايداً.

وأمّا الناقص فكلّ عدد يكون أجزاء كسوره أقلّ من أصله المخرج منه مثل عدد الأربع ، فإن كسوره الّتي يخرج منه نصف وربع، فالنّصف إثنان، والرّبع واحد ، يكون المجموع ثلاثة ، فيكون أجزاء كسوره أنقص من الأصل ، ولهذا الإعتبار يسمّىٰ ناقصاً .

وأمّا التّامّ ، فكلّ عدد يخرج أجزاء كسوره كأصله المخرج منه مثل عدد السّتّ ،

فإن كسوره الّتي يخرج منه نصف وثلث وسدس، فالنّصف ثلاثة والثُلث إثنان، والسّدس واحد، فيكون المجموع ستّة، فيكون أجزاء كسوره مساوية للأصل المخرج منه وبهذا الإعتبار يسمّى تامّاً، وبهذا السّبب خلق الله تعالىٰ العالم في ستّة أيّام الّذي هو أقلّ العدد من الأعداد التّامّات، وقد سبق عليه ذلك أيضاً والله أعلم وأحكم، فالسّتّة من المراتب الأوّليّة المختصّة بالعقول والمجرّدات، والستّة الوسطيّة من النّفوس والأرواح، والستّة الأخيرة من الأجسام، والمحسوس يكون ثمانية عشر ألف عالم، وأمثال ذلك من التطبيقات وهذا أيضاً تطبيق بمفردات الحروف ومفردات العالم، وأمّا التطبيق ببعض مركباتها الّتي هي، أبجد، هوّز، حطّي، كلمن، إلى آخرها، فذلك يحتاج إلى مقدّمات.

منها، ما سبق من كلام فيثاغورس الحكيم في طبيعة العدد والحكمة المندرجه تحت كلّ عدد وقو قوله:

«إعلم، أنّ الموجودات واقعة بحسب طبيعة العدد، فن عرف طبيعة العدد وأنواعه وخواصّه أمكنه أن يعرف كمّية أنواع الموجودات وأجناسها، وما الحكمة في كمّيتها على ما هي عليه الآن، ولِمَ لم يكن أكثر من ذلك ولا أقلّ منه وذلك أنّ الباري جلّ وعزّ لمّا كان هو علّة الموجودات وخالق المخلوقات وهو واحد بالحقيقة، لم يكن من الحكمة أن يكون الأشياء واحداً من جميع الجهات بل وجب أن يكون واحداً بالهيولىٰ كثيراً بالصّورة، ولم يكن من الحكمة أن يكون الأشياء كلّها ثنائيّة ولا ثلاثيّة ولا رباعيّة ولا أكثر من ذلك ولا أقل بل كان الأحكم والأنفس أن يكون على ماهي عليه من الأعداد والمقادير وكان ذلك في غاية الحكمة، وذلك أن الأشياء ما هي ثنائيّة ومنها ثلاثيّة ورباعيّة ومخمّسات ومسدّسات ومسبّعات ومعشرات وما زاد على ذلك بالغاً ما بلغ إلى قوله: وعلى هذا قد توغّلت المسبعة في الكشف عن الموجودات السباعيّة وظهر لهم منها أشياء عجيبة فشعفوا بها واطنبوا في ذكرها وغفلوا عن ما سوى ذلك من المقادير.

وكذلك أيضاً الثّنوية في الكشف عن الموجودات الثنائيّة فظهر لهم منها أشياء عجيبة فشعفوا بها وغفلوا عن ما سوى ذلك، وهكذا النصارىٰ في التثليث والمثلّثات،

وهكذا أيضاً الطبيعيّون في الطبايع الأربع والمربعات من الأمور، وهكذا المخمّسة أطنبوا في الأمور المخمّسة، وأهل الهند أطنبوا في المتسعات من أمور العدد والمقادير.

فأمّا الحكماء الالهيّون قد أعطوا كلّ ذي حق حقّه حين قالوا: إنّ الموجودات بحسب طبيعة العدد يعني الأشياء الموجودة، منها ما هو إثنين إثنين، ومنها ثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، وخمسة خمسة، هكذا بالغاً ما بلغ، ومن ذلك قالوا: إنّ الواحد أصل العدد ومنشأه، من الواحد يألف العدد قليله وكثيره وأزواجه وأفراده وصحيحه وكسوره، فالواحد علّةً العدد كما أنّ الباري جلّ ثناؤه علّة الموجودات وموجِدها ومرتّبها ومُتقنها ومكملها، وكما أنّ الواحد لا جزء له ولا مِثل ولا نظير ويُعطي كلّ عدد إسمه ومقداره، كذلك الحقّ تعالى لا مِثل له ولا جزء له ولا نظير، وأعطى الموجودات وجودها وإسمها ومقدارها، وكما أنّ ببقاء الواحد بقاء العدد ودوامها، كذلك ببقاء الباري جلّ ثناؤه بقاء الموجودات ودوامها، وكما أنّ بالواحد يقدر على كلّ عدد ومقدار، كذلك علم الباري بكلّ غايب وشاهد، وكما أنّ من تكرار الواحد نشأ العدد وتزايد، كذلك من فيض الباري وجوُده العام نشأ الخلايق ونمّا، وكما أنّ الإثنين هو أوّل عدد نشأ من تكرار الواحد، كذلك العقل هو أوّل موجود فاض من جود الباري، وكما أنّ الثلاثة ترتّبت بعد الاثنين كذلك النّفس ترتبت بعد العقل، وكما أنّ الأربعة ترتبت بعد الثلاثة وكذلك الطبيعة ترتبت بعد النّفس، وكما أنّ الخمسة ترتبت بعد الأربعة كذلك الهيولىٰ ترتبت بعد الطّبيعة، وكما أنّ الستّة ترتبت بعد الخمسة كذلك الجسم ترتّبت بعد الهيولىٰ، وكما أنّ السبعة ترتبت بعد الستّة كذلك الفلك ترتّبت بعد الجسم، وكما أنّ الثمانية ترتّبت بعد السبعة كذلك الأركان ترتبت بعد الفلك ترتّبت بعد الجسم، وكما أن الثمانية ترتّب بعد السبعة، كذلك الأركان ترتبت بعد الفلك، وكما أن التسعة ترتبت بعد الثّمانية كذلك المولّدات تولّدت بعد الأركان وكما أنّ التّسعة آخر مرتبة الأعداد كذلك المولّدات آخر مرتبة الموجودات الكلّيّات وهي المعادن والنّبات والحيوان، فالمعادن كالعشرات، والنّبات كالمائات، والحيوان كالألوف والمراج كالآحاد.

والغرض من هذا النّقل بعد أن سبق ذكره مرّة أنّ مركّبات الحروف المرتّبة على

ترتيب العالم وقعت كذلك، وذلك أن تعرف أنّ الأنبياء عليهم السّلام حين فرغوا من وضع حروف التهجّي على ترتيب حروف العالم كما ذكرناه بوجوه مختلفة، شرعوا في تركيب يدلّ على ذلك التركيب أيضاً على ترتيب العالم كلّه أعلاه وأسفله، وهو أبجد، هوّز، حطّي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ظضغلا. فإن أبجد ألف وباء وجيم ودال، فالألف واحد، والباء إثنان، والجيم ثلاث، والدّال أربع، ويحصل بهذا الترتيب الثّاني والثلاثي والرّباعي بعد المرتبة الأولى الّتي يتعلّق بالألف وذلك مطابق للمراتب الأربع المذكورة في ترتيب العالم من الأمر والعقل والنفس والطبيعة، ويحصل منه أيضاً بعد مرتبة الآحاد مرتبة العشرات لأنّ أبجد على حساب الهندسة عشرة، وكذلك هوّز فإنّ الهاء خمسة بعد الأربعة المتقدّمة، والواو ستّة والزّاء سبعة، ويحصل منها التّرتيب الخماسي والسّداسي والسّباعي موافقاً لما تقدّم من التّرتيب، وكذلك حطّي فإنّ الحاء ثمانية والطّاء تسعة والياء عشرة، يحصل منها الترتيب الثمني والتسعي وينتهي إلى نهاية الآحاد الّتي هي العشرة، وإلى بداية العشرات الّتي هي التّسعة، ويخرج الترتيب صحيحاً من الألف إلى الياء في مرتبة الآحاد الّتي هي العشرة لأنّ من أبجد إلى حطّي أيضاً عشرة، ثمّ بعد ذلك فانظر إلى كلمن فإنّهم إذا فرغوا من ترتيب الآحاد إلى العشرات شرعوا في ترتيب العشرات إلى المئات، لأنّ الكاف عشرين واللّام ثلاثين والميم أربعين، والنّون خمسين، وهكذا إلى المائة، والألف الّتي ليس فوقها غاية في العدد.

وإذا عرفت هذا فانظر إلى ترتيب العالم وتركيبه، فإنّه كذلك، وكذلك إلى آخر المراتب العدديّة المترتّبة على الترتيب اللّازم لطبيعة الحروف من الباء إلى الغين.

وعند التحقيق الكلّ راجع إلى الواحد، أمّا في العدد فكما عرفته، وأمّا في الحروف فكما تحققته.

وأمّا في العالم فكما بيّناه مراراً، خصوصاً الآن بأن مبدأ الكلّ المعبّر عنه بالعالم، من الواحد الحقّ تعالىٰ جلّ ذكره، كما قيل:

كلّ شيء فيه معي كلّ شيء ... فتفطن واصرف الذهن إلى

كثرة لا تتناهى عددا ... قد طوتها وحدة الواحد طي

وقد سبق ذكرها بين البيتين أيضاً مع الأبحاث المذكورة، لكن حيث إنّ هذا الموضع موضعها ذكرناها قصداً لا نسياناً ولا سهواً بل بمقتضى ما قال العارف:

أعد ذكر نعمان أعد أنّ ذكره　　　هو المسك ما كرّرته يتضوّع

والله أعلم وأحكم وهو يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.



المقدّمة الرّابعة
في الكلمات الآفاقيّة الإلهيّة وتطبيقها بالكلمات القرآنيّة على سبيل الإجمال والتّفصيل

إعلم، أنّ الكلمات الآفاقيّة عند البعض عبارة عن المركّبات العنصريّة المسمّاة بالمواليد الثّلاثة الّتي هي المعدن والنّبات والحيوان، وعند البعض عن مطلق الموجودات مركّباً كان أو بسيطاً، أرواحاً كان أو أجساداً. والحقّ أنّ كلّ ما صدر من الدّواة الإلهيّة المعبّرة عنها بعالم الجبروت وسطر على صفحات الوجود الإضافيّ الإمكاني بالقلم الرّباني المعبّر عنه بالعقل الأوّل، لقوله تعالى:

﴿ن وَالقلم وَما يسطرون﴾ [سورة القلم: ١].

فهو كلمة ربانيّة مسطورة على رقّ الكتاب الآفاقي وصفحاته، لقوله أيضاً:

﴿وَالطُّورِ * وَكِتابٍ مَسطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنشُورٍ﴾ [سورة الطور: ١ ـ ٣].

وقد سبقت كيفيّة صدور هذه الكلمات من النّفس الرّحماني وبروزها في الجناب الإلهي صورة ومعنىً مع ذكر الدّواة والقلم والألواح وغير ذلك.

(في معنى الكلمة الآفاقيّة وأقسامها)

وبيانه مرّة أخرى، وهو أنّ الكلمة عند هؤلاء القوم باتّفاق الأنبياء والأولياء عليهم السّلام عبارة عن كلّ متعيّن من الموجودات الرّوحانيّة والجسمانيّة كما ورد في إصطلاحهم في تقسيمها بقولهم: الكلمة تكني بها عن كلّ واحدة من الماهيّات والأعيان والحقائق والموجودات الخارجيّة، وفي الجملة عن كلّ متعيّن وقد تخصّ المعقولات بين الماهيّات والحقائق والموجودات والأعيان بالكلمة المعنويّة الغيبيّة،

والخارجيّات بالكلمة الوجوديّة، والمجرّدات والمفارقات بالكلمة التّامّة.

وقد أشرنا إلى تفصيل ذلك أوضح من ذلك ممّا سنح لنا من الله الجواد، وهو أنّ الكلمات الإلهيّة إن صدرت من النّفس الرّحماني الّذي هو الإنسان الكبير، وأنفاسه في عالم الأمر، وعالم الجبروت المعبّر عنه بالعقول المجرّدة والنفوس القدسيّة تسمّىٰ كلمة معنويّة عينيّة. وإن صدرت من النّفس الرّحماني في عالم الخلق وعالم الشّهادة بتوسط القلم الأعلى على صفحات الألواح الجسمانيّة باليدين المعبّرتين عنهما تارة بالأسماء الجلاليّة والجماليّة لقوله تعالىٰ:

﴿خلقت بيديّ﴾ [سورة ص: ٧٥].

وتارة بالسّماوات والأرض لقوله:

﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ﴾ [سورة الزمر: ٦٧].

﴿وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّات بِيَمِينِهِ﴾ [سورة الزمر: ٦٧].

تسمّى كلمة صوريّة شهاديّة كالكلمات الصّادرة من الإنسان الصغير، فإنّها صدرت من طريق الفم واللّسان والمخارج وظهرت في الهواء بالتنفس وحركات الشفتين تسمّى كلاماً وقولاً إنسانياً. وبقاؤها تكون ببقاء الهواء والتنفس والقائل والسامع.

وان صدرت منه بواسطة اليد والدّواة والقلم على صفحات الأوراق الخارجيّة والألواح الصوريّة، تسمّى كلمة إنسانيّة، وتلك الأوراق والألواح كتاباً. وبقائها تكون ببقاء تلك الألواح والأوراق.

والنفس الرّحماني كما سبق ذكره هو الوجود الإضافي الوحداني بحقيقته المتكثّر بصور المعاني الّتي هي الأعيان وأحوالها في الحضرة الواحديّة، يسمّى به تشبيهاً بنَفَس الإنسان المختلف بصور الحروف مع كونه هواء سازجاً في نفسه ونظراً إلى الغاية الّتي هي ترويج الأسماء الداخلة تحت حيطة الإسم الرّحمن عن كونها وسكونها وهو كون الأشياء فيها وكونها بالقوّة، كترويح الإنسان بالتّنفس، ونسبة هذا النَّفَس إلى الرّحمن دون غيره من الأسماء، وهي أنّ الموجود الأوّل المسمّى بالعقل الأوّل أو الإنسان

الكبير أو العرش وهو مظهر الرّحمٰن ومحلّ استوائه لقوله تعالى:

﴿الرّحمٰن عَلىٰ العَرشِ استَوىٰ﴾ [سورة طه: ٥].

كما بيّناه مفصّلاً ولهذا وقع في بسم الله الرّحمٰن الرّحيم بعد إسم الله ووقع بعده الرّحيم الّذي يختص بالإنسان الصغير الّذي بإزائه لإنّه مظهره ومحلّ استوائه لقوله تعالى:

﴿بالمُؤمِنينَ رَؤوف رَحِيم﴾ [سورة التوبة: ١٢٨].

لأنّ الوجود لاينتظم إلّا بهذه الثلاث أعني الله ومظهره الّذي هو الرّوح الأعظم والإنسان الكبير، والرّحمٰن ومظهره الّذي هو العقل الأوّل معنىً والعرش صورةً، والرّحيم ومظهره الّذي هو النّفْس الكليّة معنىً والإنسان الصغير صورة، وسرّ تعظيم بسم الله الرّحمٰن الرّحيم وجميع ما سبق في تعظيمه ووصفه ليس إلّا لأجل هذا، وستعرف تحقيق ذلك عند تأويل بسم الله الرّحمٰن الرّحيم في أوّل الفاتحة، والمراد من ذلك كلّه أنّ الكلمة الصّادرة من النَّفَس الرّحماني في الآفاق لها إعتباران من حيث المعنى، وإعتبار من حيث الصورة، أمّا بالإعتبار الأوّل فسمّي كلمات الله المعنويّة، وأمّا بالإعتبار الثّاني فيسمّىٰ كلمات الله الصوريّة، وهذه الكلمات هي المسمّاة بالكلمات الإلهيّة الّتي تبيد ولا تنفد لقوله:

﴿قُل لو كَانَ البَحرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَو جِئنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [سورة الكهف: ١٠٩].

وأنّ الكلمات الصادرة من النّفس الإنساني في الأنفس لها أيضاً إعتباران:

الأوّل من حيث المعنى وهو المسمّاة بالقول والكلام والقرآن والحديث.

والثّاني من حيث الصّورة وهو المسمّاة بالكتاب والصّحف وأمثال ذلك، وإليه الإشارة بقوله:

﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذاً لارْتَابَ المُبْطِلُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٨].

وإذا عرفت هذه المقدّمات فاعلم أنّ هٰهنا أبحاث:

البحث الأوّل

في الدّواة والقلم الصّادرة منها هذه الكلمات

إعلم، أنّه قد سبق أنّ الكتاب القرآني كما أنّ (أنّه) دواة وقلم وأوراق، فكذلك الكتاب الآفاقي فإنّ له أيضاً دواة وقلم وأوراق.

أمّا الدّواة والقلم والأوراق الّتي تتعلّق بالكتاب القرآني فتلك معلومة مشهورة.

وأمّا الدّواة والقلم والأوراق الّتي تتعلّق بالكتاب الآفاقي فقد قلنا: إنّ الدواة فيه عبارة عن العقل الأوّل، والقلم عن النفس الكلّيّة المشار إليهما في قوله تعالى:

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم: ١].

وفي قوله:

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: ٣ ـ ٥].

والكلمات عن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، لأن المراد به كلمات الموجودات والمخلوقات المسطورة على ألواح الكاينات، والرّق الوجود الإضافي، وقد يقرّر أنّ هذا القلم له ثلاثمائة وستّون سناً من حيث ما هو قلم، وثلاثمائة وستّون وجهاً من حيث ماهو عقل، وثلاثمائة وستّون لساناً من حيث ماهو روح مترجم عن الله تعالىٰ، ويستمدّ كلّ سنّ من ثلاثمائة وستّين بحراً، وهي أصناف العلوم، وسمّيت بحراً لإتّساعها، وهذه البحور هي إجمال الكلمات الّتي لاتنفد أبداً، وتقرّر أن الأوراق والألواح عبارة عن الأجسام مطلقاً، وتقرّر أنّ الكاتب الكبير في هذه الكتابة العقل الأوّل المشار إليه في حديث النبوي:

جفّ القلم بما هو كائن(٢٣١).

---

(٢٣١) قوله: المشار إليه في الحديث النبويّ: جفّ القلم بما هو كائن.

....

← قد أخرج ابن حنبل في مسنده ج ٣٠٧، ص ٣٠٧، بإسناده عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله (ص): ألا أعلّمك كلماتٍ ينفعك الله بهنّ؟ فقلت: بلىٰ، فقال:

إحفظ الله يحفظك الله، إحفظ الله تجده أمامك، تعرّف إليه في الرّخاء يعرفك في الشدّة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جفّ القلم بما هو كائن، فلو أنّ الخلق كلّهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وأن أرادوا أن يضرّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أنّ في الصّبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأنّ النصر مع الصّبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسرِ يسراً.

وأخرج مثله في ص ٣٠٣، إلّا أنّه فيه: فقد رُفعت الأقلام وجفّت الكتب.

وأيضاً مثله في ص ٢٩٢، وفيه: رُفعت الأقلام وجفّت الصّحف.

وفي جامع الترمذي أيضاً ج ٤، ص ٦٦٧، الحديث ٢٥١٦ مثله، فراجع.

وفي صحيح مسلم ج ٤، ص ٢٠٤٠، كتاب القدر، الحديث ٢٦٤٨، بإسناده عن جابر ابن عبدالله قال: جاء سُراقةُ بن مالك، قال: يا رسول الله: بيّن لنا ديننا كأنّا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال: لا، بل فيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير، قال: ففيم العمل؟ قال: اعملوا فكلّ ميسّر.

وفي حديث بعده: كلّ عامل ميسّر لعمله.

وفي حديث بعده: كلّ ميسّر لما خلق الله.

وذكر الحديث ابن ماجة أيضاً ج ١، المقدّمة، باب ١٠، ص ٣٥، الحديث ٩١.

وأخرج أيضاً في الباب، الحديث ٧٨، بإسناده عن عليّ (ع)، عن النبيّ (ص)، قال: ما منكم من أحد إلّا وقد كتب مقعدُه من الجنّة ومقعده من النّار، قيل: يا رسول الله: أفلا نتّكل؟ قال: لا، اعملوا ولا تتّكلوا، فكلّ ميسّر لما خلق له، ثمّ قرأ:

﴿فأمّا من أعطىٰ واتّقىٰ * وصدّق بالحُسنىٰ * فسنيسّره لليسرىٰ * وأمّا من بخل واستغنىٰ * وكذّب بالحسنىٰ * فسنيسّره للعسرىٰ﴾ [سورة اللّيل: ٥ ـ ١٠].

وروى الصدوق عليه الرّحمة في التوحيد، باب ٥٨ (باب السعادة والشّقاوة)، الحديث ٣، ص ٣٥٦، بإسناده عن محمّد بن أبي عمير، قال: سألت أبا الحسن موسىٰ بن جعفر (ع) عن معنىٰ قول رسول الله (ص): اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق الله؟ فقال: إنّ الله عزّ وجلّ خلق الجنّ والإنس ليعبدوه ولم يخلقهم ليعصوه، وذلك قوله عزّ وجلّ:

←

وكذلك المعلّم الأوّل في قوله:

﴿إقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: ٣ ـ ٥].

وقيل من لسانه مترجماً عنه:

قلمي ولوحي في الوجود يمده ... قلم الأزليّة ولوحه المحفوظ

ويديّ لمن الله الله في ملكوته ... ما شئت اجرى والرّسوم حظوظ

وقد تقرّر أيضاً أنّ لهذا الموجود الأوّل ثلاثمائة وستّون وجهاً إلى الحضرة الإلهيّة قد أفاض الحقّ تعالى من علمه على قدر ما أوجده عليه من الإستعداد للقبوليّة، وكان قبوله ستّة وأربعين ألف ألف نوع وستمائة ألف نوع وستّة ألف وخمسين ألف نوع.

← ﴿وما خلقتُ الجنّ والإنس إلّا ليعبدون﴾ [سورة الذاريات: ٥٦].

فيسرّ كلّاً لما خلق له، فالويل لمن استحبّ العمى على الهدى.

وروى أيضاً الصدوق في التوحيد، باب ٦٠ (باب القضاء والقدر)، ص ٣٧٦، الحديث ٢٢، بإسناده عن أحمد بن عبدالله الجويباري، عن الرضا (ع)، عن أبيه، عن آبائه (ع)، عن عليّ (ع)، قال: قال رسول الله (ص):

إنّ الله عزّ وجلّ قدّر المقادير ودبّر التدابير قبل أن يخلق آدم بألفي عام.

ورواه أيضاً في عيون أخبار الرضا (ع)، باب ١١، ص ١٤٠، الحديث ٣٩.

وأيضاً في التوحيد، باب ٥٥ (باب المشيّة والإرادة)، ص ٣٤٣، الحديث ١٣، بإسناده عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله (ص):

سبق العلم، وجفّ القلم، ومضى القدر بتحقيق الكتاب وتصديق الرّسل، وبالسّعادة من الله عزّ وجلّ لمن آمن واتّقى، وبالشقاء لمن كذّب وكفر، وبولاية المؤمنين وبراءته من المشركين، الحديث.

وروى الحديث أيضاً علي بن ابراهيم القمّي في تفسيره في سورة فاطر، ذيل الآية: ﴿ولو يؤاخذ الله النّاس بما كسبوا﴾ [الآية: ٤٥]، ص ٢١٠، ج ٢، عن أبيه، عن النوفليّ، عن السكونيّ، عن جعفر، عن أبيه، عن آبائه (ع)، عن رسول الله (ص) مثله.

راجع أيضاً تعليقتنا الرقم ٩٧.

وإذا عرفت هذه المقرّرات المتكرّرة مراراً من هذه المقدّمات.

فاعلم، أنّ الكلمات الصّادرة من مثل هذه الدّواة وهذه الأقلام لايكون قابلة للإنتهاء والإنقطاع أزل الآزال وأبد الآباد كما أشرنا إليه أيضاً مراراً متمسّكاً بقوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِن بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة لقمان: ٢٧].

ثمّ اعلم، أنّ نسبتها إلى البحور وعدم إنفادها بها لأجل التفهيم والتّنبيه، وإلّا أين البحور من هذه الكلمات وأضعاف أضعاف البحور بمرار غير متناهية، لأنّ الّذي سبق من أنّ السّماوات السّبع والأرضون السّبع ليس في الكرسي إلّا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة، يكفي في هذا الباب.

والّذي سبق من قوله تعالى:

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥].

وكذلك الّذي سبق عن قول النّبي صلّى الله عليه وآله:

انّ لله تعالى أرضاً بيضاء مسيرة الشمس فيها ثلاثون يوماً، هي مثل الدّنيا ثلاثين مرّة، مشحونة خلقاً لايعلمون أنّ الله خلق السّموات والأرض، ولا يعلمون انّ الله خلق آدم وإبليس الحديث(٢٣٢).

لأنّ الكلّ إشارة إلى عدم نفاد هذه الكلمات، وإلى أنّ العوالم الحسّية الشهاديّة بالنّسبة إلى تلك العوالم العينيّة الروحانيّة كقطرة في جنب المحيط وبل أقلّ منه.

والغرض من هذا كلّه في هذا المقام أن يتحقّق عندك وعند غيرك أنّ الكلمات

---

(٢٣٢) قوله: إنّ لله تعالى أرضاً بيضاء.

قد مرّت الإشارة إليه في الرقم ٦٢.

المشار إليها في القرآن أنّها غير قابلة للإنفاد الكلمات الآفاقيّة لا القرآنيّة، لأنّ الكلمات القرآنيّة تنفد توقية من المداد وبل أقلّ منه، نعم إذا قلنا بمعنى كلمة القرآن لا بالفاظه يصدق عليه هذه الأوصاف كما قلناه مراراً، وأمّا إذا قلنا من حيث الصّورة فلا يصدق عليه أصلاً.

(في بيان أنّ الموجودات غير قابلة للإنتهاء وأنّ الموجود يستحيل اعدامه)

وحيث تقرّر أنّ الكلمات الآفاقيّة الإلهيّة عبارة عن المركّبات الممكنة أو عن الموجودات الممكنة مطلقاً، فذلك بالضّرورة لايكون قابلاً للإنتهاء والإنقطاع، لأنّ الممكنات غير قابلة للإنتهاء أصلاً باتّفاق العقلاء وبإتّفاق المحققين أيضاً، فإنّها مظاهر الله وإنقطاع المظاهر مطلقاً مستحيل.

ووجه آخر وهو أنّها من معلومات الله تعالى صادرة من فيضانه وتجلّياته، وتجلّياته وفيضانه غير منقطع ولا مكرّر بالإتفاق لأنّها من مقتضى ذاته، والمقتضيات الذاتيّة لاتنفكّ عن الذّات بوجه من الوجوه.

والّذي وجد في الخارج معلوماته، إعدامه أيضاً مستحيل، لأنّه صار واجباً بالغير مادام الغير باقياً، وهذا الغير موجوداً باق أبداً، فيستحيل إعدام الشيء القائم به والإعدام المتعارف بين النّاس والهلاك والفناء الوارد في القرآن والخبر هو عبارة عن تبديل صورة إلى صورة أخرىٰ وإلّا والجواهر المسمّاة بالمادّة لايعدم أصلاً.

وأيضاً قاعدة كلّيّة بين أرباب العلم: إن الموجودات المطلق لايصير معدوماً مطلقاً، ولا المعدوم المطلق موجوداً مطلقاً.

هذا من حيث الإستدلال والمعقول.

وأمّا من حيث الكشف والمشهود فباتّفاق أهل الله، مظاهر الله المسمّاة بالممكنات إنتهائها إنقطاعها غير ممكن، لأنّها كلماته، وكلماته غير قابلة لذلك، لقوله:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [سورة الأنعام: ١١٥].

لأنّ كلماته المعبّرة بالممكنات مظاهر أسمائـه، وأسماؤه مـظاهر صـفاته، وصـفاته مظاهر ذاته، فكلّ واحدة منها مربوطة بالأخرى، فالإنفصال بينها مستحيل ممتنع فضلاً عن الإعدام والإفناء، ويعرف هذا من قولهم:

حجب الذّات بالصّفات والصّفات بالأفعال والأفعال بالأكوان.

وفي قولهم:

أحد بالذّات كلّ بالأسماء.

وفيه قيل:

فالكـلّ بالكـلّ مـربـوط وليس له
عنه انفصال خذوا ما قلته عنّي [٢٣٣]

وقد بيّنا عدم تناهي الكلمات في وجه مفرد في المقدّمة الأولى [٢٣٤]، فإنّ هذا المقام لايحتمل أكثر من هذا والله أعلم وأحكم.

---

(٢٣٣) قوله: فالكلّ بالكلّ.

القائل: هو محيي الدين ابن عربي في الفصوص، شرح الفصوص للقيصري، ص ٩٣.

(٢٣٤) قوله: وقد بيّنا.

قد مرّ في الجزء الأوّل، ص ٣٥١ (الوجه الثالث).

البحث الثّاني
في تحقيق الكلمة الآفاقيّة

إعلم، أن الكلمة بالنسبة إلى القرآن عبارة عن هيئة جامعة مركّبة من الحروف البسيطة تدلّ على معنىً أو معان على حسب تلك الكلمة.

وأمّا بالنسبة إلى الآفاق فهي عبارة عن هيئة جامعة مركبة عن بسائط العالم ومفرداته، تدلّ بذاتها على معرفة ربّها ببعض الأسماء والصّفات كالملائكة والجنّ،

وأمّا بجميع الأسماء والصّفات كالإنسان.

أمّا الدليل على الأول أي ببعض الأسماء فقوله تعالى في الملائكة:

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وأمّا الدليل على الثّاني أي بجميع الأسماء فقوله تعالى في حقّ الإنسان:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

(في انّ الإنسان على قسمين)

والإنسان على قسمين:

قسم يكون جامعاً لجميع الأسماء والصّفات بالقوّة فهو كلّ إنسان مطلقاً.

وقسم يكون جامعاً لجميع ذلك بالفعل فهو كلّ إنسان كامل من الأنبياء والرّسل والأولياء والأصفياء والعارفين بالله على حسب طبقاتهم، وكلّ من يظهر منه هذه الأسماء والصّفات بالفعل فهو يكون أعظم من غيره ولهذا فضّل الله تعالى بعض النبيّين على بعض بحسب ظهور هذه الأسماء فيهم كما قال:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُم من كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣].

وحيث كان نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم مظهر الجميع بالفعل، فضّله الله تعالىٰ

على جميع الأنبياء والرّسل وجعله خاتماً للكلّ بالفعل كما جعله سابقاً على الكلّ بالقوّة لقوله:

كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطّين(٢٣٥).

ولقوله:

أنّ أوّلهم خلقاً وآخرهم بعثاً(٢٣٦).

وههنا أبحاث ومالها دخل في هذا المقام فلنرجع ونقول:

(في أنّ للكلمة اعتبارين: تامّة وهي الإنسان وغير تامّة وهي ساير الموجودات)

إعلم، أنّ الكلمة لها إعتباران:

الأوّل أنّها تامّة، والثّاني أنّها غير تامّة.

أمّا التّامة فهي الإنسان مطلقاً ان ظهر معنى الكلمة منه بالفعل أو بقي فيه بالقوّة.

وأمّا الغير التّامّة فباقي الموجودات الّتي هي غير الإنسان ولهذا الكلمة التّامّة الطيّبة تحصل لها العروج والصّعود إلى الحضرة الإلهيّة لقوله:

﴿إليه يصعد الكلم الطيّب﴾ [سورة فاطر: ١٠].

المراد بها الأرواح الكاملة والنّفوس الشريفة الطّاهرة من أرواح الأنبياء والرّسل ونفوس الأولياء والكمّل (الكمّلين)، وإليها إشارة بقوله:

﴿يا أيّتها النّفسُ المطمئنّةُ ارجعي إلىٰ ربّك راضيةً مرضيّة * فادخلي في عبادي * وادخلي جنّتي﴾ [سورة الفجر: ٢٨ ـ ٣٠].

---

(٢٣٥) قوله: كنت نبيّاً.

قد مرّ في الرقم ١٨٣.

(٢٣٦) قوله: أنا أوّلهم خلقاً.

راجع تعليقتنا الرقم ٧٣، الجزء الأوّل، ص ٣١٥.

والكلمة الغير التّامّة بالفعل، الخبيثة الناقصة لايحصل له العروج وتبق في البعد والحجاب إلى ما شاء، لقوله تعالى في الصّورتين:

﴿ألم تَرَ كيفَ ضربَ اللهُ مثلاً كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابتٌ وفرعها في السّماء * تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها ويضرب الله الأمثال للنّاس لعلّهم يتذكّرون﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثّت من فوق الأرض مالها من قرار * يُثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ [سورة إبراهيم: ٢٦].

(في انّ الأنبياء كلمات تامّات ومقاماتهم حصلت لهم لا بالمجاهدة)

والحقّ تعالىٰ جلّ جلاله صرّح في كتابه العزيز باسم الكلمة على الأنبياء والرّسل عليهم السّلام بالفعل لقوله بالنّسبة إلى عيسى عليه السّلام:

﴿انّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمة ألقاها إلىٰ مريم﴾ [سورة النساء: ١٧١].

وكقوله:

﴿إنّ الله يُبشّركِ بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدُّنيا والآخرة ومن المقرّبين﴾ [سورة آل عمران: ٤٥].

وعيسى عليه السّلام لو لم يكن كاملاً بالفعل من أوّل الآخر (الأمر) ما قال في المهد:

﴿إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً﴾ [سورة مريم: ٣٠].

وكذلك يحيى عليه السّلام:

﴿يا يَحيىٰ خُذِ الكِتابَ بقوّةٍ وآتيناه الحُكْمَ صَبيّاً﴾ [سورة مريم: ١٢].

والغرض أن لا يتوهّم أحد أنّ ظهور الأنبياء والرّسل متوقّف على العمل والمجاهدة والرّياضة وطول المدّة، فإنّه ليس كذلك وإن كان بعض الأنبياء وبل أكثرهم ما حصل

لهم هذه المرتبة إلّا بعد المدّة فإنّ كمالهم ومرتبتهم كما سبق ذكرها ليس إلّا عطاءً محضاً وإنعاماً خاصّاً، لقوله تعالى:

﴿هٰذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغيرِ حساب﴾ [سورة ص: ٣٩].

ولقوله:

﴿وعلّمك ما لم تعلم وكان فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً﴾ [سورة النساء: ١١٣].

وقد ورد عن أهل البيت عليهم السّلام(٢٣٧):

إنّ الكلمات، الّتي كانت سبب توبة آدم عليه السّلام لقوله تعالى:

﴿فتلـقّىٰ آدم من ربّه كلماتٍ فتابَ عليه إنّه هو التّوابُ الرّحيم﴾ [سورة البقرة: ٣٧].

---

(٢٣٧) قوله: وقد ورد عن أهل البيت إلخ.

راجع تعليقتنا الرقم ١١٦، في الجزء الأوّل، ص ٤٤١، وإضافة على ما قلنا فيها:

روى ابن شعبة الحرّاني في تحف العقول، ص ٤٧٦، عن موسىٰ بن محمّد بن الرضا (ع)، عن أخيه الإمام عليّ بن محمّد (ع)، في حديث طويل فيه بيان وتفسير لبعض الآيات القرآنية في جواب أسئلة يحيىٰ بن أكثم، قال:

نحن كلمات الله التي لاتنفد ولا تُدرك فضائلُنا ولا تُستقصىٰ، الحديث، فراجع.

روى مثله ابن شهر آشوب في المناقب ج ٤، ص ٤٠٠، ورواه أيضاً الطبرسي في الإحتجاج ج ٢، ص ٢٥٩.

وروى المجلسي في البحار ج ٢٥، ص ٥ (من كتاب المحتضر للحسن بن سليمان)، وهو روى من كتاب منهج التحقيق، وهو روى بإسناده وفيه (رفع) عن الإمام أبي جعفر الباقر (ع) في حديث:

نحن الأسماء الحسنىٰ التي لايقبل الله من العباد عملاً إلّا بمعرفتنا، ونحن والله الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه، الحديث.

وروى الكليني في الكافي، كتاب التوحيد، باب النوادر، ص ١٤٣، الحديث ٤، بإسناده عن الصادق (ع) في قول الله تعالىٰ:

﴿ولله الأسماء الحُسنىٰ فادعوه بها﴾ [سورة الأعراف: ١٨٠].

قال: نحن والله الأسماء الحسنى التي لايقبل الله من العباد عملاً إلّا بمعرفتنا.

كانت أسماء الأنبياء والرّسل والأولياء والأوصياء من ذرّيته ونسله الّذين صاروا كلماتاً إلهيّة بالفعل بعد أن كانوا بالقوّة.

وقيل: إنّها كانت أسماء أهل البيت من ذرّية النبيّ عليه السّلام الّذين هم أيضاً كلمات الله التامّات، لأنّهم رؤساء الأولياء وأقطاب الأصفياء.

وكذلك كلمات إبراهيم عليه السّلام في قوله:

﴿وإذ ابتلىٰ إبراهيم رَبُّه بكلماتٍ فأتمّهنّ...﴾ [سورة البقرة: ١٢٤].

فإنّها أيضاً إشارة إلى أسماء الأنبياء السابقين من أجداده، وإلى أسماء المتأخرين من ذرّياته خصوصاً نبيّنا صلّى الله عليه وآله الطّاهرين، ويعضد هذا المجموع القول الجامع من قول نبيّنا صلّى الله عليه وآله:

أُوتيت جوامع (الكلم)[٢٣٨].

و: بعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق[٢٣٩].

لأنّه إشارة إلى وجودات الأنبياء ومقاماتهم، لأنّ فيه وجوه ثلاثة:

الأوّل، أنّه أراد بالكلم وجود الأنبياء والرّسل على ما هم عليه من الكمالات، والجامعيّة لهم أنّهم كانوا مظاهر كمالاته التّفضيليّة من النبوّة التشريعيّة ورسالتها، وذاته كانت جامعة لجميع ذلك بالأصالة من الأزل لقوله:

كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين[٢٤٠].

والثّاني انّه أراد بالكلم مقامهم ومراتبهم وعلومهم وحقايقهم، وبجامعيّته لذلك

---

(٢٣٨) قوله: أُوتيت جوامع الكَلِم.

راجع تعليقتنا الرقم ٢١، وأيضاً في الجزء الأوّل، الرقم ٢، ص ١٩٦.

(٢٣٩) قوله: بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق.

راجع تعليقتنا في الجزء الأوّل، الرقم ٣، ص ١٩٦.

(٢٤٠) قوله: كنت نبيّاً.

راجع تعليقتنا الرقم ٢٣٥.

لجامعيّة شرعه الشرايع والأديان كلّها.

والثالث انّه أراد بالكلم الكلمات الآفاقيّة الّتي تكون هي متضمّنة لجميع هذه الكلمات، لأنّ الأنبياء والرّسل والأولياء كلمات إلهيّة ثابتة في الكتاب الآفاقي ككلمات آخر، غاية ما في الباب هم كلمات تامّات، وغيرهم ليس مثلهم.

ووجه آخر غير الوجوه الثلاثة، أنّه أراد بالكلم الكلمات الآفاقيّة وبجامعيّته لها الجامعيّة على طريق التوحيد بأن يجعلها كلمة واحدة، ووجوداً واحداً قائلاً بلسان الحال: ليس في الوجود سوى الله (٢٤١)، لأنّا إذا بيّنّا أنّ جميع العالم بمثابة الكتاب، والّذي فيه بمثابة الحروف والكلمات والآيات، وأنّ على كل واحدة منها يصدق هذا الإسم، فالعالم كلّه بالحقيقة ليس إلّا كلمات الله فكلّ من يجمع هذه الكلمات ويجعلها كلمة واحدة، أو هذه الوجودات الممكنة ويجعلها وجوداً واحداً فهو الّذي يصحّ أن يقول:

أوتيت جوامع الكلم، وبعثت لأتمّم مكارم الأخلاق، لأنّ إتمام مكارم الأخلاق ليس لا إ بهذا.

وقول الشيخ الأعظم قدّس الله سرّه:

الحمد لله منزّل الحكم على قلوب الكلم (٢٤٢).

يعضد ذلك أيضاً، فإنّه إشارة إلى وجودات الأنبياء وأنّهم كلمة الله العليا، لأنّ الكلم جمع كلمة، وقد سمّى الله تعالىٰ بعض أنبيائه بالكلمة وكلّ ما يصدق على واحد منهم من هذا المعنى يصدق على الكلّ لقوله:

﴿لا نُفرّق بين أحد من رسله﴾ [النساء: ٤].

وفي أكثر المواضع كلّ ما يصدق على الكلّ يصدق على البعض وبالعكس كالحيوانيّة فإنّها يصدق على كلّ الحيوان وعلى بعضه وكالقرآن فإنّه يصدق على الكلّ

---

(٢٤١) قوله: ليس في الوجود سوى الله.

هذا الكلام منسوب لجنيد، راجع مرصاد العباد، ص ١٦٨.

(٢٤٢) قوله: الحمد لله منزّل الحكم.

قاله الشيخ الأكبر في أوّل كتابه فصوص الحكم، ص ٤٧ (شرح القيصري).

وعلى بعضه. وقد صرّح الشيخ في فصّ كلّ واحد منهم في فصوصه بفصّ مخصوص به كقوله: فصّ حكمة إلهيّة في كلمة آدميّة، فصّ حكمة سبّوحيّة في كلمة نوحيّة، فصّ حكمة خليلية في كلمة إبراهيميّة، فصّ حكمة فرديّة في كلمة محمّديّة. وذلك لم يكن إلّا لهذا، وأكثر الشّراح ما فسّروه إلّا بهذا، وسيّما المولىٰ المحقق كمال الدّين عبدالرّزاق قدّس سرّه، فإنّه قال في هذا المقام(٢٤٣):

«والكلم مستعارة لذوات الأنبياء والرّسل والأرواح المجرّدة (عن) في عالم الجبروت المسمّاة (المسمّىٰ) بإصطلاح الإشراقيّين: الأنوار القاهرة، إمّا لأنّهم وسائط بين الحقّ والخلق تصل بتوسّطها (بتوسّطهم) المعاني الّتي في ذاته تعالىٰ إليهم، كالكلمات المتوسطة بين المتكلّم والسّامع لإفادة المعنى الّذي في نفس المكلّم للسامع، أو لتجرّدها عن الموادّ وتعيّنها بالإبداع وتقدّسها عن الزّمان المكان الموجودة بكلمة «كُن» في عالم الأمر إطلاقاً لإسم السبب على المسبّب والدّليل على الإستعمال بالمعنى المذكور قوله تعالى:

﴿إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسولُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم﴾ [سورة النساء: ١٧١].

وبالجملة كما يصدق على جميع القرآن إنّه كلمات الله ويصدق على بعضه كـ «بسم الله الرّحمن الرّحيم» أو غيرها كـ «الله» و«الرّحمن» و«الرّحيم» على الإنفراد، فكذلك يصدق على جميع العالَم انه كتاب الله وكلمته، ويصدق على بعضه الّذي هو الإنسان من الأنبياء والرّسل وأمثالهم كقول بعضهم:

أنا القرآن الناطق، أنا البرهان الصادق، أنا كهيعص، أنا طه، أنا يٰس(٢٤٤).

---

(٢٤٣) قوله: سيّما المولى المحقّق كمال الدين

راجع شرحه على فصوص الحكم ص ٥.

(٢٤٤) قوله: أنا القرآن الناطق.

راجع في أمثال هذا الحديث تعليقتنا الرقم ١٩ و ٢٠ و ١٠٨ و ١١٥ و ١١٦ في الجزء الأوّل، ص ٢١٤.

وكقول بعضهم:

أنـــا القـــرآن والسّـبع المـثاني
وروح الرّوح لاروح الأواني (٢٤٥)

وكما أنّ بسم الله الرّحمن الرّحيم هي مظهر الإسم الأعظم ويـصدق عـليها أنّها وكلمة الله العليا، فكذلك الإنسان فإنّه أيضاً مظهر الإسم الأعظم ويصدق عليه أنّه مظهر كلمة الله العليا، لأنّ الإنسان في الآفاق كما قلناه مراراً بمثابة بسم الرّحمن الرّحيم في القرآن، وذلك لجامعيّته ومجموعيّته الأسماء والصفات كلّها كما قال:

خلق الله تعالىٰ آدم على صورته (٢٤٦).

← وروى البرسي في خطبة أمير المؤمنين (ع) ص ١٦٤، قال:

«أنا كلمة الله الناطق في خلقه».

(٢٤٥) قوله: أنا القرآن والسّبع المثاني (شعر).

قائله ابن عربي، قاله في الفتوحات المكيّة ج ١، ص ٩ و ج ١، ص ٧٠ ط ج، وقاله أيضاً في كتاب «الإسراء» ص ٤، وهذا طبع في مجموعة رسائل ابن عربي، فراجع.

وأمّا الأبيات كما يلي:

أنـــا القـــرآن والسّـبع المـثاني ... وروحُ الرّوح لا روحُ المـــعاني
فـــؤادي عـــند مـــعلومي مـقيمٌ ... يشاهده (أشاهده) وعندكم لساني
فلا تـنظر بـطرفك نحـو جسمي ... وعـــدّ عـن التنعُّم بـالمغـــاني
وغُص في بحر ذات الذات تُـبصِر ... عـــجائب مـا تـبدّت للـعيان
وأسراراً تـــراءت مـــبهمات ... مُســــتَّرة بأرواح المـــعاني.

انتهىٰ ما في الفتوحات، وفي كتاب الأسرار توجد هذه الأبيات الثلاثة إضافة إلى تلك الأبيات:

فـــن فـــهم الإشـــار فـليصنها ... وإلّا ســـوف يُـقتل بـالسنان
لحـــلّاج المحـبّـة إذ تـبـدّت ... له شمس الحـــقيقة بـــالتداني
فـــقال: أنـا هـو الحـقّ الّـذي لا ... يـغيّر ذاتـــه مـرّ الزمـــان.

(٢٤٦) قوله: خلق الله تعالىٰ آدم على صورته.

وقال:

﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها﴾ [سورة البقرة: ٣١].

وقد عرفت قبل هذا تعظيم بسم الله الرّحمن الرّحيم وشرفها وفضيلتها بإزاء هذه الفضيلة حيث وقعت مظهر هذا الإنسان الكامل بالفعل، هذا على أن يجعل الكلم بمعنى ذوات الأنبياء عليهم السّلام.

فأمّا إذا جعلنا المراد بها علومهم ومقاماتهم وشرايعهم وكتبهم المنزلة، فهناك أبحاث آخر ويجب الشروع فيها وهي هذه:



← قد مرّت الإشارة إليه في تعليقتنا الرقم ٢١، فراجع.

البحث الثّالث
في تحقيق الكلمة بوجه آخر

اعلم، أنّ قوله:

أوتيت جوامع الكلم.

كما يجوز أن يحمل على ذوات الأنبياء والرّسل وأمثالهم يجوزان يحمل على كتبهم وشرايعهم ومقاماتهم ومراتبهم، وبناء على هذا يكون تقديره: أنّه يقول: أنا جامع جميع الشّرايع والأديان وكتابي جامع جميع الكتب الإلهيّة متقدّمها ومتأخّرها، وبيان ذلك:

وهو انّ المسلمين بأجمعهم اتفقوا على أنّه أشرف الأنبياء والرّسل وأنّه جامع لجميع كمالاتهم الصّوريّة والمعنويّة، ودينه وشرعه جامع لجميع شرايعهم وأديانهم، وورد عنه ما يعضد ذلك كلّه وهو قوله:

«آدم ومن دونه تحت لوائي» (٢٤٧).

---

(٢٤٧) قوله: آدم ومن دونه تحت لوائي.

روى الصدوق في (أماليه) المجلس ٤٧، الحديث ٩، ص ٢٣٠، بإسناده عن الإمام الصادق، عن أبيه، عن آبائه (ع) (في حديث) قال: قال رسول الله (ص): إنّ عليّ بن أبي طالب (ع) صاحب لوائي في الآخرة كما كان صاحب لوائي في الدّنيا، وإنّه أوّل من يدخل الجنّة لأنّه يقدمني وبيده لوائي تحته آدم ومن دونه من الأنبياء.

وروى القمّي في تفسيره في سورة المائدة في الآية ٧١:

﴿وحسبوا ألّا تكون فتنةٌ فعموا وصمّوا﴾ [الآية: ٧١].

بإسناده عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله (ص):

«يا ابن مسعود إنّه إذا كان يوم القيامة رفعت لهذه الأمّة أعلام، فأوّل الأعلام لوائي الأعظم مع عليّ بن أبي طالب والناس أجمعين تحت لوائه (لوائي)». عنه البحار ج ٣٧، ص ٣٤٥، الحديث ٢.

....

← وروى الصدوق (ره) في (علل الشرايع) باب ١٣٧، الحديث ١٧٣، ج ١، بإسناده عن أمير المؤمنين (ع)، قال: قال رسول الله (ص): أنت أوّل من يدخل الجنّة، فقلت يا رسول الله أدخلها قبلك؟ قال: نعم، أنّك صاحب لوائي في الآخرة، كما أنّك صاحب لوائي في الدّنيا، وحامل اللّواء هو المتقدّم، ثمّ قال (ص): يا عليّ كأنّي بك وقد دخلت الجنّة وبيدك لوائي وهو لواء الحمد وتحته آدم ومن دونه.

وروي في التفسير المنسوب إلى الإمام أبي محمّد الحسن العسكريّ (ع) في سورة البقرة في الآية ٩٢، ص ٤٠٨، الحديث ٢٧٨، قال رسول الله (ص):

يا (عليّ) أخي يا أبا الحسن ضغائن في صدور قوم يبدونها لك بعدي، قال عليّ (ع): يا رسول الله في سلامة من ديني؟ قال: في سلامة من دينك، قال: يا رسول الله، إذا سلم ديني فلا يسوءني ذلك، فقال رسول الله (ص): لذلك جعلك الله لمحمّد تالياً، إلى رضوانه وغفرانه داعياً، وعن أولاد الرّشد والغيّ بحبّهم لك وبغضهم (عليك مميّزاً) منبئاً، وللواء محمّد يوم القيامة حاملاً، وللأنبياء والرّسل والصّابرين تحت لوائي إلى جنّات النعيم قائداً، الحديث.

روى المجلسي عن ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، نقلاً عن أحمد بن حنبل، عن النبيّ (ص)، قال:

«أنا أوّل من يُدعىٰ به يوم القيامة، فأقوم عن يمين العرش وفي ظلّه، ثمّ أكسىٰ حلّة، ثمّ يُدعىٰ بالنبيّين بعضهم على أثر بعض، فيقومون عن يمين العرش ويسكون حُلَلاً، ثمّ يُدعىٰ بعليّ بن أبي طالب لقرابته منّي ومنزلته عندي، ويُدفع إليه لوائي لواء الحمد، آدم ومَن دونه تحت ذلك اللّواء» الحديث. بحار الأنوار ج ٤٠، ص ٨١، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٩، ص ١٦٩.

قال ابن أبي الحديد في شرح الخطبة ١٥٤، ج ٩، ص ١٦٦:

(ذكر الأحاديث والأخبار الواردة في فضائل علي)

وآعلم أنّ أمير المؤمنين (ع) لو فخر بنفسه، وبالغ في تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته التي آتاه الله إيّاها واختصّه بها، وساعده على ذلك فُصحاء العرب كافّة، لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الرسول الصادق صلوات الله عليه في أمره، إلى أن قال: وأنا أذكر من ذلك شيئاً يسيراً ممّا رواه علماء الحديث الذين لا يتّهمون فيه، وجلّهم قائلون بتفضيل غيره

←

(مرتبة كلّ نبيّ، مرتبةٌ من مراتب النبيّ الخاتم (ص))

ومعناه آدم ومن دونه من الأنبياء دون مقامي ومراتبي في الحقايق الإلهيّة والمعارف الربّانيّة.

وورد:

«أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»(٢٤٨).

السيادة لاتكون إلّا بالفضيلة، وقد نطق القرآن الكريم بذلك في مواضع:

منها قوله تعالى:

﴿هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليُظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون﴾ [سورة التوبة: ٣٣].

← عليه، فروايتهم فضائله توجب سكون النفس ما لا يوجبه رواية غيرهم... إلى أن قال: الخبر الثامن: رواه أبو عبدالله أحمد بن حنبل في الكتابين المذكورين «كتاب فضائل عليّ (ع)، وفي المسند» أنا أوّل مَن يُدعى، الحديث.

(٢٤٨) قوله: أنا سيّد ولد آدم.

أخرج الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب المناقب، باب ١، الحديث ٣٦١٥، ص ٥٨٧، بإسناده عن رسول الله (ص)، قال:

أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبيّ يومئذٍ آدم فمن سِواه إلّا تحت لوائي، الحديث.

وقريب منه في مسند أحمد بن حنبل ج ١، ص ١٨١ وص ٢٩٥، وأيضاً أخرجه الغزالي في إحياء علوم الدّين ج ٣، ص ١٦١ و ج ٤، ص ٥٢٦.

ورواه أيضاً في الصدوق في حديث، وأماليه، بإسناده عن النبيّ (ص)، المجلس ٣٥، ص ١٥٧، والطوسي أيضاً في أماليه ص ٢٧٧.

وروى الصدوق في أماليه، المجلس ٧٢، ص ٣٨٤، الحديث ١٦، بإسناده عن الأصبغ ابن نباتة، عن أمير المؤمنين (ع)، قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: أنا سيّد ولد آدم، وأنت يا عليّ والأئمّة من بعدك سادة أُمّتي، الحديث.

أقول: الحديثان المذكوران مشهوران نقلها العامّة والخاصّة في الكتب المختلفة، ولا يحتاج أكثر من هذا في ذكر تلك الكتب، فراجع.

وترجيح أمّته على جميع الأمم أيضاً دال على ذلك في قوله:

﴿كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس﴾ [سورة آل عمران: ١١٠].

وقوله:

﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرّسول عليكم شهيداً﴾ [سورة البقرة: ١٤٣].

ومعلوم أنّ الوسط في المقامات والمراتب أعدل المقامات وأعظم المراتب كما تقرّر في الأخلاق، وطرفها من الإفراط والتفريط، والوسط عند التحقيق باتّفاق أهل الله هو الصّراط المستقيم الحقيقيّ الموصوف بأحدّ من السّيف وأدقّ من الشّعر ولهذا إذا أنزل:

﴿فاستقم كما أمرت﴾ [سورة هود: ١١٢].

وعرف أنّ الإستقامة على الطّريق المستقيم في غاية الصّعوبة قال:

«شيّبتني سورة هود»[٢٤٩]

(٢٤٩) قوله: شيّبتني سورة هود.

روى الصدوق في (الخصال) باب الأربعة، الحديث ١٠، ص ١٩٩، بإسناده عن ابن عبّاس، قال: قال أبو بكر: يا رسول الله أسرع إليك الشيب؟ قال: «شيّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون».

ومثله في أماليه، المجلس ٤١، الحديث ٤، ص ١٩٤.

وقريب منه أحاديث في تفسير الدرّ المنثور في سورة هود ج ٤، ص ٣٩٦، إلّا أنّ في بعضها: «شيّبتني هود وأخواتها من المفصل»، وفي بعضها إضافة على تلك السور: ذكر: «الحاقّة»، و «إذا الشّمس كوّرت»، و «سأل سائل»، و «اقتربت السّاعة».

وفي بعضها: قال: «شيّبتني هود وأخواتها وما فعل بالأمم قبلي».

وفي بعضها: قال: «شيّبتني هود وأخواتها، وذكر يوم القيامة، وقصص الأمم».

وفي حديث فيه: وأخرج البيهقي في شعب الإيمان، عن أبي علي السري رضي الله عنه قال: رأيتُ النبيّ (ص) فقلت: يا رسول الله روي عنك أنّك قلت: شيّبتني هود، قال: نعم، ←

وقد بسطنا الكلام في الصّراط في المقدّمات، وسيجيء في الفاتحة إنشاء الله.

(في تفسير قول نبيّنا (ص): بُعثتُ لأُتمِّم مكارم الأخلاق)

وقوله عقيب الخبر:

«وبعثت لأُتمِّم مكارم الأخلاق»(٢٥٠).

يشهد بذلك لأنّه يشير إلى أنّ جميع الأنبياء والرّسل كانوا مبعوثين لتكميل الأخلاق وتأسيسها لكن إتمام ذلك لم يكن إلّا بوجودي وظهوري في عالم الشهادة لتكميل النوع البشري وغيرهم أيضاً، ومثال ذلك مثال أطبّاء كثيرة يتوجّهون إلى مريض يريدون صحّته، فبعضهم قام بالمنضجات وبعضهم المسهلات، لقوله تعالى:

﴿ونزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلّا خساراً﴾ [سورة الإسراء: ٨٢].

يعني كلّ من آمن وصدّق به يكون موجباً لشفائه وكلّ من أنكر وكذّب به يكون موجب لمرضه وخسارته في الدّنيا والآخرة لقوله تعالى:

﴿خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ [سورة الحجّ: ١١].

وهذا معلوم في حوزة الطبيب الصّوري لأنّ كلّ مَن قَبِل كلامه وصدّق وفعل ما أمره حصل له الصّحّة وخلص من المرض وطاب وقام، وكلّ ما قَبل كلامه وأنكر

← فقلت: ما الّذي شيّبك منه قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: لا، ولكن قوله: «فاستقم كما أمرت».

وروى الطبرسي في تفسيره مجمع البيان في سورة هود في الآية المذكورة ج ٥، ص ٣٠٤، عن ابن عبّاس قال: ما نزل على رسول الله (ص) آية كانت أشدّ عليه ولا أشقّ من هذه الآية، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: أسرع إليك الشّيب يا رسول الله: شيّبتني هود والواقعة.

(٢٥٠) قوله بُعثتُ لأُتمِّم مكارم الأخلاق.

قد مرّت الإشارة إليه في تعليقتنا الرقم ٢٣٩، وفي الجزء الأوّل الرقم ٣، ص ١٩٦، فراجع.

عليه وترك قوله وفعله، زاد مرضه وأدّى إلى هلاكه وموته لقوله تعالى:

﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ [سورة البقرة: ١٠].

وقوله أيضاً:

وبعضهم بحفظ القوى لئلّا يخرج من حدّ الإعتدال، وبعضهم بترتيب الأغذية الصالحة الموجبة حتّى حضر الطّبيب الأعظم والأستاذ الأكمل وقام بتحصيل الصّحة الكلّيّة وإزالة المرض مطلقاً وردّ المريض إلى ما كان عليه من الصّحة والإعتدال وإليه الإشارة بقوله:

﴿ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتمَ النبيّين﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠].

وغير خاف على أحد من العقلاء على أنّ الأنبياء والرّسل عليهم السّلام هم أطبّاء النّفوس ومعالجي أمراض الخلق الّتي هي الجهل والكفر والنّفاق، فكلّ نبيّ من الأنبياء كان بمثابة طبيب واحد من الأطبّاء، وكان نبيّنا (ص) بمثابة الطّبيب الأعظم الّذي قام بتحصيل الصحّة الكلّيّة الّتي الهداية والإرشاد إلى الدّين القويم والصّراط المستقيم المعبّر عنه بتهذيب الأخلاق الحميدة وتكميل الأوصاف المرضيّة، ولهذا وصف القرآن بأنّه شفاء من الأمراض الحقيقيّة وسبب لحصول الصحّة الكلّيّة.

﴿قل هو للّذين آمنوا هدىً وشفاءٌ والّذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمىً أولئك ينادون مِن مكان بعيد﴾ [سورة فصّلت: ٤٤].

وهذا هو علّة خَتْميّته وقيام السّاعة بوجوده لقوله تعالى:

﴿اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾ [سورة المائدة: ٣].

لأنّ الأمر إذا تمّ أيّ أمر كان، لابدّ له من الرّجوع إلى ما كان منه ولهذا قال: منه بدا وإليه يعود(٢٥١).

---

(٢٥١) قوله: منه بدا وإليه يعود.

وقال النبيّ عليه السّلام.

انّ الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله فيه السّماوات والأرض(٢٥٢).

← قال تعالىٰ: ﴿كما بدأنا أوّل خلقٍ نُعيده وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالىٰ: ﴿إنّه يَبدَؤُ الخلقَ ثمّ يُعيده﴾ [سورة يونس: ٤].

وقال تعالىٰ: ﴿الله يَبدَؤُ الخلقَ ثمّ يُعيده ثمّ إليه تُرجعون﴾ [سورة الرّوم: ١١].

وقال تعالىٰ: ﴿إنّه هو يُبدئ ويُعيد﴾ [سورة البروج: ١٣].

وروى الصدوق في «علل الشرايع» باب ٢٤٠ (العلّة التي من أجلها قد يرتكب المؤمن المحارم ويعمل الكافر الحسنات)، حديثاً طويلاً، بإسناده عن الإمام الباقر (ع)، وفيه جملتان كأنّهما قاعدتان، وهما الجملتان التاليتان:

«وعاد كلّ شيء إلى عنصره الأوّل الّذي منه ابتدأ».

و:

«كلّ شيء يعود إلى جوهره الّذي منه بدأ». علل الشرايع، ص ٤٩١.

(٢٥٢) قوله: إنّ الزّمان قد استدار الخ.

روى الصدوق في «الخصال» باب الشهور إثنا عشر شهراً، ج ٢، ص ٤٨٦، الحديث ٦٣، بإسناده عن عبدالله بن عمر، قال: نزلت هذه السورة: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ على رسول الله (ص)، في أوسط أيّام التشريق، فعرف أنّه الوداع، فركب راحلته العضباء، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثمّ قال:

«أيّها النّاس كلّ دم كان في الجاهليّة فهو هدرٌ» إلى أن قال: «أيّها النّاس إنّ الزّمان قد استدار، فهو اليوم كهيئة يوم خلق السماوات والأرض، وإنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله، يوم خلق الله السماوات والأرض، منها أربعة حرم، رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجّة والمحرّم، فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم، فإنّ النسيئ زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم الله وكانوا يحرّمون المحرّم عاماً، ويستحلّون صفر، ويحرّمون صفر عاماً ويستحلّون المحرّم، الحديث.

وفي «تحف العقول» باب: خطبته (ص) في حجّة الوداع، ص ٣٠:

←

وقال: أنا والسّاعة كهاتين (٢٥٣).

← «الحمدُ لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرّ أنفسنا و(مِن) سيّئات أعمالنا، مَن يهد الله فلا مضلّ له ومَن يضلل فلا هادي له...» إلى أن قال (ص):

«أيّها النّاس: إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم هذه ولكنّه قد رضيَ بأن يُطاع فيما سوى ذلك، فما تحتقرون من أعمالكم. أيّها النّاس إنّما النسيءُ زيادة في الكفر يضلّ به الّذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّةَ ما حرّم الله، وإنّ الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض، و ﴿إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السّمٰوات والأرض منها أربعة حُرُم﴾ [سورة التوبة: ٣٦]، ثلاثة متوالية، وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجّة، والمحرّم، ورجب بين جمادى وشعبان، ألا هل بلّغتُ؟ اللّهمّ اشهد. الخطبة. فراجع.

وقال الطبرسي في تفسيره «مجمع البيان» في سورة التوبة في تفسير الآية ٣٧:

﴿إنّما النّسيء زيادة في الكفر يضلّ به الّذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم الله فيحلّوا ما حرّم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لايهدي القوم الكافرين﴾ [سورة التوبة: ٣٧]:

«لمّا قدّم سبحانه ذكر السنة والشهر عقّبه بذكر ماكانوا يفعلونه من النسيئ فقالك ﴿إنّما النّسيء زيادة في الكفر﴾، يعني تأخير الأشهر الحرم عمّا رتّبها الله سبحانه عليه، وكانت العرب تحرّم الشهور الأربعة، وذلك ممّا تمسّكت به من ملّة إبراهيم وإسماعيل، وهم كانوا أصحاب غارات وحروب، فربّما كان يشقُّ عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لايغزون فيها، فكانوا يؤخّرون تحريم المحرّم إلى صفر فيحرّمونه ويستحلون المحرّم ولا يفعلون ذلك إلّا في ذي الحجّة». إلى أن قال:

وقال مجاهد: كان المشركون يحجّون في كل شهر عامين، فحجّوا في ذي الحجّة عامين، ثمّ حجّوا في المحرّم عامين، ثمّ حجّوا في صفر عامين.

(٢٥٣) قوله: أنا والسّاعة كهاتين.

روى المفيد في (أماليه) المجلس ٢٣، الحديث ١٤، ص ٢٠٧، بإسناده عن الإمام الصادق (ع)، قال:

صعد رسول الله (ص) المنبر فتغيّرت وَجْنَتاه والتمع لونه، ثمّ أقبل (على الناس) بوجهه فقال: «يا معشر المسلمين إنّي إنّما بُعثت أنا والسّاعة كهاتين، قال: ثمّ ضمّ السبّاحتين، ثمّ ←

لأنّ الغرض الكلّي والمقصود الجملي من وجود الأنبياء والرّسل الّذين هم أطبّاء النّفوس، في تكميل الخلق ولهدايتهم بالأخلاق قد حصل وتمّ بوجوده، فلم يبق هناك غرض حتّى يكون في بقاء الطبيب فايدة، لأنّ كلّ حركة لايكون على غرض تكون تلك الحركة من الحكيم الكامل عبثاً والعبث على الله تعالىٰ محال فيجب حينئذ قيام السّاعية بفقدان وجود الكامل لئلّا يلزم منه الفساد المذكور.

← قال: يا معشر المسلمين إنّ أفضل الهدْي هَدْي محمّد، وخير الحديث كتاب الله، وشرّ الأمور محادثاتُها»، الحديث.

وقريب منه في أمالي الطوسي ج ١٢، ص ٣٤٧، بإسناده عن جابر بن عبدالله، عن النبيّ (ص).

وراجع أيضاً سنن ابن ماجة (المقدّمة)، باب اجتناب البدع والجدل، الحديث ٤٥، ج ١، ص ١٧، و ج ٢، باب ٢٥ (باب اشتراط السّاعة من كتاب الفتن)، الحديث ٤٠٤٠، ص ١٣٤١.

وأخرجه مسلم أيضاً في صحيحه ج ٤، كتاب الفتن، باب ٢٧ (باب قرب السّاعة)، الحديث ١٣٤ و ١٣٦، ص ٢٢٦٩، وأيضاً ج ٢، كتاب الجمعة، باب ١٣ (باب تخفيف الصلاة والخطبة)، الحديث ٤٣، ص ٥٩٢، وأخرجه الترمذي في (الجامع الصحيح) ج ٤، كتاب الفتن، باب ٣٩، الحديث ٢٢١٣، ص ٤٩٦.

وأيضاً رواه ابن الأثير في جامع الأصول ج ٥، ص ٦٧٩، الفصل ٥ (في الخطبة وما يتعلّق بها)، الحديث ٣٩٧٤، وفي مجمع الزوائد ج ١٠، كتاب الزهد، باب قرب السّاعة، الحديث ١٨٢٢٤ إلى ١٨٢٢٩.

وكذلك في الشهور، حتّىٰ وافقت الحجّة التي قبل حجّة الوداع في ذي القعدة، ثمّ حجّ النبيّ (ص) في العام القابل حجّة الوداع، فوافقت في ذي الحجّة فذلك حين قال النبيّ (ص) وذكر في خطبته: ألا وإنّ الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، أراد (ع) أنّ الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها وعاد الحجّ إلى ذي الحجّة وبطل النسيئ.

راجع أيضاً في بعض المصادر الأخرىٰ للحديث تعليقتنا الرقم ١٦٤، الجزء الأوّل، ص ٥٣٧.

إذا تمّ أمر دنىٰ نقصه يوقع زوالاً إذا قيل تم

ويسيجيء هذا البحث أكثر من ذلك عند بيان الشّريعة والطّريقة والحقيقة، والغرض هٰهنا أنّه كان جامعاً لجميع الكمالات والشرايع والمراتب والمقامات الّتي كانت لجميع الأنبياء والرّسل المعبّرة عنها تارة بالكتب والصّحف والكلمات والآيات، وتارة بالأخلاق والعلوم والمعارف الّتي هي أيضاً من كلمات الله المعنويّة، وإلى هذا أشار جلّ ذكره في قوله:

﴿شرع لكم من الّدين ما وصّىٰ به نوحاً والّذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ أن أقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فيه﴾ [سورة الشورىٰ: ١٣].

وإذا حصل الغرض وثبت بهذين الوجهين المشتملين على وجوه كثيرة أنّ المراد بالكلمات ذوات الأنبياء وشرايعهم ومقاماتهم وأنّه صلّى الله عليه وآله جامع لجميع ذلك، فلنشرع في تمام الحديث وبحث الأخلاق بقوله:

«وبعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق» (٢٥٤).

والّذي نزل من الله تعالىٰ في حقّه:

﴿وإنّك لعلى خلق عظيم﴾ [سورة القلم: ٤].

وورد في الخبر:

انّ خلقه القرآن (٢٥٥).

وورد:

(٢٥٤) قوله: وبعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق.

راجع تعليقتنا الرقم ٢٥٠.

(٢٥٥) قوله: انّ خلقه القرآن.

أخرجه ابن حنبل، بإسناده عن عايشة حينما سُئِلت عن خُلق رسول الله (ص)، قالت: فانّ خُلق رسول الله (ص) كان القرآن. مسند ابن حنبل ج ٦، ص ٥٤، وفي ص ٩١ قالت: كان خُلقه القرآن، أما تقرأ القرآن قول الله عزّ وجلّ: ﴿انّك لعلىٰ خُلُقٍ عظيم﴾.

وقريب منه في سنن ابن ماجة، كتاب الأحكام، باب ١٤، الحديث ٢٣٣٤، ج ٢.

تخلّقوا بأخلاق الله (٢٥٦).

وأمثال ذلك وبالله التوفيق.



---

(٢٥٦) قوله: تخلّقوا بأخلاق الله.

رواه شيخ الإشراق السهروردي في كتابه (عوارف المعارف). راجع كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي ج ٥، ص ٢٤١.

ورواه المجلسي أيضاً في بحار الأنوار ج ٦١، ص ١٢٩.

وروى الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) ج ٤، كتاب الصبر والشكر، باب بيان فضيلة الصّبر، ص ٦١، وقال: قيل:

أوحى الله تعالىٰ إلى داود (ع): تخلّق بأخلاقي وأنّ من أخلاقي أنّي أنا الصّبور.

وعنه الكاشاني في (المحجّة البيضاء) ج ٧، ص ١٠٧.

وروى مثله أيضاً الديلمي في إرشاد القلوب، الباب ٣٨ (في الصّبر)، ص ١٢٧، وروى أيضاً مثله الشهيد الثاني في مسكن الفؤاد، الباب ٢ (في الصّبر)، ص ٤٧، وعنه أيضاً الشيخ الحر العاملي في (الجواهر السنيّة)، الباب ٨ (فيما ورد في شأن داود (ع)) مثله، إلّا أنّ فيهما: تخلّق بأخلاقي وإنّ من أخلاقي الصّبر.

وراجع أيضاً تعليقتنا الرقم ٣٧، ص ٢٥٥، الجزء الأوّل.

البحث الرابع
في الأخلاق وما يتعلّق بها من بحث الكلمات

(في بيان أصول الأخلاق ومعنى الحكمة والعفّة والشجاعة والعدالة)

اعلم، ان أصول الأخلاق باتّفاق أكثر العقلاء وأرباب الأصول وأكثر أهل الكشف وأرباب الشهود، أربعة: الحكمة والعفّة والشّجاعة والعدالة.

أمّا الحكمة، فهي على قسمين علميّة وعمليّة، أمّا العلميّات فكالنّظر في معرفة الحقّ تعالىٰ وذاته وصفاته وما يتعلّق بها المقرّرة في أقسام الإلهيّات من الحكمة.

وأمّا العمليّات فهي إستكمال النّفس بكمال الملكة التّامّة على الأفعال الفاضلة حتّى يكون الإنسان ثابتاً على الصّراط المستقيم متجنّباً من طرفي الإفراط والتّفريط في جميع أفعاله وأحواله، وعن مثل هذه الحكمة أخبر الله تعالى في كتابه بقوله:

﴿ومن يُؤتَ الحكمَةَ فقد أُوتِيَ خَيراً كثيراً وما يتذكّر إلّا أولوا الألباب﴾.

وبوجه آخر، الحكمة العمليّة على ما قيل وهي ملكة تصدر عنها الأفعال المتوسّطة بين الجربزة والغباوة الّذين هما طرفا الإفراط والتّفريط.

وأمّا العفّة، فهي ملكة صادرة عن إعتدال حركة القوّة الشهويّة بحسب تصريف العقل العملي لها على قانون العدل.

وأمّا الشّجاعة، فهي ملكة حاصلة للنّفس عن إعتدال القوّة الغضبيّة بحسب تصريف العقل فيما يضبطه لها.

وأمّا العدالة، فهي فضيلة حاصلة من إجتماع هذه الثلاث.

وكلّ واحدة من هذه الأربعة لها طرفان هما طرفا إفراط وتفريط وهما مذمومتان يجب الإجتناب عنهما، والوقوف على الحدّ الوسط من بينهما بحكم الخبر النّبوي:

خير الأمور أوسطها(٢٥٧).

فإنّه الصّراط المستقيم الحقيقي المأمور بالإستقامة على كلّ عاقل مكلّف.

أمّا الحكمة، فطرف إفراطها الجزيرة الموجبة للمكر والخدع وأمثالها، وطرف تفريطها الغباوة والبلادة المؤدّية إلى عدم الفضيلة.

وأمّا العفّة، فطرف إطرافها الفجور الّذي هو الخروج عن حدّ الإعتدال في قضاء قوّة الشهويّة، وطرف تفريطها عدم الشّهوة والخمود عن إقتضاء القوّة الشهويّة بمقتضى طبعها.

وأمّا الشّجاعة، فطرف إفراطها التّهوّر الّذي هو إلقاء النفس في التهلكة والتهجّم في الأمور المهلكة الغير المحمودة، وطرف تفريطها الجبن الّذي هو القعود في موضع القيام بما يجب على الشّخص من الأحكام الشرعيّة والعقليّة، ولهذا لايجوز أن يتّصف النبيّ والإمام بهاتّين الصّفتّين، لأن الإتصاف بهما يكون موجب الطعن في عصمتهما كما هو مقرّر عند أهله.

وأمّا العدالة، فطرف إفراطها الظّلم الموجب للجور والعدوان والقهر والغلبة، وطرف تفريطها الإنظلام الموجب للمهابة والمذلّة والخذلان، وكذلك لايجوز إتّصاف النّبيّ والإمام بهاتين الصّفتين.

وبالجملة الأخلاق على قسمين محمودة ومذمومة، أمّا المحمودة فيجب إتّصاف كلّ أحد بها وهي عند البعض سبعة وعند البعض عشرة. وأمّا المذمومة فيجب إجتناب

---

(٢٥٧) قوله: الخبر النبويّ: خير الأمور أوسطها.

رواه الكليني في فروع الكافي ج ٦، ص ٥٤٠، باب نوادر في الدواب، الحديث ١٨، في حديث بإسناده عن الإمام الكاظم موسىٰ بن جعفر (ع).

ورواه ابن أبي جمهور في عوالي اللّئالي ج ١، الحديث ١٩٩، وقال: في الحديث القدسي: يا داوُد.........: «لا منع، ولا إسراف، ولا بخل، ولا اتلاف، خير الأمور أوسطها».

وأخرجه الجزري في جامع الأصول، عن النبيّ (ص) قال: «خير الأمور أوسطها» ج ١، ص ٣١٨، الحديث ١٠١.

وأخرجه الغزالي أيضاً، عن النبيّ (ص) في إحياء علوم الدين ج ٣، ص ٥٧.

كلّ أحد عنها وهي بإزاء المحمودة.

أمّا السبعة من المحمودة:

فالعلم والحلم والكرم والتّواضع والإخلاص والمحبّة والزّهد.

وأمّا السبعة من المذمومة.

الجهل والغضب والكبر والبخل والحسد والعجب والرّياء.

وأمّا العشرة من المحمودة على رأي:

التّوبة، والخوف، والزّهد، والشّكر، والإخلاص، والتّوكّل، والمحبّة، والرّضا، والصّبر، وذكر الموت.

وأمّا العشرة من المذمومة:

شرّة الطعام، وكثرة الكلام، والغضب، والحسد، والبخل، وحبّ الجاه، وحبّ الدّنيا، والكبر، العجب والرّياء.

ولكلّ واحدة من هذه الأخلاق أيضاً شعب وفروع وتوابع ولوازم يعرف في مظانّها ولم يكن بعثة الأنبياء والرّسل إلّا لإتّصاف الخلق بالأخلاق الحميدة وإجتنابهم عن الأخلاق والذّميمة و:

بعثت لاتمّم مكارم الأخلاق.

إشارة إليه ومعناه: بعثت أنا لتتميم الأخلاق الّتي وضعوها الأنبياء لأممهم من الأخلاق الحميدة ولنهيهم وإجتنابهم الأخلاق الذّميمة الّتي منعوهم عنها وأمروهم بإجتنابها، وقوله تعالى في أمّته:

﴿كنتم خيرَ أمّة أُخرجت للنّاس﴾ [سورة آل عمران: ١١٠].

إشارة إلى إتّصافهم بالوسط الحقيقي، ولقوله أيضاً:

﴿وكذلك جعلناكم أُمّةً وسطاً لتكونوا شهداءَ على النّاس﴾ [سورة البقرة: ١٤٣].

وتقديره: أنّ كلّ من وصف بهذه الأخلاق وأوساطها الّتي هي الصّراط المستقيم الحقيقي فهو خير من كلّ أمّة لأنّ كلّ أمّة فرضت في العالم ما حصل لهم هذه الإتّصاف

لأنّ اتّصاف كلّ امّة بالأخلاق الحميدة يتعلّق بمقام (نبيّ) النبيّ تلك الأمّة وليس هناك نبيّ يكون أعظم من هذا النبيّ حتّى تكون أمّته أعظم من أمّته ولا أخلاقه أشرف من أخلاقه، وسنبسط الكلام في هذا عند بحث الشريعة والطّريقة والحقيقة، وهذا البحث في هذا الموضع وإن كان خارجاً عن المـوضوع لكن حيث كان تتميماً للكلم الّتي هم الأنبياء ومقاماتهم، وقيد الحديث تتميم الأخلاق، صار من الموضوع وجاز ذكره لأنّ تعليم الأخلاق في هذا المقام تهذيب للكلمات الإلهيّة الّتي هي نوع الإنسان بـوجه، وبوجه آخر جميع المخلوقات، وإجراء لكلام الحقّ وقوله، وأمره في عباده الّذين هم كلماته في ضمن كتابه الكبير فافهم.

وحيث عرفت أصول الأخلاق وفروعها على سبيل الإيجاز من تقريرنا، نريد أن نشرع فيه مرّة أخرىٰ على سبيل الإطـناب مـن تـقرير غـيرنا تـوضيحاً وتحـقيقاً للمطلوب، وهو أنّ بعض العارفين من أرباب التّوحيد قدّس الله سرّهم كتب رسالة في هذا المعنى لايمكن أحسن منها، نذكر بعضها لأنّ ذكر الكلّ ممتنع وهو هـذا، وهـذا البعض أيضاً في فصول:

الفصل الأوّل
في تعريف الخُلق وبيان تغيّره

الخُلق ملكة في النّفس توجب سهولة صدور الفعل الإرادي عنها بلا رويّة وهو ليس بطبيعيّ لأنّه ممكن التغيّر كما تشاهد في الأحداث والصّبيان إلّا أنّ بعضه يكون سريع التغيّر وبعضه بطيئ الإستحالة لأنّ المزاج الإنساني ذو عرض عريض وسببه تفاوت إستعدادات القوابل بحسب الإمتزاجات المتنوّعة الواقعة بحسب الأوضاع المختلفة والصّور السّابقة، وكلّ مزاج يناسب خُلقا مّا ويخالف آخر، على ما ترىٰ في الصّبيان وما يكونون عليه في مبدأ نشوئهم من الجود والحياء في بعضهم والبخل والقِحَة في آخرين وكذلك سايرها كالشرّة والغضب مثلاً، فإن أهملوا ولم يقوموا بالتأديب نشأ كلّ على مقتضى مزاجه وبقي جميع عمره على حاله، ولهذا التأديب والتقويم شرعاً وعقلاً وأيضاً فإنّ النّفس الإنسانيّة قابلة صافية الجوهر بحسب العادات ومخاطبة أصناف النّاس بالخير والشرّ كما ورد في السنّة:

ما من مولود إلّا وهو يولد على الفطرة فأبواه يهوّانه أو وينصّرانه ويمجّسانه (٢٥٨).

وقال أمير المؤمنين عليه السّلام في أثناء الوصيّة لإبنه الحسن عليه السّلام (٢٥٩).

---

(٢٥٨) قوله: ما من مولود إلّا وهو يولد على الفطرة.

أخرجه مسلم في صحيحه، باب معنىٰ كلّ مولود يولد على الفطرة من كتاب القدر ج ٤، ص ٢٠٤٧، الحديث ٢٢ و ٢٣.

ورواه أيضاً ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ٢٣٣، وابن أبي جمهور في عوالي اللّئالي ج ١، ص ٣٥، الحديث ١٨، إلّا أنّ فيها:

كلّ مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه (فأبواه) الحديث.

وراجع أيضاً كتاب التوحيد للصّدوق، باب فطرة الله عزّ وجلّ الخلق على التوحيد، ج ٩، ص ٣٣٠، وأصول الكافي ج ٢، ص ١٢، باب فطرة الخلق على التوحيد.

(٢٥٩) قوله: وقال أمير المؤمنين (ع):

راجع نهج البلاغة الوصيّة ٣١، نهج البلاغة صبحي صالح.

وإنّما قَلبَ الحَدَثِ كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قَبِلَته، فبادَرْتُكَ بالأدَبِ (الأدب) قَبْلَ أنْ يَقْسُوَ قَلبُك، ويَشتَغِلَ لُبُّكَ.

وهي وإن كانت متّحدة بحسب الماهيّة لكن مختلفة بالقوّة والضّعف عـلى حسب إعتدال القابل وكلّ ما كانت أقوى كانت أسرع قبولاً للتأديب والتـوجّه إلى الجـهة العِلويّة والإعراض عن السِفليّة وبالعكس.



الفصل الثاني
في مكارم الأخلاق وأجناس الفضائل

قال الله تعالى:

﴿وإنّك لعلى خُلُق عظيم﴾ [سورة القلم: ٤].

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق. (قد مرّت الإشارة إليه في التعليقة ٢٥٣).

وكافيك بها شرفاً حيث جعلها من النبوّة غرضاً. والأخبار الواردة فيه أكثر من أن يحصى مثل:

ألا أنبئكم بخياركم ان من خياركم أحاسنكم(٢٦٠).

إنّ أحسن الحسن الخلق الحسن(٢٦١).

وقال أمير المؤمنين عليه السّلام(٢٦٢):

انّ الله تعالىٰ كريم حليم عظيم رحيم دلنا على أخلاقه وأمرنا بالأخذ بها وحمل النّاس عليها.

ولقد صدق من قال:

---

(٢٦٠) قوله: ألا أُنبّئكم بخياركم.

روى المجلسي في البحار ج ٧١، ص ٣٩٦، الحديث ٧٦، عن كتاب الحسين بن سعيد، بإسناده عن الإمام الصادق (ع)، قال:

«قال رسول الله (ص): «ألا أُنبّئكم بخياركم؟» قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: أحاسنكم أخلاقاً، الموطّئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون».

(٢٦١) قوله: إنّ أحسن الحسن.

رواه الصدوق (ره) في كتابه الخصال، باب الواحد، ص ٢٩، الحديث ١٠٢.

(٢٦٢) قوله: وقال أمير المؤمنين (ع):

قاله (ع) في وصيّته لكميل بن زياد، رواه ابن شعبة في تحف العقول، ص ١٧٥.

ألا في سبيل المجد ما أنا فاصل عفاف واقدم وجزم ونايل

وإذ قد عرفت أنّ أحوال الأفعال الإنسانيّة أي الإنسانيّة التمييزيّة إنّما يتمّ بالقوى الثلاث ظهر لك أنّ فضيلة الأفعال متنوّع بحسبها فمن إستقامة القوّة النطقية الّتي هي منشأ النظر في الحقايق يحصل فضيلة الحكمة وهي باعتبار تحصيلها باستعمال هذه القوّة في تحقيق اليقينيّات نوع من العمل وباعتبار حصولها في نفسها عين العلم.

فهي باعتبار الأوّل يعرف الموجودات كما هي وفعل ماينبغي أن يفعل وهو المراد ههنا كما سنبيّن في أنواعها، ويدل على فخامة شأنها وإنارة برهانها وسلطانها قوله تعالىٰ:

﴿وأنزل الله عليك من الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ [سورة النساء: ١١٣].

وفي كلام أمير المؤمنين عليه السّلام:

خذ الحكمة ولو من أهل النّفاق(٢٦٣).

وبالإعتبار الثاني حصول صورة الأشياء في النّفس، قال الله تعالىٰ:

﴿هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لايعلمون﴾ [سورة الزمر: ٩].

ومن كلامه أيضاً عليه السّلام:

«لا شرف كالعلم إذا أرذل الله عبداً حظر عليه العلم»(٢٦٤).

ومن إعتدال القوّة السبعيّة الظاهرة الطالبة للغلبة والجاه يحدث الشجاعة وهي أمثال ما يوجبه الرّأي الصحيح في الأقدام على المخاوف، والصبر على الشّدايد، قال الله تعالىٰ:

---

(٢٦٣) قوله: في كلام أمير المؤمنين (ع):

قال (ع): الحكمة ضالّة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النّفاق. نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٨٠.

(٢٦٤) قوله: لا شرف كالعلم.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ١١٣ و ٢٨٨.

﴿فالّذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم وأُوذُوا في سبيلي وقاتلوا وقُتلوا لأكفّرنّ عنهم سيّئاتهم﴾ [سورة آل عمران: ١٩٥].

وقال:

﴿إنّ الله يحبّ الّذين يقاتلون في سبيله صفّاً﴾ [سورة الصف: ٤].

ومن انقياد القوّة البهيميّة ومطاوعتها للقل تتولّد العفّة وهي تصريف الشهوة إلى مقتضى الرأي الصائب بترك تعبّدها ليفيد حريّة، قال الله تعالى:

﴿ولا تتّبع الهوىٰ فيُضلّك عن سبيل الله﴾ [سورة ص: ٢٦].

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

بئس العبد عبد هوى يضلّه(٢٦٥).

وقال أمير المؤمنين عليه السّلام:

انّ أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوىٰ وطول الأمل، فأمّا اتباع الهوىٰ فيصد عن الحق، وأمّا طول الأمل فينسى الآخرة(٢٦٦).

وقال عليه السّلام:

حلية المؤمن التواضع، وجماله التعفّف(٢٦٧).

---

(٢٦٥) قوله: بئس العبد....

رواه المجلسي في بحار الأنوار عن كتاب نوادر الراوندي، في حديث بإسناده عن أمير المؤمنين، عن رسول الله (ص)، ج ٧٧، ص ٧٧، ص ١٣٥، الحديث ٤٧، وأخرجه أيضاً السيوطي في الجامع الصغير ج ١، ص ٤٩٠، الحديث ٣١٧٩، عن النبيّ (ص).

(٢٦٦) قوله: إنّ أخوف ما أخاف.

رواه الصدوق في كتابه الخصال ص ٥١، الحديث ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٤، باب أخوف ما يخاف على الناس خصلتان، بإسناده عن لنبيّ (ص)، وأخرىٰ عن أمير المؤمنين (ع).

(٢٦٧) قوله: قال (ع): حلية المؤمن.

رواه ابن شعبة في تحف العقول، عن أمير المؤمنين (ع) في وصيّته لكميل بن زياد، تحف العقول، ص ١٧٢.

وإذا تسالمت هذه القوىٰ وتعاونت في أفعالها واستوت حتى بلغت الغاية الّتي خلقت لها حدثت العدالة وهي مسالمة هذه القوىٰ بعضها بعضاً والإنصاف والإنتصاف من نفسه وغيره، قال تعالىٰ:

﴿وأقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين﴾ [سورة الحجرات: ٩].

﴿إعدلوا هو أقرب للتقوىٰ﴾ [سورة المائدة: ٨].

﴿إنّ الله يأمر بالعدل﴾ [سورة النحل: ٩٠].

﴿وأُمرت لأعدل بينكم﴾ [سورة الشورى: ١٥].

فأجناسها هي هذه الأربعة، وأنواعها كثيرة لا يكاد تحصى كثيرة، لكنّا نعد منها ماهو أظهر وأشهر.



الفصل الثالث

في الأنواع الواقعة تحت جنس الحكمة

وهي سبعة:

الأوّل صفاء الذّهن، وهو استعداد النفس لاستخراج المطلوب. قال الله تعالى:

﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو علىٰ نور من ربّه﴾ [سورة الزمر: ٢٢].

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

إنّ الله تعالىٰ خلق الخلق في ظلمة فالقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضلّ(٢٦٨).

---

(٢٦٨) قوله: وقال رسول الله (ص): إنّ الله خلق الخلق في ظلمة.

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ١٧٦، بإسناده عن النبيّ (ص) مع تفاوت في بعض المفردات، وأخرج مثله بنفس العبارة البيهقي في (السّنن الكبرىٰ) ج ٩، ص ٤، وأيضاً رواه ابن كثير في تفسيره سورة النور الآية ٣٥، ج ٣، ص ٤٨١.

أقول: هناك روايات كثيرة يمكن أن تكون تفسيراً وشرحاً لهذا الحديث، ولهذا لا بأس بذكرها هنا، ولكن نكتفي منها بذكر روايتين:

روى الصدوق في الخصال، بإسناده عن أبي أيّوب الأنصاري، قال: قال رسول الله (ص): «لمّا خلق الله عزّ وجلّ الجنّة خلقها من نور العرش، ثمّ أخذ من ذلك النور فقذفه فأصابني ثلث النور، وأصاب فاطمة ثلث النور، وأصاب عليّاً وأهل بيته ثلث النور، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ إلى ولاية آل محمّد، ومن لم يصبه من ذلك النور ضلّ عن ولاية آل محمّد. الخصال، ح ٢٥٨، ص ١٨٧.

وروى المجلسي في البحار ج ٦٨، ص ٤٤، الحديث ٩ عن كتاب (إرشاد القلوب)، بإسناده عن محمّد بن ثابت، قال: قال رسول الله (ص) لعليّ (ع): إنّ الله تبارك وتعالىٰ خلقني وإيّاك من نوره الأعظم، ثمّ رشّ من نورنا على جميع الأنوار من بعد خلقه لها، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ إلينا، ومن أخطأه ذلك النور ضلّ عنّا، ثمّ قرأ:

←

الثاني جودة الفهم، وهي سرعة إنتقال النّفس من الملزوم إلى اللّازم،

قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

من فهم علم غور العلم(٢٦٩).

الثالث، الذّكاء، وهو سرعة إنقداح النتايج، ويأوّل به قوله تعالىٰ:

﴿يكاد زيتها يُضيء ولو لم تمسسه نار﴾ [سورة النور: ٣٥].

الرّابع، حسن التّصور، وهو البحث عن الأشياء بقدر ماهي عليه.

قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

من تبصر الفطنة ظهرت له الحكمة(٢٧٠).

الخامس، سهولة التعلّم، وهي قوّة النفس على إدراك المطلوب، قال الله تعالى:

﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه﴾.

السّادس، الحفظ، وهو ضبط الصّور المدرَكة، قال الله تعالى:

﴿وتَعِيَها أُذُنٌ واعية﴾ [سورة الحاقة: ١٢].

وقال:

﴿هذا ما توعدون لكلّ أوّاب حفيظ﴾ [سورة ق: ٣٢].

السّابع، الذّكر، وهو إستحضار المحفوظات، قال الله تعالى:

﴿وما يذّكّر إلّا أُولوا الألباب﴾ [سورة البقرة: ٢٦٩].

← ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ [سورة النور: ٤٠].

يهتدي إلى نورنا.

(٢٦٩) قوله: من فهم علم.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٣١.

(٢٧٠) قوله: قال أمير المؤمنين (ع): من تبصّر الفطنة.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٣١.

الفصل الرّابع
في الأنواع الّتي تحت الشّجاعة

وهي إثنا عشر:

الأوّل، كبر النّفس، وهو إستحقار اليسار والإقتدار على حمل الكرامة والصّغار، قال الله تعالى:

﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ [سورة النساء: ٧٧].

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السّلام:

من كبرت عليه نفسه هانت عليه شهوته(٢٧١).

الثاني، عظم الهمّة، وهو عدم المبالات بسعادة الدّنيا وشقاوتها حتّى الموبقات، كما قال تعالى:

حكاية عن أصحاب موسى في جواب:

﴿لأقطّعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلّبنّكم أجمعين * قالوا لا ضير إنّا إلى ربّنا منقلبون﴾ [سورة الشعراء: ٤٩ ـ ٥٠].

وفي موضع آخر:

﴿فاقض ما أنتَ قاضٍ إنّما تقضي هذه الحيٰوة الدّنيا﴾ [سورة طه: ٧٢].

الثالث، الثّبات، ويسمّى الصبر أيضاً وهي قوّة مقاومة الآلام في الأهوال والشّدايد، قال الله تعالى:

﴿وكأيّن من نبيّ قاتل معه ربّيّون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعُفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾ [سورة آل عمران: ١٤٦].

---

(٢٧١) قوله: ومن كلام أمير المؤمنين (ع): من كبرت.
نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٤٤٩:
«من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته».

الرابع، النجدة، وهي ثقة النفس بأن لا يصبها جزع عند المخاوف، قال الله تعالىٰ:

﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين * الّذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾ [سورة البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦].

الخامس، الحلم، وهو الطمأنينة وترك الشغب عند سورة الغضب، قال الله تعالىٰ:

﴿وعباد الرّحمٰن الّذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ [سورة الفرقان: ٦٣].

﴿إدفع بالّتي هي أحسن السّيئة﴾ [سورة المؤمنون: ٩٦].

ومن كلام رسول الله صلّى الله عليه وآله:

ليس الشديد بالصرعة إنّما الشديد الّذي يملك نفسه عند الغضب(٢٧٢).

السّادس، السكون، وهو التأنّي في الخصومات والحروب الشرعيّة ويسمّى عدم الطيش أيضاً، قال الله تعالى:

﴿وقاتلوا في سبيل الله الّذين يقاتلونكم﴾ [سورة البقرة: ١٩٠].

ومن كلام علي عليه السّلام:

من بالغ في الخصومة أثم(٢٧٣).

---

(٢٧٢) قوله: ومن كلام رسول الله (ص): ليس الشديد.

رواه ابن شعبة في تحف العقول في قصار مواعظه وحكمه (ص)، ص ٤٧. رواه أيضاً الطبرسي في مجمع البيان، سورة آل عمران، الآية ١٣٤، ج ٢، ص ٥٠٥.

وأخرجه مسلم أيضاً في صحيحه، باب فضل من يملك نفسه، ج ٤، ص ٢٠١٤، الحديث ١٠٧ و ١٠٨.

والبيهقي أيضاً في السنن الكبرىٰ، باب الشاعر يكثر الوقيعة في الناس على الغضب، ج ١٠، ص ٢٤١، كتاب الشهادات.

ورواه أيضاً ابن كثير في تفسيره سورة آل عمران الآية ١٣٥، ج ١، ص ٦٣٥.

(٢٧٣) قوله: ومن كلام علي (ع): من بالغ.

السّابع، العفو، وترك الإنتقام مع القدرة، قال الله تعالى:

﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس﴾ [سورة آل عمران: ١٣٤].

﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [سورة الشورىٰ: ٤٠].

﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ [سورة الزخرف: ٨٩].

ومن كلام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

لا تكونوا إمّعة تقولون: إنّ أحسن الناس أحْسنّا وإن ظَلَموا ظَلَمْنا، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن النّاس أن تُحسنوا وإن أساؤا فلا تَظلموا [٢٧٤].

وقال:

من كظم غيظه وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه إيماناً وأمناً [٢٧٥].

الثامن، التواضع، وهو استعظام الرّجل ذوي الفضائل ومن دونه في الجاه والمال. قال الله تعالىٰ:

﴿واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين﴾ [سورة الشعراء: ٢١٥].

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

← نهج البلاغة صبحي صالح، قصار الحكم، الرقم ٢٩٨.

(٢٧٤) قوله: لا تكونوا إمّعة.

أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب البرّ والصّلة، باب ٦٣ (ما جاء في الإحسان والعفو)، ج ٤، ص ٣٦٤، الحديث ٢٠٠٦.

وقريب منه في كنز العمّال ج ١٥، ص ٧٧٢، الحديث ٤٣٠٣٥.

(٢٧٥) قوله: من كظم غيظه.

أخرجه الهندي في كنز العمّال ج ٣، ص ١٣١، الحديث ٥٨٢٢.

وقريب منه رواه ابن كثير في تفسيره سورة آل عمران الآية ١٣٥، ج ١، ص ٦٣٧.

وروى الكليني في أصول الكافي ج ٢، باب كظم الغيظ، الحديث ٧، ص ١١٠، بإسناده عن الإمام الباقر (ع)، قال:

«من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه حشا الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة».

ما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله(٢٧٦).

ومن كلام علي عليه السّلام:

حلية المؤمن التواضع(٢٧٧).

التاسع، الشهامة، وهو الحرص ما يوجب الذّكر الجميل من العظام،

قال الله تعالى:

﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ [سورة المؤمنون: ٦١].

العاشر، احتمال الكدّ، وهو إتعاب البدن في اكتساب الحسنات، قال الله تعالى:

﴿والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩].

﴿يا أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً﴾ [سورة الانشقاق: ٦].

الحادي عشر، الحميّة، وهي محافظة الملّة والحرمة عن التهمة، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

اتّقوا مواضع التّهم(٢٧٨).

---

(٢٧٦) قوله: ما تواضع أحد.

أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البرّ والصّلة، الحديث ٦٩، باب ١٩، ص ٢٠٠١، ج ٤، بإسناده عن رسول الله (ص).

وروى الشيخ الطوسي في أماليه بإسناده عن رسول الله (ص) في حديث، قال: «ومن تواضع لله رفعه الله».

وروى أيضاً مثله الكليني في الكافي ج ٢، باب التواضع، الحديث ٣، ص ١٢٢، بإسناده عن الإمام الصادق (ع)، عن رسول الله (ص).

وروى الهندي أيضاً في كنز العمّال ج ٣، الحديث ٥٧٣٧، ص ١١٣.

وأخرج ابن حنبل في مسنده ج ٣، ص ٧٦، بإسناده عن النبيّ (ص) قال: «من تواضع لله درجة رفعه الله درجة حتى يجعله في علّيين».

(٢٧٧) قوله: حلية المؤمن.

وقد أشرنا إلى هذا الحديث في تعليقتنا الرقم ٢٦٨.

(٢٧٨) قوله: اتّقوا من مواضع التّهمة.

الثاني عشر، الرِّقّة، وهي التأثّر عن أذى يصيب من النّاس بلا إضطراب. قال النبيّ صلّى الله عليه وآله:

ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطُفهم كمثل الجسد إذا اشتكىٰ عضواً تَداعى له سائر الجسد بالسَّهَر والحُمّىٰ (٢٧٩).

← رواه الغزالي في إحياء العلوم ج ٣، ص ٣٦، باب تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب.

وروى ابن ادريس في كتابه السرائر في ما استطرفه من جامع البزنطي ج ٣، ص ٥٧٨، وقال: قال أبو الحسن (الرضا) (ع): قال أبو عبدالله (ع): «اتّقوا مواقف (مواضع) الرِّيب، ولا يقض (يقفنّ) أحدكم مع أمّه في الطّريق، فإنّه ليس كلّ أحد يعرفها».

عنه المجلسي في «بحار الأنوار» ج ٧٥، ص ٩١، الحديث ٧، و «وسائل الشيعة» ج ٨، ص ٤٢٣، الحديث ٥.

(٢٧٩) قوله: قال النبيّ (ص): ترى المؤمنين.

رواه المجلسي في بحار الأنوار ج ٧٤، ص ٢٣٣، كتاب العشرة، باب حقوق الأخوان، الحديث ٣٠، وقال: وجدت بخطّ محمّد بن علي الجباعي نقلاً من خطّ الشيخ الشهيد رحمه الله ما هذه صورته: من كتاب «المؤمن» لابن سعيد الأهوازي، بإسناده (إلى أن قال): عن أبي جعفر (ع) قال: المؤمنون في تبارّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا أشتكىٰ تداعىٰ له سائره بالسّهر والحمّىٰ.

ورواه أيضاً في ج ٦١، ص ١٥٠، الحديث ٢٨ من كتاب (الشهاب) للقاضي أبي عبدالله محمّد بن سلامة بن جعفر القضاعي، وهو من علماء القرن الخامس، كان يسكن في مصر.

ورواه أيضاً البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ٥٤٩ (رحمة الناس بالبهائم)، الحديث ٨٩٤، ج ٧، ص ٣٢٨.

وأخرجه مسلم أيضاً في صحيحه، كتاب البرّ، باب ١٧ (تراحم المؤمنين)، الحديث ٦٦، ج ٤، ص ١٩٩٩.

الفصل الخامس
في الأنواع الواقعة تحت العفّة، وهي إثنا عشر

الأوّل، الحياء، وهو انحصار النّفس خوف ارتكاب القبايح، قال النبيّ عليه السّلام: الحياء من الإيمان(٢٨٠).

وقال علي عليه السّلام:

من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه(٢٨١).

الثاني، الصبر، وهو حبس النفس عن مطاوعة الهوىٰ ومقاومتها ايّاه. قال الله تعالىٰ:

﴿وما يلقّاها إلّا الّذين صبروا﴾ [سورة فصّلت: ٣٥].

﴿ولنجزينّ الّذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل: ٩٦].

وقال أمير المؤمنين عليه السّلام:

---

(٢٨٠) قوله: الحياء من الإيمان.

رواه الكليني في أصول الكافي ج ٢، باب الحياء، ص ١٠٦، الحديث ١، بإسناده عن الإمام الصادق (ع).

ورواه المجلسي في البحار ج ٧١، ص ٣٣٤، الحديث ١٢، عن كتاب الحسين بن سعيد، بإسناده عن الإمام الرضا (ع).

ورواه ابن شعبة عن الإمام موسىٰ بن جعفر (ع) في وصيّته لهشام في «تحف العقول» ص ٣٩٤.

وروى الغزالي عن النبيّ (ص) أنّه قال: الحياء شعبة من الإيمان. إحياء العلوم ج ٣، ص ٣٢٠.

(٢٨١) قوله: من كساه الحياء.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٢٢٣.

عليك بالصبر فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرّأس من الجسد(٢٨٢).

وقال:

الصّبر صبران، صبر على ماتكره، وصبر على ما تحبّ(٢٨٣).

فالقسم الأوّل هو الّذي سمّيناه الثبات في باب الشجاعة، وهذا هو القسم الثاني.

الثالث، الدعة، وهي السّكون عند هيجان الشهوات، قال تعالىٰ:

﴿لا تمدّنّ عينيك إلىٰ ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدّنيا﴾ [سورة طه: ١٣١].

الرابع، الحرّية، وهي اكتساب مال من غير امتنان، ومنّه وإنفاقه في المصارف الحميدة، ومن كلام النّبيّ عليه السّلام:

(لو) لأن يأخذ أحدكم حبلة جبلاً فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكفّ الله وجهه خير له من أن يسأل النّاس(٢٨٤).

ومن كلام علي عليه السّلام:

لنقل الثقل من قلل الجبال أحبّ إليّ من منن الرّجال(٢٨٥).

---

(٢٨٢) قوله: عليك بالصّبر.

راجع أصول الكافي ج ٢، باب الصّبر، الحديث ٩، ص ٩٠. والخصال للصّدوق، باب الخمسة، الحديث ٩٦، ص ٣١٥. وعيون أخبار الرضا ج ٢، ص ٤٤، الحديث ١٥٥، باب ٣١ (فيما جاء عن الرضا (ع) من الأخبار المجموعة)، وقرب الإسناد، الحديث ٥٧٢، ص ١٥٦.

(٢٨٣) قوله: الصّبر صبران.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٥٥.

(٢٨٤) قوله: لأن يأخذ أحدكم.

رواه ابن فهد الحلّي في كتابه عُدّة الدّاعي في فصل كراهيّة السؤال وردّ السؤال، ص ١٠٠.

(٢٨٥) قوله: لنقل الثقل من قلل الجبال.

لم نعثر عليه.

وقال:

طوبىٰ لِمَن ذَلّ نفسه وطاب كسبه، وخلصت سريرته، وحسُنت خليقته، وأنفق الفَضل من ماله وأمسك الفضل من قوله(٢٨٦).

الخامس، القناعة، وهي التّساهل في أسباب المعيشة والإقتصار منها على الكفاف، ومن كلام النبيّ عليه السّلام:

قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتيه(٢٨٧).

وقال:

ليس الغنى من كثرة المال ولكن الغنى غنى النّفس(٢٨٨).

وقال:

---

(٢٨٦) قوله: طوبىٰ لمن ذلّ نفسه.

نهج البلاغة صبحي صالح، قصار الحكم، الرقم ١٢٣. قال (ع):

«طوبىٰ لِمَن ذلّ في نفسه، وطابَ كسبهُ، وصَلَحت سريرتُهُ، وحَسُنَت خَليقَتُهُ، وأنفقَ الفَضْلَ مِن مالِهِ، وأمسكَ الفَضْلَ مِن لِسانِهِ، وعزلَ عن النّاسِ شرَّه، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّة، ولم يُنْسَب إلى البِدْعَة».

(٢٨٧) قوله: قد أفلح من أسلم.

أخرجه مسلم في صحيحه، باب في الكفاف والقناعة من كتاب الزكاة، ج ٢، الحديث ١٢٥، ص ٧٣٠.

وأخرجه أيضاً ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ١٦٨ و ص ١٧٣، وقريب منه في سنن ابن ماجة، كتاب الزّهد، باب القناعة، الحديث ٤١٣٨، ج ٢، ص ١٣٨٦، وقريب منه رواه الكليني بإسناده عن الإمام الصادق (ع)، عن رسول الله (ص) في أصول الكافي ج ٢، ص ١٤٠، باب الكفاف، الحديث ١ و ٢ و ٦.

وأيضاً رواه الحميري في قرب الإسناد ص ٤٠، الحديث ١٢٩.

(٢٨٨) قوله: ليس الغنى.

رواه ابن شعبة في تحف العقول في مواعظ النبيّ (ص) وحكمه، ص ٥٧، وفيه: ليس الغنى عن كثرة لَعَرض...

وأخرجه ابن ماجة في باب القناعة ج ٢، ح ٤١٣٧، ص ١٣٨٦.

أرض بما قسم الله لكي تكن أغنى النّاس(٢٨٩).

ومن كلام علي عليه السّلام:

القناعة كنز لا يفنى(٢٩٠).

وقال:

كفى بالقناعة ملكاً ويحسن الخلق نعيماً(٢٩١).

السّادس، الوقار، وهو التأنّي في التوجّه نحو المطالب، قال النبيّ عليه السّلام:

التأنّي من الرّحمن، والعجلة من الشيطان(٢٩٢).

وقال:

---

(٢٨٩) قوله: أرض بما قسم الله.

روى الكليني في الكافي ج ٢، باب القناعة، الحديث ٩، بإسناده عن الصادق (ع)، قال: «من قنع بما رزقه الله فهو من أغنى الناس».

وروى الصدوق في حديث في أماليه، المجلس ٣٦، الحديث ١٣، ص ١٦٨، بإسناده عن النبيّ (ص) قال: «ارض بقسم الله تكن أغنى النّاس».

وروى المجلسي في بحار الأنوار ج ٧١، ص ١٣٥، الحديث ١٥، عن (الخصال) للصّدوق، عن الصادق (ع) قال: ثق بالله تكن مؤمنا، وأرض بما قسم الله لك تكن غنيّاً.

(٢٩٠) قوله: القناعة كنز.

نهج البلاغة، قصار الكلم، الرقم ٣٧١، وقال (ع): «ولا كنز أغنىٰ من القناعة».

(٢٩١) قوله: كفىٰ بالقناعة.

نهج البلاغة (صبحي صالح)، قصار الحكم، الرقم ٢٢٩.

(٢٩٢) قوله: التأنّي من الرّحمن.

روى البرقي في (المحاسن)، باب التثبّت، ص ٢١٥، الحديث ١٠١، بإسناده عن الإمام الباقر (ع)، قال: قال رسول الله (ص): «الأناة من الله، والعجلة من الشيطان».

وأخرج مثله الترمذي في كتاب البرّ، باب في التأنّي والعجلة، راجع جامع الترمذي ج ٤، ص ٣٦٧، الحديث ٢٠١٢.

ورواه ابن شعبة في تحف العقول في مواعظ النبيّ (ص)، ص ٤٣.

من تأنّىٰ أصاب أو كاد ومن عجل أخطاء أو كاد(٢٩٣).

السابع، المسالمة، وهي الموادعة عند تنازع الآراء المختلفة، قال النبيّ عليه السّلام: المسالمة خبأ العيوب(٢٩٤).

الثامن، الرّفق، وهو حسن الإنقياد لما يؤدي إلى الجميل، ويسمىٰ أيضاً الديانة، قال الله تعالى:

﴿فقولا له قولاً ليّنا﴾ [سورة طه: ٤٤].

وقال:

﴿لو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

ومن كلام النّبي عليه السّلام:

من يحرم الرّفق يحرم الخير(٢٩٥).

وقال:

إنّ الله رفيق يحبّ الرّفق(٢٩٦).

التاسع، حسن الصّمت، وهو محبّة ما يكمل النفس.

---

(٢٩٣) قوله: من تأنّىٰ أصاب.

لم نعثر عليه.

(٢٩٤) قوله: المسالمة خباء العيوب.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٦.

(٢٩٥) قوله: من يحرم الرفق.

رواه الكليني في أصول الكافي ج ٢، باب الرّفق، الحديث ٧، ص ١١٩، ورواه أيضاً الترمذي في جامع الصحيح، باب ما جاء في الرّفق، الحديث ٢٠١٣، ج ٤، ص ٣٦٧.

ورواه مسلم في صحيحه، ج ٤، ص ٢٠٠٣، الحديث ٧٤ و ٧٥، باب فضل الرّفق.

(٢٩٦) قوله: إنّ الله رفيق.

رواه الكليني في أصول الكافي، باب الرّفق، الحديث ٩ و ١٤، ج ٢، ص ١١٩ و ١٢٠، وأخرجه مسلم في صحيحه، باب فضل الرّفق، الحديث ٧٧، ج ٤، ص ٢٠٠٤.

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

الصّمت الحسن والتودّد والإقتصاد جزء من أربع وعشرين جزءاً من النبوّة.

العاشر[٢٩٧]، الورع، وهو ملازمة الأعمال الجميلة، قال الله تعالىٰ:

﴿قد أفلح المؤمنون * الّذين هم في صلاتهم خاشعون﴾، إلى قوله: ﴿أُولئك هم الوارثون﴾ [سورة المؤمنون: ٢].

وقال:

﴿ومَن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾ [سورة الروم: ٤٤].

ومن كلام علي عليه السّلام:

لا معقل أحسن من الورع[٢٩٨].

الحادي عشر، الانتظام، وهو تقدير الأمور وترتيبها بحسب المصالح، قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

كن مقدّراً ولا تكن مقتّراً[٢٩٩].

وقال: لا عقل كالتدبير[٣٠٠].

الثاني عشر، السخاء، وهو إعطاء ما ينبغي على الوجه الّذي ينبغي، قال الله

---

(٢٩٧) قوله: الصّمت الحسن.

أخرجه الترمذي في جامع الصحيح، باب ما جاء في التأنّي، الحديث ٢٠١٠، ص ٣٦٦، ج ٤.

(٢٩٨) قوله: لا معقل.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٣٧١.

(٢٩٩) قوله: كن مقدّراً...

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٣٣.

(٣٠٠) قوله: لا عقل...

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ١١٣، ورواه الصدوق في معاني الأخبار، ص ٣٣٥ (باب معنى تحيّة المسجد...)، بإسناده عن أبي ذر، عن رسول الله (ص).

تعالى:

﴿وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ [سورة البقرة: ١١٠].

وقال:

﴿مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلةٍ مائة حبّة﴾ [سورة البقرة: ٢٦١].

وقال:

﴿انفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا ان الله يحبّ المحسنين﴾ [سورة البقرة: ١٩٥].

ومن كلام النّبي عليه السّلام:

الجنّة دار الأسخياء[٣٠١].

وقال: لجاهل سخيّ أحبّ إليّ من عابد بخيل[٣٠٢].

ومن كلام علي عليه السّلام:

---

(٣٠١) قوله: الجنّة دار الأسخياء.

رواه الطبرسي في مجمع البيان، سورة آل عمران الآية ١٣٤، ج ٢، ص ٥٠٥.

والغزالي في إحياء العلوم ج ٣، ص ٢٤٥، وفي كنز العمّال ج ٦، ص ٣٩٣، الحديث ١٦٢١٦: الجنّة دار الأسخيار، والذي نفسي بيده لايدخل الجنّة بخيل ولا عاقّ لوالديه ولا منّان بما أعطى.

وروي أيضاً في كتاب جامع الأخبار، الفصل ٩٦ (في السّخاء والإيثار).

(٣٠٢) قوله: لجاهل سخيّ...

رواه الترمذي في الجامع الصحيح في حديث ج ٤، باب ما جاء في السّخاء، الحديث ١٩٦١، ص ٣٤٢، وفيه «أحبّ إلى الله». ومثله في الترغيب والترهيب ج ٣، (باب الترهيب من البخل...)، الحديث ١٤، ص ٣٨١، وروى صاحب جامع الأخبار، عن أبي عبدالله (ع)، قال: ولجاهل سخيّ أفضل من شيخ بخيل. راجع الفصل ٦٩ في السّخاء والإيثار.

مَن يُعطِ باليد القصيرة يُعطَ باليد الطويلة[٣٠٣].

وهو نوع تحته سبعة أنواع:

الأوّل، الكرم، وهو أن يكون ذلك الإعطاء بالسهولة، وطيب النّفس في الأمور العظام، قال الله تعالى:

﴿ومثل الّذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنّة بِرَبوَةٍ أصابها وابل فئاتت أكلها ضعفين﴾ [سورة البقرة: ٢٦٥].

ومن كلام علي عليه السّلام:

بالإفضال تَعظُمُ الإقتدار[٣٠٤].

الثاني، الإيثار، وهو أن يكون مع الكفّ عن حاجاته، قال الله تعالى:

﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ [سورة الحشر: ٩].

وقال:

﴿ويُطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ [سورة الإنسان: ٨].

الثالث، النيل، وهو الغير بالخير مع خصاصته وهو أن يكون مع السرور به.

الرّابع، المواساة، وهو أن يكون في معاونة الأصدقاء بحيث يشاركهم بباله وماله، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

البركة في المال من إيتاء الزّكاة ومواساة المؤمنين وصلة الأقربين[٣٠٥].

---

(٣٠٣) قوله: مَن يُعطِ باليد.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٢٣٢.

(٣٠٤) قوله: بالإفضال تَعظم الإقدار.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٢٢٣.

(٣٠٥) قوله: البركة في المال.

رواه ابن شعبة في تحف العقول، عن أمير المؤمنين في وصيّته (ع) لكميل بن زياد، مع تفاوت يسير في الألفاظ، ص ١٧٢.

←

الخامس، السماحة، وهو بذل ما لاتجب بذل على سبيل التفضيل، قال النّبي صلّى الله عليه وآله:

السماح رباح(٣٠٦).

ومن كلام علي عليه السّلام:

كن سماحاً ولا تكن مبذّراً. (في نهج البلاغة حكمة ٣٣ (كن سمحاً))(٣٠٧).

السادس، المسامحة، وهي ترك مالا يجبّ تركه على سبيل التورع، قال الله تعالى:

﴿وان كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وإن تصدّقوا خير لكم﴾ [سورة البقرة: ٢٨٠].

قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم:

من أنظر معسراً أو وسّع له أظلّه الله تحت ظلّ عرشه يوم القيامة، يوم لا ظلّ إلّا ظلّه(٣٠٨).

← ورواه المجلسي، عن كتاب بشارة المصطفىٰ في بحار الأنوار ج ٧٧، الحديث ١، ص ٢٦٨، بنفس العبارة.

(٣٠٦) قوله: السماح رباح.

أخرجه الهندي في كنز العمال ج ٦، الحديث ١٦٠٦٠، ص ٣٦١.

(٣٠٧) قوله: كن سمحاً.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٣٣: كن سَمَحاً ولا تكن مُبذِّراً.

(٣٠٨) قوله: من أنظر معسراً.

رواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب البيوع، (باب ما جاء في إنظار المُعسر)، الحديث ١٣٠٦، ص ٥٩٩، بإسناده عن رسول الله (ص)، قال: «مَن أنظر مُعسراً أو وَضَعَ له، أضلّه الله يوم القيامة تحت ظلّ عرشه، يوم لا ظلّ إلّا ظلّه».

وروى الكليني في الروضة من الكافي ج ٨، ص ٢، الحديث ١، بإسناده عن الإمام الصادق (ع)، رسالة له إلى جماعة الشيعة، وفيها: «إيّاكم وإعسار أحد من إخوانكم المسلمين أن تعسروه بالشيء يكون لكم قبله وهو مُعسر، فإنّ أبانا رسول الله (ص) كان

←

السابع، المروّة، وهي بذل ما لابدّ من إفادته عرفا، قال الله تعالىٰ:

﴿ولا يأتل أُولوا الفضلِ منكم والسّعة أن يُؤتوا أُولي القربىٰ﴾ [سورة النور: ٢٢].



← يقول: ليس لمسلم أن يعسر مسلماً، ومن أنظر مُعسراً أظلّه الله بظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه».

وروى مثله الشهيد الثاني أيضاً في كتابه مسكّن الفؤاد في الخاتمة، ص ١٠٥، عن جابر ابن عبدالله، عن رسول الله (ص).

الفصل السادس
في الأنواع الّتي تحت العدالة، وهي أربعة عشر

الأوّل، الصّداقة، وهي محبّة صادقة بحيث لا يزيد لنفسه شيئاً إلّا ويزيده بالخليل أوّلاً مع إيثاره على نفسه في الخيرات، قال النّبي عليه السّلام:

كونوا عباداً لله اخواناً(٣٠٩).

ومن الأحاديث الرّبّانيّة:

أين المتحابّون فيّ أظلّلهم في ظلّي يوم لا يظلّ إلّا ظلّي.

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السّلام:

أعجز النّاس مَنْ عَجَزَ عن اكتساب الإخوان وأعجزُ منه مَن ضيّع من ظَفِرَ به مِنهم(٣١٠).

الثّاني، الألفة، وهي اتفاق الآراء في المعاونة على تدبير المعيشة، قال الله تعالىٰ:

﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذكنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣].

ومن كلام النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم:

الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف(٣١١).

---

(٣٠٩) قوله: كونوا عباداً.

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ٢٧٧، بإسناده عن رسول الله (ص)، وجاءت نفس العبارة في تفسير مجمع البيان في تفسير سورة الشورىٰ الآية ١٣: «أقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فيه».

(٣١٠) قوله: أعجز النّاس...

نهج البلاغ، قصار الحكم، الرّقم ١٢.

(٣١١) قوله: الأرواح جنود.

وقال: المؤمن إلف مألوف(٣١٢).

الثالث، الوفاء، وهو ملازمة طريق المواساة ومحافظة عهود الخلطاء.

قال الله تعالىٰ:

﴿وأوفوا بالعهد﴾ [سورة الأسراء: ٣٤].

﴿بلى مَن أوفىٰ بعهده واتّقىٰ فإنّ الله يُحبّ المتقين﴾ [سورة آل عمران: ٧٦].

الرابع، التودّد، وهو طلب مودّة الأكفاء وأهل الفضل بما يستلزم محبّتهم من حسن اللقاء وأمثاله.

قال النّبي عليه السّلام: التودّد نصف العقل(٣١٣).

← رواه الصدوق في أماليه في المجلس ٢٩، الحديث ١٦، ص ١٢٥، في حديث بإسناده عن الإمام الباقر (ع)، فراجع. ورواه أيضاً في كتابه علل الشرايع، باب ١٦١ (علّة استلام الحجر الأسود)، الحديث ٧، ص ٤٢٠، بإسناده عن أبي عبدالله الإمام الصادق (ع).

وأخرجه ابن حنبل، بإسناده عن النبيّ (ص) في مسنده ص ٢٩٥.

وأخرجه أيضاً مسلم في صحيحه، كتاب البرّ، باب ٤٩ (باب الأرواح جنود مجنّدة)، ج ٤، الحديث ١٥٩، ص ٢٠٣١.

(٣١٢) قوله: المؤمن إلف مألوف.

رواه المجلسي في بحار الأنوار ج ٦٧، ص ٣٠٩، الحديث ٤١، عن كتاب (الشهاب) عن النبيّ (ص).

وروى الكليني في أصول الكافي ج ٢، ص ١٠٢، الحديث ١٧ (باب حُسن الخُلق)، بإسناده عن الإمام الصادق (ع)، عن أمير المؤمنين (ع) قال: «المؤمن مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

وأخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ٤٠٠، والغزالي في إحياء العلوم ج ٢، ص ١٥٨، باب فضيلة الألفة.

(٣١٣) قوله: التودّد إلى الناس.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ١٤٢.

ورواه المجلسي في البحار ج ١، ص ٢٢٤، عن كتاب كنز الكراجكي، عن رسول الله (ص)، وأيضاً رواه في ج ٧١، عن السرائر، عن النبيّ (ص).

وقال: إنّ من المعروف أن تلقي أخاك بوجه طلق[٣١٤].

الخامس، المكافاة، وهي مقابلة الإحسان بمثله أو زيادة، قال الله تعالىٰ:

﴿وإذا حيّيتم بتحيّة فحيُّوا بأحسن منها أو رُدّوها﴾ [سورة النّساء: ٨٦].

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله:

من أوتي معروفاً فليكافي به فإن لم يستطع فليذكره فإن ذكره فقد شكره[٣١٥].

السادس، حسن الشركة، وهو الإعتدال في المعاملات.

قال الله تعالىٰ:

﴿ويلٌ للمطفِّفين * الّذين إذا اكتالوا على النّاس يستوفون * وإذا كالوهم أو وَزَنوهم يُخسِرون﴾ [سورة المطففين: ٣].

وقال:

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ [سورة البقرة: ١٨٨].

وفي موضع آخر:

﴿فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا النّاس أشياءهم﴾ [سورة الأعراف: ٨٥].

السابع، حسن القضاء، وهو ترك المنّ والندم في المجازاة، قال الله تعالى:

﴿هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان﴾ [سورة الرحمن: ٦٠].

الثامن، صلة الرّحم، وهي مشاركة ذوي القرابة في الخيرات الدنيويّة، قال الله

---

(٣١٤) قوله: إنّ من المعروف.

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج٦، ص ٣٤٤.

وروى الكليني في أصول الكافي ج ٢، باب حسن البشر، الحديث ٣، ص ١٠٣، بإسناده عن أبي جعفر الباقر (ع)، قال: أتىٰ رسول الله (ص) رجل، فقال: يا رسول الله أوصني، فكان فيما أوصاه أن قال: «ألق أخاك بوجه منبسط».

(٣١٥) قوله: من أوتي معروفاً...

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج٦، ص ٩٠.

تعالىٰ:

﴿والّذين يصلون ما أمر الله أن يوصل﴾ [سورة الرعد: ٢١].

وقال:

﴿وآتَى المال علىٰ حُبِّه﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

وقال النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم:

افشوا السّلام، واطعموا الطعام، وصلوا الأرحام(٣١٦).

وقال:

ما من شيء أطمع الله فيه بأعجل ثواباً من صلة الرّحم(٣١٧).

التّاسع، الشفقة، وهي صرف الهمّة إلى إزالة مكروه عن النّاس، قال النّبي عليه السّلام:

إن أحدكم مرآة أخيه فإنّ رأى به أذى فليمط عنه(٣١٨).

---

(٣١٦) قوله: افشوا السّلام...

رواه البرقي في كتابه (المحاسن)، باب الإطعام، الحديث ٣، ص ٣٨٧، بإسناده عن الصادق (ع)، قال: «جمع رسول الله (ص) بني عبدالمطّلب فقال: يا بني عبدالمطّلب! أفشوا السّلام، وصلوا الأرحام، وتهجّدوا والنّاس نيام، وأطعموا الطّعام، وأطيبوا الكلام تدخلوا الجنّة بسلام».

وأخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٥، ص ٤٥١.

(٣١٧) قوله: ما من شيء أطمع الله فيه.

روى الكليني في أصول الكافي ج ٢، باب صلة الرّحم، ص ١٥٢، الحديث ١٥، بإسناده عن الباقر (ع)، قال: قال رسول الله (ص): «إنّ أعجل الخير ثواباً صلة الرّحم».

وروى المفيد أيضاً في حديث في أماليه، المجلس ١١، الحديث ٨، ص ١١٠، بإسناده عن أبي جعفر الباقر (ع)، قال: في كتاب أمير المؤمنين.... «وإنّ أعجل الطّاعة ثواباً لصلة الرّحم».

ومثله رواه الصّدوق في الخصال، الحديث ١١٩، ص ١٢٤، باب الثلاثة.

(٣١٨) قوله: إنّ أحدكم مرآة أخيه.

وقال:

المؤمن مرآة المؤمن لأنّه سامله فيسد فاقته وكمل حالته[٣١٩].

ومن كلامه:

الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا مَن في الأرض يَرْحَمكم مَن في السّماء[٣٢٠].

العاشر، اصلاح ذات البين، وهو التوسط بين النّاس في الخصومات بما يدفعها، قال الله تعالى:

﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾ [سورة الحجرات: ١٠].

﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ [سورة الأنفال: ١].

وفي موضع آخر:

﴿لا خير في كثير من نجواهم إلّا مَن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين النّاس﴾ [سورة النساء: ١١٤].

الحادي عشر، التوكّل، وهو ترك السّعي فيما لايسعه قدرة البشر، قال الله تعالى:

﴿ومَن يتوكّل على الله فهو حسبه﴾ [سورة الطلاق: ٣].

وقال:

﴿وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين﴾ [سورة المائدة: ٢٣].

الثاني عشر، التسليم، الإنقياد لأمر الله وترك الإعتراض على ما لا يلائم الطبع من

← أخرجه الترمذي في جامع الصحيح ج ٤، باب ما جاء في سفقة، الحديث ١٩٢٩. ورواه الغزالي في إحياء العلوم ج ٢، ص ٢٠٨.

(٣١٩) قوله: المؤمن مرآة المؤمن.

رواه ابن شعبة في وصيّة أمير المؤمنين لكميل بن زياد. تحف العقول، ص ١٧٣.

(٣٢٠) قوله: الراحمون يرحمهم...

أخرجه الترمذي في جامع الصحيح، كتاب البرّ، ج ٤، باب ما جاء في رحمة المسلمين، الحديث ١٩٢٤، ص ٣٢٣، بإسناده عن رسول الله (ص).

وراجع أيضاً بحار الأنوار ج ٧٧، ص ١٦٧، الحديث ٤.

أفعاله وأفعال أهله، قال الله تعالى:

﴿فلا وربّك لا يؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لايجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلّموا تسليماً﴾ [سورة النساء: ٦٥].

الثالث عشر، الرّضا، وهو طيب النفس فيما يصيبه ويفوته مع عدم التغيّر، قال الله تعالى:

﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ [سورة الحديد: ٢٣].

الرابع عشر، العبادة، وهي تعظيم الله وأهله من الأنبياء والأولياء والأئمّة وأمتثال الأوامر والنّواهي الشّرعيّة، قال الله تعالى:

﴿واعبد ربّك حتّى يأتيك اليقين﴾ [سورة الحجر: ٩٩].

وقال:

﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم﴾ [سورة النساء: ٥٩].

هذا آخر بحث الأخلاق وأنواع فضائلها بحكم الحديث النّبوي ومناسبته لهذا الّذي سبق ذكره، بأنّ النّبيّ عليه السّلام حيث ضمّه إلى بحث الكلمات وجب إنضمامه إلى بحثها.

ووجه آخر، وهو أنّ هذا كلّه أيضاً كلمات الله المعنويّة، ومع أنّه كلمات الله المعنويّة يتعلّق بكلمات الله الصوريّة الآفاقيّة، فكان الكلّ بحث واحد، وفائدة ذلك لايخفى على أهله، والله أعلم وأحكم، وهو يقول الحقّ وهو يهدي السّبيل.

البحث الخامس
في تحقيق الكلمات من حيث التوحيد

إعلم، أنّ قوله:

أوتيت جوامع الكلم(٣٢١).

معناه: إنّي جئت جامعاً للكلمات الوجوديّة الآفاقيّة المسمّاة بالمظاهر الإلهيّة، أعني جئت حتّى أجمعها بحكم التوحيد الذّاتي من كلمة واحدة جامعة للكلمات كلّها كالإنسان مثلاً، أو الوجود المطلق الحقّ تعالىٰ وحده، فإن الوجودات الخاصّة كالكلمات المتعدّدة المنحصرة كلمة الوجود المطلق، الّتي هي كلمة واحدة، حصر المقيّدات تحت المطلق، والخاصّ تحت العام.

ثمّ الكلمة في حرف واحد الّذي هو التّعيّن الأوّل الموسوم بالباء.

ثمّ في النّقطة الوجوديّة المركزيّة الموجبة للتميز بين العبد والرّبّ، كما سبق ذكرها، المشار إليها في الخبر:

بالباء ظهر الوجود، وبالنّقطة تميّز العابد عن المعبود(٣٢٢).

وتفصيل ذلك، وهو أنّه صلّى الله عليه وآله، حيث كان سابقاً وخاتماً خصّ به المبتدائيّة والمنتهائيّة، والخفاء والظّهور، فرتبة خاتميّته يقتضي الظّهور والكشف، ومرتبة مبدائيّته يقتضي الخفاء والكمون، ولهذا في زمان آدم وغيره من الأنبياء عليهم السّلام لم يكن للتّوحيد هذا الظّهور والكشف، وكأنّه يقول: جئت لإظهار التّوحيد الذّاتي وأسراره وحقايقه على أتمّ مايكون، وكنّى بهذا الجمع الكلمات، حيث كان

---

(٣٢١) قوله: أوتيت جوامع الكلم.

وقد أشرنا إليه سابقاً في تعليقتنا الرقم ٢٢.

(٣٢٢) قوله: بالباء ظهر الوجود.

القائل هو محيي الدين عربي، الفتوحات المكيّة ج ١، ص ١٠٢. وقد أشرنا إليه في الجزء الأوّل، ص ٢١١.

الوجود كما يقرّر، ككتاب جامع للكلمات المذكورة من أنواع الموجودات. فحينئذٍ كما يرجع العارف من الآيات القرآنيّة إلى الكلمات ومن الكلمات إلى الحروف، ومن الحروف إلى النقطة قهقراً ويعرف من إطلاعه على النقطة حقايق القرآن كلّها أو أكثرها. فكذلك العارف بالوجود والكتاب الآفاقي فإنّه يرجع من الآيات الّتي هي كلّيّات العالم من العرش والكرسي واللّوح والقلم والسّماوات والأرض إلى الكلمات الّتي هي المركّبات من المعدن والنّبات والحيوان على الخصوص أو العالم مطلقاً على العموم إلى الحروف الّتي هي البسايط من الأفلاك والعناصر والحقايق والماهيّات ومن الحروف إلى حرف واحد الّتي هي الباء المعبّر عنها بالتعيّن الأوّل والخليفة الأعظم، ومن تلك الحرف إلى النّقطة الّتي تحتها ليحصل له بإطلاعه على تلك النّقطة والباء، الإطلاع على جميع حقايق العالم أو على بعضها، وذلك يتعلّق بالإستعداد والسرّ، وإليه الإشارة يقول العارف:

«العلم نقطة كثّرها الجهّال»(٣٢٣).

وهذا البحث بالنسبة إلى هذه المقدّمات طول وعرض، وبالنسبة إلى التوحيد طول آخر، وقد خصّ ذلك بالمقدّمة السّابعة من المقدّمات السبعة، وهذا إيماء وإشارة بالنسبة إلى ذلك والحق تكفي الإشارة، وحيث قيل:

خير الكلام ما قلّ ودلّ ولم تملّ.

ونحن في بحث الكلمة، فالإقتصار في الكلام يكون مستحسناً.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وهذا آخر المقدمة الرابعة المتعلّقة بالكلمات الآفاقيّة وتحقيقها، وإذا فرغنا منها فلنشرع في الخامسة وبالله التوفيق.

---

(٣٢٣) قوله: العلم نقطة.

رواه ابن أبي جمهور الأحسائي في عوالي اللّئالي ج ٤، ص ١٢٩، الحديث ٢٢٣.

المقدّمة الخامسة

في تحقيق الآيات الآفاقيّة وتطبيقها بالآيات القرآنية على سبيل الإجمال والتفصيل مطابقة بالآيات الأنفسيّة

إعلم، أن آيات الله تعالىٰ ليست مخصوصة بالآيات القرآنيّة وغيره من الكتب السّماويّة، بل كلّ ما في الوجود من الموجودات العينيّة والخارجيّة، روحانيّة أو جسمانيّة يصدق عليها أنّها آيات الله الآفاقيّة كما سبق ذكرها مراراً، لأنّا إذا بيّنا أنّ العالم بأسره كتاب الله الجامع وحروفه مفردات العالم، وبسايطه وكلماته مركّبات العالم ومشخّصاته، وآياته كلّيّات العالم وأنواعه، فقد تحقق أنّ الموجودات كلّها آياته لكن هذا يكون إجماليّاً لا تفصيليّاً والمراد ههنا تفصيليّ، فلنشرع ونقول:

إعلم انّه قد سبق في تأويل قوله تعالىٰ:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ﴾ [سورة فصّلت: ٥٣].

أنّ الآفاق يجب أن يكون كتاباً جامعاً للآيات والكلمات والحروف، وكذلك الأنفس لأن الآيات لايكون مركّبة إلّا من الكلمات كما أنّ الكلمات لايكون مركّبة إلّا من الحروف، والكلمات والحروف لايكون مجتمعة إلّا في الكتاب، لأنّ الآيات كما هي عبارة عن هيئة جامعة مركّبة من الكلمات، فكذلك الكلمات فإنّها عبارة عن هيئة جامعة مركّبة من الحروف، وكذلك الحروف فإنّها عبارة عن هيئة جامعة من النقط، والنقط والحروف والكلمات والآيات لايكون مجتمعة إلّا في الكاب، فبهذا الإعتبار وبمقتضى هذا التّرتيب سمّي العالم كتاباً جامعاً، وما في ضمنه من الموجودات حروفاً وكلماتاً وآياتاً، والحكمة في ذلك أنّ الكتاب القرآني وآياته وكلماته وحروفه كما هو

سبب تجلّي الحقّ للخلق في صورة هذه الثلاث ظاهراً وباطناً بحكم الخبر المذكور:

لقد تجلّى الله لعباده في كتابه ولكن لا يبصرون (٣٢٤).

يكون الكتاب الآفاقي كذلك، أي سبباً لتجلّي الحقّ في صورة مخلوقاته وموجوداته صورةً ومعنىً بحكم الآية وما يتبعها من الآيات، وهي قوله:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ أو لم يكف بربك انّه على كلّ شيء شهيد * ألا انّهم في مرية من لقاء ربّهم ألا انّه بكلّ شيء محيط﴾ [سورة فصّلت: ٥٣ ـ ٥٤].

وكان قوله تعالى كما أشرنا إليه مراراً:

﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدىٰ منهما أتّبعه إن كنتم صادقين﴾ [سورة القصص: ٤٩].

إشارة إلى هٰذين الكتابين أي الآفاقي والأنفسي، لأنّه ليس هناك كتاب أهدىٰ منهما إلى الله تعالىٰ أصلاً وأبداً، لأنّه لو كان ما أخبر الله تعالىٰ بهذا في حقّهما وخبر الله تعالىٰ لايكون خلاف الواقع قطّ لأنّ تصوّر هذا يوجب الكفر فكيف بالوقوع، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وإذا عرفت هذا،

فاعلم، أنّ قوله:

﴿إنّ في خلق السّمٰوات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار والفلك الّتي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السّماء من ماء فاحيا به الأرض من بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرياح والسّحاب المسخّر بين السّماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [سورة البقرة: ١٦٤].

إشارة إلى تعيين آياته الآفاقيّة كالأفلاك والأجرام والعلويّات والرّوحانيات، لأنّ المراد بالسّماوات، الرّوحانيّات العلويّات، وبالأرض، الجسمانيّات السّفليّات، وهذا إخبار بالظّرف عن المظروف، كما قال في حقّ نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم.

---

(٣٢٤) قوله: لقد تجلّى الله.

قد مرّت الإشارة إليه في تعليقتنا الرقم ١٢، في الجزء الأول، ص ٢٠٧.

لولاك لما خلقت الأفلاك (٣٢٥).

ومعناه أي، لولا أنت وأهل بيتك لما خلقت العالم وما فيه، لأنّ الأفلاك ظرف العالم، والعالم مظروفه، فكذلك السّماوات والأرض، وقيّد تعقل هذا المعنى بقوم يكون لهم هذا الإستعداد والقابليّة من حيث تصرّف العقول في الأشياء ومعارفها، لأنّه لو كان بالنسبة إلى طايفة أعلى منهم لقال: أولو الألباب وأولو النهي كما قال في موضع بقوله:

﴿إنّ في ذلك لآيات لأولي النُّهىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٢٨].

﴿إنّ في ذلك لذكرىٰ لِأُولي الألباب﴾ [سورة الزّمر: ٢١].

وذلك لأنّ مرتبة الإدراك التعقّل الصّرف في الأزل، ثمّ يصعد إلى العقل بالفعل، ثمّ العقل المستفاد، ثمّ إلى اللّبّ، ثمّ إلى النّهىٰ، ثمّ إلى فوق ذلك من البصيرة والكشف والشّهود الّذي هو آخر المراتب لقول النبيّ صلّى الله عليه وآله:

إنّ للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن (٣٢٦).

كما بيّناه بقسيمه في المقدّمة الأولى.

وأمّا قوله:

﴿الله الّذي رفع السّموات بغير عمدٍ ترونها ثمّ استوىٰ علىٰ العرش وسخّر الشّمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمّىً يُدبّر الأمر يُفصّل الآيات لعلّكم بلقاء ربّكم توقنون * وهو الّذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كلّ الثّمرات جعل فيها زوجين اثنين يُغشي اللّيل والنّهار إن في ذٰلك لآيات لقوم يتفكّرون * وفي الأرض قطع مُتجاورت وجنّات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يُسقىٰ بماء واحد ونفضّل بعضها علىٰ بعض في الأُكُل إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾ [سورة الرّعد: ٢ ـ ٤].

---

(٣٢٥) قوله: لولاك لما خلقت الأفلاك.

قد أشرنا إليه في تعليقتنا الرقم ١٦٧، الجزء الأوّل، ص ٥٤٨.

(٣٢٦) قوله: إنّ للقرآن ظهراً.

راجع الجزء الأوّل تعليقتنا الرقم ١٠ و ١١، ص ٢٠٣.

(في أنّ مبادئ الإدراك ثلاثة: الكشف والتفكّر والتعقّل)

فذلك تصريح بمطلوبنا، وهو أن الموجودات كلّها آيات الله الّتي هي في ضمن الكتاب الآفاقي، ومع ذلك فيه رعاية الترتيب المذكور من الإدراكات لأنّ المرتبة الأولىٰ الّتي هي مرتبة أرباب اليقين والكشف والشّهود، ذكرها في الأولى وخصّصها بالعلويّات كالعرش والكرسي والأفلاك والأجرام وما يتعلّق بها من الشّمس والقمر وجريانها وقيّد المجموع باللّقاء والرؤية والكشف والمشاهدة، لقوله: بلقاء ربّكم يوقنون. ومعلوم أنّ اليقين خصوصاً عين أو حقّ اليقين نهاية المراتب في الكشف والشّهود، لقوله تعالىٰ في حق إبراهيم عليه السّلام:

﴿وكذلك نُرِيَ إبراهيم ملكوتَ السّمٰوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ [سورة الأنعام: ٧٥].

ولقول أمير المؤمنين عليه السّلام حيث كان في هذا المقام:

لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً(٣٢٧)

والمرتبة الثّانية، مرتبة أرباب الفكر والمتوسّطين من أهل السّلوك، ذكرها في الوسط وخصّصها بالأرض وما يتعلّق من الموجودات المركّبة كالجبال والبحار والأنهار والأشجار، واختلاف الليل والنهار، لقوله:

﴿وهو الّذي مدّ الأرض ...﴾ [سورة الرعد: ٣].

وعلّة خصوصيّة الفكر بأرباب الأوساط دون أهل الكتاب لأنّ في البداية والوسط ليس الفكر بمذموم كما هو في الأخير والنّهاية، فإنّ في النهاية طرح الأفكار وإسقاط تصرّف العقول واجب، كما قال العالم الرّباني عليه السّلام:

عرفت الله بترك الأفكار(٣٢٨).

---

(٣٢٧) قوله: لو كشف الغطاء.

راجع شرح الغُرر والدُّرر للآمدي ج ٥، ص ١٠٨، الرقم ٧٥٦٩، وأيضاً شرح «المائة كلمة للبحراني» ص ٥٢ الكلمة الأولى.

(٣٢٨) قوله: عرفت الله.

وكما قال النّبي عليه السّلام:

لا تتفكّروا في ذات الله بل تتفكّروا في آلاء الله (٣٢٩).

لأنّه كان عارفاً بأنّ الفكر معزول عن تلك الحضرة، مطروح على سدنة بعض الأبواب.

والمرتبة الثّالثة، الّتي هي مرتبة المبتدئين وأرباب التعقّل الصّرف، ووظيفة العوام، وأهل الظّاهر، ذكرها في الأخير لأنّهم بالنّسبة إلى هذا التّرتيب كأنّهم من القشريّين بالنّسبة إلى اللّبّ ولبّ اللّبّ. لقوله تعالى:

﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدُّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [سورة الرّوم: ٧].

وهذا ترتيب من العِلو إلى السّفل ومن الأشرف إلى الأدون، وهذا مستحسن عند الأكثر، بل الوجود ترتيبه على هذا النسق كما سبق ذكره بوجوه مختلفة، ومن هذا قال فيهم:

﴿فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً﴾ [سورة النساء: ٧٨].

والتّفقّه، التفكّر في العلوم والحقايق المستخرجة من الآيات والكلمات، والّذي أورد من لسانهم في القيامة أيضاً دالّ على ذلك، وهو قولهم:

﴿لو كنّا نسمع أو نعقل ماكُنّا في أصحاب السعير﴾ [سورة المُلك: ١٠].

ومعلوم انّهم بحسب الظّاهر كانوا يسمعون ويعقلون لكن من حيث الباطن الّذي هو الفكر والتّصرّف في المعاني كانوا غافلين عنه محجوبين عن دركه كما قال تعالى فيهم:

﴿أفلا يتدبّرونَ القرآن أم علىٰ قلوبٍ أقفالها﴾ [سورة محمد: ٢٤].

← قال أمير المؤمنين (ع): عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم، وحلّ العقود، ونقض الهِمم. نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٢٤٩.

(٣٢٩) قوله: لا تتفكّروا في ذات الله.

راجع تعليقتنا الرقم ٧٢ و ١٠٠.

وقال:

﴿وكأيّن من آية في السّمٰوات والأرض يمرّون عليها وهم عنها مُعرِضون﴾ [سورة يوسف: ١٠٥].

وهذه الآية من جملة البراهين القاطعة على دعوانا بأنّ السّماوات والأرض وما بينهما آيات الله وكلماته وأمثال ذلك كثيرة في القرآن مثل قوله:

﴿ومن آياته خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [سورة الرّوم: ٢١].

وقوله:

﴿ومن آياته أن خَلَقكم من تُراب ثُمّ إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [سورة الرّوم: ٢٠].

وقوله:

﴿ومن آياته خلق السّمٰوات والأرض وما بثّ فيهما من دابّة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ [سورة الشورى: ٢٩].

وقوله:

﴿ومن آياته خلق السّمٰوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم باللّيل والنّهار وابتغاؤكم مِن فضله إنّ في ذٰلك لآيات لقوم يسمعون﴾ [سورة الرّوم: ٢٢ ـ ٢٣].

وقوله:

﴿إنّ في السّموات والأرض لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يَبثّ من دابّة آيات لقوم يوقنون﴾ [سورة الجاثية: ٤].

وقوله:

﴿واختلاف اللّيل والنّهار وما أنزل الله من السّماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرّياح آيات لقوم يعقلون﴾ [سورة الجاثية: ٥].

وقوله:

﴿ومن آياته يُريكم البرق خوفاً وطَمَعاً يُنزّل من السّماء ماءً فيُحيي بـه الأرض بعد موتها إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ [سورة الرّوم: ٢٤].

وقوله:

﴿ومن آياته أن تقوم السّماء والأرض بأمره ثمّ إذا دعاكم دعوةً مِـن الأرض إذا أنتم تخرجون * وله مَن في السّموات والأرض كلٌّ له قانتون * وهو الّـذي يـبدؤا الخلق ثمّ يُعيد وهو أهون عليه وله المثل الأعلىٰ في السّموات والأرض وهو العـزيز الحكيم﴾ [سورة الرّوم: ٢٥ ـ ٢٧].

وبل ثلث القرآن يكون مشتملاً على ذكر الآيات وترتيبها وتحقيقها، والكلّ شاهد على ما ذهبنا إليه، والّذي شهد به القرآن: بأنّ العالم المسمّىٰ بالآفاق والكتاب الكبير مشتمل على آياته وكلماته وحروفه.

وإذا عرفت هذا،

(في انّ مطالعة القرآن، كما هي مخصوصة وشاملة إلى أهل الظاهر والباطن معاً فكذلك مطالعة آيات الله الآفاقيّة)

فاعلم، أنّ مطالعة آيات القرآن كما هي مخصوصة بطوايف مختلفة من الّذين سبقت ذكرهم بالنّسبة إلى أهل الظّاهر كعلماء العـربيّة بـأسرها كـاللّغة والنّـحو والصّرف والمعاني والبيان وغير ذلك من الأصول والفروع والحديث، والأخبار المـنحصرة في السّبعة إجمالاً تطبيقاً بالقول النّبوي:

انّ للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن. (قد مرّ في الرقم ٣٢٧).

وأمّا بالنّسبة إلى أهل الباطن، فكالعالم بعلم التوحيد وأسراره وحـقايقه، وعـلم الذّات والصّفات والأفعال، وعلم النبوّة والولاية والرّسالة، وعلم الوحـي والإلهـام والكشف، وعلم الإسلام والإيمان والإتقان، وعلم الحشر والنّـشر والمبدأ والمعاد، وعلم البرازخ المبتدائيّة والمنتهائيّة، وعلم الثّواب والعقاب، وأمثال ذلك المنحصرة في

السبعة أيضاً إجمالاً لا تفصيلاً مطابقاً للظّاهر، لأنّ لكلّ ظاهر باطن كما أنّ لكلّ باطن ظاهر، فكذلك مطالعة آيات الله الآفاقيّة. فإنّها أيضاً مخصوصة بطوايف مختلفة من أهل الظّاهر وأهل الباطن.

أمّا أهل الظّاهر، فنهم المتدبّر والمتفكّر والمتعقّل والمؤمن والمتفقّه والمتوسّم والمتذكّر كما سبق ذكرهم عند بحث التّقوىٰ.

وأمّا أهل الباطن، فنهم المتّقين، والمحقّق، والموحّد، والعارف، والكامل، والراسخ، وقد شهد القرآن بتعداد هذه الطوايف كلّها كما عرفتها في المقدّمات السابقة.

فالطايفة الأولى مثلاً كما يمكن تخصيص المعاني المذكورة بهم بالطايفة الأخيرة، منهم الّذي هو العالم، فكذلك الطّايفة الثانية فإنّه يمكن تخصيص المعاني المخصوصة بهم من حيث الباطن بالطّايفة الأخيرة، منهم الّذي هو الرّاسخ لأنّ الأعلى منهم دائماً جامع للأدون من غير العكس حتّى الأخير فإنّه جامع للكلّ، وقد عرفت هذا أيضاً في بحث الرّسالة والنبوّة والولاية، وخصوصيّة مشرب كلّ واحد منهم بنفسه دون الغير، فإنّ مشرب الولاية ليس مشرب النبوّة، ولا مشرب النبوّة مشرب الرّسالة، وكذلك جميع المراتب والأطوار المشتملة على الإدراكات والمشارب المتناهية بحسب الكلّيّات الغير المتناهية بحسب الجزئيّات، لقوله تعالىٰ:

﴿يُسقىٰ بماء واحد ونُفضّل بعضها علىٰ بعض في الأُكُل﴾ [سورة الرعد: ٤].

فإنّ هذا إشارة إلى كثرة المشارب مع أنّها في الحقيقة واحدة، لقوله تعالىٰ:

﴿وما أمرنا إلّا واحدة﴾ [سورة القمر: ٥٠].

وذلك يعرف من أطوار الإنسان وإدراكاته في كلّ طور من أطواره مثلاً، فإنّ إدراك الطّفل الرّضيع فوق إدراك الجنين، مع أنّ الجنين له إدراك خاصّ، وكذلك الطفل المتميّز فإنّ إدراكه فوق إدراك الطفل الرّضيع مع أنّ الرّضيع له إدراك خاصّ، وكذلك الشّابّ العاقل فإنّ إدراكه فوق إدراك الطّفل المتميّز، وكذلك الرجل الكهل بالنّسبة إلى الشّاب، وكذلك الشّيخ بالنسبة إلى الكهل، فكذلك كلّ طايفة من الطوايف السّبعة المذكورة كالعارف والمحقق، والموحّد، والموقن، والكامل، والمكمّل، والرّاسخ، فإنّ

إدراك كلّ واحد منهم خلاف ذلك الآخر كالولاية، والّذي في طورها بالنّسبة إلى النّبوة، وكالنبوّة والّذي في طورها بالنسبة إلى الرّسالة، وكالرّسالة والّذي في طورها، فإنّها الغاية.

فالطّايفة الّتي طورهم إدراكات المحسوسات هم محرومون من إدراكات العقول كالبهائم بالنّسبة إلى الإنسان، والطايفة الّتي طورهم إدراكات المعقولات هم محرومون من إدراكات أهل الشّهود، وأرباب الذّوق وأرباب الشّهود إلى أهل الولاية كذلك، وأهل الولاية بالنسبة إلى النّبوة كذلك، وأهل النّبوة بالنّسبة إلى الرّسالة كذلك، وفوق كلّ ذي (علم) عليم، ولهذا يكون الوليّ دائماً تابعاً للنبيّ، والنبيّ تابعاً للرّسول، لأنّه ليس فوق إدراك الرّسالة مدرِك، وتلك الإمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلّا العالمون.

والغرض من ذلك كلّه أنّ العالِم بالعلوم السبعة المذكورة المخصوصة بالطايفة السبعة المعلومة، كما أنّه إذا نظر إلى آية من آيات القرآن حصل له المعاني السّبعة المذكورة دون الطوايف الّتي هم تحته، فالعالم الرّاسخ في العلوم السّبعة المخصوصة بهم كذلك، فإنّه إذا نظر إلى آية من آيات الكتاب الآفاقي له المشاهدة السّبعة المخصوصة بالطّايفة السبعة.

(في كيفيّة مطالعة أهل الظاهر وأهل الباطن في القرآن والآفاق)

فكما أنّ مطالعة آيات القرآن ومشاهدة معانيه وأسراره ليس إلّا وظيفة أرباب العقول السّليمة المتمكّنون من استخراج المعارف والحقايق منه، فكذلك مطالعة آيات الآفاق، ومشاهدة معانيه وأسراره ليس إلّا وظيفة أرباب الكشف والذّوق المتمكّنون من الإطلاع على حقايقها ودقايقها لقوله تعالى:

﴿وما يعلم تأويله إلّا الله والرّاسخون في العلم﴾ [سورة آل عمران: ٧].

فأرباب الظّاهر بالنسبة إلى القرآن كأنّهم وقفوا على تحصيل العلوم الظاهرة السبعة المتعلّقة بالقرآن ولا تجاوزوا عنها من علم اللغة والنحو، والصرف، والقراءات، والتّفسير والأحكام الظّاهرة والقصص والأمثال وغير ذلك.

وأرباب الباطن ما رضوا بهذا بل شرعوا فيه بحسب التأويل واستخرجوا منه المعاني الشريفة والمعارف الدّقيقة مطابقاً للظاهر غير مانعة عنه. فكذلك أرباب الظّاهر بالنّسبة إلى الآفاق وآياته فإنّهم وقفوا على مشاهدة الملك وعالم الحسّ الظاهر من الأفلاك السّبعة العلويّة، أو العناصر والمواليد السّبعة السّفليّة ولا يتجاوزوا عنها بل رضوا بمعرفة ظواهرها والمشهور منها.

وأرباب الباطن مارضوا به بل شرعوا في مشاهدة الملكوت وعالم الغيب من العقول والنّفوس والأرواح المجرّدة المندرجة تحت تلك العوالم، لقوله تعالى:

﴿بيده ملكوت كلّ شيء﴾ [سورة يس: ٨٣].

حتّى شاهدوا ما شاهدوا وعرفوا ما عرفوا وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فكلّ من شاهد وطالع الكتابين المذكورين على الوجه المذكور والترتيب المعلوم استدلّ من الأوّل على الثّاني، ووصل من اللفظ إلى المعاني وصعد من الملك إلى الملكوت ومن الملكوت إلى الجبروت، وشاهد وعرف أنّ جميع ما في الوجود الموجودات الروحانيّة والجسمانيّة اللّطيفة والكثيفة آية من آيات الله، وعلامة من علاماته يستدلّ بها على ذاته وصفاته وأقواله، لقوله:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيءٍ شهيدٌ * ألا إنّهم في مرية من لقاء ربّهم ألا إنّه بكلّ شيء محيط﴾ [سورة فصّلت: ٥٣ ـ ٥٤].

لأنّ هذه الأمّة مخصوصة بهذه المشاهدة فقط كما بيّنّاه مراراً وسنبيّنها إن شاء الله، وفيه قيل:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد(٣٣٠)

فويل ثمّ ويل على من يكون محروماً من هذه المطالعة، ممنوعاً من هذه المشاهدة

---

(٣٣٠) قوله: وفي كلّ شيء له آية، (شعر).

ذكره ابن عربي في الفتوحات ج ١، ص ١٨٤، ونسبه إلى العتاهيّة المتوفّى ٣١٠.

موقوفاً على ظواهر الآيات، وظواهر الأشياء، داخلاً في حكم قوله تعالىٰ:

﴿يعلمون ظاهراً من الحيٰوة الدّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [سورة الرّوم: ٧].

وكأنّه تعالىٰ بالنسبة إليهم قال:

﴿هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً * الّذين ضلّ سعيهم في الحيٰوة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يُحسنون صنعاً * أولئك الّذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نُقيم لهم يوم القيامة وزناً * ذلك جزاؤهم جهنّم بما كفروا واتّخذوا آياتي ورسلي هُزُواً﴾ [سورة الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٦].

والآيات الدالّة على مذمّة هؤلاء الّذين غفلوا عن مطالعة آياته القرآنيّة ومشاهدة آياته الأنفسيّة كثيرة، وذِكر الكلّ متعذّر لكن لابدّ من بعضها تنبيهاً وتعريضاً قبل أن نشرع في إتمام البحث الّذي كنّا في صدده، فمن الآيات قوله تعالىٰ:

﴿واتل عليهم نبأ الّذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتْبَعَهُ الشّيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولٰكنّه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه فَمَثَلُهُ كمثل الكلب إن تَحمِل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الّذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلّهم يتفكّرون * ساء مثلاً القوم الّذين كذّبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون * من يهد الله فهو المهتدي ومن يُضلل فأُلٰئك هم الخاسرون﴾ [سورة الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٨].

فإنّ هذا وإن كان خاصّ بقصّة بلعام بن باعورا، الّذي كان من علماء اليهود وأحبارهم، لكن هو خطاب إلى عموم المسلمين وتفريع لهم على سبيل التّنبيه والإستهزاء، ويدلّ عليه قوله:

﴿فاقصص القصص لعلّهم يتفكّرون﴾، إلى آخره [سورة الأعراف: ١٧٦].

لأن بلعام بسبب إعراضه عن مطالعة آياته المعنويّة كالقرآن، وآياته الصّوريّة كالآفاق صار مسخاً بصورة الكلب أو الخنزير على اختلاف الرّوايات صورةً كان أو معنىً، وعلى جميع التقادير صار مستحقاً لغضب الله وسخطه نعوذ بالله منه.

ومنها قوله تعالىٰ:

﴿سأصرف عن آياتي الّذين يتكبّرون في الأرض بغير الحقّ وإن يروا كلّ آيةٍ لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرّشد لا يتّخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغيّ يتّخذوه سبيلاً ذٰلك بأنّهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * والّذين كذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالُهم هل يجزون إلّا ما كانوا يعملون﴾ [سورة الأعراف: ١٤٦ ـ ١٤٧].

فإنّ هذا قريب إلى القول الأوّل لفظاً ومعنىً.

ومنها قوله تعالىٰ:

﴿قال ربّ لِمَ حشرتني أعمىٰ وقد كنتُ بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتَها وكذٰلك اليوم تُنسى﴾ [سورة طه: ١٢٦].

وقوله تعالىٰ:

﴿فمَن أظلم ممّن كذّب بآيات الله وصَدَفَ عنها سنجزي الّذين يصدِفون عن آياتنا سوءَ العذاب بما كانوا يَصدِفون﴾ [سورة الأنعام: ١٥٧].

وقوله تعالىٰ:

﴿وأمّا الّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاءِ الآخرة فأولٰئك في العذاب محضرون﴾ [سورة الرّوم: ١٦].

وقوله تعالىٰ:

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقّ فبأيّ حديث بعدَ الله وآياته يؤمنون﴾ [سورة الجاثية: ٦].

وقوله تعالىٰ:

﴿إذا تُتلىٰ عليهم آياتنا قالوا أساطير الأوّلين * كلّا بل رانَ علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلّا إنّهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون﴾ [سورة المطفّفين: ١٣ ـ ١٥].

وقوله تعالىٰ:

﴿ أفلا يتدبّرون القرآن أم علىٰ قلوبٍ أقفالها ﴾ [سورة محمّد: ٢٤].

ومعلوم أنّ هذه الأقوال راجعة إلى جماعة هم معرضون عن آياته، إمّا بالإنكار وعدم القبول مطلقاً كالكفّار والمشركين والمنافقين واليهود والنصارىٰ والمجوس وأمثالهم، وإمّا بالإعراض عنها وعدم القيام بعجائبها وإدراك معانيها.

وعند التحقيق أكثر هذه الإشارات إشارة إلى المعرضين عنها بعد القبول والإقرار بها كالمسلمين المنحرفين عن فحاويها على ماهي عليها في نفس الأمر والواقفين على ظواهرها آفاقيةً كانت الآيات أو قرآنية، والّذي يفهم من هذه الأقوال وهو أنّه تعالى نظره كان على الآيات الآفاقيّة أكثر ويعضد ذلك قوله:

﴿وكأيّن من آية في السّمٰوات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ﴾ [سورة يوسف: ١٠٥].

وقوله:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّىٰ يتبيّن لهم أنّه الحقّ أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيءٍ شهيدٌ * ألا إنّهم في مرية من لقاء ربّهم ألا إنّه بكلّ شيءٍ محيط ﴾ [سورة فصّلت: ٥٣ ـ ٥٤].

﴿أوَ لَمْ يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله السّموات والأرض وما بينهما إلّا بالحقّ وأجل مسمّىً وإنّ كثيراً من النّاس بلقاءِ ربّهم لكافرون ﴾ [سورة الرّوم: ٨].

وبالجملة جعل المنكر لآياته الآفاقيّة والقرآنيّة مطلقاً، والمقرّ الّذين لا يقوم بها على ماهي عليها تارة كالكلب وتارة كالبهائم وتارة كالسبع، وتارة كالمشرك، وتارة أعمى، وتارة أصمّ، وتارة أبكم، وفاسقاً ومحجوباً، وغافلاً وميّتاً، ومريضاً، حتّى جعلهم شرّ الدّوابّ، لقوله:

﴿إنّ شرّ الدّوابّ عند الله الصمُّ البُكمُ الّذين لايعقلون ﴾ [سورة الأنفال: ٢٢].

والدليل على ذلك غيرما قلناه قبل هذا، قوله:

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩].

وقوله:

﴿لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتي في الصدور﴾ [سورة الحج: ٤٦].

وقوله:

﴿صمّ بكمٌ عميٌ فهم لايعقلون﴾ [سورة البقرة: ١٧١].

وقوله:

﴿ولا تكونوا كالّذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون * إنّ شرّ الدّوابّ عند الله الصمّ البكم الّذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم مُعرِضون﴾ [سورة الأنفال: ٢٢].

وغير ذلك من الأقوال لأنّ هذا الصمّ والعمى والبكم وغيرها من الأوصاف ليس بحسب الصّورة لأنّهم بحسب الصّورة كانوا يسمعون وينطقون ويبصرون بل كان بحسب المعنىٰ ويؤكّد ذلك قوله أيضاً:

﴿إنّك لا تُسمع الموتىٰ ولا تُسمع الصمّ الدّعاء إذا ولّوا مدبرين * وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تُسمِع إلّا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون * وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلّمهم أنّ النّاس كانوا بآياتنا لا يوقنون * ويوم نحشر من كلّ أُمّةٍ فوجاً ممّن يكذّب بآياتنا فهم يوزعون * حتّى إذا جاءوا قال أكذّبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أمّاذا كنتم تعملون * ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾ [سورة النمل: ٨٠ ـ ٨٥].

وهذا إشارة إلى عمائهم وعدم إستعدادهم في المعاد بسبب إنكارهم الآية وعدم شروعهم فيها بحسب البصيرة والباطن دون البصر والظّاهر حتّى جعلهم كافراً، لقوله:

﴿وكذٰلك أنزلنا إليك الكتاب فالّذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هٰؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلّا الكافرون﴾ [سورة العنكبوت: ٤٧].

ولقوله:

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [سورة المائدة: ٤٤].

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ [سورة المائدة: ٤٧].

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظّالمون﴾ [سورة المائدة: ٤٥].

فكيف يكون حال طايفة يكونون هم أعظم من الملائكة في الشّرف والرّتبة، وبل أشرف من جميع الموجودات والمخلوقات في الصّورة والمعنى، بأفعالهم واهمالهم أوامر الله تعالىٰ ومشاهدة آياته في الآفاق والأنفس والقرآن الجامع بينهما بحيث يسميهم الله تعالىٰ كافراً وكلباً وخنزيراً ومنافقاً ومشركاً ودوّابا، ويجعلهم أحسن منهم في الدنيا والآخرة، نعوذ بالله من هذا، فيجب على كلّ عاقل حينئذ الإنتباه من نوم الغفلة، والتّيقظ من رقدة الجهالة، فإنّ العاقل لايرضىٰ لنفسه أن يكون متصفاً بهذه الأوصاف، مخلّقاً بهذه الأخلاق، لأنّه إذا تنبه وتيقظ ورجع إلى الله تعالى بالتّوبة والإنابة، وقام بعبادته حقّ العبادة فتح عين بصيرته وكشف عن عين قلبه غطاء الأنانيّة والغيريّة وأدخله في عبادة الّذين حصل لهم هذه المطالعة في آياته القرآنيّة والآفاقيّة، ووصلوا إلى مشاهدته فيهما كشفاً وعياناً وذوقاً ووجداناً وصار من الّذين يشربون من رحيق مختوم ختامه مسك من جنّات الذّات والصّفات والأفعال والمعارف والحقايق مطلقاً، لقوله تعالى فيهم:

﴿كلّا إنّ كتاب الأبرار لفي علّيّين * وما أدراك ما علّيّون * كتاب مرقوم * يشهده المقرّبون * إنّ الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يُسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * عيناً يشرب بها المقرّبون﴾ [المطفّفين: ١٨ ـ ٢٨].

وإن لم يفعل ذلك ويبق على حاله الّذي هو عليه من الجهل والغفلة يكون حاله بعكس ذلك في العاجل والآجل، والمبدأ والمعاد ويصير مستحقّاً للحميم والزّقوم والغسلين ويدخل مدخل الفجّار والكفّار والأسرار، لقوله تعالى فيهم:

﴿هذا وإنّ للطاغين لشرّ مئابٍ * جهنّم يصلونها فبئس المهاد * هذا فليذوقوه حميم وغسّاق﴾ [سورة ص: ٥٥ ـ ٥٧].

ويصدق عليه كل ما يصدق عليهم، لقوله تعالى أيضاً:

﴿إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين * وما أدراك ما سجّين * كتاب مرقوم * ويل يومئذ للمكذّبين * الّذين يُكذّبون بيوم الدّين * وما يكذّب به إلّا كلّ معتدٍ أثيم * إذا تُتلىٰ عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين * كلّا بل ران علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلّا إنّهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون * ثمّ إنّهم لصالوا الجحيم * ثمّ يقال هذا الّذي كنتم به تكذّبون﴾ [سورة المطفّفين: ٧ ـ ١٧].

وكلّ ذلك لعدم مطالعته الآيات القرآنيّة الجمعيّة وعدم مشاهدته الآيات الفرقانيّة الآفاقيّة.

والحمد لله الّذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونعم ما قال تعالى جلّ ذكره بالنّسبة إلى الطايفة الأخيرة الموسومة بالفجّار الّتي هي في مقابلة الأبرار وهو قوله:

﴿إنّ الّذين أجرموا كانوا من الّذين آمنوا يضحكون * وإذا مرّوا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوْهم قالوا إنّ هؤلاء لضالّون * وما أُرسلوا عليهم حافظين * فاليوم الّذين آمنوا من الكفّار يضحكون * على الأرائك ينظُرون * هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ [سورة المطفّفين: ٢٩ ـ ٣٦].

والمراد بذلك أن في زمان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كانوا هناك جماعة يستهزئون بأهل الله وأرباب التّوحيد والتأويل ويتغامزون في حقّهم وينكرون على طريقتهم، لا اليوم خاصّة، وعند التّحقيق ليس إنكار هذا اليوم إلّا نتيجة ذاك اليوم لأنّ هؤلاء المنكرين الّذين هم في هذا الصّدد ليسوا إلّا أولادهم وأولاد أولادهم لقولهم:

﴿إنا وجدنا آباءَنا على أُمّةٍ وإنّا علىٰ آثارهم مقتدون﴾ [سورة الزّخرف: ٢٣].

نعوذ بالله منهم ومن أمثالهم، ونعم ما قال الشاعر في هذا المعنى:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ... أو كنت تعلم ما نقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي وعذلتني ... وعلمت أنّك جاهل فعذرتكا

﴿وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوّاً شياطين الإنس والجنّ﴾ [سورة الأنعام: ١١٢].

وإذا تقرّر هذا، وتحقّق أنّ مطالعة الآيات القرآنيّة موقوفة على مطالعة الآيات الآفاقيّة، وثبت أنّ معرفة الله تعالى حقيقة أعني من حيث الكشف والشهود موقوفة على مطالعتها فلنشرع في تأويل بعض الآيات المتعلّقة بهذا البحث لئلّا يتوهّم الجاهل أنّ هذا الكلام كلام من غير أصل ولا حاصل له، لأنّ كلّ شخص يكون عارياً عن فضيلة لايصدّق بوجود تلك الفضيلة في بعض آخر وبل ينكر عليه.

في انّ معرفة الحقيق موقوفة علىٰ مطالعة القرآن والآفاق معاً

وهذا البحث وهذا التأويل نجعله في قاعدتين:

الأولىٰ، في تأويل قوله تعالىٰ:

﴿سنُرِيهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ [سورة فصّلت: ٥٣].

والثّانية، في قوله تعالى:

﴿الله نور السّمٰوات والأرض﴾ [سورة النور: ٣٥].

ونبسط فيها الكلام على ما ينبغي ليتحقّق عندك هذا البحث على ماهو عليه في نفس الأمر والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.

القاعدة الأُولىٰ

التّي هي في تأويل قوله:

﴿سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ [سورة فصّلت: ٥٣].

فاعلم، أنّ قوله: سنريهم إلى آخره، معناه أنّه يقول لعباده المخلصين: سنكمل عين بصيرتكم بنور عنايتنا وهدايتنا ليحصل لكم بذلك استعداد مطالعة آياتنا الآفاقيّة والأنفسيّة وقابليّة مشاهدتنا العيانيّة في ضمن كلّ واحدة منها ويتبين لكم أنه ليس في الوجود غيرنا وغير أسمائنا وصفاتنا وأفعالنا لأنّ غيرنا ليس إلاّ العدم المحض واللّا شيء الصّرف، ولهذا قال العارف من عبادنا: ليس في الوجود سوى الله تعالىٰ وأسمائه وصفاته أفعاله فالكلّ هو وبه ومنه وإليه، وقلنا نحن بأنفسنا:

﴿كلّ شيءٍ هالك إلّا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ [سورة القصص: ٨٨].

ليعلم أنّ كلّ ما يقع على إسم الشيء غير ذاتناً فهو هالك في نفس الأمر أزلاً وأبداً لأن الوجود المضاف إليه وجود مجازي عارضيّ اعتباريّ في معرض الزّوال والهلاك دائماً أبداً، ولهذا أكّدنا بقولنا أيضاً وقلنا:

﴿كلّ من عليها فانٍ ويبقىٰ وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾ [سورة الرّحمٰن: ٢٧].

لأنّ الكلّ عند التحقيق معرض الفناء والهلاك حيث ماله وجود حقيقي، وفيه قيل:

البـاقي بـاق في الأزل والفـاني فـان لم يـزل

وقيل في جواب، : كان الله ولم يكن مع شيء: الآن كما كان(٣٣١).

لأنّه ليس في الحقيقة معه غيره، لأنّ غيره عدم صرف ولا شيء محض وليه له قوّة المعيّة مع الوجود، ولا الحقّ تعالى جلّ ذكره:

والوجه باتّفاق عبارة عن وجوده وذاته وحقيقته فيكون تقديره أنّ كلّ شيء غير

---

(٣٣١) قوله: وقيل في جواب.

راجع تعليقتنا الرقم ١٦ و ١٦٣، وفي الجزء الأوّل الرقم ٨٧ و ٨٨، ص ٣٥٢.

ذاته ووجوده وحقيقته، فان هالك مضمحلّ، وهذا هو الصّحيح الواقع لقوله أيضاً:

﴿هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم﴾ [سورة الحديد: ٤].

لأنّ الأوصاف الأربع شامل لجميع الجهات وجميع الأوصاف المترتبة عليها ولهذا قال:

﴿فأينما تولّوا فثمّ وجه الله﴾ [سورة البقرة: ١١٥].

لأنّ الوجه ليس إلّا الذات، والذّات هو الوجود، والوجود هو المحيط المطلق، وجميع الأشياء محاطاته ومقيّداته كما قال:

﴿إنّه بكلّ شيء محيط﴾ [سورة فصّلت: ٥٤].

وإذا تقرّر هذا،

فاعلم، أنّ المحيط لا ينفك عن المحاط ولا المحاط عن المحيط ومع ذلك لايكون مخصوصاً بمحاط دون محاط ولا بجهة دون جهة بل يكون بالنّسبة على الكلّ على سواء، وهذا يسمّىٰ إحاطة وجوديّة ومعيّة عامّة.

فأمّا الإحاطة الصفاتيّة والمعيّة الفعليّة فتلك للأنبياء والرّسل والأولياء والكمّلين وتلك أعزّ من الكبريت الأحمر والغراب الأبيض وقد سبق ذكرها مراراً.

وأمّا المعيّة العامّة الوجوديّة فتلك معلوم من قوله:

﴿إنّه بكلّ شيء محيط﴾ [سورة فصّلت: ٥٤].

لكن قوله تعالىٰ عقيب الآية:

﴿أوَ لم يكف بربّك انّه علىٰ كلّ شيء شهيد * ألا انّهم في مرية من لقاء ربّهم ألا انّه بكل شيء محيط﴾.

يشهد بذلك صريحاً، لأنّه يقول على سبيل التنبيه، أي لم يكف لعبادنا في مشاهدتنا إنّهم يشاهدونا في كلّ ذرّة من ذرّات الوجود ومظهر من مظاهره في كلّ لمحة ولحظة وبل في كلّ آن حتّى يرجعون لقاءنا وينتظرون شهودنا في مشهد غير هذا المشهد ويوم غير هذا اليوم وكيف يمكن مشاهدة المحيط بدون مشاهدته في المحاط أو مع المحاط وكيف يتصوّر مشاهدة المطلق بدون مشاهدة المقيّد لأن المحاط عين المحيط

بوجه وإن كان بوجه آخر غيره، كذلك المقيّد فلا يمكن حينئذ مشاهدة المحيط إلّا في المحاط، ولا مشاهدة المطلق إلّا في المقيّد ولهذا قال،

أعلم الخلق بذلك وهو نبيّنا صلّى الله عليه وآله:

من عرف نفسه فقد عرف ربّه (٣٣٢).

وقال:

من رآني فقد رأى الحقّ (٣٣٣).

وقال غيره:

ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله فيه قبله (٣٣٤).

وقال أمير المؤمنين عليه السّلام:

مع كلّ شيء لا بمقارنة وغير كلّ شيء لا بمزايلة (٣٣٥).

ليعلم أنّ المقارنة يكون بين الشيئين أو بين الجسمين وليس هناك في الحقيقة إلّا

---

(٣٣٢) قوله: من عرف نفسه فقد عرف ربّه.

راجع الجزء الأوّل ص ٢٤٣ تعليقتنا الرقم ٣٠.

(٣٣٣) قوله: من رآني فقد رأى الحقّ.

أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الرؤيا باب قول النبيّ (ص) من رآني...) ج ٤، ص ١٧٧٦، الحديث ٢٢٦٧، بإسناده عن النّبي (ص). وابن حنبل أيضاً في مسنده ج ٣، ص ٥٥، وج ٥، ص ٣٠٦. وذكره المجلسي أيضاً نقلاً عن كتب السنّة، في البحار ج ٦١، ص ٢٣٥. وأخرجه البخاري في مقدمة كتاب التعبير باب من رأى النّبي (ص) في المنام الحديث ١٨٣٠، ج ٩، ص ٦٥٣.

(٣٣٤) قوله: ما رأيت شيئاً.

رواه الصدر المتألهين عن أمير المؤمنين عليّ عليه آلاف التّحية والسّلام وكتابه مفاتيح الغيب ص ٦٠، وأيضاً رواه الفيض الكاشاني في (علم اليقين) عنه عليه السّلام ـ ورواه الشيخ الأكبر في الفتوحات ج ٣، ص ١١٦ باب ٣٣١ من غيره كما في المتن.

(٣٣٥) قوله: مع كلّ شيء.

نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

شيء واحد فكيف يتصوّر المقارنة بين الشيء ونفسه، كذلك المزايلة فإنّ المزايلة هي إزالة الشيء عن شيء آخر وليس هناك شيئان حتّى يتصوّر هذا فلا يزول الشيء عن نفسه أصلاً، ولهذا قال عليه السّلام:

وإنّه لَبِكُلِّ مكانٍ ومع كلِّ إنس وجانٍّ، وفي كلّ حينٍ وأوان (٣٣٦).

وقال:

ولا يُجِنُّه الظهور عن البطون ولا يقطعه البطون عن الظهور ظهر فبطن، وبطن فعلن، وقرب فنال، وعلا فدنا، ودان ولم يُدَن (٣٣٧).

وقال:

والشاهد لا بمماسّة، والباطن لا بتراخي مسافةٍ، والظاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة، بانَ من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها، وبانت الأشياءُ منه بالخضوع له والرّجوع إليه (٣٣٨).

وكلّ ذلك إشارة إلى وحدته الذاتيّة الوجوديّة، وظهوره في المراتب الأسمائيّة والصفاتيّة المسمّاة بالكلمات والآيات الإلهيّة مطابقاً للأقوال المتقدّمة.

وحيث إنّ هذا البحث يريد بسطاً غير هذا بعد أن بسطنا الكلام فيه غير مرّة، فلنشرع فيه في القاعدة الثّانية على سبيل البسط وهو هذا والله أعلم وأحكم.

---

(٣٣٦) قوله: وإنّه لَبِكُلِّ مكانٍ.

نهج البلاغة، الخطبة ١٩٥.

(٣٣٧) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٥ وفيه:

«ولا يُجِنُّه البطون عن الظهور، ولا يقطعهُ الظهور عن البطون، قرُب فنأىٰ، وعلا فدنا، وظهر فبطن، وبطن فعلن، ودان ولم يُدَن».

(٣٣٨) قوله: والشاهد لا بمماسّة.

نهج البلاغة، الخطبة ١٥٢.

وأمّا القاعدة الثّانية

الّتي هي في تأويل قوله:

﴿الله نور السّموات والأرض .... ﴾.

فاعلم، أنّ قوله:

﴿الله نور السّموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزّجاجة كأنّها كوكب دريّ يوقد مِن شجرة مباركة زيتونة لا شرقيّة ولا غربيّة .... ﴾ [سورة النور: ٣٥].

معناه: أي الله وجود السّماوات والأرض وما بينهما في الحقيقة، لأنّ النور بمعنى الوجود كما أنّ الظّلمة بمعنى العدم، لأنّه ليس في السّموات والأرض وما بينهما المعبّر عنه بالعالَم إلّا هو ووجوده، وإن قلت: هو الله الظاهر في السّماوات والأرض وما بينهما والكلّ مظهره، يكون تقديره: أن مثل نوره الّذي هو الوجود مثل نور حسّي في مشكاة فيها زجاجة وفي تلك الزّجاجة مصباح مضيئ أي مظهر لذاته ومظهر لِما عداه من الأجسام الشّفافة القابلة للإضاءة، والمشكاة في هذا المقام يكون عبارة عن عالم الأجسام مطلقاً، والزّجاجة عن عالم الأرواح مطلقاً، والمصباح عن عالم العقول مطلقاً، وبناء على هذا يكون معناه:

هو الله الحقّ الظّاهر في هذه المظاهر والمراتب كلّها بذاته والمظهر لغيره من الممكنات الموسومة بالمظاهر والمشكاة والزّجاجة والمصباح لأنّ النّور الحقيقي هو الّذي مظهر بذاته ويظهر الأشياء به كالشّمس مثلاً فإنّها كذلك، أعني هي ظاهرة بنفسها ومظهرة لغيرها، والحقّ تعالىٰ حيث كان كذلك وأظهر الأشياء بنفسه بعد أن كان ظاهراً بنفسه أزل الآزال وأبد الآباد سمّي بنفسه بالنّور وجعل النّور إسم من أسمائه وذلك لشدّة ظهوره بنفسه وظهور الأشياء به، وقد يقرّر في بحث الأسماء والمظاهر الأسمائيّة أنّ الشّمس من بين الموجودات وقعت مظهر إسمه النّور، وكذلك يوسف عليه السّلام وأثر ذلك ظاهر فيهما شايع من أثرهما، وتلك الأمثال نضربها

للنّاس وما يعقلها إلّا العالمون، وحيث كان نسبة الخلق إلى نوره الحقيق الخفافيش.

قال العارف:

خفي لافراط الظهور تعرضت لإدراكه أبصار قوم أخافش

وحظّ العيون الرزق من نور وجهه لشدّته حظّ العيون العوامش

وقد سبقت هذه الأبيات مرّةً أخرى.

والمراد أنّه من شدّة ظهور في مظاهر السّماوات والأرض المعبّر عنها بالمشكاة والمصباح والزّجاجة، وكمال إظهاره الأشياء شيئاً بعد شيء صار خفيّاً كأنّه غيب وغيره شهادة، والحال أنّ القضيّة بالعكس لأنّه الظّاهر في الحقيقة ظهوراً لا خفاء له أصلاً بوجه من الوجوه، وغيره خفي في الحقيقة خفاء لا ظهور له أصلاً بوجه من الوجوه، كما قال العارف بذلك في قوله السابق على هذه الأقوال وهو قوله:

العالم غيب لم يظهر قطّ والحقّ تعالىٰ هو الظّاهر ما غاب قطّ

والنّاس في هذه المسئلة على عكس الصّواب فيقولون: العالَم ظاهر والحقّ تعالىٰ غيب، فهم بهذا الإعتبار في مقتضى هذا الشّرك، كلّهم عبيد للسوىٰ وقد عاف الله تعالىٰ بعض عبيده عن هذا الدّاء والحمد لله.

والّذي ورد في الحديث القدسي انّه تعالى قال:

كنت كنزاً مخفيّاً فاحببت أن أعرف فخلقت الخلق (٣٣٩).

لا ينافي ما ذكرناه، فإنّ مراده هذا:

أي كنت مخفيّاً عن أعين المحجوبين فأردت أن أظهر في أعين المحبّين ففتحت عن بصيرتهم حتّى شاهدوني على الوجه المذكور وظهر لهم سرّ قول فيه:

﴿هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم﴾ [سورة الحديد: ٤].

وبالجملة نرجع إلى ماكنّا بصدده ونقول:

---

(٣٣٩) قوله: كنت كنزاً مخفيّاً.

راجع تعليقتنا الرقم ١٥٧.

حيث ثبت إنّه وجد كلّ ما وجد بوجوده وظهر كلّ ما ظهر بنوره فكان وجود السّماوات والأرض وما بينهما أي مُظهر سماوات الأرواح والرّوحانيات، وموجِد عالم الأجسام والجسمانيّات بل عين وجودهما ووجود ما فيها من الموجودات والمخلوقات، لأنّه هو الوجود المطلق الّذي به وجد كلّ ماوجد من الموجودات المقيّدة وبه ظهر كلّ ماظهر من المخلوقات المكنونة في كتم العدم المعبّرة عنها بالمشكاة والزّجاجة والمصباح على مابيّناه، بناءً على هذا طابق قولنا قوله:

سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله فالكل هو وبه ومنه وإليه قوله هو الأوّل والآخر والظّاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم.

وصدق في قوله من قال:

لقد ظهرت ولا تخفى على أحد   إلّا على أكمه لايعرف القمرا
لكن بطنتَ بما أظهرتَ محتجباً   فكيف يعرف من بالعرف متسترا؟

ويعرف سرّ هذا أيضاً من مولانا وسيّدنا سلطان الأولياء والوصيين أمير المؤمنين عليه السّلام جواباً لسئوال كميل بن زياد النخعي رضي الله عنه عن الحقيقة: نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد آثاره.

لأنّ النّور، إشارة إلى ذلك النّور، وإشراقه من صبح الأزل، إشارة إلى ظهوره بصورة المظاهر أزل الآزال من غير تصوّر تقديم زمان ولا مكان، وتلويحه على هياكل التوحيد وآثاره، إشارة إلى شدّة ظهوره بصورة الكثرة المرتفعة عنه التّوحيد الحقيقي المعبّرة عنها بالوجود الإضافي المسقط عند اسقاطه لقولهم:

التّوحيد اسقاط الإضافات.

وعند التحقيق لفظ الهياكل والمظاهر والمشكاة والزّجاجة والمصباح، الفاظ مترادفة صادقة على حقيقة واحدة باعتبارات مختلفة، وفيه قيل:

العين واحدة والحكم مختلف   وذلك سر لأهل العلم ينكشف

ومثال ذلك مثال وجه واحد في مقابلة مرايا كثيرة، فإنّ في كلّ مرآة منها يظهر وجه آخر على وضع تلك المرآة من غير تبديل وتغيير في الوجه المذكور كما قيل:

وما الوجه إلّا واحد غير أنّه إذا أنت أعددت المرايا تعدّدوا

وهذا البيت ناطق بجميع الأسرار التّوحيديّة لكن لايعرفها إلّا أهلها وليس الغرض ههنا هذا البحث، بل بحث الوجود والعدم والنور (و) الظّلمة وكيفيّة ظهور الحقّ بصور المظاهر الآفاقيّة والأنفسيّة، وبيان ذلك لا يتيسّر إلّا بعد تحقيق النّور والظّلمة والوجود والعدم عقلاً ونقلاً.

أمّا عقلاً، فالّذي ذكره الغزالي في مشكاة الأنوار وهو قوله [٣٤٠]:

لاظلمة أشدّ من كتم العدم، لأنّ المظلم يسمّى مظلماً لأنّه ليس للإبصار إليه وصولاً إذ ليس يصير موجوداً للبصر مع أنّه موجود في نفسه، والّذي ليس موجوداً لا لغيره ولا لنفسه كيف لايستحقّ أن يكون هو الغاية في الظلمة ففي مقابلته الوجود فهو النور لأنّ الشيء ما لم يظهر في ذاته لا يظهر لغيره.

وقال عقيبه:

والوجود أيضاً ينقسم إلى ما للشّيء في (من) ذاته، وإلى ماله من غيره، وماله الوجود من غيره فوجوده مستعار لا قوام له بنفسه بل إذا اعتبرته من حيث ذاته فهو عدم محض وإنّما هو موجود من حيث نسبته إلى غيره وليس ذلك بوجود حقيقيّ، فالموجود الحقيقي الحقّ هو الله تعالىٰ المسمّى بالنّور والوجود وله الوجود الحقيقيّ دون غيره وإليه أشار بقوله:

﴿كلّ شيء هالك إلّا وجهه الحكيم وإليه ترجعون﴾ [سورة القصص: ٨٨].

ويؤيّد ذلك أيضاً قوله عقيب الآيات المذكورة في صفة الكفّار:

﴿والّذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب﴾ [سورة النور: ٣٩].

﴿أو كظلمات في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات

(٣٤٠) قوله: فالّذي ذكره الغزالي.

ذكره في مشكاة الأنوار، الفصل الأوّل، ص ٤٦، ط القاهرة.

بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله نوراً فماله من نور﴾ [سورة النور: ٤٠].

لأنّ قوله: ﴿والّذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة....﴾.

إشارة إلى الّذين احتجبوا عن وجوده بوجود الغير وتقيّدوا به، وما شاهدوه على ماهو عليه، فإنّ أعمال هؤلاء وأفعالهم وأحوالهم واعتقادهم يكون كسراب بقيعة أي معدومات بأنفسها موجودات بحسبان غيرها بحيث إليه ذلك الغير لم يجده شيئاً بل يجده عدماً صرفاً ولا شيئاً محضاً، كما قال: ﴿فجعلناه هباءً منثوراً﴾، وقوله:

﴿أو كظلمات في بحر لجّي يغشاه موج من فوقه موج﴾ [سورة النور: ٤٠].

إشارة إلى حال هذا الكافر الّذي شاهد الغير مع وجوده، وتقديره: أنّ هذا الكافر مع هذا النّظر والاعتقاد والأعمال في ظلمات بحر التعيّنات والتقيّدات المعدومة في نفس الأمر يغشاه موج أي يغشاه موج التعيّنات الخارجيّة ساعة فساعة ويستغرقه في ظلمات بحر العدم وظلمات وبحر الطبيعة الكلّيّة الّتي لا نهاية لها ليحجبه عن مشاهدة الوجود المطلق المعبّر عنه بالحقّ تعالى جلّ ذكره ويبقى هو في الحجاب أبداً دائماً.

وقوله: من فوقه سحاب،

أي تراكم التعيّنات الغير المتناهية وظلمتها الّتي هي كالسّحاب بالنّسبة إلى شمس الوجود الحقيق ظلمات بعضها فوق بعض أي تعيّنات بعد تعيّنات وأمواج بعد أمواج إلى غير نهاية وهي على ثلاثة مراتب:

ظلمة محجوبيّته عن الحقّ بنفسه وأنانيّته.

وظلمة محجوبيّته عن الحقّ بتعيّنات عالم الملك.

وظلمة محجوبيته عن الحقّ بتعيّنات عالم الملكوت.

بحيث إذا أخرج يده لم يكد يراها، أي بحيث إذا أراد أن يخرج من هذه الظّلمات لم يتمكّن من شدّتها وصعوبتها وغلظها لأنّ الإخراج من الظّلمات مطلقاً موقوف على حصول النّور الّذي هو ضدّها خصوصاً الظّلمات المذكورة، لأنّ الإخراج منها بلا نور من الله تعالىٰ لايمكن أصلاً، وإليه الإشارة بقوله عقيبه فمن لم يجعل الله نوراً فماله من

نور، ولهذا أمر عباده بطلب النّور منه بقوله:

﴿ربّنا أتمم لنا نورنا﴾ [سورة : الآية ٨].

وقال في جوابهم، قيل:

﴿ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾ [سورة الحديد: ١٣].

حتّى يرجعون إلى ورائهم الّذي هو العدم والفناء، لقوله:

﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ [سورة مريم: ٩].

ويطلبون منه نور الشّهود الوجودي في عالم التّوحيد الحقيقي، وهذا هو المعبّر في إصطلاحهم الفناء في التوحيد، وذلك لأنّ ظلمات تعيّنات الوجود الإضافي لا يرتفع إلّا بنور الوجود الحقيقي، ومشاهدة الحقّ تعالى جلّ ذكره على الوجه المذكور، والأنبياء والأولياء دائماً كانوا يطلبون منه تعالى إستغراقهم في هذا النّور لكن تخلّصوا من ظلمات مشاهدة الغير مع وجوده، ومنهم نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم فإنّ له في هذا دعاء خاصّاً وهو قوله:

اللّهمّ اجعل لي نوراً في قلبي ونوراً في قبري ونوراً في سمعي، ونوراً في بصري، ونوراً في لحمي، ونوراً في دمي، ونوراً في عظامي، ونوراً في بين يديّ، ونوراً في خلفي، ونوراً عن يميني ونوراً عن شمالي، ونوراً من فوقي، ونوراً من تحتي، اللّهم زدني نوراً واعطني نوراً، واجعل لي نور الحقّ حبك يا أرحم الرّاحمين (٣٤١).

والغرض من ذلك كلّه، أنّ النّور بمعنى الوجود، والظّلمة وجوه:

منها، أنّ خيريّة النّهار بالنّسبة إلى اللّيل، والنّور إلى الظّلمة أمران نسبيّان إضافيّان

---

(٣٤١) قوله: اللّهمّ اجعل لي نوراً.

رواه الطوسي في مصباح المتهجّد في صلاة الصبح، في ركعتي الفجر ص ١٨٧ في دعاءٍ أوّله: «اللّهمّ إنّي اسئلك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، الدعاء.

وعنه البحار ج ٨٧، ص ٣٢١.

ورواه أيضاً النعمان المغربي في دعائم الإسلام ج ١، ص ١٦٦، عن الإمام الصادق (ع).

وعنه المجلسي في بحار الأنوار ج ٨٧، ص ٣٥٥.

غير موجودَين في الخارج لأنّ النّور عند الأكثرين عبارة عن عدم الظلمة، والظلمة عن عدم النور، وكذلك الظّل والحرور، فخيريّة كلّ واحد منهما بـالنّسبة إلى الآخـر ماهي معلومة حتّى يمكن الحكم بهما لأنّ الظلمة يككن أن يكون بالنّسبة إلى بعض المزاج خير من النور كالخفّاش مثلاً، فإنّ الظلمة بالنّسبة إليه خير من النور، وكذلك اللّيل فإنّه يمكن أيضاً أن يكون هو بالنّسبة إلى بعض المزاج خير من النّهار خصوصاً إلى بعض الزّهاد العباد ويعكس ذلك إلى بعض الفساق والفجّار، فأمّا العـدم فـقط لايكون خير من الوجود عند أحد أبداً، ولا الشرّ من الخير.

ومنها أنّ الظّلمة لو لم يكن بمعنى العدم ما سمّى الحقّ تعالىٰ القرآن الكريم بقوله:

﴿وما يستوي الأعمىٰ والبصير * ولا الظّلمات والنّور * والظّل والحـرور﴾ [سورة فاطر: ٢١].

لأنّ المراد بهما الوجود والعدم أو الموت والحياة، وتقديره أي هل يستوى الوجود والعدم والموت والحياة، والوجود خير من العدم، والحياة خير من الموت، لأنّ العدم شرّ محض بالإتّفاق، والوجود خير محض بالإتفاق، وأين الشرّ من الخير، والحياة من الموت، والسّؤال أيضاً على سبيل استفهام الإنكار ومعناه: أي هل يستوي الوجـود والعدم والموت والحياة، وجوابه: لا، أي لايستويان أبداً.

وإن قلت: لِمَ لا يجوز أن يكون المراد بالظّلمة الليل، وبالنّور النّهار وكذلك بالظلّ والحرور، البرودة والحرارة المعبّر عنهما بالشّتاء والصيف.

قلنا: يجوز ذلك لكنّ السئوال لايكون موجّهاً من عدم الإيمان عن قلب الكافر ظلمة، ولا الإيمان في قلب المؤمن، نوراً، لقوله:

﴿الله وليّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور والّذين كفروا أولـياؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون﴾ [سورة البقرة: ٢٥٧].

وورد هذا المعنى في اصطلاح الموحّدين عند تعريف الظلّ والنور والظلمة وغير ذلك، وهو قولهم:

الظلّ هو الوجود الإضافي الظاهر بتعيّنات الأعيان الممكنة وأحكامها الّتي هي معدومات ظهرت باسم النور الّذي هو الوجود الخارجي المنسوب إليها فتستر ظلمة عدميّتها النور الظّاهر بصورها صار ظلّاً لظهور الظلّ بالنّور وعدميّته في نفسه، قال الله تعالى:

﴿ألم ترَ إلى ربّك كيف مدّ الظلّ﴾ [سورة الفرقان: ٤٥].

أي بسط الوجود الإضافي على الممكنات فالظلمةُ بازاء هذا النّور هو العدم، وكلّ ظلمة فهو عبارة عن عدم النور عمّا من شأنه أن يتنوّر به قال الله تعالى:

﴿الله وليّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥].

وعلى جميع التقادير تعبيرهما بالوجود والعدم أنسب من غيرهما، ويؤكد ذلك أيضاً النقل الوارد عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو قوله:

خلق الله الخلق في ظلمة ثمّ رش عليه من نوره الحديث (٣٤٢).

فإنّ معناه ليس انّه تعالى خلق الخلق في ظلمة الليل أو ظلمة المكان المظلم بل انّه خلقهم في ظلمة للعدم وأوجدهم منها الّتي هي أعظم الظلمات وأعلاها ثمّ أعطاهم الوجود الخارجي الّذي هو أعظم الأنوار وأعلاها، وعند البعض ليلة القدر عبارة عن ليلة إيجاد الموجودات من كتم العدم وعالم الغيب وعالم العلم، ويوم القيامة عن إبرازهم وإظهارهم وإيجادهم في عالم الوجود وعالم الشهادة والظهور.

(في أنّ الأعيان الثابتة غير الثابتات الأزليّة)

وبيانه أوضح من ذلك هو أنّه عيّن أوّلاً ماهيّات الموجودات من كتم العدم تعيّناً علميّاً، بخلاف القول الأشعري وهو ثبوت العدم فيه، ثمّ رشّ عليهم من أنوار الوجود المطلق الحقيق نوراً معبراً بالوجود الإضافي أي رشّ عليهم وجوداً إضافياً نسبياً

---

(٣٤٢) قوله: خلق الله الخلق.

قد مرّت الإشارة إليه في الرقم ٢٦٨.

وذلك كان بإضافة الوجود المطلق إلى ماهيّة كلّ موجود ليصير به موجوداً في الخارج كما كان موجوداً في العلم، وقد عرفت مثال ذلك في صورة الحروف والكاتب، والوجودات الذّهني والخارجي والعود إلى ما سبق خلاف الأدب.

وإذا عرفت هذا وعرفت قاعدة أهل التحقيق في هذا المعنى، فلنشرع في تفصيل العوالم على الترتيب المعلوم في صورة المشكاة والزجاجة والمصباح وما يتعلّق بها ثمّ في تأويل باقي الآيات الّتي بعدها واحدة بعد أخرى.

(في أنّ النور هو الوجود الحقيق)

أمّا التفصيل فذلك على ما سبق:

أنّ النور هو الوجود الحقيق الإلهي والسّماوات والأرض وما بينهما مظاهرة العِلويّة والسفليّة في صورة المشكاة والزّجاجة والمصباح، فالمشكاة حينئذ يكون عالم الأجسام والجسمانيّات، والزّجاجة عالم الأرواح والرّوحانيّات، والمصباح عالم العقول والمجردات، ووجه المناسبة وهو أنّ الأنوار الإلهيّة المشرقة الطالعة من مشرق الوجود المطلق الحقّ على هياكل الموجودات والمخلوقات كما قال الإمام عليه السّلام:

نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التّوحيد آثاره.

تطلع أوّلاً على عالم العقول والمجردات الّتي هي كالمصباح من نوريّته ولطافته وقربه إلى الحضرة الأحديّة الإلهيّة، ثمّ على عالم الأرواح الّتي هي كالزّجاجة من صفاتها وقابليّتها الإشراق والإضاءة، ثمّ على عالم الأجسام الّتي هي كالمشكاة من ظلمتها وكثافتها وقابليّتها الإضاءة والإشراق بالتبعيّة، لأنّها قابلة للأرواح والإنتعاش (٣٤٣) بها كالمشكاة القابلة للأنوار من الزّجاجة، والزّجاجة من المصباح.

---

(٣٤٣) قوله: الإنتعاش.

لسان العرب: وانْتَعَشَ: والإنتعاش: رفعُ الرأس، وانْتَعَشَ العاثرُ إذا نهض من عثرتِه، ونعشْتَ الشجرة إذا كانت مائلة فأقمْتَها، والربيع ينعشُ النّاس: يعيشُهم ويخصبهم.

←

والمشكاة عند المفسّرين هي الكوّة (٣٤٤) في الحايط الّتي يكون فيها المصباح والزّجاجة، وأمّا الشجرة الموقدة منها هذا المصباح هي شجرة الوجود المطلق الّتي يستضي بها كلّ موجود مقيّد مضاف إليها من الموجودات المنسوبة إلى المصباح والزّجاجة والمشكاة والمظاهر والهياكل وغير ذلك. ونسبتها إلى الزّيت من كثرة إضائته بنور الوجود ومنافعه وإبقائه فإنّه كذلك، ووجه المناسبة بين الوجود والشجرة كثرة أغصانها وشعبها من الوجودات الإضافيّة المنسوبة إليه كالأغصان الصادرة عن الشجرة مع أوراقها وأزهارها وأثمارها، لأنّ الحقايق والماهيّات والذّوات كما تقرّر شؤون ذاتيّة كامنة في ذاته المقدّسة كالشجرة في النواة مثلاً مع أوراقها وأغصانها وأزهارها.

ووصفها بأنها لاشرقيّة ولا غربيّة، لأنّ الشرق الحقيقي هو عبارة عن عالم الأرواح والرّوحانيّات الّذي هو محل طلوع الأنوار الرّوحانيّة والنفوس المجرّدة.

والغرب الحقيقي عن عالم الأجسام والجسمانيّات الّذي هو موضع أفول الأرواح والرّوحانيّات، والوجود المطلق التذي هو النّور الحقيقي ليس من عالم الأرواح الصرف ولا من عالم الأجسام الصرف فلا ينسب إليهما بل هما ينتسبان إليه لأنّه المبدأ والمقسم، والمقسم من جميع الوجوه يكون غير القسيم، والمبدأ غير المنتهى.

ونسبة الزّجاجة بالكوكب الدّري يكون بسبب لطافته ونوريّته وإضائته.

وان قلت: هذه الأوصاف حاصلة للشّمس والقمر، ونورهما أعظم وضوئها أكثر فلم خصصه بالكوكب.

قلنا: إنّ نسبة نور الشّمس نسبة نور الله في الآفاق، ونسبة نور القمر نسبة نور

← المصباح المنير: (نَعَشَه) الله و(أنْعَشَهُ) أقامه.

الصحاح: والنعش: سرير الميّت، سمّي بذلك لارتفاعه.

المنجد: نعش نعشاً. نعشأهُ الله: رفعه وأقامه (تداركه من هلكة، جبره بعد فقر، والربيع الناسَ: أخصبهم وأحياهم.

(٣٤٤) قوله: الكوّة.

المصباح المنير: الكوّة تفتح وتضمّ، الثقبة في الحائط، والكُوّة بلغة الحبشة: المشكاة.

العقل، ونسبة الكواكب نسبة الأرواح الحسيّة المضيئة لكثرته وتفرقته على شبابيك الأجسام ومشكاتها فتخصيصه به أولى وأنسب لأنّ هذا النّور الواحد الّذي هو نور الله مثلاً إذا أشرق على المظاهر الكثيرة فلا يصل إلى كلّ واحد منها إلّا بقدر الكواكب لقلّة قابليّته وصغر ظرفه كالبصر مثلاً بالنّسبة إلى الشّمس فإنّها لا تشاهد الشّمس مع عظمة جرمها وكثرة شعاعها إلّا بقدر الترس أو القرص، وبوجه آخر مثاله مثال نور الشّمس أو القمر على الروازن الكثيرة والشبابيك المتعدّدة، أو كالماء الواحد النازل من ظرف واحد جامع فيه إذا نزل منه وانتثر على الهواء وانتشر فيه فإنّه لايرجع عنه إلّا بقدر الدّرة أو اللؤلؤ البيضاء الّتي هي كالكوكب في الإستدارة واللطافة، أو كالماء النّازل فإنّه في الأصل ماء واحد نازل عن أصل واحد كما قال تعالى:

﴿يُسقىٰ بماء واحد ونفضّل بعضها علىٰ بعض في الأُكل﴾ [سورة الرعد: ٤].

فإنّه يصير أيضاً قطرات كلّ قطرة كالدّرة البيضاء، وكالكواكب الّدري من لطافته واستدارته.

فكذلك نور الله الحقيق الّذي هو ماء الحياة الحقيقيّة الموصوفة بـ:

﴿وكان عرشه على الماء﴾ [سورة هود: ٧].

بمعنى العدم وأن معنى قوله تعالى:

﴿الله نور السّموات والأرض﴾ [سورة النور: ٣٥].

هو انّه نفس وجود السّماوات والأرض وموجدهما ومظهرهما، لأنّ السّماوات والأرض وما بينهما عند التّحقيق ظلمات بالنّسبه إلى نوره، لأنّها ظلال كدرة وتعيّنات مظلمة، مانعة من مشاهدة شمس وجوده الحقيقي كما شهدت به الآية المتقدّم شرحها في قوله:

﴿ظلمات بعضها فوق بعض﴾ [سورة النور: ٤٠].

ومن قوله:

﴿ألم ترَ إلىٰ ربّك كيف مدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكناً ثمّ جعلنا الشّمس عليه دليلاً * ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ [سورة الفرقان: ٤٥ ـ ٤٦].

فإنّ كلّ ذلك إشارة إلى ذلك المعنى أي النّور الوجود الحقيقي، وظلمة الوجود الإضافي المعبّر عن الأوّل بالحقّ، وعن الثاني بالخلق.

والله أعلم وأحكم هذا من حيث العقل والدّلايل العقليّة.

وأمّا من حيث النّقل والدّلائل النّقليّة، فالّذي ورد في بالنّسبة إلى الأرواح الصادرة منه المسمّاة بالمصباح والزّجاجة الّتي هي كالكوكب الدّري الموقد من الشّجرة المباركة الّتي هي الوجود المطلق والذّات الصّرف البحث يكاد زيتها أي زيت هذه الشّجرة الوجوديّة تضيئ بذاتها لو لم تمسه نار أي نار الأجسام الكدرة والأجساد المظلمة الّتي هي منبع الظّلمات الثلث المذكورة لأنّ النّور الإلهي المتعلّق بالأجسام والأجسام وترتيبها، لولا احتجابه بظلمات جلابيت البدنيّة والغواشي الحسيّة لاضاء بذاته ورجع إلى عالمه وشاهد ربّه بنوره وعرفه به على ماهو عليه في نفسه وقال بلسان الحال أو القال: عرفت ربّي بربّي ورأيت ربّي بربّي (٣٤٥)، وعرفت معنى قول العارف:

---

(٣٤٥) قوله: عرفت ربّي بربّي.

أقول: هناك أحاديث تبيّن لنا أنّ معرفة الله الحقيقيّة لاتحصل إلّا به، لأنّه أظهر من كلّ شيء بل لاظهور لما سواه إلّا به، وهذا هو الّذي يحصل للإنسان بالبرهان الصديقيّن لو صحّ أن نعبّر عنه بالبرهان.

فنذكر هنا طرفاً من تلك الأحاديث مزيداً للفائدة، وأمّا بيان كلّ ما ورد في هذا الموضوع وشرحها، وبيان برهان الصديقين وتطوّراته في كلمات الحكماء المتألهين وبيان الفرق بينه وبين الشهود، فيقتضي مقاماً آخر، وكتبنا فيه رسالة مستقلّة وبسطنا فيها الكلام.

وأمّا ما يناسب أن نذكر هنا من الأحاديث المذكورة فهي ما يلي.

الف ـ روى الكليني في الكافي ج ١، ص ٨٦ (باب أنّه لايعرف إلّا به) الحديث ٣، بإسناده عن الإمام الصادق (ع) أنّه قرّر قول القائل:

«إنّ الله جلّ جلاله أجلّ وأعزّ وأكرم من أن يعرف بخلقه بل العباد يعرفون بالله» فقال: رحمك الله.

وروى مثله الصدوق في التوحيد باب أنّه عزّ وجلّ لايعرف إلّا به الحديث ١، ←

. . . .

← ص ٢٨٥.

ب ـ روى الكليني في نفس المصدر الحديث ١، بإسناده عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: قال أمير المؤمنين: «اعرفوا الله بالله، الحديث، وروى مثله الصدوق أيضاً في نفس المصدر الحديث ٣، والحديث ٥.

ج ـ الصدوق في نفس المصدر الحديث ٤، بإسناده عن أمير المؤمنين في جواب الجاثليق في ما سئله وقال: أخبرني عرفت الله بمحمّد أم عرفتَ محمّداً بالله عزّ وجلّ؟ فقال أمير المؤمنين (ع):

«ما عرفتُ الله بمحمّد (ص) ولكن عرفت محمّداً بالله عزّ وجلّ»، الحديث.

د ـ الصدوق في التوحيد باب صفات الذات وصفات الأفعال الحديث ٧، ص ١٤٢، بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال:

اسم الله غير الله، وكلّ شيء وقع عليه اسم شيء فهو مخلوق ما خلا الله. فأمّا ما عبّرت الألسن عنه أو عملت الأيدي فيه فهو مخلوق، والله غاية من غاياه، والمُغَيّي غير الغاية، والغاية موصوفة وكلّ موصوف مصنوع، وصانع الأشياء غير موصوف بحدٍّ مسمّىً، لم يتكوّن فتُعرف كينونتُه بصنع غيره ولم يتناه إلى غاية إلّا كانت غيره، لا يذلُّ مَن فهم هذا الحكم أبداً، وهو التوحيد الخالص، فاعتقدوه وصدّقوه وتفهّموه بإذن الله عزّ وجلّ.

«ومَن زعَمَ أنّه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك، لأنّ الحجاب والمثال والصورة غيره وإنّما هو واحد موحَّدٌ، فكيف يوحِّد من زعم أنّه عرفه بغيره، إنّما عرف الله من عرفه بالله، فمن لم يعرفه به فليس يعرفه إنّما يعرف غيره، والله خالق الأشياء لا مِن شيء، يسمّى بأسمائه فهو غير أسمائه والأسماء غيره، والموصوف غير الواصف، فمن زعم أنّه يؤمن بما لا يعرف فهو ضالّ عن المعرفة، لا يُدرِك مخلوقٌ شيئاً إلّا بالله، ولا تُدرَك معرفة الله إلّا بالله، والله خلو من خلقه وخلقه خلو منه»، الحديث.

هـ ـ تحف العقول باب كلامه (ع) في وصف المحبّة، عن الإمام الصادق (ع) في حديث قال:

«من زعم أنّه يعرف الله بتوهّم القلوب فهو مشرك، ومن زعم أنّه يعبد الإسم دون المعنى فقد أقرّ بالطعن لأنّ الإسم محدَث، ومن زعم أنّه يعبد الإسم والمعنى فقد جعل مع

←

سبحان من لايصل إليه إلّا به.

← الله شريكاً، ومن زعم أنّه يعبد (المعنى) بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غايب، ومن زعم أنّه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد لأنّ الصفة غير الموصوف، ومن زعم أنّه يُضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغّر بالكبر»، «وما قدروا الله حق قدره».

قيل له: فكيف سبيل التوحيد؟ قال عليه السّلام:

باب البحث ممكن وطلب المخرج موجود، إنّ معرفة عين الشاهد قبل صفته، ومعرفة صفة الغائب قبل عينه، قيل: وكيف نعرف عين الشاهد قبل صفته؟ قال عليه السّلام:

تعرفه وتعلم علمه، وتعرف نفسك به ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك، وتعلم أنّ مافيه له وبه كما قالوا ليوسف:

﴿انّك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي﴾ [سورة يوسف: ٩٠].

«فعرفوه به ولم يعرفوه بغيره ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهّم القلوب»، الحديث.

و ـ جاء في دعاء السحر الّذي رواه أبو حمزة الثمالي عن الإمام السّجاد زين العابدين عليه السّلام:

«بك عرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدر ما أنت».

رواه الطوسي في مصباح المتهجد في أعمال شهر رمضان، (دعاء السحر في شهر رمضان) ص ٥٨٢، وذكره أيضاً السيّد ابن طاووس ص ١٤٩، في دعاء ليوم الرابع عشر من شهر رمضان، وجاء أيضاً في دعاء آخر لمولانا الحسن بن علي عليهما السّلام ذكره المجلسي في بحار الأنوار ج ٩٤، ص ١٩٠، الحديث ٣ نقلاً عن مهج الدعوات للسيّد ابن طاووس.

ز ـ جاء في دعاء الصباح لمولانا أمير المؤمنين عليه السّلام:

«يامن دلّ على ذاته بذاته».

راجع البحار ج ٩٤، ص ٢٤٣.

ح ـ وفي دعاء يوم العرفة لسيّد الشهداء أبي عبدالله الحسين صلوات الله عليه:

«كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتّى يكون هو المظهر لك، متى غبتَ حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، ومتى بعدت حتّى تكون الآثار هي الّتي توصل إليك، عميت عين لاتراك».

راجع اقبال الأعمال للسيّد ابن طاووس ص ٣٤٩، وبحار الأنوار ج ٩٨، ص ٢٢٥.

وقول الآخر:

سبحان من لايعرفه إلّا هو.

وذلك لأنّ كلّ من شاهد الرّبّ بالرّبّ والحقّ بالحقّ لابدّ وأنّ يشاهده على ماهو عليه في نفس الأمر أعني من حيث الكمالات لا من حيث الذّات لأنّ ذلك مستحيل ممتنع، ولهذا قال الإمام عليه السّلام:

لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً (٣٤٦).

وقال الآخر:

ليس وراء عبّادان قرية.

وهذا معنى قوله:

نور على نور، أي نور الحقّ على نور العبد، أو نور الذّات على نور البصيرة، أو نور العقل الكلّي على نور العقل الجزئي، فإنّ بذلك يحصل المعرفة التّامّة الكاملة.

وكذلك معنى قوله:

﴿يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للنّاس والله بكلّ شيء عليم﴾ [سورة النور: ٣٥].

لأنّ حصول هذه النّور يتعلّق بعنايته تعالىٰ خاصّة كما خصّصه هو بنفسه لاغير، ومثال ذلك مثال نور الشّمس في بيت مظلم يضاف إلى نور الشّمع ويصير نور على نور، فلذلك نور الله الحقيقي إذا أضاف إلى نور بصره العارف فإنّه يكون نور على نور.

وبوجه، وهو أنّ نور القمر مستفاد من الشمس بصحة التقابل، فكلّما قابل الشّمس استفاد منها بقدر المقابلة النّور والشمس أضافت عليه بقدر القابليّة بالتّدريج حتّى صار كذلك منها بدراً ولم يبق في القابليّة والفاعليّة من الطّرفين شيء من الإفاضة والإستفاضة فيجوز للعمىٰ في هذه الحالة أن يقول: رأيت الشّمس بالشّمس وعرفت

---

(٣٤٦) قوله: لو كشف.

قد مرّ في تعليقتنا الرقم ٣٢٧.

الشّمس بالشّمس، وشاهدت الشّمس بالشّمس، كما يجوز للعارف أن يقول رأيت ربّي بربّي، وعرفت ربّي بربّي، وشاهدت ربّي بربّي، حيث وقع العارف بالنّسبة إلى شمس الحقيقة الإلهيّة كالقمر بالنّسبة إلى الشّمس الصّوريّة الآفاقيّة لقوله تعالى:

﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ﴾ [سورة الأنفال: ١٧].

وهذا معنى قوله: ويضرب الله الأمثال للنّاس، أي ويضرب الله مثل هذه الأمثال للنّاس لعلّهم يتذكّرون المبدأ، ويتفكّرون في المعاد ويعرفون مابينهما ويقومون من وجودهم بالكلّ ويشاهدون الحقّ بعد فنائهم بغير الحقّ، لقولهم:

فلم أنظر بعيني غير عيني.

ولهذا قال:

﴿وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلّا العالمون﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣].

لأنّ غير العالم الحقيقي لايعقل هذا المعنى أصلاً وبل ينكر عليه إنكاراً لامزيد عليه كما قال:

﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور﴾ [سورة النور: ٤٠].

وذلك كلّ عبد ما حصل له هذا النّور وبقي في ظلمة أنانيّته واحتجابه وبُعده عن الحقّ بُعداً لايتصوّر فيه قرباً بوجه من الوجوه بعد عن المعرفة المذكورة والمشاهدة المعلومة وصار من المحجوبين الضّالّين المضلّين الّذين وصفهم الله بعد الآية بقوله:

﴿والّذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمئآن ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب﴾ [سورة النور: ٣٩].

﴿أو كظلمات في بحر لجّيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن يجعل الله له نور فماله من نور﴾ [سورة النور: ٤٠].

كما قد سبق تأويله وتفسيره مبسوطاً قبل هذا البحث بقليل ومراد الله، ومرادنا من ضرب المثال تقريب المعاني إلى الأذهان وذلك مستحسن عند الفصحاء وأرباب

البلاغة لأنّ تفهيم المعنى في عالم الحسّ في صورة المحسوس أسهل وأيسر لأنّه إلى الذّهن أقرب، وإلى هذا النّور والظّلمة أشار الحقّ تعالىٰ بالنّسبة إلى أحبائه وأعدائه وقال:

﴿الله وليُّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور والّذين كفروا أولياؤُهُم الطاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات أُولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون﴾ [سورة البقرة: ٢٥٧].

هذا مضىٰ، وههنا أبحاث شريفة.

وأمّا قوله: عقيب الآيات:

﴿والله بكلّ شيء عليم﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢].

فمعناه، أي والله بكلّ شيء من الأشياء الممكنة عالم أزل الآزال وأبد الآباد، وعالم باستعداده وقابليّته قبل وجوده في الخارج وظهوره في عالم الشّهادة لكن من حيث إنّه يجب عليه تنبيه وتعليمه ليصل به إلى ما خلق لأجله كما هو مقرّر في علمه جلّ ذكره فيجب عليه أيضاً إذا عرف عبد من أنّه قابل لشيء من تلك العلوم والمعارف وغيرها أن يجذبه إلى ذلك الشيء بأنواع الجذبات لئلّا يقع فعله عبثاً وفعله مهملاً، فالجذبة تارة يكون بالدعوة، وتارة بالإشارة، وتارة بالقهر على يد النّبي أو الإمام، وتارة بضرب المثال، وتارة بالقصص، وتارة بالإلهام ليتمكن العبد من الدخول إلى مطلوبه بواسطة هذه الوسائل وبسبب هذه الوسائط، وإليه أشار بقوله:

﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [سورة آل عمران: ١٦٤].

والّذي ورد في الحديث القدسي:

جذبة من جذبات الحق عمل الثقلين.

هذا معناه، لأنّ من جذبة من جذباته يمكن أن يحصل المقصود على ما هو عليه ويمكن أن في أعمال الثقلين لا يحصل هذا فيكون هو خير منها، وذلك فضل الله يؤتيه

من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقد عرفت أقسام الجذبات قبل هذا وبيان الكشف والوحي والإلهام وغير ذلك فما نحتاج إلى العود.

وأمّا تأويل باقي الآيات المتعلّقة بهذا البحث وهو قوله:

﴿في بيوتٍ أذن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه إلى قوله: بغير حساب﴾ [سورة النور: ٣٦ ـ ٣٨].

وان بسطنا البحث فيه في جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ورسالة الوجود، وغير ذلك لكن لابد ههنا من بعض ذلك ليرتبط الكلام بعضه بالبعض، فنقول: قوله:

﴿في بيوت أذن الله ان ترفع ....﴾ [سورة النور: ٣٦].

مربوط بقوله: ﴿كمشكوٰة﴾، وتقديره كمشكاة في بعض بيوت الله الّتي هي المساجد الصّوريّة، أو بتوقد، وتقديره أي كمصباح يوقد من شجرة زيتونة لتعليقه في بعض بيوت الله المذكورة، هذا بحسب الظّاهر. وأمّا بحسب الباطن فمعناه: أنّ مثل نور الله تعالىٰ في مشكاة المظاهر الآفاقي الّتي هي الأجسام والجسمانيّات مطلقاً مع زجاجتها الّتي هي الأرواح والرّوحانيّات مع مصباحها الّذي هو العقول والمجرّدات بأجمعها كمشكاة في بيوت الله الصوريّة الّتي وضعها لأجل ذكرها وتسبيحه فيها.

وقوله:

﴿بالغدّو والآصال﴾ [سورة النور: ٣٦].

يكون متعلّقاً «بيسبّح له»، أي كما يسبح له بالغدّو والآصال في المساجد الصوريّة كالمكّة والمدينة، فكذلك يسبح له بالغدّو الآصال في المساجد المعنويّة الّتي هي العالم بأسره، لقوله:

﴿وإن من شيء إلّا يُسبّح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم﴾ [سورة الإسراء: ٤٤].

والغدّ والآصال يكون ههنا بمعنى الظاهر والباطن أو الغيب والشهادة، أو يكون تقديره:

أن العالم وما اشتمل عليه من الطّبقات علواً وسلفاً وهو كالبيوت الموضوعة لذكر الله وتسبيحه فيها، لأنّ العالم (كمال) (...) الكلّ في الوضع الإلهي وله طبقات من السّماوات والأرض وما بينهما من العناصر والمواليد ويكون فيها الكواكب كالمشكاة والمصباح والزّجاجة، أو يكون عالم (...) (الوحي) وعالم الأرواح (........).

ويكون بدنه وحواسّه كالمشكاة، وقلبه كالزّجاجة وروحه (ودمه) كالمصباح وباقي القوىٰ والأعضاء كالعباد في هذه الشجرة يسبحونه ويذكرونه بالغدّو والآصال أي في الظّاهر والباطن، أو في عالم الكثرة والوحدة، وقد بيّنا ذلك أيضاً.

وأمّا قوله:

﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ [سورة النور: ٣٧].

فهو متعلّق ببيوت أذن الله، وتقديره، مثل هؤلاء رجال وأيّ رجال لاتغفلهم الدنيا وما فيها من متاعها عن ذكر الله أي عن التّوجّه إلى حضرته والإشتغال بعبادته لأنّهم من مخلصي عباده ومعظمي رجال لقوله:

﴿إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدّار * وإنّهم عندنا لمن المصطفَين الأخيار﴾ [سورة ص: ٤٦ ـ ٤٧].

ولقوله:

﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله وقوله عقيب ذلك: وإقام الصّلوٰة وإيتاء الزّكوٰة يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار﴾ [سورة النور: ٣٧].

وهو صفة لهؤلاء الرّجال، وتقديره، رجال وأيّ رجال الّذين يقيمون الصلاة الحقيقيّة الّتي هي التّوجّه الكلّي إليه لقوله:

﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾ [سورة المزّمل: ٨].

والإعراض عن رؤية الغير مطلقاً لقوله:

﴿فلا تدعوا مع الله احداً﴾ [سورة الجن: ١٨].

﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ [سورة الإسراء: ٣٩].

ومن الّذين يؤتون الزّكوة الحقيقيّة الّتي هي إعطاء حقّ كلّ ذي حق آفاقاً كان أو

أنفساً بالإرسال والهداية والإعطاء والمنع بحكم الخلافة الإلهيّة والرّياسة الإنسيّة يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار، معناه أي يخافون من الرّجوع إليه تعالىٰ في يوم يعرض عليه الأعمال كلّها ويصير الظّاهر باطناً والباطن ظاهراً وتشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم والحقّ أنّه موضع الخوف.

(الفرق بين الخوف والخشية)

وإن قلت: الخوف مسلوب عن الأولياء فكيف أثبت لهم الخوف.

قلنا: الخوف الثابت للأولياء هو الخوف الخاصّ الّذي هو الخشية لقوله:

﴿إنّما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [سورة فاطر: ٢٨].

وأمّا الخوف العام الّذي للعوام فذلك مسلوب عنهم بالاتفاق لقوله:

﴿ألا إنّ أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [سورة يونس: ٦٢].

وأمّا قوله:

﴿ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [سورة النور: ٣٨].

فذلك إشارة إلى ثمرة هذه العبادة من الصلاة والزكاة والتوجّه والخشية وأمثال ذلك وذلك فضل الله ولطفه وهو يعمل ذلك مع انّه أراد بغير حساب معه ولا حصر ولا حساب لقوله:

﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ [سورة ص: ٣٩].

(في تطبيق الآفاق بالأنفس على سبيل التفصيل)

وهٰهنا أبحاث ستعرفها في موضعها إنشاء الله، وحيث عرفت هذا بقدر هذا المقام فلنشرع في تطبيق الآفاق بالأنفس على سبيل التفصيل بحسب هذه الآيات والأقوال المترتبة عليها أعني تطبيق هذا المجمل بالأنفس على سبيل التفصيل وما يتعلّق به من الأبحاث.

إعلم، ان في تطبيق العالم الكبير بالعالم الصغير كما أنّ المشكاة جسم الإنسان الكبير الّذي هو عبارة عن الجسم الكلّي والجسمانيّات أو العلويات والسفليّات مطلقاً والزّجاجة عن قلبه الحقيقيّ الّذي هو النّفس الكلّيّة وعالم الرّوحانيّات كلّها، والمصباح عن روحه الكلّي الّذي هو الرّوح الأعظم وعالم العقول والمجردات كلّها، والشجرة عن مجموع ذلك أو عن الوجود المطلق كما سبق بيانه، فجسد الإنسان الصغير وحواسّه بإزاء المشكاة، وقلبه بإزاء الزّجاجة، وروحه بإزاء المصباح، والمجموع من حيث المجموع بإزاء الشجرة لأنّ الشجرة في الحقيقة هي إسم للهيئة الجامعيّة من المجموع، فإنّ كلّ عضو من أعضاء الإنسان وكلّ قوى من قوائه بإزائه غصن من أغصانه الشجرة الآفاقيّة وأوراقها المذكورة، ومن هذا التطبيق يفهم معنى قوله تعالى:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ﴾ [سورة فصّلت: ٥٣].

لأنّ موسى عليه السّلام ما سمع قول: إنّي أنا الله، إلّا من شجرة وجوده لأنّ شجرة وجود الإنسان أعظم من شجرة وجود الأكوان ومن هذا قال العارف:

سبحان ما أعظم شأني.

وقال الآخر:

أنا الحقّ.

وغير ذلك من الأقوال، وههنا أسرار وحقايق ستعرفها في موضعها إن شاء الله وإن سبقت أكثرها، وبالنسبة إلى هذا التطبيق قال بعض العارفين مايقارب هذا المعنى وهو قوله نظماً:

نظرت بنور الله أوّل نظرة
فغبت عن الأكوان وارتفع اللبس
وما زال قلبي لائذاً بجمالكم
وحضرتكم حتّى فنت فيكم النّفس

زيـــتونة الفكـــر الصـــحيح أُصـــولها
مـــباركة أوراقـــها الصـــدق والقـــدس
فـــروحي زيـــتي والخـــيال زجـاجتي
وعـــقلي مـصباحي ومشكـاته الحسّي
فصار بكـم ليـــلي نهـــاراً وظـــلمتي
ضياءً ولاحت من (في) خيامكم الشّمس

رزقنا الله وإيّاكم الوصول إلى هذا المقام لمحمّد وآله الكرام.

وإذا عرفت هذا، فاعلم، أنّ لهذا البحث وإن طال، تذنيب وتتميم لابدّ منها وهما بحث الشجرة وتحقيقها وعلة نسبتها تارةً إلى الوجود المطلق، وتارةً إلى العالَم، وتارةً إلى الإنسان وأمثال ذلك.

فنقول: يجب عليك أن تعرف أنّ الشجرة الّتي قال تعالىٰ من لسان إبليس:

هل أدلّك على شجرة الخلد، وملك لا يبلىٰ هي هذه الشجرة، أي شجرة الوجود مع أغصانها وأوراقها الّتي هي الموجودات والمخلوقات كما سبق ذكرها لأنّ كلّ من حصل له مشاهدة هذه الشجرة على الوجه المذكور فقد حصل له ملك لايمكن أن يبلى ولا يفنى ولا يتغير ولا يتبدّل وبل ملكٍ لا يمكن أن يكون أعظم منه ولا أوسع كما أشار إليه الحقّ تعالىٰ في قوله:

﴿وإذا رأيت ثَمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾ [سورة الإنسان: ٢٠].

وهذه المشاهدة في هذا الملك العظيم هي مشاهدة الخـواصّ والمـقربين السـابقين لقوله: وقال فيهم:

﴿السابقون السابقون أولئك المقربون﴾ [سورة الواقعة: ١٠].

ويعبّر عنها بجنة الذّات أيضاً وإليه الإشارة بقوله:

﴿إنّ المتّـقين في جنّات ونهـر * في مقعـد صدقٍ عند مليك مقتـدر﴾ [سـورة القمر: ٥٥].

وأيّ نعيم وجنّة يكون أعظم من مشاهدته ولقائه في مظاهره الآفاقيّة والأنفسيّة ويؤكّد ذلك قوله أيضاً:

﴿وجنّة عرضها السّموات والأرض أعدت للمتّقين﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣].

لأنّ الجنّة الحقيقيّة ونعيمها ليست إلاّ مشاهدته ولقاؤه على الوجه المذكور لأنّ في أكثر المواضع القرآنيّة إذا أخبر الله تعالى بالسّماوات والأرض ما أراد بهما إلّا العالم المشتمل على الرّوحانيات والجسمانيّات أو العلويّات والسفليّات مطلقاً، ولهذا أخبر عن عرضها لا عن طولها، لأنّ الوجود دوري والسّماوات والأرض كريّ كما بيّناه في الدائرة فلا يناسب الأخبار عنها إلّا بالعرض لأنّ الطول غير متصوّر فيه فافهم.

وعند التحقيق الجنّة المعنويّة لا طول لها ولا عرض، والغرض من أمثال ذلك التنبيه والتعليم في صورة المثال:

﴿وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلّا العالمون﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣].

وعن هذه الجنّة أخبر النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم:

انّ لله تعالى جنّة ليس فيها حور ولا قصور ولا عسل ولا لبن بل يتجلّى ربّنا فيها ضاحكاً متبسّماً.

لأنّ هذه كلّها إشارة إلى الجنّة المعنويّة دون الصّوريّة، والضّحك والتبسّم إشارة إلى الكشف اللثام والمشاهدة العينيّة في ملابس التعيّنات ومظاهر التّشخصات مرتدياً برداء الكبرياء والعظمة ومتلبّساً بلباس الجلال والعزّة والمشار إليه في قوله:

الكبرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني فيهما كسرته (٣٤٧).

وإلى هذا الكشف الصريح أشار النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أيضاً في قوله:

---

(٣٤٧) قوله: الكبرياء ردائي.

في تفسير المنسوب إلى الإمام أبي محمّد العسكري (ع) في سورة محمّد ذيل قوله تعالى: ﴿الرّحمٰن الرّحيم﴾، ص ٣٦:

يا موسى إنّ «الفخر ردائي والكبرياء إزاري، من نازعني في شيء منها عذّبته بناري».

وأيضاً رواه الراغب الأصفهاني في المفردات في (كبر) وقال: روي عنه (ص) يقول: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قَصَمتُهُ».

وراجع أيضاً الجزء الأوّل تعليقتنا ٦٩، ص ٣٠٩.

ستروں ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر (٣٤٨).

ومعناه أي سترون ربّكم في مظاهره الآفاقيّة والأنفسيّة كما ترون القمر ليلة البدر، وهذا إشارة إلى كمال اليقين، لأن مشاهدة البدر مشاهدة لاريب فيه ولا شكّ، وكلّ مشاهدة يكون كذلك يكون في كمال اليقين ووضوح المعلوم لقوله عليه السّلام:

محو الموهوم مع صحو المعلوم (٣٤٩).

---

(٣٤٨) قوله: سترون ربّكم.

أخرجه البخاري في الصحيح كتاب مواقيت الصّلاة باب فضل صلاة العصر (٣٦٨) الحديث ٥٢١، ص ٢٨٩، ج ١، وفي كتاب التوحيد باب ١٢١٨ في قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة﴾ الحديث ٢٢٣٥، ج ٩، ص ٧٩٦.

وأيضاً أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، الحديث ٢١١، ج ١، ص ٤٣٩. وابن ماجة، باب فيما أنكرت الجهميّة، الحديث ١٧٧، ج ١، ص ٦٣. وابن حنبل في مسنده ج ٤، ص ٣٦٠، وص ٣٦٥.

ورواه أيضاً المجلسي في بحار الأنوار ج ٣٧، ص ٢٣٠، و ج ٩٤، ص ٢٥١.

(٣٤٩) قوله: محو الموهوم مع صحو المعلوم.

فقرة من حديث معروف رُوي عن أمير المؤمنين عليّ (ع) في بيان (الحقيقة) في جواب كميل حين ما سأله عنها.

ذكره المؤلف السيّد في كتابه جامع الأسرار ومنبع الأنوار ص ٢٨، وص ١٧٠، وشرحه وعبّر عنه بأنّه حديث مشهور، وقال: أنّه مرويّ عن كميل أنّه سأل أمير المؤمنين عليّاً (ع) عن «الحقيقة» بقوله: ما الحقيقة؟ فقال: «مالك والحقيقة»؟ قال: أو لست صاحب سرّك؟ قال: «بلى ولكن يرشح عليك مايطفح منّي»، قال: أو مثلك يخيّب سائلاً. قال: «الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة» قال: زدني فيه بياناً. قال: «محو الموهوم مع صحو المعلوم» قال: زدني فيه بياناً. قال: «هتك الستر لغلبة لسرّ» قال زدني فيه قال: «جذب الأحديّة بصفة التوحيد» قال: زدني فيه بياناً. قال:

«نور يشرق من صبح الأزل فتلوح على هياكل التوحيد آثاره» قال: زدني فيه بياناً. قال: «اطفِ السراج فقد طلع الصبح».

وذكره أيضاً عبدالرّزاق الكاشاني (القاساني) في «شرح منازل السائرين» آخر باب

←

ولقوله:

«لو كشفت الغطاء ما ازددت يقيناً» (٣٥٠).

وإلى هذه المشاهدة أشار أيضاً عليه السّلام في خطبة من خطبه في صفة العارف الواصل إلى هذا المقام وهو قوله:

قد أبصر طريقه، وسلك سبيله، وعَرَف مَناره، وقطع غِماره، واستمسك مِن العُرى بأوثَقها، ومِنَ الجبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوءِ الشّمس (٣٥١).

وإليها أشار أيضاً في قوله:

الحمد لله الّذي انحسرتِ الأوصاف عن كنه معرفته، وَرَدعَت عظمتُه العُقول، فلم تَجِد مَساغاً إلى بلوغ غاية ملكوتِه، هو الله الحقّ المبين، أحَقّ وأبين ممّا ترى العيون (٣٥٢).

وهذه المبالغة في هذه المشاهدة لعلمه التّامّ بمشاهدة الحواسّ وبأنّها في معرض

← التوحيد في بيان: (الفرق بعد الجمع) وبه ختم كتابه، قال: «ألا ترى أنّ مقدّم القوم والباب الأعظم لمدينة هذا العلم وساقيهم من مشر الكوثر الّذي خصّ به نبيّنا محمّد (ص)، عليّ ابن أبي طالب كرّم الله وجهه، كيف ابتدأ في الإشارة إلى عين الحقيقة بقوله: «كشف سبحات الجلال من غير إشارة» وهو محض تنزيه الذات عن التعدّد الأسمائي، وأكّده بقوله: «صحو المعلوم مع محو الموهوم» إشارة منه إلى فناء الرسوم كلّها في أحديّتها، وصرّح بذلك في قوله: «جذ الأحديّة لصفة التوحيد» ثمّ ختم بقوله: «نور يشرق من صبح الأزل، فيلوح على هياكل التوحيد آثاره» لبيان الفرق في عين الجمع، وهو بعينه معنى أحديّه الفرق والجمع.

(٣٥٠) قوله: لو كشفت الغطاء.

راجع تعليقتنا الرقم: ٢١٨ و ٣٢٧.

(٣٥١) قوله: قد أبصر طريقه.

نهج البلاغة الخطبة ٨٧.

(٣٥٢) قوله: الحمد لله الّذي انحسرت.

نهج البلاغة، الخطبة ١٥٥.

الغلط والشكّ سيّما العيون فإنّها في إدراكاتها ومرئيّاتها غير متيقّنة، لأنّ الشّمس مثلاً في جرمها ومقدارها زيادة على جرم الأرض ومقدارها بمرار متعددة وهي تشاهدها بمقدار القرص ولا يشعر بنفسها أنّها ليس كذلك، ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير﴾. [سورة الأنعام: ١٠٣].

ووالله لو كتب قوله عليه السّلام:

«هو الله الحقّ المبين أحقّ وأبين ممّا ترى العيون».

بماء الذهب على وجه النفوس والعقول وجعل عوذه لدفع عين شجرة الجهل ومردة الكفر لكان قليلاً، وبالجملة الجنّة الحقيقيّة المعنويّة ليست عند التحقيق إلّا مشاهدة الحقّ بعين البصيرة في صورة هذه الشجرة المسمأة بالوجود، كما قال جلّ ذكره بعد قوله:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن أنّه الحقّ أوَ لم يكف بربّك أنّه علىٰ كلّ شيءٍ شهيد * ألا إنّهم في مرية من لقاء ربّهم ألا إنّه بكلّ شيءٍ محيط﴾ [سورة فصّلت: ٥٣ ـ ٥٤].

لأنّ هذه المشاهدة لو كانت قابلة بأن يكون فوقها مشاهدة أخرىٰ لم يقل بنفسه: ﴿أوَ لَمْ يكف بربّك إنّه علىٰ كلّ شيء شهيد﴾، ولم يؤكّد هذا لقوله: ﴿ألا إنّهم في مرية من لقاء ربّهم ألا إنّه بكلّ شيءٍ محيط﴾، لأنّه يقول: ﴿ألا إنّهم في مرية من لقاء ربّهم﴾ مع هذه المشاهدة الجليّة الّتي ليست فوقها مشاهدة، ﴿ألا إنّه بكلّ شيءٍ محيط﴾ أي ليس هو المحيط بكلّ شيء والمحيط بكلّ شيء كيف يمكن (كمل) مشاهدته إلّا في كلّ شيء، لأنّ الكلّ من حيث الكلّ لا يشاهد إلّا في الكلّ.

فالكلّ بالكلّ مربوط وليس له   عنه انفصال خذوا ما قلته عنّي

وفي مثل هذه المشاهدة قال العارف:

ليس وراء عبادان قرية.

وقال الشيخ الأعظم قدّس الله سرّه (٣٥٣):

«وإذا ذُقت هذا فق ذُقت الغاية الّتي ليس فوقها غاية في حقّ الملخلوق فلا تطمع ولا تتعب نفسك في الّتي ترق أعلى من هذا الدرج فما هو ثمّة أصلاً وما بعده إلّا العدم المحض».

وقد سبق هذا الكلام وهذا البحث مرّة أخرىٰ وبل مراراً. وليس الغرض هٰهنا هذا البحث بل بحث الشجرة والوجود والمناسبة الّتي بينهما فنرجع ونقول:

(في بيان المراد من شجرة طوبىٰ)

إعلم، أنّ شجرة طوبى الّتي وعد في الجنّة إن حقق وعرف لايكون إلّا هذا الشجرة لأنّ تلك الشجرة موصوفة بأنّ لها أغصان كثيرة بحيث يكون في كلّ بيت من بيوت الجنّة منها غصن وهذه الشّجرة كذلك لأنّ كلّ موجود مقيّد لابدّ له من إضافته إلى المطلق وعلاقته به فتلك الإضافة والعلاقة هي الأغصان. والوجود هو الأصل، والكمالات المترتبة على الوجود كالأوراق والأزهار وتوابعها ولوازمها، ومثال هذه في عالم الشهادة مثال الشمس وأنوارها المشرقة بالنّسبة إلى بيوت العالم ومساكنها والمختلفة فإنّ في كلّ بيت من البيوت غص من أغصان أنوارها وشعاعها كما يشاهدها كلّ شخص بعينه الحسّية البصريّة. ﴿ولله المثل الأعلىٰ في السّموات والأرض﴾، وإن شئت جعلت الشجرة مجموع الإنسان وأصل الشجرة قلب الإنسان الّذي منه يتكوّن بدن الإنسان في أصل الخلقة وينشأ منه أغصان الأعضاء وأوراق القوىٰ ويتكمّل على هذا الوضع ويتّصف بأحسن الصّورة وأكمل الخليقة لقوله تعالى:

﴿وصوّركم فأحسنَ صوركم﴾ [سورة غافر: ٦٤].

﴿فتبارك اللهُ أحسن الخالقين﴾ [سورة المؤمنون: ١٤].

---

(٣٥٣) قوله: وقال الشيخ الأعظم.

فصوص الحكم شرح القيصري، الفص الشيثي، ص ١٠٧.

لأنّك اذا شاهدت شجرة وجودك على هذه الصورة وطابقها بشجرة العالم على الوجه المذكور حصل لك مشاهدة الحقّ في هذا المطابقة الأنفسيّة، كما حصل لك مشاهدة في المطابقة الآفاقيّة المتقدّم ذكرها، وعرفت معنى قوله عليه السّلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» وخصصت بالنعيم المعنويّة وفواكها ولذّاتها وحورها وقصورها، وأيّ نعيم يكون أعظم من مشاهدة الحقّ بعين البصيرة في صورة الشجرة الإنسانيّة الّتي هي أعظم الصور وأكملها وأحسن النعيم وأشرفها وحيث إنّ مشاهدة الحقّ في الصورة الإنسانيّة كان أعظم المشاهدات وأشرف المعارف قال تعالى لنبيّه في حديثه القدسي تعليماً له وتنبيهاً لغيره:

لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن (٣٥٤).

وقال النّبي عليه السّلام تصديقاً لهذا القول:

---

(٣٥٤) قوله: لا يسعني أرضي.

راجع تعليقتنا الرقم ٣٨، في الجزء الأوّل، ص ٢٥٦.

ورواه المجلسي في بحار الأنوار ج ٥٨، ص ٣٩، ورواه الغزالي في إحياء العلوم ج ٣، ص ١٥، قال: وفي الخبر لم يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع، وروى العراقي في ذيله عن النّبي (ص): «انّ لله آنية من أهل الأرض، وآنية ربّكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها.

وروى ابن أبي جمهور الأحسائي في عوالي اللئالي ج ١، ص ٢٤٩، الحديث ٦، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (ص):

«ناجي داود ربّه فقال: إلهي لكلّ ملك خزانة فأين خزانتك؟

قال جلّ جلاله: «لي خزانة أعظم من العرش، وأوسع من الكرسي، وأطيب من الجنّة، وأزين من الملكوت، أرضها المعرفة، وسماؤها الإيمان، وشمسها الشوق، وقمرها المحبّة، ونجومها الخواطر، وسحابها العقل، ومطرها الرحمة، وأشجارها الطاعة، وثمرها الحكمة، ولها أربعة أبواب: العلم والحلم والصبر والرضا، ألا وهي القلب».

رواه أيضاً السيّد المؤلّف في جامع الأسرار ص ٥١٤.

وروى الغزالي في احياء العلوم ج ٣، ص ١٥، عن ابن عمر قال: قيل لرسول الله: يا رسول الله أين الله في الأرض أو في السّماء؟ قال: «في قلوب عباده المؤمنين».

قلب المؤمن عرش الله. وقلب المؤمن بيت الله (٣٥٥).

وقلب المؤمن بين الأصبعين من أصابع الرّحمٰن (٣٥٦).

وقد يقال حين حصل له هذه المشاهدة:

﴿ماكذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه علىٰ ما يرىٰ﴾ [سورة النجم: ١١ و١٢].

ويكفي في هذا ما بيّناه في بيان قوله:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ﴾ [سورة فصّلت: ٥٣].

وعند التحقيق ليست الشجرة الّتي خاطب الله تعالى بها موسى عليه السّلام بقوله:

﴿فلمّا أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشّجرة أن ياموسىٰ إنّي أنا الله ربّ العالمين﴾ [سورة القصص: ٣٠].

إلّا شجرة نفسه المعبرة عنها بالشجرة الإنسانيّة لا شجرة السدر والنخل والزّيتون وغير ذلك لأنّه تعالى أعظم وأجلّ من أن يشاهد ويرى في شجرة من شجرة الدّنيا النّباتيّة المقيّدة في محلّ أو حيّز أو مقيّدة بصفة من صفاته بخلاف الشجرة الإنسانيّة الّتي هي متصفة بجميع الأسماء والصفات لقوله:

---

(٣٥٥) قوله: قلب المؤمن عرش الله.

رواه صدر المتألّهين في تفسير سورة السجدة الآية ٤، ص ٤٠، وفي حديث آخر ذكره المجلسي في البحار ج ٥٨، ص ٣٩:

قلب المؤمن عرش الرّحمن.

وروى مؤلّف جامع الأخبار الحديث (١٤٦٨ / ٨٠) عن الإمام الصادق (ع): القلب حرم الله، فلا تسكن حرم الله غير الله.

(٣٥٦) قوله: وقلب المؤمن بين الأصبعين.

رواه المجلسي في البحار ج ٧٠، ص ٣٩، وأخرجه ابن ماجة مع تفاوت يسير في المقدّمة، الحديث ١٩٩، ص ٧٢، ج ١. ومسلم أيضاً في صحيحه كتاب القدر باب ٣، الحديث ١٧، ج ٤، ص ٢٠٤٥. وابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ١٦٨، وص ١٧٣. والحاكم في المستدرك ج ١، كتاب الدعاء ص ٥٢٥، و ج ٤، كتاب الرقاق ص ٣٢١.

﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها﴾ [سورة البقرة: ٣١].

ولقول نبيّه عليه السّلام:

خلق الله تعالى آدم على صورته (٣٥٧).

ومعلوم أنّ المشاهدة في صورة جامعة كاملة يكون كالمرآة لصورة المحبوب خير من مشاهدته في صورة مقيّدة غير جامعة ولا كاملة لقول العارف (٣٥٨):

«لما شاء الحقّ سبحانه من حيث أسمائه الحسنى الّتي لايبلغُها الإحصاء، أن يرى أعيانَها (وإن شئت قلت أن يرىٰ عينَه) في كونٍ جامع يصيرُ الأمر (كلّه) لكونه متّصفاً بالوجود، ويظهرُ به سرّه إليه، فإنّ رؤية الشيء نفسَه بنفسه ماهي مثل رؤيته بنفسَه في أمرٍ آخر يكون له كالمرآة فإنّه تظهر له نفسُه في صورة تعطيها المحلّ المنظور فيه ممّا لم يكن يظهر (له) في غير وجود هذا المحلّ ولا تجلّيه له».

والعجب كلّ العجب أنّ أهل الظاهر يجوّزون تكليم الله تعالىٰ من الشجرة النباتيّة ولا يجوّزونه من الشجرة الإنسانيّة الّتي هي أولى بذلك لقوله:

﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ [سورة ق: ١٦].

ولقوله:

﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [سورة الذاريات: ٢١].

ولقوله:

﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ [سورة الحديد: ٤].

ولقوله في الحديث القدسي:

---

(٣٥٧) قوله: خلق الله تعالى.

قد مرّت الإشارة إليه في تعليقتنا الرقم ١٨٦.

(٣٥٨) قوله: لقول العارف.

قائله هو محيي الدّين ابن عربي في فصوص الحكم في شروعه في الفصّ الآدمي شرح القيصري ص ٦١، والعفيفي ص ١٨.

كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله (٣٥٩).

﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ [سورة النجم: ٣٠].

﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾.

والعجب من هذا كلّه أنّهم مع جهلهم بمثل هذه الأسرار يحكمون بكفر غيرهم من حيث أنّه مطلع عليها كالكفار بالنّسبة إلى الأنبياء والرّسل حيث كانوا يسمّونهم بالسّحرة والمجانين والشاعر والكاهن وغير ذلك ونظراً إلى هذا المعنى قال الإمام المعصوم زين العابدين عليه السّلام في أبيات منسوبة إليه وهي هذه:

إنّي لأكتم من علمي جواهره
كيلا يرى الحقّ ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدمها فينا أبو الحسن
مع الحسين ووصّي قبلها الحسنا
يارُبَّ جوهر علم لو أبوح به
لقيل لي: أنت ممّن يعبد الوثنا
ولا يستحلّ رجال مسلمون دمي
يرون أقبح ما يأتونه حسنا (٣٦٠)

---

(٣٥٩) قوله: كنت سمعه وبصره.
راجع تعليقتنا الرقم ٨٥، ص ٣٤٥ في الجزء الأوّل.

(٣٦٠) قوله: إنّي لأكتم من علمي.
الأبيات منسوبة إلى مولانا علي بن الحسين زين العابدين عليهما السّلام.
ذكرها الشيخ الأكبر في كتابه التدبيرات الإلهيّة ص ١١٣، وأيضاً في الفتوحات ج ١، ص ٣٢، وذكرها أيضاً السيّد الجليل المؤلف السيّد حيدر الآملي في جامع الأسرار ص ٣٥، والآلوسي في تفسيره (روح المعاني) ج ٦، ص ١٩٠ في تفسير الآية:
﴿يا أيّها الرّسول بلّغ ما أنزل إليك﴾ [سورة المائدة: ٦٧].
والجدير بالذكر أنّ البيت الثاني في جامع الأسرار هكذا:

←

في بيان المراد من الشجرة الّتي أكل منها آدم (ع)

وان حقّق عرف أيضاً أنّ الشجرة الّتي أكل منها آدم عليه السّلام كان هي هذه الشجرة، لا شجرة الحنطة ولا غيرها والجنّة الّتي كانت فيها أيضاً كانت جنة المشاهدة والمكاشفة المعبّرة عنها بالجنّة المعنويّة، فأكل الحنطة في هذه الصورة عبارة عن تعلّقه بعالم الكثرة، وعمارة شجرة الوجود من حيث الظاهر وخروجه عن الجنّة توجّهه من العالم العلوي إلى العالم السفلي أعني من مشاهدة الروح ولذّة الوصال إلى مشاهدة الحسّ وألم الفراق لأنّه إذا توجّه من عالم الوحدة إلى عالم الكثرة ونزل عن مشاهدة الرّوح إلى مشاهدة الحسّ ورضي بها خرج عن الجنّة المعنويّة الحقيقيّة ولذّاتها واستحقّ أن يوصف بالظلم على نفسه لقوله تعالى:

﴿ولا تقربا هذه الشّجرة فتكونا من الظّالمين﴾ [سورة البقرة: ٣٥].

لأنّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وهذا كان كذلك فيصدق عليه أنه ظالم أعني ظالم لنفسه لإرتكابه الفعل الّذي لاينبغي والظلم على النفس أقبح الظلم وأفحشها وهذا عند أهل البيت عليهم السّلام وأكثر المحقّقين من أهل الله لايجوز بالنسبة إلى آدم الّذي هو أبونا وأبو النّوح عليه السّلام لأنّه النبيّ المعصوم والمعصوم لايخالف الله في شيء سيّما في الجنّة ودار الآخرة، والمراد به يكون نوع الإنساني لاشخص من أشخاصه وضمير المفرد راجع إليه أي إلى النوع، وهذا جايز حسن في البلاغة لقوله تعالى في هذه القصّة بعينها:

﴿ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس لم يكن من السّاجدين﴾ [سورة الأعراف: ١١].

فانّه دال على ذلك لأنّه ذكر الجمع وإفراد الضمير لأنّ المراد به كان النوع لا

← وقد تقدّمنا فيها أبو حسن مع الحسين ووصيّ قبلها الحسنا

وفي التدبيرات الإلهيّة وروح المعاني كما يلي:

وقد تقدّم في هذا أبو حسن إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا.

الأشخاص الّتي تحت النوع وإن كان في المعنى يرجع الضمير إلى كلّ واحد من الأشخاص وضمير التثنيه في قوله:

ولا تقربا.

يكون إلى الذّكور والأناث من النوع في الآفاق وفي الأنفس أي القلب والنّفس وكلاهما حسن جايز.

وإن قلت: إنّ التوجّه إلى عمارة البدن والتعلّق بالدّنيا ليس مذموماً مطلقاً وبل في بعض الصورة واجب.

قلنا: إنّ ذلك بالنسبة إلى النّبي المعصوم لايجوز فإنّه يؤدّي إلى الميل إلى الدّنيا ولذّاتها وإيثار العاجل على الآجل وهذا عين المعصية لقوله عليه السّلام:

«حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة»(٣٦١)

فأمّا بالنّسبة إلى غيره فيجوز ذلك ولكن على حدّ الإعتدال ومع ذلك يكون خارجاً عن الجنّة المعنويّة بقدرها والله أعلم وأحكم.

والغرض من هذا البحث أن أكل الشجرة في الجنّة المعنويّة، فهو بالنسبة إلى كلّ واحد، واحد من أولاد آدم، لا آدم عليه السّلام، وذلك بالتفاتهم عن العالم العِلوي ولذاته إلى العالم السفلي، ولذاته وتنزّلهم من مشاهدة عالم الغيب إلى مشاهدة عالم الحسّ، ومن تدبير المعاد إلى تدبير المعاش وقوله تعالىٰ أيضاً:

﴿ولقد عهدنا إلىٰ آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾ [سورة طه: ١١٥].

---

(٣٦١) قوله: حبّ الدّنيا.

راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول ج ٤، ص ٥٠٦، الحديث ٢٢٠٣، و ج ١١، ص ١٦، الحديث ٨٤٨٠، وكنز العمال ج ٣، ص ١٩٢، الحديث ٦١١٤، واحياء العلوم ج ٣، ص ٢٠٢، كتاب ذمّ الدنيا، باب بيان ذمّ الدنيا.

رواه أيضاً ابن أبي جمهور بإسناده عن النبيّ (ص) في عوالي اللئالي ج ١، ص ٢٧، الحديث ٩، ورواه الكليني بإسناده عن الإمام الصادق وعن الإمام زين العابدين (ع). أصول الكافي ج ٢، باب حبّ الدّنيا الحديث ١ و ٨ ص ٣١٧، و ٣١٥.

العزم على الرجوع إلى المبدأ وغير ذلك، وسيجيء بحث آدم عليه السّلام وأولاده، وبحث الجنّة الصوريّة والمعنويّة في موضعه أكثر من ذلك إنشاء الله، فإن فيه اختلافات كثيرة ليس هذا موضعها، لأنّ النّاس بعضهم ذهبوا إلى أنّ هذه الجنّة ليست الجنّة الموعودة في الآخرة بل هي جنّة من جنّات الدّنيا، وبعضهم إلى أنّ هذه الجنّة كانت الجنّة الأخرويّة وهي الآن موجودة، وبعضهم إلى أنّها لو كانت الجنّة الأخرويّة لم يمكن إخراج أحد منها خصوصاً النبيّ المعصوم لأنّ الإخراج من الجنّة الأخرويّة بعد الوصول فيها مستحيل بالإتّفاق وسيّما شهد القرآن بالخلود فيها، والحقّ من هذا كلّه أنّ الجنّة المذكورة هي الجنّة المعنويّة وخروجها منها كان كما قلنا بالتفاته إلى شجرة الوجود الحسّيّة ولذّاتها وشهواتها الّتي هي عبارة عن التنزّل من العالم العلوي إلى العالم السفلي، وقوله تعالى:

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثمّ رددناه أسفل سافلين﴾ [سورة التين: ٤ ـ ٥].

إشارة إلى هذا أي إلى أنّه خلقه أوّلاً في أحسن الصورة من الصورة الرّوحانيّة وجعل مقامه ومنزله الجنّة المعنويّة الشهوديّة الفطريّة ومعلوم أنّ هذا هو أحسن تقويم وأعدل تعديل لكن صدر منه أفعال رديّة وأحوال غير مرضيّة فرددناه إلى أسفل عالم الطبيعة وأرذل مراتب الشهوات المعبّر عنه بالجحيم وجعلنا غذاؤه ولذّته إشارة إلى النوع الشامل لأولاده الّتي هي الأشخاص فإنّ النّسيان مسلوب عن الأنبياء والرّسل عليهم السّلام بما قام على البراهين العقليّة والدّلايل النّقليّة وذلك العهد هو الّذي قال تعالى:

﴿وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم علىٰ أنفسهم ألستُ بربّكم قالوا بلىٰ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢].

لأن أولاده بأجمعهم ذكوراً كان أو أناثاً اقرّوا بذلك في الأزل وعند ايجاد الأرواح وانكروا في الأبد وعند إيجاد الأجساد إلّا القليل منهم لقوله:

﴿وقليل مِن عبادي الشكور﴾ [سورة السبأ: ١٢].

فضمير النّسيان إليهم لا إلى آدم، وكذلك فُقدان من شجرة الزّقوم من التّنزّل

والحميم، عوض طوبى وتلك الجنّة والنعيم، وحيث بلغ الكلام هذا المبلغ وسمعت ذكر شجرة الزّقوم المقابلة لشجرة طوبى،

(في أنّ الوجود مطلقاً دائر على التقابل من الأسماء الجلاليّة والجماليّة)

اعلم، أنّ الوجود مطلقاً دائر على التقابل من الأسماء الجلاليّة والجماليّة واللطيفة والقهريّة، فالجنّة من الأسماء الجماليّة ومقتضياتها، والجحيم من الأسماء الجلاليّة ومقتضياتها، وكذلك شجرة طوبىٰ وشجرة الزّقوم.

وإذا تقرّر هذا فنقول: قوله تعالىٰ لأهل النّار:

﴿أذلك خير نُزُلاً أم شجرة الزّقّوم * إنّا جعلناها فتنة للظّالمين * إنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم * طلعها كأنّه رؤوس الشّياطين﴾ [سورة الصافات: ٦٢ ـ ٦٥].

في مقابلة قوله تعالى لأهل الجنّة:

﴿طوبىٰ لهم وحسن مئاب﴾ [سورة الرعد: ٢٩].

لأنّها في مقابلتها فكما أنّها يخرج من أصل الجحيم فهذه يخرج من أصل الجنّة، والمراد بالأصل موضع أنباتها ونموّها.

فشجرة طوبى كما أنّها في الآفاق عبارة عن الوجود الحقيقي الكلّي على العموم وعلى الخصوص من النّفس الكلّيّة الإنسانيّة فتلك في الأنفس عبارة النفس الناطقة الجزئيّة على الخصوص وعلى العموم عن بدن كلّ إنسان مؤمن موحّد.

وشجرة الزّقوم كما أنّها في الآفاق عبارة عن شجرة الطبيعة الكلّيّة فتلك في الأنفس عبارة عن النفس الأمّارة الحيوانيّة الطبيعيّة، والأولىٰ هي المعبّرة في الأزل بالشجرة الطيّبة والكلمة الطيّبة، والثانية بالشجرة الملعونة والكلمة الخبيثة وتشبيهها برؤوس الشياطين لقبحها وقبح أغصانها وشعبها وأوراقها، وعلى هذا التقدير يكون أصل الشجرة الطّيبة المعبر عنها بطوى النفس الناطقة الجزئيّة الإنسانيّة وفي الآفاق الوجود الحقيقي وأصلها ثابت وفرعها في السّماء صفتها، وأصل شجرة الملعونة المعبرة عنها بشجرة الزقوم النّفس الأمّارة الحيوانيّة، وفي الآفاق الطبيعة الكلّيّة ووصفها أنّها

شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنّه رؤوس الشياطين.

وصاحب التأويل قدّس الله سرّه أشار إلى هذا المعنى من تأويله وهو قوله (٣٦٢):

إنّها شجرة تخرجَ في أصل الجحيم وهي شجرة النفس الخبيثة المحجوبة النابتة في قعر جهنم الطبيعة المتشعبة أغصانها في دركاتها القبيحة الهائلة ثمراتها من الرذايل والخبائث كأنّها في غاية القبح والتشوّه والخبث والتنفّر (بالتنفّر) «رؤوس الشياطين» إذ أي تنشأ منها الدّواعي المهلكة، والنوازع المردية الباغثة على الأفعال القبيحة، والأعمال السيّئة، فتلك أصول الشيطنة ومبادئ الشرّ والمفسدة فكانت «رؤوس الشياطين فإنّهم لآكلون منها» يستمدّون منها ويتغبذون ويتقوّون بها فإنّ الأشرار غذاؤهم من الشرور، ولا يلتذّون إلّا بها.

وبالجملة المراد بالجنّة المعنويّة لا الصوريّة وبالجحيم الجحيم المعنويّة لا الصّوريّة، وبالشّجرة الآفاقيّة الوجود المطلق العام على الخصوص، وبالشجرة الأنفسيّة مجموع الإنسان من حيث المجموع على العموم، والنفس الناطقة الجزئيّة على الخصوص.

وقد ذكر الغزالي رحمة الله عليه في جواهر القرآن (٣٦٣) فصلاً مفرداً في معنى الجنّة الصوريّة المعنويّة وما يتعلّق بها نذكره ههنا ليتحقق عندك وعند غيرك أنّ قولنا في جميع المواضع مطابق لقول العلماء والمشايخ المتقدّمين منهم والمتأخرين، وهو قوله:

في أنّ للعارفين شهوة وشوق إلى الله ولمعرفة جلاله وهي ليست في غيرهم

«اعلم، أنّه لو خلق فيك شوق إلى الله عزّ وجلّ وشهوة لمعرفة جلاله أصدق

---

(٣٦٢) قوله: وصاحب التأويل قدّس الله سرّه.

راجع التأويلات لمؤلفه عبدالرزاق الكاشاني ج ٢، ص ٣٤٠، المطبوعة باسم «تفسير القرآن الكريم للشيخ الأكبر محيي الدّين» سهواً.

(٣٦٣) قوله: وقد ذكر الغزالي.

ذكره في جواهر القرآن ص ٣٦.

وأقوىٰ من شهوتك (إلى الأكل) للأكل والشرب والنكاح لكنت تؤثر جنّة المعرفة ورياضها وبساتينها على الجنّة الّتي لقضاء (فيها قضاء) الشهوات المحسوسة لأن جنة المعارف هي الجنّة الّتي لا نهاية لأطرافها إذ معرفة جلال الله تعالىٰ وأفعاله لا نهاية لها والجنّة الّتي تعرفها خلقت من أجسام فهي وان اتسعت أكنافها فتناهية إذ ليس في الإمكان خلق جسم بلا نهاية فإنّه محال وإيّاك أن تستبدل الّذي هو أدنى بالّذي هو خير فتكون من جملة البله إن كنت من أهل الجنّة فإنّ أكثر أهل الجنّة البله.

ثمّ اعلم، ان هذه الشهوة خلقت للعارفين وإن لم يخلق لك كما خلق لك شهوة الجاه وإن لم يخلق للصبيان وإنّما للصبيان شهوة اللعب، وأنت تتعجّب من الصّبيان في عكوفهم على لذّة اللّعب وخلوّهم عن لذّة الرّياسة، والعارف يتعجّب منك في عكوفك على لذّة الجاه والرّياسة، فإنّ الدّنيا بحذافيرها عند العارف لهو ولعب، ولما خلقت هذه الشّهوة للعارفين كان إلتذاذهم بالمعرفة بقدر شهوتهم فلا نسبة لتلك اللّذة إلى لذّة الشّهوات الحسّية، فإنّها لذّة لا يعتريها الزّوال ولا يفترّها الملال بل لا يزال يتضاعف ويترادف بزيادة المعرفة والإغراق فيها بخلاف ساير الشهوات إلّا أنّ هذه الشهوات لاتخلق في الإنسان إلّا بعد البلوغ أعني البلوغ إلى حدّ الرّجال ومن لم يخلق فيه فهو إمّا صبيّ بعدُ لم تكمل فطرته لقبول هذه الشهوات أو عنّين أفسد كدورة الدنيا وشهواتها فطرته الأصليّة وشهواتها الحقيقيّة، فالعار فون لمّا رزقوا شهوة المعرفة ولذّة النظر إلى جلال الله تعالى فهم من مطالعتهم جمال (جلال) الحضرة الرّبوبيّة في جنّة عرضها السّماوات والأرض بل أكبر وأعظم وهي جنّة عاليّة قطوفها دانية فإنّ فواكهها صفة ذاتهم وليست بمقطوعة ولا ممنوعة إذ لا مضايقة في المعارف وعلى هذا التقدير لا مضايقة في الجنّة لأنّ جنّة كلّ واحد منهم مخصوصة به وليس للآخر فيها مدخل وليس هناك بخل ولا منع، فالعارفون ينظرون إلى العاكفين في حضيض الشّهوات نظر العقلاء إلى الصبيان عند عكوفهم على لذّات اللّعب، ولذلك تراهم يستوحشون من أكثر الخلق ويؤثرون الخلوة والعزلة فهي أحبّ الأشياء إليهم ويهربون من الجاه والمال فإنّه يشغلهم عن لذّة المناجاة ويعرضون عن الأهل والولد ترفعا (رفعاً) عن الإشتغال بهم عن الله تعالىٰ، وترى النّاس يضحكون منهم ويقولون في حقّ من يرونه منهم أنّه

موسوس مدبر ظهر عليه (عليهم) مبادئ (منادي) الجنون وهم يضحكون على النّاس لقناعتهم بمتاع الدنيا ويقولون أن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون، والعارف المشغول بتهيئة سفينة النجاة لغيره ولنفسه لعلمه بخطر المعاد فيضحك (على أهل الغفلة) ضحك العاقل من (على) الصبيان إذا اشتغلوا باللعب والصولجان، والعجب منك أيّها المسكين المعشوف (المشغول) بجاهك الحقير المنغص ومالك اليسير المشوّش قانعاً به عن النظر إلى جلال الحضرة الربوبيّة وجمالها مع إشراقها وظهورها فإنّها أظهر من أن يطلب وأوضح من أن يفقد ولم يمنع القلوب من الإستهتار (الإستشهاد) بذلك الجمال بعد تزكيتها (تركيبها) عن كدورات شهوات الدنيا إلّا شدّة الإشراق مع ضعف الأخلاق أو غلبة الظهور مع صغر الأبصار فسبحان من اختفى عن بصاير الخلق بنوره واحتجب عنهم بشدّة (لشدّة) ظهوره».

ويكفي في هذا عند العارف المنصف قوله:

﴿هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم﴾ [سورة الحديد: ٣].

لأن هذا يشمل جميع ما سبق في هذا المعنى لأنّه الأوّل في عين الآخر والظاهر في عين الباطن وليس لغيره وجوداً إلّا أوّلاً ولا آخراً ولا ظاهراً ولا باطناً.

والحمد لله الّذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وهو يقول الحق ويهدي السبيل.

هذا آخر المقدّمة الخامسة وآخر بحث آيات الله الآفاقيّة والأنفسيّة والقرآنيّة، وآخر بحث التطبيق الثلاث أعني الآفاق والأنفس والقرآن، وآخر بحث الجنّة الصوريّة والمعنويّة والجحيم الصوريّة والمعنويّة، وآخر بحث الشجرة الآفاقيّة والأنفسيّة، وغير ذلك من الأبحاث الشريفة والنكات الدّقيقة الّتي لاتوجد في كتاب غيره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

﴿إنّ في خلق السّموات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار لآياتٍ لأولي الألباب * الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلىٰ جنوبهم ويتفكّرون في خلق السّموات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

وإذا عرفت قواعد القوم وأصولهم وطريق تفسيرهم وتأويلهم واطلعت على أسرارهم ومعارفهم وتحققت لطايفهم ورموزهم وكشف لك دفاينهم وكنوزهم.

فاعلم أنّ هذا نتايج علم لم يحصل بالكسب والإجتهاد ومقدّمات فنيّ، لم يمكن حصولها من المعلم والأستاذ لايحمل عطاياهم إلّا مطاياهم، ومن لم يفرق لم يعرف.

﴿وما يعلم تأويله إلّا الله والرّاسخون في العلم يقولون آمنّا به كلٌّ مِن عند ربّنا وما يذّكر إلّا أُولُوا الألباب﴾ [سورة آل عمران: ٧].

وحيث فرغنا من هذا فالشّروع في بيان الشريعة والطريقة والحقيقة وأحبّ ليتأكّد هذا المعنى أيضاً بتركته فإنّ الكلّ يرجع الى هذه المراتب الّتي هي مراتب الأقوال والأفعال والأحوال لقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

الشريعة أقوالي والطريقة أفعالي والحقيقة الحديث (٣٦٤).

وهو هذا وبالله التوفيق.

هذا وقد تمّ بحمد الله والمنّة الجزء الثاني من تفسير المحيط الأعظم للسيّد الفقيه العارف السيّد حيدر الآملي رضي الله عنه حسب تجزئتنا، ويليه إن شاء الله الجزء الثالث المشتمل على المقدّمة السّادسة.

---

٣٦٤) قوله: الشريعة أقوالي.

راجع الجزء الأوّل ص ١٩٥، تعليقتنا الرقم ١.